غزوات النبي ﷺ وسراياه

إعداد

دكتور. رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: غزوات النبي (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وسراياه

إعـــــداد: رجب محمود إبراهيم بخيت

رقم الايداع ٢٠١٧/١١٢٨٥

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهـــرة : ٤ ميـــدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ / ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي
لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

* * * * *

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين ، وإمام المتقين ، فخر العرب وعزها ، وعظيم البشرية كلها ، وطبيب القلوب بل دوائها ، وفرح الأرواح بل نعيمها:

كالبدر في شرف والزهر في ترف . . . والبحر في كرم والدهر في همم صلى الله عليه ، وعلى آله الطيبين ، الذين جعل الله مودتهم من الدين ، وحبهم علامة المؤمنين ، وعلى صحابته الذين امتازوا بشرف رؤيته ، وفازوا بفضل صحبته ، وزكَوا بطيب رفقته ، فأحبوه حب الأم وليدها ، وذادوا عنه ذود الأسد عن آجامها ، وافتدوا به الآباء والأمهات ، وفارقوا لأجله البنين والبنات ، واستسهلوا الصعب لنشر دعوته ، واستطابوا الموت في سبيل خدمته ، وآزروه حتى استغلظ فاستوى على سوقه ، فمات وهو عنهم راض ، وساروا على دربه بلا صدود أو إعراض ، صلاة دائمة متصلة إلى يوم الدين .

واستفتح بالذي هو خير: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وبعد،

فإن الله سبحانه وتعالى جعل محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاهداً على الناس أجمعين، وجعل سلوكه أعظم سلوك، وتصرفاته أهدى تصرف، فكانت بذلك قدوة ومثلاً يحتذى، وميزاناً صادقاً للبشرية في أعمالها وتصرفاتها، وقد كان هذا الهدي واضحاً لدى الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فكانوا يترسمونه، ويسيرون على هداه، ويتحرونه في كل أمورهم صغيرها وكبيرها ويقتدون به.

فيجب على كل مسلم ومسلمة الإقتداء والتأسي برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالإقتداء أساس الاهتداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١] قال ابن كثير: "هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أُمِرَ الناسُ بالتأسي بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - عز وجل -".

فمنهج الإسلام يحتاج إلى بشر يحمله ويترجمه بسلوكه وتصرفاته، فيحوِّله إلى واقع عملي محسوس وملموس، ولذلك بعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن وضع في شخصيته الصورة الكاملة للمنهج - ليترجم هذا المنهج ويكون خير قدوة للبشرية جمعاء.

والحديث عن غزوات الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسراياه، ضرورة تربوية، وقيمة حضارية، لإظهار ما فيها من مبادئ وأخلاق عسكرية، فهذه الأخلاق ستظل حدث الأحداث في تاريخ البشرية، فإلي جانب كونها أعمال حربية كانت ذات أهداف وغايات سامية، وضعت للبشرية دستوراً ومبادئ وأخلاق تحاول المدنية - بعد ما وصلت من علم وحضارة - أن تحاكيها فلا تستطيع حتى الاقتراب منها.

والعـالم الآن في حاجـة إلـي دراسـة غزوات وسرايا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لـيس مـن زاوية التاريخ أو زاوية الأعمال العسكرية ، ولكن من الزاوية الإنسانية والنواحـي الأخلاقـية ، وأهـم مـا أبـرزته هذه الغزوات والسرايا من قيم ومبادئ وأخـلاق سـامية ، عمقـت روح الأخـوة والتعاون بين البشر وحافظت على روح السلام والمساواة بين الأمم .

ومـن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام ، والحـرب هـي الاستثناء ، فلا مسوّغ لهذه الحرب – في نظر الإسلام – مهما كانت الظروف إلا في حالات محدَّدة .

وإذا كـان الإسـلام قـد أتـاح الحـرب ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدنـية العـصر الحـديث ، ولا إلي ما يقرب منه ، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة [(١)] .

فالإسلام لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكـنه انفرد كعادته بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلي آخر حد يمكن الوصول إليه ، بدون الإخلال بسلامة الحوزة ، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً ، كلـها ترقـي إلـي احـترام الـدماء البـشرية والعمـل بأرقـي ضـروب العطـف علـى الإنسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحـرب أصـبحت أداة وحـشية ، وأن الـتفاهم فيه العطف خير بدلاً منها ، فإنهم علـيهم أن يـتابعوا الإنـسانية في تـرقيتها ويدخلـوا فـيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحـرب وحـشية ، والجـري علـى ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية [(٢)] .

وحـروب الـنبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلها حروب دفاع . ولم تكن منها حرب هجوم إلا علـى سـبيل المـبادرة بالـدفاع بعـد الإيقـان من نكث العهد والإصرار على القتال وتـستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم . . . والحقيقة الثانـية أن الإسـلام إنمـا يعـاب علـيه أن يحـارب بالـسيف فكـرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع .

ولكـن لا يعـاب علـيه أن يحارب بالسيف "سلطة" تقف في طريقه وتحول بينه

(١) محمد فريد وجدى ، من معالم الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٠ ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .
(٢) محمد فريد وجدي ، من معالم الإسلام ، ص ١٠٤ .

وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه .

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غني في إخضاعها عن القوة . . . ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء ، وفي الأعقاب بعد الأسلاف . . . وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آبائهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه .

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال .

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة . . . ولابد من التمييز بين العملين ، لأنهما جد مختلفين [١] .

ومن الثابت تاريخياً أن المسلمين إنما خرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وأنه لولا وطأة الأذى ، واختناق الدعوة وعدم قدرتها على التنفس ما خرجوا من بلد هي أحب البلاد إلي نفوسهم وأعزها في قلوبهم ، وخير دليل على ذلك هذه العواطف المشبوبة والكلمات الحزينة التي ودع بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة بقوله: " والله إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلي الله وأكرمها على الله تعالي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت " [٢] .

والسيدة عائشة تقول: " لولا الهجرة لسكنت مكة ، فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلي الأرض منها بمكة ، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة ، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة " [٣] .

وعبد الله بن أم مكتوم ينشد يوم عاد إلي مكة يوم الفتح:

يا حبذا مكة من وادي ::: أرض بها أهلي وعوادي

(١) عباس محمود العقاد ، عبقرية محمد ، ط دار الهلال ، ص ٢٩ - ٣٠ .
(٢) ابن سيد الناس ، السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ط ، مكتبة القدسي بالقاهرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ ، ١/ ١٨١ .
(٣) عبد العزيز كامل ، مواقف إسلامية ، سلسلة اقرأ ، ط القاهرة .

أرض بهـــــا ترسـخ أوتـادي ::: أرض أمـشي بهـا بـلا هـادي [1]

فقـد هاجر المسلمون إلي المدينة ، وتركوا مكة وهي أحب بلاد الأرض إليهم فيها الكعبة متعبد العرب منذ عهد إبراهيم ومهوى أفئدتهم ، وخلفوا وراءهم كل شيء بعد أن أعلنت قريش الحرب عليهم طوال ثلاثة عشر عاماً ، لم تدع كريهة إلا أنـزلتها بهـم ولا خسيـسة إلا ألـصقتها بهـم . وكان طبيعياً أن يتوقع المسلمون أن جـيوش الـشرك مـن قريش لابد لاحقه بهم في مهاجرهم بالمدينة ، بعد أن أعلنت الحـرب علـيهم وأخـرجتهم مـن ديارهم ، وكان يقتضي ذلك أن يحتاط المسلمون للأمـر ويـتخذوا لـه أهبته حتى لا تفاجئهم قريش بحرب ولا تأخذهم على غرة ، وكـان مـن الطبيعـي أن يـتوقع المـسلمون هجـوم قـريش عليهم بالمدينة ، فبعد أن اسـتتب لهـم الأمـر فـيها عاهـدوا الـيهود ، ثم أخذ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبعث بالسرايا والبعوث في ظاهر المدينة ليتسمعوا أخبار قريش من قوافلها التي لا زالت توالـي رحـلات الـتجارة صـيفاً وشتاءً من مكة إلي الشام ذهاباً وجيئة ، حتى إذا علموا بمقدم قريش لحرب استعدوا لها .

ولأن قـريش كانـت في حالة حرب مع المسلمين ، فقد كان اعتراض المسلمين لعـير قـريش الكـبرى عام بدر ، ومع أن العير أفلتت استطاع أبو سفيان - لما علم بالنـبأ - أن يهـرب عـن طريق آخر ، إلا أن قريش أصرت على الخروج وقال أبو جهل: " والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم فيها ثلاثاً ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونـسقي الخمـر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها [2] .

فلـم يكـن موقـف المسلمين إذن في غـزوة بـدر إلا موقـف المدافع عن نفسه وكانت الحرب من جانبهم حرباً دفاعية لا هجومية .

وقـبل أن تبارح قريش مكان المعركة في بدر أعلنت استمرار قيام حالة الحرب بيـنها وبـين المـسلمين فـنذر كبيرهم أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3] .

وبعد فإن الحرب اليوم ليست هي الحرب بالأمس ، وأصبحت لفظة " الحرب " تـسرح في فـضاء ذهـني مفـتوح ، سـواء للمتلفظ أم للسامع ، وحتى لقائد المعركة

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط دار صادر ببيروت ، ١/ ١٤١ .
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ط دار الجيل ببيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ٢ / ١٩١ .
(3) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/٣ .

حول الخسائر والدمار الذي ستوقعه هذه الحرب ، فللحرب الآن ألوان كثيرة يصعب حصر معانيها ومآخذها وأضرارها فهناك الحرب الإعلامية ، والحرب الاقتصادية والحرب النفسية وحرب النجوم ، ولكن كلها يجمعها هدف واحد أو غاية محددة وهي فرض الهيمنة على الآخر للانصياع لمطلب ما ، وإن تمت تغطية هذا الهدف بأقنعة كثيرة مثل العدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب ، والهدف من هذه الأقنعة إيجاد نوع من الشرعية الأخلاقية ، أما الشرعية القانونية فيتم التلاعب بها بمنطق القوة وحسابات المصالح لدي الرأي العام .

وإذا كانت الحرب في الإسلام قد قدرت بضرورة معينة وتم حصرها في صد العدوان وجعلها دفاعية في المقام الأول ، فإننا الآن نجد أن جميع الحروب التي تدار رحاها بين الدول أو تلك التي تديرها أمم أخرى بين الشعوب أصبحت هجومية فقط هدفها الاعتداء على الآخرين وإن تمت تسمية هذا الاعتداء بأسماء زئبقية نحو " حرب وقائية " مثل تلك التي يستخدمها اليهود مع الفلسطينيين ، ونحو حرب " استباقيه " مثل تلك خاضها الأمريكان في العراق ويحاولون مع غيرها ، ونحو حرب " الردع " وغيرها من المصطلحات التي تجمل صورة الحرب القبيحة .

والحقيقة أن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم الإنسانية منذ أن خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووقف له الشيطان موقف العدو المعاند ، ومنذ ذلك الوقت كان الصراع بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، وبين المعتدِي والمعتدَي عليه ، ثم تطور ذلك الصراع بتطور الجنس البشري ، وازداد ضراوة بازدياد تمكن الباطل من نفوس الناس واستحواذ الشيطان عليهم ، وكان أشد أنواع ذلك الصراع ما دار بين أنبياء الله ورسله وبين المعاندين والمكذبين من أقوامهم ، وقد شهدت الإنسانية على مر العصور وكر الدهور الحروب ، وكانت سنوات الحرب في تاريخ البشرية أكثر من سنوات السلام ، وذلك طبقاً لأحداث الإحصائيات التي أكدت أن البشرية تشهد كل ٢١٣ سنة حرباً ، سنة واحدة سلام ، وفي هذا دليل على أن الحرب في الإسلام ليست شيئاً مبتدعاً ولا حدثاً مخترعاً ، كما أن البشرية في حاجة إلي السلام الذي تفتقده بشدة .

والحقيقة أن الحرب هي أحد وسائل حلول المشاكل والصراعات التي تعيشها الإنسانية حتى الآن ، وبعد أن بلغت الإنسانية أشدها ونالت العقول رشدها تبقي الحرب هي أحد أهم وسائل حسم المشاكل ، وإن كان الإسلام – كغيره من الشرائع – قد فرض الحرب ولكنه حاطها بالملطفات – الأخلاقيات – بما لم تبلغ

إليه مدنية القرن العشرين ، لأن الإسلام قاعدته الأساسية هي السلام والحرب هي الاستثناء .

والحرب في الإسلام مقدَّرة بضرورة ، ولم تفرض إلا للدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء ، والدفاع عن الدعوة ، فحروب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حروب دفاع ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود ومع الروم ، ودللنا على ذلك في ثنايا الحديث عن أسباب وأحداث غزوات وسرايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وهناك سوء فهم شديد شائع لمعنى فريضة الجهاد في الإسلام يرجع إلي افتراض أن الجهاد مرادف للحرب والاعتداء ، فالجهاد مأخوذ من الجهد وهو الطاقة والمشقة فيقال: جاهد يجاهد جهاداً أو مجاهدة إذا استفرغ وسعه وتحمل المشاق وبذل نهاية الطاقة في الوصول إلي أمر معين أو في الحصول على مطلوب محدد ومن الممكن أن يكون المطلوب الحصول على المال أو التفوق في لون معين من ألوان العلوم ، وقد يكون بذل هذا الجهد الشاق حسياً كما نري في المسابقات الرياضية وما يشبهها ، وقد يكون معنوياً عن طريق التغلب على الخصم بالحجة الناصعة وبالأدلة القاطعة الساطعة والبراهين التي تخرس الخصوم .

والجهاد في سبيل الله أقسام: جهاد النفس – وجهاد الشيطان – وجهاد الكفار – وجهاد المنافقين ، وأضيف لها بعض معاني الجهاد السامية التي أضافها بعض العلماء المجتهدين مثل أن تهفو النفس إلي عز الإسلام ومجده والتفكير المتلاحق والمستمر في أحوال المسلمين وكيفية الخلاص من المحن التي يتعرض لها الإسلام وأهله .

وشرع الجهاد على مراحل وخطوات ، كل خطوة أو مرحلة كانت تقتضيها ظروف معينة .

وللجهاد في سبيل الله أهداف السامية منها: حرية العقيدة – ضمان إقامة الشعائر والعبادات – رفع الفساد عن الأرض – الابتلاء والتربية والإصلاح – رد كيد المعتدين – كشف المنافقين والخائنين – إقامة الحق والعدل في الأرض – نصرة المستضعفين في الأرض – تأمين طريق الدعوة وهداية العالم ، الاستعداد لرد كيد المعتدين .

وقد اختلف الإسلام عن غيره من الأديان بأنه ليس دينا فقط يتعبد به بل هو

دين وشريعة - قانون - وهذه الشريعة كاملة تتضمن جميع أوجه الحياة المختلفة وجميع الأزمنة حيث تمتاز بتطورها وصلاحيتها لكل زمان ومكان ، والشريعة الإسلامية هي الوحيدة التي رفعت المبادئ الأخلاقية إلي مستوي القواعد القانونية الشرعية وجعلتها إلزامية في مجال التعامل بين المسلمين وبينهم وبين البشر عامة في حالات السلم والحرب ، هذه الأخلاق الحميدة أصبحت قانوناً التزم به الخلفاء والولاة والقادة قبل الجنود في حربهم وسلمهم ، وهناك من الدلائل التي تؤكد على أن الفارق كبير بين الأخلاق والقوانين الوضعية ، حيث أن الأخلاق لها من الضوابط والمميزات ما يجعلها جديرة بالالتزام والاحترام من أي قانون وضعي .

وإذا كان الإسلام - كغيره من الأديان والحضارات - قد أقر الحرب كوسيلة أخيرة لحل المشكلات ومواجهة العدوان إلا أنه حاطها بالملطفات ووضع لها الآداب والقوانين التي تحافظ علي الأرواح والممتلكات وتجعل منها حرب مثالية ، فالإسلام يهتم بدعوة العالم الإنساني إلي الدخول في هدايته لينعم بهذه الهداية ويستظل بظلها الظليل ، والأمة الإسلامية هي المنتدبة من قبل الله لإعلان دينه وتبليغ وحيه ، وهي منتدبة كذلك لتحرير الأمم والشعوب ، فكان أول عهد الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحرب وهو دعوة خصومة ، فيقول ابن عباس: "ما قاتل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوماً حتى دعاهم" وتبدأ حروب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة [1] لأنها حروب دعوة وعقيدة ، ولأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أعرف الناس بفعل الدعوة وأثرها في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، ولأن الدعوة من أغراضها إقناع الخصم والناس بالحق وإضعافه عن القتال بإبطال حجته وإقناعه ببطلان حربه وضعف موقفه ، وتجلى الحرص على دعوة الناس قبل بدأ الحرب في غزوة خيبر وغيرها من المعارك ، واستمر هذا الخلق كجزء من سياسة الخلفاء الراشدين ، وقد وضح لنا الفرق بين دعوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الحرب ، والدعوة التي يطلقها الإعلام الغربي الآن قبل أي حرب يشنها المعتدون من أجل تسويغ وتسويق حروب الاعتداء .

وكان من أهداف الحرب في الإسلام الإصلاح: فمنذ أن جاء الإسلام وبزغ فجره جاء بمبدأ وهدف سام وهو الإصلاح ، حيث يقول المولى - عز وجل -: **﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** [القصص: ٨٣] ويقول - تعالى -: **﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**

---

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

بل إن مقاصد الشريعة الخمسة: حفظ النفس والعقل والدين والمال والنسل، هي الإصلاح وتعمير الأرض، وكانت وصايا الرسول ﷺ إلي أمراء الجيش تصب في معني الإصلاح وعدم التخريب أو التدمير، وسار على سنته من بعده الصديق أبو بكر والفاروق عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وكانت وصاياهما تحمل نفس المعني .

كما أنه دعا منتسبيه والمحاربين في صفوف جيشه إلي ضبط النفس: إن استحضار عظمة الله والطاعة والذكر مدرسة خلقية وتربية نفسية، إذا التزم بها الجندي، وتغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلي جميع عروقه ومشاعره وجري منه مجري الروح والدم واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها وغمر القلب والعقل بفيضانه جعل منه رجلاً غير الرجل وظهرت منه روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة وخوارق الأفعال والأخلاق، ولهذا فإن الإسلام قد شرع الذكر والطاعة عند القتال لكبح جماح النفس البشرية حتى لا تنزع إلي الظلم والشر والانتقام، وكبحها بلجام الطاعة والالتزام بأخلاق الإسلام .

ودعا الي الرحمة مع ممن يتعاملون، فالرحمة في الإسلام رقة القلب وانعطاف النفس المقتضي للمغفرة والإحسان وهي لن تكون أبداً مجرد عاطفة نفسية لا أثر لها في الخارج بل إنها ذات ثمار خارجية ومظاهر حقيقية تبدو في كل تصرف لجنود الإسلام، لا وقد وصف المولى عز وجل قائد هذه الأمة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ويقول عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وبلغت رحمة الرسول ﷺ كل شيء، واستظل بفيئها الأعداء وحتى الزرع والحيوانات، وكان شعار الجنود والقادة الرحمة .

وحروبه ﷺ كلها تدعوا إلي احترام الأبرياء: فالبريء لا يؤخذ بجريرة المذنب كما قال تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ [فاطر: ١٨] هذا هو مبدأ الإسلام في الدنيا والآخرة، ولذا فقد تجنب الحبيب محمد ﷺ التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والعجزة والعبيد والإماء في غزواته وسراياه، بل إنه ﷺ كان يرأف لحالهم ومواقفه في ذلك أكثر من أن تحصى وقد عرجنا علي بعضها في ثنايا الحديث عن الغزوات والسرايا، فمنها في غزوة حنين

وفي بعث خالد بن الوليد إلي جذيمة وفي واقعة إسلام ثمامة بن أثال ، وفي قصة قتل أبي رافع بن أبي الحقيق ، وفي موقف خبيب وزيد بن الدثنة في غدر عضل والقادة .

ولقد شرع الإسلام احترام آدمية المحارب فنهي عن التمثيل بجثث المحاربين والتعرض لها ، وشرع تكريمها بدفنها وتمريض الجرحى لأنها أبسط قواعد الإنسانية والإسلام دين الإنسانية كلها ، وقد فرض تكريم الإنسان فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] وقد كانت من وصايا الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدم التمثيل بالجثث وأمر بدفن جثث المشركين في بدر والأحزاب .

كما كان شعار حروبه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العفو والصفح الجميل: فالحلم والاحتمال والعفو مع القدرة والصبر على ما يكره ، بين هذه الألقاب فرق فالحلم: حالة توفر وثبات عن الأسباب والمحركات ، والاحتمال حس النفس عند الآلام والمؤذيات ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة ، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة ، وهذه الصفات والأخلاق مما أدب الله عز وجل به الحبيب محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فكان صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً ، فقد كان عفوه وصفحه الجميل نادراً استظل بفيئه أعداءه ومحاربوه حتى أشرار مكة ، وحتى من حاول قتله ومن صد دعوته وآذاه وآذى أصحابه ، وإن كان هناك بعض من لم يشمله هذا العفو فكان ذلك لأسباب أوردناها .

كما شرع الإسلام الإحسان إلي الأسرى ومعاملتهم معاملة حسنة رحيمة ، فهو يدعو إلي إكرامهم والإحسان إليهم ويمدح الناس يبرونهم ويثنى عليهم الثناء الجميل حيث يقول تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان: ٨] .

وجاءت وصايا الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومواقفه في الإحسان إلي الأسرى لتكمل منظومة الإحسان بالأسرى بما لا تستطيع البشرية - بعد ما وصلت إليه من حضارة - أن تخرج لنا قانونا يقترب من إحسان الإسلام إلي الأسرى ، وقد حدثت في سيرة الحبيب محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مواقف إحسان للأسرى ما تعجز البشرية أن تجود بمثله ، وتم الاستطراد في هذا المبحث لدحض العديد من الشبهات التي يثيرها المشركون حول الإسلام مثل قتل الرسول لبعض الأسرى ، وموقفه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني قريظة ، وموقف الإسلام من الرق والعبيد وحسن صنيع

النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المواقف .

كما كانت حروبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تعرف المادية ولا الأغراض الشخصية ، فمنذ الوهلة الأولي لبعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلن أن هدفه ليس لجمع المال ولا لاكتناز الثروات ، وليس لإقامة مجد شخصي ولا ملكية وراثية ، فقد عرضت عليه قريشاً ملكاً ورئاسة وشرفاً لم يكن لغيره من بشر ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا ، ووقع في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات والتواضع ما يأخذ بالألباب والأفئدة ، ولم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحارب ابتغاء ملك أو زعامة أو إحياءً لقومية أو عصبية .

وكان ديدن المسلمون في حروبهم التواضع ، فلقد نهي المولى عز وجل عن الاتصاف بالتفاخر عند الانتصار أو التظاهر بالقوة كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ [الأنفال: ٤٧] .

وأكد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال سيرته على أن الحرب ليست هدفا والانتصار ليس مقصداً ، وبالتالي فإن التفاخر بالنصر والتعالي ليس له محل من الوجود وانظر كيف كانت هيئته وهو يدخل مكة التي أخرجته - فاتحاً منتصراً ، وكيف عامل الناس ، ومن يردف خلفه على ناقته .

ولقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حروبه أوفى الناس ذمة ، وقد عظم وفاؤه واتسع ليشمل أعدائه ، ونماذج ومواقف الوفاء في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة مثل الوفاء يوم بدر وبئر معونة والحديبية وفتح مكة ، كما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصا على الوفاء كان أيضاً بعيداً عن الغدر والخيانة وينفر منهما ، وجعل شعار الإسلام: وفاءً بغدر خير من غدر بغدر ، ومن أهم وأجمل صور الوفاء في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رد أيادي الخير ، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحفظ الجميل لصاحب الجميل ويكافئه عليه حتى وإن كان الحيوان ، مثلما حدث يوم ذي قرد .

ولم يحدث ولم يذكر لنا التاريخ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أكره أحداً على ترك دينه أو اعتناق الإسلام ، بل كان سمحاً مع كل من قابله وعامله ، وفي هذا المبحث أخذنا الحديث عن بعض الحقائق التي تشهد وتدلل على سماحة الإسلام ونبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يكن في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء من الممكن أن يحمل على الإكراه ، بل إن في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مواقف تدلل على عكس ذلك تماماً ، وقد سقنا الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على زيف الإدعاء الباطل وقول المغرضين أن الإسلام قد انتشر بحد السيف وقوة السلاح .

ولم تكن حروبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرف العنصرية: فالعنصرية تقوم على إدعاء أن شعباً من الشعوب أو قوماً من الأقوام أو جنساً من الأجناس البشرية أو قبيلة من القبائل أو عشيرة من العشائر أو مجموعة من الناس خاصة تتميز بصفاتها الجسمية أو العقلية عما عداها وأنها لذلك صاحبة فضل على غيرها وكذلك فالقيادة والسيادة والفضل لها على غيرها ، ولما جاء الإسلام أعلن نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ليس دينا لقبيلة دون قبيلة ولا لأمة دون أمة ولا للعرب دون العجم ولكن للناس أجمعين ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** ﴾ فالإسلام يعمل لفكرة جليلة فكرة وحدة الإنسانية ، وقد ثبت من سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقاوم العصبية والتعصب ويكافح العناصر والأجناس ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يجمع العالم كله على صعيد واحد .

وبعد هذا التفصيل لآداب وأخلاقيات الحرب في سيرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وبعد المقارنة بينها وبين القوانين الدولية التي تحكم العالم في حالات الحرب والسلم ، فالخلاصة التي يجب أن تخرج عن هذا العمل: هو أن حروبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مثالية لأن أهدافها هي الدفاع عن حرية الرأي وتوطيد أركان السلام ، تصون أرواح وأموال الأبرياء والضعفاء ، وتعطف على الأسرى والرهائن وتواسى المرضى والجرحى ، ولا تمثل بالقتلى بل تدفنهم كقتلاها ، ولا تثيرها الأغراض الشخصية ولا العصبية ولا المنافع المادية ولا الاستغلال والاستعمار فإذا لم تكن هذه الحرب مثالية فأي حرب في التاريخ كله يمكن أن نطلق عليها هذا التعبير؟!

وبعد فإني أتقدم بخجل شديد من سيدي وقائدي وحبيبي وشفيعي بإذن الله يوم القيامة وفرطي على الحوض الرسول الكريم بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه بهذا العمل المتواضع عن جزء من سيرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأسأل الله تعالى أن يكون ما في القلب من حبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جابراً لما في العمل من تقصير .

وإني إذ أتشرف بالكتابة عن بعض سيرة الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد سبقني في الكتابة عن سيرة الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أساتذة عظام وكرام كاتبين من كرام الأئمة وصفوة الصالحين ، ولئن ترتفع لي هامة بين هاماتهم العالية وإن أنسب إليهم فهذا شرف لي .

وأنا إذ أكتب عن سيرة الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإني أشعر بسعادة غامرة لأنني قد نلت شرفا لا يدانيه شرف وحظوة يغبطني عليها الكثير ، وكوني قد خطت يدي بعض سيرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذه أمنية قد تأخرت كثيراً ،

ولكن شاء الله عز وجل أن تحققت وهذا فضل من الله ومنة ، والله عز وجل أسأل أن يكتب لهذا العمل القبول بين المسلمين وأن يظل بين أيديهم وفي عقولهم وقلوبهم إلي قيام الساعة ، وأن يكون علم ينتفع به أثاب عليه بعد مماتي وعند لقاء ربي . . . أمين أمين أمين .

كما أسأله سبحانه وتعالى التسديد لما يرضيه من الأقوال والأفعال ، وأن يجعل هذا العمل في ميزاني يوم العرض عليه ، وأن يكون سببا في شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . اللهم ما وافق الحق مما كتبت فمنك وحدك وبفضلك وجودك وكرمك ، وما خالف الحق فمني وأنا منه بريء ، والحمد لله رب العالمين .

"الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله" .

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه ،

رجب محمود إبراهيم بخيت

*****

الفصل الأول:
[مرحلة الدفاع عن الدولة ومعركة بدر]

الصراع بين الحق والباطل:

إن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم الإنسانية ، فمنذ خلق الله تعالى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقف الشيطان موقفه الجاحد المعاند المستكبر ، وقضي الله عليه بالطرد واللعن . كانت – منذ ذلك الوقت – بداية الصراع . . . الصراع بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل وبين المعتدي والمعتدي عليه

وتطور ذلك الصراع بتطور الجنس البشري وازداد ضراوة بازدياد تمكن الباطل من نفوس الناس واستحواذ الشيطان عليهم .

ومن السنن الكونية سنة التدافع أو سنة الصراع بين الحق والباطل ، كما أنها ماضية عبر التاريخ الإنساني الطويل ، وباقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ، ١١٩] .

ويحتدم الصراع نتيجة هذا الاختلاف لإقرار الحق أو إقرار الباطل ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٧٦] .

وهذا التدافع هو الذي عناه الله (سبحانه وتعالى) بقوله: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وهذا الذي عناه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» (١) .

وهذه الطائفة المنصورة تجتمع فيها أسباب النصر المعنوية والمادية التي خلقها الله (عز وجل) ، من علم صحيح ، وسلوك مستقيم ، وأخذ بالمقدمات التي جعلها الله وسيلة موصلة إلى نتائجها المرجوة ؛ وإلا فإن مجرد الإيمان والالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة دون الأخذ بأسباب التمكين ومقدماته المادية ، ودون الالتزام بسنن الله الكونية الصارمة لا يضمن النصر ولا يكفل الظهور والتمكين في

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (بشرح النووي) ، كتاب الإمارة ، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، ١٣ / ٦٦ .

الأرض الذي وعد الله به عباده الصادقين [1].

وقد أوضح الله (عز وجل) أن الجهد الإنساني للمؤمنين هو الذي يحسم الصراع بقدر من الله لصالح المؤمنين: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

إن التدافع الذي يعنيه القرآن الكريم من خلال هذه السنة هو الذي يكون لخير البشرية، وبه يتحقق السلام العالمي، بتحقيق العبودية لله وحده في الأرض، وإزالة كل طاغوت يُعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فالبشرية بدون العبودية لله (عز وجل) لا تستطيع أن تسلك قاعدة عليا من الحق؛ لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف، ولا سبيل أبداً لتوحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعاً، والاتجاه المنقاد المستسلم لله (تعالى) وحده لا شريك له.

وبين فوضى الأرباب والآلهة والطواغيت والمعبودات ذات الأسماء والشعارات المختلفة والصور المتباينة يرسم القرآن الكريم للمؤمن الموحد طريقاً واضحاً أبلجَ لا زلل فيه ولا عثار، محذراً إياه بأن اختياره لغير هذا الطريق أو تردده في الاستمساك به معناه الكارثة المحققة والخسارة الكبرى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

كما بيّن القرآن الكريم أن عاقبة الصراع تكون دائماً للمؤمنين مهما طال الطريق وعصف بهم طغيان المشركين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والهدف من هذا البيان هو شد عزائم الجماعة المؤمنة لتعي وتفقه طبيعة الصراع بين الإيمان والكفر، ولتعد نفسها إعداداً كاملاً، علماً وتربية وتخطيطاً وتنظيماً لمواجهة أعداء وعوائق الطريق وكثرة الأعداء من الداخل والخارج، من

(١) محمد عبد الهادي المصري: أهل السنة والجماعة، ص ٥٢.

النفس والعشيرة والأموال والأزواج، ومن الشيطان وجنوده، ومن المشركين.

وفي ضوء ما بذله المؤمنون من جهد بقيادة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن خلال ما قدموه من تضحيات في الأموال والأنفس وهجرة الأوطان والأهل، جاءتهم البشرى بحسم الصراع لفائدتهم واستخلافهم في الأرض: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وحقيقة الأمر فإن الدفاع عن الدولة بالحروب هي وسيلة من وسائل حل المشاكل الاجتماعية، إلي هذا العهد الذي بلغت الإنسانية فيه أشدها، ونالت العقول رشدها، فإلي أي مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التي دعيت إلي نشر الدين العالمي في عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة والحكمة لا يستطيع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة، بل والحياة لا يتأتى أن تبقي إلا إذا نافحت عنها القوة.

والأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية وألمعية فلسفية سامية، ومدنية مادية راقية لا تزال تعمد في العصر الحديث لحل مشاكلها المختلفة إلي الحرب، فلماذا إذن تحرم هذه الأمم الغربية على الأمم الإسلامية - التي تألفت منذ أربعة عشر قرنا - الحرب، وقد أنيط بها إحداث تطور عالمي من الناحيتين المدنية والاجتماعية، وهما أدعى إلي إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية؟

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام، والحرب هي الاستثناء، فلا مسوّغ لهذه الحرب - في نظر الإسلام - مهما كانت الظروف إلا في حالات محدَّدة.

وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين، ولا إلي ما يقرب منه، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة، فقد جاء في الكتاب الخامس من الزبور قوله: "إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك، فقاتلهم حتى تفنيهم عن أخرهم، ولا تعطهم عهداً، ولا تأخذك عليهم شفقة أبداً".

فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلي آخر حد يمكن

الوصول إليه، بدون الإخلال بسلامة الحوزة، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً، كلها ترقي إلي احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية، وأن التفاهم فيه العطف خير بدلاً منها، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية.

سنة التدافع:

وقد تعامل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع سنة التدافع، ويظهر ذلك جليا في الفترة المدنية مع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضد المشركين، وهذه السنة متعلقة تعلقا وطيدا بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنود المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيّل الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم).

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين وبعد إذنه لهم - سبحانه - بقتال عدوهم ويختتم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر، وذلك عندما كان المسلمون في مكة، وكانوا يطالبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإذن لهم في القتال فيجيبهم: «**اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال**».

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

إن هذا التدرج في حكم القتال كان يقتضيه وضع الدولة الإسلامية الناشئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان يأخذ في التكوين من حيث العدد والعُدد والتدريب، وما إلى ذلك فكان لا بد من مضي فترة من الوقت يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسلمين، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم، يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو على سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يصلب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأس القوة الإسلامية، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية فيما لو عملت قريش على تأليبها ضد المسلمين، كما وقع فيما بعد، وحينئذ يأتي وجوب القتال، في حالة تكون فيها أوضاع الدولة الإسلامية، والجيش الإسلامي على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن، أي بالإباحة لا بالوجوب أما في حالة ما لو تعرض فيه المسلمون وهم في دولتهم في المدينة لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب، بيعة العقبة الثانية التي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، وصاحبها وأتباعها.

إعلان الحرب على الدولة الإسلامية الناشئة:

لأن أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيان ولو كان في المدينة، لأن ذلك يهدد كيانهم، ويقوض بنيانهم، فهم يعلمون أن قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهلية وعادات الآباء والأجداد، فلابد من الوقوف في وجهه.

فبادر زعماء مكة في إعلان الحرب على المسلمين، والسعي بشتى الطرق لإحداث حرب أهلية داخل المدينة، فأرسلوا إلى عميلهم عبد الله بن أبي بن سلول – وكان إذ ذاك مشركا بصفته رئيس المدينة قبل الهجرة، فقد كاد الأوس والخزرج أن يجعلوه ملكا عليهم، لولا هجرة النبي كتبوا إلى ابن سلول ومن خلفه

من المنافقين في كلمات تنم عن شدة الحنق والغيظ على المسلمين:

"إنكم آويتم صاحبنا ! وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم".

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي ﷺ: لما يراه أنه استلبه ملكه - يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا.

امتنع عبد الله بن أبي بن سلول عن القتال إذ ذلك، لما رأى خوراً أو رشداً في أصحابه، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئاً مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين.

ومن المواقف العدائية التي اتخذتها قريش الصد عن المسجد الحرام واعتبار الأنصار من أهل الحرب والذي يدل على ذلك، ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدَّث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان (أمية) إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على (أمية) فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انطلق (سعد) معتمراً فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصُّبَاه وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما، فقال له (سعد) ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة... وفي رواية عند البيهقي: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن عليك متجرك إلى الشام».

السرايا الاعتراضية:

بعد أن هاجر الحبيب محمد ﷺ إلي المدينة وأعلنت قريش الحرب

علـي الإسـلام والمسلمين في المدينة ، أخذ الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحشد قواته فيها ، ويوحد صفوف سكانها على اختلاف ميولهم وأهوائهم ودياناتهم ، ويجعلهم كتلة متحدة للدفاع ضد الغارات الخارجية "[1] واتخذ في هذا الصدد خطوتين أساسيتين هما:

أولاً: عقد المعاهدات مع حلفاء قريش التجاريين الذين تخلوا عن حلفهم القديم المسمى بالإيلاف ، وبالتالي ضمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيادة هذه القبائل وعدم نصرتها لقريش حتى يتمكن المسلمون من التعرض لقوافلهم وهي مفتقرة لحماية الحلفاء ، وأهم القبائل التي عقد التحالفات معها تلك القبائل التي كانت مجاورة للطريق التجاري ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقد عقد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاهدة مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري ، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة ، ونصت وثيقة الموادعة مع جهينة علي: (إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل . ولأهل باديتهم من برَّ منهم وأتقى ما للحاضرتهم) [2] .

كما عقد معاهدات أخرى أثناء السرايا العسكرية .

ثانياً: عمل تكتيات عسكرية على شكل سرايا اعتراضية كان من أهدافها ما يلي:

١ - إعلان الحرب على قريش تنفيذًا لأمر الله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] .

٢ - إشعار أعداء الدولة الإسلامية الفتية "بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، ذلك الضعف الذي مكّن قريشًا في مكة من مصادرة عقائدهم ، وحرياتهم ، واغتصاب دُورهم وأموالهم "[3] .

٣ - استهدفت إرباك قريش وحلفائها ، وإضعافهم ، وتحطيم معنوياتهم بضرب نشاطهم التجاري الذي يمثل عصب حياتهم ، وشريان وجودهم[4] .

(١) محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص ٧٤ .
(٢) محمد حميد الله الحيدربادي ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص٦٢ .
(٣) محمد الغزالي ، فقه السيرة ، ص ٢٢٨ .
(٤) خليل عماد الدين ، دراسة في السيرة ، ص ١٧١ .

وذلك يبث الرعب والفزع في نفوسهم بإثارتهم الدائمة فهم يتوقعون هجوم المسلمين في كل لحظة ، مما يشل تفكيرهم ، فيسلبهم بذلك مبدأ المبادرة الأساسي في تحقيق أي نصر .

٤ - تدريب قوات المسلمين على القتال لتتحقق لهم اللياقة الكاملة اللازمة لخوض غمار المعارك الكبرى ، فهم في حالة استنفار قصوى منذ بدأت السرايا الأولى ، "ومن جهة أخرى جاءت هذه الهجمات أشبه بمناورات حيَّة كان المقاتل المسلم يجس عن طريقها نبض أعدائه ويختبر إمكاناتهم الحربية ، ماديًا ، ومعنويًا ، ويمارس مزيدًا من التدريب وتنمية قدراته وطاقته على الصمود" .

٥ - المعاملة بالمثل فكما أن قريشًا قد استولت على أموال المهاجرين في مكة ، كان في الاستيلاء على قوافلهم نوع من العوض عما فقده المهاجرون من أموال ومتاع ، وبالتالي "الحصول على مورد للتموين والتسليح في أعقاب الأزمة المالية التي كان المسلمون يعانون منها في مطلع عهدهم بالهجرة"[(١)] بسبب ما تركوه من مال ومتاع في مكة فرارًا بدينهم وحفاظًا على عقيدتهم وهجرة إلى الله ورسوله "فلا عجب إذا رأينا المسلمين يفكرون جديًا في استخلاص أموالهم من قريش"[(٢)] .

السرايا والغزوات[(٣)] قبل معركة بدر:

١- سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر:

بعد أن أعلنت قريش الحرب علي الدولة الإسلامية الوليدة في المدينة ، أعد الحبيب محمدا العدة لتأمين دولة الإسلام ، وتنفيذًا لأمر الله عز وجل ودعوته لجهاد المشركين انطلقت طلائع الإيمان تبث الرعب في صفوف المشركين ، فقد علم

(١) خليل عماد الدين ، دراسة في السيرة ، ص ٩٩ .
(٢) خطاب ، الرسول القائد ، ص ٩٩ .
(٣) يطلق كتاب السير في الغالب على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلقى عدوه غزوة ، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث ، وسواء كان عددها كبيراً أو صغيراً ، ويطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاعتراض عدو كلمة: سرية أو بعث ، وقد يحدث فيها قتال وقد لايحدث ، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره ، وغالباً مايكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلاً ، لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وارباكه ، وقد قاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعاً وعشرين غزوة ، وأرسل مايقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثاً ، وقد خطط لها في فترة وجيزة في عمر الأمم بلغت عشر سنوات من الزمن .انظر: أبو فارس ، في ظلال السيرة / غزوة بدر ، ص١٢ .

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هناك قافلة قرشية محملة بالأموال والبضائع وهي في طريق عودتها إلى مكة من الشام، يقودها أبو جهل بن هشام، ويحرسها حوالي ثلاثين راكبًا من فرسان قريش، فجهز لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "دورية قتال اعتراضية قوتها "ثلاثون مجاهدًا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي شهر رمضان من السنة الهجرية المباركة ارتفع أول لواء في سبيل الله تبارك وتعالى، وكان لونه أبيض، وحامله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حليف حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

تحركت الدورية نحو الهدف المحدد لها وهو ساحل البحر الأحمر، حيث التقت بالقافلة القرشية ناحية العيص في منطقة نفوذ قبيلة جهينة "فالتفوا حتى اصطفوا للقتال"، وقبل أن يشتبك الطرفان في مواجهة دامية، تدخل رجل من كبار رجالات جهينة في وساطة سلام بينهم، فقام بجولات من المفاوضات المباشرة مع كل طرف على حدة حتى تمكن أخيرًا من النجاح في مساعيه السليمة "فحجز بينهم مخشى بن عمرو الجهني وكان مخشي ورهطه حلفاء للفريقين جميعًا، فلم يعصوه فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهم، فلم يكن بينهم قتال"[1].

وقد كانت نتائج هذه السرية على المعسكر الوثني سيئة للغاية حيث هزت كيان قريش وبثت الرعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم والذي أصبح يهدد طريق تجارتهم، وبالتالي اقتصادهم.

أما المسلمون فقد كانت نتائجها عليهم إيجابية حيث تصاعدت الروح الحماسية بينهم، وأعطتهم بعدًا عميقًا من الثقة بالنفس والجرأة على عدوهم، ذلك الذي استطاعوا ولأول مرة الوقوف في وجهه بقوة أبهرت قريش وأدهشتهم" قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة:

يا معشر قريش إن محمدًا قد نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئًا، فاحذروا أن تمروا طريقه، وأن تقاربوه فإنه كالأسد الضاري، إنه

(١) انظر: البيهقي في الدلائل، ٣/ ٩ - ١٠، ابن سيد الناس، عيون، ١/ ٢٧١، ابن خياط، تاريخ، ٦٢، ابن هشام، السيرة، ٢/ ٥٩٥، الطبري، ٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥، ابن سيد الناس، عيون ١/ ٢٧، وابن كثير، البداية ٣/ ٢٤٤، الواقدي، المغازي، ١/ ٩، وابن سعد، الطبقات، ٢/ ٧.

حنق[1] عليكم نفيتموه نفي القردان[2] على المناسم[3]، والله إن له سحرة، ما رأيته قط ولا أحدًا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم عرفتم عداوة ابني قيلة[4] فهو عدو استعان بعدو"[5].

ولما بلغ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما دار بينهم من حوار نتيجة ردة فعلهم نحو شرارة الإنذار الأولى التي أطلقها تجاههم قال: "والذي نفسي بيده لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم، وهم كارهون، إني رحمة بعثني الله - عز وجل - ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يحشر الناس على يدي، وأنا العاقب"[6][7].

٢- سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى رابغ:

في شوال سنة ١ من الهجرة - الموافق أبريل سنة ٦٣٢م، بعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين لتوقيف تجارة لقريش في منطقة رابغ الساحلية، ولم يكن في تلك الغزوة من الأنصار أحد" وعقد له لواءً أبيض كان الذي حمله مسطح بن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف".

انطلقت الدورية حتى وصلوا إلى رابغ "فلقوا بعثًا عظيمًا من المشركين على ماء يدعى الأحياء من رابغ".

وهناك حدثت أول مواجهة عسكرية بين المسلمين والمشركين "وهو أول يوم التقى فيه المسلمون والمشركون في قتال" ولكن القتال اتخذ طابع المناوشة بالسهام فقط، فكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ "أول العرب رمى بسهم في سبيل الله"

---

(١) الحنق: الغيظ أو شدته.
(٢) القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل.
(٣) المنسم: بكسر السين: طرف خف البعير والنعامة والفيل والحافر، وقيل: هو للناقة كالظفر للإنسان.
(٤) كناية عن الأوس والخزرج، فقيلة أمهم وكانوا ينسبون إليها.
(٥) ابن هشام، سيرة، ١/٢١٨ - ٢١٩.
(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ١٢٣ - ١٢٤. وقال عنه الهيثمي: ورجاله ثقات. الهيثمي، مجمع، ٦/٦٨.
(٧) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى - جمادى الأول - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ص٨٤ - ٨٥.

في تلك المعركة التي لم تستمر طويلاً إذ قرر الفريقان الانسحاب من أرضها .

وقد كان انسحاب المسلمين قويًا ومنظمًا حيث انسحبوا في قتال تراجعي تعطيلي [1] بواسطة حامية منهم تغطي انسحابهم حتى هبطوا ثنية المرة ، وكان بطل هذا الانسحاب الناجح سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان له الدور الأكبر في تشتيت وإحباط استعدادات العدو لشن أي هجوم مضاد وذلك بوابل من السهام المزعجة التي قذفها نحوه ، والتي كونت ساترًا دفاعيًا مهد لانسحاب سليم منظم بالنسبة للمسلمين ، وانسحاب متوتر مرعوب بالنسبة للمشركين ، هذا وقد فر عتبة بن غزوان ، والمقداد بن الأسود يومئذ إلى المسلمين وكانا في حبس قريش قد أسلما قبل ذلك ، فتوصلا بالمشركين حتى خرجا إلى عبيدة وأصحابه" [2]

وقد تحققت في هذه السرية بعض الأوليات المهمة في تاريخ الصراع الإسلامي الوثني على المستويين العام والخاص . فعلى المستوى العام اعتبرت أول مواجهة عسكرية بين الطرفين ، بعد انقضاء سنة كاملة على أول مواجهة انتهت سلميًا دون قتال . أما على المستوى الخاص فقد حقق سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال هذه السرية سبقًا عسكريًا إسلاميًا يسجل في سجله الحافل بالإنجازات على امتداد حياته التي أفناها في سبيل إعلاء كلمة الله منذ أن نطق بالشهادتين فكان ثلث الإسلام[3] ، ثم أهريق على يديه أول دم في سبيل الله[4] ومرورًا بمشاركته الجهادية الفعالة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهاءً بالقادسية والمدائن وفتح فارس ، وبناء الكوفة أول مدينة إسلامية خارج الجزيرة العربية .

كما أكدت هذه السرية استمرار سياسة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعبوية الخاصة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسرايا الأولى حتى بدر تنفيذًا لاتفاقية العقبة الثانية[5] .

---

(١) القتال التراجعي: هو ذلك الوضع الكريه أثناء الانسحاب ، عندما يكون القسم الأكبر من قواتنا قد فشل في تحقيق تراجع سليم ، وتتورط قواتنا في قتال مع العدو أثناء التحرك للخلف . انظر: باهر عبد الهادي ، مصطلحات عسكرية ، ص ٤٧ .

(٢) البيهقي ، دلائل ، ٣/ ٨ - ١٠ ، ابن سيد الناس ، عيون ، ١/ ٢٧١ .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب سعد . انظر ابن حجر ، فتح ، ٧/ ٨٣ .

(٤) أخرجه الترمذي . انظر الألباني ، صحيح سنن الترمذي ، ٢/ ٢٧٧ .

(٥) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص٩٢ - ٩٣ .

٣- سرية الخرار[(١)] :

وكانت في ذي العقدة سنة ١ هـ، الموافق مايو سنة ٦٢٣م، وذلك أنه عندما بلغ رسول الله ﷺ أن كرز بن جابر[(٢)] أغار على سرح المدينة[(٣)]، واستاقه معه، وقد خرج ﷺ لاعتراضه، ولكن فاته كرز بالسرح، فاستنتج ﷺ بذكائه العسكري المعروف أنه لن يستطيع اللحاق به بقوات قد تكون بطيئة الحركة نوعا ما في سيرها الاقترابي، لذلك جهَّز على الفور "دورية تعقُّبية"[(٤)] صغيرة، قوتها "ثمانية رهط من المهاجرين"[(٥)].

وأسند القيادة فيها إلى رجل من أصحابه، معروف عنه سرعة البديهة في المناورة، وقد سبق له أن حقق نجاحا ملموسا على مستوى السرايا الاعتراضيةالتي سبقت هذه السرية، ذلكم هو سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ و"عقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو البهراني".

وفي الحال انطلقت الدورية في إثر كرز بن جابر ومن معه لعلها تلحق بهم قبل أن يدخلوا منطقة نفوذ قريش وحلفائها الواقعة بعد الخرَّار الذي حذَّرهم رسول الله ﷺ من مجاوزته. ولكن كرزًا تمكن من الإفلات أيضا فلم

---

(١) ماء لبني زهير وبني بدر، وهو واد بالحجاز يصب على الجحفة، وفيه آبار عن يسار الجحفة قريب من خمٍّ، يقع شرق رابغ على قرابة خمسة وعشرين ميلاً. انظر ابن سعد، طبقات، ٢/ ٧، البكري، معجم ما استعجم، ٢/ ٤٩٢، والبلادي، معجم معالم السيرة، ص١١٢.

(٢) كرز بن جابر حسل بن لاحب بن حبيب بن عمرو بن سفيان بن محارب بن فهر القرشي الفهري، كان من رؤساء المشركين قبل أن يسلم، استشهد في الفتح. انظر ابن حجر، الإصابة، ٣/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) السرح: المال السائم.

(٤) اختلف أهل المغازي في مهمة هذه السرية، وهل كانت لاعتراض قافلة تجارية لقريش أو لتعقب كرز بن جابر الذي سلب عيرا للمسلمين، فالواقدي وكاتبه ابن سعد ذكرا أن هذه السرية كانت لاعتراض القافلة. انظر الواقدي، مغازي (١/ ١١)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٤)، ولم يوضح ابن إسحاق مهمتها. انظر خليفة، تاريخ (٦٢)، وابن هشام، سيرة (٢/ ٦٠٠)، والبيهقي، دلائل (٢/ ١٣ - ١٤)، أما ابن حزم، وابن عبد البر: فقد ذكرا أن هذه السرية كانت لتعقُّب كرز بن جابر الذي أفلت من النبي ﷺ. انظر ابن حزم، جوامع (١٠٤)، وابن عبد البر، درر (١٠٦). ولعل ذلك هو الصواب، بناء على الوقت الذي خرجت فيه السرية وقوتها الصغيرة المناسبة لهذه المهمة التي لا تتطلب عددا كبيرا من القوات لأجل خفة الحركة في المسير.

(٥) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٦٠٠.

يستطع سعد الإمساك بهم حتى منطقة "الخَرَّار من أرض الحجاز" التي رجع منها[1] .

٤- غزوة الأبواء أو ودان:

وفي صفر سنة ٢ هـ ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م ، خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش ، حتى بلغ الأبواء[2] ، وتعرف بغزوة ودان[3] أيضاً ، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية ، فلم يلق كيداً ، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

وانتهز النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الأبواء فرصة ذهبية ، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة ، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لاتقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش ولذلك عمل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ضمان حيدتهم في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة ، وكانت خطته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وقعة بدر ، أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين ، وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها ، وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[4] .

وقد نصت المعاهدة علي: «**هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه**» .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب[5] .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ٢/ ٦٠٠ . السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص٩٢-٩٣ .
(٢) الأبواء: قرية من أعمال الفُرُع من المدينة ، بينها وبين الجُحْفَة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا .
(٣) وَدَّان هي قرية بين مكة والمدينة من نواحي الفُرُع ، بينها وبين هرش ستة أميال ، وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال ، قرية من الجحفة .
(٤) د. عون الشريف ، نشأة الدولة الإسلامية ، ص٤٣ .
(٥) ابن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف ، وزارة الأوقاف المصرية – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة ، الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م ، ص ١٠٣ ، الواقدي ، المغازي ، ص١١ .

٥ - غزوة بواط[١] :

وكانت غزوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بواط) في شهر ربيع الأول في السنة الثانية من مهاجره، وخرج في مائتين من أصحابه وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش كان فيها أمية بن خلف في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير، فلم يلق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيداً فرجع إلى المدينة.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢] .

٦ - غزوة سفوان أو بدر الأولى:

في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي فخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جمع من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، وكان اللواء أبيض، وحامله علي بن أبي طالب[٣] .

٧ - غزوة ذي العشيرة[٤]:

- كانت غزوة العشيرة في جمادة الأولى وقيل الآخرة على رأس ستة عشر شهرا من الهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣ م) وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواء أبيض واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب ولم يكره أحدا على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعترضون عيراً لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال لقريش فبلغ ذا العشيرة، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

---

(١) بواط: هو جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى بقرب ينبع.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٠١، الواقدي، المغازي، ص١١.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٠١.
(٤) العشيرة: موضع بين مكة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الاحمر.

وبالعشيرة كنى رسول الله علي بن أبي طالب أبا تراب وذلك أنه رآه نائما متمرغا في البوغاء [1] فقال: اجلس أبا تراب فجلس، وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة [2].

٨- سرية عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نخلة:

بعد عدد من الغزوات والسرايا الاعتراضية أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستطلع أخبار قريش ومن ثمَّ وقع تلك الهجمات عليها والتي صارت تهدد تجارة مكة الصيفية.

ففي شهر جمادى الآخرة أو رجب - على خلاف بين أهل المغازي - من السنة الثانية الهجرية جهَّز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية قوامها ثمانية مهاجرين وأسند قيادتها في أول الأمر إلى أبي عبيدة عامرٍ بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي لم يستطع الاعتذار عن المهمة بالكلام تأدبًا وخوفا من معصية خليله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لم يكن يحب مفارقته والبعد عنه، لكنه لم يتمالك نفسه "فلما ذهب لينطلق بكى صبابة [3] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبًّا فيه وجزعًا من مفارقته فاستبقاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستدعى ابن عمته عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكلفه بالمهمة بعد أن أعطاه (كتابًا مكتومًا) وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا [4] وقال: «**لا تكرهَنَّ أحدا من أصحابك على المسير معك**».

امتثل القائد المنضبط للأوامر النبوية العليا فسار مع أصحابه بعد أن استوضح عن الجهة التي تقود للهدف غير المعلن. "فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا حتى تنزل نخلة [5] بين مكة والطائف فترصَّد [6] بها قريشا

(١) البوغاء: ماثار من الغبار ودقاق التراب.
(٢) طبقات ابن سعد، ٢/ ١٠.
(٣) الصبابة: الشوق أو قيل: رقته وحرارته.
(٤) وقع في رواية السدي عن ابن عباس أنه أمره أن لا يفتح الكتاب حتى ينزل بطن ملل. الطبري، تفسير (٢/ ٣٤٩)، وتاريخ (٢/ ٤١٣)، وملل: منزل على طريق المدينة إلى مكة على ثمانية وعشرين ميلا من المدينة، وهو واد ينحدر من ورقانجبل مزينة حتى يصب في الفرش. فوق سويقة.
(٥) نخلة اليمانية: هي بستان ابن عامر عند العامة، والصحيح أن نخلة اليمانية هي: بستان عبد الله بن معمر، وبنخلة قتل عامر بن الحضرمي. وهي موضع على ليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة. البكري، معجم ما استعجم، ٤/ ١٣٠٤ - ١٣٠٥.
(٦) ترصد: الترقب.

تعلَّم لنا من أخبارهم". "فلما قرأ الكتاب استرجع[1] وقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله" ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

فما كان لهؤلاء الجنود المؤمنين الذين استرخصوا حياتهم في سبيل الله أن يتخلفوا عن أمر رسول الله ص"فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران[2] أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه" ولأنه لم تكن هنالك وسيلة تنقلهما غير البعير الذي أضلاه، ولأن المهمة سرية لا تحتمل التأخير وأهم عنصر فيها الوقت الذي يعتبر أساسيًّا لعنصر المباغتة استأذنا القائد في التخلف عنه في طلبه حتى لا يكونا سببًا في تعطيل مسير السرية الاقترابي نحو الهدف، لعلهما يجدانه فيلحقا بهم فيما بعد، فأذن لهما "فتخلفا في طلبه. ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا، وأدمًا[3]، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم" ولكنهم ما لبثوا أن اطمأنوا إليهم بعد الخطة التمويهية الذكية التي قام بها بعض أفراد السرية عندما "أشرف لهم عكاشة بن محصن وقد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمار، لا بأس عليكم منهم".

وفي الحال عقد عبد الله بن جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع أصحابه مؤتمرًا حربيًّا مصغرًا تداولوا فيه الرأي حول القافلة هل يهجمون عليها؟، ويستغلون هذه الفرصة المواتية من غرة عدو طالما أفلت منهم نتيجة حذره الشديد، ولكن الشهر الحرام، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمرهم بقتال فيه، أيتركونهم لأجل ذلك؟ ولكن هل

(١) أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) بحران: جبل يضرب إلى الخضرة والسمرة بين وادي حجر المعروف قديمًا بالسائرة، أو مر عنيب المعروف اليوم بمصر وبوادي رابغ. يقع بحران عند التقائهما يفترقان عنه شرق مدينة رابغ على (٩٠) كيلو وهو في ديار زبيد بن حرب. البلادي، معجم معالم السيرة، ص ٤٠.

(٣) أدمًا: جمع أديم وهو الجلد.

راعت قريش الحرمات عندما طردتهم من ديارهم واستولت على أموالهم، وصدتهم عن سبيل الله؟ إذًا فليعاملوهم بالمثل والبادي أظلم، وأخيرًا خرجوا بقرار جماعي حاسم بالهجوم عليهم و"قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم" فاشتبكوا معهم في قتال سريع خاطف حيث" رمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله، فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة" فوقف العير والأسيرين" قائلاً لهم: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»[(1)] .

ويصل الخبر إلى قريش فثارت ثائرتها وشنت هجومًا إعلاميًا مركزًا تخللته دعايات مغرضة ضد المسلمين استغلت فيها التعاليم الإبراهمية التي لا زالت بعض آثارها باقية في المجتمع الجاهلي حتى ذلك الوقت من تحريم القتال في الأشهر الحرم وغير ذلك.

" انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات"[(2)] "قالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال".

ونجحت قريش في خطتها تلك بادىء الأمر حيث "كان لدعايتها صدًى كبير، وأثر ملموس حتى في المدينة نفسها، فقد كثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على رجال السرية محاربتهم في الشهر الحرام، واشتد الموقف، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة" حتى ظن أهل السرية أنهم قد هلكوا وسُقط في أيديهم، ولكن الله عز وجل لم يكن ليدع أولياءه تتقاذفهم أهواء ورغبات أعدائه، فهو قد تكفل بنصرهم. ماديًا ومعنويًا، فنزلت الآيات البينات ترد وبقوة على دعايات قريش المغرضة موضحة أنه وإن كان الشهر الحرام لا يحل فيه القتال، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات، وصد عن سبيله ونزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾. [البقرة: ٢١٧].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة، ٢/٦٠٣، واللفظ له، والبيهقي، السنن، ٩/٥٩، والدلائل، ٣/١٩.
(٢) الشريف أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص: ٤٤٥.

وهنا اطمأن المسلمون لسلامة موقفهم ورد الله كيد أعدائهم إلى نحورهم "وقبض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العير والأسيرين وبعثت إليه قريش" ليفادوا الأسيرين، فأبى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك وعتبة بن غزوان**»، فلم يفادهما حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا، فأسلم الحكم بن كيسان وأقام عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافرًا "[1].

وهكذا "يمكن اعتبار سرية عبد الله بن جحش الجسر الذي اجتازه صراع المناوشات بين الإسلام والوثنية صوب القتال المنظم المكشوف الذي بدأته معركة بدر، ذلك أن هذه السرية كشفت بسبب توغل مقاتليها بعيدًا إلى طريق التجارة المكية اليمنية مدى خطورة الدولة الناشئة على تجارة مكة خاصة، ووجودها الوثني عامة"[2].

إن الجرأة الشديدة التي تمت بها هذه العملية أذهلت قريش التي لم يدر بخلدها أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يستطيعون التوغل إلى هذه الدرجة في منطقة نفوذها، وكان التوغل من منطقة بعيدة عن أعين قريش، وغير متوقعة على الإطلاق، ومما زاد في دهشتها تلك السِّرية التامة، والدقة المتناهية التي تمت بها العملية، حتى إن عيون قريش لم ترصدها (ومخابراتها) لم تستطع معرفة الوجهة التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين "ولكتمان أهم عامل من عوامل مبدأ (المباغتة) وهي أهم مبدأ من مبادىء الحرب"[3].

وبالإضافة إلى ذلك فقد أثبتت هذه السرية بما لا يدع مجالاً للشك بأن جيش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوي يندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمات، ويتحلى بمزايا القتال، وبمقدرته على إنجاز الواجبات بكل كفاءة واقتدار مما يدل على روحه المعنوية العالية.

فكم كان موقف قائد السرية رائعًا، يدل على ضبطه العسكري الجيد بإطاعته

---

(١) انظر: البيهقي، الدلائل، ٣/ ٢١، ابن حجر، فتح، ١/ ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص: ١٧٤، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٠١.

(٣) خطاب، الرسول القائد، ص٩٤.

الأوامر النبوية العليا دون تردد أو تخاذل، وهو بعيد عن مقر القيادة العليا، فما أن قرأ الكتاب حتى امتثل فورا للأمر ونفذه بحذافيره، معطيًا من نفسه القدوة الحسنة، باثًا في نفوس جنوده الحماس وهو يقول لهم: "من كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[1].

ولا غرو في ذلك، فهو خريج مدرسة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية.

وكم كان موقف جنوده البواسل عظيمًا، عندما امتثلوا جميعًا لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومضوا له لم يتخلف عنه منهم أحد، على الرغم من تأكيدات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقائد بترك الحرية الكاملة لهم في الاختيار.

ومن هذا المنطلق تتجلى عدالة الإسلام بإعطاء الأفراد الحرية الكاملة في أمر لم تكن فيه ضرورة إلزامية.

إن النتائج التي تحققت في هذه السرية، اعتُبرت أوليات في تاريخ الصراع الإسلامي الوثني، فالقتال الذي دار فيها اعتبر أول مواجهة عسكرية دموية بين الطرفين نتج عنها أول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين، وأول غنيمة ينفلها الله عز وجل للمسلمين، كأول تعويض يقبضه المهاجرون عن أموالهم التي استولت عليها قريش في مكة، والشاهد أن ما تمخض عن هذه السرية من أحداث مهمة أصبح سابقة في التاريخ الإسلامي، مما جعلها تستأثر باهتمام كبير ومركز من أهل المغازي حتى اعتبرها بعضهم أول سرية في الإسلام[2].

وقد كان موقف قريش التالي لأحداث هذه السرية مزيجًا من الغضب والخوف في آن واحد، لذلك فكرت وبدهاء شديد استغلال الثغرة الناتجة عن الخطأ التقديري الذي وقع فيه أصحاب السرية علّها تستطيع بذلك أن تشفي غيظها من المسلمين بإثارة العرب ضدهم، فأخذت أبواق دعايتها ترعد، وتبرق تصم الآذان بشتم المسلمين، ووصفهم بأنهم أناس لا يراعون الحرمات، ولا يحترمون التقاليد والأعراف المتعارف عليها بين العرب، وأن ما قاموا به يناقض تعاليمهم التي ينادون بها، وغير ذلك فلما أكثرت قريش وتمادت في غيها نزلت الآيات من فوق سبع سماوات تقريعًا وتوبيخًا لقريش المتشدقة بحماية الحرمات

(١) ابن هشام، سيرة، ٢/ ٦٠٢.
(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٠٢.

ورعاية الأعراف.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

"فحدثهم الله في كتابه أن القتال في الشهر الحرام حرام كما كان، وأن الذي يستحلون من المؤمنين هو أكبر من ذلك من صدهم عن سبيل الله، حين يسجنونهم ويعذبونهم ويحبسونهم أن يهاجروا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفرهم بالله، وصدهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة والصلاة فيه، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سكانه من المسلمين وفتنهم إياهم عن الدين.

فمن يدافع عن الحرمات لا بد أن يكون مؤهلا لذلك بأن يكون على الأقل قدوة فيما يدَّعيه، فهلا قومت قريش سلوكها تجاه من فرض وأمر بهذه الحرمات التي يدَّعون أنهم قَيِّمون عليها، وهم يشركون معه في العبادة أحجارًا وأوثانًا لا تنفع ولا تضر. لقد كان في هذا التقريع والتوبيخ الإلهي ما يكفي لردع قريش وكبح جماحها وكتم أبواق دعايتها وبالتالي تعريتها أمام الرأي العام العربي.

وكان فيه الطمأنينة والأمان للمسلمين وعلى رأسهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراحةُ بال لأهل السرية الذين أسعدهم دفاع الله عز وجل عنهم فطمعوا في الأجر فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء".

أما موقف اليهود بالمدينة فكان ينم عن حقد دفين وكره للمسلمين الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر، فما حصلت تلك المواجهة بينهم وبين قريش حتى تفاءلوا عليهم بها شامتين، وهم يعتقدون أنها بداية الشرارة لحرب شعواء؛ يكون فيها القضاء تمامًا على المسلمين القلة في ذلك الوقت بالنسبة لقوة قريش وحلفائها الضاربة في الجزيرة العربية. ولكن الله كبتهم، فصار فألُهم شؤمًا عليهم عندما أعز الله جنده ونصرهم على أعدائهم من المشركين، فتفرغوا بذلك اليهود، وقذف الله الرعب في قلوبهم، وركبهم الذل والهوان حتى خرجوا من المدينة صاغرين.

ومما يستفاد أيضا: "أن شرع من قبلنا شرع لنا حتى يرد ناسخ، وذلك أن

تحريم القتال في الأشهر الحرم كان حكما معمولا به من عهد إبراهيم، وإسماعيل، وكان من حرمات الله، ومما جعله الله مصلحة لأهله، قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

فكان رجب أمانا للسالكين إليها مصلحة لأهلها، ونظرا من الله لهم دبَّره، وأبقاه من ملة إبراهيم لم يُغيِّر حتى جاء الإسلام، ثم أباحته آية السيف في سورة براءة؛ فإن براءة كان فيها نبذ العهد العام وهو أن لا يصد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم، وأن لا يحج مشرك، وإباحة القتال في الأشهر الحرم، أي مع بقاء حرمتها فإنها لم تنسخ، قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فتعظيم حرمتها باق، وإن أبيح القتال[١].

وفيها أيضا دليل على تسويغ الاجتهاد في زمنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أصحاب السرية قد أدَّاهم اجتهادهم إلى مهاجمة القافلة دونما أمر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى فيه تصويب لاجتهادهم ذلك بعد أن أكثر الناس في تقريعهم ولومهم بناء على دعاية قريش المغرضة ضدهم... والله أعلم[٢]

إن المتأمل في أحداث وتفاصيل حركة السريا والغزوات التي سبقت موقعة بدر الكبري يجد أن أفرادها كلهم كانوا من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار يقول ابن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: (والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين) ولم يبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً.

وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه منها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أولاً وإحيائها على المستوى الخارجي، وإنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة، وإضعاف قريش عسكرياً، وتدريب الصحابة على إتقان فنون القتال، رصد تحركات قريش، إرهاب العدو الداخلي في المدينة وماحولها، اختبار قوة العدو، وقد استطاعت تلك السرايا والغزوات أن تلفت أنظار قريش ومن تحالف معها إلى قوة المسلمين وقدرتهم على ضرب أية حركة

---

(١) السهيلي، الروض، ٥/ ٨٠ - ٨١، الحلبي، السيرة، ٣/ ١٤٢، والزرقاني، شرح المواهب، ١/ ٣٩٨.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٠٦.

(٣) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦.

مناوئة سواء في الداخل أو الخارج حتى لايحدث أحد نفسه بمهاجمة الدولة الإسلامية، التي لايتوقف جيشها ليل نهار، مما أرهب الأفاعي اليهودية، والقبائل الوثنية المحيطة بالمدينة وجعل الجميع يعمل ألف حساب قبل أن تحدثه نفسه بغزو المدينة، أو مناصرة أحد من الأعداء عليها(١).

كما أن القراءة في أحداث وتفاصيل حركة السرايا تظهر الزيادة المضطردة في أعداد وقوة المشاركين في تلك الغزوات والسرايا من المهاجرين، ومجيئها متتابعة علي فترات زمنية قصيرة، فلا تكاد السرية أو الغزوة تعود حتى تكون التي بعدها قد خرجت لتحقيق نفس الهدف وهو ضرب مصالح قريش الاقتصادية، وقطع طرق تجارتها، وخصوصاً إلى بلاد الشام مما أقلق مضجع قريش وكلفها زيادة عدد حراس قوافلها، وارتفاع قيمة بضائعها، عدا الرعب والخوف الذي شعر به رجال القوافل القرشية، وأصحاب الأموال في مكة على حد سواء(٢).

ولما وادع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدد من القبائل الواقعة علي تخوم المدينة مثل قبيلة جهينة فإن ذلك أدي إلي تحييد تلك القبائل في الصراع الدائر بين مكة والمدينة والعمل على كسبها في هذا الصراع، ولهذا الأمر أهميته الكبري إذ أن تلك القبائل كانت ترتبط مع قريش بأواصر وعلاقات تجارية وتتعاون معها، وعقدت بينهما مُحَالفَات تاريخية سمّاها القرآن الكريم بالإيلاف (في سورة قريش)، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن).

وبمقتضي هذه المعاهدات، أمنت الدولة الإسلامية في المدينة من خطر تلك القبائل أولاً، وثانيا أصبحت خطراً علي قوافل قريش التجارية مما زاد العبأ عليها فأصبحت تلك القبائل تشكل خطراً على تجارة قريش (٣).

كما شعر الأعراب الضاربين حول المدينة بقوة المسلمين، فلم تعد لهم الجرأة في مهاجمة القوافل التجارية ولا الأموال لأهل المدينة، وتلاشت قوتهم وقدرتهم علي فرض الإتاوات علي القوافل المارة بهم، وبالرغم من أن كرز الفهري قد أغار علي قافلة للمسلمين إلا أنه وجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطارده ويجد في طلبه، وأصبح ذلك درسا قاسيا لكل من تسول له نفسه في مهاجمة المدينة بعد هذه

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص٧٥.
(٢) د. كامل سلامة، دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٣٢.
(٣) د. أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني، ص٢٧، مؤنس، دراسات في السيرة، ص١٩.

المطاردة[1] .

كما أن السرايا والغزوات التي وقعت قبل موقعة بدر ، لم يجر في احد منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري ، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص ، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً ، ثم يقلتوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة – كما فعلت جهينة وبنو ضمرة ازدادوا حقداً وغيظاً ، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل: من إبادة المسلمين في عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر[2] .

كان هذا النشاط المتدفق من السرايا والبعوث على شكل موجات متعاقبة من جند الإسلام الأوائل دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة وبقيادة النبي القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل ، عمل دءوب متواصل لتبليغ دعوة الحق إلى الناس جميعًا ، وهؤلاء الرجال الأفذاذ جنود الحق الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم ، والذين كانوا يتسابقون في الخروج تطوعًا وعن طيب خاطر ، جنودًا بواسل في هذه السرايا والبعوث غير آبهين بالمشاق والمصاعب والمخاطر ، بل كانوا يتحرَّقون لملاقاتها وقهرها طمعًا في الأجر وإعلاء لكلمة الله عزَّ وجلَّ .

كما أن هذه السرايا كانت بمثابة تمرينات عسكرية تعبوية ، ومناورات حية لجند الإسلام ، استعدادًا للغزوات الكبرى التي كانوا يخوضون غمارها مع قائدهم الأعلى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حين لآخر .

إننا نرى وبوضوح كامل كيف كان معظم الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) د . عبدالرحمن الشجاع ، دراسات في عهد النبوة ، ص١٣١ .
(٢) الرحيق المختوم ، ص ١٩٨ .

مشاركين ضمن هذه السرايا والبعوث قوادًا تارة، وجنودًا عادين أخرى، فكان ذلك من الخطط (والاستراتيجيات) بعيدة المدى التي كان يعدُّها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتثبيت دعائم الدولة الإسلامية، وإعدادًا منظمًا ودقيقًا لجيوش الفتوحات الإسلامية التي ما فتيء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات السلم والحرب والخوف والأمن.

إنه بنظرة فاحصة في قوَّاد وجنود تلك السرايا والبعوث تطالعنا أسماء لمعت كثيرًا في تاريخ الفتح الإسلامي فيما بعد. مثل قائد فتوحات الشام، أمين الأمة، أبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص بطل القادسية وفاتح المدائن، والذين كانوا علي إثرهم أمثال سيف الله المسلول أسد العرب خالد بن الوليد، وأرطبون العرب فاتح مصر عمرو بن العاص، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

إذا كانت تلك السرايا بمثابة تدريب عملي حي نابض، بل يمكن اعتبارها بلا مبالغة دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها فيما بعد.

إن هذا الكم الوافر من السرايا والبعوث، والطرق التي كانت تتمُّ بها تنقلاتها المسيرية نحو أهدافها، يدل على أن الجندي المسلم في ذلك الوقت كان يتمتع بلياقة بدنية هائلة مع خفة حركة تشحذها روح إيمانية لتضيف إليها العزم والتصميم اللذين يمثلان الروح المعنوية اللازمة، والتي كانت أحد الأسباب الرئيسية للانتصارات المتوالية التي كان يحققها جند الإسلام في كل معركة، ولا شكَّ أن تلك اللياقة القوية لم تأت من فراغ، أو أنها كانت محض صدفة، فالمتتبع للحياة اليومية التي كان يعيشها جند الإسلام الأوائل، يستطيع أن يعرف لماذا كانوا يتمتعون بتلك اللياقة العالية على الرغم من أنهم لم يكونوا جنودًا نظاميين يخضعون بتدريبات عنيفة، وينتظمون في معسكرات إلزامية في مؤسسات عسكرية نظامية كما هو الحال في عالمنا المعاصر.

ولكن بالنظر في حياتهم وتحركاتهم خلال الأربع والعشرين ساعة اليومية يرى أنها كانت عبارة عن تدريب مستمر، فالبرنامج اليومي المنتظم يبدأ مبكرًا مع صلاة الفجر تؤدى جماعة مع قائدهم الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان دائمًا ما يحثهم على أداء هذه الصلاة جماعة وفي وقتها موضحًا لهم ولأمته أنها المفتاح العجيب ليوم مليء بالنشاط والحيوية "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويلٌ فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضأ انحلَّت عقدة، فإن صلَّى انحلَّت

عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيِّب النفس، وإلاَّ أصبح خبيث النفس كسلان"[1].

ثـم ينطلق كل منهم إلى عمله الذي تتخلله فترات الصلوات الباقية، حتى إذا ما صلَّوا الصلاة الآخرة (صلاة العشاء) ناموا تطبيقًا لأمر القائد الأعلى، حتى إذا مـا أخـذوا قسطًا وافـرًا من النوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه، قام معظمهم لأداء صـلاة التهجد التي تملأ قلوبهم روحانية وتكسبهم مزيدًا من النشاط لأدائها في وقـت يكـون الجسم فيه مرتاحًا. فبالإضافة إلى أن حركات الصلاة حركات تدريبية رياضية لكل أعضاء الجسم، فإن في الروحانية المتمثلة في اتصال العبد مع خالقه عـزَّ وجـلَّ في خشوع وطمأنينة، رياضة إضافية للنفس تملؤها إيمانًا ويقينًا، هـذا بالإضـافة إلى الاستعداد الدائم واليقظة التامَّة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَـهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكانـوا دائمًا يقومون بنشاطات تدريبية مركَّزة تتمثَّل في ركوب الخيل، والسبق، والرماية، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحثُّهم على فعل ذلك، بل ويشاركهم فيه، معطيًا مـن نفسه القدوة، فكان يبزُّ الشباب من الصحابة قوة ومهارة ونشاطًا وحيوية، فعن سـلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ على ناس يتنضَّلون[2]، فقـال: حسن هذا اللهم - مرتين أو ثلاثًا - ارموا وأنا مع ابن الأدرع، فأمسك القوم بأيديهم، فقالـوا: لا والله لا نرمي معه وأنت معه يا رسول الله إذًا ينضلنا. فقال: ارمـوا وأنـا معكـم جميعًا، فقال: لقد رموا عامة يومهم ذلك ثمَّ تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضًا"[3].

وكـان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركِّـز علـى تعلم الرماية كثيرًا موضِّحًا أنها خير ما يعدُّ مـن قـوة استعدادية للكفار، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول وهو على المنبر: « **﴿وَأَعِدُّوا لَـهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»"[4].

بـل وكـان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يـشجعهم علـى الـصناعة الحربية المتمثلة في ذلك

(١) أخرجه مسلم، انظر الألباني، مختصر صحيح مسلم، ١٠٦.
(٢) التناضل، الترامي للسبق.
(٣) أخـرجه أحمـد، والحـاكم واللفـظ لـه، وقـال: صـحيح. ووافقـه الذهبي. انظر البنا، الفتح الرباني (١٣/ ١٢٨)، والحاكم، المستدرك (٢/ ١٠٣ - ١٠٤).
(٤) أخرجه مسلم. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/ ٦٤).

الوقت بصناعة الأسهم، وأن الأجر الذي غايته الجنة ينسحب على صاحبها والمتنبل بها، فيروي لنا عقبة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي احتسب في صنعته الخير، ومتنبله، والرامي، ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، وليس من اللهو إلاَّ ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته زوجته، ورميه بنبله عن قوسه، ومن عُلِّم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها**»[1].

فما أروعه من عصر تمسك فيه الصحابة بالتعاليم القرآنية الربانية، وعضّوا عليها بالنواجذ، وقاموا بتطبيقاتها حرفيًّا في شتى شئون حياتهم، فعزوا واستعلوا على أمم الأرض، شرقًا وغربًا، رغم قلتهم وبساطتهم. وحين ابتعد المسلمون عن تلك التعاليم وألقوا بها وراء ظهورهم ركبهم الذُّلُّ والصغار، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السيل.

إن المهمات والأهداف التي أُوكلت للسرايا والبعوث النبوية، كانت تتفاوت تبعًا لاختلاف الظروف المحيطة والحادثة، فكانت السرايا الأولى في معظمها عبارة عن دوريات استطلاعية واستكشافية وجسٍّ نبض، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضية توقع الرعب والفزع في القوافل القرشية، وذلك قبل غزوة بدر الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها، أصبحت مهمَّة بعض السرايا والبعوث تنصب في تصفية الأفراد من أعداء الدولة الإسلامية المندسين في صفوفها مثل كعب بن الأشرف، والعصماء بنت مروان، وأبي عفك، فكان في قتل كعب ردعًا لليهود، وقتل العصماء وأبي عفك ردعًا للمشركين والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمور (الاستراتيجية) لغير صالح المسلمين بعد أحد، وعندما طمع الأعراب في خيرات المدينة، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنهم غدروا ببعض البعوث التعليمية كما في الرجيع وبئر معونة، غيَّر تبعًا لذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (استراتيجيته) العسكرية، فانتقل بالسرايا من قريش إلى الأعراب لتأديبهم وردعهم، ولكن بطريقة صارمة وسريعة ومباغتة.

وكان أهم ما يميِّز تلك السرايا هو الهجوم التعرضي، وذلك بأن يتم فيها مهاجمة الأعراب قبل تحشُّدهم وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

---

(١) أخرجه أحمد، والحاكم وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. انظر البنا، الفتح (١٣/ ١٢٩)، والحاكم، المستدرك (٢/ ١٠٤).

وهكذا ظلت السرايا والبعوث النبوية تؤدي دورها وتقوم بمهامها الخاصة لخدمة أهداف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القريبة والبعيدة المدى ، فمن دوريات قتالية ، إلى سرايا تعقبية ، وأخرى تمويهية ، حتى إذا ما توطَّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكة ، اهتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإزالة كل ما يمتُّ للوثنية بصلة ، فبعث السرايا والبعوث من مكة لتحطيم بقية رموز الشرك والوثنية ، فانطلقت السرايا لتحطيم العزى ، ومناة ، واللات وسواع ، وذا الخلصة ، وغيرها من الأصنام والطواغيت الوثنية .

ثم انطلقت السرايا الدعوية إلى كافة أرجاء الجزيرة العربية ، تدعو إلى عبادة الله وحده وتزيل من طريق الدعوة كل العراقيل والقوى التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية وهي خاضعة للضبط العسكري النبوي ، منفذة لكل الأوامر النبوية العليا ، والتي يمكن اعتبارها قمة أهداف وممارسات الحرب الفروسية المشرفة التي لم يشهد لها العالم مثيلاً من قبل ولا من بعد ، والتي هي أحد دعائم الدعوة الإسلامية ، بل أحد أهمِّ الأسباب التي دعت معظم سكان المناطق التي كانت تمرُّ بها هذه السرايا النبوية ، ثمَّ الجيوش الراشدية الفاتحة بعد ذلك إلى الدخول طواعية وبحب غامر ورغبة ملحة في الإسلام .

لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحللين على اختلاف مشاربهم ودياناتهم ، ولكن المحلِّل المنصف المتجرد ستزول دهشته حتمًا عندما يقرأ تلك التعاليم والوصايا النبوية لقوَّاد وجنود السرايا والبعوث والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية ، وأصبح الذين شاركوا بالأمس في السرايا والبعوث مشاركين اليوم على رأس تلك الجيوش الفاتحة مقتدين نفس النهج ، سائرين على نفس الطريق الذي رسمه لهم قائد الأمة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تلك الأوامر والتعاليم النبوية صارت تتكرر على ألسنة الخلفاء وقادة جيوش الفتوح فيما بعد .

والآن ما هي تلك الوصايا؟

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل لله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم**

إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا» [(١)].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيشًا قال: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلُّوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين» [(٢)].

وعن أبي موسى رضي لله عنه قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»[(٣)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيشًا أو سرية يقول: «إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم مؤذنًا فلا تقتلوا أحدًا» [(٤)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع» [(٥)].

---

(١) رواه مسلم، الصحيح (٤/ ٨ – ٩).
(٢) رواه أبو داود. انظر شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/ ٢٧٤).
(٣) رواه مسلم، الصحيح (٤/ ٩).
(٤) رواه الترمذي انظر المباركفوري، تحفة الأحوذي (٥/ ١٥٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
(٥) رواه أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (١٤/ ٥٢).

وعـن عـبد الرحمن بن عائذ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعـث جيـشًا قال: «**تألفوا الناس وتأتوهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم إلى الإسلام؛ فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحبُّ إليَّ من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم**» [1].

وقـد كـان المـصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمنـى ألا يتخلف عن أي سرية أو بعث يبعـثه للجهـاد في سـبيل الله تعالى، وإعزاز دينه، ولكنه كان يفعل ذلك اضطرارًا لـدرء المشقة عـن المـسلمين، وهـا هـو يعـتذر عـن ذلك، موضحًا حكمة بعوثه وسراياه فيقول: «**والذي نفسي بيده، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سريـة تغـزو في سـبيل الله أبـدًا، ولكـن لا أجـد سـعة فأحملهم، ولا يجدون سعة فيتـبعوني، ويـشق أن يقعدوا بعدي، والذي نفسي بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثُم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل**» [2].

فـيا لـروعة هـذا الاعـتذار وسُموِّه، والذي يوضح بطريق غير مباشر، المنزلة العظـيمة للـشهيد عـند الله عزَّ وجلَّ لدرجة أن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمنى أن يقتل شهيدًا في سبيل الله عدة مرات [3].

غزوة بـدر الكبرى:

كانت غزوة بدر الكبرى تطبيقًا عمليًا وضحت به مشروعية القتال في الإسلام وهـي الـدفاع عـن الـنفس ورد الظلم والعدوان، كما كانت الغزوات التي جاءت بعدها في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دفاعًا عن النفس وردًّا للظلم وتأمينًا لطريق الدعوة حتى تقف في سبيلها الحواجز، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

لم يكـن المـسلمون قـد اشـتبكوا مـع قـريش بـشكل حاسـم حتى تاريخ هذه الغـزوة، وذلـك مـا أتـاح لقـريش مواصلة إرسال قوافلها التي كانت تمثل شريان الحـياة لاقتـصادها، ويلاحـظ أن قريشا استشعرت الخطر فأخذت تهيىء لقوافلها حراسـات شـديدة وكثيفة، وتنوع الطرق التي تسلكها. وكان المسلمون يرصدون تحـرك القـوافل القرشية وتتجمع لديهم الأخبار عن محتواها وبضاعتها وحراساتها

(١) انظر الشامي، سبل (٦/ ١٧).

(٢) رواه البخاري: الصحيح (٣/ ٢٠٣).

(٣) بـريك بـن محمـد بـريك أبـو مايلـة العمـري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص٦١ - ٦٨.

والطرق التي تسلكها(١) .

وكانت البداية أنه بلغ المسلمين تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام وهي تحمل أموالا عظيمة (٢) لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا (٣) ، فأرسل الرسول ﷺ بسبس بن عمرو (٤) لاستطلاع أخبار القافلة ، فلمّا عاد بسبس بخبرها ندب النبي ﷺ أصحابه للخروج متعجلا بمن كانوا على استعداد دون أن ينتظر تهيؤ الآخرين ممن أبدى رغبة في الخروج ، حرصا منه على ألّا تفوتهم القافلة (٥) ، وكلّف عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة عند خروجه إلى بدر ، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة وعيّنه أميرا عليها(٦) .

أرسل النبي ﷺ اثنين من أصحابه وهما عدي بن الزغباء ، وبسبس ابن عمرو (٧) إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة ، فرجعا إليه بخبرها (٨) ، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوته هذه إلى بدر ، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة» (٩) ، يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا (١٠) ، في حين

---

(١) عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي ، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الرابعة ، ١/ ٢٨٦ .

(٢) قدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بخمسين ألف دينار ، انظر: الواقدي – المغازي ١/ ٢٠٠ ، البلاذري – أنساب الأشراف ، ١/ ٣١٢ .

(٣) ابن حزم ، جوامع السيرة ص ١٠٧ .

(٤) ورد الإسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحّفا إلى "بسيسة" ، وصححه ابن حجر في الإصابة ١/ ١٥١ .

(٥) مسلم – الصحيح ، شرح النووي ١٢/ ٨٤ حديث ١١٥٧ .

(٦) الحاكم – المستدرك ، ٣/ ٦٣٢ . ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠ .

(٧) انظر: ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٢٤ .

(٨) ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٢٤ بإسناد صحيح .

(٩) فتح الباري ٧/ ٢٩٠ – ٢٩٢ .

(١٠) مسلم – الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤) وتذكر الرواية وهي عن طريق الزبير بن العوام وقد شهد الموقعة بأن منهم مائة من المهاجرين والباقي من الأنصار ، في حين ذكر البراء بن عازب أن المهاجرين كانوا يزيدون على الستين وأن الأنصار يزيدون على أربعين ومائتين (فتح الباري ٧/ ٢٩٠ – ٢٩٢ ، ٣٢٤ – ٣٢٦) .

ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين [١].

غير أن علينا أن نتذكر بأن قوات المسلمين هذه التي صاحبت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوته إلى بدر لا تمثل الطاقة العسكرية القصوى للحكومة النبوية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة تجارية واحتوائها، يدل على ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها**» [٢]، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب والتي بلغ تعدادها ألفا [٣]، معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان [٤] يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه [٥]، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرا يتعاقبون ركوبها [٦].

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل، في نفس الوقت الذي أرسل فيه إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها. وكان وقع ذلك شديدا على قريش، التي اشتاط زعماؤها غضبا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية [٧].

وأرسل أبو سفيان بعد ذلك إلى زعماء قريش وهم بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدّى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب

---

(١) مثلا: ابن كثير – البداية والنهاية ٣/ ٣١٤، وكذلك كتب الطبقات لابن سعد وخليفة بن خياط العصفري.
(٢) ابن هشام – السيرة ٢/ ٦١ بسند صحيح إلى عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –.
(٣) مسلم – الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٤).
(٤) القيان: جمع قينة، وهي: الجارية المغنية.
(٥) ابن كثير – البداية ٣/ ٢٦٠.
(٦) أحمد – المسند ١/ ٤١١، والحاكم – المستدرك ٣/ ٢٠. الهيثمي – مجمع الزوائد ٦/ ٦٩، ابن كثير – البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠، ابن حزم – جوامع السيرة ص ١٠٨.
(٧) ابن حجر – فتح الباري ٧/ ٢٨٣، ابن هشام – السيرة ٢/ ٢٩٨، ٣١١ بأسانيد حسنة.

المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية [1] وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها. وقد انشق بنو زهرة [2]، ومن كان مع قريش من بني هاشم [3]. وعادوا إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت إلى منطقة بدر [4].

بلغت أخبار تجمع قريش وتقدمهم تجاه منطقة بدر إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في طريقه إلى بدر، فاستشار أصحابه في الأمر [5]، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا اقناع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن الكريم موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عموما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ * يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

ترحيب الصحابة بمواجهة قريش:

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو [6]، وكانت لهم مواقف مشهودة في تأييد فكرة الخروج لقتال قريش، منها موقف المقداد بن الأسود، فيروي عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عُدِلَ به [7]: أتى النبي

(١) ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٢٨٣، ابن هشام - السيرة ٢/ ٢٩٨، ٣١١ بأسانيد حسنة.
(٢) كان عدد بني زهرة في قوات قريش حوالي ثلاثمائة مقاتل، ابن هشام - السيرة ٢/ ٢١٢.
(٣) كانوا بقيادة طالب بن أبي طالب، وكانت قريش قد اتهمتهم بأن هواهم مع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابن هشام - السيرة ٢/ ٣١١ - ٣١٢.
(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١/ ٢٨٨.
(٥) البخاري - الصحيح (حديث ٣٩٥٢)، مسلم - الصحيح (حديث ١٧٧٩)، أحمد - الفتح الربّاني ٢١/ ٢٩ - ٣٠، ابن أبي شيبة - المصنف ١٤/ ٣٥٥، ابن كثير - البداية ٣/ ٢٦٢ - ٦٣.
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٣٩٥٢)، أحمد - المسند ٥/ ٢٥٩، ابن هشام - السيرة ٢/ ٣٠٥.
(٧) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يدعو على المشركين فقال: لانقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة، ٢٤]. ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك.

فرأيت الرسول أشرق وجهه وسره [١] وفي رواية [٢]قال المقداد: يارسول الله، لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن امضي ونحن معك، فكأنه سُرى عن رسول الله.

وبعد ذلك عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أشيروا عليّ أيّها النّاس**» وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارج المدينة. وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك فنهض قائلا: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجل**»، قال: «لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله» [٣].

سرّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقالة سعد بن معاذ، ونشّطه ذلك، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سيروا وأبشروا، فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين. والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم**» [٤].

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وملهبة لمشاعر الصحابة فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال إن حرص النبي

مايقابل ذلك لكان حصوله أحب إليه.

(١) البخاري، كتاب المغازي، ٧/ ٢٨٧.

(٢) البخاري، كتاب التفسير، ٨/ ٢٧٣.

(٣) مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٠٤ (حديث ١٧٧٩)، ابن كثير - البداية ٣/ ٣٥١.

(٤) ابن كثير - البداية ٣/ ٢٦٢ - ٣ بإسناد صحيح، وذكر الحافظ ابن كثير أن له شواهد في وجوه كثيرة إذ رواه البخاري والنسائي والإمام أحمد (فتح الباري - ٧/ ٢٨٧)، وأحمد - المسند ٥/ ٢٥٩ (حديث ٣٦٩٨).

على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات، ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فأما إلى العلياء، وأما تحت الغبراء[1].

تنظيم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجيش:

نظَّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جنده، بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة[2].

وقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، ومابلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبارهم: فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «**نعم**». فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً - ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحن من ماء**». ثم انصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبوبكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: مامن ماء؟ أمن ماء العراق[3].

وتورية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إجابته على سؤال الشيخ (ممن أنتما؟ بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحن من ماء**». وهو جواب يقتضيه المقام، فقد اراد به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش، وفي انصرافه فور استجوابه كتمان - أيضاً - وهو دليل على مايتمتع به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من ماء**»[4].

---

(١) أبو فارس، غزوة بدر الكبرى، ص٣٧.
(٢) ابن القيم - زاد المعاد ٢/ ٨٥.
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

وهـذه هـي صـفة الكـتمان والسرية الـتي حـافظ علـيها الحبـيب محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عامة غزواته .

وحصل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على معلومات كثيرة عن موقع الجيش المكي ، ومن به من الأشراف ، واستنتج عدد أفراده من معرفته لعدد ما ينحر لهم يوميًا من الجمـال ، فقـد أرسـل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علـيّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام ليعرفا الأخـبار ، فـوجدوا غلامـين يـستقيان لجـيش المـشركين فأتـوا بهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقـال لهمـا: «**أخـبراني عـن جـيش قـريش**» ، فقالا هم وراء هذا الكثـيب الـذي تـرى بالعـدوة القـصوى . فقـال لهمـا: «**كـم القوم؟**» قالا: كثير . قـال: «**ماعدتهم؟**» قالا: لا ندري . قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القوم مابين التـسعمائة والألـف**» فقـال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**» فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأباجهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش ، فأقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أصحابه قائلاً: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**» [1] .

-: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ .

وفي ليلة بدرأنزل الله تعالى على المؤمنين نعاسا أمنهم وأراحهم ، ومطرا طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان وربط على قلوبهم وثبّت به أقدامهم ، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١] .

لقـد امتن الله المسلمين يوم بدر بأن أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلـتحموا مـع أعـدائهم قـال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١] .

لقـد فـزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يـتخذوا لـه عدتـه . . فـإذا الـنعاس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسـهم ؛ والطمأنيـنة تفـيض علـى قلوبهم . . . ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضـح للمـسلمين المجهـودين في غـزوة بـدر . . . وامـتن الله علـيهم بهـا . وهـو

(١) مسلم – الصحيح ٣/ ١٤٠٤ ، كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام برواية ابن إسحاق .

يقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] .

لقد كانت هذه الغشية ، وهذه الطمأنينة ، مدداً من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ . .

ولفظ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ولفظ: ﴿النُّعَاسَ﴾ ولفظ: ﴿أَمَنَةً﴾ . . كلها تشترك في إلقاء ظل لطيف شفيف ؛ وترسم الظل العام للمشهد ، وتصور حال المؤمنين يومذاك ، وتجلي قيمة هذه اللحظة النفسية الفاصلة بين حال للمسلمين وحال .

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ . .

فهي قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة .

ففي هذه الليلة - وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر - كانت هذه الحالة التي يذكر الله بها العصبة التي شهدت بدراً . . والمدد على هذا النحو مدد مزدوج: مادي وروحي . فالماء في الصحراء مادة الحياة ، فضلاً على أن يكون أداة النصر . والجيش الذي يفقد الماء في الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة . ثم هذه الحالة النفسية التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان! حالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص لهم بعد في التيمم ، فقد جاء هذا متأخراً في غزوة بن المصطلق في السنة الخامسة) .

وهنا تثور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب! والنفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها . . وهنا يجيء المدد وتجيء النجدة .

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ . .

ويتم المدد الروحي بالمدد المادي ؛ وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ؛ وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال[1] .

روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ

---

(١) انظر الظلال في تفسير قوله تعالي: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [سورة الأنفال ، آية ١١] .

الشَّيْطَانِ﴾ قال: نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني حين سار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دِعْصَةُ - أي كثير مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليكم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم [1].

الوصول إلى بدر ومشورة الحباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وبعد هذا الفيض الإلهي سار الحبيب محمد بالجيش الإسلامي حتى وصل إلى بدر واستطلعوا الموضع قبل وصول قوات قريش، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يارسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يارسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم - أي جيش المشركين - فننزله ونغوِّر - نُخرب - ماوراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون[2] فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي الحباب بن المنذر وفعل بما أشار به ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار [3].

هذا هو الموقف العملي من حياة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمع عظمة وجلالة قدر الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمنع ذلك من أن يدلو كل فرد في جيشه بدلوه في وضع الخطة الحربية للجيش مادام ذلك يصب في مصلحة الجميع، فلم يجل بخطر الحباب احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول مايترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك الناصح بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

وهذه الحرية التي ربىّ عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه مكنت

---

(١) تفسير الطبري، ٩/ ١٩٥.

(٢) ابن حجر - الإصابة ١/ ٣٠٢ بسند حسن إلى عروة ولكنه مرسل.

(٣) ابن هشام - السيرة ٢/ ٣١٢ - ٣١٣ وإسناده مرسل موقوف على عروة كما في المصدر السابق، والحاكم - المستدرك ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧، قال الذهبي عنه: حديث منكر، وفي البداية والنهاية ٣/ ٢٩٣: إسناده منقطع.

مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً وإن كان حديث السن لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد، لأنه ليس هناك مايحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه [(١)].

وهناك مشهد آخر من مشاهد العظمة في معركة بدر، ذلك الأدب الجم الذي يتعامل به الصحابة رضوان الله عليهم مع الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جعل هذا الأدب الحباب يتقدم إلي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقدم مشورته في صورة استفهام ويقول: "أرايت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولانتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟" فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذا الموقف ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها، أو قائد من قوادها [(٢)].

وفي صباح السابع عشر من شهر رمضان نظّم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه على هيئة صفوف [(٣)].

بناء العريش:

وبعد نزول النبي والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد

---

(١) الحميدي، التاريخ الإسلامي، ٤/ ١١٠.

(٢) التربية القيادية، ٣/ ٢١.

(٣) أحمد – المسند، وهو أسلوب جديد لم تعتد عليه العرب قبل ذلك يقلل من خسائر الجيش ويعوض عن قلة العدد أمام العدو ويمكن القيادة من إحكام السيطرة. انظر: محمود شيت خطاب – الرسول القائد ص ٧٨ – ٧٩.

بن معاذ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء عريش[1] له يكون مقراً لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يانبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك، أقوام، يانبي الله، مانحن بأشدّ لك حبًّا منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً متخلفوا عنك يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك) فأثنى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيراً ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2].

وقد ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من مقر قيادته - العريش - وهو يقرأ قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [3].

وقد أثنى الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سعد ودعا له بخير، ولأنه قدر الظروف وعرف أن مكان القائد هو الإشراف والتوجيه فلا ينبغي أن يتعرض للأخطار، لأن في حياته حياة الأمة وكيانها وكرامتها، ثم بني العريش للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يكون في مأمن من العدو إذا لم يكن النصر في جانب المسلمين، وهكذا الإخلاص والإيثار: إخلاص الجندي الأمين لقائده الأمين، وإيثار المؤمن لنبيه على نفسه.

وبمثل هذا الإخلاص والإيثار مَنَّ الله على المسلمين، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، وإن في ذلك لعبرة . . .

دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وأكثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدعاء، واستغاث بالله تعالى، عن عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: لمّا كان يوم بدر، قال: نظر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبلة، ثمّ مدّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثمّ قال: «**اللّهمّ أنجز ما وعدتني، اللّهمّ أت ما وعدتني، اللّهمّ إنّك إن تهلك هذه العصابة من أهل**

(١) شبه خيمة يكون مقراً للقيادة وظلاً للقائد.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).
(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٨٧).

الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا» ، قال: فما زال يستغيث ربّه - عزّ وجلّ - ويدعوه حتّى سقط رداؤه: فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّه ، ثمّ التزمه من ورائه ، ثمّ قال: يا نبيّ الله ، كفاك مناشدتك ربّك[1] ، فإنّه سينجز لك ما وعدك ، وأنزل الله - عزّ وجلّ -: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2] [الأنفال: ٩][3] .

هذا درس مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها ، والخلوص واللجوء لله وحده والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه لكي ينزل نصره ويبقى مشهد نبيه ، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو ماد يديه يستغيث بالله ، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ووجدانه ، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات ، وفي مثل هذه المواطن ، حيث تناط به المسؤولية وتلقى عليه أعباء القيادة[4] .

ومن فوائد الاستغاثة:

- فيها صرف الهمّة كلّها إلى الله المتصرّف في الكون كلّه بكمال قدرته واليقين بأنّ الخلق ينفّذون قدره وأمره .
- الاستغاثة في الأمور الّتي لا يقدر عليها إلّا الله من التّوحيد ؛ فهي دليل الإيمان به وحده .
- بالاستغاثة تقوى عزيمة الإنسان لمعرفته بأنّ من يستغيث به قادر على إغاثته .
- الاستغاثة سبب من أسباب النّصر كما حدث للمسلمين يوم بدر .
- الاستغاثة تقوّي الرّوح المعنويّة للمستغيث وتعلمه بأنّ الفرج قريب .
- الاستغاثة مجلبة للخير ، وبها يعمّ الخير للعباد والبلاد .

تنظيم الصفوف:

وفي صباح السابع عشر من شهر رمضان نظّم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه

---

(١) منا شدتك ربك: المناشدة السؤال ، مأخوذة من النشيد وهو رفع الصوت ، هكذا وقع لجماهير رواه مسلم ، ولبعضهم: كفاك ، وكلّ بمعنى واحد .
(٢) مردفين: متتابعين .
(٣) البخاري - الفتح ٧ (٣٩٥٣) مختصرا ، مسلم (١٧٦٣) واللفظ له .
(٤) التربية القيادية ، ٣/ ٣٦ .

على هيئة صفوف [1]، وهو أسلوب جديد في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفاً من قبل حتى قاتل به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أسلوب جديد لم تعتد عليه العرب قبل ذلك، وفيه يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعاً لقلة المقاتلين أو كثرتهم، وتكون الصفوف الاولى من أصحاب الرماح لصدّ هجمات الفرسان وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وهذا الأسلوب في القتال يقلل من خسائر الجيش ويعوض عن قلة العدد أمام العدو ويمكن القيادة من إحكام السيطرة[2].

وأمر الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم، لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة، وأبقي للأسلحة حتى لا يستخدمونها فيما لا طائل منه وبالاقتصاد في الرمي وكانت توجيهات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم. ولا تسلّوا السّيوف حتّى يغشوكم**» [3].

وعدل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان في يديه قِدْح يعدل به، وكان سَوَاد بن غَزِيَّة مُسْتَنْصِلًا من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «**استو يا سواد**»، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه وقال: «**استقد**»، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخير [4].

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بين القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما محمد فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده ليقتص الجندي منه [5]

ثم عبأ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه، وحثهم علي القتال امتثالاً لقوله

---

(١) أحمد – المسند.
(٢) محمود شيت خطاب – الرسول القائد ص ٧٨ – ٧٩.
(٣) أبو داود – السنن ٤/ ٤٩.
(٤) ابن هشام – (ج ١ / ص ٦٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢٨٣٥.
(٥) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص٥٩.

تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ونادي الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه وقال لهم: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ[1] فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مايحملك على قولك: بخ بخ؟**» قال: لاوالله يارسول الله إلا رجاءة[2] أن أكون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**». فأخرج ثمرات من قرنه[3] فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[4].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشرهم بقتل صناديد المشركين، ويحدد مكان قتل كل واحد منهم، فروي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنّا مع عمر بين مكة والمدينة، فتراءينا الهلال. وكنت رجلا حديد البصر[5]. فرأيته. وليس أحد يزعم أنّه رآه غيري. قال فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي. ثمّ أنشأ يحدّثنا عن أهل بدر فقال: إنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس. يقول: هذا مصرع فلان غدا، إن شاء الله قال فقال عمر: فو الذي بعثه بالحقّ ما أخطؤوا الحدود التي حدّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6].

كما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشر المؤمنين بالنصر وتأييد الملائكة لهم قبل بدء المعركة مما يرفع من روحهم القتالية وينشطهم فيقول: «**أبشر أبا بكر هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض**»[7].

وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه صبيحة يوم المعركة أنه: «**لا يتقدّمنّ أحد**

(١) بخ بخ: كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وتقال بالسكون وبالجر والتنوين (بخ بخ).
(٢) إلا رجاءة: أي والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها.
(٣) قرنه: أي جعبة النشاب.
(٤) مسلم – الصحيح ٣/ ١٥٠٩ – ١٥١٠ (ح ١٩٠١).
(٥) حديد البصر: أي نافذه ومنه قوله تعالى: (فبصرك اليوم حديد).
(٦) رواه مسلم برقم (٢٨٧٣).
(٧) رواه البيهقي في دلائل النبوة، ٣/ ٣٨.

منكم إلى شيء حتّى أكون أنا دونه» [1]، فدنا المشركون فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض»** [2].

ووقف المسلمون بانتظار المعركة هادئي الأنفاس منيري الآفاق، تغمر الثقة قلوبهم، تنتابهم الراحة النفسية؛ آملين أن يروا بشائر ربهم بعيونهم، وأن يتحقق موعود الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقبل أن تبدأ المعركة أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستنفذ كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أرسل إلا رحمة للعالمين، فأراد أن يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين، فلما نزل الجيش الوثني أرض بدر أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمر بن الخطاب إلى قريش، وقد كان سفيرهم في الجاهلية، فنصحهم عمر بالرجوع إلى ديارهم حقنا للدماء.. فتلقفها حكيم بن حزام أحد عقلاء المشركين، فقال: قد عرض نصفا، فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف. فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم[3].

فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصاً على حقن الدماء، في حين كان أبو جهل حريصاً على سفك الدماء، وانظر إلى هذه القيمة الحضارية التي يسجلها نبي الرحمة في هذه المعركة [4].

أما قريش فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، فلما رآها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصوب من الكثيب الذي جاءوا منه قال: **«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به اللهم أحنهم[5] الغداة»** [6].

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ١٥١٠ (حديث ١٩٠١).
(٢) المنذري - مختصر صحيح مسلم ٢/ ٧٠ (حديث ١١٥٧).
(٣) الواقدي، ١ / ٦٢، والسيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٣٩٩، وسبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٣٣.
(٤) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص٦٠.
(٥) أحنهم: أي أهلكهم.
(٦) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٧.

وقد كان خفاف بن أيماء بن رحضة الغفاري - أو أبوه أيماء بن رحضة الغفاري - بعث إلى قريش، حين مروا به، ابنا له بجزائر أهداها لهم؛ وقال لهم: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم! قد قضيت الذي عليك. فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم. ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة [1].

وبعد أن استقر رأي قريش علي خوض غمار المعركة بعثت عُمَيْر بن وهب الجُمَحِي للتعرف على مدى قوة جيش المدينة فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر على فرس له ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة وخمسون يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، ولكن أنظروني حتى أنظر في الوادي حتى أرى هل لهم مدد أو كمين؟ فضرب في الوادي حتى أمعن، ثم رجع فقال: ما رأيت شيئا، ولكن يا معشر قريش، قد رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح [2] تحمل الموت الناقع [3]، قد رأيت أقواما ما وراءهم مرجع، وما عصمتهم إلا سيوفهم، ولا والله ما أرى أن يقتل رجل حتى يقتل مثله، فإذا قتلوا مثل أعدادهم فما خير في العيش بعده، فروا رأيكم يا معشر قريش[4].

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فلقي عتبة بن ربيعة قال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى أن لا تزال منها بخير إلى آخر الدهر؟ فقال: وما ذاك؟ قال ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي [5]، فقال عتبة: قد فعلت فأت ابن الحنظلية [6]، يعني أبا جهل بن هشام، ثم قام عتبة خطيبا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، وقد نجى الله عيركم وأموالكم فلا حاجة لكم في أن تسيروا

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٧.
(٢) الناضح: الجمل أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.
(٣) الموت الناقع: الدائم البالغ.
(٤) من دلائل البيهقي ٣ / ٦٥ والخبر في سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧٤ وكامل ابن الاثير ٢ / ١٢٣.
(٥) وكان عمرو بن الحضرمي قتل في سرية عبد الله بن جحش، وأسر عثمان والحكم واستولي المسلمون علي القافلة ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة.
(٦) قال ابن هشام: الحنظلية أم أبي جهل، وهي أسماء بنت مخربة أحد بني نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم.

في غير صنيعة، وإنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فاجعلوا بي جبنها وارجعوا، والله لئن أصبتم محمدا وأصحابه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من بني عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه لما لا تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فقلت: يا أبا الحكم، إن عتبة بن ربيعة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره[(١)] حين رأى محمدا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه وقد تخوفكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك، فقام عامر فاكتشف ثم صرخ: واعمراه، واعمراه، فحميت الحرب وحقب أمر الناس واستوسق على ما هم فيه من الشر وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة، فلما بلغ ذلك عتبة من قول أبي جهل، انتفخ سحره قال: سيعلم مصفر استه أينا الجبان المفسد لقومه، أنا أم هو، ثم التمس عتبة بن ربيعة بيضة ليدخلها رأسه، فما وجدت في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته، فاعتجر حين رأى ذلك ببرد له على رأسه، وأقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوهم**»، فما شرب منهم رجل يومئذ إلا قتل، إلا حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد يمينه قال: والذي نجاني يوم بدر[(٢)].

وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

ولما تراءى الجمعان وتقابل الجيشان ودنا بعضهم من بعض، أخذ أبو جهل يدعو على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة**» فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿**إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ١٩][(٣)].

---

(١) سحره: رئته، يقال ذلك للجبان.
(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٧٥ والبيهقي في الدلائل ٣ / ٦٥ وابن الاثير ٢ / ١٢٤.
(٣) الطبري - التفسير ١٣/ ٤٥٤، والحاكم - المستدرك ٢/ ٣٢٨.

ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ حفنة من الحصباء [1] فاستقبل بها قريشا ثـم قال شاهت [2] الوجوه ثم نفحهم بها ، وجعل الله تلك الحصباء عظيما شأنها لم تـترك مـن المشركين رجلا إلا ملأت عينيه ، فما أصاب رجلا منهم إلا قتل يوم بدر ، فقتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] .

ومعنـى الآيـة: أن الله سـبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ونفى عنه الإيصال الـذي لم يحـصل بـرميته فالرمـي يـراد به الحذف والإيصال ، فأثبت لنبيه الحذف ، ونفى عنه الإيصال [3] .

ونلحـظ أن الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخـذ بالأسـباب المادية والمعنوية وتوكل علـى الله فكـان النصر والتأييد من الله تعالى ، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقـدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأيـيدات الـربانية الخارقـة والغيبـية ، ففـي عـالم الأسباب تشكّل دراسة الأرض والطقـس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبناتٍ أساسية في صحة القرار العـسكري ، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين وكان الطقس مناسباً للمعركة ، والقـيادة الـرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة ، والروح المعنوية مرتفعة ، وبعض هذه المعانـي كـان مـن الله بـشكل مباشـر وتوفـيقه وبعـضها كـان من فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخـذاً بالأسـباب المطلـوبة فتـضافر الأخـذ بالأسباب مع توفيق الله وزيـد علـى ذلـك التأيـيدات الغيبـية والخارقـة فكـان ماكان ، وذلك نموذج على مايعطـاه المـسلمون بفـضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب [4] .

اندلاع شرارة القتال:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي – وكان رجلًا شرسًا سـيئ الخلق – خرج قائلًا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونـه . فلمـا خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما التقيا ضربه حمزة

(١) الحصباء: الحجارة الصغيرة .
(٢) شاهت: قبحت .
(٣) زاد المعاد ، ٣/ ١٨٣ .
(٤) الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية ، ١/ ٤٧٤ .

فأطَنَّ [1] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض [2] .

فحمي عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته ، فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسطوا بين الصفين طالبين المبارزة ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة ، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط [3] من الأنصار . قالوا: أكِفَّاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريد بني عمنا ، ثم نادى مناديهم: يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي**» ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم ، فقالوا: أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد . فأما حمزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم كَرَّ علي وحمزة على عتبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله ، فلم يزل ضَمِنًا حتى مات بالصفراء ، بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة . وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ - يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ - وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ - كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ - إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ - وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾ [الحج: ١٩ - ٢٤] [4] .

وكانت هذه بداية سيئة للمشركين ؛ إذ فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضبًا ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد .

---

(١) أي: قطع .

(٢) في الواقدي: زحف الأسود حتى وقع في الحوض فهدمه برجله الصحيحة ، وشرب منه . وقال موسى بن عقبة في روايته: فأقبل يحبو حتى وقع في جوف الحوض فهدم منه واتبعه حمزة حتى قتله . انظر: دلائل البيهقي ٣ / ١١٣ ، مغازي الواقدي ، ١ / ٦٨ .

(٣) الرهط: الجماعة من الرجال دون العشرة .

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري - الأحاديث: ٣٩٦٦ - ٣٩٦٩) .

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه تلقوا هجمات المشركين المتتالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أَحَد أَحَد[1].

وكانت توجيهات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم. ولا تسلّوا السّيوف حتّى يغشوكم**»[2].

وحرضهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على القتال قائلا: والذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة[3].

وقد ارتفعت معنويات الصحابة وزاد نشاطهم واندفاعهم في القتال بعد سماعهم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين.

فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان، رأى المشركين عددهم قليل، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيرًا قال تعالى: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾.

والمعنى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رآهم - أي رأى المشركين - في منامه قليلا، فقص ذلك على أصحابه فكان ذلك سببًا لثباتهم، قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيرًا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي؛ لأن نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام (وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ) أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقص رؤياه على أصحابه فكان في ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم. وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلا، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ وإنما قللهم

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ٤٨٠، ٧/ ٢٩٣ - ٩٦، ٣٢١)، مسلم - الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٥٩ - ٦٠)، وابن كثير - البداية ٣/ ٢٨٦، والهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ٧٩، وانظر: عن الشعار ابن هشام - السيرة/ ٦٣٤.

(٢) أبو داود - السنن ٤/ ٤٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٣٩.

في أعين المسلمين تصديقًا لرؤيا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقينا ويجدُّوا في قتالهم ويثبتوا، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفا. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أكلة جزور.. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلا ثبتهم ونشطهم وجرَّأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلا تفجؤهم الكثرة فيبهتون ويهابون، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم(١).

الملائكة في ساحة المعركة:

لقد ثبت الصحابة رضوان الله عليهم أمام ضربات المشركين، وأظهروا ضروبا من الشجاعة، جعلت همة وحماسة القريشيين تفتر أمامها، وضعفت هجماتهم، فاستغل الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الوهن الذي أصاب كفار قريش وباغتهم بالهجوم عليهم، فأقبل المسلمون يضعضعون صفوف الكفار قتلا وأسرا، وارتفعت معنوياتهم بعد أن رأوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج من العريش - بعد مناجاته ربه عز وجل - يثب في الدرع، وقد تقدمهم فلم يكن أحد أقرب من المشركين منه، وهو يقول في جزم وصراحة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥ - ٤٦] (٢) فقاتل المسلمون أشد القتال ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين. فتناولوهم قتلا وأسراً ونصرتهم الملائكة (٣).

---

(١) تفسير الزمخشري (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(٢) وهذه الآية وإن كانت مكية فقد جاء تصديقها يوم بدر كما روي عن عكرمة قال: لما نزلت: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثب في الدرع وهو يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر" فعرفت تأويلها يومئذ. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٣٣٧.

(٣) في كتب التفسير - تفسير سورة القمر باب قوله: (سيهزم الجمع) ح ٤٨٧٥ فتح الباري ٨/ ٦١٩ وأخرجه في كتاب الجهاد. باب: ما قيل في درع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولقد ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين أن الله سبحانه وتعالى قد أمدّ الفئة المؤمنة بالنصر، وبأنه أمدهم بالملائكة الذين ثبّتوا الذين آمنوا فقاتلوا معهم، وأنه تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْـمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّـذِينَ آمَـنُوا سَـأُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّـذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْـمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْـمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْـحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦].

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عددا من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم [(١)].

روي ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يَنْدُر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها [(٢)].

وقال علي: قال لي رسول الله ﷺ يوم بدر، ولأبي بكر: «**مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو**

وفي كتاب المغازي باب: إذ تستغيثون ربكم.

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ١/ ٣١١ - ٣١٢، ٧/ ٣١٢)، مسلم - الصحيح (بشرح النووي ١٢/ ٨٥ - ٨٦)، أحمد - المسند ٢/ ١٩٤ بإسناد صحيح، الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ٧٥ - ٧٦، ابن كثير - البداية ٣/ ٢٨٤. وأشار أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة إلى أن بعض الكتاب المسلمين يتحاشون الإشارة إلى مشاركة الملائكة ببدر وهو يرى بأن «هذا من مظاهر الهزيمة أمام الفكر المادّي الذي لا يؤمن إلّا بالمحسوسات» في حين أن الإيمان برسالة محمد ﷺ يقتضي الإيمان بالملائكة، ٢/ ٣٦٦. انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ /٢٩١.

(٢) محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١/ ٣٣٨، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٤٢.

يكون في القتال» [1]. وهذا يشبه الحديث أن أبا بكر كان في الميمنة ولما تنزل الملائكة يوم بدر تنزيلا كان جبريل على أحد المجنبتين في خمسمائة من الملائكة، فكان في الميمنة من ناحية أبي بكر الصديق، وكان ميكائيل على المجنبة الأخرى في خمسمائة من الملائكة فوقفوا في المسيرة وكان علي بن أبي طالب فيها [2]

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم [3]. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو خطم أنفه [4]، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: **«صدقت»** ذلك مدد من السماء الثالثة [5]، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضاً قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم بدر: **«هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»** [6]، ومن حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبدالمطلب أسيراً، فقال العباس: يارسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح [7] من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق [8] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يارسول الله فقال: **«أسكت فقد أيدك الله بملك كريم»**، ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري) [9].

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لاشك فيه، وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل مايكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ماحصل

---

(١) مسند أحمد ٢ / ٢٥٥ ونقله السيوطي في الخصائص الكبرى ١ / ٢٠١ والصالحي في السيرة الشامية وعزاه للامام أحمد والبزار والحاكم: في ٤ / ٦٣ .

(٢) رواه البيهقي في الدلائل ٣ / ٥٥ وأبو يعلى والحاكم عن علي رضي الله عنه .
وذكره الهيثمي في الزوائد ٦ / ٧٧ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات، ونقله الصالحي في السيرة الشامية ٤ / ٦١ .

(٣) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك .

(٤) خطم: الخطم الأثر على الأنف .

(٥) مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة رقم (١٧٦٣) .

(٦) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدراً رقم (٣٩٩٥) .

(٧) الأجلح: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه .

(٨) الأبلق: ارتضع التحجيل إلى فخذيه .

(٩) صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٧ .

بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل مايمكن أن يكون سبباً لانتصار المسلمين، من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معاونون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال ولاشك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا مادلت عليه الآيات، وصرحت به الأحاديث النبوية (١).

إن الإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به مايستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقفة على ماقدمه أولئك المؤمنون في قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل، وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه.. الخ ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين، وأن يهيؤوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون مايستحقونه من العقاب قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ يَشَاءُ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم، إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء وإن كان ذلك على سبيل المغامرة، لبُعد التكافؤ المادي بين جيشٍ الكفار الكبير عدداً، القوي إعداداً، وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيف إعداداً.

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذي شاهدهم بعضهم عياناً إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة، لايعلمون عددها ولايقدِّرون مدى قوتها وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة

(١) المستفاد من قصص القرآن، ٢/ ١٣١ - ١٣٢.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في العهد النبوي وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك، فكان عاملاً قوياً في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم [(١)].

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

وكان إبليس في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجال من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم [(٢)]، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، وهذا ما حكاه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] وأقبل جبريل إلى إبليس فلم رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده. ثم ولى مدبرا وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، ألست تزعم أنك جار لنا، فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب، وهذا ما حكاه القرآن في قوله تعالي: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ الله والله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وذلك حين رأى الملائكة، فتشبث به الحارث بن هشام - وأسلم بعد ذلك - وهو يرى أنه سراقة لما سمع كلامه، فضرب الشيطان في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يلوي، حتى سقط في البحر، ورفع يديه وقال: يا رب، موعدك الذي وعدتني، اللهم إني أسألك نظرتك إياي، وخاف أن يخلص إليه القتل.

ويروى أنهم رأوا سراقة بمكة بعد ذلك فقالوا له: يا سراقة أخرمت الصف، وأوقعت فينا الهزيمة، فقال: والله ما علمت بشئ من أمركم حتى كانت هزيمتكم، وما شهدت وما علمت، فما صدقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله تعالى فيه.

فعلموا أنه كان إبليس تمثل لهم [(٣)].

ففي ذلك يقول حسان:

---

(١) التاريخ الإسلامي، الحميدي، ٤/ ١٤٥.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢ / ٣١٧ - ٣١٨، ونقله البيهقي عن موسى بن عقبة كتاب المغازي يزيد كلمة وينقص كلمة والمعنى واحد، دلائل النبوة ٣ / ١٤٧ - ١٤٩.

(٣) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٤٣.

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ::: لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
ثم التقينا فولوا عن سراتهم ::: إن الخبيث لمن والاه غرار
وقال إني لكم جار فأوردهم ::: شر الموارد فيه الخزي والعار
دلاهم بغرور ثم أسلمهم ::: من منجدين ومنهم فرقة غاروا [(1)]

وهذا كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١].

فإبليس لعنه الله لما عاين الملائكة يومئذ تنزل للنصر فر ذاهبا فكان أول من هزم يومئذ بعد أن كان هو المشجع لهم المجير لهم كما غرهم ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وبعد انسحاب إبليس من المعركة بدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وقد حاول أبو جهل إعادة ترتيب صفوف المشركين، وإرجاع من فر منهم، وتثبيت من إضطرب منهم فنادي عليهم قائلا: يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة، فإنهم قد عجلوا.

فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال، ولا ألفين رجلا منكم قتل رجلا منهم، ولكن خذوهم أخذا حتى نعرفهم سوء صنيعهم[(2)].

ولكن ذهبت هذه المناشدات أدراج الرياح وتصدعت صفوف المشركين أمام تيارات هجوم المسلمين، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون، حتي تمت عليهم الهزيمة، وانتصر المسلمون عليهم، وقتل من المشركين سبعين رجلا، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً،

---

(١) محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ١/ ٣٢٥، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، لاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٧هـ، ٢/ ٤٣.

(٢) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ٤٣.

منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار [1].

مصرع أبي جهل:

قال عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما [2]، فغمزني [3] أحدهما فقال: ياعم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم وما حاجتك إليه ياابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لايفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثالها.

قال: فلم أنشب [4] أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبراه، فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء [5]، وفي حديث أنس قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر: «**من ينظر ماصنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (أبناء عفراء حتى برد [6]، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: (قتلتموه) [7]، وفي حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: وبما أخزاني؟من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولايحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده

---

(١) انظر: الواقدي: ص ١٤٣، وابن هشام ٢/ ٣٦٥، وابن سيد الناس، ص ٢٨٥، وتاريخ الخميس ١/ ٤٠٣، وانظر: البخاري، كتاب المغازي، ١٠/ ح ٣٩٨٦ وأعاده في التفسير - سورة آل عمران - وأخرجه أبو داود في الجهاد في باب أي وقت يستحب اللقاء ورواه البيهقي في الدلائل ٣/ ١٢٤.

(٢) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.

(٣) غمزني: قرصني.

(٤) أنشب: ألبث.

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدراً رقم ٣٩٨٨.

(٦) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.

(٧) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم ٣٩٦٣.

فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته، فقال: «**الله الذي لا إله إلا هو**». قلت: الله الذي لا إله إلا هو.

قال: فانطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (انطلق) فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»[(١)].

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ماسمعاه من أنه كان يسب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

لقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته، - وهذا شأن الطغاة والفراعنة في كل زمان ومكان - فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه (لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعي الغنم)[(٢)].

لقد أراد الله عز وجل أن يذل فرعون هذه الأمة فقتله لم يأتي علي يد فارس من فرسان الإسلام ولا شجاعا من شجعانه، إنما علي يد شابين صغيرين من شباب الإسلام، وإمعانا في الامتهان لأبي جهل جاء الخلاص من الدنيا علي يد من كان يمعن في تعذيبه، ومن أحد المستضعفين الذين طالما أذاقهم هذا الطاغية ويلات التعذيب.

فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعاً في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفَتْ به على الهلاك الأبدي ليريه بعين بصره مابلغه من المهانة والذل والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة من رجال الرعيل الأول، السابقين إلى مظلّة الإيمان، وطهر العقيدة، والتعبد لله بشرائعه، التي أنزلها رحمة للعالمين عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيراً له، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتله به، ويمعن في

(١) صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٢.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٤٧.

إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام ، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها ، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث . . .) [١] .

إن ما جرى لأبو جهل وأمثاله الطغاة من قتل مفزع درساً بليغاً للطغاة المتجبرين ، وعبرة للمعتبرين ، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم ، فيعتدون على الضعفاء ، ويسلبونهم حقوقهم مآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة ، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر ، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] .

مصرع أمية بن خلف:

قال عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي [٢] بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة ، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن ، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية ، فكاتبته (عبدعمرو) .

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه [٣] حين نام الناس ، فأبصره بلال ، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار ، فقال: أمية بن خلف لانجوت إن نجا أمية ، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يتبعونا - وكان رجلاً ثقيلاً - فلما أدركونا قلت له: ابرك ، فبرك ، فألقيت عليه نفسي لأمنعه ، فتجللوه [٤] ، بالسيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه [٥] وفي رواية أخرى لعبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة ، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن ، ونحن بمكة ، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: ياعبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول نعم .

قال: فإني لا أعرف الرحمن ، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أما أنت فلا

---

(١) صادق عرجون ، محمد رسول الله ، ٣/ ٤٣١ ، ٤٣٢ .
(٢) الصاغية: صاغية الرجل مايميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال .
(٣) أحرزه: أحميه .
(٤) تجللوه: طعنوه وأصابوه .
(٥) البخاري ، كتاب الوكالة ، باب إذا وكل مسلم حربياً رقم (٢٣٠١) .

تجبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لاأعرف!

قال: وكان إذا دعاني ياعبدعمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ماشئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم.

قال: فكنت إذا مررت به قال: ياعبد الإله فأجبته فاتخذ معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: ياعبدعمرو فلم أجبه، فقال: ياعبدالإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم ها لله؟ قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: مارأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن[1].

لقد جري لهذا الطاغية مثل ماجري لأبي جهل، حيث قتل علي أيدي أحد المستضعفين الذين أذيقوا الويلات والعذاب علي أيديهم، فحينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة فلما رآه في يد عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسيراً صرخ بأعلى صوته (لانجوت إن نجا).

ولقد حق لبلال بن رباح وأمثاله التشفي من هذا الطاغية ومن أمثاله في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة قال تعالى: ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥].

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وقف على القتلى فقال: «**بئس العشيرة كنتم لنبيكم؛ كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس**»، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قُلُب بدر[2].

وعن أبي طلحة: أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٤٣.
(٢) زاد المعاد، ٣/ ١٨٧.

من صناديد قريش، فقذفوا في طَويّ [١] من أطواء [٢] بدر خَبِيث مُخْبث.

وكان من هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انتصر على قوم أقام بالعَرْصَة [٣] ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى، واتبعه أصحابه. حتى قام على شفة الرَّكِيّ [٤]، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «**يا فلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، وفي رواية: «**ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**» [٥].

مكة تعلم بهزيمة جيشها:

لقد كانت هزيمة قريش فادحة، فقد فرو من ساحة بدر في صورة غير منظمة؛ وتبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً، وكان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة ولم يصدقوا ذلك في بداية الأمر، وكان أول من قدم بمصاب قريش الحَيْسُمَان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، في رجال من الزعماء سماهم. فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحِجْر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عني. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذا جالس في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا [٦].

وهذا أبو رافع مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقص علينا أثر خبر هزيمة قريش على أبي لهب - لعنه الله - حيث قال: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمتْ أم الفضل وأسلمتُ،

---

(١) الطوي: البئر التي بنيت جدرانها بالحجارة.

(٢) الأطواء: جمع طوي وهو بئر مبنية بالحجارة.

(٣) العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، والعرصتان كبرى وصغرى بعقيق المدينة.

(٤) على شفة الرّكيّ: أي على طرف البئر.

(٥) البخاري - الفتح، ٧ / ٣٩٧٦.

(٦) صحيح السيرة النبوية، ص٢٥٧.

وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.. فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ووجدْنا في أنفسنا قوةً وعزة.

قال: كنت رجلاً ضعيفًا، وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندي أم الفضل (زوجة العباس بن عبد المطلب) جالسة وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشرٍ حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلم إليَّ فعندك لعمري الخبر، قال: جلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله مع ذلك ما لُمت الناس، لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق [1] بين السماء والأرض، والله ما تليق[2] شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته[3] فاحتملني وضرب بي الأرض ثم برك عليَّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلعت[4] في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليًا ذليلاً، ثم مات بعد سبع ليال بالعدسة[5] فقتلته، فقتلته، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وعن ابن إسحاق: فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثا ما دفناه حتى أنتن.

وكانت قريش تتقي هذه العدسة كما تتقي الطاعون حتى قال لهم رجل من

(١) البلق: جمع أبلق وهو الذي فيه سواد وبياض.
(٢) ما تليق: ما تبقي.
(٣) ثاورته: ثبت له.
(٤) فلعت: شقت.
(٥) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون، وقد عدس الرجل: إذا أصابه ذلك.

قريش: ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه؟ فقالا إنا نخشى عدوة هذه القرحة، فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلا مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة[1].

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًا، حتى منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون.

قال ابن إسحاق: ناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لاتفعلوا يبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسوا[2] بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

قال ابن كثير: وكان هذا من تمام ما عذب الله به أحياءهم في ذلك الوقت وهو تركهم النوح على قتلاهم، فإن البكاء على الميت مما يبل فؤاد الحزين[3].

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكي عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلًا صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: انظر هل أحل النَّحْبُ؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - ابنه - فإن جوفي قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أتبكي أن يضل لها بعير ::: ويمنعها من النوم السهود
ألا قد ساد بعدهم رجال ::: على بدر تقاصرت الجدود
وبكيهم ولا تسمي[6] جميعا ::: ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكى إن بكيت على عقيل ::: وبكى حارثا أسد الأسود
على بدر سراة بني هصيص ::: وما لأبي حكيمة من نديد[4]
فلا تبكي على بكر ولكن ::: ولولا يوم بدر لم يسودوا[5]

لقد تركت غزوة بدر بنفوس أهل مكة المشركين كمدًا وأحزانًا وآلامًا بسبب

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/٢٥٨، دلائل البيهقي، ٣/ ١٤٦.
(٢) حتى تستأنوا: أي تؤخروا فداءهم حتى لا يتشدد في طلب الفداء.
(٣) البداية والنهاية، ٣/ ٣٧٧.
(٤) النديد: الشبيه والمثل.
(٥) البداية والنهاية، ٣/ ٣٧٧، نسب قريش، ص ٢١٨.
(٦) لا تسمي: لا تسأمي.

هزيمتهم ومن فُقدوا وأسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابنًا له وأُسر له ابنٌ آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتى إن بعضهم حرم على نفسه الاغتسال، مثل أبو سفيان بن حرب الذي نذر ألا يمس رأسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين، ويأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد[(١)].

المدينة تبتهج لنصر جيش المسلمين:

لقد حقق المسلمون نصراً مدوياً علي مشركي مكة، وفي الوقت الذي تلقت فيه مكة نبأ هزيمة جيشها بالألم والحسرة، تلقت المدينة نبأ انتصار المسلمين بالتكبير والتهليل والفرحة، فبعد أن أتم الله الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة؛ ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

فجاءوا يوم الأحد شد الضحى[(٢)]، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادي على راحلته يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج وأبو جهل وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة. قال عاصم بن عدي: فقمت إليه فنحوته فقلت: أحقا ما تقول يا ابن رواحة؟ قال إي والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين. ثم اتبع دور الأنصار بالعالية – العالية بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل منازلهم بها – فبشرهم دارا دارا، والصبيان يشتدون معه ويقولون قتل أبو جهل الفاسق حتى انتهوا إلى بني أمية بن زيد، ولما قدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، جاء المصلى وصاح على راحلته قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة. وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري. وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف. وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة. فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة، ويقولون ما جاء زيد إلا فلا[(٣)] حتى غاظ المسلمين ذلك

(١) أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢/ ١٧١.
(٢) شد الضحى: ارتفاعه.
(٣) الفل: القوم المنهزمون.

وخافوا . . . فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد قتل صاحبكم ومن معه . وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون منه أبدا ، وقد قتل علية أصحابه وقتل محمد ، هذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب وجاء فلا . قال أبو لبابة يكذب الله قولك وقالت يهود ما جاء زيد إلا فلا!

قال أسامة بن زيد فجئت حتى خلوت بأبي . فقلت: يا أبه . أحق ما تقول؟ قال إي والله حقا يا بني فقويت في نفسي ، فرجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ليقدمنك رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك فقال يا أبا محمد إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه ،، ولما تأكد لديهم فتح المسلمين ، فَعَمَّت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلًا وتكبيرًا[1] .

الخلاف حول الأنفال:

وبعد انتهاء المعركة بانتصار المسلمين أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وذلك لدفن من استشهد من الصحابة ، وجمع الغنائم وحفظها ، وإعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها ، ويضمد فيها جراح مجروحيه[2] .

وقبل رحيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجيش من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون فأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حوّيناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله

---

(١) البداية والنهاية ، ٣/ ٣٧١ ، مغازي الواقدي ، ١/ ١١٥ .

(٢) انظر: موسوعة نظرة النعيم ، ١/ ٢٩١ ، صادق العرجون ، محمد رسول الله ، ٣/ ٤٥٣ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فواق بين المسلمين [(١)] وفي رواية قال عبادة بن الصامت عن الأنفال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا فجعله إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقسمه رسول الله فينا عن سواء أي على سواء [(٢)].

كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال، هو الهتاف بتقوى الله (وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب) إنه لايرد القلب البشري عن الشعور بتقوى الله، وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى. إن قلباً لايتعلق بالله يخشى غضبه، ويلتمس رضاه، لايملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض، ولايملك أن يرف شاعراً بالانطلاق.

إن التقوى زمام هذه القلوب التي يمكن أن تقادمته طائفة ذلولة في يسر وفي هوادة وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينهم: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال، فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق، وارتدت ملكيتها ابتداءً لله والرسول، فانتهى حق التصرف فيها إلى الله ورسوله، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله، طيبة قلوبهم، راضية نفوسهم، وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم، ويضعوا قلوبهم بعضهم لبعضهم [(٣)].

هذه التربية الربانية تعيد زمام هذه النفوس مستسلمة لله عز وجل ولا تستعبدها نشوة الظفر، ولا استعلاء النصر، فتنسى ضعفها البشري وقصورها البشري، وتفكر بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين.

وهذا العرض الرباني يؤكد حقيقة أكبر من النصر على المشركين يؤكد أن صلاح ذات البين، والانتصار الحقيقي على مسارب النفوس ومشارب القلوب، هو الأكبر في ميزان الله، وهو الأعظم في ميزان الله، ولاجدوى من نصر يعقبه صراع في الصف، واختلاف في القلوب.

---

(١) مسند الامام أحمد، ٥/ ٣٢٤، تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٨٣، الروض الأنف، ٣/ ٩٠.
(٢) مسند الامام أحمد، ٥/ ٣٢٢، الروض الأنف، ٣/ ٩٠.
(٣) في ظلال القرآن الكريم، ٣/ ١٤٧٣، ١٤٧٤.

وتبين الآيات أن قضية التقوى والإيمان تدخل في كافة شؤون حياة المسلم وبها ينبع تحركه في الحياة وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى [1].

وتحرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب، فلما خرج من مَضِيق الصفراء نزل على كَثِيب بين المضيق وبين النَّازِيَة، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس كما قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. وهذا بعد ماطهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثلت الآيات، فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ماغنموه مقسوم بينهم، والخمس لله ورسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضاً، وموزّع على الجهات المذكورة - كما ثبت بالسنة.

وقد أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم وبذلك كان للاسلام السبق في تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً [2].

وقد أعطي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغنيمة من تخلف بأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لمهام أوكلها إليهم، أو لمرض أو عجز أو ظروف أسرية أو بعذر مقبول، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم فكانوا كمن حضرها، فقد أعفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الخروج يوم بدر لأن زوجته رقية كانت مريضة وبحاجة إلى من يرعى شؤونها روى البخاري في صحيحه أن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبر عن سبب تغيب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة بدر، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (... وما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت مريضة فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه...» [3].

كما أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا أمامة بالبقاء عند أمه حيث كانت مريضة وهي

(١) الغضبان، المنهج التربوي للسيرة النبوية التربية الجهادية، ١/ ٥٢.
(٢) أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢/ ١٧٦.
(٣) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٥) رقم (٣٦٩٩).

بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه فقال له خاله أبو بردة بن نيّار: أقِمْ على أمك، يا ابن أختي فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكر ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه وخرج بأبي بردة، فقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد توفيت فصلى عليها [(1)].

وأبو لبابة الذي استخلفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة، وعاصم بن عدي الذي أرسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مهمة لأهل العالية - في المدينة، والحارث بن حاطب الذي أرسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مهمة إلى بني عمرو بن عوف والحارث بن الصمة الذي وقع أثناء الطريق فكسر فرده - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخوات بن جبير الذي أصابه في الطريق حجر في ساقه فرده من الصفراء [(2)].

مقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث:

وفي طريق عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل اثنين من الأسرى وهما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط اللذين كانا من أئمة الكفر، يؤذيان المسلمين بمكة ويشتدان في عداوتهما للّه ولرسوله، وكان في قتلهما درسا بليغا للطغاة ونهاية حاسمة للجبروت [(3)].

ولقد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتلهما، عندما وصل إلى الصفراء [(4)] أثناء رجوعه للمدينة، فلما سمع عقبة بن معيط بأمر قتله قال: ياويلي علام أقتل يامعشر قريش من بين من هاهنا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعداوتك لله ولرسوله**» قال: يامحمد منُّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي، إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت عليَّ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يامحمد، من للصبية؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النار قدّمه ياعاصم فاضرب**

---

(١) الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد، ٣/ ٣١.

(٢) معين السيرة، ص٢١٥.

(٣) الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ٨٩، السهيلي - الروض الأنف ٣/ ٥٣، وانظر: الطبراني - الكبير ١١/ ٤٠٦ (حديث ١٢١٥٤)، وأورد ابن هشام في السيرة ٢/ ٣٢٧ أن الآية (٢٧) من سورة الفرقان قد نزلت في عقبة بن أبي معيط هذا، وأخرج ذلك الطبري في تفسيره (١٩/ ٦) عن طريق عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، وانظر: ابن كثير - التفسير ٦/ ١١٦ وقال: «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو في غيره، فإنها عامة في كل ظالم».

(٤) الصَّفراء: واد كثير النخل والزرع والخير.

عنقه» ، فقدمه عاصم فضرب عنقه [1].

لقد كان عقبة بن أبي معيط هذا من مردة قريش ، وكان شديد الإيذاء لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير ، قال: سألت عبد الله بن عمر عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط ، جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله ، وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم؟» [2].

وروى البخاري [3] ومسلم [4] من حديث ابن مسعود ، قال: «بينما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم [5] فأخذه . فلما سجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضعه بين كتفيه ، قال: فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر . لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت هي وجويرية ، فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم . فلما قضى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . . .» .

وأما النضر بن الحارث ، فقد كان من شياطين قريش ، وممن يؤذي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينصب له العداوة وكان قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني .

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً ، فكان لا يسمع بأحد

---

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٨٩) قال فيه رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .
(٢) البخاري - الصحيح - الفتح: (١٤/ ١٧٩/ ح ٣٦٧٨) و (١٥/ ٩ - ١١/ ح ٣٨٥٦) .
(٣) البخاري - الصحيح - الفتح (١٢/ ٦٦/ ح ٢٩٣٤) .
(٤) مسلم - الصحيح (٣/ ١٤١٨ - ١٤١٩/ ح ١٧٩٤) .
(٥) هو عقبة بن أبي معيط كما صرح به في الرواية الثانية عند مسلم - الصحيح (٣/ ١٤١٩/ ح ١٧٩٤) .

يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله﴾ [لقمان: ٦] [(١)].

فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فضرب عنقه. فلما بلغ الخبر أخته قتيلة وقيل إنما هي بنته ورثته بأبيات ثم أسلمت. وفي أسد الغابة أن قتيلة بنت النضر. قال الواقدي هي التي قالت الأبيات التالية في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قتل أباها النضر بن الحارث يوم بدر وهي:

يا راكبا إن الأثيل مظنة ::: من صبح خامسة وأنت موفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ::: ما أن تزال بها النجائب تخفق
ما كان ضرك لو مننت وربما ::: جادت بواكفها وأخرى تخنق
أمحمد أولست صفو نجيبة ::: لله أرحام هناك تشقق
قسرا يقاد إلى المنية معتبا ::: رسف المقيد وهو عان موثق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ::: من قومها والفحل فحل معرق
مني إليك وعبرة مسفوحة ::: من الفتى وهو المغيظ المحنق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ::: وأحقهم إن كان العتق يعتق

وحين سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى وقال: «**لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه**» [(٢)].

لقد كان هذان الرجلان من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولاسيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورّعا على سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية [(٣)].

وفود التهنئة:

وعندما رجع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة قادماً من بدر لقي بالروحاء رؤوس الناس يهنؤنه بما فتح الله عليه، - وكانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٤٣٩، ٤٤٠.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٤٣٩، ٤٤٠، أي لقبل شفاعتها عنده فلا ينافي أن ما فعله حق.
(٣) محمد أحمد باشميل، غزوة بدر الكبرى، ص١٦٢.

حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين – يهنؤونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سَلَمَة بن سلامة: ما الذي تهنؤوننا به؟ فوالله إن لَقِينا إلا عجائز صُلْعًا كالْبُدْن المعُقَّلَةِ ، فنحرناها ، فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم قال: (يا بن أخي ، أولئك الملأ) قال ابن هشام: يعني الأشراف والرؤساء [(١)] .

وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك ، وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًا ، ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صدقت**» .

ثم دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهرًا [(٢)] .

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيرًا . فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز ، عملًا بوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ولقيه عبد الله بن أنيس بتربان فقال: يا رسول الله ، الحمد لله على سلامتك وما ظفرك! كنت يا رسول الله ليالي خرجت موروداً[(٣)] ، فلم تفارقني حتى كان بالأمس فأقبلت إليك . فقال: «آجرك الله! » [(٤)] .

ثم دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فقد قويت شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وماجاورها ، وأصبح من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم عل فعلته ، وتعززت مكانة الرسول في المدينة ، وارتفع نجم الإسلام فيها ، وأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، ولم يعد المتشككون بالدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام ، لذا ظهر النفاق والمكر والخداع ، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ، فدخلوا في عداد المسلمين ، وأبقوا على الكفر باطناً ، فظلوا في عداد

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ / ٢٩٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣ / ٣٧٢ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣ / ٣٠٥ .
(٣) الورود: هي الحمى ، إذا أخذت صاحبها ، ويقال: وردته الحمى فهو مورود .
(٤) مغازي ، الواقدي ، ١/١١٧ .

الكفار، فلاهم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا**﴾ [النساء: ١٤٣]. ومن أجل هذا الموقف المتذبذب، شنّع الله عليهم، وسمّع بهم في كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ١٤٥].

وجاء جبير بن مطعم وهو كافر أي إلى المدينة يسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اسارى بدر فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كان شيخك أو الشيخ أبوك حيا فأتانا فيهم لشفعناه**»، وفي رواية قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كان مطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له**»[1].

لان المطعم كان أجار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قدم من الطائف وكان ممن سعى في نقض الصحيفة كما تقدم ذلك[2].

قضية الأساري:

ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة استشار أصحابه في الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعَشِيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضدًا.

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ترى يابن الخطاب؟**» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عَقِيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين. وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر، وأخذ منهم الفداء: فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله

(١) أبو داود في الجهاد، باب المن على الأسير رقم ٢٦٨٩ وإسناده صحيح.
(٢) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٤٥١.

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» - شجرة قريبة.

وأنزل الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والله يُرِيدُ الآخِرَةَ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٧ ، ٦٨].

والكتاب الذي سبق من الله قيل: هو قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء**﴾ [محمد: ٤]. ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى؛ ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا في الأرض، وقيل: بل الآية المذكورة نزلت فيما بعد، وإنما الكتاب الذي سبق من الله هو ما كان في علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر.

وحيث إن الأمر كان قد استقر على رأي الصديق فقد أخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء[1].

وفي رواية: عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ماتقولون في هؤلاء الأسرى؟**» فقال أبو بكر: يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يارسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم. وقال عبدالله بن رواحة: يارسول الله انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم اضرم عليهم ناراً. فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يرد عليهم شيئاً. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة:١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ [نوح: ٢٦] ».

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ٣/١٣٨٣.

وإن مثلك كمثل موسى إذ قال: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس، آية: ٨٨].

ثم قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق**».

قال عبدالله بن مسعود: فقلت: يارسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام قال فسكت. فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: «**إلا سهيل بن بيضاء**» فأنزل الله: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...** ﴾ إلى آخر الآية [(١)].

وكان سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يري رأي عمر بن الخطاب في قتل المشركين وعدم قبول الفداء، فلما شرع الصحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكراهية في وجه سعد لما يضع الناس فقال له رسول الله: «**والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم**» قال أجل والله يارسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إلى من استبقاء الرجل [(٢)].

وحين رجع الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي المدينة بالأسارى فرقهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أصحابه وقال: «**استوصوا بهم خيرا**» [(٣)]..

وبهذه التوصية النبوية الرفيعة، تحقق في هذا الجيل الإسلامي الفضيل قول الله تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً** ﴾ [الإنسان: ٨].

وهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عما رأى. قال: كنت في الأسرى يوم بدر [(٤)]، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استوصوا بالأسارى خيرا**» [(٥)]. وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال فأستحيي

---

(١) مسند الامام أحمد (١/ ٣٧٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ٣٠٥.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ٣٠٧.
(٤) أيام كان على غير الإسلام، وكان في جيش المشركين.
(٥) ابن هشام، ١ / ٦٤٤.

فأردها على أحدهم فيردها علي ما يمسها [1].

ويقول جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "لما كان يوم بدر أتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له قميصا فوجدوا قميص عبدالله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه" [2]

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا قال: كنت في رهط من الأنصار [3] - جزاهم الله خيرا -، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلي، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون[4].

وقد كان أبو العاص بن الربيع في الأسارى، وختن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزوج ابنته زينب، أسره خراش بن الصمة، فلما بعثت قريش فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فداء أبي العاص وأخيه عمرو بن الربيع بقلادة لإمها خديجة، فلما رآها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رق لها رقة شديدة، وقال: **«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا»**، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها[5].

كان هذا الخلق الكريم الذي غرسه المعلم الكبير محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه وجنده وشعبه، قد أثر في إسراع مجموعة من كبراء الأسرى وأشرافهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقب معركة بدر، بعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وصية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسلم معه السائب بن عبيد.

وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم يتحدثون عن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير[6].

---

(١) ابن هشام، ١ / ٦٤٤، وابن سيد الناس، عيون الأثر ١/٣٩٣.
(٢) البخاري، ٢٨٤٦، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٦/ ١٤٤.
(٣) قبل إسلامه، أيام كان في جيش قريش، وأسره الصحابه في معركة بدر.
(٤) الواقدي، المغازي ١/١١٩.
(٥) سبل الهدى والرشاد، ٤ / ٧١.
(٦) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص ٤٣.

الذين أطلقوا من غير فداء:

وكان المسلمون يقبلون من بعض الأسرى ما عندهم إذا تعذر دفع ما فرض عليهم من الفداء [(١)]. وأطلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسر بعض الأسرى الذين لم يقدروا على دفع شيء [(٢)] ومنهم:

١ - أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قال: فلما رآها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رق لها رقة شديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**» فقالوا: (نعم فاطلقوه وردوا عليها الذي لها) [(٣)].

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ عليه، أو وعده، أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «**كونا ببطن يأجج** [(٤)] **حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها**» [(٥)].

لقد أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، ومع المال قلادة كانت أمها السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلى بها، فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلادة ابنته رق لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبويّة عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أب، له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة، المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متلطفاً يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم رجاء يدفعهم إلى العطاء ولايسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم

(١) أحمد - الفتح الرباني ١٤/ ١٠٠، ابن هشام - السيرة ١/ ٣٥٩.
(٢) ابن هشام - السيرة ١/ ٣٦٨ - ٩.
(٣) صحيح السيرة النبوية، ص٢٦١.
(٤) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.
(٥) أبو داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال رقم ٢٦٩٢.

يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي هو لها**».

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف مايسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة [1].

إن هذا الموقف ومايظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنته، يحمل في طياته مقصداً آخر، وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة [2].

٢ - أبو عزة عمرو بن عبدالله الجمحي:

كان أبو عزة الجمحي قد برص فكانت قريش لا تؤاكله ولا تجالسه فقال للموت خير من هذا، فأخذ حديدة ودخل بعض شعاب مكة فطعن بها في معده[3] فسال منه أصفر فبرئ فقال

اللهم رب وائل ونهد ::: والتهمات والجبال الجرد
أبرأتني من وضح بجلد ::: أصبحت عبدا لك وابن عبد
ورب من يرعى بأرض نجد ::: من بعد ما طعنت في معدي[4]

وكان يؤذي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين بشعره، فلما أسره المسلمون في بدر، قال: يارسول الله لقد عرفت مالي من مال وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن علي، فمنّ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً فقال أبو عزة يمدح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك:

من مبلغ عني الرسول محمد ::: بأنك حق والمليك حميد
ولكن إذا ذكرتُ بدراً وأهله ::: لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحاربٌ ::: شقي ومن سالمته لسعيد
وأنت امرؤ بُوئت فينا (مباءة) [5] ::: تأوَّبُ مابي، حسرة وقعود

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ماكان عاهد الرسول عليه، ولعب

---

(١) عرجون، محمد رسول الله، ٣/ ٤٨٠ .
(٢) الحميدي، التاريخ الإسلامي، ٤/ ١٨٣ .
(٣) والمعد موضع عقب الراكب من الدابة .
(٤) الروض الأنف، ٣/ ٢٩١ .
(٥) مباءة: مكانة رفيعة .

المشركون بعقله فرجع إليهم فلما كان يوم أحد أسر أيضاً، فسأل من النبي ﷺ أن يمن عليه أيضاً فقال النبي ﷺ: **«لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمداً مرتين»** ثم أمر به فضربت عنقه [١].

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه (أبو عزة) حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله ﷺ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ﷺ يقول: **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»** ويأمر بقتله. وهذا الذي سنه رسول الله ﷺ في هذه الحالة هو الذي أخذ به القانون الدولي في القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذي يطلق سراحه بشرط عدم الدخول في المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل [٢].

٣ - صَيْفي بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم:

وكان لا مال له، أسره رجل من المسلمين، فمكث عندهم فلما لم يأت أحد في فدائه أخذوا عليه ليبعثن إليهم بفدائه فخلوا سبيله فلم يف لهم بشيء فقال حسان بن ثابت في ذلك:

وما كان صيفي ليوفي ذمة ::: قفا ثعلب أعيا ببعض الموارد [٣]

٤ - المطلب ابن حَنْطَب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم: وكان الذي أسره أبو أيوب الأنصاري، لم يكن له مالٌ فأطلق سراحه بعد حين [٤].

- وكان من بين الأسرى سُهيل بن عمرو، وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه، فلما قدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض المسلمين وانتهى إلى رضائهم قالوا: هات الذي لنا قال لهم مكرز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً عندهم، وجاء في الحديث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ دعني أنزع ثنية سهيل بن عمرو ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن آخر؟ فقال رسول الله

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٣١٣.
(٢) سعيد حوى، الرسول ﷺ، ١١/ ١٩.
(٣) الروض الأنف، ٣/ ١١١، مغازي الواقدي، ١/ ١٤٢.
(٤) مغازي الواقدي، ١/ ١٤٢.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً**» [1] ثم قال رسول الله لعمر: «**إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه**» [2].

ولقد حقّق الله عز وجل خبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سهيل، فإنه لما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قام خطيبًا، فقال: "أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" فسكن الناس[3].

ولما ماج أهل مكة عند وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وارتد من ارتد من العرب، قام سهيل بن عمرو خطيبًا. فقال: والله إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم – يعني: أبا سفيان – فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم، ولكنه قد جثم على صدره حسد بني هاشم. وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة"[4].

وقد كان مخلصًا في عقيدته مطيعًا لأمر الحاكم، ذكر أنه حضر "الناس باب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، وأولئك الشيوخ من قريش، فخرج آذنه. فجعل يأذن لأهل بدر، لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم. وكان قد أوصى بهم.

فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط! أنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس، لا يلتفت إلينا! فقال سهيل بن عمرو: أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابًا، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم. أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتًا من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه. ثم قال: أيها القوم! إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله – عز وجل – أن يرزقكم شهادة، ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام"[5].

فالرجل مؤمن، صاحب مبدأ، يرى الفضل لأصحابه بأعمالهم، لا بالرئاسة

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٣١١.
(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٣١١.
(٣) انظر: الإصابة، ٢/ ٢٩، رقم٣٥٧٣، والاستيعاب ٢/ ١٠٧ وما بعدها، والجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٥٨.
(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٣١٧.
(٥) الاستيعاب" ٢/ ١٠٩ وما بعدها".

والنسب والجاه، كما كان يريد أبو سفيان وقومه[1].

لقد كان سهيل بن عمرو خطيبا مفوها، يهجو الإسلام، وقد رفض أن يمثل به كما يمثل الهمجيون في قتلى وأسرى الجيش المهزوم، وسن بذلك سنة حسنة في الحروب، ويبقى له الفضل والسبق في تحريم إهانة الأسرى أو إيذائهم.

- وكان عمرو بن أبي سفيان بن حرب أسيرا في يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسرى بدر، وأسره علي بن أبي طالب، فقيل لأبي سفيان افد عمرا ابنك، قال أيجمع علي دمي ومالي قتلوا حنظلة وأفدي عمرا دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم. فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بني عمرو بن عوف ثم أحد بني معاوية معتمرا وكان شيخا مسلما، ولا يخشى الذي صنع به لم يظن أنه يحبس بمكة إنما جاء معتمرا: وقد كان عهد قريشا لا يعرضون لأحد جاء حاجا، أو معتمرا إلا بخير فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، ثم قال أبو سفيان:

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه ::: تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا
فإن بني عمرو لئام أذلة ::: لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

لو كان سعد يوم مكة مطلقا ::: لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا
بعضب حسام أو بصفراء نبعة[2] ::: تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3] فأخبروه خبره؟ وسألوه أن يعطيهم ابن أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم ففعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد[4].

- وكان العباس عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسري بدر، وكان من أدب الأنصار أن استحوا من أنفسهم أن يكون عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسرهم فاستأذنوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يطلقوا سراحه، فقالوا: ائذن لنا فلنترك

---

(١) الدكتور جواد علي، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ١٦/ ٤٢٤.
(٢) نبعة من النبع والنبع: شجر يصنع منه القسي.
(٣) قال الواقدي: أن عمرو بن أبي سفيان صار في سهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرعة.
(٤) الروض الأنف، ٣/ ١٠٢ - ١٠٣.

لابن أختنا[1] فداءه، فقال: «**لا تدعون منه درهماً**»[2].

وقد امتنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع من المحاباة.

ثم بعثت قريش إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا[3]، وقال العباس: يارسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقولون فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب[4]، وعقيل بن أبي طالب بن عبدالمطلب[5]، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر**» قال: ماذاك عندي يارسول الله قال: «**فأين المال الذي**

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: "المراد أنهم أخوال أبيه عبد المطلب، فإن أمّ العباس هي (نُتيلة) بنت جنان، وليست من الأنصار، وإنما أرادوا بذلك أن أمّ عبد المطلب منهم، لأنها سلمى بنت عمرو بن أُحيحة وهي من بني النجار، ومثله ما وقع في حديث الهجرة أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل على أخواله بني النجار، وأخواله حقيقة إنما هم بنو زهرة، وبنو النجار أخوال جده عبد المطلب. الفتح ٥/ ١٦٨.

ثم قال رحمه الله: "قال ابن الجوزي: وإنما قالوا ابن أختنا لتكون المنة عليهم من إطلاقه بخلاف ما لو قالوا: عمك، لكانت المنة عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من قوة الذكاء، وحسن الأدب في الخطاب، وإنما امتنع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع محاباة". الفتح ٧/ ١٦٨.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٥/ ١٦٧ – ١٦٨، رقم (٢٥٣٧) و٦/ ١٦٧، رقم (٣٠٤٨) و٧/ ٣٢١ رقم (٤٠١٨) بلفظ: "والله لا تذرون منها درهماً"، وابن حبان في صحيحه: الإحسان رقم (٤٧٩٤)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٢، ٣/ ٣٢٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٢٢، و٩/ ٦٨، وفي الدلائل ٣/ ١٤١ – ١٤٢.

(٣) قد تباين فداء الأسرى من شخص لآخر حسب يسر كل واحد وعسره، فقد قال ابن هشام ١/ ٦٦٠: كان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له، فمنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه. وانظر: المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٢٠٦ رقم (٩٣٩٣)، وأبو داود ٣/ ٦١ – ٦٢ رقم (٢٦٩١)، ودلائل البيهقي ٣/ ١٤٠.

(٤) هو: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن حبان: له صحبة. الإصابة ٣/ ٥٧٧.

(٥) عقيل – بفتح أوله – ابن أبي طالب بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أخو علي وجعفر وكان الأسن يكنى أبا يزيد... تأخر إسلامه إلى عام الفتح وقيل: أسلم بعد الحديبية، وهاجر في أول سنة ثمان، وكان قد أسر يوم بدر ففداه عمه العباس، مات في أول خلافة يزيد. الإصابة ٢/ ٤٩٤.

دفنته أنت وأم الفضل [(١)]؟ فقلت لها إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل بن العباس [(٢)] وعبدالله بن العباس [(٣)] وقثم بن العباس [(٤)]» .
قال: والله يارسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فأحسب لي يارسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك»** ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٠ - ٧١] .

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ماأرجو من مغفرة الله عز وجل [(٥)] .

هذا والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى .

أما الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة ، ولم يكن لدى أهليهم أو لديهم مقدرة على الفداء ، فقد جعل فداؤهم أن يعلموا أبناء الأنصار القراءة والكتابة ،

---

(١) أم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب ، اسمها: لبابة بنت الحارث الهلالية ، وهي لبابة الكبرى ، أسلمت قبل الهجرة فيما قيل ، وقيل بعدها ، وقال ابن سعد: "أم الفضل أول امرأة آمنت بعد خديجة ، قال ابن حبان: ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العباس". الإصابة ٤/ ٤٨٤ .

(٢) الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي ، ابن عم سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أكبر الإخوة وبه كان يكنى أبوه وأمه ، واسمها لبابة بنت الحارث الهلالية ، كان أسن ولد العباس وغزا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وحنيناً وثبت معه يومئذ . الإصابة ٣/ ٢٠٨ .

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث ، اتفقوا على أنه مات بالطائف سنة ثمان وستين ، واختلفوا في سنه ، فقيل: ابن إحدى وسبعين ، وقيل: ابن أربع والأول هو الأقوى . الإصابة ٢/ ٣٣٠ .

(٤) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، أخو عبد الله وإخوته أمه أم الفضل ، كان يشبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان أحدث الناس عهداً برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . الإصابة ٣/ ٢٦٦ .

(٥) البخاري في المغازي ، باب ١٢ حديث رقم ٤٠١٨ .

وقد وردت رواية صحيحة الإسناد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة...» [1].

إن قبول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول مانزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ١ - ٤] واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنّة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من وضع حجر الاساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام [2].

مواقف إيمانية في غزوة بدر:

١ - روي ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه يومئذ: «**إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم؟ قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها**» فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة [3]: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لالحمنه بالسيف.

فبلغت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لعمر: "يا أبا حفص" قال عمر: والله إنه لاول يوم كناني فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي حفص، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟" فقال عمر: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق.

فقال أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها

(١) أحمد - المسند ٤/ ٤٧ (حديث ٢٢١٦) وإسناده صحيح.
(٢) أبو شهبة، السيرة النبوية ٢/ ١٦٤، ١٦٥.
(٣) أبو حُذيفة بن عُتبة بن ربيعة القرشي العَبْشَمِي كان من فضلاء الصحابة من المهاجرين الأولين شهد المشاهد كلها وقتل يوم اليمامة، ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/ ١٩٧.

خائفا إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [(١)].

٢ - استشهاد حارثة بن سراقة: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «**ويحك أَوَهَبِلْتِ أَوَجَنَّة واحدة هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنةِ الفردوسِ**» [(٢)].

قال ابن كثير معلقاً: وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فإن هذا الذي لم يكن في بحيحة القتال ولا في حومة الوغى بل كان من النظارة من بعيد وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس التي هي أعلى الجنان وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها فإذا كان هذا حال هذا فما ظنك بمن كان واقفا في نحر العدو وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عددا وعددا[(٣)].

٣ - مقتل أبي البختري بن هشام: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهي الصحابة عن قتل أبو البختري بن هشام، قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل أبي البختري لانه كان أكف القوم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بمكة [(٤)].

كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شئ يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار فقال له: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن قتلك ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة وهو جنادة بن مليحة وهو من بني ليث.

قال وزميلي؟ فقال له المجذر [(٥)] لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك، قال لا والله إذا لاموتن أنا وهو جميعا لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٤، البداية والنهاية، ٣/ ٣٤٨.
(٢) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (٣٩٨٢).
(٣) البداية والنهاية، ٣/ ٣٩٨.
(٤) قال الواقدي: كان أبو البختري قد لبس السلاح يوما بمكة في بعض ما كان بلغ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاذى وقال: لا يعترض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح.
(٥) الواقدي روى القصة وسمى الرجل صاحب القصة مع أبي البختري: أبا داود المازني.

وقال أبو البختري وهو ينازل المجذر:

لـن يتـرك ابـن حـرة زمـيله ::: حـتى يمـوت أو يـرى سـبيله

قال: فاقتتلا فقتله المجذر بن ذياد وقال في ذلك:

إمـا جهلـت أو نـسيت نـسبي ::: فأثـبت النـسبة أني مـن بلـي

وأعـبط القـرن بغـضب مـشرفي ::: والـضاربين الكـبش حـتى ينحني

أنـا الـذي يقـال أصـلي مـن بلى ::: أو بـشرن بمـثلها مـن بـني

بـشر بيـتم مـن أبـوه البخـتري ::: أطعـن بالـصعدة حـتى تنـثني

الطاعـنين بـرماح اليـزني ::: أرزم للمـوت كـإرزام المـري

فلا تـرى مجذراً يفـري فـري

ثم أتى المجذر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته[(١)].

٤ - استشهاد عوف بن الحارث: قال ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: (أن عوف بن مالك وهو ابن عفراء[(٢)]، قال: يارسول الله مايضحك الرب من عبده؟ قال: «غمْسة يده في العدو حاسراً»[(٣)] فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[(٤)].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة وحرصهم على رضوان الله تعالى ولذلك انطلق عوف بن الحارث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالآخرة وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم[(٥)].

٥ - استشهاد عُمَيْر بن الحُمَام: وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يارسول الله جنة عرضها السماوات

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٨، البداية والنهاية، ٣ / ٣٤٨.
(٢) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.
(٣) حاسراً: غير لابس الدرع.
(٤) صحيح السيرة النبوية، ص٢٤٥.
(٥) التربية القيادية، ٢/ ٣١.

والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بخ بخ [١]. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يحملك على قولك بخ بخ». قال: لا. والله يا رسول الله إلّا رجاءة [٢] أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه [٣]. فجعل يأكل منهنّ. ثمّ قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة.

قال فرمى بما كان معه من التّمر، ثمّ قاتلهم حتّى قتل [٤].

٦ - استشهاد سعد بن خيثمة: عن سليمان بن بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمّا خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه، فذكر ذلك للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر أن يخرج أحدهما. فاستهما [٥]، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إنّه لابدّ لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنّة لآثرتك به، إنّي أرجو الشّهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد؛ فخرج مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بدر، فقتله عمرو بن عبد ودّ [٦].

٧ - استشهاد عمير بن أبي وقاص: (عن سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقّاص قبل أن يعرضنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر يتوارى [٧]، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إنّي أخاف أن يراني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيستصغرني فيردّني، وأنا أحبّ الخروج لعلّ الله أن يرزقني الشّهادة. قال: فعرض على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فردّه، فبكى فأجازه. فكان سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: فكنت أعقد حمائل [٨] سيفه من صغره، فقتل وهو ابن ستّ عشرة سنة) [٩].

---

(١) بخ بخ: كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير، وفيها لغتان: سكون الخاء وكسرها منونا.
(٢) إلا رجاءة: أي والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها.
(٣) قرنه: جعبة النشاب.
(٤) مسلم، ١٩٠١.
(٥) فاستهما: أي اقترعا.
(٦) الإصابة، ٣/ ٧٥.
(٧) يتوارى: يستتر.
(٨) حمائل: جمع حمالة (بكسر الحاء) علاقة السيف ونحوه.
(٩) الإصابة (٥/ ٣٦)، واللفظ له، وأخرجه البزار ورجاله ثقات، كما في المجمع (٦/ ٦٩)، وأسد الغابة (٤/ ١٤٨).

٨ - مشاركة القائد جنوده في الصعاب: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالا: نحن نمشي عنك قال: «**ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما**»(١).

فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده الصعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قدوة طيبة أخلاقية لجنوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيشه رهبا من الموقف أو يتلذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابد الحر والقر(٢).

٩ - وقتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاله العاص بن هشام(٣) ضارباً بالقرابة عرض الحائط أمام رابطة العقيدة، بل كان يفخر بذلك تأكيداً لهذه الفكرة وبعد انتهاء المعركة أشار بقتل أسارى المشركين، وفي تلك الحادثة دروس وعبر عظيمة قد ذكرتها في كتابي السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، وعندما وقع العباس عمّ النبي في الأسر حرص عمر على هدايته وقال له: يا عباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك(٤).

١٠ - ونادى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ شَكَّةٍ ويَعْبُوب ::: وصَارِمٍ يَقْتُلُ ضُلاَّلَ الشَّيَبْ(٥)

١١ - وفي يوم بدر أيضا دعا أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وكان أسن أولاده فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**متعنا بنفسك أما علمت أنك مني بمنزلة سمعي وبصري**»(٦).

(١) ابن هشام، ٢/ ٣٨٩، وحسنه الألباني في تحقيق فقه السيرة ١٦٧.
(٢) محمد مسعد ياقوت، الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، ص٥٦.
(٣) البهنساوي، الخلافة والخلفاء الراشدين، ص١٥٤.
(٤) البداية والنهاية، ٣/ ٢٩٨.
(٥) يعني لم يبق إلا عدة الحرب، وحصان وهو اليعبوب يقاتل عليه شيوخ الضلالة، هذا يقوله في حال كفره. انظر: سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٩١.
(٦) أخرجه الحاكم [٣/ ٢٢٣]، طرفاً منه وأخرجه البيهقي [٨/ ١٨٦]، باب ما يكره لأهل العدل من أن يعمد قتل ذي رحمه من أهل البغي.

ثم أسلم عبد الرحمن في هدنة الحديبية وحسن إسلامه وهاجر إلى المدينة وكان شجاعا راميا شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وهو الذي قتل محكم اليمامة بن الطفيل الذي كان من قواد بني حنيفة المشهورين رماه بسهم في نحره فقتله، وكان عبد الرحمن أسن ولد أبي بكر وكان فيه دعابة. توفي فجأة بمكان اسمه حبش[1] وحمل إلى مكة ودفن فيها وكان موته سنة ٥٣ هجرية، فقدمت عائشة من المدينة فأتت قبره فصلت عليه وتمثلت بقول الشاعر

وكنا كندماني جذيمة حقبة ::: من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ::: أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا ::: لطول اجتماع لم نبت ليلة معا [2]

١٢ - وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي حليف بني عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاه جذلا [3] من حطب فقال: «**قاتل بهذا يا عكاشة**»، فلما أخذه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هزه، فعاد سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العَوْن، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده [4].

١٣ - كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفوف المشركين ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار[5] فقال مصعب للأنصاري شدّ يدك به فإن أمه [6] ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك[7].

---

(١) وهو جبل بينه وبين مكة ستة أميال.
(٢) جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٧م، ص ١٠٥، ورواه الترمذي في سننه، ٣/ ٣٧١، والحاكم في مستدركه، ٣/ ٥٤١.
(٣) الجذل: ما عظم من أصول الشجر المقطع؛ وقيل: هو من العيدان ما كان على مثال شماريخ النخل.
(٤) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩٠ ومغازي الواقدي ١ / ٩٣، زاد المعاد، ٣/ ١٨٦.
(٥) في الواقدي: أسره أبو اليسر، ثم اقترع عليه فصار لمحرز بن نضلة.
(٦) أمه: الخناس بنت مالك العامرية، وأخته هند بنت عمير، أم شيبة بن عثمان حاجب الكعبة، جد بني شيبة.
(٧) البداية والنهاية، ٣/ ٣٠٧.

إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي [1].

١٤ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القَلِيب، وأخذ عتبة بن ربيعة - وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين - فسحب إلى القليب، نظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجه ابنه أبي حذيفة - وكان أبو حذيفة من خيار أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «**يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟**» فقال: لا والله، يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخير، وقال له خيرًا [2].

ولا شك أن هذا الموقف العجيب من الولد نحو أبيه في تلكم المعركة التي قامت بين الحق والباطل، ليأخذ بأيدينا إلى عبرة بالغة ويسلمنا إلى حقيقة رائعة، وهي أن العقيدة إذا امتزجت بالنفوس واطمأنت بها القلوب فلن يخدعها هوًى أو رغبة، ولن تقف في سبيلها أية عاطفة في هذا الوجود[3].

الثناء على أهل بدر:

إن الصحابة الذين شهدوا موقعة بدر مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الذين اختارهم رب العالمين واصطفاهم فجعل لهم ميزة تميزوا بها على غيرهم من عباد الله المؤمنين إذ أن معركة بدر تعتبر من أعظم المعارك التي انتصر فيها الإسلام على الكفر وأهله، وبسببها انتشر ضوء الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، ثم إلى خارجها، وبسببها أضيئت الطريق أمام الدعاة إلى الله لتحقيق العبودية لله - سبحانه وتعالى - ونبذ جميع المعبودات التي تعبد من دون الله نتيجة اتباع الهوى والتقليد الأعمى، وكل من شارك من الصحابة في وقعة بدر كانت له المكانة اللائقة بالثناء الحسن في الدنيا والفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة، فأهل بدر هم النجوم التي أضاءت تاريخ الإسلام حتى أصبح يقال لأحدهم: فلان

(١) معين السيرة، ص٢١٣.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٣٤٢)، ورواه الحاكم في المستدرك، ٣/ ٢٢٤.
(٣) محمد الطيب النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، دار الندوة الجديدة بيروت - لبنان، ١/ ٢٣١.

بدري، وشهد بدراً وكفى بهذه المنقبة شرفاً وتعظيماً لهم في هذه الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكفى بذلك أجراً وإحساناً عند رب العالمين في الحياة الآخرة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فلقد أعطاهم ذلك ربهم - تبارك وتعالى - وفضلهم على كثير من عباده تفضيلاً"[1].

ففي الكتاب العزيز شهد الله لهم بإخلاص نياتهم في الجهاد في سبيل الله ومن أجل ذلك أكرمهم الله - تعالى - بالنصر على أعداء الله من أهل الكفر والضلال، وما ذلك إلا لفضلهم عند الله - جل وعلا - وأن لهم كرامة ومكانة ومنزلة رفيعة عنده - تبارك وتعالى - كما شهد الله لهم بحقيقة الإيمان.

فالآيات التي أثنى الله عليهم بما ذكر هي:

١ - قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

هذه الآية تشير إلى اللقاء الذي وقع بين المسلمين وبين المشركين يوم بدر، وفيها ثناء من الله - تعالى - على أهل بدر بخلوص نياتهم في الجهاد يوم بدر وأنهم ما قاتلوا يومذاك حمية ولا شجاعة ولا لترى أمكانهم، وإنما قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فأيدهم الله بنصره وأكرم بها من منقبة وأكرم به من موقف عظيم يذكرون به في الدنيا والآخرة وجدير بهذا الموقف العظيم أنه موضع للتفكر والاتعاظ والاعتبار لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة.

قال العلامة ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ الآية: "يعني بذلك - جل ثناؤه - قل يا محمد للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهراني بلدك قد كان لكم آية يعني علامة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون... والفئة الجماعة من الناس التقتا للحرب وإحدى الفئتين، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن كان معه ممن شهدوا وقعة بدر والأخرى مشركو قريش: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله﴾: جماعة تقاتل في طاعة الله وعلى دينه وهم رسول الله وأصحابه: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش.

(١) ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ١ / ١٦٥، وكان جل إعتمادنا عليه في هذا المبحث.

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ قال: أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببدر: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ فئة قريش الكفار.

وقال عكرمة في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: قال: محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه: ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ قال: قريش يوم بدر.

وقال مجاهد: ذلك يوم بدر التقى المسلمون والكفار"[1].

ومن خلال أقوال أئمة التفسير تبين أن الآية اشتملت على المدح والثناء على الفئة المؤمنة من البدريين، كما أنها أيضاً تضمنت التهديد لليهود الذين كانوا في المدينة حينذاك، فقد أخرج ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشاً يوم بدر فقدم المدينة جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً[2] لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تأت مثلنا فأنزل الله - عز وجل - في ذلك من قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله: ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أ. هـ[3].

فكأنه يقول لهم: يا معشر يهود لا يغرنكم كثرة العدد، ولا المال والولد فليس هذا سبيل النصر والغلب فالحوادث التي تجري في هذا الكون أعظم دليل على فساد ما تدعون انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا، فئة قليلة من المؤمنين عددها ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ولم يكن معها من القوة إلا سبعون بعيراً يعتقبونها وفرسان فقط[4] ولما كانت تقاتل في سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين التي كان عددها ألف رجل ومعها من القوة مائتا فرس يقودونها[5] وفي هذا عبرة أيما عبرة لذوي البصائر السليمة التي استعملت العقول

---

(١) جامع البيان، ٣/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) الأغمار جمع - غمر - بالضم - وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور.

(٣) جامع البيان، ٣/ ١٩٢، وتفسير البغوي على حاشية الخازن، ١/ ٢٧٢، وتفسير ابن كثير، ٢/ ١٤.

(٤) السيرة لابن هشام، ١/ ٦١٣، زاد المعاد، ٣/ ١٧١، البداية والنهاية، ٣/ ٢٨٥، وانظر: مسند الإمام أحمد، ١/ ٤١١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، المستدرك للحاكم، ٣/ ٢٠.

(٥) البداية والنهاية، ٣/ ٢٨٤.

فيما خلقت لأجله من التأمل في الأمور والاستفادة منها ووجه العبرة في هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى وهي قوة الله التي يؤيد بها الفئة المؤمنة القليلة، فتغلب الفئة المشركة الكثيرة بإذنه - تعالى - وقال ابن جرير مبيناً معنى قوله - تعالى - في الآية السابقة: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. وتأويل الكلام قد كان لكم آية يا معشر اليهود في فئتين التقتا: إحداهما: تقاتل في سبيل الله.

وأخرى: كافرة يراهم المسلمون مثليهم رأي أعينهم فأيدنا المسلمة وهم قليل عددهم على الكافرة وهم كثير عددهم حتى ظفروا بهم معتبر ومتفكر والله يقوي بنصره من يشاء - وقال جل ثناؤه - إن في ذلك يعني فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم من تأييدنا الفئة المسلمة مع قلة عددها على الفئة الكافرة مع كثرة عددها لعبرة يعني: لمتفكراً ومتعظاً لمن عقل وأدرك فأبصر الحق" أ. هـ[1].

٢ - وأما الشهادة من الله تعالى للبدريين بحقيقة الإيمان ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها إخبار من المولى - جل وعلا - بحقيقة إيمانهم فلقد أخبر - سبحانه - نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قواه وأعانه بنصره يوم بدر، كما أيده وأعانه بالمؤمنين، والمؤمنون الذين أيده بهم هم المهاجرون والأنصار الذين حضروا موقعة بدر المباركة قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وإنما أيده في حياته بالصحابة" أ. هـ[2].

وقال مقاتل: في بيان معنى الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: قواك بنصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر[3].

وقال ابن جرير: عند الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾: "يقول: الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بالأنصار[4].

وقال أبو عبد الله القرطبي: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ أي: قواك بنصره يريد

(١) جامع البيان ٣/ ١٩٨، وانظر: تفسير البغوي على حاشية تفسير الخازن ١/ ٢٧٣، وانظر تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥.
(٢) منهاج السنة، ١/ ١٥٦.
(٣) زاد المسير، ٣/ ٣٧٦.
(٤) جامع البيان، ١٠/ ٣٥.

يوم بدر: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النعمان بن بشير نزلت في الأنصار: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعجزاته إلا أن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها، وكان أشد خلق الله حمية فألف الله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والمعنى متقارب" أ. هـ[١].

فالآية اشتملت على الثناء بالإيمان الحقيقي على أهل بدر من الفريقين من مهاجرين وأنصار الذين حضروا تلك الغزوة وأيد الله بهم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وفي هذه الآية مدح الله - تعالى - المتبعين لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفة الإيمان التي هي أعلى صفات الكمال وفي مقدمة هؤلاء الفئة المؤمنة من أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، ومعنى الآية كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً. قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أيها النبي حسبك الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله يقول لهم جل ثناؤه ناهضوا عدوكم فإن الله كافيكم أمركم ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم فإن الله مؤيدكم بنصره"[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عند الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ أي: الله كافيك ومن اتبعك من المؤمنين والصحابة أفضل من اتبعه من المؤمنين وأولهم" أ. هـ[٣]..

وقد نقل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: عن ابن الكلبي أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال[٤].

وعلى هذا يكون المراد بالذين اتبعوه هم البدريون الذين كان عددهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً كما تقدم.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٤٢.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٣٧.
(٣) منهاج السنة، ١/ ١٥٦، وانظر: زاد المعاد، ١/ ٣٥ - ٣٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ٤٣.

٤ - قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧] .

فالمقصود بالمؤمنين في هذه الآية هم الذين شهدوا بدراً مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاتلوا معه أعداء دينه من كفار قريش فلقد شهد الله لهم في هذه الآية بأنهم مؤمنون وأكرم بها من شهادة صادرة عمن يعلم السر وأخفى فهو - سبحانه - علم حقيقة أنفسهم وما انطوت عليه من تحقيق الإيمان الصادق، فأخبر - سبحانه - بما استقر في نفوسهم الزكية من حقيقة الإيمان والبلاء الحسن الذي أبلى به أولئك المؤمنون هو ما أنعم الله به عليهم من الظفر بأعدائهم وغنيمتهم ما معهم، وإثبات ما لهم من الأجر على أعمالهم وجهادهم مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك هو البلاء الحسن.

ذكر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عن ابن إسحاق أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ أي: ليعرف المؤمنين من نعمه عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه وليشكروا بذلك نعمته" أ. هـ[(١)] .

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى﴾: "فهذه الآية نزلت في شأن رميه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصحابته" أ. هـ[(٢)] .

وروى ابن جرير الطبري: بإسناده إلى محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي أنهما قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: «**شاهت الوجوه**» فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى﴾[(٣)] .

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: "وأخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملء كفه من الحصباء فرمى بها وجوه العدو، فلم تترك رجلاً منهم إلا ملأت عينيه،

---

(١) جامع البيان ٩/٢٠٦ .
(٢) مدارج السالكين، ٣/٤٢٦ .
(٣) جامع البيان، ٩/٢٠٥ وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند رجاله رجال الصحيح انظر: مجمع الزوائد، ٦/٨٤ .

وشغلوا بالتراب في أعينهم وشغل المسلمون بقتلهم فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[(١)].

فالآية اشتملت على مدح أهل بدر والثناء عليهم بصفة الإيمان التي هي من أعلى صفات الكمال التي يسعى لتحقيقها عباد الله المؤمنون بكل ما يمكنهم من العمل الصالح.

٥ - قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

٦ - وقال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١١ - ١٢].

فقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شهادة قاطعة يقينية على إثبات إيمان أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكفى بهذه الشهادة شرفاً ورفعة لأولئك البدريين الأطهار إذ هي شهادة صادرة من رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يعلم الأمور على حقائقها وما هي عليه.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عند الآية: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك من أصحابك: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ وذلك يوم بدر" أ. هـ[(٢)].

وقد بين الله في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ الآية أن المطر الذي أنزله على أرض بدر كان لهم فيه أربع فوائد هي:

١ . تطهيرهم حسياً بالنظافة التي تنشط الأعضاء وتدخل السرور على النفس وشرعياً بالغسل من الجنابة، والوضوء من الحدث الأصغر.

٢ . إذهاب رجس الشيطان عنهم ووسوسته.

٣ . الربط على قلوبهم، أي: توطين النفس على الصبر وتثبيتها كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ٨٢.
(٢) جامع البيان، ٤/ ٧٦.

٤ . تثبيت أقدامهم ذلك أن المطر لبد الرمل وصيره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم فقدروا على مناجزة أعدائه من المشركين[(١)] .

وفي هذه الفوائد الأربع تكريم لأولئك البدريين رضوان الله عليهم أجمعين .

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] .

وهذه الآية مع ما دلت عليه من إثبات إيمان أهل بدر كذلك دلت صراحة على مشاركة الملائكة في قتال أعداء الدين من كفار قريش .

وقد جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وسوط الفارس يقول: أقدم حيزوم[(٢)] فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**صدقت ذلك من مدد السماء السادسة...**» الحديث[(٣)] .

وروى الإمام أحمد بإسناده إلى أبي داود المازني وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجل من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري[(٤)] .

وروى أيضاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: بإسناده إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ . . . قال: جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح[(٥)] من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق[(٦)] ما أراه في القوم ، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول

---

(١) انظر: جامع البيان الطبري ٩/ ١٩٤ ، وانظر: زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٣٧٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٨٩ .

(٢) "حيزوم" جاء في التفسير أنه اسم فرس جبريل عليه السلام .

(٣) صحيح مسلم ، ٣/ ١٣٨٤ – ١٣٨٥ .

(٤) المسند ، ٥/ ٤٥٠ ، وابن هشام في السيرة ، ١/ ٦٣٣ .

(٥) الأجلح من الناس الذي انحسر الشعر عن جانبيه رأسه ١/ ٢٨٤ .

(٦) البلق: الدابة ، والبلق سواد وبياض وكذلك البلقة: بالضم .

الله ، قال: «**أسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم**» [1] .

فهـذه الأحاديث صرحت بمشاركة الملائكة في قتال المشركين يوم بدر قال العلامة ابن القيم: "وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم" أ . هـ [2] .

وإمداد الله – تعالى – لهم بالملائكة لم يكن دفعة واحدة بل كان بالتدريج " قال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين يوم بدر بألف ، ثم زادهم فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم زادهم فصاروا خمسة آلاف ، قال الحافظ ابن حجر: وكأنه جمع بذلك بين آيتي آل عمران والأنفال " [3] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الحكمة في قتال الملائكة مع الصحابة في بدر فقال: قال الشيخ تقي الدين السبكي: "سألت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟ فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله – تعالى – في عباده ، والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم " . [4]

وفيما قدمنا من الآيات القرآنية إثبات لفضل تلك الفئة المؤمنة من البدريين وكما ثبت فضلهم بنص القرآن الكريم كذلك ورد في إثبات فضلهم الكثير من الأحاديث النبوية الصحيحة ومنها ما يلي:

١ – روى الإمام البخاري بإسناده إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال: "بعثني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا مرثد والزبير ، وكلنا فارس ، قال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ**[5] **فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب ابن أبي بلتعة إلى المشركين**» فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلنا: الكتاب فقالت: ما معي كتاب ، وأنخناها ، فالتمسنا فلم نر كتاباً فقلنا: ما كذب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتخرجن الكتاب ، أو لنجردنك فلما رأت الجد أهوت إلى حاجزتها ، وهي محتجزة بكساء – فأخرجته ، فانطلقنا

---

(١) المسند ، ١/ ١١٧ .
(٢) زاد المعاد ، ٣/ ١٨٣ .
(٣) فتح الباري ، ٧/ ٣٣ ، وانظر: جمع قتادة بين الآيتين في جامع البيان ، ٤/ ٧٨ .
(٤) فتح الباري ٧/ ٣١٣ .
(٥) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة بقرب المدينة شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ٥٥ ، وانظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ٣٣٥ .

بهـا إلى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقـال عمـر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمـنين فـدعني فلأضـرب عـنقه . فقـال الـنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مـا حملك**» قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أردت أن تكون لـي عـند القـوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي وليس أحد من أصحابك إلا له هـناك مـن عـشيرته مـن يدفـع الله بـه عـن أهلـه ومالـه فقـال الـنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صـدق ولا تقولـوا لـه إلا خـيراً**» فقـال عمـر: إنـه قـد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه فقال: «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقالوا اعملـوا مـا شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم**» . فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم .[(١)]

فللـه ما أعظم هذا التكريم لتلك الفئة المؤمنة من البدريين ، وما أعظم فضلها عند المولى - سبحانه وتعالى - .

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: "ووقع الخبر بألفاظ منها: "فقد غفـرت لكـم" ومـنها: "فقـد وجـبت لكم الجنة" ومنها: "لعل الله اطلع" لكن قال العلمـاء: إن الترجـي في كـلام الله وكـلام رسوله للوقوع ، ثم قال: وقد استشكل قـوله: «**اعملوا ما شئتم**» فإن ظاهره أنه للإباحة وهو خلاف عقد الشرع وأجيب: بأنـه إخبار عن الماضي - أي: كل عمل كان لكم فهو مغفور ويؤيده أنه لو كان لما يـستقبلونه مـن العمل لم يقل بلفظ الماضي ولقال: فسأغفره لكم ، وتعقب بأنه لو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاطب به عمـر منكـراً علـيه مـا قال في أمر حاطب وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين فـدل على أن المراد ما سيأتي ، وأورده في لفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ، وقيل: إن صيغة الأمر في قوله: «**اعملوا**» للتشريـف والتكريم والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر مـنهم بعـد ذلك وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محـو ذنـوبهم الـسابقة وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت ، أي: كـل مـا عملتموه بعد هذه الوقعة من أي عمل كان فهو مغفور . . وقيل: إن المراد ذنوبهم تقل إذا وقعت مغفورة . وقيل: هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم . وفيه نظـر ظاهـر لقـصة قدامـة بـن مظعون حيث شرب الخمر في أيام عمر وحده . . . واتفقـوا علـى أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من

---

(١) صحيح البخاري ، ٣/٧ ، صحيح مسلم ، ٤/ ١٩٤١ .

إقامة الحدود وغيرها والله أعلم[1] .

وقال النووي: قال العلماء: معناه الغفران لهم في الآخرة وإلا فإن توجه على أحد منهم حد أو غيره أقيم عليه في الدنيا ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد وأقامه عمر على بعضهم قال: وضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسطحاً الحد وكان بدرياً" أ. هـ[2] .

وقال المناوي شارحاً لهذا الحديث: «**اعملوا ما شئتم أن تعملوا فإني غفرت لكم ذنوبكم**» أي: سترتها فلا أؤاخذكم بها لبذلكم مهجكم في الله ونصر دينه والمراد إظهار العناية بهم وإعلاء رتبتهم والتنويه بإكرامهم والإعلام بتشريفهم وإعظامهم لا الترخيص لهم في كل فعل كما يقال للمحب افعل ما شئت أو هو على ظاهره والخطاب لقوم منهم على أنهم لا يقارفون بعد بدر ذنباً وإن قارفوه لم يصروا بل يوفقون لتوبة نصوح فليس فيه تخييرهم فيما شاءوا وإلا لما كان أكابرهم بعد ذلك أشد خوفاً وحذراً مما كانوا قبله" أ. هـ[3] .

٢ - روى الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى بإسناده إلى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عبداً لحاطب جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية**»[4] .

هذا الحديث فيه شهادة لحاطب بدخول الجنة رغم أنه كان يريد أن يعلم قريشاً بمسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم كما أن فيه التصريح بعدم دخول النار لمن شهد بدراً والحديبية .

٣ - وروى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بإسناده إلى رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر قال: جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما تعدون أهل بدر فيكم قال: "من أفضل المسلمين" - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة"[5] .

---

(١) الفتح ، ٧/ ٣٠٥ - ٣٠٦ ، وانظر: رسالته في الخصال المكفرة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ، ١/ ٢٥٨ .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ، ١٦/ ٥٦ - ٥٧ .
(٣) شرح الجامع الصغير ، ٢/ ٢١٢ .
(٤) صحيح مسلم ، ٤/ ١٩٤٢ .
(٥) صحيح البخاري ، ٣/ ١٠ .

وهـذا الحديث تضمن بيان درجة أهل بدر ويبين أن لهم درجة كبيرة، ومنزلة عظيمة عند الله - جل وعلا - فقد نالوا ذلك الفضل وتلك المنزلة بسبب ما قدموه في هذه الحياة الدنيا من جهد في نصرة الإسلام، وقمع عبدة الأصنام وما وقر في قلوبهم الطيبة من حقيقة الإيمان فكون الملائكة تقاس بهم فإن ذلك من أعظم الأدلة على علو قدرهم وارتفاع درجتهم عند الله - تعالى - فرضوان الله عليهم أجمعين.

٤ - وروى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسناده أيضاً إلى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: " أصيب - حارثة - يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى تر ما أصنع فقال: «**ويحك - أو هبلت - أو جنة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس**» [1]. ورواه بلفظ آخر بإسناده إلى أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب[2] فإن كان في الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**» [3].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بعد ذكره حديث حارثة هذا: "وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فإن هذا لم يكن في بحيحة القتال ولا في حومة الوغى بل كان من النظارة من بعيد، وإنما أصابه سهم غرب وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس - التي هي أعلا الجنان، وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة - أن يسألوه إياها، فإذا كان هذا حال هذا فما ظنك بمن كان واقفاً في نحر العدو وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عدداً وعُدداً" أ. هـ[4].

٥ - وجاء في مجمع الزوائد من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً من الأنصار عمي فبعث إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد اجتمع إليه قومه فتغيب

(١) صحيح البخاري، ٣/ ٧.
(٢) هو الذي: لا يعلم راميه، أو لا يعرف من أين أتى، أو جاء دون قصد من راميه. فتح الباري ٦/ ٢٧.
(٣) صحيح البخاري، ٢/ ١٣٩.
(٤) البداية والنهاية، ٣/ ٣٦١.

رجل فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما فعل فلان**» فذكره بعض القوم فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أليس قد شهد بدرا**» قالوا: نعم ولكنه كذا وكذا فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[١].

٦ - وفيه أيضاً: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إني لأرجو أن لا يدخل النار من من شهد بدراً إن شاء الله**»[٢].

٧ - وروى الحاكم بإسناده إلى عبد الرحمن بن عوف قال: كلم طلحة بن عبيد الله عامر بن فهيرة بشيء فقال له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مهلاً يا طلحة فإنه قد شهد بدراً كما شهدت وخيركم خيركم لمواليه**» ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٣].

٨ - ومن مناقب أهل بدر التي دلت على علو شأنهم، ورفعة مكانتهم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بين أنهم كتيبة الإيمان وعصابة الإسلام التي كان لها السبق في نصر دين الإسلام وإعلاء كلمته، وأن جهادهم في موقعة بدر كان من أعظم الأسباب في أن يعبد الله وحده لا شريك له على وجه الأرض. فقد روى الإمام مسلم بإسناده إلى عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال في الدعاء الذي دعا به يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»[٤].

ذلك هو الثناء في الكتاب والسنة على تلك الفئة المؤمنة من البدريين الفضلاء فقد أوضح الله ورسوله مكانتهم أتم وضوح فقد كانوا في القمة من الكمال وما حصل لهم ذلك إلا باستجابتهم لربهم - تبارك وتعالى - على الوجه المطلوب في امتثال الأوامر واجتناب النواهي ولذلك كان جزاؤهم أن وفقهم الله لصالح الأعمال في الدنيا، وفازوا بالجنة في الأخرى والذي أخلص إليه مما تقدم أن الله تعالى أثنى على أهل بدر ثناء حسناً وبين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكانتهم وفضلهم في

---

(١) مجمع الزوائد ٩/ ١٦٠ ثم قال الهيثمي: رواه أبو داود وابن ماجه باختصار كثير في الأوسط وإسناده حسن.
(٢) المصدر السابق ٩/ ١٦١ وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير خداش بن عياش وهو ثقة.
(٣) المستدرك، ٤/ ٧٧ وأقره الذهبي.
(٤) صحيح مسلم، ٣/ ١٣٨٤.

كثير من الأحاديث وقد ذكرنا بعضها فيما تقدم، فقد بين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنهم مغفور لهم، وأن من شهد بدراً لا يدخل النار وذلك نتيجة لما وقر في قلوبهم من الإيمان الذي ظهرت براهينه في أعمالهم وبسبب ذلك نصرهم الله على عدوهم في موقعة بدر رغم قلة عددهم وعدتهم، ففتح الله عليهم وأخذ أئمة الكفر وشفى صدورهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين.

قال العلامة ابن القيم: "ثم ارتحل - أي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعد انتهاء معركة بدر مؤيداً منصوراً قرير العين بنصر الله له، ومعه الأسارى والمغانم"[(١)].

فكان هذا اليوم يوم سعد وفوز للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وكان يوم نحس وشؤم على الكافرين والمنافقين وذلك لاختلاف الأعمال.

قال العلامة ابن القيم: "فسعود الأيام ونحوسها: إنما هو لسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال إنما هو بمخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة، ونحس لطائفة كما كان يوم بدر، يوم سعد للمؤمنين، ويوم نحس على الكافرين"[(٢)].

* * * * *

(١) زاد المعاد، ٣/ ١٨٨.

(٢) مفتاح دار السعادة، ٢/ ١٩٤، وانظر: التفسير القيم لابن القيم، ص٤٣٠.

الفصل الثاني:

[النشاط العسكري بين بدر وأحد]

النشاط العسكري بين بدر وأحد:

ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بعد انتصارهم الكبير في معركة بدر الكبرى، والتي تعد أول لقاء مسلح بينهم وبين المشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة، وقد حرصوا على تأديب المعاندين من المشركين في نطاق المدينة وما حولها، في حين كان المشركين أشد استياء لنتائج هذه المعركة وهم الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وانكسرت شوكتهم، وأصبحت لدي الفريقين رغبات وطموحات متباينة فالمسلمون يريدون استغلال نصرهم الكبير في بدر وتوسيع نطاق دعوة الإسلام ونصرة المستضعفين، والمشركون - الذين أحسوا بالذلة والمهانة بين العرب بعد بدر - يريدون الأخذ بالثأر وغسل جراحهم المثخنة بعد بدر بنصر جديد يزيل عنهم الذلة والمهانة بين العرب، وعليه فالحالة العسكرية بين الدولة الإسلامية في المدينة وكفار العرب علي حالها في انتظار جولة جديدة من المعارك، وهناك عناصر أخري دخلت في معاداة الدولة الإسلامية الوليدة، أمثال المنافقين الذين اضطرتهم الأوضاع الجديدة بعد بدر إلي الدخول في الإسلام نفاقا وخديعة، واليهود الذين - أساءهم كثيرا انتصار المسلمين في بدر - يحترقون غيظاً وحنقاً على المسلمين.

غزوة قرقرة الكدر:

غزا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزوة بدر، وبلغ ماء الكدر في ديار بني سليم الذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنه لم يلق حربا فأقام ثلاث ليال على الماء ثم رجع إلى المدينة [١].

وكانت قبيلتا غطفان وبنو سليم جمعت جموعا على ماء لبني سليم بقرقرة الكدر بهدف الاعتداء علي المسلمين بعد معركة بدر مباشرة، وحين بلغت أنباء هذا التجمع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاد بنفسه جيشا من مائتي مقاتل وداهمهم على الماء. وقد فر هؤلاء المتجمعون لقتال المسلمين لمجرد سماعهم أنباء قدوم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تاركين خلفهم جمالهم التي بلغ تعدادها ٥٠٠ بعير، فكانت غنيمة للمسلمين، وأقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أيام في الموقع -

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/ ٦٤، موسوعة نظرة النعيم، ١/ ٢٩٦.

كعادته في غزواته - قبل أن يعود إلى المدينة [1].

وعلي طرق العودة إلي المدينة، قسّم الحبيب محمد ﷺ الإبل على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال النبي ﷺ خُمْسَها، اصاب غلاماً له يقال له يسار، فأعتقه.

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، أوفي المحرم للنصف منه، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة. وقيل: ابن أم مكتوم [2].

محاولة اغتيال الحبيب محمد ﷺ واسلام عمير بن وهب:

تعددت محاولات قريش في صد دعوة الإسلام، فبعد فشلهم عسكريا في بدر، تفتق ذهن شياطينهم في حيلة إبليسية وهي محاولة الوصول إلي الحبيب محمد ﷺ واغتياله، وكان صاحب هذه المحاولة هو عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية، ولكن يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

قال عروة بن الزبير: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحِجْر، بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي الحبيب محمد ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: (والله ما في العيش بعدهم خير). قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْنٌ علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة[3] بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة[4]، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم[5] ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم علي شأني وشأنك. قال: أفعل.

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٣١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/ ٦٤، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٣١، ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ٩٠.

(٣) الضيعة: الضياع والتشتت.

(٤) العلة: السبب.

(٥) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

قـال: ثـم أمـر عمير بسيفه ، فشحذ وسُمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله بـه ، ومـا أراهم في عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته علـى باب المسجد متوشحًا سيفه ، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، ما جـاء إلا لشرٍ وهو الذي حرش بيننا ، وحزرنا للقوم يوم بدر . ثم دخل عمر على رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقـال: يـا نـبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشـحًا سـيفه . قـال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فأدخلـه علـيَّ**» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالـة[1] سـيفه في عنقه فلبَّبَه[2] بها ، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمـون . ثـم دخـل بـه علـى رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، فلمـا رآه رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعمـر آخـذ بحمالـة سـيفه في عـنقه قـال: «**أرسـله يـا عمـر، ادنُ يا عميرُ**» .

فـدنا ثـم قال: انعموا صباحًا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أكـرمنا الله بتحـية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**» .

فقال: أما والله ، يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

فقـال: «**فـما جـاء بـك يـا عمـير؟**» قـال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه . قال: «**فما بال السيف في عنقك؟**» قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا؟!! قال: «**اصدقني ما الذي جئْتَ به؟**» قال: ما جئت إلا لذلك .

قـال: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب مـن قـريش، ثـم قلـت: لـولا دينٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فـتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك**» .

قال عمير: أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا بـه مـن خـبر الـسماء ، ومـا ينـزل علـيك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ،

(١) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم .
(٢) لببه: قيده .

وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره ففعلوا**». ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا»[1].

نعم لقد دبر وخطط صفوان وعمير في سرية تامة، ولكن يمكرون ويمكر الله، ونعم لقد استغل صفوان فقر عمير وقلة ذات يده ودَيْنه وأرسله إلى هلاكه، ولكن الله عز وجل اختار عمير وهداه للإسلام، ولقد جاء عمير يريد النيل من الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعلمه الله عز وجل بذلك، ومع ذلك عفا عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحسن إليه وتجاوز عنه وعفا عنه وأطلق له ولده الأسير بعد أن أسلم وقال لأصحابه: «**فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره**»، وبعد أن جاء عمير إلي المدينة يريد النيل من نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويمتلئ قلبه حقدا وحسدا علي الإسلام والمسلمين فقد عاد إلي مكة داعية إلي الإسلام والتوحيد، وأسلم على يديه ناس كثير.

مقتل أبي عفك اليهودي:

قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة المنورة دار هجرته بدعوة من الأنصار الذين آمنوا به وبرسالته ونصروه، ولكن كانت هنالك قلة قليلة منهم بقيت على شركها، وبنو عمرو بن عوف هي إحدى القبائل الأوسية المنضمة إلى حظيرة الإسلام، وقد كانت كغيرها من القبائل الأنصارية، الغالبية العظمى مسلمين، وقليل منهم الذين بقوا على شركهم.

وكان من هؤلاء شيخ كبير[2] قد عسا[3]، عظيم الكفر، شديد الطعن على

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢١٢، صحيح السيرة النبوية، ص٢٦٠.

(٢) يذكر الواقدي، وابن سعد أنه قد بلغ من العمر عشرين ومائة سنة. انظر: الواقدي، المغازي، ١/ ١٧٤، وابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٨.

(٣) العسوس من الرجال إذا قل خيره. ابن منظور، لسان (عس).

المسلمين، يدعى أبا عفك[1]، وكان قد امتلأ قلبه بالحقد والحسد للمسلمين، وهو يرى التفاف الأوس والخزرج على نصرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وازداد كيده بالإسلام وأهله بعد أن رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزداد قوة وتمكينًا في المدينة وما حولها بعد غزوة بدر، فلم يطق لذلك صبرًا، فأخذ ينشد الشعر يهجو به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحرض على عداوته، ويسفه رأي الأنصار لمتابعتهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومناصرته[2].

فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه متمادٍ في غيه، لدرجة أنه يريد تأليب الناس عليه، وإثارة الفتنة والشقاق بين المسلمين ندب الصحابة لقتله قائلاً: "من لي بهذا الخبيث"[3]. وهنا يتجلى الإيمان في أروع مظاهره، فلا يتطوع لقتل أبي عفك ذلك الخبيث المرجف إلا رجلٌ من قومه شاب مغواري إيماني، من بني عمرو بن عوف، وأحد البكائين في غزوة تبوك، ذلكم هو سالم بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث نذر على نفسه ليقتلنه أو يموت دونه، فقام بإعداد خطة محكمة للقضاء عليه دون أن يشعر به أحد من أشياعه "فأمهل يطلب له غرة[4] حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عفك بالفناء، وعلم به سالم بن عمير، فأقبل فوضع السيف على كبده،

---

(١) يذكر ابن سعد أن أبا عفك كان يهوديا مع أنه نسبه إلى بني عمرو بن عوف. الطبقات (٢/ ٢٨) فلا يعرف أيقصد بذلك أنه من متهودتهم أم أن ذلك وهم منه، أو نسبه إلى اليهود مجازًا، لأن غالبية المنافقين كانوا يوالونهم، ويجتمعون بهم كثيرا، ويأتمرون فيما بينهم بالمسلمين، كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].
قال بعض المفسرين: المراد بشياطينهم من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر ابن كثير، تفسيره، ١/ ٥١، والله أعلم. وانظر: بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٣١.

(٢) كان مما قاله:

لقد عشتُ دهرا وما إن أرى	:::	من الناس دارًا ولا مَجمعا
أبرَّ عهودًا وأوفى لمن	:::	من أولاد قَيلة في جمعهم
يعاقدُ فيهم إذا ما دعا	:::	يَهُدُّ الجبالَ ولم يخضعا
فصدَّهم راكبٌ جاءهم	:::	حلالٌ حرام لشتى معا
فلو أن بالعز صدَّقتم	:::	أو الملكِ تابعتم تُبَّعا

ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ٦٣٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ٦٣٦.

(٤) غرة: غفلة. اللسان، والقاموس (غرو).

ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، وصاح عدو الله "فتركه سالم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مضرجًا بدمائه يخور كالثور، حيث ثاب إليه ناس من أصحابه "ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله، وقبروه". متسائلين بدهشة كما يذكر الواقدي "من قتله؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه به"[1].

فقالت أمامة المريدية في ذلك:

تُكَذِّبُ دِينَ اللهِ والمَرْءَ أحمدا ::: لَعَمْرُ الذي أَمْنَاكَ أَنْ بِئْسَ ما يُمْني
حَبَاكَ حَنِيفٌ آخرَ الليلِ طعنةً ::: أبا عفكٍ خُذها على كِبَرِ السِّنِّ[2]

مقتل عصماء بنت مروان:

ذكر أرباب السيرة أن أعمى كان على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت له أم ولد شقية انزلقت في مهاوي الضلال، فأعماها الحقد والحسد للإسلام وأهله، مما جعلها "تكثر الوقيعة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتسبه، فيزجرها فلا تنزجر وينهاها فلا تنتهي "فضاق بها ذرعًا لتماديها في أمر لا يُصبر على مثله، فقرر القضاء عليها على الرغم من حاجته الماسة إليها لضرارته، فضلا عن كونها أمًّا لولده، ولكن الإيمان وحب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموالاتهما لا يدانيه حب مهما بلغ "فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشتمه، فأخذ المغول[3] فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل[4] فلطخت ما هناك بالدم".

وفي صباح اليوم التالي يصل الخبر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بجمع الناس، ثم قام فيهم خطيبا كعادته حينما يحدث أمر ما فقال: «**أنشد الله رجلا فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام**»[5].

فما كان من الرجل وهو يسمع مناشدة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بد من إجابته، فقام يتخطى الناس مضطربا حتى قعد بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٨، الواقدي، المغازي، ٢/ ١٧٥.
(٢) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٦٣٥ - ٦٣٦، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٣٢.
(٣) المغول: حديدة رقيقة لها حد ماض وقفا. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (غول).
(٤) ربما كانت حاملا عندما قتلها فأسقطت ما في بطنها، أو أنه أحد ولديهما الصغيرين وقع بين رجليها، والله أعلم.
(٥) رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: سنن أبي داود، ٤/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدي، وكانت بي لطيفة رفيقة، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر ثم شرح له بالتفصيل كيف قتلها، عند ذلك قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا اشهدوا أن دمها هدر»** [(١)].

يتضح لنا من سياق هذه القصة مدى الحب الطاغي المسيطر على قلوب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، فهذا رجل ضرير لديه مثل هذه المرأة الرفيقة به، اللطيفة معه على ما به من الضرارة، علاوة على أنها أم لولديه الصغيرين، ومع ذلك كله قتلها غضبا لله عز وجل ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تمنعه حاجته الشديدة لها، ولم يغره لطفها ورفقها به، ولم يشفع لها عنده أمومتها لولديه الصغيرين، لأنه ممن كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهكذا المؤمن الكامل الإيمان يقدم حبّ الله عز وجل ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموالاتهما على كل شيء آخر حتى لو كان نفسه، قال الله تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢] [(٢)].

ومما نستنبطه من هذا الخبر والذي قبله: أن سابَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهدر الدم، فقد ذكر كل من المنذري والخطابي، أنه لا خلاف في أن سابه من المسلمين يجب قتله، وأما الخلاف إذا كان ذميًا، فقال الشافعي: يقتل وتبرأ منه الذمة، وقال أبو حنيفة: لا يقتل، ما هم عليه من الشرك أعظم. وقال مالك: من شتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم، وكذلك قال أحمد بن حنبل [(٣)].

غزوة بني قينقاع:

لقد امتلأت قلوب اليهود حقدا علي الإسلام ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ اليوم الأول لبعثته، وناصبوه العداء وتربصوا بالإسلام والمسلمين، ولقد كانت نفوسهم

---

(١) روه أبو داود، والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما انظر سنن أبو داود، ٤/٥٢٩، وسنن النسائي، ٤/١٠٨.

(٢) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٣٢.

(٣) سنن أبو داود، ٤/٥٢٨ – ٥٢٩ حاشية (٣)، وأبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ١٢/١٦ – ١٧.

تفيض بالعداوة والبغضاء للمسلمين في المدينة منذ الهجرة إليها ، قالت صفية بنت حيي: كنت أحب ولد أبي [(١)] إليه وإلى عمي أبي ياسر [(٢)] لم ألقهما مع ولد لهما إلا أخذاني دونه فلما قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة غدا عليه أبي وعمي مغلسين[(٣)] فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس فأتيا كالين [(٤)] كسلانين ساقطين يمشيان الهويني فهششت[(٥)] إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي أهو هو قال: نعم والله قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم قال: فما في نفسك منه ، قال: عداوته والله ما بقيت[(٦)] .

ولقد سعي الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الهجرة إلي كف أذاهم والبعد عن شرورهم حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة ، فعقد معهم معاهدة سلام ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مناوشة المسلمين والكيد لهم والتحريض عليهم ، ولقد فاضت نفوسهم بالعداوة بعد أن رأوا الوفاق والمحبة تملأ قلوب المهاجرين والأنصار ، وسعوا إلى إحداث الفرقة والشقاق في صفوفهم ، فقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار ، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس - وكان شيخاً يهودياً قد عسا [(٧)] ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأي من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم

---

(١) حيي بن أخطب بن سعية ، وقيل سعنة بن عامر بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن ينحوم من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه السلام وهو من سبط لاوي بن يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم. الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٠ ، أسد الغابة ٥/ ٤٩٠ ، الإصابة ٤/ ٣٤٦ ، كلهم ذكر ترجمته عند ذكر صفية أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - .

(٢) أبو ياسر بن أخطب لم يرد ذكره منفرداً بل مقترناً بأخيه وبكونهما عدوين لدودين للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر: السيرة النبوية ١/ ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ .

(٣) مغلسين: الغَلَس ظلمة آخر الليل والتغليس السير بغلس. مختار الصحاح ٤٧٨ .

(٤) كالين: كلّ الرجل والبعير من المشي يكل كلالاً وكلالة أي أعيا. مختار الصحاح ٥٧٦ .

(٥) هششت: الهشاشة بالفتح الارتياح والخفة للمعروف. المصدر السابق ٦٩٥ .

(٦) انظر: السيرة النبوية ١/ ٥١٨ - ٥١٩ ، ٢/ ٢٤١ ، الاكتفاء ١/ ٤٧٣ ، وفاء الوفاء ٢٦٩ .

(٧) عسا: كبرت سنه .

على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَةَ [1] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث [2] وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة [3] وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحَرَّة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها، وكادت تنشب الحرب.

فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوي الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم**» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس [4].

فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وماصنع: ﴿**قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران: ٩٨ - ٩٩] وأنزل الله في أوس بن قيظي وجبار بن صخر وكان معهما من قومهما الذين صنعوا عمّا أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**

---

(١) قيلة: أم الأوس والخزرج.

(٢) يوم بعاث كانت حرباً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، وأبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً.

(٣) يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم من جديد.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢١١ - ٢١٤.

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٠ – ١٠٥].

وأسلوب الدس والوقيعة هو أحد وسائل اليهود الخبيثة في حرب الإسلام ومحاولاتهم المستمرة لتمزيق الصف المسلم وتخريبه، بتقطيع أواصر المحبة بين المسلمين وذلك بإثارة الفتن الداخلية، والشعارات الجاهلية، والنعرات الاقليمية، والدعوات القومية والقبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الأخوة المتآلفين المتوادين المتحابين.

فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون فيها انتصارًا كبيرًا على قريش، ساء اليهود هذا النصر فبدأت طوائفهم تتغامز بالمسلمين، وتغري بهم، وتحرض عليهم، ولما رأى الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك منهم جمعهم في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشا في بدر[1].

غير أن ذلك لم يزدهم إلا عنادا واستكباراً وقابلوا الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال. إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا»[2].

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحا عدائية، وتحديًا واستعلاء واستعدادا للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢ – ١٣].

وكان بنو قينقاع يقيمون بداخل المدينة، وفي حيهم يقوم سوق عرف

(١) ابن هشام – السيرة ٢/ ٢٩٤، أبو داود – السنن ٣/ ٤٠٢ – ٣، وانظر: ابن حجر – فتح الباري ٧/ ٣٣٢.
(٢) ابن هشام – السيرة ٢/ ٢٩٤.

باسمهم، وكانوا صاغة يعملون في صناعة الحلي، ولإقامتهم بين المسلمين كانوا أكثر قبائل اليهود احتكاكًا، وكان وجودهم هذا مما يثير حفائظهم كما كان يشكل في الوقت نفسه خطرًا على كيان المدينة اليثربية أو فوجئت بهجوم خارجي وحدثتهم أنفسهم بالخيانة، ثم إنهم كانوا أشداء لعدم اعتمادهم على الحصون كبقية اليهود، فأغرتهم قوتهم بتحدي المسلمين فلما قدمت امرأة من الأنصار إلى سوقهم لتبيع بعض حليها، وجلست إلى صائغ منهم، عبث بها بعض رجالهم، فقد عقد طرف ثوبها وهي جالسة دون أن تعلم، فلما قامت انكشفت فاستصرخت المسلمين فأغاثها أحدهم وقتل اليهودي، غير أن اليهود تواثبوا على ذلك المسلم وقتلوه، واستصرخ أهل المسلم إخوانهم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، ولم يبق من سبيل لعدم مقاتلتهم، وإلا تعرض المسلمون وتعرض سلطانهم للخطر[(١)].

وحين علم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة أبا لبابة بن عبدالمنذر العمري واسمه بشير. وحين سار إليهم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال، آية: ٥٨].

وحين علم اليهود بمقدمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب - فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا، واستعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي.

وحينئذ قامت حركة النفاق بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول بدورها، فحاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلّ حلفائه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ والله لايحلهم

(١) ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٢٦، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.

رجل إلا ضربت عنقه، فأتى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يامحمد، أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - قال: فأبطأ عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال يامحمد: أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب ودرع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرسلني**»، وغضب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى رأوا لوجهه ظللاً [(١)]، ثم قال: ويحك أرسلني، قال: «**لاوالله**»، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هم لك**» [(٢)].

وقد أحسن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أَذْرُعَات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وغنم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون ماكان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [(٣)].

وقد حاول ابن أبي بن سلول أن يثني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حكم إجلائه يهود بني قينقاع وأراد أن يُقرّهم في ديارهم، فذهب إلي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد على بابه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال: لاتدخل حتى يأذن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لك، فدفعه ابن أبي، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم فتصايح حلفاؤه من يهود فقالوا: أبا الحباب لا نقيم أبدا بدار أصاب وجهك فيها هذا، لا نقدر أن نغيره. فجعل ابن أبي يصيح عليهم وهو يمسح الدم عن وجهه يقول ويحكم قروا فجعلوا يتصايحون لا نقيم أبدا بدار أصاب وجهك فيها هذا، لا نستطيع له غيرا [(٤)].

وعلي النقيض تماما من موقف عبد الله بن أبي بن سلول جاء موقف عبادة

---

(١) ظللا: جمع ظلة وهي السحابة، استعارها لتغيير الوجه عند الغضب.

(٢) ابن هشام - السيرة، ٢/ ٤٢٦، الدرر في اختصار المغازي والسير، ١/ ١٤٩، الروض الأنف، ٣/ ٢٢٤، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.

(٣) ابن هشام - السيرة، ٢/ ٤٢٦، الدرر في اختصار المغازي والسير، ١/ ١٤٩، الروض الأنف، ٣/ ٢٢٤، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.

(٤) المغازي للواقدي، ١/ ١٧٨.

بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وكان عبادة بن الصامت أحد بني عوف – لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي – ، فلما نقضت العهد بنوقينقاع مشى لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلعهم إليه ، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حلفهم وقال: يارسول الله ، أتولى الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، وفيه وفي عبد الله بن أبي ، نزلت هذه القصة من المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [المائدة: ٥١ – ٥٢] ، – لعبد الله بن أبي ، وقوله: إني أخشى الدوائر –: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى الله أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢ – ٥٣] ، ثم ذكر القصة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] .

وذكر لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرئه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] (١) .

إن الفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق ، ومرد عليه ، وبين عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي تربى على المنهاج النبوي ، فصفت نفسه ، وتطهر قلبه ، وقوي إيمانه ، وتنور عقله ، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية ، والأهواء ، والمصالح الذاتية ، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة ، فكان مثلاً حياً للمسلم الصادق ، المخلص لعقيدته(٢) .

غزوة السويق:

بدت الحالة الداخلية هادئة في المدينة بعد النصر الذي أحرزه المسلمون في بدر ، وبعد إجلائهم بني قينقاع ، وانكمشت الطوائف الأخرى من غير المسلمين ، وخفتت أصوات المعارضة ، وكان من الممكن أن يستمر هذا الهدوء فترة طويلة لولا أن أبا سفيان بمكة لم يطق صبرًا على عار بدر . ولم يطق أن يظل قابعًا في مكة

(١) سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبدأ والمبعث والمغازي ، ١/ ٢٩٥ – ٢٩٦ ، وسيرة ابن هشام ، ٢/ ٤٩ .
(٢) السيرة النبوية الصحيحة ، ١/ ٣٠٢ .

دون أن يعيد إلى أذهان العرب أن قريشًا لا تزال لها قدرتها على الضرب والغزو؛ لذلك ما لبث بعد شهر أن جمع مائتين من رجال مكة وخرج بهم مستخفين، حتى إذا ما وصلوا منطقة المدينة ليلًا نزل على بني النضير في حصن زعيمهم سلام بن مشكم حيث قراه [١] وسقاه وبطن له من خبر الناس [٢] ثم خرج في عقب ليلته هذه، فأغاروا على ناحية العريض فحرقوا بها بيتين ونخلًا ووجدوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له يعملان في حرث لهما فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين [٣].

وندب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه فخرجوا في أثر أبي سفيان حتى بلغ قرقرة الكدر على نحو أربعة وعشرين ميلًا من المدينة، وأبو سفيان ومن معه جادون في الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السويق [٤]، فإذا مر به المسلمون أخذوه، ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة السويق، وقد وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر [٥].

وهكذا انقلب فرار أبي سفيان عليه بعد أن كان يحسب أن الغزوة ترفع من شأن قريش بعد مصاب بدر [٦].

غزوة ذي أمر:

لما رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبا منها ثم غزا نجدا يريد غطفان وهي غزوة ذي أمر، وكانت الأخبار قد جاءت من قِبَل رجال الاستخبارات الإسلامية تفيد بأن رجال قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر بقيادة دُعثور بن الحارث المحاربي، يريدون حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإغارة على المدينة، فاستعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة عثمان بن عفان وخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكب وراجل، فأصابوا رجلا بذي القصة يقال له جبار من بني ثعلبة، كان يحمل أخبارًا عن قومه أسرَّ بها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد دخل في الإسلام وانضم إلى

(١) قراه: ضيَّفه.
(٢) بطن له من خبر الناس: أعلمه من سرهم.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٤٢٢.
(٤) السويق: هو أن تحمّص الحنطة والشعير ثم يطحن باللبن والعسل والسمن.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٤٢٢ - ٤٢٣.
(٦) أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٥٢.

بلال ليعلمه الشريعة الإسلامية كما هو دأب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العناية بتعليم المسلمين ، أما المشركون من بني ثعلبة ومحارب ما لبثوا أن فروا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين ، وبقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيدًا من أحد وعاد بعدها إلى المدينة .

وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بن الحارث - مع أنه هو الذي جمع قومه لمحاربته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان سيدًا مطاعًا بعد أن حدثت له معجزة على يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ فابتلت ثياب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف ، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله بسيفه ، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال: «الله» ، ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «من يمنعك مني» قال: لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، والله لا أكثر عليك جمعًا أبدًا ، فأعطاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك ، ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع صدري فوقعت لظهري ، فعرفت أنه ملك ، وشهدت أن محمدًا رسول الله ، والله لا أكثر عليه جمعًا ، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزل في ذلك قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [المائدة: ١١] [(١)] .

قتل كعب بن الأشرف:

يعتبر كعب بن الأشرف النضري من زعماء يهود المدينة ، وأحد كبار أحبارهم[(٢)] أضمر الحقد والحسد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ اللحظة التي وصلته فيها أخبار بعثته للناس هاديا ومبشرًا ونذيرًا[(٣)] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ٣ ، المغازي للواقدي ، ١/ ١٩٦ ، أبو يوسف محمد زايد ، مناورات الأشقياء لقتل خاتم الأنبياء ، ١/ ٢٨ .

(٢) كان كعب بن الأشرف عربيًّا من بني نبهان من طيء ، وكان أبوه أصاب دما في الجاهلية ، ثم أتى المدينة فحالف بني النضير فشرف فيهم ، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة ، شاعرا ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله . انظر: ابن إسحاق ، سيرة ، ص ٢٩٧ ، ابن هشام ، سيرة ، ٣/ ٥١ .

(٣) ذكر الزرقاني أن كعبا هدد بقطع صلته المعتادة لأحبار يهود بني قريظة وقينقاع عندما أقروا بنبوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنه ما زال بهم حتى تراجعوا عن قرارهم ذلك . انظر: الزرقاني ، شرح ، ٢/ ٨ ، وروى الطبري عن الزهري وقتادة أنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَدَّ

وبعد هجرة الحبيب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المدينة عمل علي أذية الحبيب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث "كان يهجو النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويحرض عليه كفار قريش "[(١)].

وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، ولما تيقن من صدق الخبر "ركب إلى قريش فاستغواهم على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ "[(٢)].

كما أنه لفرط عداوته لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما جاء به من الحق المصدق لما معه من الكتاب، نسي المبادىء والتعاليم التوراتية التي يدَّعي أنه يؤمن بها ويدافع عنها، نسي ذلك أو أنه تناساه عمدا، فشهد لحماة الوثنية قريش بأن وثنيتهم وشركهم خير من التوحيد الذي جاء به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك عندما قال له أبو سفيان: أناشدك الله، أدينُنا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم سبيلا [(٣)]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١] [(٤)].

ولم يكتف كعب بكل ذلك، بل إنه حالف قريشا على قتال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثم قدم المدينة معلنًا معادة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهجاء المسلمين وشرع في هجائه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين وشبب بأم الفضل بنت الحارث رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا زوجة العباس عم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ [(٥)]

بعد تلك الجرائم وغيرها التي ارتكبها كعب بن الأشرف أصبح عدوًّا مستأمنًا بعهد لم يرع ذمامه، ومواطنَ دولة خان دستورها، فكان لزاما أن يُعاقب بجريمته،

كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، تفسير الطبري، ١/ ٤٨٧.

(١) رواه أبو داود، السنن، ٨/ ٢٢٨، وانظر الألباني، صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٥٨١.

(٢) ابن سيد الناس، عيون، ١/ ٣٥٧، والزرقاني، شرح، ٢/ ٩ – ١٠، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤١.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، ص١٥٨.

(٤) انظر: ابن سعد، طبقات، ٣/ ٧٢، تفسير الطبري، ٤/ ٢٠١/، ٥/ ١٣٤ – ١٣٥، دلائل البيهقي، ٣/ ١٩٠ – ١٩٣ – ١٩٤، والواحدي، أسباب، ١٨٧ – ١٨٨، وابن سيد الناس، عيون، ١/ ٣٥٧، تفسير ابن كثير، ٧/ ٥١١، والزرقاني، شرح، ٢/ ٩ – ١٠.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي، ص١٦٠.

ويلقى جزاء خيانته، وحتى لا يثير قومه فيتحزبوا معه إذا طالبهم بتسليمه أو على الأقل يدبروا أمر هروبه بعيدا فلا تطوله يد العدالة خاصة وهو من كبار زعمائهم، لذلك رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خير وسيلة يتم بها التخلص منه هي بقتله سرًّا دون علم قومه[1]، فندب الصحابة لذلك قائلا: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**»[2] ويتطوع لهذه المهمة الصعبة محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان أخًا لكعب من الرضاعة فقام وقال: "يا رسول الله أتحب أن أقتله؟" قال: «**نعم**»، قال: "فأْذن لي أن أقول شيئا"[3].

وذكر عروة أن محمد بن مسلمة تشاور مع سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بناء على أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتفق معه على خطة استدراجية يطمئن بها كعب إليه فلا يشك بنواياه تجاهه، فقال له سعد: "توجه إليه واشك إليه الحاجة، وسله أن يسلفكم طعاما"[4].

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: "إن هذا الرجل قد أراد صدقة، وقد عنَّانا، فلما سمعه قال: وأيضا والله لتملُّنه، قال: إنا قد اتبعناه الآن ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، قال: وقد أردت أن تسلفني سلفا، قال: فما ترْهُنني، قال: ما تريد؟، قال: تَرْهُنني نساءكم، قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا، قال له: ترهوني أولادكم قال: يُسب ابن أحدنا، فيقال: رهن في وسقين من تمر، ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح)، قال: نعم".

وواعده أن يأتيه ومعه أبو نائلة – وهو أخو كعب من الرضاعة – وذلك زيادة لاطمئنانه، وثلاثة نفر من الأوس كانوا هم قوة السرية التي توجهت لقتله. وقد

---

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤١.

(٢) ابن حجر، فتح (٦/ ١٥٨ – ١٥٩ – ١٦٠، ٧/ ٢٢٦)، ومسلم (١٢/ ١٦١)، ووقع في رواية أبي داود عن الزهري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يبعث رهطا فيقتلوه فبعث إليه سعد بن معاذ محمد بن مسلمة وأصحابه، وحلَّت رواية عروة هذا التعارض، ففيها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمحمد بن مسلمة: إن كنت فاعلا فلا تعجل حتى تشاور سعد بن معاذ، فقال: فشاوره. ابن حجر، فتح، ٧/ ٣٣٨.

(٣) من رواية البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٥.

(٤) انظر ابن حجر، فتح، ٧/ ٣٣٨.

اختلفت المصادر في تسميتهم، وعددهم[1].

وفي ليلة مقمرة شيَّع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحاب السرية إلى بقيع الغرقد، كما يروي ابن إسحاق بسند حسن، ثم وجههم وقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم**»، ثم رجع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيته[2].

وأقبلوا حتى أتوا حصن كعب بن الأشرف وكان حديث عهد بعرس، وأنهم حينما هتفوا به وثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: إنك امرؤ محارب[3]. وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، "قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب"[4].

وكان محمد بن مسلمة قد اتفق مع أصحابه على كيفية قتله، "فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، ثم أشمكم، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم اضربوه، فنزل إليهم متوشحا وهو ينفخ منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا - أي أطيب -".

فقال كعب مفتخرًا: "نعم تحتي فلانة هي أعطر نساء العرب" فقال محمد بن

---

(١) اختلفت المصادر في قوة السرية، فغالبية أهل المغازي، ومسلم، والبخاري عن غير عمرو بن دينار ذكروا أنهم كانوا خمسة مغاوير أَوْسِيُّون هم محمد بن مسلمة، وأبو نائلة، وعباد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبير. انظر البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٦، ومسلم بشرح النووي، ١٢/ ١٦٢، عبد الرزاق، المصنف، ٥/ ٢٠٣، وابن إسحاق، سيرة، ٢٩٨، والواقدي، مغازي، ١/ ١٨٧، وابن سعد، طبقات، ٢/ ١٩٧ - ١٩٨.
ويذكر ابن حجر في روايات يشير إليها في الفتح أن عددهم كان ثلاثة فقط، ثم إنه رجح روايات أهل المغازي، وبعد ذلك يحاول الجمع فيقول ويمكن الجمع بأنهم كانوا مرة ثلاثة، وفي الأخرى خمسة. ابن حجر، فتح، ٧/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) انظر ابن إسحاق، سيرة، ٢٩٨ - ٢٩٩، وحسنٌ ابن حجر إسناده. ابن حجر فتح، ٧/ ٣٣٨، وأخرجه عن ابن إسحاق الإمام أحمد، الفتح الرباني، ٢١/ ٤٩، والبزار، الهيثمي، كشف الأستار عن زوائد البزار، ٢/ ١٣٠ - ١٣١، والطبراني، معجم، ١١/ ٢٢١، وقال الهيثمي: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد، ٦/ ١٩٦، وإن كان ابن إسحاق صرَّح بالتحديث فانتفت شبهة التدليس، كما أخرج الحديث عن ابن إسحاق بن راهويه. انظر السيوطي، الخصائص الكبرى، ١/ ٥٢٧.

(٣) هذا اعتراف ضمني من امرأة كعب بأنه عدو محارب للمسلمين، ولكن كيف نُقل عنها ما قالت فلعلها حدثت به نفسها، أو لعله نُقل ما حدثت به للصحابة الذين قتلوه.

(٤) من رواية البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٦.

مسلمة: "أتأذن لي أن أشم رأسك؟، فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟، قال: نعم، فلما استمكن منه، قال: دونكم، فقتلوه، ثم أتوا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فأخبروه"[(١)].

"فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: طُرق صاحبنا فقتل، فذكر لهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذي كان يقول، ودعاهم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه. فكتب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بينه وبين المسلمين عامة صحيفة"[(٢)]

"وقد يبدو مقتل ابن الأشرف متسمًا بالغدر، ولكن صاحب النظر الفاحص، والبصيرة النافذة يدرك أن ابن الأشرف معاهد بموجب الصحيفة التي التزم فيها يهود بني النضير مع الآخرين، وأنه بهجائه للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو رئيس الدولة بالنسبة لابن الأشرف، وبإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين ورثاء قتلاهم، وتحريضهم على المسلمين يكون قد نقض العهد وصار محاربا مهدور الدم، وأما استدراجه ممن يثق بهم وقتله بالخديعة، فإنه جائز مع المحارب، وقد تم بأمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"[(٣)].

هذا وقد ذكر ابن القيم أن قتل ساب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جائز بإجماع الخلفاء الراشدين ولا يعلم لهم في الصحابة مخالف، فإن الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال لأبي برزة وقد هم بقتل من سبه: لم يكن هذا لأحد غير رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. ومر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ براهب، فقيل له: هذا يسب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: لو سمعته لقتلته، إنا لم نعطهم الذمة على أن يسبوا نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فإن قيل: فالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يقتل عبد الله بن أُبي وقد قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، ولم يقتل ذا الخويصرة التميمي وقد قال له: اعدل، فإنك لم تعدل، ولم يقتل من قال له: يقولون: إنك تنهى عن الغي وتستخلي به، ولم يقتل القائل له: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، ولم يقتل

---

(١) من رواية البخاري، الصحيح، ٥/ ٢٥ – ٢٦، وابن حجر، فتح، ٧/ ٣٣٧.

(٢) انظر: عبد الرزاق، المصنف، ٥/ ٢٠٤، والألباني، صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٥٨١ واللفظ له، والبيهقي، دلائل، ٣/ ١٩٨. وعنده "فكتب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة". وذلك أتم.

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤٦.

من قال له لما حكم للزبير بتقديمه في السقي: إن كان ابن عمتك، وغير هؤلاء، قيل: الحق كان له فله أن يستوفيه، وله أن يسقطه، وليس لمن بعده أن يسقط حقه، كما أن الرب تعالى له أن يستوفي حقه، وله أن يسقط، وليس لأحد أن يسقط حقه تعالى بعد وجوبه، كيف وقد كان في ترك قتل من ذكرتم وغيرهم مصالح عظيمة في حياته زالت بعد موته من تأليف الناس، وعدم تنفيرهم عنه، فإنه لو بلغهم أنه يقتل أصحابه لنفروا، وقد أشار إلى هذا بعينه، وقال لعمر لما أشار عليه بقتل عبد الله بن أبي: "لا يبلغ الناس أن محمدا يقتل أصحابه"[(١)].

ولا ريب أن مصلحة هذا التأليف، وجمع القلوب عليه كانت أعظم عنده وأحب إليه من المصلحة الحاصلة بقتل من سبه وآذاه. ولهذا لما ظهرت مصلحة القتل، وترجحت جدًّا قَتَلَ الساب، كما فعل بكعب بن الأشرف فإنه جاهر بالعداوة والسب فكان قتله أرجح من إبقائه، وكذلك قَتَلُ ابن خطل، ومقيس، والجاريتين، وأم ولد الأعمى، فقتل للمصلحة الراجحة، وكف للمصلحة الراجحة، فإذا صار الأمر إلى نوابه وخلفائه، لم يكن لهم أن يسقطوا حقه".

ولا ريب أن المحاربة بسب نبينا أعظم أذيةً ونكاية لنا من المحاربة باليد ومنع دينار جزية في السنة، فكيف يُنقض عهده ويُقتل بذلك دون السب، وأي نسبة لمفسدة منعه دينارًا في السنة إلى مفسدة منع مجاهرته بسب نبينا أقبح سب على رءوس الأشهاد، بل لا نسبة لمفسدة محاربته باليد إلى مفسدة محاربته بالسب، فأولى ما انتقض به عهده وأمانه سب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ينتقض عهده بشيء أعظم منه إلا سبه الخالق سبحانه. فهذا محض القياس ومقتضى النصوص، وإجماع الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعلى هذه المسألة أكثر من أربعين دليلا[(٢)].

قال عياض: ولا يحل لأحد أن يقول إن قتله كان غدرًا، وقد قال ذلك إنسان في مجلس علي بن أبي طالب فأمر به فضُربت عنقه، وإنما يكون الغدر بعد أمان موجود، وكعب قد نقض عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يؤمنه محمد ورفقته لكنه

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤٦، الدكتور أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني، خصائصه وتنظيماته الأولى، ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٤٦، الدكتور أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني، خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ١٤٢ - ١٤٣.

استأنس بهم فتمكنوا منه من غير عهد ولا أمان، وقيل: لأن محمد بن مسلمة لم يصرح له بالأمان في شيء من كلامه، وإنما كلمه في أمر البيع والشراء، واشتكى إليه وليس في كلامه عهد ولا أمان[1].

وربما يلتبس على البعض أن قَتْلَ كعب بن الأشرف يتعارض مع بعض الأحاديث الناهية عن الفتك والغدر، ولكن اللبس هنا مرفوع؛ فالغدر لا يكون إلا بإنسان له عهد وميثاق ملتزم بهما غير ناكث لهما، وإلا قيل إن غزو مكة وفتحها كان غدرًا لوجود العهد والميثاق المبرم في صلح الحديبية. وكعب بن الأشرف علاوة على عدم التزامه بميثاق الدولة التي يعتبر أحد أفرادها جاهر بعداوته للمسلمين ولقائد الدولة، وأخذ يحرض عليهم، ولم يقتصر الأمر بفداحته على ذلك، بل سافر إلى عدوهم وعاهدهم على قتال المسلمين، وكان كل ذلك كافيا لإظهار عداوته، ولكنه عندما رجع إلى المدينة صار يؤذي المسلمين - وهم أفراد مساوون له في الحقوق تحت ظل دولة واحدة غير مكترث ولا عابىء - وذلك بهجائهم والتشبيب بنسائهم، وهو أمر عظيم كانت الدماء تسيل فيه أودية في الجاهلية فكيف وقد أعز الله المسلمين بالإسلام[2].

وانتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشتكون ويحتجون على مافعله أصحابه، فلم يحفل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم، بل أكد مقتله الذي كان نتيجة حتمية لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرعب في نفوس اليهود جميعهم، فلم يعد أحد من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه، كما لم يعد أحد من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين، واضطر اليهود لتجديد المعاهدة، وكان من عظمة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره وجدد المعاهدة معهم[3].

وعلى كل حال فإن اليهود خافوا خوفا شديدا بعد مقتل كعب بن الأشرف، فلم يطلع أحد من عظمائهم، وبذلك العمل الجريء أخرس رسول الله

---

(١) الزرقاني، شرح، ٢/ ١٣، وانظر البيهقي، دلائل، ٣/ ١٩٣، والخطابي، معالم السنن، شرح السنن لأبي داود، ٣/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٥٠.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٣٠٤.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألسنتهم، ورد كيدهم إلى نحورهم، وكبت حقدهم في صدورهم دون أن تراق دماء كثيرة، فالمجرم المحارب نال جزاءه وعقابه العادل والذي أصبح عبرة وعظة لمن تسول له نفسه من اليهود، أو المشركين في المدينة القيام بمثل ما فعل.

ومن خلال سياق أحداث هذه القصة يبدو لنا أمران ملفتان للنظر:

أولهما: قول امرأة كعب له: إنك امرؤ محارب.

وثانيهما: ردة فعل وفد اليهود الذين جاءوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشتكون من مقتل زعيمهم كعب، حيث إنهم حينما وضح لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صنيعه وما كان يفعل سكتوا ولم ينطقوا بشيء.

فهذان اعترافان من أقرب الناس لكعب بجريمته التي استحق عليها القصاص العادل[١].

غزوة بحران[٢]:

ولما بلغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن جمعًا من بني سُليم يريدون الغارة على المدينة، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي حران من ناحية الفرع بقوة بلغ تعدادها (٣٠٠) مقاتل مستهدفا بني سليم الذين كانوا يؤمّنون الطريق التجارية لقريش بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣ هـ[٣]. ويبدو أنه لم يلق كيدا، حيث وجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم ولم يقع قتال[٤]. وعاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي المدينة بقواته بعد عشرة أيام[٥].

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة:

كانت السرايا والبعوث التي قام بها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً قوياً، وكان الاقتصاد المكي

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٥١.
(٢) بُحران: موضع بين الفُرُع والمدينة. انظر: السيرة النبوية، ٣ / ٣١٣، دلائل النبوة، ٣ / ١٧٢.
(٣) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٤٢٥، الواقدي، المغازي، ١/ ١٩٦، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٣٥.
(٤) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٤٢٥.
(٥) ابن كثير، البداية، ٤/ ٣.

قائماً على رحلتي الشتاء والصيف، رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحي هاتين الرحلتين ضر للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع اليمن، وتجارتهم إلى اليمن قائمة على سلع الشام قال تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش].

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي نخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام -: إن محمداً وصحبه عَوَّرُوا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

وأخذت قريش تبحث عن طريق آخر لتجارتهم للشام، فأشار بعضهم إلى طريق نجد العراق - وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فُرَات بن حَيَّان، دليلاً له، ويكون رائده في هذه الرحلة.

وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجّار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبدالعزّى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلامي يدعى سليط بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له القَرَدة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وماعليها، وأسروا دليلها فُرات بن حيّان الذي أسلم بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعادوا إلى المدينة، فخمسها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووزع الباقي بين أفراد السرية، ووقعت أحداث هذه السرية في جمادي الآخرة سنة ٣ هـ (١).

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر، اشتد لها قلق

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/ ٥٦.

قريش وزادتها هما وحزناً . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها ، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد ، وعزها القديم ، وتقضي على قوات المسلمين بحيث لا يبقي لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو في ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوي لمعركة أحد[1] .

* * * * *

(١) الرحيق المختوم، ص ٢٤٤ .

الفصل الثالث:
[غزوة أحد سنة ٣ هـ]

غزوة أحد سنة ٣ هـ:

سبب المعركة:

يـرجع وقوع هذه الغزوة إلى جملة من الأسباب المتداخلة، أبرزها رغبة قريش في الانـتقام مـن المـسلمين لقـتلاها يوم بدر حيث كانت قد فقدت صناديد رجالها ولحـق بها عار الهزيمة المنكرة إضافة إلى ما فقدته من أموالها التي غنمت، ومكانتها الـتي تهـاوت وسمعـتها الـتي مرغت في الوحل. يضاف إلى ذلك ما كان يشعر به زعمـاء قـريش من أخطار تهددهم وتجارتهم التي كادت أن تتوقف مع بلاد الشام بعد أن تحكم المسلمون في كافة طرق التجارة الداخلية والساحلية، وخاصة بعد أن فقـدوا أملهم الأخير في سلوك طريق العراق، وما جرى في سريّة القردة حين غنم المسلمون تجارتهم وعيرهم وقطعوا عليهم آخر طريق كانوا يؤملونه لاستمرار سير تجارتهم. وهذا ما زاد النار إذكاء في قلوب قريش، وزودها من الحزن والهم ما لا يقـادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

هـذا إلى جانب تعنت قريش وإصرارها على دين الآباء والأجداد ومقاومتها التوحـيد، وحقـدها التاريخـي على الرسول صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والمسلمين الذين أفلتوا من قبضتها، فأصبحوا لها ندًا يناصبونها العداء ويقطعون عليها سبل حياتها.

وكانت استعدادات قريش لحرب المسلمين قد بدأت مبكرة في أعقاب هزيمتها في بـدر، فقـد رصـدوا أمـوال تجارتهم التي تمكن أبو سفيان من الإفلات بها قبيل معـركة بـدر مـع أرباحهـا لتجهيز جيش الثأر وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلـنا أن نـدرك مـنه ثـأراً، فأجابـوا لـذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألـف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَـهُمْ لِيَـصُدُّواْ عَـن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] [١]، ثـم فـتحوا بـاب الـتطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش

(١) ابـن هـشام، الـسيرة، ٣/ ١، الـواقدي، المغـازي، ١/ ٢٠٠، ابـن إسـحاق، الـسيرة، ص٣٢٢.

وكنانة وأهل تهامة، واتبعوا وسائل عدة في التحريض والحض علي مقاتلة المسلمين، حتى إن صفوان بن أمية أغري أبا عزة الشاعر - الذي كان قد أسر في بدر، فَمَنَّ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بألا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حياً يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم، كما اختاروا عمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزبعرى لنفس المهمة، وقد حقق هذا التحريض نتائج كبيرة حيث تسابق القرشيون علي المشاركة في دفع نفقات المعركة التي بلغت خمسين ألف دينار ذهباً، وجمعوا ثلاثة آلاف مقاتل من أبنائها وحلفائها من كنانة وأهل تهامة، [1]، بينهم مائتا فارس وسبعمائة دارع [2]، وجعلت على قيادة الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل [3]، وصاحب الجيش عدد من نساء قريش لغرض إثارة الحماس ومنع المقاتلين من التفكير بالفرار خشية العار، فخرج أبو سفيان - وأشد تأليباً على المسلمين بعدما رجع من غزوة السَّوِيق خائباً لم ينل ما في نفسه - وهو قائد الناس بهند ابنة عتبة بن ربيعة، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة ابنة مسعود الثقية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة... وتحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وقلوبهم يملأها الحقد علي المسلمين والرغبة في الثأر منهم، ونزلوا ببطن السبخة من قناة، على شفير الوادي مما يلي المدينة [4].

استطلاع أخبار قريش:

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتابع أخبار قريش بدقه بواسطة عمه العباس، قال ابن عبدالبر: (وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان المسلمون يتقوّوْن به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه

(١) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٨٤، الواقدي، المغازي، ١/ ١٠١، أبو فارس، غزوة أحد، ص١٧.
(٢) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٨٧، الطبري، تاريخ، ٣/ ٥٠٢ من رواية الواقدي.
(٣) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٨ - ١٢، الطبري، تاريخ، ٣/ ٥٠٤.
(٤) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٨٧ برواية ابن إسحاق دون إسناد، الطبري، تاريخ، ٣/ ٥٠٤، الواقدي، المغازي، ١/ ٢٠١، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٣٧.

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مقامك في مكة خير) [1]، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مساحتها إلى خمسمائة كيلومتراً - في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مسجد قباء[2]، وجاء في رسالته: (إن قريش قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[3] من السلاح) [4].

وتأكيداً للخبر أرسل الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَدَه ورجع، فسأله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مارأيت؟ قال: رأيت يارسول الله عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: (هل رأيت ظعنا؟) قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار[5]... فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أرَدْن أن يحرِّضنّ القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لاتذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول) [6].

مشاورات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه في أمر القتال:

ولما تيقن الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخبر، شاور أصحابه في كيفية مواجهة الموقف، وحيث إن المدينة كانت قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى البقاء والتحصّن فيها، وقال: «إنّا في جنّة حصينة» [7]،

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢/ ٨١٢.
(٢) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص٢٥٠.
(٣) أوعبوا: خرجوا بجميع ماعندهم من السلاح.
(٤) الواقدي، المغازي، ١/ ٢٠٤.
(٥) الأكبار: جمع كَبَر: والكَبَر، هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارس معرب.
(٦) الواقدي، المغازي، ١/ ٢٠٧ - ٢٠٨.
(٧) أحمد، المسند، ٣/ ٣٥١، الفتح الرباني ٢١/ ٥١ - ٥٢، الطبري - تفسير ٧/ ٣٧٢ بإسناد حسن إلى قتادة، وقد جاء بطرق عديدة وبمجموع الطرق يصح الحديث، وانظر: البيهقي - دلائل النبوة ٣/ ٢٠٤، ٣٠٨، الصنعاني - المصنف ٥/ ٣٦٤ - ٦٥، الحاكم - المستدرك ٢/ ١٢٨ - ١٢٩، ٢٩٦ - ٢٩٧، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٣٨.

فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها . وكان رأي عبدالله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أبدى بعض أصحابه من الأنصار - ممن كان فاته بدر - كراهة القتال في طرق المدينة وقالوا: «**وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم**» [1] .

انطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلبس لامته . وتلاوم القوم وقالوا: «عرض نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر وعرّضتم بغيره ، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمرنا لأمرك تبع» . فأتى حمزة فقال له: «يا رسول الله إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع» ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّه ليس لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يناجز**» [2] .

ما من شك أن رأي الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان هو الأصوب ، إلا أن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يؤصل مبدأ الشوري ويضرب لنا المثل والقدوة من نفسه كقائد للمسلمين ، وامتثالاً لأمر الله عز وجل حينما قال: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران، آية: ١٥٩] . وهذا الموقف يثبت أن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عوّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه ، فهو إنما يشاورهم فيما لانص فيه تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة ، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي ، ولم يحدث أن لام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحداً لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه ، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام ، فلابد أن يطبق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوجيه القرآني لتعتاد على ممارسة الشورى وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم ، فرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه ليس لهم فرصة على القائد فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار مايترجح لديه من الآراء فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم عادوا فاعتذروا إليه ، لكن الرسول الكريم علمهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد

---

(١) الطبري ، تفسير ٧/ ٣٧٢ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ٧١ .

بعد العزيمة والشروع في التنفيذ ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع[1] .

لبس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درعين ، رغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل تعويدا للأمة على الأخذ بالأسباب المادية ثم التوكل على الله [2] . وعقد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راية سوداء وثلاثة ألوية أحدها للمهاجرين والثاني للأوس من الأنصار والثالث للخزرج منهم ، وحمل مصعب بن عمير لواء المهاجرين ، وأسيد بن حضير لواء الأوس ، والحباب بن المنذر لواء الخزرج [3] .

وانتظمت قوات المسلمين التي قدرت بألف مقاتل بما فيهم المنافقون المتظاهرون بالإسلام ومعهم فرسان فقط ومائة دارع تحت قيادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحركت تاركة المدينة من الجانب الغربي من الحرة الشرقية [4] .

انسحاب المنافقين من جيش المسلمين:

وقد انسحب من جيش المسلمين المنافق عبد الله بن أبيّ بن سلول وثلاثمائة من أتباعه المنافقين ، بدعوى أنه لن يقع قتال مع المشركين ، ومعترضا على قرار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين بقوله: «أطاع الولدان ومن لا رأي له ، أطاعهم وعصاني ، علام نقتل أنفسنا» [5] .

وعمل عبد الله بن أبي هذا ينطوي على خيانة عظيمة ، وبغض للإسلام والمسلمين ، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب حتى لايختلط المخلص بالمغرض ، والمؤمن بالمنافق ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين فافتضحوا أمام أنفسهم

(١) السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٣٨٠ .
(٢) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٢٥ .
(٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٦٧ ، الواقدي ، المغازي ، ١/ ٣٣ ، ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ٣/ ٥٤٠ .
(٤) ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ٨ - ١٢ .
(٥) البخاري ، الصحيح (حديث ٤٠٥٠) ، ابن هشام ، السيرة ، ٢/ ٩٢ ، الواقدي ، المغازي ، ١/ ٢١٩ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٣٩ ، البيهقي ، دلائل ، ٣/ ٢٠٨ .

وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن[١].

وقد انقسم الصحابة في مسألة قتال هؤلاء المنافقين، ففريق يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش، وفريق لا يرى قتلهم[٢]، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وقد حاول الصحابي عبد الله بن عمرو بن حرام تدارك الأمر فلحق بالمنافقين المنسحبين، وحاول إقناعهم بضرورة نصرة نبيهم وقومهم، غير أنهم أصروا على موقفهم، وقالوا له: «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم»، وبعد أن يئس عبد الله منهم سأل الله أن يبعدهم، وأن يغني الله نبيه عنهم[٣]، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧].

وكاد بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما طائفتان من المسلمين، ورفضا أن يتخاذلا وينسحبا مع المنافقين، وفكروا جديًا في التراجع إلى المدينة، لولا أن الله تعالى أنقذهم وثبّت قلوبهم مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع إخوانهم المؤمنين[٤]، وفيهم قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا واللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ولما عسكر الجيش الإسلامي في منطقة الشيخين رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتيبة لها صوت وجلبة فقال: ماهذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن سلول بن أبي من يهود فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك[٥] وهذا أصل وضعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدم الركون إلى أعداء الإسلام

(١) محمد عيظة بن سعيد، غزوة أحد دراسة دعوية، ص٨٤، حسين أحمد، مرويات غزوة أحد، ص٧١.
(٢) البخاري، الصحيح (فتح حديث ٤٠٥٠)، الطبري، تفسير، ٩/ ٧ - ٩.
(٣) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٩.
(٤) البخاري، الصحيح (حديث ٤٠٥١)، مسلم، الصحيح، ٤/ ١٩٤٨ (حديث ٢٥٠٥)، ابن هشام، السيرة، ٣/ ١٥٤، الطبري، تفسير، ٧/ ١٦٦، البيهقي، دلائل النبوة، ٣/ ٢٢٠ - ٢٢.
(٥) صحيح السيرة النبوية، ص٢٧٨.

في الاستنصار بهم[(١)].

النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعرض جيش المدينة:

ثم استعرض الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتطوعين من صغار السن فرد منهم أربعة عشر صبيًا منهم عبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن ارقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فذهب إلى زوج أمه مرّي بن سنان بن ثعلبة يبكي وقال له: ياأبت أجاز رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رافعاً وردني، وأنا أصرع رافعا، فرجع زوج أمه ذلك إلى النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتفت النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رافع وسمرة فقال لهما تصارعا، فصرع سمرة رافعاً فأجازه كما أجاز رافعاً[(٢)]، ثم تقدم الجيش بعد ذلك إلى ميدان أحد حيث اتخذ مواقعه وفق الخطة المحكمة التي وضعها الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد نظّم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف جيشه وصفهم على هيئة صفوف الصلاة، وجعل رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي على رجليه يُسوي تلك الصفوف، ويبوئ أصحابه للقتال يقول: تقدم يافلان، وتأخر يافلان، فهو يقوّمهم...، حتى استوت الصفوف)[(٣)]، وبذلك وضع الحبيب محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقدمة الصفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الاسلوب لأنه أبلغ في قتال الأعداء[(٤)].

ثم إنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى ظهر المسلمين بالجبل وهم يستقبلون عدوهم (فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: (لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال)[(٥)].

وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير فوق تل عينين المقابل لجبل أحد بقصد منع المشركين من تطويق المسلمين، وأمر الرماة بالثبات في مواقعهم مهما حصل، وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطّفنا الطّير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتّى أرسل لكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم**»[(٦)].

---

(١) محمد عرجون، محمد رسول الله، ٣/ ٥٦١.
(٢) البخاري، فتح الباري، ٥/ ٢٧٦، مسلم الصحيح، ٢/ ١٤٢.
(٣) الواقدي، المغازي، ١/ ٢٠٩.
(٤) محمد فرج، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٣٥٥، ٣٥٦.
(٥) البخاري، الصحيح (حديث ٣٠٣٩)، أحمد، المسند، ٤/ ٢٠٩، تاريخ الطبري، ٢/ ٥٠٧.
(٦) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٦/ ١٦٢، حديث ٣٠٣٩، أحمد، المسند، ٤/ ٢٠٩،

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجيش: «لاتبرحوا حتى أوذنكم» وقال: «لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال» ، وقال لأمير الرماة: «انضح الخيل عنا بالنبل لايأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا. وقال للرماة: الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لاتقدّم على النبل، إنا لن نزال غالبين مامكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم»[1].

وهكذا فقد سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش المشركين[2].

وحرض أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه حتى جرد سيفاً باتراً ونادي أصحابه: (من يأخذ مني هذا؟) فبسطوا أيديهم ، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا قال: (فمن يأخذه بحقه) قال: فأحجم القوم ، فقال: سماك بن خرشة أبو دجانة ، وماحقه يارسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني ، قال: أنا آخذه بحقه . فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب - اي يمشي مشية المتكبر - وحين رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبختر بين الصفين قال: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)[3] .

قريش تشحذ هممها:

أما المشركون فعبؤوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشركاً - وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان ابن أمية ، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب - كما أسلفنا في

الحاكم ، المستدرك ، ٢/ ٢٩٦ ، الواقدي ، المغازي ، ١/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٣٩ - ٤٠ .

(١) السيرة الحلبية ، ٢/ ٤٩٦ .

(٢) البخاري ، الصحيح ، فتح ٦/ ١٦٢ ، حديث ٣٠٣٩ .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٧٠ .

أوائل الكتاب - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك ؛ تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابراً عن كابر ، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم - ليستفز غضبهم ويثير حميتهم: يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، وإذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان في هدفه ، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب ، وهموا به وتواعدوه وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم .

وعقب ابن كثير علي ذلك الموقف بقوله: وذلك الذي أراد أبو سفيان[1] .

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من بث الحماس في نفوس قريش ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فكن يتجولن في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ؛ يستنهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويثرن حفائظ الأبطال ، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

وَيْهًا بني عبد الدار ::: ويها حُمَاة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن:

إن تُقْبِلُوا نُعَانِق ::: ونَفْرِشُ النمارق

أو تُدْبِرُوا نُفَارِق ::: فراق غير وَامِق[2]

قبيل المعركة :

وقبيل بدأ المعركة حاول أبو سفيان أن يحدث شرخاً وتصدعاً في جبهة المسلمين المتماسكة ، فأرسل إلى الأنصار يقول: (خلو بيننا وبين ابن عمنا ، فننصرف عنكم ، فلا حاجة بنا إلى قتال) فردوا عليه بما يكره[3] .

ولما فشلت المحاولة الاولى لجأت قريش إلى محاولة اخرى عن طريق رجل من أهل المدينة ، وهو أبو عامر الراهب - وكان يعد قريشا أن لو قد لقي قومه لم

---

(١) البداية والنهاية ، ٤/ ١٨ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ١٨ .
(٣) المقريزي ، إمتاع الأسماع ، ١/ ١٢٠ .

يختلف عليه منهم رجلان - حيث حاول أبو عامر الراهب [(١)] أن يصد بعض الأنصار عن القتال، فقال: يامعشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يافاسق فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة[(٢)].

بداية المعركة:

وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان، وآنت مرحلة القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة. خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء المشركين وطلب المبارزة مراراً فلم يخرج إليه أحد فقال: ياأصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال له علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار أو يعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه علي فقطع رجله، فوقع على الأرض فانكشفت عورته، فقال: يابن عمي، أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهزعليه، فكبر رسول الله، وقال لعلي بعض أصحابه أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه[(٣)].

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين، وبعد قتل طلحة بن أبي طلحة تعاقب بنو عبد الدار حمل اللواء، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي

---

(١) كان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر بارز أبو عامر بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ماكان وامتحنهم الله عزوجل، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه. تفسيرابن كثير، ٢/ ٣٨٨.

(٢) أبو شهبة، السيرة النبوية ٢/ ١٩٢.

(٣) السيرة الحلبية، ٢/ ٤٩٧، ٤٩٨؛ تفسير الطبري، ٧/ ٢١٨.

طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول:

إنَّ على أهْـل اللـواء حقـاً ::: أن تُخضَبَ الصَّعْدَة أو تَندَقَّا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته [1] .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فقال سعد بن أبي وقاص: رميته فأصبت حنجرته ، فاندلع لسانه اندلاع لسان الكلب وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز ، فتقدم إليه علي بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه علي فقتله[2] .

ثم رفع اللواء مُسَافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفْلَح بسهم فقتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كِلاَب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجُلاَس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته . وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقضي عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ، ثم حمله من بني عبد الدار أرطاة بن شُرَحْبِيل ، فقتله علي بن أبي طالب ، وقيل: حمزة بن عبد المطلب ، ثم حمله شُرَيح بن قارظ فقتله قُزْمَان – وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام – ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري ، فقتله قزمان أيضاً ، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضاً .

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار – من حمله اللواء – أبيدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء . فتقدم غلام لهم حبشي – اسمه صُؤَاب – فحمل اللواء ، وأبدي من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يداه ، فبرك على اللواء بصدره وعنقه ؛ لئلا يسقط ، حتى قتل وهو يقول: اللّهم هل أعزرت؟ يعني هل أعذرت؟ .

وبعد أن قتل هذا الغلام – صُؤاب – سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقي ساقطاً ، ولما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين ، لا

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ٢٠ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ، ٣/ ٢٥٥ .

يلـوون علـى شـئ ، ونـساؤهم يدعون بالويل ، وتبعهم المسلمون يقتلونهم حيث شاؤوا ، حتى أجهضوهم عن العسكر[١] .

وقاتـل المسلمون عـند لقـاء العدو ، تحت شعار: أمت ، أمت ، واستماتوا في قـتال بطولـي ملحمـي سـجل فـيه صـناديد الإسـلام صـورا رائعـة في الـبطولة والبسالة[٢] ، وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب ابن عمـير وأبـي دجانـة ، وأبـي طلحـة الأنـصاري ، وسعد بن أبي وقاص ، وأمثالهم كثير[٣] ، فهذا الزبير بن العوام يصف لنا مافعله أبودجانة يوم أحد قال: وجدت في نفـسي حـين سـألت رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـسيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلـت أنـا ابـن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه وسألته أياه قبله فأعطاه أبا دجانـة وتـركني والله لأنظـرن مايـصنع فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسـه فقالـت الأنـصار أخـرج أبو دجانة عصابة الموت وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنـــا الـــذي عاهـــدني خليلـــي ::: ونحـــن بالـــسفح لـــدى النخـــيل
أن لا أقـــوم الدهـــر في الكـــيول[٥] ::: اضـــرب بـــسيف الله والرســـول[٤]

فجعـل لا يلقـي أحـداً إلا قـتله وكـان في المـشركين رجـل لايـدع جريحاً إلا ذفف[٦] عليه فجعل كل منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختـلفا ضـربتين فـضرب المـشرك أبـا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبـودجانة فقـتله ، ثم رايته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بن عتبة ثم عدل الـسيف عـنها فقلـت الله ورسـوله أعلم ، قال ابن إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنـساناً يحمس الناس حماساً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا

---

(١) محمـد بـن يوسـف الـصالحي الـشامي ، سبل الهـدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ٤/ ١٩٥ – ١٩٦ .
(٢) مـسلم ، الـصحيح ، ٤/ ١٩١٧ (حـديث ٢٤٧٠) ، أحمـد ، المـسند ، ٣/ ١٢٣ ، ٤/ ٤٦ ، الحاكم ، المستدرك ، ٢/ ١٠٧ – ١٠٨ ، ٣/ ٢٣٠ ، الدارمي ، السنن ٢/ ٢١٩ .
(٣) البخاري ، الصحيح (فتح الباري ، ٧/ ٣٦٧) ، مسلم ، الصحيح ، ٢/ ٢٨٤ ، أحمد ، الفتح الربانـي ، ٢١/ ٦٠٥٩ ، الـواقدي ، المغـازي ، ١/ ٣٠١ ، خلـيفة بـن خـياط ، الـتاريخ ، ص/ ٦٧ .
(٤) البداية والنهاية ، ٤/ ١٧ .
(٥) الكيول: مؤخرة الصفوف .
(٦) ذفف: اجهز عليه .

امرأة فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة[1].

وقاتل أسد الله حمزة قتالاً ضارياً، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبدالدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة والإقدام كمن له وحشي حتى تمكن منه ثم رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، يقول وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عديّ بن الخيار ببدر، قال لي مولاي جُبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، فلما خرج الناس عام عينين، وعينين جبل بجبال أحد، بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباعُ فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب فقال: ياسباع، ياابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ثم شدّ عليه، فكان كأمس الذاهب قال: وكمنّتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّتِه[2] حتى خرجت من بين وَركيه، قال: فكان ذاك العهد به[3]، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة . . .[4].

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حَنْظَلة الغَسِيل - وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق، والذي مضي ذكره قريباً - كان حنظلة حديث عهد بالعُرْس، فلما سمع هواتف الحرب وهو على امرأته انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقي بجيش المشركين في ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبي سفيان، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله، فذكر ذلك لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إني رأيت الملائكة تغسّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة**» فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأسالوا أهله ماشأنه؟**» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[5]، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فلذلك غسلته الملائكة**»[6].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٨.
(٢) فاضعها في ثنيته: أي في عاتقه.
(٣) ذلك العهد به: كناية عن موته.
(٤) البخاري، المغازي رقم ٤٠٧٢.
(٥) أي: سمع منادي رسول الله يدعو للخروج لملاقاة العدو.
(٦) صحيح السيرة النبوية، ص٢٨٩.

وبعد أن اظهر المسلمون ضروباً من الشجاعة في قتال المشركين أحست قريش بالعجز والخور، وانكسرت همتها - حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذي سقط بعد مقتل صُؤاب فيحمله ليدور حوله القتال - فأخذت في الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لاشك فيها.

قال الزبير بن العوام، والبراء بن عازب: لقد رأيتنا ننظر إلى خدم هند بنت عتبة، وصواحبها مشمرات هوارب يرفعن عن سوقهن، حتى بدت خلاخلهن، وانهزم القوم ما دون أخذهن قليل ولا كثير، وكانت الهزيمة لا شك فيها، ودخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه[1].

وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة [2]. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

خطأ الرماة وماحدث في صفوف المسلمين:

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها تنادوا: «الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون» فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير: «أنسيتم ما قال لكم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» قالوا: «والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»، وهرعوا إلى جمع الغنائم تاركين مواضعهم الحصينة الخطيرة، عاصين أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باستثناء أميرهم عبد الله بن جبير. وكانت فرصة مواتية للمشركين فانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٤/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) البخاري، الصحيح، [فتح الباري، ٦/ ١٦٢، ٣٧٥ (حديث ٣٠٤٣)]، الطبري، تفسير، ٧/ ٢٨١ - ٢٨٨، ابن كثير، التفسير، ٢/ ١١٤ - ١١٥ من رواية الإمام أحمد (انظر: المسند ١/ ٢٨٧ - ٨)، الحاكم، المستدرك، ٢/ ٢٩٦.

الجديد فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهي عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادي بعضهم بعضاً، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شِقَّي الرحي [1]. وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وبدؤوا يقاتلون دون تخطيط ولم يعودوا يميّز بعضهم بعضا [2].

ويبدو أن بعض مقاتلة المشركين قد انتبهوا إلى وجود الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع تسعة من أصحابه، سبعة منهم من الأنصار فهاجموهم، واستبسل الأنصار واستشهدوا واحدا بعد الآخر [3]، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه [4] قال: «**من يردوهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضا فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحبيه: «**ما أنصفنا أصحابنا**»[5][6]، وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السَّكَن، أو زياد بْن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط [7].

وبعد سقوط ابن السكن بقي الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القرشيين فعن أبي عثمان قال: لم يبق مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة ابن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص [8]، فقاتل عنه طلحة بن عبيد

---

(١) ابن هشام، السيرة، ٢/ ١١٢، الطبري، التفسير، ٧/ ٢٨١ - ٢٨٢.
(٢) البخاري، الصحيح (فتح الباري - حديث ٤٠٦٥)، الحاكم، المستدرك، ٣/ ٢٠٢، أحمد، المسند، ٤/ ٢٠٩ - ٢١١، ابن هشام، ٣/ ١٢٧.
(٣) مسلم، الصحيح، ٣/ ١٤١٥ (حديث ١٧٨٩).
(٤) رهقوه أي غشوه وقربوا منه، قال القاضي عياض: قيل لا يستعمل ذلك إلّا في المكروه، وقيل: كل شيء دنوت منه فقد رهقته.
(٥) المعنى على هذه الرواية: ما أنصفت قريش الأنصار، لكون القرشيّين لم يخرجا للقتال، بل خرجت الأنصار واحدا تلو الآخر وقد روي أيضا: ما أنصفنا أصحابنا والمراد بالأصحاب حينئذ الذين فروا من القتال فإنهم لم ينصفوه لفرارهم.
(٦) مسلم، ١٧٨٩.
(٧) ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ١/ ١٥٨.
(٨) روى الحديث البخاري في كتاب المغازي ١٨ باب ح ٤٠٦٠ وفي ٦٢ كتاب فضائل

الله حتى أثخن وأصيب بسهم شلّت يمينه [(١)]، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يناوله النبال ويقول له: «**إرم يا سعد، فداك أبي وأمّي**» [(٢)]. واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فكسر أنفه الشريف ورباعيته [(٣)] اليمنى السفلى، وشج في وجنته[(٤)] وكُلِمَتْ [(٥)] شفته السفلي، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري فشَجَّه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضربة أخري عنيفة كالأولي حتى دخلت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجْنَتِه، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يمسح الدم عن وجهة: «**أقمأك الله**» [(٦)].

وعن أنس، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كسرت رباعيته، وشج، فجعل يسلت [(٧)] الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا**

الصحابة ح ٣٧٢٢ .ومسلم في ٤٤ كتاب فضائل الصحابة ٦ باب ح ٤٧ .

(١) البخاري، الصحيح [فتح الباري، ٧/ ٣٥٩ (حديث ٣٧٢٤)].

(٢) البخاري، الصحيح [فتح الباري، ٧/ ٣٥٨ (حديث ٣٧٢٤)].

(٣) الرباعية: السن بين الثنية والناب وهي أربع رباعيتان في الفك الأعلى ورباعيتان في الفك الأسفل.

(٤) الوجنة: أعلى الخد.

(٥) كلم: جرح وخدش.

(٦) قال ابن هشام: عتبة بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص الذي رمى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى وعبد الله بن شهاب الزهري شجه في وجهه وابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته، وقد اختلف في إسلام عتبة، والصحيح أنه لم يسلم، قال السهيلي ولم يولد من نسله ولد، فبلغ الحلم إلا وهو أبخر واهتم، يعرف ذلك في عقبه، وأما عبد الله بن شهاب فأسلم، وهو جد شيخ مالك محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب، وقد قيل لابن شهاب شيخ مالك: أكان جدك عبد الله بن شهاب ممن شهد بدرا؟ فقال نعم، ولكن من ذلك الجانب يعنى مع الكفار، وأما ابن قميئة واسمه عبد الله فنطحه تيس فتردى من شاهق، وفى مستدرك الحاكم: أنه لما فعل عتبة ما فعل جاء حاطب بن أبى بلتعة فقال يا رسول الله من فعل هذا بك؟ فأشار إلى عتبة، فتبعه حاطب حتى قتله وجاء بفرسه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. القاضي أبو الفضل عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق العلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى، طبعة دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، ١/ ١٠٥.

(٧) السلت: المسح والإزالة.

رباعيته، وهـو يدعوهم» ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] [١] .

وقعـت هـذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة ، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكـادوا يرون تغير الموقف ، أو يسمعوا صوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لقي من الجراحات - وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات ، وسـعد وطلحـة يكافحـان أشـد الكفـاح - فلمـا وصـلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو ، ورد هجماته . وكان أول من رجع إليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

روي عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فكنت أول من فاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه ، قلت: كن طلحة ، فداك أبي وأمي ، كن طلحة ، فـداك أبـي وأمـي ، حيث فاتني ما فاتني ، فقلت: يكون رجل من قومي أحب إلي فلـم أنـشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني ، فدفعـنا إلى الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فـإذا طلحـة بـين يديـه صـريعاً ، فقـال الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دونكـم أخـاكم فقـد أوجب**» ، وقد رمي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وَجْنَتِهِ حتى غابت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجنته ، فذهبت لأنزعهما عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقـال أبـو عبـيدة: نـشدتك بالله يا أبا بكر ، إلا تركتني ، قال: فأخذ بفـيه فجعـل ينَضِّضه كراهية أن يؤذي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم استل السهم بفـيه ، فـنَدَرَت ثنـية أبـي عبـيدة ، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر ، فقال أبو عبـيدة: نـشدتك بـالله يـا أبـا بكـر ، إلا تركتني ، قال: فأخذه فجعل ينضضه حتى اسْتَلَّه ، فـندرت ثنـية أبـي عبـيدة الأخـري ، ثـم قـال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (دونكم أخاكم ، فقد أوجب) ، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابته بضع عـشرة ضـربة [٢] . وفي تـاريخ دمـشق: فأتيـناه في بعـض تلك الحفار فإذا به بضع وسـتون أو أقـل أو أكثـر ، بـين طعـنة ورمـية وضـربة ، وإذا قـد قطعت إصبعه ،

(١) رواه مسلم في ٣٢ كتاب الجهاد ٣٧ باب غزوة أحد .
(٢) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، ٣/ ١٨٤ .

فأصلحنا من شأنه [١].

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دُجَانة، ومصعب بن عمير، وعلى بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، وأم عمارة نُسَيْبة بنت كعب المازنية، وقتادة ابن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وأبو طلحة.

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجُحِشَتْ ركبته [٢]، وأخذه على بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوي قائماً [٣]، وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك [٤].

بطولات في وقت الشدة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيراً. فقاتل أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: **«لصوت أبي طلحة في الجيش أشدّ على المشركين من فئة»** [٥] وقد كان مترساً على رسول الله بحجفة، وكان رامياً شديد النزع [٦]، كسر يومئذ

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٥/ ٧٦.

(٢) مغازي الواقدي، ١/ ٩٠.

(٣) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ١٧٢، السيرة النبوية لابن كثير، ١/ ١٣٠.

(٤) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ١٨٠.

(٥) البخاري، الصحيح، (فتح الباري ٧/ ٣٦١)، أحمد، المسند، (الفتح الرباني ٢٢/ ٥٨٩ بإسناد رجاله ثقات، الواقدي، المغازي، ١/ ٢٤٣ باختلاف في نص الحديث.

(٦) صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٦.

قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه الجعبة[(١)] من النبل، فيقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انثرها لأبي طلحة**»، ثم يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يانبي الله بأبي أنت، لاتشرف إلى القوم[(٢)]، ألايصيبك سهم، نحري دون نحرك[(٣)(٤)].

ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيف وترمي بالقوس وأصيبت بجراح كبيرة، وترس أبو دجانة دون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه حتى كثر فيه النبل[(٥)].

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص - الذي كسر الرَّباعية الشريفة - فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبي وقاص يقول والله ما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص وهو أخوه وإن كان ما علمت لسيئ الخلق مبغضا في قومه ولقد كفاني منه قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله**»[(٦)] وإن كان لم يظفر به، فقد ظفر به حاطب وقتله قال حاطب لما رأيت ما فعل عتبة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أين توجه عتبة فأشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حيث توجه فمضيت حتى ظفرت به فضربته بالسيف فطرحت راسه فنزلت وأخذت فرسه وسيفه وجئت به إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي رضي الله عنك رضي الله عنك مرتين أى[(٧)].

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان: أن رسول الله رمي عن قوسه حتى اندقت سِيَتُها[(٨)]، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وَجْنَتِه، فردها رسول الله

(١) الجعبة: الكنانة التي تجعل فيها السهام.
(٢) لا تشرف: لاتتطلع.
(٣) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأصاب بها دونك.
(٤) صحيح السيرة النبوية، ص٢٩٦.
(٥) البداية والنهاية، ٤/ ٣٥، ٣٦.
(٦) الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ٢/ ٦٤.
(٧) علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٥١٣، وقد اختلف في إسلام عتبة، وقد رجح البعض أنه لم يسلم، وقال السهيلي ولم يولد من نسله ولد، فبلغ الحلم إلا وهو أبخر واهتم، يعرف ذلك في عقبه. الروض الأنف، ٣/ ٢٦٤.
(٨) سية القوس ما عطف من طرفيها والجمع سيات.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهُما[١] .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهُتِمَ ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فعرج[٢] .

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أنقاه ، فقال: (مُجَّه) ، فقال: والله لا أمجه ، ثم أدبر يقاتل ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**» ، فقتل شهيداً[٣] .

وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قَمِئَة في أناس من المسلمين ، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف ، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها ، لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك ، فقالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين . فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي . قالت فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت ابن قمئة أقمأه الله لما ولي الناس عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقبل يقول دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضربني هذه الضربة ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان[٤] .

قال علي بن برهان الدين الحلبي: خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد ابن عاصم وابناهما خبيب وعبد الله رضي الله تعالى عنهم وقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رحمكم الله أهل البيت**» وفي رواية: «**بارك الله فيكم أهل بيت**» . قالت له أم عمارة رضي الله تعالى عنها: ادع الله أن نرافقك في الجنة فقال: «**اللهم**

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، ٣/ ٢٧٦ .
(٢) الروض الأنف ، ٣/ ٢٦٧ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ، ٣/ ٣٠٣ .
(٤) الروض الأنف ، ٣/ ٢٦٨ .

اجعلهم رفقائي في الجنة» ، وعند ذلك قالت رضي الله تعالى عنها ما أبالي ما اصابني من أمر الدنيا [(١)] .

وكان مصعب بن عمير يحمل اللواء فلما جال المسلمون ثبت به فأقبل ابن قميئة وهو فارس فضرب يده اليمنى فقطعها ، وهو يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران ١٤٤] الآية . . . ، وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه فقطع يده اليسرى ، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ الآية . . . ، ثم حمل عليه الثالثة فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء وابتدره رجلان من بني عبد الدار سويبط بن حرملة وأبو الروم ، وأخذه أبو الروم فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون ، وكان ابن قمئة يظنه رسول الله – لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين ، وصاح: إن محمداً قد قتل [(٢)] .

ولم ينفع بأس المسلمين وحرارة قتالهم ما داموا لا يقاتلون وفق خطة تستهدف أمرا واضحا ، وتساقطوا في ميدان المعركة شهداء أبرارا ، بعد أن انقطع اتصالهم بالرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وشاع في ميدان المعركة أنه قد استشهد ، فخارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلي المسلمين [(٣)] .

وفر جمع من المسلمين من ميدان المعركة ، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة دون قتال [(٤)] ، وآثر آخرون الشهادة بعد أن تصوروا أنهم قد فقدوا نبيّهم! ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهوده بدرا والذي قال في ذلك: «والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرين الله كيف

---

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، ٢/ ٥٠٩ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ٣٣ ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ٤/ ٢١٩ .
(٣) البخاري ، الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣٦١) ، ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ١١٢ .
(٤) ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ٣٣ ، الطبري ، التفسير ، ٧/ ٢٥٦ .

أصنع» ، فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال: «اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء» يعني أصحابه ، «وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء» يعني المشركين . ثمّ تقدّم فاستقبله سعد ابن معاذ ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنّة وربّ النّضر، إنّي أجد ريحها من دون أحد» . ثم وجد بعد ذلك وبه بضعا وثمانين ضربة بالسّيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، وقد مثّل به المشركون فما عرفه أحد إلّا أخته ببنانه .[1] ، ونزل فيه وفي أمثاله قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

ومر رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الأنصار وهو يتشحط[2] في دمه فقال له يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل فقال الأنصاري إن كان محمد قد قتل فقد بلغ الرسالة فقاتلوا عن دينكم فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ولعل هذا الأنصاري هو أنس بن النضر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو عم أنس بن مالك[3] .

أما أولئك النفر الذين فرّوا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهم بالصمود والثبات فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا ما أَصابَكُمْ والله خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] .

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي شاع في ساحة المعركة ، وكان أول من علم بنجاة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى فأمره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك[4] . وقد نص القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

---

(١) ابن المبارك ، كتاب الجهاد ، ص ٦٣ ، البخاري ، الصحيح ، (فتح الباري ، ٦/ ٢١ ، ٧/ ٢٧٤ ، ٨/ ٥١٧) .
(٢) يتشحط: يتخبط ويتمرغ ويضطرب .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ٣٥ ، البيهقي ، دلائل النبوة ، ٣/ ١٧٠ .
(٤) الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٢٠١ ، الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ٦/ ١١٢ .

الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

ولما نادي كعب بن مالك: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالرغم من أن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشار إليه أن اصمت - وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون - إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون وتجمع حوله الصحابة من جديد.

واستجمع المسلمون قواهم من جديد ونظموا صفوفهم بقيادة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجومًا مضادًا قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف، وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد، قال ابن إسحاق: بينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللّهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا**»، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم وعلا المسلمون الجبل"[(١)].

كما روي أن المشركين لما صعدوا على الجبل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد: «**اجْنُبْهُمْ**» - يقول: اردده‍م - فقال: كيف أَجْنُبُهُمْ وحدي؟ فقال ذلك ثلاثاً، فأخذ سعد سهماً من كنانته، فرمي به رجلاً فقتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه، فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتي. فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه[(٢)]. وقد استمر القتال بين الطرفين حتى أجهدا، وانسحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أحد[(٣)] ولما أراد الحبيب محمد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصعود إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل، فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع؛ لأنه كان قد بَدَّنَ وظاهر بين الدرعين[(٤)]، وقد أصابه جرح شديد. فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض

---

(١) الطبري في التفسير ٤ / ٦٧.

(٢) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ١٨٠.

(٣) البخاري، الصحيح، (فتح الباري، ٧/ ٣٥٨، مسلم، الصحيح، ٢/ ٣٢١.

(٤) الدِّرْع: الزَّرَدِيَّة وهي قميص من حلقات من الحديد متشابكة يُلْبَس وقايةً من السلاح.

به حتى استوي عليها، وقال: «أَوْجَبَ[١] طلحةُ»[٢].

وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أصابهم رغم نجاحهم في رد المشركين. فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيرا ثم أفاقوا آمنين مطمئنين[٣]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول وبعض من بقي منهم مع الجيش الإسلامي[٤].

ولما أسند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشعب أدركه أبي بن خلف وحاول الوصول إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يامحمد، إن عندي العَوْد، فرساً أعْلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما كان يوم أحد، وأسند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشِّعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لانجوتُ إن نجوت، فقال القوم: يارسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحربة من الحارث بن الصِّمة، فلما أخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشَّعراء[٥] عن ظهرالبعير إذا انتفض بها ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ[٦] منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خَدْشا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد قالوا

(١) أوجب: أي وجبت له الجنة.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٢٥٥.
(٣) البخاري، الصحيح، (فتح الباري، ٧/ ٣٦٥).
(٤) الطبري، التفسير، ٧/ ٣٢٣، ابن كثير، التفسير، ١/ ٤١٨.
(٥) الشَّعراء: ذباب له لدغ.
(٦) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

له: ذهب والله فؤادك ! والله إن بك من بأس ، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك ، فوالله لو بَصَق عليّ لقتلني ، فمات عدو الله بسرف[1] وهم قافلون به إلى مكة[2] .

وفي رواية فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار[3] الثور ، فقالوا: ما أجزعك[4]؟ إنما هو خدش ، فذكر لهم قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا أقتل أبيا**» ، ثم قال: والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ، فمات إلى النار ، فسحقا لأصحاب السعير[5] .

ولما يئست قريش من تحقيق نصر حاسم ، وأجهد رجالها من طول المعركة ، ومن صمود المسلمين وجلدهم ، وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود والتفوا حول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم صد هجوم خالد بن الوليد وأبو سفيان ، وما كان من مقتل أبي بن خلف ، فقد كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قوتهم[6] .

ثم إن أبا سفيان بن حرب حين أراد الانصراف بالجيش أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه . فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه . فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه - وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منعهم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله ، إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوؤك . فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .

ثم قال: أعْلِ هُبَل[7] .

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا تجيبونه؟**» فقالوا: فما نقول؟ قال: «**قولوا: الله**

---

(١) سرف: موضع على ستة أميال من مكة .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ٣/ ٩٣ ، ٩٤ .
(٣) الخوار: الصياح .
(٤) الجزع: الخوف والفزع وعدم الصبر والحزن .
(٥) دلائل النبوة للبيهقي ، ٣/ ٢٩٠ .
(٦) البخاري ، الصحيح ، (فتح الباري ، ٢/ ٣٤٩) ، أحمد ، المسند ، ٤/ ٢١١ ، ٦/ ١٨١ .
(٧) وسبب ذلك أنه حين أراد الخروج كتب على سهم "نعم" وعلى الآخر "لا" وأجالهما عند هبل فخرج بهم "نعم" فتوجه إلى أحد فقال اعل هبل أي زد علو .

أعلى وأجل» .

ثم قال: لنا العُزَّى ولا عزى لكم .

فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**» .

ثم قال أبو سفيان: أَنْعَمْتَ فَعَال ، يوم بيوم بدر ، والحرب سِجَال .

فأجابه عمر ، وقال: لاسواء[1] ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

ثم قال أبو سفيان: هلم إلي يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ: «**ائته فانظر ما شأنه؟**» فجاءه ، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللّهم لا . وإنه ليستمع كلامك الآن . قال: أنت أصدق عندي من ابن قَمِئَة وأبر[2] .

لقد كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبه قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه ، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لايقوم الإسلام بعدهم .

وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيراً له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر وردوا عليه بشجاعة .

وقد علق ابن القيم[3] علي هذا الموقف بقوله: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته ، وبشركه ، تعظيماً للتوحيد ، وإعلاماً بعزة من عبده المسلمون ، وقوة جانبه ، وأنه لا يغلب ، ونحن حزبه وجنده ولم يأمرهم باجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روى أنه نهاهم عن إجابته ، وقال: لاتجيبوه ، لأن كلمهم لم يكن برد في طلب القوم ، ونار غيظهم بعد متوقدة ، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت ياعدو الله ، فكان في هذا الإعلام من الإذلال ، والشجاعة وعدم

---

(١) لا سواء: أي لا نحن سواء ، وقد جاز دخول لا في هذا الموضع ، لأن القصد فيه نفي الفعل: أي لا نستوي .

(٢) لقول ابن قميئة له أنني قتلت محمدا ، انظر: سيرة ابن هشام ، ٢/ ٩٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ٩٣ ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٣٩٢ .

(٣) زاد المعاد ، ٣/ ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال مايؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم مايسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والضتً في عضده ماليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً واحداً، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر، فرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً فإن في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانة له، وتصغيراً لشأنه، فلما منَّته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ماحصل، كان في جوابه إهانة له، وتحقير، وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاتجيبوه» فانه إنما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانياً.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هي بيننا وبينك موعداً، ثم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب فقال: «**اخرج في إثر القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فإنهم يريدون مكة، وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم**»، قال علي رحمة الله عليه: فخرجت في إثرهم أنظر ماذا يصنعون، فلما جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة، أقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم ما أمرني به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بي من الفرح إذ رأيتم انصرفوا عن المدينة[1].

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لقتلاهم بعد منصرف قريش وانتشروا يبتغونهم فلم يجدوا قتيلا إلا وقد مثلوا به إلا حنظلة بن أبي عامر. قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع. فقال لي: (إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كيف تجدك؟**» قال:

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ٢/ ٩٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٩٣.

فجعلت أطوف بين القتلي ، فأتيته وهو بآخر رمق ، فيه سبعون ضربة ؛ ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت: يا سعد ، إن رسول الله يقرأ عليك السلام ، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلام ، قل له ، يا رسول الله ، أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيكم عين تطرف ، وأسلم الروح مطمئنا ، بعد أن بعث رسالته إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وإلى قومه الأنصار(١) .

ولم ينس المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه سعد بن الربيع . ولا نسيه تاريخ الإسلام الذى استوعب رسالة هذا الجندي الشهيد ، وعرف مغزاها ودلالتها ، ورصد موقعها من نفوس المؤمنين: تزيدهم ثباتا وقوة واستبسالا وإصرارا(٢) .

فقد روى أن رجلا دخل على أبي بكر الصديق وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها فقال له الرجل من هذه؟ قال هذه بنت رجل خير مني ، سعد بن الربيع ، كان من النقباء ليلة العقبة وشهد بدرا واستشهد يوم أحد(٣) .

وكان من بين جرحي المسلمين الأُصَيرِم – عمرو بن ثابت – ومن عجيب من أنهم كانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فوجدوه وهو يعاني سكرات الموت ، يقول عنه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان الأصيرم يأبى الإسلام على قومه ، فجاء ذات يوم ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بأحد فقال: «**أين سعد بن معاذ؟**» فقيل بأحد ، فقال: «**أين بنو أخيه؟**» قيل: بأحد ، فسأل عن قومه فقيل: بأحد ، فبدا له الإسلام فأسلم ، وأخذ سيفه ، ورمحه ، وأخذ لأمته وركب فرسه فعدا حتى دخل في عُرْض الناس ، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا ياعمرو ، قال إني قد آمنت . فقاتل حتى أثخنته الجراحة ، فبينما رجال من بني عبدالأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به ، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم ، ماجاء به؟ لقد تركناه وإنه منكر لهذا الحديث ، فسألوه: ماجاء بك؟ أحَدَبٌ(٤) على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله تعالى ورسوله

(١) انظر: سيرة ابن هشام ، ٢/ ٩٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ٩٣ .
(٢) الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) ، مع المصطفي ، ص٢٦١ .
(٣) انظر: سيرة ابن هشام ، ٢/ ٩٤ .
(٤) أي: تعطف عليهم .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء ، فذكروه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنه من أهل الجنة .

وقيل: مات فدخل الجنة وماصلى من صلاة ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«عملاً يسيراً وأجراً كثيراً»** (١) ، وكان أبو هريرة يقول: حدّثوني عن رجل دخل الجنة ولم يُصلّ قط فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو قال: هو أُصيرم بن عبدالأشهل (٢) .

ووجدوا في الجرحي أيضا رجل يدعي قُزْمَان وكان ممن قاتل مع المسلمين يوم أحد ، وعرف بالشجاعة ، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إذا ذكر له: إنه من أهل النار ، فتأخر يوم أحد فعيرته نساء بني ظفر ، فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول ، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم ، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكت كتيت الجمل ، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة ، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغيداق ، هنيئًا لك الشهادة ، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي ، فلولا ذلك ما قاتلت ، فذكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»** (٣) .

وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوي إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفي جيش الرسول والصحابة (٤) .

وإذا كان هناك من ناصر المسلمين – وهو علي غير دينهم – حمية لقومه ، فهناك من ناصرهم إيمانا برسالة الإسلام وقضية التوحيد مثل مخيريق ، وكان من شأنه أنه لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقاتل المشركين ، جمع قومه اليهود وقال لهم: يامعشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا: ان اليوم يوم السبت ، قال: لاسبت لكم ، فأخذ سيفه وعدته ، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ماشاء ، ثم غدا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) البخاري ، الجهاد ، رقم ٢٨٠٨ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ٢/ ١٠٠ ، ١٠١ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، ٢/ ٩٩ .
(٤) الرحيق المختوم ، ص ٢٥٣ .

فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود»[١].

جمع الشهداء ودفنهم:

ثم أمر الرسول بدفن شهداء المسلمين وكانوا سبعين شهيدا [٢]، في حين بلغ عدد قتلى قريش اثنين وعشرين رجلا [٣].

وجمع الرسول ﷺ بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدم عند الدفن أحفظهم لكتاب الله، وأمر أن يدفنوا في دمائهم فلم يغسلوا ولم يصلّ عليهم وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، إنه مامن جريح يجرح في الله إلا والله بعثه يوم القيامة، يدمي جرحه اللون لون دم، والريح ريح المسك**» [٤]. ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وأمر أن يدفنوا حيث صرعوا، وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردوهم، فيدفنوهم في مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود [٥].

ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة. وفي قصة عبد الله بن عمرو بن حرام، قالوا: فقال رسول الله ﷺ يوم أحد: «**ادفنوا عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد**»، ويقال: إنما أمر بذلك لما كان بينهما من الصفاء، فقال: «**ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد**»، ويقال: إنهما وجدا وقد مثل [٦] بهما كل المثل، فلم تعرف أبدانهما، وكان عبد الله بن عمرو رجلا أحمر أصلع ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح رجلا طويلا، فعرفا، ودخل السيل [٧] عليهما، وكان قبرهما مما يلي السيل، فحفر عنهما وعليهما نمرتان [٨]، وعبد الله

(١) المغازي للواقدي، ١/ ٢٦٣، والسيرة لابن هشام، ٤/ ٩٩.
(٢) البخاري، الصحيح، فتح الباري، حديث ٤٠٤٣، ابن هشام، السيرة، ٤/ ١٠٠، الواقدي، المغازي، ١/ ٣٠٠.
(٣) ابن هشام، السيرة، ٤/ ١٠٠، الواقدي، المغازي، ١/ ٣٠٧، أما عند ابن سعد، الطبقات ٢/ ٤٢، فإن عددهم ثلاثة وعشرون.
(٤) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٣/ ٢٠٩، حديث ٤٠٧٩، أبو داود، السنن، ٢/ ١٧٤.
(٥) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٣/ ٢٠٩، حديث ٤٠٧٩، أبو داود، السنن، ٢/ ١٧٤.
(٦) التمثيل: جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به.
(٧) السيل: الماء الغزير المندفع بشدة.
(٨) النمار: جلود النُّمور، وهي السِّباع المعروفة، واحِدُها: نَمِر. والنمار أيضا: كلُّ شَمْلَةٍ مُخَطَّطة من مَآزِر وسراويل الأعراب فهي نَمِرة، وجمعُها: نِمار.

قد أصابه جرح في يده، فيده على جرحه، فأميطت [(١)] يده عن جرحه، فانثعب الدم فردت إلى مكانها فسكن الدم، قال: جابر فرأيت أبي في حفرته فكأنه نائم، فقيل له: أفرأيت أكفنته؟ فقال: إنما دفن في نمرة خمر [(٢)] بها وجهه، وعلى رجليه الحرمل، فوجدنا النمرة كما هي، والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة، فشاورهم جابر في أن يطيب بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ويقال: إن معاوية لما أراد أن يجري الكظامة نادى مناديه بالمدينة: من كان له قتيل بأحد فليشهد، فخرج الناس إلى قتلاهم فوجدوهم رطابا يتثنون، فأصابت المسحاة رجل رجل منهم فانثعب دما، فقال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكر، ووجد عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، فحولا. وذلك أن القناة كانت تمر على قبرهما، ووجد خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحد، فتركا. ولقد كانوا يحفرون التراب، فحفروا نثرة من تراب، ففاح عليهم ريح المسك [(٣)]

وكان من بين الشهداء حنظلة غسيل الملائكة وكان من شأنه أنه لمّا انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شدّاد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إني رأيت الملائكة تغسّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة**» فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأسالوا أهله ماشأنه؟**» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[(٤)]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فلذلك غسلته الملائكة**» [(٥)].

وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبدالله بن أبي سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد. وكان قد استأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبيت عندها فأذن له، فلّما صلّى بالصبح غدا يريد رسول الله

(١) أماط: نحى وأبعد.
(٢) خَمَّرَ الشَّيْء: غَطَّاه وستره.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٣٥٢.
(٤) سمع منادي رسول الله يدعو للخروج لملاقاة العدو.
(٥) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٢٢.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها[(١)].

ثم سأل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه: من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: (فانطلق أرناه) فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شق بطنه، وقد مثل به،، فاشتد حزنه، قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب[(٢)]، وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنها الزبير بن العوام القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها، فقال لها يا أمه إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرك أن ترجعي، قالت ولم وقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فلما أخبر الزبير بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «خل سبيلها»، فأتته فنظرت إليه فصلت عليه - دعت له - واسترجعت[(٣)] واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدفن مع عبد الله بن جحش في قبر واحد وهو ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب وكان قد مثل به كما مثل بخاله حمزة إلا أنه لم يبقر عن كبده وجدع أنفه وأذناه فلذلك يقال له: المجدع في الله[(٤)] وكان في أول النهار قد لقي سعد بن أبي وقاص فقال له عبد الله هلم يا سعد فلندع الله وليذكر كل واحد منا حاجته في دعائه وليؤمن الآخر، فقال سعد يا رب إذا لقيت العدو فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وأسلبه سلبه، فأمن عبد الله بن جحش ثم قال اللهم ارزقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك، ويقاتلني فيقتلني ثم يجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك غدا قلت لي يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذناك؟ فأقول فيك يا رب وفي رسولك، فتقول لي صدقت، فأمن سعد على دعوته، قال سعد كانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتي لقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه

---

(١) الواقدي، المغازي، ١/ ٢٧٣.
(٢) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٤٣٥.
(٣) استرجعت: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٠٨، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ٢/ ٧٢.

معلقتان في خيط ولقيت أنا فلانا من المشركين فقتلته وأخذت سلبه [1]

والحقيقة أن منظر الشهداء كان مريعاً جداً يفتت الأكباد، قال خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هاجرنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الأذخر»** [2]، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها[3]، ومن حديث عبدالرحمن بن عوف أنه أتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا أو قال: أعطينا من الدنيا ماأعطينا – وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[4]، ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب، آية: ٢٣]. ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لايسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»** [5].

ثم جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بعد دفن الشهداء وجعلهم صفّا وأثنى على ربه ودعاه أن يمنحهم نعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة وأن يقتل الكفرة المكذبين، فقد روي الإمام أحمد: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«استووا حتى أثني على ربي عز وجل»**، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: **«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٠٨، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ٢/ ٧٢.

(٢) الأذخر: نوع من العشب.

(٣) البخاري في الجنائز رقم ١٢٨٦.

(٤) البخاري في الجنائز رقم ١٢٧٤، ١٢٧٥.

(٥) المستدرك، ٣/ ٢٠٠، صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك» .

«اللهـم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحُول ولا يزول. اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهـم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهـم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللّهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق» [١] .

قتلى الفريقين:

اتفقت جل الروايات على أن قتلي المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار ؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً ، واحد وأربعون من الخزرج ، وأربعة وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلي المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً ، ولكن الإحصاء الدقيق – بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير ، والتي تتضمن ذكر قتلي المشركين في مختلف مراحل القتال – يفيد أن عدد قتلي المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون ، والله أعلم [٢] .

العودة إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه ، انصرف راجعاً إلى المدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش كما ذكر لي فلما لقيت الناس نعى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال رسول الله ﷺ **«إن زوج المرأة منها لبمكان»** لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها [٣] .

(١) أحمد ، المسند ، ٣/ ٤٢٤ ، الحاكم ، المستدرك ، ٣/ ٢٣ .
(٢) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ٤/ ٢٢٩ ، مغازي الواقدي ، ١/ ٣١٤ – ٣١٦ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ / ١٠٤ ، البداية والنهاية ، ٤/ ٥٣ .

ومر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في انصرافه بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[1]، تريد صغيرة[2].

وخرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يارسول الله، أمّي فقال رسول الله: «**مرحباً بها**»، فدنت حتى تأمّلت رسول الله فقالت: أما إذا رأيتك سالماً، فقد أشوَت[3] المصيبة، فعزّاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: «**يا أم سعد، أبشري وبشِّري أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً – وهم اثنا عشر رجلاً – وقد شفّعوا في أهليهم**». قالت: رضينا يارسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يارسول الله لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم أذهب حُزن قلوبهم واجْبُر مصيبتهم، وأحسن الخَلَف على من خُلّفوا**»[4]، ثم قال: «**خل يا أبا عمرو – يعني سعد بن معاذ – الدابة**»، فخلى سعد الفرس، فتبعه الناس، فقال: «**أبا عمرو إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، فمن كان مجروحا فليقر في داره وليداو جرحه، ولا يبلغ معي بيتي، عزيمة مني**».

فنادى فيهم سعد: عزيمة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يتبع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جريح من بني عبد الاشهل، فتخلف كل مجروح، فباتوا يوقدون النيران، ويداوون الجرحى، ومضى سعد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى جاء بيته، فما نزل نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن فرسه إلا حملا، واتكأ على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته، فلما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «**اغسلي عن هذا دمه، فوالله لقد صدقني اليوم**»، وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال: «**وهذا، فاغسلي عنه دمه، فوالله**

---

(١) الجلل يكون من القليل والكثير وهو ههنا القليل.
(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ / ١٠٤، البداية والنهاية، ٤/٥٣.
(٣) أشوَت: صارت صغيرة خفيفة.
(٤) مغازي الواقدي، ١/ ٣١٥ – ٣١٦.

لقد صدقني اليوم» ، فقال رسول الله ﷺ: **«لئن كنت صدقت القتال لقد صدقه معك سهل بن حنيف وأبو دجانة»** .

وكانت عودة الحبيب محمد ﷺ بالجيش إلي المدينة مساء يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ - إلى المدينة [(١)] .

وبات المسلمون في المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع من معركة أحد - وهم في حالة الطوارئ ، باتوا - وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أي منال - يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ؛ إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب [(٢)] .

القرآن يتحدث عن الغزوة:

ولقد نزلت في موضوع غزوة أحد ومعركتها ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران تبدأ بذكر المراحل الأولى للمعركة في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** ﴾ [آل عمران: ١٢١] .

ونزلت آيات القرآن تمسح جراحات المسلمين وآلامهم وتعطيهم جرعات كبيرة من التربية الإيمانية ، وهي تسجل مشاهد متعددة من هذه الغزوة والدرس ، منها قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

ومنها: ﴿ **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

ومنها قوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

وقوله: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ والله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٣] .

---

(١) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ٤/ ٧٥ ، الرحيق المختوم ، ص ٢٥٨ .

(٢) مغازي الواقدي ، ١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ ، الرحيق المختوم ، ص ٢٥٨ .

وقوله تعالى: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

وقوله: ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] .

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] .

وتقدم في النهاية تعليقا جامعا على نتائج المعركة والحكمة التي أرادها الله من جرّائها ، في قوله تعالى: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

غزوة حمراء الأسد:

وواجه المسلمون عند عودتهم إلى المدينة اليهود الشامتين ، والمنافقين المرجفين ، وكانوا يواجهون في أطرافها الأعراب المشركين الذين تطلعوا بشراهة إلى ثمار المدينة وخيراتها ، كما كان هناك احتمال أن المشركين قد يفكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، وهو ما حدث بالفعل ، إذ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه حتى بعد رجوعهم إلى مكة وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده ، فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الرّوحاء[١] ، قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم شر ماصنعتم ، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٢] .

وقال الواقدي باتت وجوه الأنصار على بابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمرو المزني فأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أقبل من عند أهله بملل[٣] إذا قريش قد نزلوا فسمعهم يقولون ما صنعتم شيئا .

(١) الرّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلومتراً في طريق مكة .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٢١) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجوّاز .

(٣) اسم موضع قرب المدينة .

أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم . قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقي وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول لا تفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج . فارجعوا والدولة لكم فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرشدهم صفوان وما كان برشيد . والذي نفسي بيده لقد سومت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كالأمس الذاهب [١] .

فلما صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبح ندب الناس وأذن مؤذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخروج أي أمر بلالا أن ينادي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمركم بطلب العدو وأن لا يخرج معنا أحد إلا من خرج معنا أمس يعني من شهد أحدا [٢] .

قال ابن إسحاق: كان أحد يوم السبت للنصف من شوال فلما كان الغد يوم الأحد سادس عشر من شوال: أذّن مؤذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس بطلب العدو وأن لايخرج معنا إلا من حضر بالأمس ، فاستأذنه جابر بن عبدالله في الخروج معه فأذن له ، وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم [٣] ، وقد استجاب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنداء الجهاد حتى الذين أصيبوا بالجروح ، فهذا رجل من بني عبدالأشهل يقول: شهدت أحداً أنا وأخ لي فرجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ والله مالنا من دابة نركبها ومامنا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكنت أيسر جرحاً منه ، فكان اذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة (نوبة) حتى انتهينا إلى ماانتهى إليه المسلمون [٤] .

وسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حمراء الأسد واقترب بجنوده من جيش المشركين ، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدى المشركين ، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله ، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون في وقت

(١) مغازي الواقدي ، ١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ .
(٢) البخاري ، الصحيح ، الحديث ٤٠٧٧ ، مسلم ، الصحيح ، حديث ٢٤١٨ .
(٣) البداية والنهاية ، ٤/ ٥٠ .
(٤) البداية والنهاية ، ٤/ ٥٠ .

واحد خمسمائة نار[1] .

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلم ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان ، فيخذّله ، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه ، فقال ماوراءك يامعبد؟ فقال: محمد وأصحابه ، فقد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم ، فقال: ماتقول؟ فقال: ماأرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة[2] ، فقال أبو سفيان والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم ، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملني مارأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر:

قال وماقلت؟ قال قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي ::: إذ سالت الأرض بالجرد[3] الأبابيل
من جيشٍ أحمدَ لا وخشٌ[8] قنابله ::: عند اللقاء ولاميل[4] معازيل[5]
إني نذيرٌ لأهل البَسْل ضاحية ::: لّما سمو برئيس غير مخذول
فقلتُ: ويلَ ابنِ حرب من لقائكم ::: إذا تغطمطت البطحاء بالجيل[6]
فظلت عدْواً أظن الأرض مائلة ::: لكل ذي أُربَة منهم ومعقول
تُرْدي[9] بأسد كرام لاتنابلة[10] ::: وليس يوصف ماأنذرت بالقيل[7]

فثنى ذلك أبو سفيان ومن معه ، وحاول أبو سفيان أن يغطي انسحابه هذا بشن حرب نفسية على المسلمين ، لعله يرهبهم فأرسل مع ركب عبدالقيس وكانوا يريدون المدينة للميرة رسالة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفادها أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيباً عندما يأتوه في سوق عكاظ ، ومر الركب برسول

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٢/ ٤٣ .
(٢) زاد المعاد ، ٣/ ٢٤٥ .
(٣) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسي قصير الشعر ، والأبابيل: الفرق الكثيرة .
(٤) الميل: جمع أميل ، وهو الجبان .
(٥) معازيل: جمع معزال وهو من لا رُمح معه .
(٦) تغطمطت: اضطربت وثارت .
(٧) البداية والنهاية ، ٤/ ٥١ .
(٨) وخش: رديء .
(٩) تردى: تسرع .
(١٠) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير .

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥].

أقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حمراء الأسد ثلاثة أيام واستمر المسلمون في معسكرهم وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة [(١)]

ووقع في أسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحي الشاعر الذي كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد منّ عليه فأطلقه من أسره ببدر دون فداء واشترط عليه بألّا يحارب المسلمين، وقد حاول الاعتذار، وقال يارسول الله أقلني، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاوالله، لاتمسح عارضك**[(٢)] **بمكة بعدها وتقول خدعت محمداً مرتين، اضرب عنقه يازبير**» [(٣)]، فضرب عنقه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينئذ: «**لايلدغ المؤمن من جحر مرتين**» [(٤)]. فصار هذا الحديث مثلاً ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية، لأن هذا الشاعر من المفسدين في الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن في المنّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي[(٥)].

ولقد حققت غزوة حمراء الأسد أهدافها المرجّوة فقد أظهرت قدرة المسلمين

---

(١) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٠١.
(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب، ٢/ ٧٤٢.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٣/ ١١٦.
(٤) البخاري، كتاب الأدب، باب لايلدغ المرء، ٧/ ١٣٤، رقم ٦١٣٣.
(٥) البخاري، الصحيح، فتح الباري، حديث ٦١٣٣، ابن هشام - السيرة ٣/ ١١٦ بلاغا عن ابن المسيّب، البداية والنهاية، ٤/ ٥٣.

- وهم في أحلك الظروف - على التصدي لخصومهم . كما أنها بيّنت أنهم إذا كانوا قادرين على متابعة التحرك العسكري خارج المدينة بقسم من قواتهم فإنهم لا شك أقدر على مواجهة أعدائهم داخل المدينة من اليهود والمنافقين وبقايا المشركين .

الفوائد والدروس والعبر من غزوة أحد :

عدد ابن القيم الدروس والعبر من غزوة أحد ومنها:

١ - تعريفهم سوء عاقبة المعصية .

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران ١٥٢] . فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة وتحرزا من أسباب الخذلان .

٢ - وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى لكن تكون لهم العاقبة فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره ولو انتصر عليهم دائما لما جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة .

٣ - الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان هل قاتلتموه؟ قال نعم قال كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال سجال يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى قال كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

٤ - تميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب .

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه

وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم تصريحا وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم. قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء فإنهم متميزون في غيبه وعلمه وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزا مشهودا فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب سوى الرسل فإنه يطلعهم على ما يشاء من غيبه كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه.

٥ - استخراج عبودية أوليائه في السراء والضراء.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقا وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

٦ - حكمة تبدل الأحوال.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائما وأظفرهم بعدوهم في كل موطن وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدا لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه بهم خبير بصير.

٧ - الخضوع لجبروته - تعالى -.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾ [التوبة: ٢٥] فهو - سبحانه - إذا

أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

٨ - رفع منازلهم.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

٩ - تحريضهم على الجد في العبودية لله.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانا وركونا إلى العاجلة وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه فيكون ذلك البلاء والمحنة تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه. ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

١٠ - إهلاك الأعداء بعد ازدياد بغيهم.

١١ - بسط الآيات ولا تهنوا ولا تحزنوا.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ والله لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم وبين حسن التسلية وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقد استويتم في القرح والألم وتباينتم في الرجاء والثواب كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

١٢ - وتلك الأيام نداولها بين الناس.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس وأنها عرض حاضر

١٣ - وليعلم الله الذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا في الحس.

١٤ - حب الله للشهداء.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء فإنه يحب الشهداء من عباده وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها وقد اتخذهم لنفسه فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة. وقوله: ﴿والله لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم وما أعطاه من استشهد منهم فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

١٥ - وليمحص الله الذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم وهو تمحيص الذين آمنوا وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين فتميزوا منهم فحصل لهم تمحيصان تمحيص من نفوسهم وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

١٦ - ﴿وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾.

١٧ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَـمَّا...﴾.

١٨ - ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ...﴾.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم ثم

أنكـر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه وإن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه . فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٢] أي ولما يقع ذلك منكم فيعلمه فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣] . قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة رغبوا في الشهادة فتمنوا قتالا يستشهدون فيه فيلحقون إخوانهم فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

١٩ - ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ .

ومنها: أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصا بين يدي موت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو قتل بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت وما بعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخلد لا هو ولا هم بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بقي ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان إن محمدا قد قتل فقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلا لا بد أن

تستوفيه ثم تلحق به فيرد الناس كلهم حوض المنايا موردا واحدا وإن تنوعت أسبابه ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى فريق في الجنة وفريق في السعير ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم أتباع لهم وهن من بقي منهم لما أصابهم في سبيله وما ضعفوا وما استكانوا وما وهنوا عند القتل ولا ضعفوا ولا استكانوا بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة بل استشهدوا أعزة كراما مقبلين غير مدبرين والصحيح أن الآية تتناول الفريقين كليهما. ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها وأنها نوعان تقصير في حق أو تجاوز لحد وأن النصرة منوطة بالطاعة قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضي وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه ومقام إزالة المانع من النصرة وهو الذنوب والإسراف ثم حذرهم سبحانه من طاعة عدوهم وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد. ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين وهو خير الناصرين فمن والاه فهو المنصور.

٢٠ - وليبتلي الله ما في صدوركم.

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير هي ابتلاء ما في صدورهم وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

٢١ - وليمحص ما في قلوبكم.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه فإن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع؟ وميل النفوس وحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر

والتقوى فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منه فاقتضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا [1] .

الشعر في معركة أحد :

وحفلت كتب السيرة بالكثير من الشعر الصحيح والمنحول في تبيان وجهتي النظر المتصارعتين في معركة أحد ومن ذلك قول شاعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسّان بن ثابت الأنصاري في التعريض بزعماء قريش في هذه المناسبة [2]:

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم ::: إلى الرّسول فجند الله مخزيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن ::: فالنار موعدها والقتل لاقيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت ::: أئمّة الكفر غرّتكم طواعيها
جمّعتموها أحابيشا بلا حسب ::: أهل القليب ومن ألقينه فيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية ::: وجزّ ناصية كنّا مواليها

وقال حسان في قصيدة أخري يرد فيها على ابن الزبعري: [3]

أشاقك من أمّ الوليد ربوع ::: بلاقع ما من أهلهنّ جميع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم ::: من الدلو رجّاف السّحاب هموع
فإن جنان الخلد منزلة له ::: رواكد أمثال الحمام كنوع
فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم ::: نوى لمتينات الحبال قطوع
أولئك قوم سادة من فروعكم ::: سفيه فإنّ الحقّ سوف يشيع
يكفّ رسول الله حيث تنصّبت ::: وكان لهم ذكر هناك رفيع
وفوا إذ كفرتم ياخسين بربّكم ::: وما كان منهم في اللّقاء جزوع
أمام رسول الله لا يخذلونه ::: لهم ناصر من ربّهم وشفيع
وحامى بنو النّجار فيه وصابروا ::: ولا يستوي عبد وفي ومضيع

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ١٩٧ – ٣ / ٢٠٤ .
(٢) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٣٢ .
(٣) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٤٢ – ١٤٣ .

فقــد صــابرت فيه بنو الأوس كلهم ::: علــى القــوم ممــا قــد يشــرن نقوع
وقــل إن يكــن يــوم بأحــد يعــدّه ::: وفي كــلّ قــوم ســادة وفــروع
فــدع ذكــر دار بــددت بــين أهلها ::: قــتـيل ثــوى للّـــه وهــو مطــيع
فلــم يــبق إلّــا مــوقد الــنّار حوله ::: وأمــر الــذي يقــضي الأمور سريع
عفــاهنّ صــيفيّ الــرّياح وواكــف ::: حمــيم معــا في جــوفها وضــريع

وقال عمرو بن العاص من قصيدة له طويلة (١):

ينـــزو شــرّها بالرّضــف نــزوا ::: وتــناولت شهباء تلحو الناس بالضرّاء لحوا
ســيرا إلى كــبش الكتيــبة إذ ::: حمّلــت أثوابي على عتد يبذّ الخيل رهوا
ففــدى لهــم أمّــي غــداة الــرّوع ::: وإذا تنــزّل ماؤه من عطفه يزداد زهوا
شــنج نــساه صــابط للخــيل ::: إرخـــــــاء وعـــــــدوا
سلس إذا تكّبن في البيداء يعلو الطرف علوا ::: إذ يمـــــــشون قطـــــــوا
أيقنت أنّ الموت حقّ، والحياة تكون لغوا ::: جلــــته الــــشمس جلــــوا

قال ابن إسحاق: فأجابه كعب بن مالك (٢):

أبلــغ قريــشا وخــير القــول أصدقه ::: والــصدق عــند ذوي الألباب مقبول
إنّــا بــنو الحــرب نمــريها ونــنتجها ::: أهــل اللّــواء ففــيما يكثــر القــيل
وإن تــروا أمــرنا في رأيكــم ســفها ::: فــيه مــع النّــصر مــيكال وجبريل
إن تقــتلونا فــدين الحــقّ فطــرتنا ::: والقــتل في الحــقّ عــند الله تفــضيل
ويــوم بــدر لقيــناكم لــنا مــدد ::: فــرأي مــن خالــف الإسلام تضليل
إن قــد قتلــنا بقــتلانا ســراتكم ::: وعــندنا لــذوي الأضــغان تنكــيل

وقال حسّان يذكر عدّة أصحاب اللواء يوم أحد:

مــنع الــنّوم بالعــشاء الهمــوم ::: وخــيال إذا تغــور الــنّجوم
لم تطــق حملــه العواتــق مــنهم ::: ســقم فهــو داخــل مكــتوم
وقــريش تفــرّ مــنا لــواذا ::: واهــن الــبطش والعظــام سئوم
بــدم عاتــك وكــان حفاظــا ::: ر علــيها لأندبــتها الكلــوم
وأقامــوا حتّــى أبــيحوا جمــيعا ::: هــا لجــين ولؤلــؤ مــنظوم
تــسعة تحمــل اللــواء وطــارت ::: غــير أن الــشباب لــيس يــدوم

(١) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٤٦ - ١٤٧ .
(٢) ابن هشام، السيرة، ٣/ ١٤٧ - ١٤٩ .

ولي الـــبأس مـــنكم إذ رحلـــتم ::: إنّ ســـبّي مـــن الـــرّجال الكـــريم
مـــا أبـــالي أنـــبّ بالحـــزن تـــيس ::: أم لحـــاني بظهـــر غـــيب لئـــيم
لا تـــسبّنّي فلـــست بـــسبّي ::: أســـرة مـــن بـــني قـــصي صـــميم
لم تفـــتها شمـــس الـــنهار بـــشيء ::: في رعـــاع مـــن القـــنا مخـــزوم
شـــأنها العطـــر والفـــراش ويعلـــو ::: في مقـــام وكلـــهم مذمـــوم
لـــو يـــدبّ الحـــوليّ مـــن ولـــد الذ ::: أن يقـــيموا إن الكـــريم كـــريم
يالقومـــي هـــل يقـــتل المـــرء مثلـــي ::: أن يقـــيموا وخـــفّ مـــنها الحلـــوم
مـــن حبـــيب أضـــاف قلـــبك مـــنه ::: إنمـــا يحمـــل اللـــواء الـــنّجوم (١)

وقال كعب بن مالك في يوم أحد:

ســائل قريــشا غداة السّفح من أحد ::: مــاذا لقيــنا ومــا لاقــوا من الهرب
ليــسا ســواء وشــتّى بــين أمــرهما ::: مــا إن نــراقب مــن آل ولا نــسب
جالــوا وجلــنا فمــا فاءوا وما رجعوا ::: حامــي الــذمار كــريم الجدّ والحسب
بـــدا لـــنا فاتّبعـــناه نـــصدّقه ::: نــور مــضيء لــه فضل على الشّهب
يمــضي ويذمــرنا مــن غــير معصية ::: فمــن يجــبه إلــيه يــنج مــن تــبب
نجــد المقــدّم، ماضــي الهــمّ معتــزم ::: حــين القلوب علي رجف من الرّعب
الحــق مــنطقه والعــدل ســيرته ::: كأنــه الــبدر لم يطــبع على الكذب
فيــنا الرّســول شــهاب ثم يتــبعه ::: وكذّبــوه فكــنّا أســعد العــرب
فكــم تــركنا بهــا مــن ســيّد بطل ::: ونحــن نثقــنهم لم نــأل في الطّلــب
كــنا الأســود وكانوا النّمر إذ زحفوا ::: حــزب الإله وأهل الشّرك والنّصب(٢)

* * * * *

(١) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٤٩ – ١٥٠، قال ابن هشام عن هذه القصيدة بأنها أحسن ما قيل.
(٢) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٦١، الروض الأنف، ٣/ ٣٥٤.

الفصل الرابع:
[أهم الأحداث العسكرية بين أحد والخندق]

أهم الأحداث بين أحد والخندق:

لقد ابتلي المسلمون في أحد أشد الابتلاء، وكان من نتائج ما وقع لهم في أحد أن تداعت عليهم القبائل للنيل منهم، وكادت تذهب ريحهم، وتزول هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم وتستأصل شأفتهم. فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهزلي لجمع الحشود لكي يهاجم بها المدينة، وتجرأت عَضَل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل يقتل القرّاء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن حكمة الحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صرفت وجوه التيارات، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد. فكان من شجاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن واجه هذه الأخطار بسرعة وتخطيط قبل أن تجتمع كلمتهم علي أمر سواء.

سرية أبي سلمة لتأديب بني أسد:

بلغت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبار الاستعدادات التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة طمعا في خيراتها وانتصارا لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين. وقد سارع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تشكيل سريّة من مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، وأمّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد، أرسلهم إلى ديار بني أسد، فباغتوهم على ماء لهم في ديارهم، غير أنّ بني أسد سرعان ما تفرقوا تاركين ماشيتهم وإبلهم غنيمة للمسلمين من هول المباغتة.

وكان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ هـ. وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات [(١)].

لقد تجلت في هذه السرية عدة أمور عسكرية تدل علي مدي الكفاءة

---

(١) الواقدي، المغازي، ١/ ٣٤٠، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٥٠، ابن هشام، السيرة، ٤/ ٣٤٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٧٠.

العسكرية، منها: مهارة التخطيط الحربي، عند الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث فرق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سرية أبي سلمة وهم يظنون أن المسلمين قد أضعفتهم وقعة أحد وأذهلتهم عن أنفسهم، فأصيب المشركون بالرعب من المسلمين ووهت عزيمتهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة، ويقظة المخابرات الحربية الإسلامية التي رصد تحركات بنو أسد، وسبقتهم في التحرك قبل أن يشرعوا في تنفيذ مخططاتهم، ودقة المسلمين في الرصد الحربي واختيارهم التوقيت الصحيح والطريق المناسب حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بعد المسافة، وكان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية وتركت هذه السرية لدي الأعداء شعوراً مؤثراً على معنوياتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعباً منهم ويتوقعون الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين، ومسالمتهم[1].

سرية عبد الله بن أنيس:

كان على المسلمين في المدينة أن يواجهوا أعداءهم المتربصين في كل ناحية من نواحي الجزيرة العربية من قريش الموتورين مرورا باليهود الخائنين إلى الأعراب الطامعين في خيرات المدينة، ولكن عين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تكن تغفل عنهم ولو للحظة حيث كان يرصد تحركاتهم، وسكناتهم، ويتحسس أخبارهم عن طريق شبكة منظمة من العيون والجواسيس المبثوثين في مناطق الأعداء، والتي ساهمت بشكل كبير وفعال في موضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصورة دائما، فكان باستمرار يسبق الأحداث، ويفاجيء أعداءه بمبادرة عجيبة تقضي على مخططاتهم العدوانية في مهدها.

وكان من هؤلاء رجل من أشد الأعراب وشياطينهم يدعى خالد بن سفيان الهذلي، وصلت المعلومات إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الأعرابي بأنه يتحرك – وبنشاط كبير وملحوظ – لحشد عدد كبير من الأحابيش والأعراب ليغزو بهم المدينة، وعلى الفور استدعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد رجال المهمات الصعبة المعدودين، مغوار من أبطال الصحابة وذي باع وخبرة في هذا المضمار ذلكم هو عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) الحميدي، التاريخ الإسلامي، ٦ / ٢٣.

إن تخير الحبيب محمد ﷺ هذا الصحابي المغوار لهذه المهمة البالغة الصعوبة يعطي دلالة واضحة على معرفته عليه الصلاة والسلام الشديدة برجاله حيث كان يكل لكل منهم المهمة التي تناسب وضعه وإمكانيته، يعني الرجل المناسب في المكان المناسب، وهو عمل قائم على التخطيط السليم والدقة في الاختيار وكون رسول الله ﷺ يختار لهذه السرايا بعض رجاله لا يعني بالضرورة أن بقية الصحابة لا يصلحون لهذه المهمات، فهم جميعا كانوا لا يهابون الموت بل ويتحرقون دائما للشهادة في سبيل الله، ولكن المواقف الحساسة التي تمر بها مثل هذه السرايا تتطلب رجالا فيهم صفات مميزة كعبد الله بن أنيس، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عتيك، ومحمد بن سلمة، وعمرو بن أمية وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

ولنستمع إلى الحوار التالي الذي دار بين رسول الله ﷺ وبين عبد الله بن أنيس رضي الله عنه والذي يعتبر من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام كما يوضح صفة ذلك الأعرابي المخيفة والتي كانت تؤثر حتى في أشد الرجال صرامة وقوة أمثال عبد الله بن أنيس، والذي تبين من خلال هذا الحوار مدى ما كان يتمتع به من رباطة جأش وقوة شكيمة، حيث تحددت أبعاد المهمة الخطيرة التي أنيطت به.

قال عبد الله: "دعاني رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فقال: **«إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة**[1]**، فأته فاقتله»**، قلت: يا رسول الله انعته لي[2] حتى أعرفه قال: **«إذا رأيته وجدت له قشعريرة»**[3].

بهذه الكلمات الموجزة تزود عبد الله بن أنيس رضي الله عنه معلومات كافية ومهمة عن الهدف المقصود مكانه وصفته.

(١) وادي عرنة: هو الوادي الفحل الذي يخترق أرض المغمس، فيمر بطرف عرفة من الغرب عند مسجد نمرة ثم يجتمع مع وادي نعمان غير بعيد من عرفة ثم يأخذ الواديان اسم عرنة، فيمر جنوب مكة على حدود الحرم، ثم يُغرب حتى يفيض في البحر جنوب جدة على قرابة ٣٠ كيلو وهو من الأودية الفحول ذات السيول الجارفة وزراعته قليلة، فيه زرائع على الضخ الآلي، وبطن عرنة هو بطن الوادي الذي فيه مسجد عرفة. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ٤/ ١١٩١.

(٢) أي: صفه لي.

(٣) أي رعدة. (القاموس: اقشعر) وعند ابن هشام: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان. السيرة، ٤/ ٦١٩.

وينطلق عبد الله في مسيره الاقترابي نحو الهدف، عدته اليقين والتوكل على الله، وسلاحه سلاح الراكب، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فخرجت متوشحا بسيفي حتى وقعت عليه، وهو بعرنة مع ظعن[1]، يرتاد لهن منزلا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القشعريرة، فأقبلت نحوه" فقلت: إني أخاف أن يكون بيني وبينه ما أن أؤخر الصلاة، فانطلقت أمشي، وأنا أصلي أومىء إيماء نحوه، فلما دنوت منه، قال لي: من أنت؟ قلت رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل، فجئتك في ذاك، قال: إني لفي ذاك، فمشيت معه ساعة، حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد[2]".

"ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآني، قال: «**أفلح الوجه**»، قلت: قتلتُه يا رسول الله، قال: «**صدقت**»، قال: ثم قام معي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل بيته فأعطاني عصا، فقال: «**أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس**»، قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا، قال: قلت: أعطانيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «**آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المختصرون[3] يومئذ يوم القيامة**»، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات بها فضمت في كفنه، ثم دُفنا جميعا"[4].

وهكذا لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنوية كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الصعبة في جيوش العالم قديما وحديثا، بل كانت أسمى

---

(١) الظعن: جمع ظعينة وهو الهودج فيه امرأة، والمرأة ما دامت في الهودج. القاموس: ظعن).
(٢) أي: مات.
(٣) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازه، أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكيء عليه. ابن الأثير، النهاية، ٢/ ٣٦.
(٤) الحديث أخرجه أبو داود مختصرا في كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب، سنن (٢/ ٤١ – ٤٢)، عون المعبود (٤/ ١٢٩)، وسكت عنه هو والمنذري، وحسن الحافظ إسناده في الفتح. ابن حجر، فتح، ٢/ ٤٣٧، والشامي في السبل (٦/ ٥٧). وانظر: ابن هشام، السيرة (٤/ ٦١٩ – ٦٢٠)، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ص١٥٦ – ١٥٩.

من ذلك وأعظم فهي وسام شرف أخروي قليل من يناله[1].

ويظهر في هذا الخبر دليل من دلائل نبوته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو قد وصف ابن نبيح لعبد الله بن أنيس وصفا دقيقًا دون أن يراه حتى إن ابن أنيس عندما رد على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متعجبا كما وقع في رواية الواقدي: "يا رسول الله ما فرقت من شيء قط، قال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بلى آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته**»[2].

وفعلاً وجده على الصفة التي ذكر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول عبد الله: "فلما رأيته هبته وفرقت منه، فقلت: صدق الله ورسوله"[3].

بعث الرجيع[4]:

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيراً حول السبب الذي من أجله بعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدو[5]، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رهط من قبيلتي عضل والقارة المضريتين إلى المدينة وقالوا: (إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا ويقرؤونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام) ويظهر أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لخالد بن سفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر، وقد جزم الواقدي[6] بأن السبب هو أن بني لحيان وهم حي من هذيل، مَشَتْ إلى عضل والقارة وجعلت لهم جعلاً ليخرجوا إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطلبون منه أن

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٥٩.
(٢) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٣٢.
(٣) من رواية موسى بن عقبة. البيهقي، دلائل، ٤/ ٤١، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٦١.
(٤) الرَّجيع: بفتح أوله، وبالعين المهملة في آخره - ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدر الهدأة، والرجيع: ماء يعرف اليوم باسم الوطية، يقع شمال مكة على قرابة سبعين كيلو، قبيل عسفان إلى اليمن، في طرف شامية ابن حمادي من الشمال، بسفح حرة بني جابر الجنوبي، وشامية ابن حمادي هي أسفل الهدة، والهدة وادٍ يمر شمال مكة، وعلى يمين الجادة إلى عسفان، والرجيع اليوم من ديار حرب، لبشر خاصة منهم.
انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٠، والبكري، معجم، ٢/ ٦٤١، معالم مكة، ص١١٣.
(٥) البخاري رقم ٤٠٨٦.
(٦) مغازي الواقدي، ١/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

يُخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمناً في مكة[1].

وقد حاول بعض المتأخرين الجمع بين الروايات وجعل مهمة السرية ازدواجية مع إمكانية ذلك [2] استطلاعية لرصد نشاط قريش والأعراب المتزايد عقب أُحد وتحركاتهم المشبوهة، وتعليمية تلبيةً لرغبة بعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام وطلبوا بعض المعلمين من صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليفقهوهم في الدين [3]

علي أي حال بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دورية قوتها عشرة أفراد[4]

---

(١) نظرة النعيم، ١/ ٣١٤.

(٢) قال الزرقاني: ويجمع بأنه لما أراد بعثهم عيونا، وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم، فبعثهم في الأمرين. الزرقاني، شرح (٢/ ٦٥). وقال الدكتور أكرم ضياء العمري بعد سياقه لرواية ابن إسحاق: ولكن البخاري يقول: إن مهمة الوفد استطلاعية في حين يذكر ابن إسحاق أنهم معلمون، ويمكن الجمع بين المهمتين. المجتمع المدني، ص٨٨.

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ١/ ٢٢٩.

(٤) اختلف أهل المغازي في عدد أفراد تلك السرية، فمنهم من وافق أهل الحديث كابن سعد الذي جزم بأنهم كانوا عشرة سمي منهم سبعة فقط هم: عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد، وعبد الله بن طارق، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدُّثنة، وخالد بن أبي البكير، ومعتب بن عبيد. ابن سعد، طبقات، ٢/ ٥٥.

وقال ابن حجر معلقا على عدم تسمية الثلاثة الباقين: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم. فتح الباري (٧/ ٣٨٠). وتردد الواقدي في روايته فذكر أنهم سبعة، ثم قال: ويقال كانوا عشرة وأميرهم مرثد بن أبي مرثد، ويقال: أميرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح .الواقدي: مغازي، ١/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

وجزم ابن إسحاق بأنهم ستة، وذكر أن أميرهم مرثد بن أبي مرثد، سيرة، ٣/ ١٦٩ .أما موسى بن عقبة فكانت عنه روايتان: رواية وافق فيها ابن إسحاق، وأخرى لم يذكر فيها سوى أربعة سماهم. انظر البيهقي. دلائل (٣/ ٣٢٦ - ٣٢٧) .وذكر ابن سيد الناس أنه شاهد في كتاب الطبري: "ذيل المذيل" قصيدة لحسان يرثي فيها أصحاب الرجيع الستة:

ألاَ ليتني فيها شَهِدتُ ابنَ طارق ::: وزيدًا وما تُغني الأماني ومرثدًا

ودافعت عن حِبي حبيبٍ وعاصمٍ ::: وكان شفاءً لو تداركتُ خالدًا

ابن سيد الناس. عيون، ١/ ٥٩ - ٦٠.

وأيّد بعض المتأخرين من أهل المعازي روايات الصحيح باعتبارها أصح إسنادا.

انظر السهيلي، الروض، ٦/ ١٨٤، والمقريزي، إمتاع، ١/ ١٧٤. بينما رجع ابن حجر أن قائد السرية عاصم بن ثابت بناء على رواية الصحيح، ولكنه ذكر في موضع آخر أن البعض حاول الجمع بين رواية الصحيح ورواية أهل المغازي بأن أمير السرية مرثد، وأمير

بقيادة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى إذا كانوا بالهدأة [1] هو بين عسفان ومكة - ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل، كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا - تزودوه - من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم [2].

فلما رآهم عاصم انسحب بأصحابه إلى مكان مرتفع تجنبا للاشتباك المباشر - الذي كان فيه القضاء التام عليهم - فاللحيانيون يفوقونهم في العدد والعدة بكثير.

وما أن وصل القوم حتى أحاطوا بهم، ثم أخذوا يفاوضونهم على الاستسلام المشروط بالأمان إن هم نزلوا إليهم دون مقاومة، ولكن عاصم بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائد السرية رفض ذلك العرض بشدة معطيا من نفسه القدوة لأصحابه وهو يقول: "أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك" [3].

وعلى الرجيع حصلت ملحمة جهادية رائعة في معركة غير متكافئة، سقط خلالها الأبطال عاصم وستة من رفاقه شهداء في سبيل الله بعد أن قاوموا ببسالة شديدة، لكن إرادة الله عز وجل جعلت الهذليين الكثر والمهرة في الرمي يصطادونهم بنبالهم التي حصدوهم من كل جانب.

"وبقي خبيب وزيد، ورجل آخر [4]، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم" [5]، ومعهم العذر في ذلك، لأن رفضهم الاستسلام هو حكم بالقضاء المبرم عليهم، ففضلوا الإبقاء على أنفسهم تحيُّزًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأملا في مدد أو نجدة تأتيهم من عنده تكون فيها قوة

العشرة عاصم، بناء على التعدد. انظر ابن حجر. فتح (٧/ ٣٨٠).
ومما يجدر ذكره أن مرثدا ورد ذكره في شعر حسان بن ثابت الذي نقله ابن إسحاق كقائد لأصحاب السرية، ولكن ابن هشام ذكر أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان. انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٨٣.

(١) الهدأة: قال البلادي: الهدأة واد بمر شمال مكة، وعلى يمين الجادة إلى عسفان. البلادي: معجم (١٣٨).
(٢) انظر ابن حجر، فتح (٦/ ١٦٦).
(٣) انظر ابن حجر، فتح (٦/ ١٦٦).
(٤) تذكر كتب المغازي أن اسمه عبد الله بن طارق. انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧١، والواقدي، مغازي، ٢/ ٣٥٧، وابن سعد، طبقات، ٢/ ٥٦.
(٥) انظر ابن حجر، فتح، ٧/ ٣٧٨.

لاستئناف قتال يكون فيه ولو بعض التكافؤ ضد بني لحيان[1]، لكن اللحيانيين، وكما توقع عاصم من قبل غدروا بهم" فلما استمكنوا منهم حلُّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرَّروه وعالجوه أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قَتَلَ الحارث يوم بدر.

فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي. فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيتُه فزِعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعلَ ذلك إن شاء الله[2].

نعم هذه هي أخلاق الإسلام التي أدهشت الكفار قديما وحديثا، لأنهم تعودوا على الانتقام العشوائي، ولا غرو في ذلك إذا كانوا يستقون أخلاقهم من قانون الغاب، بينما صدر أخلاق المسلمين القرآن الذي من مبادئه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] [3].

وهذه المرأة التي أسلمت فيما بعد[4] ذكرت ما شاهدته من خبيب حيث تقول: "ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلاّ رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل هو. ثم قال اللهم أحصهم عددا"[5].

---

(١) لقد صدق توقع خبيب وصاحبه، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل عدّة سرايا إلى بني لحيان وقاد بنفسه غزوة إليهم، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى وقضاءه كانت قد نفذت في خبيب وصاحبه، ولا رادَّ لقضائه. انظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٣٠.

(٢) انظر ابن حجر، فتح (٧/٣٧٨).

(٣) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٣١.

(٤) روى ابن حجر: أن اسمها زينب بنت الحارث وهي أخت عقبة بن الحارث الذي قتل خبيبا، وقيل: امرأته، ووقع عند ابن إسحاق أن التي رأت القطف في يد خبيب هي ماوية مولاة حجين بن أبي إهاب، والتي حُبس في بيتها.

(٥) انظر البخاري، الصحيح (٥/٤١).

ثـم قتلوه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو يحمس نفسه بأبيات يذكر فيها غربته وتألب المشركين عليه:

ولـست أُبـالي حـين أُقـتل مسلمًا ::: علـى أي شِـقٍّ كـان لله مـصرعي
وذلـك في ذات الإلـه وإن يـشأ ::: يـبارك علـى أوصـال شـلوٍ ممزع

"وأمـا زيـد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية فقتله بأبيه أمية بن خلف، قتله نسطاس مولى بني جمح"[1].

ويذكـر ابـن إسـحاق أن أبـا سـفيان قد سأله مختبرا ثباته: "أنشدك الله يا زيد أتحـب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحـب أن محمـدا الآن في مكانـه الـذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي"[2].

هـذه الـرواية[3] علـى ضـعفها حديثـيًّا إلا أننا نستأنس بها تاريخيًّا على مدى الحـب المتمكن في قلـوب أصـحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له، ذلك الحب الذي لا يتزعـزع حتـى في أصـعب اللحظـات حـراجة، وهكذا نراهم يفدونه بأنفسهم أن تصيبه شوكة آمنا في بيته، وهو بين يدي أعدائهـم يعاينون الموت، فما أخلصها من تـضحية، ومـا أعظمـه حـبًّا أدهش أعداءهم في ذلك الوقت، يقول أبو سفيان في سياق الرواية السابقة "ما رأيت من الناس أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا"[4].

وقـد اسـتجاب الله عـز وجـل "لعاصـم بـن ثابـت يـوم أصـيب، فأخـبر الـنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصـحابه خـبرهم ومـا أصـيبوا، وبعـث نـاس مـن كفـار قـريش إلى عاصـم حـين حُدثـوا أنـه قـتل ليؤتَوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجـلا مـن عظمـائهم يـوم بـدر[5] فَـبُعِثَ علـى عاصـم مـثل الظلـة مـن

(١) انظر الطبراني، المعجم (٥/ ٢٦١).
(٢) انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٢، كما رواه الواقدي، مغازي، ٢/ ٣٦٢.
(٣) في روايـة عـروة أن المشركين سألوا خبيبا مثل ذلك وأجابهم بمثل جواب زيد، فإن صحَّت الروايتان كان كلٌ منهما سئل عن ذلك من جانب المشركين وأجابهم بجواب واحد يمثل حبًّا طاغيًا لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جانب أصحابه.
(٤) انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٢، والواقدي، مغازي، ٢/ ٣٦٢.
(٥) قـال ابـن حجـر: لعل العظيم المذكور عقبة بن أبي معيط، فإن عاصما قتله صبرا بأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعـد أن انـصرفوا من بدر. ووقع عند ابن إسحاق، وكذا في رواية بريدة بن سـفيان: أن عاصما لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وهـي أم مـسافع وجلاّس ابني طلحة العبدي، وكان عاصم قتلهما يوم أحد وكانت نذرت

الدَّبر[1] . فحمتهم من رسولهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا[2] .

وهكذا فقدت الدعوة إلى الله بعض فرسانها ، وحزن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و"المسلمون لفقدانهم عاصما وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو الفاجع ، فقد خسروا فريقا من الدعاة الأكفاء يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه"[3] .

وقد ذكر أرباب الحديث في هذه الحادثة عدد من الفوائد ، حيث قال ابن حجر:

- إن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ، ولا يمكّن من نفسه ولو قُتل ، أنفة من أنه يجري عليه حكم كافر ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة ، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن ، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك ، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك .

- الوفاء للمشركين بالعهد ، والتورع عن قتل أولادهم ، والتلطف بمن أريد قتله .

- الدعاء على المشركين بالتعميم ، وإنشاء الشعر وإنشاده عند القتل .

- دلالة على قوة يقين خبيب وشدته في دينه .

- أن الله يبتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

- استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيًّا وميتًا ، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل ، وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ، ولم يمنعهم من قتله لِما أراد من إكرامه بالشهادة ، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه[4] .

- وفي الحادثة: إثبات كرامة الأولياء . وما أكرم الله به خبيبا من إطعامه له القطف من العنب في زمان وحين لا يوجد منه بمكة حبة ولا ثمرة ، وهذه المكرمة

لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه فمنعته الدَّبر . ابن حجر ، فتح (٧/ ٣٨٤) .

(١) جماعة النحل ، وقيل: ذكور النحل ، أو الزنابير . القاموس ، دبر ، وابن حجر ، فتح (٧/ ٣٨٤) .

(٢) انظر البخاري ، الصحيح (٥/ ٤١) ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ٢٣٣ .

(٣) الغزالي ، فقه السيرة ، ٢٧٦ .

(٤) ابن حجر ، فتح (٧/ ٣٨٤ - ٣٨٥) .

شبيهة بما قصّ الله تعالى من شأن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾ [آل عمران ٣٧]، وإبلاغ الله سلامه إلى رسوله، وهما دلالتان واضحتان مثلهما جائز في إبان النبوة[١].

- وفيها أيضا مشروعية الصلاة عند القتل، قال في سياق رواية الصحيح: "فكان أول من سن الركعتين عند القتل"[٢].

قال السهيلي: "وإنما صار فعل خبيب سُنة حسنة، والسنة إنما هي أقوال من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفعال، وإقرار؛ لأنه فعلها في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستحسن ذلك من فعله، واستحسنه المعلمون مع أن الصلاة خير ما ختم به عمل العبد"[٣].

قال الحلبي: "وكان ابن سيرين رَحِمَهُ اللهُ إذا سئل عن الركعتين قبل القتل قال: صلاهما خبيب رضي الله تعالى عنه وحجر، وهما فاضلان، ويعني بحجر: حجر بن عدي رضي الله تعالى عنه"[٤].

وقال: "واستدل أئمتنا بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته، ولعل ذلك كان بلغ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقرَّه"[٥].

- حب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الصحابة:

لقد كشفت هذه الحادثة عن مدي حب الصحابة رضوان الله عليهم للحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويظهر هذا الحب في الحوار الهادئ بين أبي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ماأحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي[٦].

وهذا الحب من الإيمان فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه**

(١) انظر أبا نعيم، دلائل، ٢/ ٥١١ - ٥١٢.
(٢) البخاري، الصحيح (٥/ ٤١).
(٣) السهيلي، الروض، ٦/ ١٩٢.
(٤) الحلبي، سيرة، ٣/ ١٦٢.
(٥) الحلبي، سيرة، ٣/ ١٦٠، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٣٦.
(٦) انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٢، الواقدي، مغازي، ٢/ ٣٦٢.

إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1].

سرية بئر معونة[2]:

استمرارا لمنهجية نشر الإسلام ورسالته، ورغم ما أصاب الدعوة في صميم عملها بفقدان عدد من خيرة فرسانها في الرجيع، فقد واصل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بث الدعاة ونشر الدعوة إلى الله في كل مكان في الجزيرة العربية، حيثما وجد بصيصًا من الأمل لقبولها وانتشارها، "إذ لا بدَّ من تبليغ دعوة الإسلام مهما غلت التضحيات"[3]؛ ففي الشهر نفسه الذي أرسل فيه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرّية الرجيع، أرسل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريّة أخرى إلى بئر معونة[4]، وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنّة قدم إلى المدينة، ودعاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد ووعد بإجارة وفد من الدعاة يرسلهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدعوة الأعراب من أهل نجد[5].

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ممن عرفوا بالقرّاء لمثابرتهم على التحصيل العلمي حيث كانوا "يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء"[6]، وقد أمّر عليهم المنذر بن عمرو الخزرجي[7].

---

(١) البخاري، كتاب الايمان (١/ ٧٢) رقم ٢١.

(٢) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة، وهي بين ديار بني عامر، وحرة بني سليم، وهي إلى الحرة أقرب، وهي بلحف أبلى، وأبلى سلسلة جبلية سوداء تقع غرب المهد إلى الشمال، وتتصل غربا بحرة الحجاز العظيمة، وهي اليوم ديار مطير، ولم تعد سليم تقربها. انظر ابن هشام، السيرة، ٣/ ١٨٤، والبكري، معجم، ٤/ ١٢٤٥.

(٣) أكرم العمري، المجتمع المدني، ص٨٩.

(٤) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٧٤، الواقدي، المغازي ١/ ٣٤٦، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٥١.

(٥) انظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٦)، والنووي على مسلم (١٣/ ٤٦).

(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ٤١ - ٤٤ (حديث ٤٠٩٠)، انظر النووي على مسلم (١٣/ ٤٧)، وانظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٥). وجعلهم ابن إسحاق أربعين صحابيًا.

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ ٢/ ١٧٤، الطبري، تاريخ ٢/ ٣٠ - ١، وانظر: ابن هشام، السيرة ٣/ ١٧٤. وفي الوقت الذي يذكر البخاري سببا آخر لإرسالهم وهو أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسلهم مددا لبطون من بني سليم (الفتح - الحديث ٤٠٩٠)، ابن

وتحركت السرية حتى إذا ما وصلوا بئر معونة - وهي منطقة تماس حدودية بين أراضي قبيلة بني عامر وحرة بني سليم - عسكروا بإزائها، ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أفراد البعثة إلى الأعراب في مهمة استطلاعية وتمهيدية لمهمة البعثة الأساسية، وذلك بمبادرة منه تطوعية إذ قال لهم: "أتقدمكم فإن أمّنوني حتى أبلغهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلاّ كنتم مني قريبا"[١]. ولكن الأعراب كانوا أشدّ كفرا ونفاقا وغدرا، فتنفيذا لخطة التآمر الدنيئة التي دبروها مع قائدهم عامر بن الطفيل العامري، وبينما حرام "يحدثهم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه" فصاح: «**الله أكبر فزت ورب الكعبة**»[٢].

ذلك المشهد العظيم والذي لم يعهده المشركون من قبل، جعل قاتله يسلم[٣] متعجبا من ردّة الفعل التي لم يك أحد من الحاضرين يتوقعها من رجل يلفظ أنفاسه الأخيرة[٤].

لم يكتف الأعراب بذلك بل تبعوا أثره حتى وجدوا أصحابه فأحاطوا بهم من كل جانب ودافع أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عقيدتهم السمحة التي جاءوا لنشرها بين من غدروا بهم، ولكن هول المفاجأة وكثرة الأعراب المستعدين لخيانتهم المدبّرة سلفا لم تتح لهم الفرصة في قتال متكافىء، فسقطوا شهداء على أرض بئر معونة إلاّ رجلا أو رجلين منهم[٥]، حيث سطروا بدمائهم الزكية

سعد، الطبقات، ٣/ ٥٣ بإسناد صحيح، فإن مسلم يذكر في صحيحه (٣/ ١٥١١ - حديث ٦٧٧) بأن سبب إرسالهم إنما هو للدعوة وتعليم الأعراب القرآن والسنّة بناء على طلبهم.

(١) ابن حجر، فتح (٦/ ١٩)، ورواية عند أحمد، البنا، الفتح الرباني (٢١/ ٦٤).

(٢) انظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٦).

(٣) جاء في رواية أحمد عن أنس: "فلما كان بعد ذلك، إذا أبو طلحة يقول لي: هل لك في قاتل حرام. قلت له: ما له فعل الله به وفعل. قال: مهلاً فإنه قد أسلم". انظر: الفتح الرباني (٢١/ ٦٥)، ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٨).

(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٠.

(٥) ذكر أهل المغازي اسميهما، فعند ابن إسحاق: أنه عمرو بن أمية، ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف. وقال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، وأشارت الروايات العديدة إلى أن كعب بن زيد بن النجار ترك في أرض المعركة وبه جراحات كثيرة وبه رمق فعاش وشفي وعاش حتى استشهد في غزوة الخندق. انظر: البخاري - الصحيح (الأحاديث ٤٠٨٨ - ٤٠٩٦)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٥١١

ملحمة من أروع الملاحم الجهادية في تاريخ الإسلام بعد أن كسبوا رضوان الله عليهم[1].

فهذا الروح الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ يخبر "النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم"[2]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا[3].

فيا لها من منزلة عظيمة تتوق إليها نفس كل مسلم، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أصحابه بمصيرهم، ويصف أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شدّة تأثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمصابهم: "ما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد على شيء قط ما وجد على أصحاب سرية بئر معونة، أصحاب سرية المنذر بن عمرو، فمكث شهرا يدعو على الذين أصابوهم في قنوت صلاة الغداة"[4][5].

ومن الطبعي أن يتأثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمصابهم، فقد كانوا من خيرة أصحابه، ومن فرسان الدعوة المعدودين، وقد كان فقدهم في وقت كانت دعوة الإسلام بحاجة ماسّة لخدماتهم، كما أن الطريقة التي تم فيها قتلهم تعصر القلب ألمًا وحزنًا عليهم، فهي طريقة شائنة لم تتح لهم الفرصة في قتال فروسي مشرف.

(حديث ٦٧٧)، أحمد - المسند: الفتح الرباني ١٢/ ٦٣ - ٦٥، الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ١٢٦، ابن سعد - ٢/ ٥١ - ٥٤، ابن هشام - السيرة ٣/ ٢٦٠ - ٢٦٧، المغازي، ٣٤٨/٢، ابن حجر، فتح (٦/ ١٩).

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٠.

(٢) ابن حجر، فتح (٦/ ١٩).

(٣) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد رقم ٦٧٧.

(٤) من رواية عبد الرزاق بسند صحيح عن أنس، المصنف (٥/ ٣٨٤). وأخرج البخاري نحوه عن أنس من طريق أبي النعمان. ابن حجر، فتح (٦/ ٢٧٢). ومسلم أيضا. انظر النووي على مسلم (٥/ ١٧٩).

(٥) الخبر صحيح متفق عليه، فقد أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع عدة، انظر ابن حجر، فتح (٢/ ٤٩٠، ٦/ ١٩ - ٣١ - ٢٧٢، ٧/ ٣٨٦ - ٣٨٨ - ٣٨٩). وأخرجه مسلم في صحيح. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٥/ ١٧٨ - ١٧٩، ١٣/ ٤٧).
وقد استجاب المولى عز وجل لدعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصيب عامر بن الطفيل بمرض الطاعون (ارتفاع درجة الحرارة وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط وكذا تضخم الطحال) وظل حبيساً في بيت امرأة من قومه حتى مات. انظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية، ص١٣٠، علي الصلابي، السيرة النبوية، ٢/ ١٩٣.

"إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب، بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عمًّا تخبئه الوثنية في ضميرها من غلّ كامن على الإسلام وأهله، غلٍّ عاصف بكل مبادىء الشرف والوفاء"[(١)] التي اشتهر بها العرب في الجاهلية وزادها الإسلام قوة وعزًّا، لكن حقد الوثنية الدفين على الإسلام ورجالاته طغى على هذه المبادىء في قلوب أصحابها فأعمى بصائرهم وبصيرتهم[(٢)].

وقد فتك عمرو بن أميّة وهو في طريقه إلى المدينة برجلين من بني كلاب وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، ولكن تبين أن معهما عهدا من النبي ﷺ وهو لم يعلم به مما دفع الرسول ﷺ إلى الالتزام بدفع ديتهما فقال: «**لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما**»، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود[(٣)]، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير فيما بعد.

إجلاء بني النضير:

كان بنو النضير أقوى القبائل اليهودية بالمدينة، وكانت حصونهم غاية في المناعة والقوة وكانوا يعتدون بها ويعتقدون أنها قادرة عل حمايتهم، وكان العرب من حولهم يرون أنها أمنع من أن تقتحم، كما كانوا يملكون أفضل الأراضي الزراعية وأفضل النخيل، وكان زعماؤهم قد أظهروا العداوة للنبي ﷺ من يوم قدومه إلى المدينة، وظهر الحسد والبغضاء والإصرار على العداوة منهم.

فلما انتصر المسلمون يوم بدر انطلق شاعرهم كعب بن الأشرف يرسل الأشعار في هجاء المسلمين والتحريض عليهم، وذهب إلى مكة يرثي أصحاب القليب - قتلى قريش - ويحرض قريشًا على المسلمين، حتى فاضت نفوس المسلمين بالغيظ منه والحقد عليه؛ لذلك أمر النبي ﷺ بقتله. ثم إن زعيم بني النضير سلام بن مشكم آوى أبا سفيان في غزوة السويق وأطلعه على أسرار المسلمين[(٤)]، فكأن الخيانة في بني النضير قد ولدت مبكرة حتى إذا ما كانت معركة أحد وهزم فيها المسلمون، وبدأت القبائل العربية تتحرش بهم، حتى استدرجت عددًا منهم، وقتلتهم في الرجيع وبئر معونة، بدأ يهود بني النضير

(١) الغزالي، فقه السيرة، ص٢٧٨.
(٢) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٣.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ١٨٣ - ١٨٨، ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ١٠٩.
(٤) تاريخ الطبري، ٢/ ٢٨٤، فتح الباري، ٧/ ٣٣٢.

يدبرون مؤامرة خطيرة للتخلص من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقضاء على الوضع القائم في يثرب كله، مستعينين في ذلك بتلك الجماعة المنافقة بزعامة عبد الله بن أبي، وقد بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحس بهذا الموقف في المدينة، لذلك فكر تفكيرًا سياسيًّا بعيدًا عن مرامي الرأي، فرأى ألا شيء خير من أن يستدرجهم ليكشف عن نياتهم[1].

حين قتل عامر بن الطفيل زعيم بني عامر رجال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين ذهبوا إلى منطقة نجد للدعوة إلى الإسلام في بئر معونة - مكان بين حرة بني سليم وبلاد بني عامر شرقي المدينة - نجا منهم رجل هو عمرو بن أمية الضمري الذي قابل في طريقه رجلين من بني عامر فقتلهما ثأرًا بأصحابه، ولم يعلم أن معهما كتاب عهد من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتضاه أن يدفع ديتهما. وذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منازل بني النضير - وكانوا حلفاء لبني عامر - في عشرة من كبار أصحابه، وطلب إليهم أن يعاونوا في دفع دية القتيلين، وأظهر اليهود الغبطة لقدومه إليهم، والاستعداد للتعاون، ولكن حين تبسط معهم وجلس إلى جوار بيت من بيوتهم، ائتمروا بينهم أن يصعد أحدهم إلى أعلى الدار فيلقي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صخرة تقتله، وأحس النبي بدقة ملاحظته روح التآمر فيهم، وجاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة، ثم تبعه أصحابه بعد قليل. وقد أدرك اليهود أن تآمرهم قد اكتشف[2].

وقد سجل القرآن الكريم ما كان من مكر يهود بني النضير فقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١].

فأخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: أعينوني في عقل أصابني، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماقال، فقال لأصحابه: لاترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولاترون شراً أبداً.

فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.
(٢) الواقدي، ١/ ٣٦٥.

جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأقامه من ثم فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فأخبر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أرادوا به[١] .

وما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصل إلى المدينة ويجتمع بأصحابه حتى أرسل اليهود أحد رجاله وهو محمد بن مسلمة الأوسي يقول لهم: "اخرجوا من بلادي . لقد نقضتم العهد الذي جعلت بينكم بما هممتم به من الغدر بي ، لقد أجلتكم عشرًا فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه"[٢] وأبلست بنو النضير ولم يجدوا جوابا يردون به ، سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يامحمد ، ماكنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس فقال محمد: تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود فقالوا: نتحمل فمكثوا أياماً يعدون العدة للرحيل[٣] .

لكن عبد الله بن أبي - رأس المنافقين وكبيرهم - أرسل إليهم يقول: "اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم[٤] ، ولاتخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين ، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم[٥] .

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم - اي لن نبرح - دارنا فاصنع مابدا لك ، فكبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبر المسلمون معه ، وقال: حاربت يهود[٦] .

وهنا نقف على أبواب مؤامرة خطيرة يدبرها اليهود والمنافقون في المدينة .

ها هم بنو النضير يأتمرون بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقتلوه غدرًا ، فلما انكشفت خطتهم ، أعلن المنافقون عن المؤامرة كاملة ، فإذا جبهة متكاملة تعلن خروجها ، وتستعد للحرب ، وتعلن في صراحة أن لديها القوة الكافية من عشائرها ومن غيرها من العرب الآخرين ، وأن لديها الحصون والقلاع تحتمي بها ، وأنها على

(١) انظر: تفسير الطبري ، ٦/ ١٤٤ - ١٤٥ .
(٢) طبقات بن سعد الكبرى ، ٢/ ٥٧ ، مغازي الواقدي ، ١/ ٣٦٣ - ٣٧٠ .
(٣) تاريخ الطبري ، ٢/ ٥٥٢ .
(٤) سيرة ابن هشام ، ٣/ ٢١٢ .
(٥) تاريخ الطبري ، ٢/ ٥٥٣ .
(٦) ابن كثير ، السيرة النبوية ، ٣/ ١٤٦ .

استعداد لخوض غمار الحرب حتى الفناء .

إذن فقد كان تقدير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادقًا وكانت شكوكه في محلها ، أن المدينة مهددة بالحرب الأهلية يثيرها اليهود والمنافقون ومن ينضم إليهم من الأعراب القريبين ، وإذن فهو الخطر الداهم الذي لو سكت عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان في ذلك القضاء على دولته ، فقد أصبح الأعداء يحيطون بها في الداخل والخارج ، ولكي يتغلب على هذا الموقف فلا بد من العمل السريع الحاسم ، ولا بد من شجاعة وشدة يتذرع بها المسلمون [(١)] .

فقد أخذت اليهود في التجهز للحرب ، فرمت حصونها ونقلت إليها الحجارة وشحنتها بالمؤن والذخيرة ، واطمأنت إلى قوتها وإلى القوة الخارجية التي يعدها عبد الله بن أبي .

وأسرع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحاصرهم ، واشتبك معهم في القتال عشرين يومًا أظهر فيها اليهود كثيرًا من البسالة ، واستماتوا في الدفاع عن حصونهم ودورهم ، ولم ينسحبوا من دار إلا بعد أن ييأسوا من الدفاع عنها فيخربوها . وطال حصار الحصون حتى ظن المسلمون استحالة إخراجهم منها ، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع نخيلهم وتحريقها حتى ييئسهم من فائدة المقاومة أو يضطرهم للخروج لقتال المسلمين في معركة مكشوفة .

أما عبد الله بن أبي ومن معه ، فقد استطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحول بينهم وبين الاتصال باليهود ، فقد أحكم الحصار ، فلم يجرؤ عبد الله على التقدم لتنفيذ وعده لليهود ، وأذهلته وأصحابه القوة التي واجه بها المسلمون الموقف ، وملأ الرعب نفوسهم حينما رأوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأخذ اليهود بالشدة فيحرق بيوتهم ويقطع نخيلهم وينكل بهم ؛ لذلك جبنوا عن أن يتقدموا للمشاركة في القتال ، بعد أن حيل بينهم وبين الوصول إلى حصون اليهود ، ويئس اليهود من عونهم ، فأرسلوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم فوافقهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك وقال لهم: «**اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة**» - وهي الدروع والسلاح - فرضوا بذلك ، وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوء ذهباً وفضة وكان يقول هذا الذي أعددناه لرفع الأرض

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص ٣٨٩ .

وخفضها وإن كنا تركنا نخلا ففي خيبر النخل.

وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام (١).

وارتحل اليهود فمنهم من نزل بخيبر ومنهم من ارتحل إلى الشام وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح، ولكن الأرض التي تركوها كانت أفضل ما غنم المسلمون وأنفع، فقد جعلها النبي ﷺ للمهاجرين دون الأنصار الذين لم يجدوا في صدورهم حرجًا وآثروا بها المهاجرين، وبذلك استغنى المهاجرون عن معونة الأنصار فتحسنت الحالة الاقتصادية عند الطرفين (٢).

أما المنافقون، فقد ضعف أمرهم بعد أن انكشف أمرهم ودمغوا بالجبن والعار، ولم يعاقبهم النبي ﷺ ولكنه لم يعد يفكر في أمرهم كثيرًا. وفي شأن بني النضير وتآمر المنافقين معهم نزلت سورة كاملة من سور القرآن هي سورة الحشر.

وبخروج بني النضير، ضعف شأن اليهود بالمدينة، ولكن بقيت لهم جولة أخرى يدبرها بنو النضير بتجميع الأحزاب (٣).

غزوة ذات الرقاع (٤):

بعد أُحد اشتد نشاط القبائل ضد المدينة واتسعت دائرته، وتنوعت وسائله، فقد تجرأت القبائل على حرب المدينة والنيل من المسلمين بعد هزيمتهم في أحد أمام قريش، وكانت بدر قد أوجدت العرب في قلوبهم، لكنهم بعد أحد بدؤوا

(١) السيرة الحلبية، ٢/ ٥٦٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/ ٢١٢.

(٣) انظر: مغازي الواقدي ٢٨٢ - ٢٩٠، طبقات ابن سعد ٣/ ٩٨ - ١٠٠، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٩٠.

(٤) سميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا .انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، ٥/ ١٤٥.

يستعيدون شجاعتهم ويكيدون للمدينة ويستعدون لضربها .

وكان أول ما بلغ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد شهرين من أحد أن طليحة وسلمة بن خويلد وكانا على رأس بني أسد ، يحرضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة ؛ ليصيبوا من أطرافها ؛ وليغنموا من نَعم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدينتهم ، وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم أن المسلمين لا يزالون مضعضعين من أثر أحد ، فما كاد هذا الخبر يبلغ مسامع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى عقد لأحد رجاله – سلمة بن عبد الأسد – لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسون رجلًا منهم كثير من كبار المسلمين وشجعانهم فباغتوا الأعداء على حين غفلة فأوقعوا بهم هزيمة سريعة ألجأتهم إلى الفرار فطاردوهم وظفروا بما معهم غنيمة للمسلمين[1] .

وكذلك اتصل بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نبيح اللحياني الهذلي ، زعيم لحيان من هذيل مقيم بنخلة أو بعرنة – من أرض هذيل – وأنه يجمع الجموع ليغزوه . فدعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه أحد رجاله – عبد الله بن أنيس – فسار عبد الله حتى التقى بخالد ، واستطاع أن يوهمه بأنه سمع تجمعه لمحمد ، فجاء ينضم إليه . فلما تأكد من صحة ما علم المسلمون غافله حتى إذا وجد منهم غرة قتله . وعاد إلى المدينة فأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدأت بنو لحيان بعد موت زعيمها زمنًا ، عادت بعده تفكر في الثأر عن طريق الحيلة والغدر .

ثم دبروا أمر الثأر عن طريق رهط من عَضْل والقارة من بني الهون ابن خزيمة ، فقدموا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون له: إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن . فبعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط ، حتى إذا بلغوا ماء لهذيل بناحية تُدعى الرجيع ، غدروا بهم ، واستصرخوا هذيلًا عليهم ، ولم يرع هؤلاء الرجال الستة وهم في رحالهم إلا الرجال وبأيديهم السيوف قد غشوهم ، ودافع المسلمون عن أنفسهم حتى قتل منهم ثلاثة واستأسر الثلاثة الآخرون . فأما أحدهم فتخلص من قيده ودافع عن نفسه حتى قتل . وأما الآخران فقد باعتهما هذيل إلى قريش غدرًا ، وثأرًا بمن قتل من رجالها يوم بدر[2] .

ولم يكن حزن المسلمين قد خفَّ على من قتل من أصحابهم يوم الرجيع ولم

(١) الواقدي ، ٢٦٤ – ٢٦٨ .
(٢) ابن هشام ، ٣/ ١٦٠ – ١٨٣ . ابن سعد ، ٣/ ٩٦ – ٩٨ .

تكـن أشـعار حـسان بـن ثابـت يرسـلها في رثاء هؤلاء الرجال قد خفتت أنغامها الحـزينة - حـين فوجـئ المسلمون بحادث هو أنكى عليهم من غدر هذيل، وأشد ألمًـا للمسلمين وإثارة لعواطفهم، ذلك هو غدر بني عامر بوفد آخر من المسلمين بلغـت عدتـه أربعين رجلًا، وقتلهم في بئر معونة إلا رجلًا منهم هو عمرو بن أمية الضمري أسره عامر بن الطفيل ثم خلى عنه حين علم أنه من كنانة [(١)].

كـان لهـذين الحـادثين وقـع ألـيم في نفـس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاه إلى زيادة الحـيطة والحـذر في معاملة القبائل، واتخاذ الشدة معها، إذ إن مثل هذه الأمور لو تكـررت، اسـتخفت العـرب بـشأن المسلمين وتجرأت القبائل عليهم، وعند ذلك يـرفع الـنفاق رأسـه في المدينة، ويجد اليهود لهم مجالًا لإيقاع الفتنة والائتمار بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين، وربمـا جـرَّ ذلك إلى تكتل أعدائهم عليهم في الخارج، نتيجة لروح الاستخفاف التي تثيرها أمثال هذه الجرأة على المسلمين، وقد كاد هذا يـتم فعلًـا، فقـد تآمر المنافقون واليهود في المدينة على حياة الرسول وإثارة الحرب الداخلية في المدينة مما أدى إلى إجلاء بني النضير كما قدمنا.

فمـا أن وصـل الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المديـنة بعـد إجلاء بني النضير، حتى حملـت إلـيه الاسـتخبارات الإسـلامية أن جماعـة مـن غطفـان يجمعون له يريدون حـربه، فخـرج بنفسه علـى رأس أربعمائة من أصحابه إلى محالهم بمكان يقال له: ذات الـرقاع [(٢)] ففـر الأعـراب مـن وجهه، فاستاق من وجد من أموالهم ونسائهم وعاد إلى المدينة[(٣)].

وفي هذه الغزوة شرعت صلاة الخوف وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مـواجهة العدو وهي قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه،

---

(١) ابن هشام، ٣/ ١٨٣، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٩٩.
(٢) وهو موضع في وادي القرى على طريق تبوك.
(٣) انظر: طبقات ابن سعد، ٣/ ١٠٢، ١٠٣.

وطائفة في وجه العدو . فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً ، وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم[1] .

وفي هذه الغزوة وقعت قصة الرجل الذي اخترط سيفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نائم تحت الشجرة (واسم الأعرابي: غورث ابن الحارث) ، وقد جاء في صحيح البخاري عن جابر عن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: غزونا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة نجد ، فلمّا أدركته القائلة[2] وهو في واد كثير العضاه[3] فنزل تحت شجرة واستظلّ بها وعلّق سيفه ، فتفرّق النّاس في الشّجر يستظلّون . وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئنا . فإذا أعرابيّ قاعد بين يديه ، فقال: «**إنّ هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي**[4]**، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط سيفي صلتا**[5]**، قال: ما يمنعك منّي؟ قلت: الله، فشامه**[6] **ثمّ قعد، فهو هذا**» . قال: ولم يعاقبه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[7] .

وقد عاهد غورث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لايقاتله ولايكون مع قوم يقاتلونه ، فخلى سبيله ، فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس)[8] .

غزوة بدر الموعد:

بعد أن كسر المسلمون شوكة القبائل العربية الضاربة علي تخوم المدينة ، وأعاد الهيبة في قلوبهم ، وأمن شرهم ومكرهم وخيانتهم ، شرع الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التجهز لملاقاة أبو سفيان في الموعد الذي كان ضربه ، وكان أبو سفيان يوم أحد نادى: موعدنا وإياكم بدر في عامنا المستقبل . فأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه أن يجيبه بنعم ؛ فأقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصرفه من ذات الرقاع ثم خرج على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف

---

(١) مسلم (٨٤٢) .
(٢) القائلة: نصف النهار ، وفي الصحاح: الظهيرة .
(٣) العضاهة: بالكسر أعظم الشجر أو كل ذات شوك ، والجمع عضاه وعضون .
(٤) اخترط سيفي: استله .
(٥) الصّلت من السيوف: الصقيل الماضي .
(٦) شامه: أي أغمده .
(٧) البخاري الفتح ٧ (٤١٣٩) واللفظ له . ومسلم (٨٤٣) .
(٨) رواه الامام أحمد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ٥/ ١٨٣ .

وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيّالة وذلك في ذي القعدة سنة ٤ هـ، وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوصلوا بدرا فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحدا من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرسا، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنّة على بعد أربعين ميلا من مكة، ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة بحجة أن ذلك العام كان عام جدب، بعد أن خطب فيهم وقال: يامعشر قريش إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا[(١)]

وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بني ضمرة في غزوة ودان، فالتقى برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر وقال: يامحمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «**نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ماكان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك**»، قال. لا والله يامحمد مالنا بذلك منك من حاجة[(٢)].

وكان لإخلاف قريش موعدهم مع الرسول والمسلمين صدى واسع بين القبائل العربية، وأثر كبير في الارتفاع بمكانة المسلمين واستعادتهم لهيبتهم التي كانت قد انتكست بعد معركة أحد [(٣)].

غزوة دومة الجندل:

أتاحت التحركات العسكرية التي قام بها المسلمون التي أعقبت معركة أحد للدولة الإسلامية في المدينة فرصة الاستقرار، كما أن إخراج بني النضير، واستيلاء المسلمين على أراضيهم ونخيلهم، أدى إلى تحسن حالة المسلمين الاقتصادية في المدينة؛ فقد وزعت الأراضي على المهاجرين فاستقلوا بأمر معاشهم واستغنوا عن معونة الأنصار فتحسنت حالة الطرفين جميعًا، كما ضعف أمر النفاق، وخفت قوة المعارضة الداخلية في المدينة، وكانت الفترة التي تلت خروج بني النضير فترة سكينة وطمأنينة استراح إليها المسلمون. واستطاعوا بعد أن

---

(١) ابن هشام - السيرة، ٣/ ٢٩٢، الواقدي، مغازي، ١/ ٣٨٤، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٥٩، ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ١٢٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٨٧.

(٢) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٢٩٢.

(٣) انظر: موسوعة نظرة النعيم، ١/ ٣١٨، ٣١٩.

استدار العام أن يخرجوا إلى بدر استجابة لوعد أبي سفيان يوم أحد ، لكن قريشًا لم تكن في حالة من القوة تمكنها من الوفاء بوعدها ، فلم تذهب إلى بدر واكتفت بأن تتظاهر بالخروج ، وترسل تهدد المسلمين . وفي بدر استفاد المسلمون من تجارة الموسم فربحوا ، كما جدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهوده مع القبائل التي وادعته من قبل ، وكان من نتيجة تخلف قريش وخروج المسلمين أن انمحت آثار أحد واستقر سلطان المسلمين في هذه المنطقة وتدعمت هيبتهم ، فتفرغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتوجه إلى أقصي حدود العرب ، ومهاجمة دومة الجندل ، حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك الموالون والمعادون .

واتفقت كتب المغازي والسير على أنها كانت في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرا من الهجرة النبوية [1] . ويرجع الواقدي سببها إلى أنه قد بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بدومة الجندل جمعا كثيرا من الناس وأنهم يظلمون من مرّ بهم من تجار الميرة والمتاع المتنقلين بين المدن - وكان بدومة الجندل سوق عظيم وتجارة رائجة ، وأنه قد ضوى إليهم قوم من العرب كثير ، وأنهم يريدون التوجه إلى المدينة طمعا في أموالها [2] ، فندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس وخرج في ألف من المسلمين ، ومعهم دليل من بني عذرة ، وقبل وصولهم دومة الجندل هجموا علي ماشيتهم ورعائهم ، فأصابوا قسما منها ، وهرب من هرب ، فبلغ الخبر دومة الجندل ، فتهاربوا إذ لم يجد المسلمون أحدا فيها عند وصولهم ، فأقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين فيها أياما ، وبعث بالسرايا من هناك إلى مختلف الأنحاء وكانت ترجع بالإبل فقط ، إلّا سريّة محمد بن مسلمة الذي أسر رجلا منهم وعرض عليه الإسلام فأسلم . وعاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين إلى المدينة [3] .

حقيقة أن الدولة الإسلامية في المدينة وانطلاقاً من شعورها أنها أصبحت دولة لها جميع مقومات الدولة تهتم بجميع النواحي السياسية والاقتصادية

(١) ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ ، الواقدي ، المغازي ، ١/ ٤٠٢ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٦٢ .

(٢) الواقدي ، المغازي ، ١/ ٤٠٢ - ٤٠٤ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٦٢ - ٦٣ ، وقد أضاف الواقدي سببا آخر وهو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يقترب بتحركاته العسكرية من حدود الشام لكي يفزع الروم ، المغازي ١/ ٤٠٣ ، وانظر ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) الواقدي ، المغازي ، ١/ ٤٠٢ - ٤٠٤ ، ابن سعد ، الطبقات ، ٢/ ٦٢ - ٦٣ .

والاجتماعية والثقافية، لو أغفلت أمر هذه التجمعات والتحركات التي تهدف إلي إيقاع بها، لاستفحل شأنه، وأدي لضياع وضعها الاقتصادي المميز، كما أن تحرك المسلمين في المدينة جاء بهدف تأكيد فرض نفوذهم على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حماية وتحت مسؤولية دولية قوية قادرة علي توفير الحماية لرعاياها، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر وفي إطار الحرب المستمرة مع قريش، فكان هذا التحرك يهدف إلي حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة.

كما أن خطة الرسول ﷺ في هذه الغزوة كانت ترمي إلى أهداف عديد، فهي غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجوماً محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها، [1]كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد[2].

كما يمكن القول أن هذه الغزوة كانت تهدف إلي إعداد العرب وتأهيلهم نفسياً وإزالة الرهبة من نفوسهم من مواجهة الروم بعدما عاشوا طويلا يتملكهم الخوف والهبة من مواجهة الروم، والتأكيد علي عالمية الإسلام وإنها ليست خاصة بقوم أو دولة أو جنس، ولابد من إيصالها إلي العالم أجمع [3].

(١) الغضبان، التربية القيادية، ٣/ ٣٧٢.
(٢) أبو شهبة، السيرة النبوية، ص٢٥١، ٢٥٢.
(٣) د. عبدالرحمن الشجاع، دراسات في عهد النبوة، ص١٤٤.

غزوة بني المصطلق [1] :

لقد كان لهذة الغزوة أهمية كبيرة جدا في تاريخ المسلمين لما تمخض عنها من نتائج ، وما تضمنته من عبر وعظات ، وما صاحبها من وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وتمخضت عن افتضاح المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس .

وبنو المصطلق هم بطن فرع من خزاعة والمصطلق جدهم وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء[2] .

واختلفوا في خزاعة[3] فمنهم من قال إنها قبيلة عدنانية ومنهم من ذهب إلى أنها قبيلة قحطانية يمنية والراجح ماذهب إليه أكثر العلماء من أنها قبيلة قحطانية يمنية[4] .

وكانت قبيلة بني المصطلق على طريق قريش التجارية إلى الشام ، مما جعلها تتأخر في إعلان إسلامها ، حفاظاً على مصالحها . ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأمن جانبها بحكم كونها فرعاً من خزاعة التي كانت محل عناية ونصح للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رغم عدم دخولها في الإسلام ، ويتضح ذلك جلياً في موقف معبد بن أبي معبد الخزاعي في حمراء الأسد ، التي وقعت عقب غزوة أحد مباشرة[5] .

---

(١) المُصْطَلِق ، بضم الميم ، وسكون الصاد ، وفتح الطاء ، وكسر اللام ، مفتعل من الصلق وهو رفع الصوت ، وهو لقب لرجل اسمه جذيمة بن سعد .
ويقال لها المريسيع أيضًا ، بضم الميم وفتح الراء وسكون التحتانيتين ، وكسر السين المهملة ، وهو ماء لبني خزاعة ، مأخوذ من قولهم: رسعت العين إذا دمعت من فساد بها .

(٢) إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص٤٥ .

(٣) خزاعة من التخزع وهو التأخر والمفارقة ، وذلك أن خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلت بمر الظهران وأقامت بهما .

(٤) إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص٤٥ .

(٥) لما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه إلى حمراء الأسد بعد أحد يتبع جيش أبي سفيان خشية أن تسوّل لهم أنفسهم الكرة على المسلمين لاستئصالهم – وكان الأمر كما توقع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما وصل حمراء الأسد مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي فقال: "يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك ولوددنا أن الله عافاك مما حدث بك – "وكان معبد إذ ذاك مشركاً ولكن خزاعة كانت موضع سر ونصح لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتهامة ، مسلمهم

وأول إشارة إلى اتخاذهم موقفاً عدائياً واضحاً ضد المسلمين هو إسهامهم مع قريش في موقعة أحد، ضمن كتلة الأحابيش [1]، التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش [2].

حتى كانت غزوة أحد وما لحق بالمسلمين فيها من خسائر جسيمة ذات أثر عظيم في أرجاء شبه الجزيرة العربية، وداخل المدينة المنورة نفسها، فضعفت هيبة المسلمين وتجرّأ عليهم الأعراب، وشمت بهم اليهود والمنافقون، وقاموا بدعاية واسعة ضدهم، وصار المسلمون لا يحاربون قريشاً وحدها وإنما يواجهون الجزيرة

ومشركهم فكانوا لا يخفون عنه شيئاً حدث في مكة - ثم خرج من عند رسول الله ﷺ متجهاً نحو مكة، فلقي أبا سفيان بن حرب وجماعته بالروحاء - على طريق مكة تبعد عن المدينة بـ ٧٣ كيلومتراً - وقد أجمعوا الرجعة إلى المدينة وقالوا: "أصبنا أشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم، وبينما هم كذلك طلع عليهم معبد بن أبي معبد الخزاعي فلما رآه أبو سفيان قال: "ماوراءك يا معبد؟" قال: "محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، ولا قبل لكم به، وهم يتحرّقون عليكم تحرّقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق ما لم أر مثله قط".فاندهش أبو سفيان، وقال: "ويحك يا معبد انظر ما تقول؟" فقال معبد: "والله ما أرى أن ترتحل من مكانك هذا حتى ترى نواصي الخيل ".قال أبو سفيان: "والله لقد أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل بقيتهم"، قال: "فإني أنهاك عن ذلك. والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر".قال: "وما قلت؟" فأنشده شعراً فيه تحذير له من لقاء المسلمين، وبيان قوتهم، فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وانسحبوا في أسرع وقت يواصلون سيرهم نحو مكة.فهذا يدل على إخلاص بعض رجال هذه القبيلة لرسول الله ﷺ وثقته بهم. سيرة ابن هشام، ٢/ ١٠٢، ومغازي الواقدي، ١/ ٣٣٨، وتاريخ خليفة، ص ٧٤، والبداية والنهاية لابن كثير، ٤/ ٤٩، والاستيعاب لابن عبد البر، ٣/ ٤٥٤، وأسد الغابة لابن الأثير، ٥/ ٢١٧ - ٢١٨، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص٥٥.

(١) الأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، انظر: سيرة ابن هشام، ١/ ٣٧٣، المعارف لابن قتيبة، ص٢٦، أنساب الأشراف للبلاذري، ص٥٢، فتح الباري لابن حجر، ٥/ ٣٣٤ و٣٤٢، وسمّوا بذلك: لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال به ((حبشي)) فنسبوا إليه، وقيل سمّوا بذلك لتجمّعهم، والتحبّش التجمع، والحباشة الجماعة.المعارف لابن قتيبة، ص ٢٦٩، لسان العرب لابن منظور، ٨/ ١٦٦، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، ٢/ ٢٦٧، فتح الباري ٥/ ٣٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٦١، مغازي الواقدي، ١/ ٢٠٠، الكامل لابن الأثير، ٢/ ١٤٩، زاد المعاد لابن القيم، ٢/ ١٠٢، البداية والنهاية لابن كثير، ٤/ ١٠.

برمتها.

وسارعت عدة قبائل إلى التجمّع للإغارة على المدينة والقضاء على المسلمين فيها، كما حدث ذلك من بني أسد بقيادة طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين، من القبائل النجدية، خالد بن سفيان الهذلي الذي كان مقيماً في عرنة قرب عرفات.

فلما علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتجمّعهم ومحاولتهم اقتحام المدينة بعث إليهم من يؤدّبهم في عقر دارهم، فكان في ذلك ضربة لهم وعبرة لغيرهم ممن يحاول السير على منوالهم. وما نزل بهم حلّ بغيرهم من بني ثعلبة وبني محارب من القبائل الغطفانية التي حاولت الهجوم على المدينة المنورة كذلك فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأس سبعمائة مقاتل فساروا حتى نزلوا ديار العدو فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة، فأخذوهن، فبلغ الخبر رجالهن فخافوا وتفرّقوا في رؤوس الجبال، ورجع المسلمون معزّزي الجانب، وعرفت هذه الغزوة بغزوة ذا الرقاع[1].

ثم جاء دور بني المصطلق؛ إذ إنها كانت ضمن كتلة الأحابيش التي انضمت إلى جانب قريش في معركة أحد، ثم أخذت بعد رجوعها من معركة أحد تعد العدة وتجمع الجموع، وتقتني السلاح والخيل، على مدى سنتين، كان المسلمون خلال تلك الفترة يواجهون تحركات قبائل الجزيرة، فهم ما بين سرية وغزوة.

فانتهزت قبيلة بني المصطلق فرصة انشغال المسلمين ببقية القبائل، فأخذت تجمع الجموع، وتسعى في القبائل المجاورة لها، تحرّضها وتشجّعها على الانضمام معها في الهجوم على دولة الإسلام.

ولما وصل خبرهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قدّر للموقف قدره، وجعل يفكّر في مواجهة هذه القبيلة التي استعدت للمعركة استعداداً كاملاً، فبدأ بمراقبة حركات هذا العدو مراقبة شديدة، ثم أمر بريدة بن الحصيب بالذهاب إليهم ليعرف وجهتهم وقوّتهم، فخرج مسرعاً حتى وصل عندهم فوجدهم قوماً مغرورين بأنفسهم وبما لديهم من القوة قد ألّبوا القبائل وجمعوا الجموع، فاتصل برئيسهم الحارث بن أبي ضرار، فسأله الحارث: "من الرجل؟" قال: "رجل منكم قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فتكون يدنا

(١) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ٦٩.

واحدة، حتى نستأصله"، فازداد فرح القوم بانضمام قوة جديدة إلى قوتهم، فقال له الحارث: "فنحن على ذلك فعجّل علينا"، قال بريدة: "أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني فسرّوا بذلك منه فمضى إلى المدينة وأخبر المسلمين بأمرهم[1].

وبعد أن تأكد الحبيب محمد من هذه الأنباء شرع في تجهيز الجيش لمقاتلة بني المصطلق ودفع أذاهم، وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة [2] خرج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة في سبعمائة مقاتل، وثلاثين فارساً متوجهاً إلى بني المصطلق [3] ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري ومسلم[4]، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغار عليهم وهم غارون - أي غافلون - وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[5].

وعاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغزوة إلى المدينة هلال رمضان، بعد أن غاب عنها ثمانية وعشرين يوما [6].

ولما قسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية،، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري، فكاتبها على نفسها، فأتت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تستعينه في كتابتها، وكانت بركة على قومها فتقول السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (لما

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد، ٢/ ٦٣، ومغازي الواقدي، ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥، وشرح المواهب اللدنية، ٢/ ٩٦، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ٧١.

(٢) ابن كثير - البداية، ٣/ ٢٤٢، ٤/ ١٥٦ وهذا هو الراجح حكاه موسى بن عقبة عن الزهري وعن عروة، وتابعه أبو معشر والواقدي وابن سعد، انظر ابن حجر فتح الباري ٧/ ٤٣٠، مغازي ١/ ٤٠٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٦٣، البيهقي - السنن ٩/ ٥٤، ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ١٢٥، الذهبي، تاريخ الإسلام ٢/ ٢٧٥.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام (المغازي)، ١/ ٢٣٠، الواقدي، مغازي ١/ ٤٠٤.

(٤) البخاري، الصحيح ٣/ ١٢٩، مسلم، الصحيح ٥/ ١٣٩.

(٥) الواقدي، المغازي ١/ ١٤٠، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٦٤ ويذكر الواقدي أن الغنائم كانت ألفي بعير وخمسة آلاف شاة، وأن السبي كان مائتي أهل بيت. وأورد الزرقاني رواية له أن السبي أكثر من سبعمائة، شرح المواهب اللدنية ٣/ ٢٤٥.

(٦) الواقدي، مغازي ١/ ٤٠٤.

قسم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة [1] لايراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ماهو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها مارأيت، فدخلت عليه فقالت: يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء مالم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «**فهل لك في خير من ذلك؟**» قالت: وماهو يارسول الله؟ قال: «**أقض عنك كتابك وأتزوجك**»، قالت: نعم يارسول الله قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تزوج جويرية بنت الحارث. فقال الناس: أصهار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة [2] أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة

---

(١) ملاحة: بضم الميم وتشديد اللام أي شديدة الملاحة، وهو من أبنية المبالغة، انظر غريب الحديث لابن الأثير ٤/ ٣٥٥. وكنّت به عائشة عن جمالها، وكانت جويرية قبل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت مسافع بن صفوان المصطلق ذي الشفر بن سرح بن مالك ابن جذيمة، فقتل يوم المريسيع. انظر طبقات ابن سعد، ٨/ ١١٦، وأسد الغابة لابن الأثير، ٧/ ٥٦، والإصابة لابن حجر، ٤/ ٢٦٥. وعند ابن إسحاق كانت تحت ابن عم لها يقال له: ابن ذي الشفر انظر سيرة ابن إسحاق المسماة المبتدأ والمبعث والمغازي، ١/ ٢٤٥، والإصابة لابن حجر، ٤/ ٢٦٦.

وكانت وفاتها سنة ٥٦ المصادر السابقة. وهي التي روت حديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها" قالت: نعم، يا رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم، لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلمات" انظر صحيح مسلم ٨/ ٨٣، كتاب الذكر والدعاء وهو من رواية عبد الله بن عباس عنها. قال الذهبي في تجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٧١ جويرية التي قال لها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت" ... إلخ.

(٢) (مئة أهل بيت) قال صاحب عون المعبود: "كذا بالإضافة أي مئة طائفة كل واحدة منهن أهل بيت، ولم تقل مائة هم أهل بيت لإيهام أنهم مائة نفس كلهم أهل بيت وليس مراداً،

أعظم بركة على قومها منها[1].

وهكذا كان زواج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جويرية بركة على قومها وعزا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلي بعض الحكمة في زواجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها.

وتعتبر غزوة بني المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكريمهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحب النبوي هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ.

لقد كان زواج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جويرية بنت الحارث له أبعاده وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام وهذه مصلحة إسلامية بعيدة يسر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معاً للإسلام والمسلمين[2].

وقد حاول المنافقون [3] في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار،

وقد روى أنهم كانوا أكثر من سبعمائة قاله الزرقاني". عون المعبود، ١٠/ ٤٤٤، وانظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني، ٣/ ٢٤٥.

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٦١، ١٦٠.

(٢) د. محمد فيض الله، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٩٩ - ١٠٠.

(٣) النفاق لغة: ضرب من التمويه والستر والتغطية، وحقيقته: إظهار شيء وإبطان ضده. مشتق من النافقاء أحد جحرة، اليربوع، يكتمها ويظهر غيرها، فإذا طلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه، وشرعا: هو إظهار الإيمان وستر الكفر.

واليربوع: حيوان طويل الرجلين قصير اليدين جدا، وله ذنب كذنب الجرذ، يسكن باطن الأرض، وتسمى حفرته النافقاء والقاصعاء والراهطاء، فإذا طلب من إحدى هذه الفتحات خرج من الأخرى، وظاهر بيته تراب وباطنه حفر، وكذلك المنافق: ظاهره إيمان

وكان قد خرج في هذة الغزوة عدد كبير من المنافقين مع المسلمين وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعاً في الغنيمة[1]، وهؤلاء قد ساءهم كثيرا ما تحقق للمسلمين من نصر وغنائم في هذه الغزوة وسعوا إلي إفساد فرحة المسلمين وعمدوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، يقول جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: غزونا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ثاب[2] معه ناس من المهاجرين، حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب[3]، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية**»، ثم قال: «**ما شأنهم؟**» فأخبر بكسعة المهاجري، الأنصاري، قال: فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوها فإنها خبيثة**»، وقال عبد الله ابن أبي ابن سلول: "أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل"، فقال عمر: "ألا نقتل يا رسول هذا الخبيث" لعبد الله، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه**»[4].

ويقول زيد بن أرقم عن ذلك: كنت في غزاة[5] فسمعت عبدالله بن أبي يقول: لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذلَّ، فذكرت ذلك لعمي[6]، فذكره للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ماقالوا. فكذبني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ

وباطنه كفر. انظر المصباح المنير، ١/ ١٠٠، حياة الحيوان، للدميري، ٢/ ٤٣٥.

(١) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول، ١/ ٣١٨.

(٢) ثاب معه: أي اجتمع.

(٣) رجل لعاب: أي بطال، وقيل كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وهو جهجاه ابن قيس الغفاري، فتح الباري ٦/ ٥٤٦ وسماه ابن إسحاق: جهجاه بن مسعود. وكان جهجاه من المتألبين على عثمان بن عفان وأنه قام إلى عثمان وهو على المنبر فأخذ عصاه وكسرها فما حال عليه الحول حتى أرسل الله في يده الأكلة فمات منها، هكذا نقل ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٥٣.

(٤) البخاري ٤/ ١٤٦ - ١٤٧، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.

(٥) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.

(٦) يريد بعمة سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.

الْـمُـنَافِقُونَ قَالُـوا نَـشْهَدُ إِنَّـكَ لَرَسُـولُ الله والله يَعْلَـمُ إِنَّـكَ لَرَسُـولُهُ والله يَـشْهَدُ إِنَّ الْـمُنَافِقِـينَ لَكَاذِبُـونَ﴾ [المنافقين: ١] فـبعث إلى رسـول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقـرأ، فقال: «**إن الله قد صدقك يازيد**» [(١)].

وعـند ابـن إسـحاق قـال: "فبيـنا رسـول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على ذلك الماء[(٢)] وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له، من بني غفار يقال له جهجاه بـن مـسعود يقـود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بـن الخـزرج علـى المـاء، فاقتـتلا، فـصرخ الجهـني: يا معشر[(٣)] الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قـومه، فـيهم: زيـد بـن أرقـم غـلام حـدث، فقـال: "أو قـد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب[(٤)] قريش إلا كما قال الأول[(٥)]: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، ثم أقبل علـى مـن حضره من قومه، فقال لهم: "هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموه بلادكم، وقاسمـتموه أمـوالكم، أمـا والله لـو أمـسكتم عـنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم"، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك عند فـراغ رسـول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مـن عـدوه، فأخـبره، وعـنده عمر بن الخطاب، فقـال: "مـر بـه عباد بن بشر فليقتله"، فقال له رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فكيف يـا عمـر إذا تحـدث الـناس أن محـمدا يقـتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل**»، وذلـك سـاعة لم يكـن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مـشى عـبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حين بلغه أن زيد

---

(١) البخاري، الفتح ٨ (٤٩٠٠) واللفظ له. ومسلم (٢٧٧٢) نحو حديث البخاري.

(٢) هو ماء المريسيع.

(٣) معشر: كمسكن: الجماعة وأهل الرجل. القاموس المحيط، ٢/ ٩٠.

(٤) جلابـيب: لقـب لمـن أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأزر الغلاظ، كانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

(٥) كمـا قـال الأول: سـمـن كلـبك يأكلك، وعند الطبري كما قال القائل، وهو مثل من أمثال عـرب، وأول مـن قالـه: حازم بن المنذر الحماني، وذلك أنه مر بمحلة همدان فوجد غلاما ملفـوفا في ثـوب، فـرحمه وحمله معه وقدم به منزله وأمر أمة له أن ترضعه حتى كبر وراهق الحلم، فجعله راعيا لغنمه وسماه جحيشا، وكان لحازم ابنة يقال لها: راعوم فهويت الغلام وهـويها وانتـبه حـازم لهـذا فترصد لهم حتى عرف الحقيقة ووجدهم على الفاحشة، فقال: سمـن كلبك يأكلك، فأرسلها مثلا وشد على جحيش ليقتله ففر ولحق بقبيلته، انظر مجمع الأمثال للميداني، ١/ ٣٣٣. ورقم المثل (١٧٨٧).

بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال: ولا تكلمت به - وكان شريفا عظيما - فقال من حضر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنصار من أصحابه: "يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل"، حدبا[1] على ابن أبي ابن سلول، ودفعا عنه، فلما استقل رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسار لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: "يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة مبكرة، ما كنت تروح في مثلها"، فقال له رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟**» قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: «**عبد الله بن أبي**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**»، قال: فأنت يا رسول الله، والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: "يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا". ثم مشى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذنهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، إلى أن قال: "وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه"، فقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت[2] له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**».

قال: قال عمر: "قد والله علمت لأمر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري"[3].

وهكذا قضى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الفتنة التي كادت تفكك وحدة المسلمين وتمزق شملهم وتجعلهم شيعا وأحزابا، فتقر بذلك أعين المنافقين وأعداء الدين، لكن الإيمان الذي ربى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه عليه، كان أقوى من مكيدة المنافقين، فما أن سمع المسلمون كلام الرسول

---

(١) حدبا على ابن أبي: أي عطفا عليه.
(٢) لأرعدت له آنف: أي انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.
(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمرهم بترك دعوى الجاهلية، حتى خمدت الفتنة التي أوقد المنافقون نارها، ثم اتخذ الرسول الكريم التدابير التي تقضي على آثارها وتعيد الإخاء والمودة إلى نفوس المسلمين.

والحكمة ظاهرة من أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحيل في وقت غير معتاد، وهي أن ترك مثل هذا الخبر ينتشر في الجيش يسبب بلبلة في الأفكار، ويثير القيل والقال مما ويصرف أذهان الجند الإسلامي إلى مهاترات كلامية، لا تحمد عقباها، فكانت مسيرة الجيش المتصلة ليلا ونهاراً، مما أجهدهم، حتى وقعوا نياما، فمسح النوم العميق بعد النصب الشديد آثار الفتنة.

وهذا منهج في سياسة الأمور ينبغي أن يسلكه القادة الراشدون في كل زمان ومكان[1].

وقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن بن أبي سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنّفونه، ويعرضون قتله على النبي، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: (كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم لقتلته!!) فقال عمر قد - والله - علمت لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري[2].

وكان لابن أبي بن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله فقال له: (يارسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ماكان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل نترفق به ونحسن صحبته مابقي معنا**»[3].

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة راجعين وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبو عبد الله ابن

(١) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ١٩٠.
(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣.
(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣.

أبـي ، قال له ابنه وراءك؟ فقال: مالك ويلك؟ فقال: "والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه العزيز وأنت الذليل"، فلما جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله: "والله يـا رسـول الله لا يدخلـها حتـى تـأذن لـه"، فـأذن لـه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "أما إذا أذن لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجز الآن"[1] .

وهـنا يـبرز لـنا موقفا صلبا قويا من مواقف العقيدة الإسلامية إذا تمكنت من قلـب المسلم ورسخت فيه ، ذلك لأن بناء الشخصية الإسلامية على هذه العقيدة يخـرج للبـشرية نمطا فريدا من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البـشر في أعـرافهم وتقاليدهـم ومذاهبهم الاجتماعية ، وتكون الآصرة الوحيدة في حـياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها ، ومن هنا نفهم ما ورد في التاريخ الإسلامي مـن رسـوخ المسلم وثباته في وجه أبيه وأخيه الكافرين ولو أدى به ذلك إلى قتلهما ، لأن أغلـى شـيء يملكـه المـسلم هو عقيدته ، فإذا وقف في سبيل الدعوة إليها عرف اجتماعي أو رابطة قبلية أو مذاهب تقليدية ، تحداها المسلم بعزم وإصرار .

ومـن ذلـك هـذا الموقـف المشرف الذي وقفه عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبـيه عـبد الله بـن أبـي ابـن سـلول ، حتـى وصـل بـه الأمـر إلى مراودة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستئذانه في قتله إن كان يحب ذلك .

ولـيس في الدنـيا مـذهب يخلق هذا النوع الفريد من التفاني في سبيل المبدأ أو العقـيدة وتلك معجزة عقيدة الإسلام التي يفتقر إليها الناس في كل زمان ومكان ، وهـي وحـدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها فما أحوجها إلى مثل هذا الغـرس الطـيب لينـشأ جيل فريد في تصوره الإسلامي ، وسلوكه العملي في واقع الحـياة ، لانتـشال شـباب الأمـة الإسـلامية مـن وهـده الـضلال إلى قمـة العقيدة الإسلامية واستعلائها: ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

ويـدل لهذا قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَانُـوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْـنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَـنْهُمْ وَرَضُـوا عَـنْهُ أُولَـئِكَ حِـزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِـزْبَ الله هُمُ الْـمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

(١) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٣٧٢ ، وتاريخه ، ٤/ ١٥٨ .

قال ابن كثير: "قوله: ﴿وَلَو كَانُوا آبَاءَهم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهَم﴾ نزلت في أبي بكر الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُم﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُم﴾ في عمر بن الخطاب قتل قريبا له يومئذ.

وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا: عقبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ وهو من عشيرتهم"[1].

وفي أعقاب غزوة بني المصطلق نزلت سورة المنافقون حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة المنافقون)[2].

فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الإنشغال بزينة الدنيا ومتاعها وحثت على

وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم بالإشراف على ذلك.

إن معالجة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلك السموم التي نفثها المنافقون في ساحة الجيش الإسلامي، ابتغاء تمزيق وحدته وتفريق كلمته، لتدل دلالة واضحة على أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محاط بالعناية من الله عز وجل وعلى أنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣ - ٤].

لقد كان ما تفوه به ابن أبي من الكلام البذيء مسوغا كافيا لقتله، وإراحة الناس من شره، ولكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعد نظره وتوفيق الله له، رأى أن المصلحة تقتضي التسامح والصفح عنه، فقابل تلك الأذية والقول اللاذع بصدر رحب وقلب واسع، فقد ضاقت نفس عمر بن الخطاب ذرعا بهذا المنافق ووسعه حلم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفحه الجميل عمن أساء إليه، يوضح ذلك ما ورد من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال له عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال: «**كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**».

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٢٩، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ١٩٥.
(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المنافقون، ٥/ ٤١٥.

ولكن أذن بالسير فسار بالناس في ساعة لم يعهد له أن يسير في مثلها، وأمر بالسير المتواصل حتى لا يتمكن المنافقون من التجمع والخوض في حديث ابن أبي وترويجه بين الناس.

ولقد توقع الناس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيعاقب المنافقين على سوء صنيعهم وعلى الأقل بقتل رأس الفتنة ابن أبي ولكن لم يقع شيء من هذا كله، ولقد جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: "يا رسول الله إن كنت أمرت بقتل والدي فأنا الذي آتيك برأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار"، فكان الجواب النبوي: «**بل نترفق ونحسن صحبته ما بقي معنا**»[1].

لقد كان من آثار هذه المعاملة الحسنة أن قوم عبد الله بن أبي ابن سلول هم الذين أخذوا يعنفونه ويفضحون أمره ويأخذون على يديه، ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا من فعلهم مع ابن أبي أرسل إلى عمر بن الخطاب فقال له: «**كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**»، قال عمر بن الخطاب: "قد علمت والله لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري"[2].

وبعد أن فشل كيد المنافقون في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية حاكوا حادثة الإفك. وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحهما وهذا سياق القصة من صحيح البخاري.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[3] فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مانزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي[4] وأنزل فيه، فسرنا حتى

---

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣.
(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣.
٣) هي غزوة بني المصطلق.
(٤) الهودج: مركب النساء. انظر القاموس المحيط، ١/ ٢١٢. وفي فتح الباري، ٨/ ٤٥٨.
الهودج: بفتح الهاء والدال بينهما واو ساكنة وآخره جيم: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع على ظهر البعير يركب فيه النساء ليكون أستر لهن.

إذا فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار[1] قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط[2] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما نأكل العُلْقة[3] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأقمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج[4] فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[5] حين عرفني فخمرت[6] وجهي بجلبابي والله ماكلمني كلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[7] في نحر الظهيرة[8] فهلك من هلك، وكان

---

(١) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ١/ ٢٦٩، والقاموس المحيط، ٣/ ١٢، وشرح مسلم للنووي، ٥/ ٦٣٠، وفتح الباري، ٨/ ٤٥٩.

(٢) الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أرهط وأرهاط وأراهط جمع الجمع. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٢٨٣. وقال ابن حجر: "لم أعرف منهم هنا أحدا إلا أن في رواية الواقدي أن أحدهم أبو موهوبة مولى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعند البلاذري: شهد أبو مويهبة غزوة المريسيع وكان يقود بعير عائشة، وكان من مولدي مزينة، وكأن الأصل أبو موهوبة ويصغر فيقال: أبو مويهبة". فتح الباري ٨/ ٤٥٩. وانظر مغازي الواقدي ٢/ ٤٢٦ وأنساب الأشراف للبلاذري ص ٤٨٨.

(٣) العلقة: بضم المهملة وسكون اللام من الطعام: أي البلغة منه، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٣/ ٢٨٩.

(٤) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل.

(٥) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) فخمرت: أي غطيت.

(٧) موغرين: الوغرة: شدة الحر.

(٨) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.

الـذي تولى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول، وقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شـهراً والـناس يفيـضون في قـول أصـحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يـريبني[1] إنـي لا أعرف من رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللطف الذي كنت أرى منه حـين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسلم ثم يقول: «**كيف تـيكم؟**»[2] ثم ينصرف، وذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت[3] فخـرجت معـي أم مسطح قـبل المناصـع[4] وهـو متبرزنا وكنا لانخرج إلا لـيلاً إلى لـيل وذلـك قبل أن نتخذ الكنف[5] قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التـبرز قـبل الغـائط فكـنا نـتأذى بالكـنف أن نـتخذها عـند بيوتـنا، فانطلقـت أنـا وأم مـسطح[6] وهـي ابنة أبـي رهـم بـن عـبد مناف، وأمها بنت صـخر بـن عامـر خالـة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة[7] فأقبلت أنا وأم مـسطح قـبل بـيتي قـد فـرغنا مـن شـأننا فعثـرت أم مـسطح في مرطها[8] فقالت: تعـس مـسطح فقلـت لهـا: بئس ماقلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟[9] قالت: أي -

---

(١) يريبني: يشككني.

(٢) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل ذاكم للذكر.

(٣) نقه المريض من باب طرب وخضع إذا برأ وأفاق وكان قريب العهد بالمرض، ولم يرجع إليه كمـال صـحته وقـوته. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٥/ ١١١، والقاموس المحيط ٤/ ٢٩٤، ومخـتار الـصحاح، ص ٦٧٨. وعـند ابـن إسحاق حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة. سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٩.

(٤) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة.

(٥) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.

(٦) قـال ابـن عـبد الـبر: اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم وهي ابنة خالة أبي بكر الصديق. وقيل - أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف - وأمها ريطـة بـنت صـخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق. والظاهر أنها سلمى بنت أبي رهم بن المطلـب بن عبد مناف، واسم أبي رهـم أنيس مكبرا لا سلمى بنت صخر فإن هذا نسب أم أبي بكر الصديق خالة أم مسطح وهي سلمى بنت صخر بن عامر... إلخ.
ووالـدة أم مـسطح اسمهـا ريطـة بـنت صـخر بن عامر بن سعد بن تيم، وقال ابن حجر: رائطـة حكـاه أبـو نعيم. انظـر الاسـتيعاب، ٣/ ٤٩٤، وطـبقات ابـن سـعد، ٨/ ٢٢٨ و٣/ ٥٣ و١٦٩، وأسـد الغابـة لابـن الأثـير، ٤/ ٣٠٨ و٥/ ١٥٦ و٧/ ٣٢٦ و٣٩٣، وفتح الباري، ٨/ ٤٦٥.

(٧) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، توفي في خلافة عثمان.

(٨) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت.

(٩) فهـي منقـبة عظـيمة لمـن شهد بدرا، ويزيد ذلك وضوحا قصة حاطب بن أبي بلتعه عندما

هنتاه[1] أولم تسمعي ماقال قلت: وماقال . فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي قالت فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعني فسلم - ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه مايتحدث الناس؟ قالت: يابنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[2] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها[3] قالت: فقلت سبحان الله لقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لايرقأ لي دمع[4] ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين استلبث[5] الوحي يستأمرهما في فراق أهله ، قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم من الود فقال: يارسول الله أهلك ومانعلم إلا خيراً ، وأما علي بن أبي طالب فقال: يارسول الله لم يضيق الله عليك النساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، قالت: فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريرة فقال: **«أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟»** قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمضه عليها[6] أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[7] فتأكله فقام رسول الله فاستعذر[8] يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول الله

كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يغزوكم في عام فتح مكة ، وكشف أمره واعتذر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صنع" وفيها فقال عمر: "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا ، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". البخاري ٥/ ١١٩باب غزوة الفتح .

(١) هنتاه: يابلهاء كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم .

(٢) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة .

(٣) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها .

(٤) لا يرقأ لي دمع: لاينقطع ولا يسكت .

(٥) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر .

(٦) أغمضه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه .

(٧) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم .

(٨) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كفأته على سوء صنيعه .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبر[1]: «**يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ماعلمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً[2] ماعلمت عليه إلا خيراً، وماكان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يارسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية [3] - فقال لسعد: كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان[4] الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي لايرقأ لي دمع ولاأكتحل بنوم، قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ ماقيل قبلها، وقد لبث الوحي شهراً[5] لايوحى إليه من شأني قالت: فتشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جلس، ثم قال أما بعد: «**يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا[6] فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**» فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته قلص[7] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عني فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول

---

(١) المنبر: المراد به هنا الذي اتخذ في السنة الثانية، وكان من الطين وأما الذي اتخذ من خشب إنما كان في السنة الثامنة، وغزوة بني المصطلق كانت في الخامسة أو السادسة. السيرة الحلبية ٢/ ٣١٨.

(٢) هو صفوان بن المعطل السلمي.

(٣) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.

(٤) فتشاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية.

(٥) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.

(٦) كناية عما رميت به من الأفك.

(٧) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.

لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم بأمر، والله يعلم أني منه لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتصدقن، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[1] قال: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وإن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ن قالت: فوالله ما رام[2] - رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[3] حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان[4] من العرق، وهو يوم شات من ثقل القول الذي يتنزل عليه، قالت فلما سري[5] عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك**» فقالت أمي: قومي إليه، قالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل، وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ * لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمَ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ واللهُ

---

(١) هو يعقوب عليه السلام.
(٢) مارام: مابرح ومافراق مجلسه.
(٣) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.
(٤) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.
(٥) سري: انكشف عنه مايجده من الهم والثقل.

عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢٠]، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل زينب بنت جحش[١] عن أمري، فقال: «**يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟**»، فقالت: يارسول الله أحمي[٢] سمعي وبصري، وما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني[٣] من أزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعصمها الله[٤] بالورع[٥] وطفقت[٦] أختها حمنة[٧] تحارب لها، فهلكت ممن هلك من أصحاب الإفك[٨].

هذا وقد بينت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب - ماعدا ابن أبي - وقد اعتذر حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي أهل له[٩]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ::: من المحصنات غير ذات غوائل
وإن لهم عزاً يرى الناس دونه ::: وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فكيف وودّي ماحييت ونصرتي ::: بك الدهر بل قيل امرئ متناحل
فإن كنت أهجوكم كما بلّغوكم ::: فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
وإنّ الذي قد قيل ليس بلائق ::: لآل رسول الله زين المحافل

---

(١) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته رضي الله عنها.
(٢) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
(٣) تسامين: أي تعاليني وتفاخرني أي تطاولني عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٤) عصمها: حفظها ومنعها.
(٥) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.
(٦) طفقت: شرعت.
(٧) حمنة بنت جحش بنت عمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي أخت زينب رضي الله عنهم.
(٨) البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ (٦/٦) رقم ٤٧٥٠.
(٩) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٢٦٣.

حــــصان رزانٌ ماتـــزن بـــريبة ::: قـصاراً، وطـال العزّ كل التطاول[1]

لقـد كـان في هـذه الغـزوة من العبر والعظات الكثير، التي لا يمن المرور إلي غيرهـا دون ذكـرها، فكانـت الحكمة في زواج الرسول ﷺ من جويرية تتجلـى في مـوقفها أمـام رسول الله ﷺ تذكر ما آل إليه أمرها وما تجده مـن المـرارة والأسـى علـى ما حل بقومها لأنها لا تعرف الذل والهوان، فهي ابنة سـيد قـومه، وقد رزئت بكارثة عظمى، فقتل زوجها ومقاتلة قومها وسبي النساء والذريـة، ووقعـت تحت ذل الرق والعبودية، فكاتبت على نفسها لتظفر بحريتها، ولكـنها عجـزت عـن أداء كتابـتها فجـاءت إلى رسـول الله ﷺ تـسأله المواسـاة والمـساعدة علـى أداء كتابـتها، فـوقفت أمامـه تعرفه بنفسها ومكانتها في قـومها، فقالـت: "يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقـد أصـابني مـن الـبلاء مـا لم يخـف علـيك، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك، أستعينك على كتابتي"، فرق رسـول الله ﷺ لحالهـا وعـرض علـيها أن يؤدي عنها كتابتها ويتزوجها ليرفـع من شأنها ويعوضها خيرا مما فقدته من العز والشرف والسنا لأن بقاء مثلها عـند أحـد أفـراد الجـيش ممـا يـزيد الأسـى في نفـسها، ومـن ناحـية أخرى ليعيد ﷺ إلى قومها العزة والكرامة، فكان زواجه ﷺ منها سببا في إطلاقهـم مـن قيود الأسر، وقد وقع ما أراده ﷺ فما أن تزوج جويرية حتـى تـسامع المـسلمون بـذلك، ففكـوا جمـيع الأسـرى الـذين بأيـديهم مـن بني المـصطلق، وقالـوا: "أصهار رسول الله ﷺ"، وعادت الحرية إلى القبيلة بأكملها وصاروا محل عناية واحترام عند المسلمين.

وهكـذا كـان زواج رسـول الله ﷺ مـن جويـرية بركة على قومها وعـزا لهـا ورفعـة لقـومها مـن الهـوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلي بعض الحكمة في زواجه ﷺ منها [2].

ولقـد كانت قصة الإفك فريدة في نوعها وضخامتها عن جميع المحن والمصائب الـتي واجههـا رسـول الله ﷺ في هـذه الغزوة وفي غيرها. لأن الرسول ﷺ كـان قـد وطن نفسه لمواجهة كل بلية أو أذى يقوم به المنافقون لأنه علـى علم وبصيرة نافذة بمكايدهم وخستهم، إلا أنه لم يكن يتوقع منهم النيل من

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٢٨١.
(٢) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ٣٥١.

عرضه ورميه في أحب الناس إليه ، لذا كانت حادثة الإفك لها أثرها ووقعها الثقيل على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، لقد جاءت هذه القصة تحمل في طياتها إبراز بشرية الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، وأنه يتأثر كغيره من بني الإنسان ، وأنه لا يعلم الغيب وإنما الغيب لله وحده ، إذ لو كان يعلم الغيب لجزم ببراءة ساحة أهله وكذب المفترين لأول وهلة ، وأراح نفسه ، وأراح غيره .

ولكنه مكث أكثر من شهر في قلق دائم والناس يموجون ويخوضون في ذلك ، وهو لا يزيد على أن يشاور أصحابه وأتباعه في شأن أهله ، ويطلب من ينجده بإيقاف هذا الحادث الأليم ، ثم في آخر المطاف يذهب إلى زوجه يقول لها: «**يا عائشة لقد سمعت ما يقول الناس، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده**» .

لقد كان هذا كله حاسما لما يخشى أن يقع فيه بعض المسلمين فيرفعون رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فوق منزلته التي أنزله الله إياها ويدعون له ما لم يدعه لنفسه ، فكانت هذه الواقعة واضحة الدلالة على مشاركة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ غيره في البشرية ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه . وقد أوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً** ﴾ [الجن ، الآيتان: ٢٧] .

وقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقوله: ﴿ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٨] . (١)

إن قصة الإفك كان من نتائجها البيان القاطع بأن الوحي ليس خاضعا لأمنية الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإرادته ، إذ لو كان لأمر كذلك ، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة منذ نشأتها وطفولتها ، ويريح نفسه من ويلاتها ونتائجها . وذلك بأن يأتي بقرآن يبرئ به أهله ويطمئن به أصحابه ، ويسكت به أهل القيل والقال ، لأنه كان يعلم من أهله الاستقامة والبعد عن هذه الجريمة الشنعاء ولكنه لم يفعل ذلك لأنه لا يملكه وإنما الوحي بيد الله وحده . وقد نفى الله عنه ذلك في أحد مواقفه مع المشركين .

(١) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص ٣٥٤ .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وظل شهرا كاملا يحمل بين جنبيه الألم الشديد، من جراء هذه الكارثة الفادحة ويصبر نفسه على ذلك ويطلب الفرج من الله عز وجل.

وكان من تمام الحكمة الإلهية أن تأخر عنه الوحي هذه المدة كلها ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

قال ابن القيم: "واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس الوحي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرا، لا يوحى إليه في ذلك شيء، وذلك لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته، والصديقين من عباده.

ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا، ويظهر لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين سرائرهم إلى أن قال: فكان من حكمة حبس الوحي شهرا، أن القضية نضجت، وتمحصت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه المؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض، أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع، وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها"[(١)].

وعن الحكمة في كون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يجزم ببراءة أهله كما جزم غيره من الصحابة[(٢)]، قال ابن القيم: "كان هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببا لها وامتحانا وابتلاء لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولجميع الأمة إلى

---

(١) زاد المعاد، ٢/ ١٢٧.

(٢) مثل ما قال أبو أيوب وزوجه ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم.

يوم القيامة ، ليرفع بهذه القصة أقواما ، ويضع آخرين ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا . . . " إلى أن قال: " وأيضا فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان هو المقصود بالأذى والتي رميت زوجته ، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها ، ولم يظن بها سوءا قط ، وحاشاه وحاشاها ، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك ، قال: «**من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**» فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين ، ولكن لكمال صبره وثباته وحسن ظنه بربه ، وثقته به ، وفىَّ مقام الصبر والثبات وحسن اعتناؤه بشأنه .

وأيضا: فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه ، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه ، والرد على أعدائه ، وذمهم وعيبهم ، بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي لذلك[1] .

* * * * *

(١) زاد المعاد ، ٢/ ١٢٧ .

الفصل الخامس:
غزوة الأحزاب [الخندق]

غزوة الأحزاب [الخندق]:

كانت تحركات المسلمين المتواصلة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتحديهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، وكذلك إجلاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع يهود بني قريظة بهدف اجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة. كما أن الحسد والحقد قد تمكنا من قلوب يهود بني النضير بعد إجلاءهم من المدينة، مما جعلهم يضمرون العداء ويتحينون الفرص للتشفي ممن طردهم - وما طردهم إلا بسبب ما ارتكبوه ضد المسلمين - أو التحريش ضده وكانوا لا يستطيعون تنفيذ الأول وهو التشفي وحده، وهذا طبعهم الذي أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في أكثر من آية منها على سبيل المثال قولهم لنبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بجلاء على جبنهم، وخبث نفوسهم، وعلى عدم طاعتهم لنبيهم بعكس أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كان حسناً ما أجاب به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوم بدر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استشارهم في قتال كفار قريش حيث كان آخر ما قالوه "فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصُبُرٌ في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله"[(١)].

وعندما لم يستطع يهود خيبر - وخاصة بني النضير[(٢)] - مجابهة المسلمين لجؤوا إلى الأسلوب الثاني وهو أسلوب المكر والتحريش فقد روى ابن إسحاق قال: كان من حديث الخندق[(٣)] أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري،

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٨ - ٣٩، والسيرة النبوية، ٢/ ٦١٥، صحيح البخاري مع الفتح، ٧/ ٢٨٧ كتاب المغازي.

(٢) ذلك لأنهم خسروا الكثير من مناطق نفوذهم وسلطانهم فهم موتورون، وأكثر حقداً وتحمساً من غيرهم.

(٣) الخندق: حفير حول أسوار المدن معرب (كندة) وهي الحفرة، وخندق حفرة. ترتيب القاموس، ٢/ ١١٦.

وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: "إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله" فقالت لهم قريش: "يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟" قالوا بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥٠][(١)].

قال ابن إسحاق: "فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان[(٢)] فدعوهم إلى حرب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه[(٣)].

لذلك قال أبو الحسن الندوي: وتمت الاتفاقية العسكرية والتي كان قريش وغطفان واليهود من أهم أعضائها واتفقوا على شروط من أهمها:

١ - أن تشارك غطفان في جيش الاتحاد بأكبر عدد ممكن.

٢ - أن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل تمر خيبر لسنة كاملة.

---

(١) انظر ذلك في السيرة النبوية، ٢/ ٢١٤ - ٢١٥، والبداية والنهاية، ٤/ ٩٤، وتاريخ الطبري، ٢/ ٥٦٥، والطبقات الكبرى، ٢/ ٦٥، وعيون الأثر، ٢/ ٥٥.

(٢) غطفان بن سعد بطن عظيم متسع كثير الشعوب والأفخاذ من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيئ ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية، واستولت عليها قبائل طيئ، وتنقسم إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة هي: أ - أشجع بن ريث بن غطفان .ب - عبس . ج - ذبيان.
وقد حاربوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الخندق، وجاءوا من بلادهم لذلك وكانوا أكثر الجموع في الأحزاب ثم ارتدوا بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحاربهم أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وبعث إليهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فقتل منهم كثيراً وتشتت شملهم.
معجم قبائل العرب، ٣/ ٨٨٨، والمعارف لابن قتيبة، ص ٨٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٣/ ٢١٤، وسائر كتب المغازي.

وأسندت قيادة الجيش لأبي سفيان بن حرب[1].

تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في تحديد زمن هذه الغزوة وانحصرت أقوالهم فيها فيما بين السنة الرابعة والخامسة للهجرة النبوية الشريفة، غير أن جمهور أهل السير والمغازي اتفقوا على غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة[2].

الدوافع والأسباب التي دعت إلى تكتل الأحزاب:

إن الحقد الذي تمكن في قلوب اليهود على البشرية عامة وعلى المؤمنين خاصة قديم يرافق هذا الحقد عناد وصلف وكبرياء. ذلك الحقد الذي أعمى قلوبهم وأحرقها وشتت شملهم في الدنيا حيث نفاهم ﷺ من المدينة وذلك بقوة الله التي تسانده حيث أخبر تعالى عن ذلك فقال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢].

فلما نفدت حيل اليهود وأصبح مكرهم مكشوفاً وعجزهم واضحاً لجؤوا إلى كفار قريش - ليدللوا بذلك على جبنهم وذلهم - لجأوا محرضين كفار قريش ليشنوا حرباً عامة على المسلمين في المدينة: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقد أعطوا العهود والمواثيق لكفار قريش أنهم سيكونون معهم محاولين بذلك تغطية الذلة والجبن الذي هو من أخلاقهم دائماً وأبداً.

وتكون الوفد من بني النضير ومن بني وائل، وحيكت المؤامرة في خيبر وانطلق بعدها الوفد يضم: سلام بن أبي الحقيق النضري - أبا رافع - وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري.

ومن بني وائل هوذة بن قيس الوائلي، وأبو عامر الوائلي، ووحوح بن عامر الوائلي كل هؤلاء توجهوا إلى مكة يرأسهم حيي بن أخطب الذي أعمى قلبه الحقد والحسد، وكان أهل مكة ينتظرون بفارغ الصبر من يشد من عزمهم

(١) السيرة النبوية للندوي، ص ١٩٨.
(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٩٣، صحيح البخاري، ٥/ ٤٤.

ويساعدهم على حرب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وسار الوفد حتى وصل مكة فسألهم أهلها: من أهدى أنحن أم محمد؟ وبينوا لهم صفة الطرفين قريش، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت صفة محمد التي عيب بها هي: أنه كان يعيب آلهتهم وينفرهم من عبادتها، ويدعوهم إلى عبادة الواحد القهار. فكان رد أولئك اليهود في صالح الكفار ولكن كان الفشل حليفهم حيث رد عليهم القرآن وذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١].

ثم ما لبثوا أن فاتحوهم في الموضوع الذي جاءوا من أجله فسر كفار قريش بذلك أكثر وأكثر ونشطوا له فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قيل إنهم أعطوهم تمر خيبر سنة كاملة مقابل ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم ضده. وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا فيه وأجابوهم.

وقد تقدم ذكر ذلك في حديث ابن إسحاق المتقدم(١).

مما سبق يظهر بوضوح أن هذا الوفد قد تكون في خيبر فعلاً وكان اليهود هم المتزعمين لذلك الموقف المخزي، وهو موقف لا يستغرب منهم فتاريخهم مليء بالكيد والدسائس لغيرهم عموماً ولأهل الإسلام خصوصاً.

دور المنافقين في هذه الغزوة:

وفي هذه الغزوة ظهر النفاق جليا حيث أظهر كثير من المنافقين العداء للإسلام مما زاد في تفاقم الأمر وخطورته.

وقد حكى لنا القرآن ذلك الخطر وتلك الشدة فقال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

فقد روى الطبراني عن ابن عباس قال: "احتفر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع فلما رأى ذلك رسول

(١) السيرة النبوية، ٢/ ٢١٤.

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هل دللتم على رجل يطعمنا أكلة؟**» قال رجل: نعم. قال: إمالا[1] فتقدم فدلنا عليه. فانطلقوا إلى رجل فإذا هو في الخندق يعالج نصيبه منه فأرسلت امرأته أن جيء فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أتانا فجاء الرجل يسعى فقال بأبي وأمي وله معزة[2]. ومعها جديها فوثب إليها فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الجدي[3] من ورائنا فذبح الجدي وعمدت امرأته إلى طحينة لها فعجنتها وخبزت وأدركت[4] وثردت فقربتها إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فوضع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبعه فيها فقال: «**بسم الله اللهم بارك فيها اطعموا**».

فأكلوا منها حتى صدروا[5] ولم يأكلوا إلا ثلثها وبقي ثلثاها فسرح أولئك العشرة الذين كانوا معه أن اذهبوا وسرحوا إلينا بعدتكم وجاء أولئك العشرة مكانهم فأكلوا منها حتى شبعوا ثم قام ودعا لربة البيت وسمت[6] عليها وعلى أهل بيتها ثم مشوا إلى الخندق. فقال: «**اذهبوا بنا إلى سلمان**» وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها" فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**دعوني فأكون أول من ضربها فقال: بسم الله فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة قال: الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة. فقال عندها المنافقون نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم**»[7].

عن الحسن في قوله تعالى: ﴿... **وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**﴾ [الأحزاب: ١٠]. قال

---

(١) قال في حاشية الصبان شارحاً لهذه الكلمة: "حذفت كان مع معموليها بعد أن في قولهم - أفعل هذا إمالا". أي إن كنت لا تفعل غيره فما عوض عن كان، ولا نافيه للخبر ومنه قوله:

أمرعت الأرض لو أن مالا
لو أن نوقا لك أو جمالا
أو ثلة من غنم إمالا

التقدير: إن كنت لا تجد غيره. حاشية الصبان، ١/ ٢٤٥.

(٢) المعزة: هي الأنثى الماعز. مختار الصحاح ٤٥٧.

(٣) الجدي: هو ولد المعزة.

(٤) أدركت: أي نضجت طحينتها.

(٥) صدروا أي شبعوا.

(٦) قال ابن الأثير في النهاية ٢/ ٣٩٧: في حديث الأكل سمو الله ودنّوا وسمتوا أي إذا فرغتم فادعوا بالبركة لمن طعمتم عنده والتسميت: الدعاء.

(٧) المعجم الكبير، ١١/ ٣٧٦.

ظنونا مختلفة ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون(١) .

وقال ابن زيد: قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يافلان أرأيت إذ يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»** فأين هذا من هذا؟ وأحدنا لا يستطيع أن يخرج ليبول من الخوف": **﴿مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾** . فقال: كذبت لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرك" قال: "فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره فدعاه فقال: **«ما قلت؟»** قال: "كذب علي يارسول الله ما قلت شيئاً ما خرج من فمي قط . قال الله: **﴿يَحْلِفُونَ بِالله مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾** حتى بلغ: **﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾** [التوبة: ٧٤] . قال: فهذا قول الله: **﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾** [التوبة: ٦٦] (٢) .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن فليح قال: "فلما أشتد البلاء على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح . فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فيه الناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول: **«والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة وأني لارجو أن أطوف البيت العتيق آمنا وان يدفع الله عز وجل إلي مفاتيح الكعبة وليهلكن الله كسرى وقيصر ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل»** . وقال رجل ممن معه لأصحابه: "ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق وأن نقسم كنوز فارس والروم ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب للغائط والله ما يعدنا إلا غروراً" (٣) .

وهكذا نرى من خلال هذه الآثار أن للمنافقين دوراً خطيراً في هذه الغزوة بالذات ذلك لأنهم لا يظهرون إلا في أوقات الأزمات . أما عندما ينتصر المسلمون فلا يسمع لهم صوت . والقرآن الكريم فضحهم في أكثر من موطن ولكنا أردنا أن نبين أمرهم خاصة في هذه الغزوة الفاصلة(٤) .

---

(١) جامع البيان ، ٢١/ ١٣٢ ، وانظر: تفسير ابن كثير ، ٣/ ٤٧٢ .
(٢) تفسير الطبري ، ٢١/ ١٣٣ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ، ٣/ ٤٠٢ .
(٤) لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لن يغزوكم بعد عامكم هذا" .

موقف المسلمين من تحركات الأحزاب:

لم تكن الإستخبارات الإسلامية غافلة عن تلك التحركات التي يقوم بها اليهود لتأليب القبائل العربية وقريش علي المسلمين، فما أن بلغت أنباء تلك التحركات الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قام بعقد مجلسه العسكري يحضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار وعرض عليه الموقف، واستشارهم في كيفية مواجهة الموقف، وتمخضت تلك المشاورة عن رأي سديد أدلى به سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث أشار بحفر الخندق لكي يحول بين العدو وبين المدينة فقال سلمان: يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين [(١)].

وعندما استقر الرأي - بعد المشاورة - على حفر الخندق، ذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش، وذكر الواقدي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب[(٢)] إلى راتج[(٣)]، وقد استفاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مناعة جبل سلع[(٤)] في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقًا؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرة واقم[(٥)] من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبني قريظة عهد ألا يمالؤوا عليه أحدا، ولا يناصروا عدوًا ضده[(٦)].

---

(١) مغازي الواقدي، ٢/ ٤٤٤، والطبقات الكبرى، ٢/ ٦٦، زاد المعاد ٣/ ٢٧١، السيرة الحلبية ١/ ٦٣١.
(٢) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.
(٣) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.
(٤) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان، ٣/ ٢٣٦.
(٥) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز، ٢/ ٢٨٣، ٢٨٥.
(٦) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص٤٤٢.

لقد كان الخندق ذا أهمية عظمى ذلك لأن المسلمين عندما بحثوا خطة الدفاع عن المدينة كانوا يفكرون في إيجاد وسيلة فعالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب المتفوقة عدداً وعدة في معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميدها وشل حركتها على النحو الواسع الذي تريد تلك القوة الباغية .

ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعي أكبر الأثر في تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو في النهاية[1] .

ولقد حفر الخندق في المنطقة الشمالية الغربية من المدينة لأن هذا المكان هو أصلح موقع يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التي لابد لأي غاز يريد المدينة من أن يتجه إليها ذلك لأن الجهات الأخرى محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة كالجبال وغيرها والتي لا تسمح لقوات الأحزاب الكبيرة أن تقوم بإجراء أي قتال على نطاق واسع كما تريد[2] .

لقد بدأ المسلمون في حفر الخندق في وقت عصيب - ذلك لأنهم يبادرون قدم العدو . وقد وكل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكل أناس جزءاً من المكان المتفق على حفره وفي ذلك تنشيط لهم ودافع على المسابقة في إكمال ما يلزم كل طائفة علماً بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد وضع يده معهم ليدفعهم ويرغبهم أكثر في ذلك ، فأخرج البيهقي مطولاً من طريق كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده وساق الحديث إلى أن قال: وخط رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخندق لكل عشرة أناس عشرة أذرع - وفيه - فمرت بنا صخرة بيضاء كسرت معاويلنا فأردنا أن نعدل عنها فقلنا: حتى نشاور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسلنا إليه سلمان - وفيه - فضرب ضربة صدع الصخرة وبرق منها برقة وكبر المسلمون - وفيه - رأيناك تكبر فكبرنا بتكبيرك فقال: «**إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم**» - وفي آخره - ففرح المسلمون واستبشروا[3] .

ولقد حفروا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بجد ونشاط وكانت المسافة طويلة وشاقة حيث كان الحفر من طرف بني حارثة - وبنو حارثة - في طرف الحرة الشرقية - إلى المذاد - من طرف بني سلمة بعد جبل بني عبيد من بني سلمة .

---

(١) محمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، ص ١٤٧ .
(٢) محمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، ص ١٤٩ .
(٣) فتح الباري ، ٧/ ٣٩٧ .

وكـان هذا مع ما كان بهم من الجوع وبدائية الأدوات التي كانوا يستخدمونها إلا أن اعـتمادهم علـى الله ثم على قوة إيمانهم به وبرسوله وبمشروعية الدفاع عن الإسلام وعن النفس كل ذلك جعلهم ينجزون ما بدؤوا فيه بسرعة فائقة إذا قيس بأعمال الآلات الحديثة اليوم .

ولقـد عمـل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده الشريفة مع المسلمين ليقوي نشاطهم وتزداد رغبـتهم كمـا أنـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبادلهم الأهازيج . لأن الشعر والتمثل به مما يزيد في النشاط .

والمسلم علـيه أن يتأسـى برسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحينما يرى البذخ الذي فيه بعـض الـناس والفقـر الـذي فـيه آخـرون - يقـول - : «**اللهـم إن العيش عيش الآخرة**» . لأنها كلمة ترتفع بالنفس عن الدنيا الفانية وإغراءاتها المذلة" .

هكـذا كـان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصـحابه في صراع دائم مع الدنيا وإغراءاتها ولم تجـد إليهم سبيلاً بل كانوا على يقين تام بأن الآخرة أحسن وأولى: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾ .

وكانوا يعملون هذه الأعمال المجيدة الشاقة دفاعاً عن هذا الدين الحنيف وهم في حالـة صعبة حيث الجوع والبرد القارس ومع ذلك كانت عزائمهم صلبة تكسر الصخور .

ومـن أيقـن مـثلهم بخـراب الدنـيا وذهابها عمل لعمارة الآخرة ونسي الآلام كلها وتخطى كل العقبات .

وعـندما قـرر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفر الخندق - بعد المشاورة - أمر بنقل النساء والذراري إلى الآطم[1] الحصينة حتى لا يصيبهم مكروه .

لأنـه كـان يـتخوف علـيهم من اليهود - بني قريظة - حيث كانت منازلهم مما يلـي العوالـي[2] وكانـوا قـد مالـؤوا الأحزاب ووافقوهـم على نقض العهد الذي ابـرموه مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقد روى الطبراني حيث قال: "عن هرير بن عبد الـرحمن بـن رافـع بـن خـديج عـن أبيه عن جده قال: "لما كان يوم الخندق لم يكن

---

(١) الأطـم بـضمة وضـمتين القـصر وكـل حـصن مـبني بالحجـارة وكـل بـيت مـربع مسطح . القاموس ، ٤/ ٧٤ .

(٢) العوالـي بالفـتح جمـع العالـي ضـيعة بيـنها وبـين المديـنة أربعـة أميال وقـيل ثلاثـة (وهـو الصحيح) . انظر: مراصد الإطلاع ٢/ ٩٧٠ .

حصن أحصن من حصن بني حارثة فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النساء والصبيان والذراري فيه" فقال: "إن ألمَّ بكن[1] أحد فالمعن بالسيف" فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان - أحد بني جحاش على فرس حتى كان في أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء انزلن إلى خير لكن فحركن السيف فأبصره أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له ظهير بن رافع فقال: "يا نجدان ابرز فبرز إليه فحمل عليه فرسه فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2].

تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومباشرته الحفر بنفسه:

كان صلوات الله عليه وسلامه المثل الأعلى في التواضع، وذلك لحسن أخلاقه التي مدحه الله به، وهذا حاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السلم والحرب على السواء. وتواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الموضع قليل من كثير.

فقد روى البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: "أتيت جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة[3] فجاءوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق" فقال: "أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعول[4] فضرب فعاد كثيباً[5] أهيل أو أهيم"[6] فقلت يا رسول الله: "ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ قالت عندي شعير وعناق[7]. فذبحتُ العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم

---

(١) إن ألم بكن أي إذا حصل ذلك وهو دخول أي غريب عنهم اليهن.

(٢) مجمع الزوائد، ٦/ ١٣٣، وهو في المعجم الكبير، ٤/ ٣١٨حديث، ٤٣٧٨، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٥٧٠ - ٥٧١.

(٣) الكدية: هي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض.

(٤) المعول: الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر والجمع المعاول، مختار الصحاح، ص ٤٦٣.

(٥) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب. النهاية في غريب الحديث، ٤/ ١٥٢.

(٦) المعنى أنه صار رملاً يسيل ولا يتماسك قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ أي رملاً سائلاً، وأما أهيم فقال عياض: ضبطها بعضهم بالمثلثة وبعضهم بالمثناة وفسرها بأنها تكسرت. فتح الباري ٧/ ٣٩٦.

(٧) صحيح البخاري مع الفتح، ٧/ ٣٩٥، والعناق الأنثى من الماعز ما لم يتم له سنة، النهاية، ٣/ ٣١١.

في البرمة[1] ثم جئت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[2] قد كادت تنضج فقلت: طعيم[3] لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان قال: كم هو فذكرت له: فقال: «**كثير طيب**» . قال: قل لها: «**لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور**[4] **حتى آتي**» . فقال: قوموا فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت: هل سألك قلت: نعم . فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» [5] فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر[6] البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف[7] حتى شبعوا وبقي بقية . قال: «**كلي هذا واهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة**» [8] .

وهناك أحاديث صحيحة تبين بوضوح مباشرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحفر ونقل التراب مع صحابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ من ذلك ما روي البخاري ونصه:

عن البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو إغبر بطنه[9] . يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
إن الألى قد بغوا علينا ::: وثبت الأقدام إن لاقينا
فأنزلن سكينة علينا ::: إذا أرادوا فتنة أبينا

قال البراء: "ويرفع بها صوته أبينا أبينا"[10] .

---

(١) البرمة: هو القدر مطلقاً وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن . النهاية ، ١/ ١٢١ .
(٢) الأثافي: هي حجار ثلاث يوضع عليها القدر . مختار الصحاح ، ٨٤ .
(٣) بالتصغير للقلة .
(٤) التنور: الذي يخبز فيه ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ مختار الصحاح ، ٧٩ .
(٥) فيه دليل على كثرتهم ومعنى لا تضاغطوا: أي لا تتزاحموا .
(٦) أي يغطى .
(٧) أي يغرف مرقاً من البرمة .
(٨) فتح الباري ، ٧/ ٣٩٥ ، مسند الإمام أحمد ، ٣/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، سنن النسائي ، ٦/ ٤٣ باب غزوة الترك والحبشة والرواية ليست عن جابر وإنما هي عن رجل من الصحابة ، دلائل النبوة ، ٣/ ٤١٧ .
(٩) والمعنى وارى التراب جلدة بطنه . الفتح ، ٧/ ٣٩٩ .
(١٠) فيه دليل على تواضعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وانشراح صدره ومجاراته لأصحابه فيما هو حلال وطيب . وانظر أيضاً: صحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق .ومسند

وهذا يدل بجلاء على مشاركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم وعلى تواضعه وقد جاء عند أحمد عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما نسيت قوله يوم الخندق وهو يعاطيهم اللبن وقد أغبر شعر صدره وهو يقول: «**اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة**» [1].

لذلك قال ابن هشام: "فلما سمع بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمعوا عليه من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إذن.

أما المسلمون فكانوا لا يستأذنون إلا عند الضرورة فإذا قضوا حاجاتهم رجعوا إلى ما كانوا فيه من عمل رغبة في الخير واحتساباً له وقد أنزل الله في ذلك قرآنا يتلى فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ... الآية**﴾ [النور: ٦٢].

حيث نزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2].

ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون ويذهبون بغير إذن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣].

وهذه الآيات عامة ساقها ابن هشام وغيره للاستدلال بها على الفريقين. وعامة في الاستئذان سواء في الحرب أو في السلم وهي في الحقيقة نزلت كما قال ابن كثير في الذين يستأذنون في الخروج من الجمعة وغيرها[3].

وكان لتقسيم العمل وإسهام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه إلى جانب أصحابه،

الإمام أحمد، ٤/ ٢٨٢/ ٢٨٥ – ٢٩١/ ٣٠٠/ ٣٠٢/ ٣٠٣، وسنن الدارمي، ٢/ ٢٢١، والمسند، ١/ ٢٢٧ رقم (٣١٧).

(١) مسند الإمام أحمد، ٦/ ٢٨٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٠٦.

والإيمان العميق الذي كان يدفع المسلمين إلى بذل كل طاقاتهم لإنجاز الخطة الدفاعية وشعورهم بعظم الخطر المحدق إن هوجمت المدينة قبل أن ينجز حفر الخندق. فضلاً عن تأميل الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جنده بالنصر القريب في الأرض والأجر العريض في السماء.

وكان لهذه الأمور جميعاً الأثر الحاسم في تمكين المسلمين من حفر الخندق الذي يمتد "اثنا عشر ألف ذراع"[(١)]. في ستة أيام قبل أن يدهمهم الأعداء[(٢)].

وبعد أن اجتمع الوفد اليهودي بقيادة زعيمهم الحاقد حيي بن أخطب بقواد قريش وزعمائها، اجتمع زعماء قريش في دار الندوة للمشاورة وخرجوا بقرار نهائي هو الموافقة على ما أراده اليهود منهم وقد صادف هوى في نفوسهم ألا وهو استئصال الإسلام والقضاء على حامليه كما كانوا يعتقدون ذلك؛ لأن نظرتهم كانت تغتر بالعدد الكبير الذي حشدوه إلى أرض المعركة، ونسوا أن النصر من عند الله، وأنه هو الذي نصر المؤمنين مع قلتهم في بدر وغيرها. تجاهلوا ذلك كله وكان يراودهم أمل متعلق بالكثرة الكاثرة التي ذهب اليهود من أجلها إلى غطفان وبقية القبائل المعادية للإسلام في ذلك الوقت.

ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الْـمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وهم مع ذلك لا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿...كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله...﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال ابن إسحاق: "ولما فرغ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة[(٣)] بين الجرف وزغابة[(٤)] في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة وأقبلت غطفان، ومن تبعهم من

(١) هذه المسافة تقدر بستة كيلوات.
(٢) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٦ - ٦٧، إبراهيم بن محمد المدخلي، مرويات غزوة الخندق، ص٢٠٢.
(٣) رومة: بضم الراء وسكون الواو: أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/ ١٠٤.
(٤) زغابة أوالغابة تبدأ من مجتمع الأسيال على سبعة أميال من جبل سلع على طريق الشام، وبها أشجار ومراع يحتطب منها الناس ويرعون شجرها. ياقوت: معجم البلدان، ٣/ ١٤١ - ١٤٢، الفيروزآبادي، القاموس، ١/ ٧٩.

أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي[1] إلى جانب أحد"[2].

وقد ذكر ابن سعد أن زعماء قريش دخلوا دار الندوة وعقدوا اللواء فيها وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وقال: "لما أجلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النضير ساروا إلى خيبر فخرج نفر من أشرافهم ووجوههم إلى مكة فألبوا قريشاً ودعوهم إلى الخروج إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعاهدوهم على قتاله ووعدوهم لذلك موعداً ثم خرجوا من عندهم حتى أتوا غطفان وسليماً ففارقوهم على مثل ما اتفقوا عليه مع قريش". قال ابن سعد: "عندئذ تجهزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب فكانوا أربعة آلاف وعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس وكان معهم ألف وخمسمائة بعير قال: "وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب بن أمية"، ووافقهم بنو سليم بمر الظهران وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس"[3].

والخلاصة: أن عدد جيش الكفار كان عشرة آلاف، وهو العدد الإجمالي الذي ذكره ابن إسحاق وغير واحد.

وعلى الجبهة الثانية كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أتم استعداداته لمواجهة الأحزاب، قال ابن إسحاق: "وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين"، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة وكان يحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة[4].

وقسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا

---

(١) نقمي: بالتحريك والقصر: موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب، قال ابن إسحاق، وأقبلت غطفان يوم الخندق، ومن تبعها من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد. ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٣٠٠، الفيروزآبادي، القاموس، ٤/ ١٨٣.

(٢) السيرة النبوية، ٢/ ٢١٥، والروض الأنف، ٣/ ٢٦١.

(٣) الطبقات الكبرى، ٢/ ٥.

(٤) السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٠، الروض الأنف، ٣/ ٢٦١، الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٦، جامع البيان، ٢١/ ١٣٠، دلائل النبوة، ٣/ ٤٥٢، الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ١٨١، الكامل في التاريخ، ٢/ ١٢٣، عيون الأثر، ٢/ ٥٧، البداية والنهاية، ٤/ ١٠٢، تاريخ الخميس ١/ ٤٨٠.

على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، فقد بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة.

وكان عباد بن بشر على حرس قبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة[1].

قال ابن القيم: "والذي كان على حرسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق الزبير بن العوام"[2] وعندما استقر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معسكره المختار حسب الخطة العسكرية الناجحة نظم جنود المسلمين ووزعهم فبعضهم للحراسة على الخندق ومنافذه وبعضهم على قبته لأنها كانت مستهدفة من الأعداء.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف بنفسه إلى ثلمة[3] في الخندق يحرسها وكان الوقت شتاء شديد البرودة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "كنت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالخندق فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعاهد ثغرة من الجبل يخاف منها فيأتي فيضطجع في حجري ثم يقوم فيتسمع فسمع حس إنسان عليه الحديد فانسل"[4] في الجبل فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من هذا؟». فقال: "أنا سعد جئتك لتأمرني بأمرك" فأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت في تلك الثغرة".

قالت عائشة: "فنام رسول الله في حجري حتى سمعت غطيطه[5] فقالت عائشة لا أنساها لسعد"[6].

وحديث البزار وإن كان ضعيفاً إلا أن ما جاء عند البخاري والترمذي يقويه والحديث يدل بوضوح على: الشدة التي عاناها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه في هذه الغزوة وأن الخطر الذي أحدق بهم كان كبيراً حتى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتعاهد تلك الثغرة بنفسه يخاف على المسلمين منها وأن القائد عليه ما على جنوده

---

(١) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٧.

(٢) وكان الذي قام على حراسته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر حين نام في العريش سعد بن معاذ ويوم أحد محمد بن مسلمة. انظر: زاد المعاد ١/ ١٢٧.

(٣) الثلمة والثغرة بمعنى واحد وهي الفتحة. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٢١٣.

(٤) أنسل: أسرع خفية. القاموس المحيط، ٤/ ٥٧.

(٥) غط النائم إذا سمع له صوت من الفم. القاموس المحيط، ٢/ ٣٧٦.

(٦) الهيثمي، كشف الأستار، ٢/ ٣٣٣. قال: "في الصحيح طرف منه ثم قال: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف" انظر: مجمع الزوائد، ٦/ ١٣٥.

من حراسة ومرابطة؛ بل إن القائد هو المثل الأعلى لجنوده والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خير قائد[1].

قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف المريسيع وخيبر وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة[2]، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري فالمدينة تحرس حتى الصباح نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً. حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً.

قال وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها فإذا آذاه البرد دخل قبته فأدفأته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حضنها[3] فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة يحرسها ويقول: «**ما أخشى على الناس إلا منها**»[4].

تواطؤ اليهود مع المشركين وعزمهم على ضرب المسلمين من الخلف:

لقد اشتد البلاء على المسلمين في هذه الغزوة بالذات؛ لأن قريشاً جاءت بحلفائها كما جاءت غطفان بكل قوادها وحلفائها مستهدفين استئصال الإسلام والمسلمين وفي أثناء الاستعداد لهذه الجموع الزاحفة جاء عدو الله حيي بن أخطب وهو أحد الأعضاء الذين حزبوا الأحزاب جاء إلى كعب بن أسد رئيس القبيلة الباقية من اليهود وهي قبيلة بني قريظة وجادله على نقض العهد وفتله في الذروة والغارب حتى وافق على ذلك بشروط تقبلها عدو الله حيي بن أخطب.

وبنوقريظة كما هو معروف كانوا يسكنون في العوالي أي في الجنوب الشرقي من المدينة على وادي مهزور[5] إذن فهم يعتبرون خلف المسلمين ويكونون أخطر على هذه الحال لأن الضربة من الوراء تؤثر أكثر حيث أن المسلمين يستعدون ومستحفزون لأعدائهم الذين أمامهم ولكن الله نصر المسلمين وخذل أعداءه وأعداءهم وقد وصف الله سبحانه.

وتعالى ذلك البلاء وتلك الشدة التي أتت على المسلمين لم يأت عليهم مثلها

(١) إبراهيم بن محمد المدخلي، مرويات غزوة الخندق، ص ٢٢٩.
(٢) الحرج: أضيق الضيق. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٣٦١.
(٣) الحضن: مادون الإبط إلى الكشح وحضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه. مختار الصحاح ١٤٢.
(٤) المغازي للواقدي، ٢/ ٤٦٧.
(٥) مهزور وقيل مهزوز واد بالمدينة كان يسمى وادي قريظة كان يسيل بماء المطر يهبط من مفرق حرة واقم ثم يسيل ويصب في وادي بطحان. معجم البلدان، ٥/ ٢٣٤.

حيث قال سبحانه: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٩ - ١٠].

وقال تعالى مبيناً مناصرة وموافقة اليهود (بني قريظة) للأحزاب: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ(١) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٦].

فقد وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسعد القرظي صاحب عقد بني قريظة(٢)، وعهدهم وكان قد وادع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قومه عاقده على ذلك وعاهده فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي ويحك(٣) يا كعب افتح لي قال ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً"، قال: "ويحك افتح أكلمك". قال: "ما أنا بفاعل قال والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك(٤) أن آكل معك منها فاحفظ(٥) الرجل ففتح له".

فقال: "ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ببحر طام(٦) جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد. قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا(٧) حتى نستأصل محمداً ومن معه قال فقال له كعب: جئتني والله بذل

(١) صياصيهم أي حصونهم والأصل في الصياصي هي قرون البقر ومنه قيل للحصون (الصياصي). النهاية في غريب الحديث، ٣/ ٦٧.
(٢) أي أنه كان رئيسهم وسيدهم.
(٣) ويح: كلمة ترحّم وتوجّع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها وقد يقال بمعنى المدح والتعجب وهي منصوبة على المصدر. النهاية ٥/ ٢٣٥.
(٤) الجشيشة: طعام يصنع من الجشيش وهو البر يطحن غليظاً ثم تجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٢٧٣.
(٥) احفظه: أغضبه.
(٦) طام: مرتفع ويريد كثرة الرجال.
(٧) على أن لا يتركوا أو يغادروا المكان.

الدهر وبجهام[1] قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[2] حتى سمع له على أن أعطاه عهداً (من الله) وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "[3].

وقد أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيونه متحرياً عن نقض اليهود للعهد الذي أبرموه معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ابن إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة بن دليم أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف فقال: «**انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً[4] أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس**» . قال فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم (فيما)[5] نالوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد ابن معاذ[6] وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى[7] من المشاتمة ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلموا عليه ثم قالوا عضل والقارة أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه فقال

---

(١) الجهام السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه .
(٢) هذا مثل وأصله في البعير يستعصي عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك فيجد لذة فيأنس عند ذلك .
(٣) الروض الأنف، ٣/ ٤٢٢، جامع البيان، ٢١/ ١٢٩ - ١٣٠ .
(٤) الحنوا لي لحنا: أي قولوا لي قولاً أفهمه ويخفى على غيري . القاموس ٤/ ٣٦٦ .
(٥) قوله (فيما نالو) وعند الطبري ونالوا .
(٦) فشاتمهم سعد بن معاذ (عند الطبري فشاتمهم سعد بن عبادة) وكذا عند ابن كثير في البداية، ٤/ ١٠٤ .
(٧) أربى مأخوذ من الربا وهو لغة الزيادة .

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين**»[1].

وقد أورد ابن كثير هذه القصة وفيها زيادة حسنة فقال بعد أن ذكر محاورة حيي بن أخطب لكعب: وقد تكلم عمرو بن سعد القرظي فأحسن فذكرهم ميثاق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره وقال: "إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوّه" ثم قال ابن كثير: قال ابن إسحاق: "فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمع له - يعني في نقض عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي محاربته مع الأحزاب . . . وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيياً أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً . قالوا وتكون الرهائن تسعين رجلاً[2] من أشرافهم فنازلهم[3] حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلا بني سعنة[4] أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "[5].

تخذيل المنافقين للصف الإسلامي:

إن موقف المنافقين وخذلانهم للمسلمين في الأوقات الحرجة أوقات الضيق والمواقف الصعبة شيء معتاد، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز دينه قال عبد الله بن أبي بن سلول: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب".

فلما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لملاقاة أعدائه حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني[6] ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢، جامع البيان، ٢١/ ١٢٩ - ١٣١، تاريخ الأمم الملوك، ٣/ ٤٦، ٤٧، السهيلي، الروض الأنف ٣/ ٢٦٨، عيون الأثر، ٣/ ٥٩.

(٢) البيهقي، الدلائل، ٣/ ٤٤٦، ابن كثير في البداية، ٤/ ١٠٣، المقريزي، الإمتاع، ١/ ٢٣٧.

(٣) أي التزم لهم بذلك.

(٤) وهم من اليهود إلا أن ابن هشام قال إنهم ليسو من بني قريظة وإنما هم من بني هدل ونسبهم فوق ذلك وهم بنو عم القوم. ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٢٣٨.

(٥) البداية والنهاية، ٤/ ١٠٣ - ١٠٤، ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٢.

(٦) يشير إلى المشاورة التي دارت قبل الخروج إلى أحد وكان من رأي كبير المنافقين القعود في المدينة ووافق الرسول مع القائلين بالخروج فأخذ من هذا حجة وذريعة.

اتبعه من قومه من أهل النفاق [١] واستمر وضعهم هذا حتى جاءت هذه الغزوة - غزوة الخندق - فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم سورة الأحزاب فقد ذكر سبحانه مجيء الأحزاب والحالة الشديدة التي عاناها المسلمون والبلاء الذي امتحنهم الله به فثبت المؤمنون وانكشف أعداء الله المنافقون فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٣ - ٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام [٢].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٦٤.
(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٢٥.

ما دار في غزوة الأحزاب من مناوشات:

بعد أن تم حفر الخندق ووصلت الأحزاب ونقض بنو قريظة العهد المبرم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونجم النفاق وقال المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢]، واشتد البلاء حيث بين الله سبحانه وتعالى ذلك الموقف بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ الآيات (الأحزاب: ١٠، ١١)، تزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وعرف المسلمون مَنْ يتربص بهم وراء هذا الحصار فقرروا مواصلة المرابطة في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنتظم السهل والجبل وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم.

وبدأ الحصار واشتدت وطأته وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمهم وكانوا يحاولون شتى المحاولات لتحطيم هذا الحصار وهم في كل ذلك يفشلون أمام صمود المسلمين: "فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرابطاً وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بينهم حرب إلا الرميا[١] بالنبل"[٢].

قال ابن إسحاق: "في سياق حديثه عن المناوشات التي حصلت بين الفريقين ثم تيمموا[٣] مكاناً ضيقاً[٤] فضربوا خيلهم فاقتحمت[٥] منه فجالت بهم في السبخة[٦] بين الخندق وسلع.

وخرج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم

---

(١) الرميا بكسر الراء والميم مشددتين وتخفيف الياء أي المراماة.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٤، البداية والنهاية، ٤/ ١٠٤، الكامل لابن الأثير، ٢/ ١٢٤، ٦ عيون الأثر، ٢/ ٦٠، تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٧، جامع البيان، ٢١/ ١٢٨.

(٣) تيمموا: قصدوا. النهاية في غريب الحديث، ٥/ ٣٠٠.

(٤) قال بعض المؤرخين -: "أن هذا المكان أغفله المسلمون ويمكن أن يقال أنه لصعوبة المكان وصلابته ولأن المنطقة كما هو معروف - أكثرها صخرية - كان هذا المكان ضيقاً والله أعلم".

(٥) اقتحمت: اقتحم في الأمر رمي بنفسه فيه من غير رويّة. مختار الصحاح ٥٢٢.

(٦) السبخة بالتحريك واحدة السباخ وهي الأرض الملحة النازة. معجم البلدان ٣/ ١٨٣.

الثغرة[1] التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق[2] نحوهم[3].

وهنا أحس الفريقان بالخطر وكانت هي الشرارة الأولى التي ألهبت حماس الفريقين.

قال ابن إسحاق: "وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلماً[4] ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له ياعمرو: "إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه قال له: أجل". قال له علي: "فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام" قال "لا حاجة لي بذلك". قال "فإني أدعوك إلى النزال" فقال له: "لم يابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك". قال له علي: "لكني والله أحب أن أقتلك" فحمي[5] عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره[6] وضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

قال ابن إسحاق: "وقال علي رضوان الله عليه في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	:::	ونصرت رب محمد بصوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه	:::	كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني	:::	كنت المقطر بزّني أثوابي[7]
فصددت حين تركته متجدلاً	:::	ونبيه يا معشر الأحزاب[8]

قال ابن هشام: "وأكثر أهل الشعر يشك فيها لعلي بن أبي طالب"[9].

قال البيهقي: "وخرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد فنادى من يبارز؟ فقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنا لها يا نبي الله فقال: «**إنه عمرو اجلس**»، ونادى عمرو ألا

---

(١) الثغرة: الثلمة وهي موضع المخافة من أطراف البلاد. النهاية في غريب بالحديث ١/ ٢١٣.
(٢) العنق: بفتح العين والنون. نوع من سير الإبل والخيل وهو الوسط بين السريع والبطيء.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٤.
(٤) معلماً: المعلم الذي يجعل له علامة يعرف بها.
(٥) فحمي: أشتد غضبه.
(٦) عقر البعير والفرس بالسيف (فانعقر) أي ضرب قوائمه. المختار الصحاح ٤٤٥.
(٧) المقطر: هو الذي يلقي على قطره - وتقطر - تهيأ للقتال ورمي بنفسه من علو. وبزّني: سلبني ثيابي أو أي شيء كان معي. القاموس المحيط، ٢/ ١١٩، ١١٦.
(٨) هكذا جاء عند ابن إسحاق وفي الاكتفاء للكلاعي، ٢/ ١٦٨.
(٩) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٢٢٥.

رجل وهو يؤنبهم "[1] ويقول أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون إليّ رجلاً فقام علي فقال: أنا يا رسول الله فقال: «اجلس»ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء ::: بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع ::: موقف القرن[2] المناجز

قال فقام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال يا رسول الله: "أنا فقال إنه عمرو فقال وإن كان عمراً فأذن له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك ::: مجيب صوتك غير عاجز
من ضربة نجلاء ::: والصدق منجا كل فايز
إني لأرجو أن أقيم ::: عليك نائحة الجنائز
ذو نية وبصيرة ::: يبقى ذكرها عند الهزاهز

وفي رواية أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته وقال: «**اللهم أعنه عليه**» وفي لفظ: «**اللهم هذا أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين**» [3].

فقال له عمرو من أنت؟ قال أنا علي قال ابن عبد مناف؟ قال أنا علي بن أبي طالب[4]. فقال يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن فإني أكره أن أهريق دمك؟ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضبا واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التكبير، فعرفنا أن عليا قد قتله فثم يقول علي:

أعليّ تقتحم الفوارس هكذا ::: عني وعنهم أخروا أصحابي
اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ::: ومصمم في الراس ليس بنابي

إلى أن قال:

---

(١) التأنيب المبالغة في التوبيخ والتعنيف. النهاية في غريب الحديث، ١/ ٧٣.
(٢) القرن: بكسر المثناة المعجمة وهو الكفؤ في الشجاعة. المختار، ٥٣٢.
(٣) ذكر هذا صاحب السيرة الحلبية، ٢/ ٦٤١.
(٤) واسم أبي طالب – عبد مناف.

عبد الحجارة من سفاهة رأيه ::: وعبدت رب محمد بصوابي

قال ثم أقبل علي نحو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجهه يتهلل[1].

قال ابن سعد: "ثم أَجْمع رؤساؤهم أن يغدوا يوماً فغدوا جميعاً ومعهم رؤساء سائر الأحزاب وطَلَبوا مضيقاً من الخندق يقحمون منه خيلهم إلى

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فلم يجدوا ذلك وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها قالو فمن هناك إذاً، فصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون فعبر عكرمة بن أبي جهل ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب وعمرو بن عبد ود وذكر المبارزة إلى أن قال: وولي أصحابه[2] هاربين وظفرت بهم خيولهم[3] وحمل الزبير بن العوام على بالسيف فضربه فشقه باثنين"[4].

ولما قتل نوفل بن عبد الله كبر ذلك على المشركين وأرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنا نعطيكم الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه فرد إليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خبيث خبيث الدية فلعنه الله ولعن ديته ولا نمنعكم أن تدفنوه ولا أرب[5] لنا في ديته وقيل: «**أعطوه في جثته عشرة آلاف**»[6].

واستمرت المعركة والحصار مضروب فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين على حين بقيت جبهة المدافعين عن حوزة الدين الإسلامي – سليمة لم تثلم ورغم كثرة الأعداء وتحرشاتهم ومناوشاتهم المستمرة طيلة تلك المدة إلا أنه لم يقتل من المسلمين إلا عدد قليل وهم: سعد بن معاذ سيد الأوس وحامل لوائهم يوم الخندق استطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهمًا أصابه في أكحله[7]، وقال: خذها وأنا بن العرقة، وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم

---

(١) الدلائل للبيهقي ٣/ ٤٣٩، البداية والنهاية، ٤/ ١٠٦ – ١٠٧، والروض الأنف، ٣/ ٢٧٩.
(٢) يرجع الضمير في قوله – وولي أصحابه – إلى عمرو بن عبدود.
(٣) الضمير محتمل الرجوع إلى خيل المسلمين وقد يكون راجعا إلى خيل الكفار.
(٤) الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٨.
(٥) الأرب: الحاجة. مختار الصحاح، ص ١٣.
(٦) عيون الأثر، ٢/ ٦٠.
(٧) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.

فاجعلها شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[١]، وأنس بن أوس بن عتيك، رماه خالد بن الوليد بسهم فقتله ولم يشهد بدراً"[٢]، وعبد الله بن سهل الأشهلي [٣] وثعلبة بن عنمة بن عدي بن نابي، وطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان[٤]، وكعب بن زيد النجاري [٥]وسليط وسفيان بن عوف الأسلمي، وروي أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعث سليطا وسفيان بن عوف الأسلمي طليعة يوم الأحزاب فخرجا حتى إذا كانا بالبيداء إلتفت عليهم خيل لأبي سفيان فقاتلا حتى قتلا فأتيَ بهما رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فدفنا في قبر واحداً فهما الشهيدان القرينان[٦]، وسنان بن صيفي الخزرجي [٧].

ورغم كثرة المناوشات التي قامت بها جموع الأحزاب ورغم كثرتهم ومع ذلك فقد قتل من المشركين ثلاثة فقط [٨] وقيل أربعة[٩] وهم: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار. أصابه سهم فمات منه بمكة[١٠] ونوفل بن عبد الله بن المغيرة، اقتحم الخندق بفرسه فتورط فيه فقتل هناك[١١]، عمرو بن عَبْدُ ود العامري، قتله علي مبارزة [١٢] وحسل بن عمرو[١٣].

هؤلاء الذين قتلوا من المشركين رغم كثرتهم ويمكن أن نرجع سبب قلة القتلى من الجانبين إلى أن: "وجود الخندق كان له سبب مباشر بعد الله. ذلك لأن المشركين تخوفوا من هذه المكيدة ولم يقتل إلا من اقتحم أو اقترب كما فعل نوفل

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم ١٧٦٩.
(٢) أسد الغابة، ١/ ١٢٢، والاستيعاب، ١/ ١٩٨.
(٣) أسد الغابة، ٣/ ١٧١، والاستيعاب، ٣/ ٥٦.
(٤) أسد الغابة، ٣/ ٥٦، البداية والنهاية، ٤/ ١١٦، والسيرة النبوية، ٣/ ٢٢٢، الطبقات الكبرى، ٣/ ٥٧٣، السيرة الحلبية، ٢/ ٦٤٨.
(٥) الطبقات الكبرى، ٢/ ٧٠، البداية والنهاية، ٤/ ١١٦، أسد الغابة، ٤/ ٢٤١.
(٦) مجمع الزوائد، ٦/ ١٣٥.
(٧) الاشتقاق، ص ٤٦٥. وانظر ترجمته في الطبقات الكبرى، ٣/ ٥٧٢، أسد الغابة، ٢/ ٣٥٩.
(٨) هذا ما اتفق على إيراده المؤرخون وأهل المغازي.
(٩) ذكر الرابع وانفرد به ابن هشام. السيرة النبوية، ٣/ ٢٥٣.
(١٠) كذلك انفرد ابن هشام بهذه التسمية والبقية يقولون أن اسمه (منبه).
(١١) البداية والنهاية، ٤/ ١١٦.
(١٢) تاريخ الخميس، ١/ ٤٨٧، السيرة النبوية، ٢/ ٢٥٣، ٣، الطبقات الكبرى، ٢/ ٦٨ - ٧٠، تاريخ الأمم والملوك، ٣/ ٤٩، الكامل، ٢/ ١٢٤، البداية والنهاية، ٤/ ١١٦.
(١٣) السيرة النبوية، ٢/ ٢٥٣.

وعمرو بن ود . والخندق في الحقيقة نصر من الله حيث ألهمهم الله إلى حفره وأعانهم على سرعة إنجازه فكان حاجزاً حصيناً ولكي يبين الله سبحانه لأعداء المسلمين من منافقين وكفار أن النصر بيد الله وليست بالكثرة وأنه متى كان الله سبحانه مع فئة ولو قليلة تكون لها الغلبة في النهاية ذلك لأن هذه الفئة القليلة تقاتل عن عقيدة سامية ومبدأ عظيم ألا وهو الإسلام[(١)] .

ولما طال الحصار أخذ اليهود قبحهم الله يرسلون إمدادات للأحزاب ، وذكر صاحب السيرة الحلبية: أن دورية مسلحة من الأنصار خرج رجالها ليدفنوا ميتاً لهم فصادفوا قافلة من عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً . فأخذها المسلمون وخفف الله بها عليهم من ضائقة المجاعة التي كانوا يعانونها[(٢)] .

وهذا جعل الهزائم تتوالى على الأحزاب إضافة إلي قتل أربعة من فرسان المشركين وصناديدهم ، مما زاد من حقدهم ، وزادوا من نشاط خيلهم فكانت الخيول تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح فتخلفها أعداد طول النهار وأصحابها يطمعون في أخذ المسلمين على حين غرة وذلك لأن خالد بن الوليد كان في هذه الغزوة قائداً للفرسان كما كان في غزوة أحد وهو يطمع كما فعل في أحد أن يصيب غرة من المسلمين ولكن هيهات "لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين"[(٣)] .

قال ابن سعد: فكان المشركون يتناوبون بينهم فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً ويغدو هبيرة بن أبي وهب الذي نجا من الكرة الأولى يوماً ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوماً فلا يزالون يجيلون خيلهم يتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . وبعد قتل أصحابهم اتعدوا أن يغدوا من الغد فباتوا يعبئون أصحابهم وفرقوا كتائبهم ونحوا[(٤)] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل ما يقدرون أن يزولوا من مواضعهم ولا صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أصحابه

---

(١) إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص٤٥٠ .
(٢) السيرة الحلبية ، ٢/١٠٧ .
(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب ٨٣ ، مسلم في كتاب الزهد ٦٣ ، وأبو داود في الأدب ٢٩ ، وابن ماجة في الفتن ١٣ ، والدارمي في الرقاق ٦٥ ، وأحمد ٢/ ١١٥ ، ٣٧٩ .
(٤) عند ابن سيد الناس جهزوا .

ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً ولا عشاء حتى كشفهم الله فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقام أسيد بن الحضير على الخندق في مائتين من المسلمين وكر خالد بن الوليد في خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فناوشوهم ساعة ومع المشركين وحشي فزرق[1] الطفيلَ بن النعمان من بني سلمة بمزراقه فقتله وانكشفوا وصار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قبته فأمر بلالاً فأذن وأقام الظهر فصلى ثم أقام بعد كل صلاة إقامة إقامة وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات وقال: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى يعني العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً**»[2].

وفي ظل هذا الموقف العصيب ظهرت حنكته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسن سياسته حيث اختار قبيلة غطفان لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها ، فهو يعلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه ، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته ، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ؛ ولهذا لم يحاول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب ، لأن هدف أولئك الرئيسي ، لم يكن المال ، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًا وعقائديًا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس ؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان ، الذين لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3] ، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف) لطلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد ، وشرع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مفاوضتهم ، وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان ، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ - عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب .

---

(١) زرقه رماه والمزراق رمح قصير ، القاموس ، ٣/ ٢٤٠ .
(٢) الطبقات الكبرى ، ٢/٦٨ - ٦٩ .
(٣) محمد أحمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، ص٢٠١ .

ب - تــوادع غطفــان المسلمين وتـتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

ج - تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

د - يدفـع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنـواع، ويظهـر أن ذلـك لـسنة واحـدة[1]، فقـد ذكـر الـواقدي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال لقائـدي غطفـان: «**أرأيـت إن جعلـت لكـم ثلـث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟**» قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة مـن قـومهما حـين تقـارب الأمـر[2] فجاءوا وقد أحضر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وأحضر الصحيفة والدواة وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يـريد أن يكـتب الـصلح بيـنهم وعـباد بـن بـشر قـائم علـى رأس رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقـنع في الحديـد. فأقـبل أسـيد بـن حـضير إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يدري بما كان من الكلام فلما جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجـاء عيينة مادا رجليه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلم ما يريدون فقال: يـا عـين الهجـرس [3] اقـبض رجلـيك أتمـد رجلـيك بـين يدي رسول الله؟ ومعه الـرمح. والله لـولا رسول الله لأنفذت خصيتيك بالرمح ثم أقبل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقـال: يا رسول الله إن كان أمرا من السماء فامض له وإن كان غير ذلـك فـوالله لا نعطـيهم إلا الـسيف متـى طمعـوا بهـذا منا؟ فأسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعـا سـعد بـن معـاذ وسـعد بـن عبادة فاستشارهما في ذلك وهو متكـئ علـيهما، والقـوم جلـوس فـتكلم بكـلام يخفـيه وأخبرهما بما قد أراد من الـصلح. فقـالا: إن كـان هذا أمرا من السماء فامض له وإن كان أمرا لم تؤمر فيه ولك فيه هوى فامض لما كان لك فيه هوى، فسمعا وطاعة وإن كان إنما هو الرأي فمـا لهـم عـندنا إلا الـسيف. وأخـذ سـعد بـن معـاذ الكـتاب فقـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنـي رأيـت العـرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم". فقالا: يا رسول الله إن كانوا ليأكلون العلهز [4] في الجاهلية من الجهد ما

(١) محمد أحمد باشميل، غزوة الأحزاب، ص٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) المغازي للواقدي، ٢/ ٤٧٧.

(٣) الهجرس: ولد الثعلب، والهجرس أيضا القرد. انظر: النهاية، ٤/ ٢٤٠.

(٤) العلهـز: هـو شـيء يـتخذونه في سـنى المجاعـة، يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار

طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا تمرة إلا بشرى أو قرى فحين أتانا الله تعالى بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نعطي الدنية لا نعطيهم أبدا إلا السيف فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**شق الكتاب**». فتفل سعد فيه ثم شقه وقال: بيننا السيف فقام عيينة وهو يقول: أما والله للتي تركتم خير لكم من الخطة التي أخذتم وما لكم بالقوم طاقة. فقال عباد بن بشر: يا عيينة أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك تأكلون العلهز والرمة [1] من الجهد فتأتون هاهنا ما تطمعون بهذا منا إلا قرى أو شرى، ونحن لا نعبد شيئا، فلما هدانا الله وأيدنا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألتمونا هذه الخطة أما والله لولا مكان رسول الله ما وصلتم إلى قومكم. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارجعوا، بيننا السيف!**» رافعا صوته. فرجع عيينة والحارث وهما يقولان والله ما نرى أن ندرك منهم شيئا، ولقد أنهجت للقوم بصائرهم والله ما حضرت إلا كرها لقوم غلبوني، وما مقامنا بشيء مع أن قريشا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها.

قال عيينة هو والله ذلك قال الحارث: أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب، مع أني أرى أمر محمد أمرا ظاهرا. والله لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبي من الحرم على صفته. قال عيينة: إنا والله ما جئنا ننصر قريشا، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها. ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة مع أنا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما هاهنا. قال الحارث قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف والله لتقاتلن عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم وقد أجدب الجناب وهلك الخف والكراع. قال عيينة: لا شيء. فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا: ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر رأينا قوما على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم وقد هلكنا وهلكت قريش، وقريش تنصرف ولا تكلم محمدا وإنما يقع حر محمد ببني قريظة إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعة حتى يعطوا بأيديهم. قال الحارث بعدا وسحقا محمد أحب

---

(١) الرمة، بالكسر: العظام البالية. انظر: القاموس المحيط، ٤/ ١٢٢.
ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون فيه القردان. انظر، النهاية، ٣، / ١٢٤.

إلينا من اليهود[1] .

واستخدام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن ، فلقد كان يعلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هناك تصدعًا خفيًا بين صفوف الأحزاب ، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه ، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها ، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعلن إسلامه ، وقال له: يا رسول الله ، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة**»[2] .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية ؛ فقال يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّي إياكم وخاصةً ما بيني وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشاً وغطفانَ ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره .

وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره . فليسوا كأنتم .

فإن رأوا نهزة[3] أصابوها ؛ وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . فقالوا له لقد أشرت بالرأي .

قال ابن إسحاق: " ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني ، فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم

(١) مغازي الواقدي ، ٢ / ٤٨٠ .

(٢) البداية والنهاية ، ٤/ ١١٣ ، وانظر: فتح الباري ، ٦/ ١٥٧ - ١٥٨ حيث قال الحافظ ذكر الواقدي أن أول ما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحرب خدعه في غزوة الخندق . وانظر: فتح الباري ، ٦/ ٦١٨ كتاب المناقب ، ١٢/ ٢٨٣ .

(٣) النهزة اختلاس الشيء بسرعة والأصل - فرصة .

حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني ، فقالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال فاكتموا عني قالوا نفعل فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم"[1] .

أما الواقدي فقد ذكر القصة باستفاضة وهذا كلامه:

قال: " قال نعيم بن مسعود: "كانت بنو قريظة أهل شرف وأموال ، وكنا قوماً عرباً لا نخل لنا ولا كرم ، وإنما نحن أهل شاة وبعير ؛ فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحملونني تمراً على ركابي ما كانت . فارجع إلى أهلي ، فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرت مع قومي وأنا على ديني".

وقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عارفاً فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب وهلك الخف والكراع [2] وقذف الله عز وجل في قلبي الإسلام وكتمت قومي إسلامي ، فأخرج حتى آتي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المغرب والعشاء ، وأجده يصلي فلما رآني جلس ثم قال ما جاء بك يا نعيم؟ قلت: "إني جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرني بما شئت يا رسول الله فوالله لا تأمرني بأمر إلا مضيت له ، قومي لا يعلمون إسلامي ولا غيرهم". قال: «**ما استطعت أن تخذل الناس فخذل**» ؛ قال: "قلت أفعل ولكن يا رسول الله أقول؟ فاذن لي ، قال: «**قل ما بدا لك فأنت في حلّ**» ، قال فذهبت حتى جئت بني قريظة فلما رأوني رحبوا وأكرموني وحيوا وعرضوا علي الطعام والشراب ، فقلت إني لم آت لشيء من هذا وإنما جئتكم نصباً بأمركم وتخوفاً عليكم لأشير عليكم برأي ، وقد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم فقالوا قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ما تحب من الصدق والبر ، قال: "فاكتموا عني قالوا نفعل قال إن أمر هذا الرجل بلاء - يعني النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صنع ما قد رأيتم ببني قيقناع وبني النضير وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال".

وكان ابن أبي الحقيق قد سار فينا[3] فاجتمعنا معه لنصركم وأرى الأمر قد

---

(١) السيرة النبوية ، ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) بالخف الإبل وفي بعض النسخ الحافر وهو الخيل .

(٣) يريد الذي ذهب محرضاً ضمن الوفد اليهودي .

تطاول كما ترون وأنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة ، أما قريش وغطفان فهم قوم جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم فإن وجدوا فرصة انتهزوها .

وإن كانت الحرب أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم وأنتم لا تقدرون على ذلك البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وقد غلظ عليهم جانب محمد أجلبوا عليه أمس إلى الليل[1] فقتل رأسهم عمرو بن عبد وهربوا منه مجرحين وهم لا غناء بهم عنكم لما يعرفون عندكم[2] ، فلا تقاتلوا مع قريش وغطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، تستوثقون به منهم ألا يناجزوا محمداً ، قالوا أشرت بالرأي علينا والنصح ، ودعوا له وتشكروا وقالوا نحن فاعلون ، قال ولكن اكتموا عني قالوا نعم نفعل .

ثم خرج إلى أبي سفيان بن حرب في رجال من قريش فقال: "يا أبا سفيان قد جئتك بنصيحة فاكتم عني قال أفعل . قال تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمدٍ ، وأرادوا إصلاحه . ومراجعته أرسلوا إليه وأنا عندهم آنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم يعنون بني النضير - ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك ، فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً ، واحذروهم على أشرافكم ، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفاً قالوا لا نذكره ، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إني رجل منكم فاكتموا عني واعلموا أن قريظة بعثوا إلى محمد وقال لهم مثل ما قال لقريش فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم ، وكان رجلاً منهم فصدقوه[3] .

وأرسلت اليهود عزال بن سموأل إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش إن ثواءكم[4] قد طال ، ولم تصنعوا شيئاً ، وليس الذي تصنعون برأي ، إنكم لو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمد فتأتون من وجه وتأتي غطفان من وجه ونخرج نحن من وجه آخر لم يفلت من بعضنا .

---

(١) اجلبوا: توعدوا بشر وأجلب على فرسه صاح . القاموس ، ١/ ٤٧ .
(٢) يشير إلى أنهم أهل حلقة وسلاح .
(٣) مغازي الواقدي ، ٢/ ٤٨١ - ٤٨٢ .
(٤) طال ثواءنا: أي طال مقامنا .

ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا بِرهَان [١] من أشرافكم يكونون عندنا فإنا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهونَ شمرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا[٢] محمداً بالعداوة، فانصرف الرسول إلى بني قريظة، ولم يرجعوا إليهم شيئاً، وقال أبو سفيان هذا ما قال نعيم، فخرج نعيم إلى بني قريظة فقال: "يا معشر بني قريظة أنا عند أبي سفيان حتى جاء رسولكم إليه يطلب منه الرهائن فلم يرد عليه شيئاً فلما ولى قال لو طلبوا مني عناقاً[٣] ما رهنتها، أنا أرهنهم سراة أصحابي يدفعونهم إلى محمد يقتلهم، فارتأوا آراءكم حتى تأخذوا الرهن فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً" وانصرف أبو سفيان تكونوا على مواعدتكم الأولى. قالوا نرجو ذلك يا نعيم؟ قال نعم قال كعب بن أسد فإنا لا نقاتله والله لقد كنت لهذا كارهاً، ولكن حيي رجل مشؤوم".

قال الزبير بن باطا: "إنْ انكشفت قريش وغطفان عن محمد لم يقبل منا إلا السيف، قال نعيم لا تخش ذلك يا أبا عبد الرحمن. قال الزبير بلى والتوراة، ولو أصابت اليهود رأيها، ولحِمَ الأمر، لتخرجن إلى محمد ولا يطلبون من قريش رهناً فإن قريشاً لا تعطينا رهنا أبداً. وعلى أي وجه تعطينا قريش الرهن وعددهم أكثر من عددنا ومعهم كراع ولا كراع معنا وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه؟ وهذه غطفان تطلب إلى محمد أن يعطيها بعض تمر الأوس وتنصرف فأبى محمد إلا السيف فهم ينصرفون بغير شيء"[٤].

فلما كانت ليلة السبت كان مما صنع الله تعالى لنبيه أن قال أبو سفيان يا معشر قريش إن الجناب. قد أجدب، وهلك الكراع، والخف، وغدرت اليهود، وكذبت وليس هذا بحين مقام فانصرفوا، قالت قريش فاعلم علم اليهود، واستيقن خبرهم، فبعثوا عكرمة بن أبي جهل حتى جاء بني قريظة عند غروب الشمس مساء ليلة السبت فقال: "يا معشر اليهود إنه قد طال المكث وجهد الخف والكراع وأجدب الجناب وإنا لسنا بدار مقامه. اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة، قالوا غداً السبت لا نقاتل ولا نعمل فيه عملاً، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا رهاناً من رجالكم يكونون معنا لئلا

---

(١) برهان: بكسر المعجمة فما بعدها من الرهن.
(٢) نابذنا: نبذ العهد إذا نقضه وألقاه إلى من كان بينه وبينه. النهاية، ٥/ ٧.
(٣) العتاق: الأنثى من أولاد المعز.
(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٨٢.

تبرحوا حتى نناجز محمداً . فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تشمروا إلى بلادكم وتدعونا وإياه في بلادنا ولا طاقة لنا به ، معنا الذراري والنساء والأموال فرجع عكرمة إلى أبي سفيان فقالوا ما وراءك؟ قال أحلف بالله أن الخبر الذي جاء به نعيم حق لقد غدر أعداء الله ، وأرسلت غطفان إليهم مسعود بن رخيلة في رجال منهم بمثل رسالة أبي سفيان فأجابوهم بمثل جواب أبي سفيان" .

وقالت اليهود حيث رأوا ما رأوا منهم نحلف بالله إن الخبر الذي قال نعيم لحق ، وعرفوا أن قريشاً لا تقيم فسُقِطَ في أيديهم .

فكر أبو سفيان إليهم وقال: "إنا والله لا نفعل إن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا" ، فقالت اليهود مثل قولهم الأول وجعلت اليهود تقول الخبر ما قال نعيم وجعلت قريش وغطفان تقول الخبر ما قال نعيم ، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء واختلف أمرهم ، فكان نعيم يقول أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه وأنا أمين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سره فكان صحيح الإسلام بعد[1] .

حصول النزاع بين الأحزاب وانهزامهم:

لقد اشتد الكرب على المسلمين بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا ، فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال: نعم . اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا [2] . وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأحزاب فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**» [3] ، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته ، وزلزل أبدانهم وقلوبهم ، وشتت جمعهم بالخلاف ، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة ، وألقى الرعب في قلوبهم ، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه ، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩] .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٨٢ .
(٢) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (٤/ ١٨) .
(٣) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الأحزاب (٥/ ٥٩) رقم ٤١١٤ .

ويعني القرآن الكريم بالجنود الذين جاءوا لحرب المسلمين قريش، وغطفان، وبني قريظة، أما الجنود الذي أشار القرآن إلى أن الله أرسلهم لإزعاج الأحزاب فقد ذكر كثير من أهل المغازي والتفاسير أنهم (الملائكة)، ولم يثبت أنهم قاتلوا الأحزاب، ولكنهم أرسلوا للإزعاج والتضييق[1]. لذلك روى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[2].

وقد أخرج ابن سعد عن سعيد بن جبير قال: "لما كان يوم الخندق أتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه الريح فقال حين أتى جبريل: "ألا أبشروا ثلاثاً"، فأرسل الله عليهم الريح فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرحال[3]، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد فأنزل الله تعالى: "﴿**إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾[4].

وهكذا يتبين أن لله سبحانه وتعالى جنوداً أقوياء: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾، فقد سلط الله سبحانه هذا النوع من جنده فزلزلت الأعداء، وأزعجهم هذا الوضع وخاصة بعد أن حصل ما حصل من التخذيل بينهم وبين حلفائهم اليهود، وظن بعضهم ببعض سوءاً. ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي وصار كل فريق يحمل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف.

عندئذ سلط الله عليهم القوة الإلهية. وقد فكرت عندئذ القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة، والرجوع بجيوشها كلٌ إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم ليلقوا مصيرهم الرهيب، وفي النهاية وعندما أذن الله وأراد نصر أوليائه هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح قوية كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهد الأبنية وتكفأ القدور، ولا تترك ناراً تشتعل مما جعل أبو سفيان يقول: "يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام فقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما

(١) محمد باشميل، غزوة الأحزاب، ٢٧٨.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٧، صحيح مسلم ٢/ ٦١٧، مسند الإمام أحمد ١/ ٢٢٣، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٥٥، ٣٧٣.
(٣) الرحال: جمع رحل وهو مركب يوضع على ظهر البعير. القاموس ٣/ ٣٨٣.
(٤) الطبقات الكبرى، ٢/ ٧١.

ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل"[1].

وقد بلغ من خوف القوم عندما توالت عليهم عوامل الهزيمة أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم - ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو.

وقد حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، فقال له صفوان بن أمية إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم، وأزاح الله عن المسلمين تلك الغمة، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منّة منه وفضلاً لساءت الحال وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة[2].

ولما كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتابع أمر الأحزاب، فإنه أراد أن يتحرى عما حدث عن قرب، ولما كانت هذه المهمة في غاية الخطورة والمغامرة فقد اختار لها من يناسبها ووقع اختياره علي حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقد قام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بدور استكشاف خطير، ودخل في وسط الصفوف صفوف الأعداء رغم احتراسهم وحراسهم المليئة قلوبهم بالحقد على المسلمين وخاصة بعد أن قتل بعض صناديدهم ورغم الظروف الخطيرة التي كانت تحيط به رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقد ذهب في رعاية الله وحفظه ودعا له الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالحفظ من بين يديه ومن خلفه واستجاب الله دعاء نبيه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ودخل حذيفة مع الأعداء وتوغل في صفوفهم حتى أشرف على القائد أبي سفيان، وحفظه الله ورجع إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأخبارهم ورحيلهم.

روى عن حذيفة قال: "لقد رأيتنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر[3]، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال: «**قم يا حذيفة فاتنا بخبر القوم**». فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن

(١) الاكتفاء، ٢/ ١٧٥.
(٢) نور اليقين، ١٥٥.
(٣) القر: هو البرد الشديد.

أقوم، قال: «**اذهب فاتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ**»[1]، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يُصْلَيْ ظهره[2] بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس[3] فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**ولا تذعرهم عليّ**» ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت[4]، فألبسني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت[5] فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان**»[6][7].

وفي رواية البزار" قال حذيفة: " إن الناس تفرقوا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأحزاب فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فأتاني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا جاثم "[8] من النوم فقال: يا ابن اليمان: «**قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب فانظر إلى حالهم**». قلت: " يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قمت إليك إلا حياءً من البرد. قال: «**انطلق يا ابن اليمان فلا بأس عليك من برد ولا حر حتى ترجع إليّ**». قال فانطلقت حتى آتيت عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله وقد تفرق الأحزاب عنه، فجئت حتى أجلس فيهم فحس أبو سفيان أنه قد دخل فيهم من غيرهم، فقال ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه قال فضربت بيدي على الذي عن يميني فأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده فلبثت فيهم هنيهة ثم قمت فأتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قائم يصلي فأومئ إلي أن ادنو فدنوت حتى أرسل علي من الثوب الذي كان عليه ليدفئني، فلما فرغ من صلاته قال: «**يا ابن اليمان اقعد ما خبر القوم؟**» قلت: يا رسول الله: " تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا في عصبة يوقد النار وقد

---

(١) ولا تذعرهم على: أي لا تفزعهم على ولا تحركهم علي وقيل معناه لا تنفرهم والمراد لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علي لأنك رسولي وصاحبي (من صحيح مسلم) ٣/ ١٤١٤ هامش الصفحة.

(٢) يصلى ظهره: يدفئه.

(٣) كبد القوس: مقبضها وكبد كل شيء وسطه كما في القاموس ٧/ ٣٣٢.

(٤) قررت: أي بردت.

(٥) أصبحت: أي طلع الفجر.

(٦) نومان: كثير النوم.

(٧) صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤ - ١٤١٥.

(٨) جاثم: جثم لزم مكانه فلم يبرح. القاموس ٤/ ٨٧ وعند البيهقي جاثي.

صب الله عليهم من البرد مثل الذي صب علينا ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون" أ: هـ[1].

وهكذا نفذ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أمره به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي مهمة شاقة ولكن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له كان من الأسباب التي جعلته ينجح في تلك المهمة رغم ما صادف من مآزق وأهم مأزق واجهه عندما قال أبو سفيان لينظر امرؤ من جليسه، وهو تحفظ من أبي سفيان خوفاً من أن يكون داخل المعسكر أحد يتجسس لحساب المسلمين[2] ولكنه لذكائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تخلص من هذا المأزق حيث سارع إلى الرجل الذي بجانبه وبدأه بالسؤال قائلاً من أنت؟.

وبهذا العمل تمكن حذيفة من الخروج من المأزق الذي وقع فيه والذي كاد أن يوقعه في قبضة المشركين لو انكشف أمره[3]، ثم سلط الله عليهم تلك الريح الهوجاء وأرسل عليهم ملائكته فزلزلتهم وجعلتهم يرتحلون، وفرق الله جمعهم وخذلهم وكفى الله المؤمنين شرهم: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

حقيقة أنها نعمة، وأيما نعمة! حيث انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم، وصبرهم، وثباتهم، مع نبيهم الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليالي الرهيبة، المرعبة، التي زاغت فيها الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة.

وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب[4]: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

لقد كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز**

---

(١) رواه البزار في مسنده، ٧/ ٣٤٧، والحاكم في مستدركه، ٣/ ٣٣ ح٤٣٢٥، والبيهقي، دلائل النبوة ٣/ ٤٥٤.
(٢) غزوة الأحزاب لباشميل، ٢٦٥.
(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٦٥٣.
(٤) محمد باشميل، غزوة الأحزاب، ٢٦٧.

جنده، وهزم الأحزاب وحده»[1].

وهكذا حصل حيث أن المشركين لم يغزوا المسلمين بعدها بل غزاهم المسلمون في بلادهم، فعن سليمان بن صرد قال: "قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب": **«نغزوهم ولا يغزوننا»**[2].

قال ابن إسحاق: "لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما بلغنا "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم". فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله تعالى مكة كما رواه الطبراني[3].

وذلك يعكس التغير الجذري في سياسة الدولة الإسلامية من اتباع سياسة الدفاع عن المدينة، إلى مرحلة الهجوم والتهديد، وذلك يشير بوضوح إلى أن مناطق الصراع قد انتقلت في أعقاب هذه الغزوة إلى مناطق أخرى مثل مكة وما حولها، وتبوك، وغيرهما بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية.

وإخبار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم - أي الأحزاب - أو كفار قريش لا يغزوا المسلمين بعد هذه الغزوة علم من أعلام نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث حصل ذلك حتى فتح مكة تلك التي أخرجه كفارها في بداية ظهور الإسلام، وخرج منها خائفاً يترقب، ولكنه بقوة الله وتأييده رجع إليها فاتحاً رافعاً راية التوحيد، حامداً ربه شاكراً له.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله لله سبحانه، وقد سجل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائمًا لأن يغزوا في عقر دارهم وفي عواصم بلدانهم، ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور؛ لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٤٩ كتاب الجهاد، صحيح مسلم ٢/ ٩٨٠ كتاب الحج باب ما يقوله إذا قفل من سفر الحج وغيره، سنن أبي داود ٣/ ٢١٤ كتاب الجهاد، سنن النسائي القسامة ٣٤، سنن ابن ماجة ٢/ ٨٧٨ كتاب الديات، موطأ مالك ٢٤٣، مسند الإمام أحمد ١/ ٤٤٤، ٢/ ٥، ١٠، ١١، ١٥، ٢١، ٣٨، ٦٣، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٨، مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٢.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٤٨، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧، المعجم الكبير ٧/ ١١٥، مجمع الزوائد ٦/ ١٣٩.

ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص، فلقد ذكر الله المؤمنين بنعمه عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وصور ما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

وكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع، ومعاذيرهم الباطلة، ونقضهم للعهود، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وحض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله، وجهاده وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ومدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣] وبين سبحانه أن من سننه التي لا تتخلف، هي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأوضح سبحانه امتنانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا - وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧] [(١)].

الأحكام والفوائد والعبر المستنبطة من هذه الغزوة:

١ - الشورى:

الشورى في الإسلام مبدأ من مبادئ نظام الحكم الإسلامي، وعليه المعول

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول، (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

عندما لا يوجد دليل من الكتاب أو السنة يحتم الأخذ بشيء معين.

وقد شاور الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه كثيراً، كما فعل ذلك الخلفاء الراشدون بعده، وفي غزوة الخندق حصلت المشاورة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه حول خطة الدفاع التي يتخذونها حيال الجموع الزاحف صوب المدينة، التي جاءت من بلادها عاقدة النية استئصال هذا الدين الحنيف الذي أصبح يهدد كيانهم ويبدد أصنامهم.

وقد أشار عليه سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحفر الخندق وذلك لإقتناعه بأنها خطة عظيمة جيدة في هذا الظرف الخطير؛ والوقت القصير؛ ولأنها قد نفذت في بلاد فارس ونفعت.

واقتنع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الرأي السديد، وسارع إلى تنفيذه، وسارع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا العمل العظيم، وأنجزوه في مدة وجيزة حيث لا تستطيع الآلات الحديثة في هذا العصر المتطور مادياً أن تفعل فعلهم إذا أخذنا في الحسبان أنهم حفروا من طرف الحرة الغربية[(١)] الشرقي إلى طرف الحرة الشرقية[(٢)] الغربي.

علماً بأن الحفر واسع وعميق بحيث لم تستطع الخيل اقتحامه مما يدل دلالة واضحة على عِظمه واتساعه، وما ذلك إلا بقدرة الله وقوته وتوفيقه لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

٢ - مشروعية جعل الإمام من ينوب عنه أثناء غيابه في قتال أو غيره.

وهذا مبدأ إسلامي مشروع شرعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عهده فالاقتداء به في ذلك مشروع.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل غزوة، وفي كل سفر يعزم عليه يعين نائباً على المدينة يقوم بالصلاة بأهلها ممن تخلفوا عن القتال لعجز، أو إعالة ضعفاء، أو تمريض مرضى، وغير ذلك من رعاية شئون أهل المدينة.

وفي هذه الغزوة عين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن أم مكتوم[(٣)].

---

(١) الحرة الغربية وتسمى - حرة الوبرة -.
(٢) وتسمى حرة واقم لكنهم بدؤوا من طرف حرة بني حارثة.
(٣) تهذيب التهذيب ٨/ ٣٤، أسد الغابة ٤/ ١٠٣.

٣ - التواضع في الإسلام:

مبدأ شرعي من مبادئ هذا الدين الحنيف وخلق كريم، ولقد وقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم عرفة في حجته التي تسمى حجة الوداع وقال: "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت..."[(١)]. الحديث، من هذا المنطلق يتبين أن التواضع من الرئيس لمرؤوسيه؛ ومن الكبير للصغير، بل التواضع من كل أحد مما دعا إليه الإسلام وقد فعل ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطبق بنفسه هذا المبدأ العظيم.

حيث باشر بنفسه في هذه الغزوة حفر الخندق، ونقل التراب وقد روى البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعل ذلك حتى اغبر بطنه.

وما ذلك إلا لمعرفته بالله، وتواضعه لمن شرح صدره، ووضع وزره ورفع ذكره، حيث لا يذكر الله إلا ويذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتواضعه يتجلى دائماً بين أصحابه سواء في الحرب أو في السلم وسنته مليئة بمثل ذلك.

٤ - المبارزة:

وهي ملاقاة الند[(٢)] من المشركين أمام الصفوف واحداً لواحد.

وقد حصل في هذه الغزوة المباركة لقاء هام بين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين أعتى أعداء الله عمرو بن عبد ود حتى إن المؤرخين أثبتوا جميعاً بأنه فارس قريش وأحد شجعانها المبرزين.

٥ - بيع جيفة الكافر جوازها وعدمه:

وقد جاء في كتب الحديث ما يمنع ذلك فقد عنون البخاري بقوله: باب (طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) وفي ذلك دليل على أنه لا يجوز بيع جيفة المشرك قال المباركفوري: وإنما لا يجوز بيعها وأخذ الثمن فيها لأنها ميتة لا يجوز تملكها ولا أخذ عوض عنها وقد حرم الشارع ثمنها وثمن الأصنام[(٣)].

٦ - لا يعدل عن الوضوء إلى التيمم مع وجود الماء:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤١١/٥ وقد جاء في صحيح مسلم ٢١٩٩/٤ أن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد. الحديث.

(٢) الند: بالكسر المثل وبالفتح الطيب. القاموس ٣٤١/١.

(٣) تحفة الأحوذي ٣٧٦/٥.

أي أن الوضوء قد أوجبه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك الوضوء حتى في أثناء الحروب ذلك لأنه لما كان في هذه الغزوة وفاتته صلاته العصر كما مر في الأحاديث الصحيحة وفي بعضها أنه فاتته الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

عمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندئذ إلى بطحان[١] ليتوضأ، وترك التيمم مع أنه في وقت حرب وأوضاع حرجة؛ ولأنه هو المشرع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولوجود الماء قريباً منه لم يترك الوضوء لما فيه من الأجر العظيم لذلك روى البخاري حيث قال في حديث تقدم وشاهدنا منه هو:

قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله: «**ما صليتها**» فنزلنا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطحان فتوضأنا لها. الحديث[٢].

٧ - الخديعة في الحرب:

قال الحافظ: "وأصل الخداع إظهار أمر وإضمار خلافه"[٣].

وقد روي البخاري رَحِمَهُ اللهُ عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سمى الحرب خدعة**»[٤].

واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل"[٥].

وقد فعل ذلك نعيم بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الخندق حيث أنه كان قد أسلم ولم يعلم به قومه فذهب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره بإسلامه وأن قومه لا يعلمون بذلك.

وأراد مساعدة المسلمين فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أنت فينا رجل واحد

---

(١) أحد أودية المدينة المشهورة.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٧.
(٣) انظرفتح الباري ١/ ٢٣٢.
(٤) صحيح البخاري ٤/ ٢٤ كتاب الجهاد.
(٥) صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٢ كتاب الجهاد.

فخذل عنا ما استطعت، فذهب لتوه إلى بني قريظة فقريش فغطفان وخذلهم الله وفرق جمعهم وشتت شملهم وكان نعيم سبباً هاماً في ذلك.

٨ - مشروعية إرسال العيون لأخذ أخبار الأعداء:

من هذا المنطلق فقد بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلة الأحزاب ليأتيه بأخبار تلك الجموع التي حاولت جاهدة في حرب المسلمين وإيذائهم.

وقد قام حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمهمة خير قيام، حيث ذهب إليهم، وجلس بينهم، وسمع ما يدور في معسكرهم، وقد كان على مسافة قريبة من القائد أبي سفيان وأراد أن يرميه فتذكر تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له من ذلك «**ولا تذعرهم عليّ**»[1]. فعاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل أخباراً سارة وبشرى هامة هي رحيلهم، وانكشافهم عن المدينة التي ضاقت بهم ذرعاً: ﴿**وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

من هنا يؤخذ، جواز استعمال العيون، وإرسالها للتعرف على حالة الأعداء، ومدى استعدادهم، وكيفية تحركاتهم، حتى يكون المسلمون على علم بأعدائهم فيعد المسلمون لكل أمر عدته ولا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن تحركات أعدائهم وما يكيدونه للإسلام وأهله.

٩ - استعراض الإمام للجيش قبل وقوع القتال كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه الحديث.

وقد وقع هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر وغيرها. وخروج صغيري السن لم يحدث إلا عند أولئك الذين يستشعرون قيمة الشهادة وتهون أنفسهم في سبيل الله طمعاً فيما عنده من مغفرة ورضوان.

فعن ابن عمرقال: "عرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق فلم يجزني ولم يرني بلغت[2]".

وفي الحديث أيضاً من العبر: حسن أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعرفته التامة بأحوال أصحابه واحترامه لهم ولأبنائهم رغم عظم الرسالة والأعباء التي حملها

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤ - ١٤١٥.
(٢) فتح الباري ٥/ ٢٧٩.

ولا غَـرْوَ فقـد قـال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لـيس مـنا مـن لم يـرحم صـغيرنا ولم يوقـر كبيرنا»[1]".

١٠ - تعاون الجميع إذا هوجمت البلاد:

وهـناك أحاديـث صـحيحة تـبين بوضوح مباشرته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحفر ونقل التراب مع صحابته رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ من ذلك ما روي البخاري ونصه:

عـن الـبراء رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: "كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو إغبر بطنه[2]. يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتديـــنا ::: ولا تـــصدقنا ولا صـــلينا

إن الأُلى قـــد بغـــوا علينـــا ::: وثـــبت الأقـــدام إن لاقيـــنا

فأنـــزلن ســـكينة علينـــا ::: إذا أرادوا فتـــنة أبيـــنا

قال البراء: "ويرفع بها صوته أبينا أبينا"[3].

وهـذا يـدل بجـلاء علـى مشاركته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهم وعلى تواضعه وقد جاء عـند أحمد عن أم سلمة رَضِيَاللَّهُعَنْهَا قالت: "ما نسيت قوله يوم الخندق وهو يعاطيهم اللـبن وقـد أغـبر شـعر صـدره وهـو يقـول: **«اللهـم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»**[4].

وفي هذا من العبر والدروس الشي الكثير منها:

١ - القدوة في ذلك.

٢ - مباشـرة الرسـول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحفـر بنفـسه تحريـضاً للمـسلمين على العمل ليتأسوا به في ذلك، وحتى يبتعدوا عن الاتكالية وما يعقبها من تبعات.

٣ - فـيهما إشـارة إلى تحقـير عيش الدنيا مهما بلغ لما يعرض له من التكدير وسـرعة الفـناء: ﴿وَٱلْآخِـرَةُ خَـيْرٌ وَأَبْقَـىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ

(١) رواه الترمذي في البر ١٥، وأحمد ١/ ٢٥٧، ٢/ ٢٠٧.

(٢) والمعنى وارى التراب جلدة بطنه. الفتح، ٧/ ٣٩٩.

(٣) فـيه دلـيل علـى تواضعه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وانشراح صدره ومجاراته لأصحابه فيما هو حلال وطـيب. وانظـر أيضاً: صحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق. ومسند الإمـام أحمـد ٤/ ٢٨٢/ ٢٨٥ - ٢٩١/ ٣٠٠/ ٣٠٢/ ٣٠٣، وسـنن الدارمـي ٢/ ٢٢١، والمسند ١/ ٢٢٧ رقم (٣١٧).

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٨٩.

﴿الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

٤ - ترديده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض الكلمات إجابة لأصحابه لما كانوا يقولونه أثناء الحفر وذلك مما ينشط حيث إن الإنسان إذا اشتغل في عمل جسماني شاق فالسكوت يشق عليه ويتعب بسرعة أكثر مما لو كان يتكلم حيث ينسيه الكلام التعب وهذا مجرب.

٥ - ملاطفته لأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وهو الموصوف بقول ربه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. حيث كان أصحابه يرتجزون أثناء الحفر برجل من المسلمين يقال له جعيل[1] فسماه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرا فكانوا يقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا ::: وكان للبائس يوماً ظهرا

فإذا مروا بعمرو قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عمراً وإذا مروا بظهر قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهرا.

١١ - من المعجزات التي حصلت في هذه الغزوة:

الكدية والطعام المبارك فيؤخذ منه:

١ - طاعتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحافظتهم على ذلك بدليل أنهم لما صادفوا تلك العقبة لم يتصرفوا حسب أرائهم بل رجعوا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك ونتيجة لتلك الطاعة أعانهم الله عز وجل على تلك العقبات فأنجزوا ذلك العمل في وقت وجيز.

٢ - حبهم الشديد لله، ولرسوله، وشفقتهم على بعضهم: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ذلك أنه حينما رأى جابر ما يعانيه المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجوع استأذن وعاد أدراجه إلى بيته ليجهز ما يستطيع عليه من طعام يدعو إليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثلة من أصحابه وفعلاً وجد عناقاً وصاعاً من شعير فذبح العناق، وطحنت زوجته صاع الشعير وجهزوه وعاد جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء به ومن معه ضيفاً على تلك المأدبة المتواضعة.

٣ - تكثير الطعام الذي خجل[2] جابر من قلته فأكل الجميع وشبعوا وذلك بفضل الله على نبيه وإظهاره على يديه تلك المعجزات الباهرة.

٤ - تواضعه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لربه ولأصحابه حيث كان يغرف بنفسه

(١) انظر أسد الغابة ١/ ٢٩٠، وحلية الأولياء ١/ ٣٥٣ رقم الترجمة (٥٥).
(٢) الخجل: التحير والدهش من الاستحياء. مختار الصحاح، ص ١٧٠.

اللحم، ويكسر لهم الخبز حتى صدروا عنه.

٥ - الإهداء للجيران من الطعام سنة، وخاصة في أوقات المجاعة وقد أوصى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك كما في حديث أبي ذر[١]. حيث قال: إن خليلي أوصاني: **«إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف»**.

١٢ - أهمية الصلاة:

وفيه حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "يا رسول الله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس أن تغرب فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما صليتها»** قال: فقمنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها وصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب"[٢]. وفيه من الفوائد:

١ - جواز اليمين من غير استحلاف إذا اقتضت مصلحة من زيادة طمأنينة أو نفي توهم.

٢ - استحباب قضاء الفوائت في جماعة وبه قال أكثر أهل العلم إلا الليث مع أنه أجاز صلاة الجمعة جماعة إذا فاتت.

٣ - استدل به على عدم مشروعية الأذان للفائتة.

١٣ - كثرة جند الله:

وفيه حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا (نصرت بالصبا) وفيه:

١ - تفضيل بعض المخلوقات على بعض.

٢ - إخبار المرء عن نفسه بما فضله الله به على سبيل التحدث بالنعمة، وبيان المنزلة لا على الفخر.

٣ - الإخبار عن الأمم الماضية وكيفية هلاكها.

٤ - الصبا هي أفضل الرياح التي تهب حيث أنها بفضل الله مبشرة بالخير، ويستفيد منها الزرع بخلاف غيرها من الرياح فمثلاً الرياح الشمالية إذا هبت تميت المزروعات غالباً وهذا ما جربه الفلاحون.

١٤ - أهمية الدعاء:

---

(١) صحيح مسلم، ٤/ ٢٠٢٥.
(٢) صحيح البخاري، ٥/ ٩٢.

وفيه حديث عبد الله ابن أبي أوفى "اللهم منزل الكتاب" ومن الفوائد ما ذكره الحافظ: أن فيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث: إنزال الكتاب - إجراء السحاب - هزيمة الأحزاب . وفيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار .

ووصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم ، وتعليمهم ما يحتاجون إليه ، وسؤال الله تعالى بصفاته الحسنى وبنعمه السابغة ومراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة والحث على سلوك الأدب وغير ذلك[(١)] .

وفيه حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً " الحديث[(٢)] .

قال الحافظ: "وفيه الدعاء عليهم بأن يملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، وليس فيه الدعاء عليهم بالهزيمة لكن يؤخذ من لفظ الزلزلة لأن في إحراق بيوتهم غاية التزلزل لنفوسهم".

وقال: "وفيه جواز الدعاء على المشركين بمثل ذلك".

كما تضمن كذلك دعاء صدر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من يستحقه وهو من مات مشركاً منهم . وفيه شدة حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أداء الصلوات وخاصة صلاة العصر والتي قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تاركها: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**» [(٣)] .

والذي يقارن بين أرقام المسلمين في أي معركة وبين أرقام المشركين يجد دائماً أن المشركين أكثر من المسلمين أضعافاً مضاعفة ومع ذلك فقد كان النصر حليف المسلمين رغم ذلك كله[(٤)] .

وأخيراً يتبين من مجريات الأمور والأحداث في هذه الغزوة وغيرها من الغزوات أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووفرة السلاح وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش .

وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان

(١) فتح الباري ٦/١٥٧ .
(٢) انظر الحديث في الصحيح ٥/٤٧ .
(٣) فتح الباري ٦/١٠٦ ، وقد أخرجه البخاري في المواقيت حديث رقم (٥٥٣ ، ٥٩٤) والنسائي في الصلاة .
(٤) إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص ٤١٧ - ٤٢٣ .

الصادق والفرح بالاستشهاد والرغبة في ثواب الله وجنته .

كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال والفرقة والفساد . بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة وتفسخ الأخلاق ، وتفكك الروابط الاجتماعية ، والانغماس في الملذات .

والعصبية العمياء للتقاليد البالية والآباء الماضين والآلهة المزيفة انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال .

فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر مثلاً على أن يقيموا ثلاثة أيام يشربون فيها الخمور ، وتغني لهم القيان ، وتضرب لهم الدفوف ، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم .

وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر ، بينما كان المسلمون قبل بدء أي معركة يتجهون إلى الله بقلوبهم يسألونه النصر ، ويرجونه الشهادة ، ويشمون روائح الجنة ويخر الرسول ﷺ ساجداً مبتهلاً يسأل ربه أن ينصر عباده المؤمنين ، وقد ابتهل كثيراً في هذه الغزوة ودعا الله حتى نصره وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون وانهزم اللاهون العابثون[1] .

غزوة بني قريظة:

كان نقض بني قريظة لوثيقة العهد التي أبرموها مع الرسول ﷺ عند حصار قوات الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق وإصرارهم على خيانة الله ورسوله ﷺ والمسلمين ، وتعريضهم أمن وسلامة المسلمين ودولتهم للخطر ، السبب في هذه الغزوة ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بقتالهم بعد انسحاب الأحزاب وانتهاء الحصار والخطر وعودته بالمسلمين من الخندق ووضعهم السلاح [2] .

ففي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عند الظهر ، وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة ، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في موكبه من الملائكة ، وأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر ، ٢ / ١١٤ - ١١٥ .

(٢) البخاري - الصحيح ٣/ ٣٠٦ ، مسلم - الصحيح ٧/ ١٣٨ .

الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصَلِّينَّ العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبي طالب، وقدّمه إلى بني قريظة[١].

وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنّا. وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين[٢].

والحاصل أن الذين صلوا العصر في الطريق جمعوا بين الأدلة وفهموا المعنى فلهم الأجر مرتين والآخرين حافظوا على أمره الخاص فلهم الأجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعهم وأرضاهم.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قدم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناس وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا فلما دنا علي كرم الله وجهه من الحصن [٣] ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرجع حتى لقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطريق فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: «**لم؟ أظنك سمعت لي منهم أذى**». قال: نعم يا رسول الله. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا. فلما دنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حصونهم قال: «**يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟**» قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولا [٤].

ومر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال هل مر بكم أحد؟ قالوا يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة. عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذلك جبريل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف**

---

(١) الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ٢/ ١١٢.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) حصن بن قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الشرقي.
(٤) علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٢/ ٦٥٩.

الرعب في قلوبهم»[1].

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب[2]، وقد كان حيى بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم:

يامعشر اليهود انه قد نزل بكم من الأمر ما ترون واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم: قالوا وماهن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبي مرسل وأنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولانستبدل به غيره. قال فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم تترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان نهلك نهلك ولم تترك وراءنا شيئا نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟

قال فإذا أبيتم هذه على فإن الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه من المسخ مالم يخف عليك، قال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما[3].

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكان حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم. وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم. وأشار بيده إلى حلقه " أنه الذبح " قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم أنطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٣٥.
(٢) ابن سعد، الطبقات ٣/ ٧٤، ابن سيد الناس، عيون الأثر ٣/ ٦٨.
(٣) الروض الأنف، ٣/ ٤٣٧.

عمده[1] وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبدا . وقال لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا . فلما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال: «**أما لو جاءني لاستغفرت له. فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**» ثم أن توبة أبي لبابة أنزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2]

قال ابن إسحاق فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله انهم موالينا دون الخزرج . وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع . وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه . فسأله اياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوهبهم له . فلما كلمه الأوس قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى . قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**» وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «**اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب**»[3] .

وكان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بني

---

(١) وتعرف بأسطوانة أبي لبابة واسطوانة التوبة .

(٢) قال ابن إسحاق: إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السحر وهو في بيت أم سلمة . (فقالت أم سلمة): فسمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السحر وهو يضحك . قالت فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك؟ قال تيب على أبي لبابة ، قالت قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال بلى ، إن شئت . قال فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك . قالت فثار الناس إليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يطلقني بيده فلما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه . قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع فيما حدثني بعض أهل العلم والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦٣) .

قريظة لأنه لما ذهب إليهم أشار بيده إلى حلقه "أنه الذبح" ثم ندم على هذه الإشارة واعتبرها خيانة الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان ما كان منه. أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه في بني قريظة معروفا أيضا لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال: " اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة "[١] وقد بقي مجروحا إلى أن استدعاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحكم في بني قريظة فأتاه قومه فاحتملوه على حمار وأقبلوا معه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه. قال: لقد آن لسعد أن لاتأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قوموا إلى سيدكم فانزلوه. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احكم فيهم. قال: فاني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى[٢] ذراريهم وأن تقسم أموالهم. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**»[٣].

فأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ان تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد. ثم خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يخرج بهم إليها إرسالا وفيهم عدو الله حيى بن أخطب. وكعب بن أسد رأس القوم وهم ٦٠٠ أو ٧٠٠ وقيل أنهم كانوا من ٨٠٠ إلى ٩٠٠، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارسالا: يا كعب ماترى ما يصنع بنا؟ فقال كعب: في كل موطن لا تعقلون. ألا ترون الداعي لا ينزع وانه من ذهب به منكم لا يرجع. هو والله القتل[٤].

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتى بحيى بن أخطب وعليه حلة له فقاحية[٥] قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة

(١) تاريخ الطبري، ٢/ ٩٦.
(٢) تسبى: تؤسر، والسبي: الأسر.
(٣) البداية والنهاية، ٤/ ١٠٨، ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ١١٧، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢/ ٢٤٠.
(٤) تاريخ الطبري، ٢/ ١٠١.
(٥) فقاحية: قال ابن هشام: ضرب من الوشي، وقال الواقدي: حلة شقحية: اي حمراء (عن النهاية).

أنملة لئلا يسلبها . مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ . قال: أما والله مالمت نفسي في عداوتك . ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس . فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله . كتاب الله وقدره وملحمة قد كتبت على بني اسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه [١]

شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

وأقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقال: هب [٢] لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث[٣] ، فأعطاه إياه ، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبدالرحمن ، هل تعرفني؟ فقال: نعم وهل ينكر الرجل أخاه قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث ، قال: فافعل ، فإن الكريم يجزي الكريم ، قال: قد فعلت ، قد سألت رسول الله ﷺ فوهبك لي ، فأطلق عنه إساره ، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني ، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له ، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك ، فقال الزبير: حائط [٤]لي فيه أغدق [٥] ، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به ، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ فوهبه له ، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد رد إليك رسول الله ﷺ أهلك ومالك ، فأسلم تسلم ، قال: مافعل الجليسان؟ - يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة -؟ وذكر رجال قومه ، قال ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم ، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير ، قال الزبير: أسألك بالله ياثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم ، فليس في العيش خير بعدهم ، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ﷺ فأمر بالزبير فقتل [٦] .

وأتي رسول الله ﷺ بكعب بن أسد مجموعة يداه إلى عنقه وكان

---

(١) تاريخ الطبري ، ٢/ ١٠١ .
(٢) الهبة: العطية الخالية من العوض والغرض .
(٣) وكان الزبير قد منَّ على ثابت في الجاهلية في يوم بعاث فأخذه وجز ناصيته ثم خلَّى سبيله ، ابن هشام ٢/ ٢٤٣ ، فأراد ثابت رضي الله عنه رد تلك الصنيعة للزبير .
(٤) الحائط: البستان أو الحديقة وحوله جدار .
(٥) الغدق: الماء الكثير . القاموس ١١٨٠ مادة (غدق) .
(٦) تاريخ الطبري ، ٢/ ١٠١ .

حسن الوجه، فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كعب بن أسد؟**» قال كعب: نعم يا أبا القاسم. قال: «**وما انتفعتم بنصح ابن خراش وكان مصدقا بي، أما أمركم باتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟**» قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم ولولا أن تعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين اليهود. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قدمه فاضرب عنقه**». فقدمه فضرب عنقه[1].

وقتل من نساء بني قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت والله انها لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها. أين فلانة؟ قالت وأنا والله. قلت ويلك مالك؟ قالت: أقتل. قلت ولم؟ قالت حدث أحدثته. قالت فانطلق بها فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: ما أنسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت انها تقتل، وكانت طرحت رحى علي خلاد بن سويد فقتلته بارشاد زوجها لأنه أحب أن لا تبقى بعده فيتزوجها غيره ولم يقتل أحد من المسلمين في هذه الغزوة غير خلاد[2].

ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجمع ما في حصونهم من الغنائم والحلقة والسلاح وغير ذلك فكانت من السيوف ألفا وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفاً وخمسمائة ترساً وجحفة،

---

(١) المغازي للواقدي، ٢/ ٥١٦.

(٢) تاريخ الطبري، ٢/ ١٠١. وكانت هذه المرأة تحت الحكم القرظي فكان يحبها وتحبه، فلما اشتد عليهم الحصار بكت إليه وقالت: إنك لمفارقي. فقال: هو والتوراة ما ترين، وأنت امرأة فدلي عليهم هذه الرحى، فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد، وأنت امرأة، وإن يظهر محمدٌ علينا لا يقتل النساء. وإنما كان يكره أن تسبى، فأحب أن تقتل بجرمها. وكانت في حصن الزبير بن باطا، فدلت رحى من فوق الحصن، وكان المسلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فينه، فأطلعت الرحى، فلما رآها القوم انفضوا، وأصابت خلاد بن سويد فتشدخ رأسه، فحذر المسلمون أصل الحصن. فلما كان اليوم الذي أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقتلوا، دخلت على عائشة فجعلت تضحك ظهراً لبطن وهي تقول: سراة بني قريظة يقتلون! إذ سمعت صوت قائل يقول: يا نباتة. قالت: أنا واللهُ التي أدعى. قالت عائشة: ولم؟ قالت: قتلني زوجي - وكانت جاريةً حلوة الكلام. فقالت عائشة: وكيف قتلك زوجك؟ قالت: كنت في حصن الزبير بن باطا، فأمرني فدليت رحىً على أصحاب محمد فشدخت رأس رجلٍ منهم فمات وأنا أقتل به. فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها فقتلت بخلاد بن سويدٌ. انظر: المغازي للواقدي، ٢/ ٥١٦.

كما تركوا عدداً كبيراً من الشياه والإبل وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة ، ووجد المسلمون دناناً من الخمر ، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة ، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم ، إذ جعل للفرس سهمين ، وللراجل سهماً ، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم لهم ولفرسه ، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له ، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى ، وأما ماوجده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئاً ، ولم ينتفعوا به كذلك ، وقد أسهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطى سهمه لورثته ، كما رضخ [1] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن ، منهن: صفية بنت عبدالمطلب ، وأم عمارة ، وأم سليط ، وأم العلاء ، والسميراء بنت قيس ، وأم سعد بن معاذ ، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمهاجرين دون الأنصار ، وأمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض ، وكانت على سبيل العارية ، ينتفعون بثمارها ، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧] ، ثم بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا[2] من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم منه خيلا وسلاحا واصطفى [3]لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة فكانت عند رسول الله حتى توفى عنها وهي في ملكه [4].

وفاة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ::

كان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أصيب في غزوة الأحزاب دعا الله عز وجل

---

(١) رضخ له: أعطاه شيئاً ليس بالكثير.
(٢) السبي: الأسرى.
(٣) فضَّل واختار.
(٤) وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، قالت: يا رسول الله ، بل تتركني في مالك فهو أخف عليك وعلي ، فتركها وقد كانت حين سباها تعصت بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها فبينما هو في مجلس مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: « إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة » . فقال: يا رسول الله ، قد أسلمت ريحانة ، فسره ذلك . دلائل النبوة للبيهقي ، ٤/ ٧٤ .

قـائلاً: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك) [١]، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه، وتماثل للشفاء[٢] حتى كانت غزوة بني قريظة، وكان سعد قد دعا أيضًا: (ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[٣]، وجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم[٤].

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا والمشركين)، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها[٥]، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رَحِمَهُ اللهُ[٦].

ثم إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قبض سعد بن معاذ في جوف الليل [٧] معتجرا [٨] بعمامة من استبرق فقال: «**يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟**» قال فقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريعا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات [٩].

ثم إن قومه احتملوه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بني عبدالأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة، فقيل: انطلقوا فخرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخرجنا معه فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع نعالنا وسقطت أرديتنا عن أعناقنا فشكا ذلك إليه أصحابه يا رسول أتعبتنا في المشي فقال: «**إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة**» فانتهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى

(١) البخاري – الفتح ٧ (٣٩٠١).
(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٢٢٨.
(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (٣/ ١٣٨٩) رقم ١٧٦٩.
(٤) البداية والنهاية ٤/ ١٠٨، ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ١١٧، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢/ ٢٤٠.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(٦) صحيح البخاري ٥/ ٥١، فتح الباري ٧/ ٤١١ – ٤١٥.
(٧) الجوف: وسط الليل.
(٨) الاعتجار بالعمامة هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه.
(٩) دلائل النبوة للبيهقي، ٤/ ٢٩.

البيت وهو يغسل وأمه تبكيه وهي تقول:

ويـــــل أم ســــعد ســــعداً ::: حـــــــزامة وجـــــــداً

فقال: كل نائحة تكذب إلا أم سعد، ثم خرج به قال: يقوم له القوم: ماحملنا يارسول الله، ميتاً أخف علينا منه. قال: ومايمنعه أن يخف، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم(١).

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضمَّة ثم أفرج عنه**»(٢). يعني سعداً.

وهاهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يودع سعداً كما روي عبدالله بن شداد: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يكيد نفسه فقال: جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ماوعدته، ولينجزك الله ماوعدك(٣).

لقد كان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين الأولين لاعتناق هذا الدين الحنيف بل إنه بإسلامه أسلم قومه بني عبد الأشهل وقد أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على يد أول سفير أرسله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة كان ذلك على يد مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه -. وقد شهد سعد رضي الله تعالى عنه بدراً وكان له الموقف المشجع والشهير والذي حمده عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حيث قال للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد كلام جميل . . . فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً أنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله. قال فسر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول سعد ونشطه(٤).

وقال ابن الأثير: "ومقاماته في الإسلام مشهورة وكبيرة ولو لم يكن له إلا يوم بدر لكفى"(٥).

---

(١) الطبقات الكبرى، ٣/ ٤٢٨، سير أعلام النبلاء، ١/ ٢٨٧.
(٢) سير أعلام النبلاء، ١/ ٢٩٥، إسناده صحيح، أخرجه النسائي، ٤/ ١٠٠، في الجنائز.
(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٢٩، وابن أبي شيبة، المصنف، ٤/ ٢١٦.
(٤) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٢.
(٥) أسد الغابة، ٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

وجاءت غزوة الخندق حيث أراد الله له الحسنى فضرب أروع الأمثلة.

وحتى بعد أن رمي في أكحله استمر مجاهداً في سبيل الله حتى حقق الله ما طلب وشفى قلبه من اليهود الذين خذلوا دين الله وخذلوا رسوله في وقت عصيب ولكن الله سبحانه وتعالى رد كيدهم في نحورهم، وحكم فيهم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذوا وقتلوا تقتيلاً على مرأى ومسمع من المسلمين وذلك انتقام من الله جزاء بعض ما فعلوه.

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السيادة في العشرينات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السماوات بقدومه واهتز عرش الرحمن فرحا لوفاته، من دون خلق الله أجمعين.

* * * * *

الفصل السادس:

[الغزوات والسرايا والبعوث بعد غزوة بني قريظة حتى الحديبية]

الغزوات والسرايا والبعوث بعد غزوة بني قريظة حتى الحديبية:

بعد ما حقق المسلمون ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطا واسع النطاق ضد خصومهم على كافة الجبهات، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشاركين في الأحزاب من جهة أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء وقد تمثّل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة في ما يلي:

مقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق [١] من زعماء اليهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المدينة بعد نقضهم العهد والميثاق معه فتوجه مع بقية زعماء بني النضير إلى خيبر، فدان لهم يهودها، ومع ذلك كانوا دائما يتطلعون إلى الفرص السانحة للثأر من المسلمين والعودة مرة ثانية إلى المدينة، ورأوا أن هذا الهدف صعب المنال مالم يتم القضاء على قوة المسلمين المسيطرة في المدينة وما حولها، وأن ذلك لن يكون إلا بعمل ضخم منسق ضد المسلمين، فقوة اليهود وحدها لا تكفي لذلك، ومن خيبر بدأوا اتصالات موسعة وسفارات متعددة كان الهدف منها تحزيب أكبر قوة ممكنة من العرب تغزو المسلمين في عقر دارهم وتستأصلهم، وقد تم تقسيم خطة العمل بين هؤلاء الزعماء لهذا الغرض، فكان سلام بن أبي الحقيق - كما يذكر عروة - له اليد الطولى في تحزيب قبائل غطفان النجدية الكبيرة وحلفائها من "مشركي العرب يدعوهم إلى قتال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجعل لهم الجعل [٢] العظيم" [٣].

---

(١) اختلفت المصادر في ذلك، فمنها ما سماه عبد الله، ومنها ما سماه سلاّم، ومنهم من نسبه إلى أبيه دون ذكر اسمه، والبعض نسبه إلى كنيته فقط، ولكن الأكثر على أنه سلام بن أبي الحقيق. انظر: عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٨)، وابن هشام، سيرة (٢/ ٢٧٣)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٩١)، وابن حزم، جوامع (١٩٨)، وابن عبد البر، درر، ص ١٩٥.

(٢) الجعل: ما تجعل للغازي إذا غزا عنك بجعل. (لسان العرب، والقاموس، مادة: جعل).

(٣) انظر: ابن حجر فتح (٧/ ٣٤٣)، البيهقي، الدلائل (٤/ ٣٨)، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٩١.

ولما انقضى أمر الخندق وبني قريظة بعد أن انفض الأحزاب عن المدينة بغيظهم لم ينالوا خيرا، وقُتل حُيي بن أخطب النضري شريكُ أبي رافع القوي في تحزيب الأحزاب – مع بني قريظة – فنال بذلك القصاص العادل الذي أفلت منه سلام بن أبي الحقيق حيث كان بعيدا في قومه في حصون خيبر فأصبح بالنسبة للمسلمين مجرم حرب خطيرا هاربًا لابد من القضاء عليه حتى لا يقوم بتحركات مماثلة في المستقبل تهدد أمنهم وسلامتهم.

وكانت الأنصار كما أشار أهل المغازي[1] يتنافسون فيما بينهم تفانيًا في خدمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فلما أصابت الأوس كعبَ بن الأشرف بمبادرة بطولية من جانبهم، فحققوا بذلك سبقا إسلاميًّا على منافسيهم من الخزرج الذين بَدَوْا متحفزين للقيام بدور مماثل، فما أن ندب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ابن أبي الحقيق حتى سارعوا إلى التطوع للانخراط في هذه المهمة الشاقة على صعوبتها وما يحيط بها من أخطار، فالرجل بعيد عن قاعدة الإسلام: المدينة، وهو في مَنَعة من قومه وحصونهم وحلفائهم من غطفان، ومن أجل ذلك تخيَّر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجالاً منهم فيهم بعض الشروط المناسبة لهذه المهمة الصعبة، فكان عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قائدًا لهذه السرية حيث تذكر بعض المصادر أنه كان يتقن العبرية بطلاقة – إضافة إلى صلته السابقة بأبي رافع[2]. واهتمت روايات أهل المغازي بتسمية بقية أفراد السرية على خلاف بينها في بعضهم[3].

---

(١) انظر الزهري، المغازي النبوية (١١٣)، وعبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧ – ٤٠٨)، ابن هشام، سيرة، ٣/ ٢٧٤، الواقدي، مغازي، ١/ ٣٩١، ابن سعد، طبقات، (٢/ ٩١، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٣).

(٢) ذكر ذلك الواقدي، وكاتبه ابن سعد رواية عن جمع من شيوخه، منهم الواقدي. وذكر خليفة أن أم عبد الله كانت بخيبر، ولكن الواقدي ذكر أنها أمه من الرضاعة. انظر: خليفة بن خياط، الطبقات (١٠٣)، والواقدي، مغازي (١/ ٣٩١ – ٣٩٢)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٣٩٥). وربما يؤيد رواية الواقدي وابن سعد ما وقع في روايات الصحيح من أن عبد الله بن عتيك رضي الله عنه حينما دخل على أبي رافع وضربه، ثم رجع إليه كلّمه كهيئة المغيث، وتكرر ذلك منه مرارا، ولا يمنع أن يكون الحديث بينهما باللغة العربية التي يتقنها أبو رافع، ولكن ما عرف من خبث اليهود وحذرهم الشديد وجبنهم يجعلنا نستأنس بهذه الروايات على ضعفها. والله أعلم.

(٣) اتفق أهل المغازي في أسماء ثلاثة منهم، هم: عبد الله بن أنيس، ومسعود بن سنان، وأبو قتادة. انظر: عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧ – ٤٠٨)، ابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٤)،

وعلى كلٍّ انطلق هؤلاء المغاوير الشجعان ببسالة لإنجاز مهمتهم، ووصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتردد صداها على مسامعهم «**لا تقتلوا وليدًا ولا امرأة**»[1] حتى إذا ما دَنوا من الحصن الذي يقيم فيه أبو رافع "وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم[2]"[3]. قال قائد السرية عبد الله بن عتيك لأصحابه: "اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل" فأقبل عبد الله – وكان قد فكر بحيلة يستطيع بها خداع البواب فيدخل دون أن يفطن إليه فلما دنا من الباب "تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته[4]. وقد دخل الناس فهتف البواب: يا عبد الله[5] إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب[6]، قال عبد الله: "فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن[7] فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة[8] فأخذته ففتحت به باب الحصن"[9]، "فجعلت كلما أفتح بابا أغلقت عليَّ من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت؟"[10] وهنا يتذكر عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصية رسول الله

والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٤)، الواقدي، مغازي (١/ ٣٩١)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٩١).

(١) انظر عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧)، وابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٤)، البيهقي، سنن، ٩/ ٧٧، ابن حجر، إصابة، ٢/ ٣٤١، الهيثمي، مجمع (٦/ ١٩٨).

(٢) السرح: المال السائم الراعي وسرحت الماشية، أي: أخرجتها بالغداة إلى المرعى (القاموس واللسان: سرح).

(٣) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، ورواها البيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

(٤) أي يتبول أو يتبرز وكان الناس في ذلك العهد تعودوا على قضاء حوائجهم خارج بيوتهم، وقد حققت له هذه الحيلة على بساطتها ما كان يهدف إليه حيث ظن البواب أنه من أهل الحصن يقضي حاجته خارجه، فهتف به للدخول غير شاك به.

(٥) لم يُرد اسمه العلم لأنه لو كان كذلك لكان قد عرفه، فالذي يظهر أنه أراد معناه الحقيقي لأن الجميع عبيد الله. ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٣).

(٦) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١).

(٧) كأنه كان للحصن بابان، باب من داخل، وآخر من خارج.

(٨) الكوة: بفتح الكاف وبضم، والكوة: الخرق في الحائط، وقيل بالفتح غير النافذة، وبالضم النافذة. ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٣)، والقاموس، مادة (كوه).

(٩) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٢)، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٥).

(١٠) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هو ضرب على غير هدى كخبط عشواء لربما أصاب بعض عياله أو نسائه، لأجل ذلك صاح به ليعرف مكانه "أبا رافع، قال: من هذا؟" يقول عبد الله: "فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟، فقال: لِأُمك الويل إن رجلا في البيت ضربني قبلُ بالسيف". "قال: فعمدت له أيضا فأضربه أخرى فلم تغن شيئا فصاح وأقام أهله، قال: ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلقٍ على ظهره فأضع السيف في بطنه ثم أنكفيء عليه حتى سمعت صوت العظمٍ، ثم خرجت دهشا حتى أتيت السلم أريد أن أنزل فأسقط منه فانخلعت رجلي[1] فعصبتها، ثم أتيت أصحابي أحجل[2] فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية"[3] "فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز"[4] "قال: فقمت أمشي ما بي قلبة[5] فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[6] "فحدثته، فقال: «**ابسط رجلك**» فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكها قط"[7][8].

ويذكر كتاب السيرة أن سرية ابن عتيك كلها شاركت في ضرب أبي رافع وأن كل واحد منهم ادعى انه ضربته كانت هي القاضية على أبي رافع، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجلوا بأسيافكم**» فأتوا بأسيافهم فنظروا إليها، ثم قال: «**هذا قتله**»، وهو سيف عبدالله بن أنيس، هذا أثر الطعام في سيف عبدالله

---

(١) وفي: "فانكسرت ساقي"، قال ابن حجر: ويجمع بينهما بأنهما انخلعت من المفصل وانكسرت الساق، وقال الداودي: هذا اختلاف، وقد يتجوز في التعبير بأحدهما عن الآخر لأن الخلع هو زوال المفصل من غير بينونة أي بخلاف الكسر.

(٢) الحجل: أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى. (اللسان: حجل).

(٣) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٢)، والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٥).

(٤) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

(٥) أي: ألَمٌ وعلة. ابن الأثير، النهاية (٤/ ٩٨).

(٦) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٢)، وانظر البيهقي، دلائل (٤/ ٣٥).

(٧) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، وانظر البيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

(٨) ابن حجر، فتح (٦/ ١٥٥) الزهري، المغازي النبوية، ١١٣ - ١١٤ - ١١٥)، عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، وابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥)، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٨)، أبو يعلى، المسند (٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦).

بن أنيس[1] .

وقد يتوهم القارئ الكريم أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول أن الضربة القاضية كانت من عبدالله بن أنيس والحق أنه ليس كذلك ، ذلك لأن عبدالله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل وأنه قد حكى عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع ، ولايعني هذا أن غيره لم يشارك في قتله ، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع ، والروايات يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدعى أن ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافع ، وقد نظر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعواهم وفحص سيوفهم وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبدالله بن أنيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لظهور أثر الطعام عليه ، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه وقطع أمعاءه وخلط غذاءه في جوفه[2] .

وهكذا تم بهذا العمل الجريء الشجاع القضاء على مجرم حرب خطير كان له دور بارز ومميز في تحزيب الأحزاب ضد المسلمين ، فنال بذلك القصاص العادل الذي يستحقه بالفعل ، فلو أراد الله عز وجل ونجحت مخططات الأحزاب لكان في ذلك القضاء المبرم على المسلمين ولكن الله سلَّم ، وفشلت مخططاتهم وهزمهم الله وحده وقتل الله حُيَيَّ بن أخطب مع بني قريظة ، ثم قضى على أبي رافع بمبادرة بطولية من الخزرج فتخلص المسلمون من عدوين خطيرين كان في بقائهما تهديد كبير لأمنهم وسلامتهم .

ومن فوائد هذا الموقف التي استخرجها ابن حجر حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر ، وقتل من أعان على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده أو ماله أو لسانه ، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم ، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين ، وجواز إيهام القول للمصلحة ، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٩١ - ٩٢) ؛ المغازي للواقدي (١/ ٢٩٤) ؛ المغاز النبوية للزهري ، ص١١٤ .
(٢) الصراع مع اليهود ، ١/ ١٨٩ .

الناعي بموته والله أعلم[1].

ومما يستفاد من الحديث أيضا النهي عن قتل النساء والولدان إلا إذا كانوا من قوم مبيّتين، وهي مسألة خلافية حيث فيها هذا الحديث وحديث الصعب بن جثامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسأل عن أهل الدار من المشركين يُبيَّتون فيصاب من نسائهم وذراريهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**هم منهم**»[2].

وهناك ملاحظة حرص الخزرج على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في الخيرات فهم لايتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية[3].

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كان يتصولان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصاول الفحلين - يعني يتسابقان في خدمته - لايصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غناء إلا قالت الخزرج: والله لاتذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك[4].

ومعرفة لغة العدو لها فائدة كبيرة، فقد استطاع عبدالله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئناً لأنه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلم لغة غير المسلمين لاسيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزود القيادة بها، والقيادة[5].

وكان من أسباب نجاح خطة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهود: ذهابه لوحده، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يدخل بها أفراد سريته، تصرفه العادي الذي لم يلفت انتباه أحد من

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٤٥).
(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢/ ٢٣٧).
(٣) التاريخ الإسلامي، ٦/ ١٧٧.
(٤) السيرة لابن هشام، ٦/ ١٧٧.
(٥) الصراع مع اليهود، ١/ ١٩١.

الحراس، قدرته على التمويه على الحارس، وإيهامه أنه يقضي حاجته وهذا منع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه، مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه فقد كمن في مكان لم يشعر به الحارس وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف، وأخذ المفتاح وأصبح يستخدمه كيفما يشاء وفي أي وقت شاء[1].

وأن الله عز وجل قد حفظ هذه السرية، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله، وكأنه لايشكو من علة حتى إذا انتهت مهمته تماماً وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلما حدّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره قال له: «**ابسط رجلك، قال فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط**»[2].

وفي هذه السرية درس عظيم من دروس السيرة النبوية، وهو الإخلاص لله والعمل للإسلام في أي موقع وأي مكان، فلا يهم المنصب أو الموقع المهم العمل لله وللإسلام، فالمناصب في الإسلام تكليف وليست تشريف، فوجود عبدالله بن أنيس جنديا في هذه السرية، وليس أميراً فيها له دلالته الكبرى في الإخلاص والعمل لله، فهو العقبى البدري، المصلي للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبدالله بن أنيس نكرة في مجال الجهاد والبطولات، فلابد أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يعد العدة لغزو المدينة وهو الذي نجح نجاحاً باهراً في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصراً مظفراً، فهو ملىء بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ المشرق في سجلاته عند ربه عز وجل قبل أن يكون عند الناس.

فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لايجوز أن يتقدم على عبدالله بن أنيس أحد، ولكنه الإخلاص الذي خطه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر من موقع، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه، فطالما أرسل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديان عاديان، في غمار الجنود[3].

---

(١) الصراع مع اليهود، ١/ ١٩٢ - ١٩٣.

(٢) البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩.

(٣) انظر: التربية القيادية، ٤/ ١٤٨.

سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت أول حملة عسكرية وجهها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب والتخلص من بني قريظة هي تلك الحملة التي جردها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضربة[1] على مسافة سبع ليال من المدينة[2].

وكانت تلك العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين؛ وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة كان من هذه القبائل النجدية، حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة، ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين فحاصربهم أهل المدينة[3].

ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سرية من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة ٦هـ، وقد داهموهم على حين غرة فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون، وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم[4]. وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، وهم لا يعرفونه فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟، فقال عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق

---

(١) قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.

(٢) الواقدي، المغازي، ٢/ ٥٣٤، ابن كثير، البداية، ٤/ ١٦٨، الذهبي، تاريخ الإسلام، المغازي، ص ٣٥١.

(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ٢/ ٣١١.

(٤) البخاري – الصحيح (فتح الباري – حديث ٤٣٧٢)، مسلم – الصحيح، ٣/ ١٣٨٦ (حديث ١٧٦٤)، أحمد – الفتح الرباني ٢١/ ٨٨ – ٩٠، أبو داود – السنن (كتاب الجهاد ٣/ ١٢٩)، ابن شبّة – تاريخ المدينة ٢/ ٤٣٣ – ٩ بإسناد البخاري ولفظه.

إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليَّ والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبحت بلدك أحب البلاد إليَّ ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وقد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام ، فاستجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم ، وكتب إلى سيد بني حنيفة ثمامة: أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم ، فامتثل ثمامة أمر نبيه ، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة ، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[1] .

إنها المعاملة الحسنة للناس جميعا ولو كانوا من الأعداء ، فقد عامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمامة معاملة حسنة ولاطفه وألان له القول وهو ملك قبضته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مما جعل ثمامة تتغير نظرته للإسلام ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأزال البغض وأنبت الحب في قلبه ، كما أنه تأثر بالجو العام السائد بين المسلمين وأخلاقهم الفاضلة ، ومعاملتهم الكريمة ، لذلك فإنه بادر إلى إعلان إسلامه .

وهو الإسلام الذي يغير سلوك المؤمن فيضع قدراته تحت إمرة الإسلام والمسلمين ، كما فعل ثمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ .

غزوة بني لحيان:

بعد غزوة الأحزاب بدأت الدولة الإسلامية مرحلة الهجوم والمبادرة مصاقا لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب «**نغزوهم ولا يغزوننا**» [2] . وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع وأخذ ثأر الشهداء ، وإن كان تأديبهم قد تأخر قليلا فذلك مرده أن ديارهم كانت متوغلة في الحجاز إلى

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ٥٣٩٣ - ٥٣٩٨) ، مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٨٦ (حديث ١٧٦٤) ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢/ ٣٨١ .

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٨ ، مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٢ .

حـدود مكـة . والمعارك الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب ، فلم يكن يـري رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأي أن الـوقت قـد آن لأن يأخـذ مـن بـني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخرج إليهم في مائتي صحابي ، في ربيع الأول أو جماد الأولى سنة ست من الهجرة[(١)] .

ولم يعلن وجهته ، واتبع أسلوب التعمية ، وقد سمعت به بنو لحيان فهربوا إلى رءوس الجبال فلم يقدر على أحد منهم[(٢)] .

لقـد كانـت بـنو لـحيان علـى غايـة التـيقظ والانتـباه ، فقـد بـثّت الأرصـاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا لذلك فما كاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقـترب بجيـشه مـن مـنازلهم حتى انسحبوا منها فارين ، وهربوا في رؤس الجبال ، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم .

ولمـا وصـل الـنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيـشه عسكر في ديارهم ثم بث السرايا من رجالـه ليتعقـبوا هـؤلاء الغـادرين ، ويأتـون إلـيه بمـن يقـدرون عليه ، واستمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أيّ أثر لهذه القبائل تمـنعت في رؤوس تلـك الجـبال الـشاهقة ، وأقـام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ديارهم يومين لإرهـابهم وتحـديهم ، وليظهـر للأعـداء مـدى قـوة المـسلمين وثقـتهم بأنفسهم ، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا[(٣)].

رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة فقرر أن يقـوم بمـناورة عـسكرية يـرهب بهـا المشركين في مكة ، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُـسفان[(٤)] وهـناك اسـتدعى أبـا بكـر الـصديق ، وأعطاه عشرة فوارس من أصـحابه وأمـره بـأن يتحـرك بهم نحو مكة ليبث الذعرِ والفزع في نفوسهم ، فاتجه الـصديق بالفرسـان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كراع الغميم[(٥)] ، وهو مكان قـريب جـداً مـن مكة ، فسمعت قريش بذلك فظنت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينوي

(١) الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ .
(٢) الواقدي ، مغازي ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ .
(٣) الواقدي ، مغازي ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ .
(٤) عسفان: قرية بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة .
(٥) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد .

غـزوها فانـتابها الخـوف والفـزع والـرعب ، وساد صفوفها الذعر ، هذا هو الذي هدف إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها .

أمـا الـصديق وفرسـانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثـوا الذعـر والفـزع في نفـوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة[1]

وعـندما وصـل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بطن (غران) [2] ، حيث لقي الشهداء مـن أصـحابه مـصرعهم على أيدي الخونة من هذيل ، ترّحم على هؤلاء الشهداء ودعـا لهـم وقال: «هنيئا لكم الشهادة! » ثم انصرف رسول الله ، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إلى المدينة وهو يقول: آئبون تائبون عابدون لربنا حامدون ! وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة [3]

سرية عكاشة إلى الغمر[4]:

وفي ربـيع الأول سـنة ٦ هــ انتدب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عكاشة بن محصن في أربعين رجلا من أصحابه إلى بني أسد في ماء الغمر ، ورغم أنهم أسرعوا ، فقد نذر بهم بنو أسد فهربوا ، ونزلت السريّة على مياههم وأصابت الطلائع من دلّهم على بعض ماشيتهم ، ووجدوا مائتي بعير فغنموها وساقوها إلى المدينة [5] .

سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة [6]:

وفي ربـيع الآخـر سـنة ٦ هــ بعـث الـنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـصحابي محمد بن مـسلمة في عشرة من الصحابة إلى بني ثعلبة وعوال ، فكمن لهم القوم حتى ناموا ، فقتلوهم كلهم وسقط محمد بن مسلمة بين أصحابه جريحا فظنوه ميّتا . وقد هيأ الله لـه بعـد ذلـك أحـد المسلمين الذي أنقذه وأطعمه وسقاه وحمله إلى المدينة ، فبعث

---

(١) الواقدي ، مغازي ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٨ - ٨٠ .
(٢) غـران بـضم أولـه: وادٍ بـين أَمَج وعسفان ، وأمج يعرف اليوم بخليص وعسفان يبعد (٨٠) كيلو من مكة . معجم المعالم الجغرافية ٢٢٤ و٢٠٨ .
(٣) الـواقدي ، مغـازي ٢/ ٥٣٥ ، ابـن سـعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ ، ابن سعد ، غزوات الرسول وسراياه ، ١/ ٣٩ .
(٤) الغمر: ماء لبني أسد على ليلتين من فيد الذي هو قلعة بطريق مكة .
(٥) ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٨٥ بدون إسناد ، وانظر: خليفة بن خياط - تاريخ ص ٨٥ .
(٦) موضـع علـى الطـريق مـن المدينة إلى الـشام ، لا يـبعد كـثيرا عـن المديـنة وهو منزل ثعلبة وعوال .

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلا إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحدا، ووجدوا نعما وشاء فساقوها غنيمة ورجعوا إلى المدينة [1].

سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم:

وفي ربيع الآخر سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريّة عليها زيد بن حارثة، فورد الجموم[2]، فأصاب امرأة من مُزَيْنَة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسري، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمزينية نفسها وزوجها [3].

سرية زيد بن حارثة إلى العيص [4]:

وفي جمادى الأولى سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدا في مائة وسبعين راكبا من الصحابة ليتعرضوا لقافلة تجارية قرشية قادمة من بلاد الشام، فتمكنوا من احتوائها وما فيها، وغنموا فيها فضة كثيرة كانت لصفوان بن أميّة، وأسروا عددا ممن كان مع القافلة، منهم أبو العاص بن الربيع الذي استجار بزوجته زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجارته، وقبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجارتها ورد عليه ما أخذ منه [5]. وعاد أبو العاص إلى مكة حيث رد ما كان معه من أموال القوم وأماناتهم، ثم أعلن إسلامه في مكة، وهاجر إلى المدينة فرد عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجته زينب على نكاحها الأول [6].

سرية زيد بن حارثة إلى الطرف [7]:

وفي جمادى الآخرة سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدا في خمسة عشر رجلا إلى بني ثعلبة بالطرف، فهرب القوم وكان بلغهم أن رسول الله

---

(١) الواقدي، مغازي ٣/ ٥٥١، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٥.

(٢) بفتح الجيم وميمين بينهما واو -، وهو ماء وقيل: أرض لبني سُليم. والجموم: يبعد عن مكة من جهة الشمال قرابة ٣٠ كيلو وهي منطقة واسعة جداً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ١٦٣، ومعجم المعالم الجغرافية للبلادي، ص ٨٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٦ بدون إسناد.

(٤) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليال.

(٥) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٦.

(٦) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٦٨.

(٧) ماء قريب من المراض دون النخيل على مسافة قريبة من المدينة، انظر: ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٧، ياقوت، معجم ٤/ ٣١.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سار إليهم ، وأصابت السريّة نعما وشاء غنيمة ، وعادوا إلى المدينة سالمين [1] .

سرية زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى وادى القرى [2] :

اختلف أرباب المغازي والسير في سبب هذه السرية ، فقد ذكر ابن إسحاق ، الذي أنَّ سببها كان سرية بعثها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل هذه السرية مباشرة ، وبقيادة زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - نفسه إلى وادي القرى: " فلقي به بني فزارة [3] وأصيب بها ناسٌ من أصحابه ، وانفلت زيد من بين القتلى . فلمَّا قدم زيد بن حارثة ، نذر أنْ لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو فزارة " [4] .

وذكر الواقدي وابن سعد أنَّ زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - خرج " في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلمَّا كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة ، من بني بدر ، فضربوه وضربوا أصحابه ، وأخذوا ما كان معهم ، ثُمَّ استبلَّ زيد [5] ، وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأخبره ، فبعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم " [6] .

ولكن الراجح هو الرأي الأول الذي ذكره ابن إسحاق ، فبالإضافة إلى كونه أقوى إسناداً مدعوماً بالواقع ، فالمسلمون في تلك الفترةلم يفرضوا سلطانهم على تلك المنطقة بَعْدُ ، حتَّى تصبح طريقاً سالكةً لتجارتهم إلى الشام ، بل كانوا في

(١) الواقدي ، مغازي ٢/ ٥٥٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٨٧ .
(٢) وادي القرَى - بضم أوَّله ، وفتح ثانيه ، والقصر - جمع قرية ، وهو وادٍ بين المدينة والشام ، من أعمال المدينة ، وهو بين تيماء وخيبر ، فيه قرى كثيرة ، وبها سُمِّي وادي القرى ، والنسبة إليه " واديّ " ، ويُعْرَف وادي القرى اليوم ب " العُلَا " بضم العين ثُمَّ لام وألف من غير همزة ، والنسبة إليه " عُلَوِيٌّ " ، وهي مدينة عامرة شمال المدينة النبوية على قرابة " ٣٥٠ " ميلاً ، كثيرة المياه والزرع والأهل ، ويصُبُّ واديها في وادي الجزل ، ثُمَّ يَصُبُّ الجزل في وادي الحمض " أضم " ، وهي ملاصقة للحجر ديار ثمود ، متَّصِلة بها اتِّصالاً تامًا ، لا يفصِلُ بينها وبين المدائن حدود ولا جبال .
(٣) انظر: ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٨٣ ، القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص ١١٣ .
(٤) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ٢/ ١٤٢ ، ابن هشام ، سيرة ٤/ ٦١٧ ، أبو نعيم دلائل ٢/ ٥٣٤ ، الحلبي ، سيرة ٢/ ١٨١ ، والزرقاني ، شرح ٢/ ١٦٤ .
(٥) استبلَّ: أي برأ .
(٦) الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٦٤ ، ابن سعد ، طبقات ٢/ ٩٠ .

موقف المواجهة مع القبائل القاطنة في تلك المنطقة خاصّةً وأنَّها حليفة قوية ليهود خيبر الذين كان المسلمون يعُدُّون العُدَّة السريعة لمواجهتهم بعد الحديبية، وتوقيع الهدنة مع قريش، نظراً لنشاطات زعمائهم المعادية للمسلمين ودورهم الكبير في تأليب الأحزاب في الخندق والذي شاركت فيه بعض تلك القبائل[1] القاطنة في تلك المنطقة بفعالية كبيرة[2].

وكانت أحداث تلك السرية في شهر رجب من السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة، إذ وصلت إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معلومات هامَّة عن تحركات مُعَادية تقوم بها امرأة من بني فزارة، ذات شأن فيهم، ومنْزلة ورئاسة يُقال لها أُمّ قرفة[3]، "قد جهَّزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها، قالت: اقدموا المدينة فاقتلوا محمَّداً! فقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اثكلها بولدها». وبعث إليهم زيد بن حارثة" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رأس سرية، لم تذكر الروايات قوتها، ولكنها كانت على ما يبدو قليلة العدد، "فالتقوا بالوادي[4]، وقتِلَ أصحاب زيد" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم ورد بن مرداس، وارتُثَّ[5] زيد بن حارثة من بين وسط القتلى"[6].

فلمَّا قدم زيد بن حارثة، نذر ألاَّ يمس رأسه غُسل من جنابة حتى يغزو فزارة، فلمَّا استبلَّ من جراحه بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جيش إلى بني فزارة فيهم سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقودهم أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكمنوا النهار وساروا الليل، ومعهم دليل لهم كما يذكر الواقدي[7].

---

(١) ذكرت الروايات التاريخية أنَّ من القبائل التي شاركت بقوة في غزوة الأحزاب: قبائل غطفان، وهي فزارة، وبنو مرة، وأشجع، وغيرها. انظر: ابن الجوزي: الوفا بأخبار المصطفى، ص ٦٩٢. وهذه القبائل جميعها تسكن تلك المنطقة وتشارك بحلف قديم مع اليهود في خيبر وما حولها.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٥٢.

(٣) هي فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التي جرى فيها المثل: "أمنع من أُمّ قِرْفة" لأنه كان يُعَلّق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين فارساً كلهم لها ذو محرم، كُنّيت بابنها قِرْفة، قتله النَّبيُّ – صلى الله عليه وآله وسلم – فيما ذكر الواقدي، وذكر أنَّ سائر بنيها وهم تسعة قُتِلُوا مع طليحة يوم بزاخة. انظر: الروض الأنف، ٧/ ٥٢٨.

(٤) يعني وادي القرى.

(٥) رتُثَّ: بالبناء للمجهول، أي حمل من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رمق.

(٦) ابن سيد الناس، عيون، ٢/ ١٤٢.

(٧) مغازي، ٢/ ٥٦٤.

قال سلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلمَّا دنونا من الماء [1] أمرنا أبو بكر، فعرَّسنا [2]، قال: فلمَّا صلَّينا الصُّبح، أمرنا أبو بكر فشننا الغارة[3]، فقتلنا على الماء مَن قتلنا، "فكان شعارنا: أمت. أمت. قال: فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلمَّا رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم[4] معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتَّى أتيت بهم أبا بكر"[5].

ويجزم أهل المغازي أنَّ تلك المرأة هي أُم قرفة، وأنَّها قُتِلَت، وقُتِلَ بعض ولدها [6].

وذكر عروة أنَّ زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قدم المدينة مع أهل السرية أقبل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الليلة في بيتي، فقرع الباب، فخرج إليه يجر ثوبه حتى اعتنقه، وقبَّله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[7].

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

وفي شعبان سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابي عبد الرحمن بن عوف على رأس سريّة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل، وأمره أن يقاتل من كفر باللّه، وبألّا يغل ولا يغدر ولا يقتل وليدا، يقول عبد الله بن عمر: دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الرحمن بن عوف فقال: تجهز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غد إن شاء الله، قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلن فلأصلين مع النبي الغداة، فلأسمعن وصيته لعبد الرحمن بن عوف، قال: فغدوت

---

(١) الحاضر الذي كانت تقيم عليه بنو بدر من فزارة، ربما كان في وادي القرى.
(٢) التعريس: النزول آخر الليل للراحة.
(٣) شن الغارة: أي فرَّقها عليهم من كُلٍّ جانب.
(٤) القشع: بقاف ثُمَّ شين معجمة ساكنة: النطع، وهو الفَرْو الخَلِق.
(٥) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦١٧، الواقدي، مغازي٢/ ٥٦٥، ابن سعد، طبقات ٢/ ٩١، أبو نعيم، دلائل ٢/ ٥٣٥، الحلبي، سيرة ٣/ ١٨٠، الزرقاني، شرح٢/ ١٦٤.
(٦) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦١٧، الواقدي، مغازي٢/ ٥٦٥، ابن سعد، طبقات ٢/ ٩١، أبو نعيم، دلائل ٢/ ٥٣٥، الحلبي، سيرة ٣/ ١٨٠، الزرقاني، شرح٢/ ١٦٤.
(٧) دلائل النبوة رقم (٤٢٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧، ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٦١٧، ابن سعد الطبقات، ٢/ ٩٠.

فصليت فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الرحمن: «**ما خلفك عن أصحابك؟**» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجرف [1] وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك وعليّ ثياب سفري، قال: وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفها على رأسه، قال ابن عمر: فدعاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: هكذا فاعتم يا ابن عوف. قال: وعلى ابن عوف السيف متوشحه، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدًا**»، قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: «**يا أيها الناس، اتقوا خمسًا قبل أن يحل بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يسقطوا، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعًا، وأذاق بعضهم بأس بعض**»، قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل، فلما حل بها دعاهم إلى الإسلام فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيًا وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف [2].

هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، فدومة الجندل قريبة من تخوم الشام، وهذا يدل علي أن الدولة الإسلامية بدأت تفكر أبعد من حدود الجزيرة العربية وتحديداً الامبراطورية الرومانية.

---

(١) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٢) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٦٠، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٨٩، ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٦٩.

ولقد اشتملت هذه الغزوة علي نموذج من نماذج آداب الحرب في الإسلام ، فالحرب إذا كانت نوع من العنف والقسوة لدي جيوش الغير ، إلا إنها بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ والحسد ، وسيلة لتحقيق الحق والعدل وهي أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطلِ ، وحماية المحقين من المبطلين ، وليس متأصلاً في نفوسهم ، ولذلك طالما كانت محفوفة بأخلاقيات الإنسانية التي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف ، فنهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالرحمن بن عوف عن الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ، ونهاه عن الغدر في العهود وعن قتل الولدان .

سرية علي بن أبي طالب إلى فدك[1]:

لم تكن منطقة عمليات السرايا قرية فدك ذاتها ، وإنَّما المنطقة المحيطة بها ، والتي كانت تسكنها قبيلة بني مرّة ، وقبيلة بني سعد بن بكر ، ولكن باعتبار قربها من فدك تجوَّز أهل المغازي بنسبتها إليها".

وكانت هذه السرية في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]".

ويمكن القول أن هذه السرية ضمن الجهود المبذولة من النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحطيم الحلف الخيبري الذي كان قائماً بين يهودها والقبائل المحيطة بخيبر ، والذين كان لهم دورٌ بارزٌ في غزوة الأحزاب ، وذلك ضمن الاستراتيجية العسكرية التي وضحها بعد هزيمة الأحزاب بقوله: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا**» .

فبينما كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طريقه إلى خيبر وصلت إليه معلومات مفادها أنَّ هناك تحرُكات تحشديَّة معادية للمسلمين ، يقوم بها رجل من بني سعد بن بكر يُدْعَى: "وبَر بن عُليم ، في جمعٍ من قومه بني سعد ، بالقرب من فدك ، وذلك لمناصرة يهود خيبر ضد المسلمين ، وأنَّهم بصدد الاتفاق معهم على إمدادهم بقوَّةٍ منهم مقابل جزء من تمر خيبر يُجْعَل لهم".

وكعادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استراتيجيته المتبعة دائماً مع أعدائه وبخاصَّةً الأعراب ، في مباغتتهم وضربهم قبل استكمال تحشُّدهم ، وتطوُّر استعداداتهم ، سارع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تجهيز سرية ، عبارة عن دورية قتال تعرُّضية[3] قوَّتها مائة

(١) فدك: قرية بشمال الحجاز قرب خيبر ، على بعد يومين ، وقيل: ثلاثة من المدينة .

(٢) المغازي ٢/ ٥٦٢ - ٥٦٣ ، الطبقات ٢/ ٨٩ - ٩٠ .

(٣) التعرُّض: هو التوجه بصورة عامَّة إلى طلب الخصم بقصد ملاقاته ومقاتلته في ساحات

رجل بقيادة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسار الليل، وكمن النَّهار، حتَّى انتهى إلى الهمج"[1]، فأصاب عيناً، فقال: "ما أنتَ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد؟ قال: "لا علم لي به، فشدُّوا عليه فأقرَّ أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم، ويقدمون عليهم، فقالوا له: "فأين القوم؟ قال: "تركتهم وقد تجمَّع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبَر ابن عُلَيْم". قالوا: "فسر بنا حتى تدُلَّنا". قال: "على أن تُؤَمِّنوني". قالوا: "إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمَّنَّاك، وإلاَّ فلا أمَانَ لك". قال: "فذاك، فخرج بهم دليلاً لهم"[2]. بعد أن كان عيناً عليهم، فسار بهم في فدافد[3]، وآكام[4]، حتى ساء ظنهم به، واعتقدوا أنه ربَّما كان يخدعهم، حتى أفضى بهم إلى سهلٍ من الأرض "فإذا نعَم كثير، وشاء[5]، فقال: "هذه نَعمهم وشاؤهم، فأغاروا علَيه فضموا النعم والشاء، قال: "أرسلوني". قالوا: "حتى نأمن الطلب، ونذر بهم الراعي رعاء الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم فتفرَّقوا"[6] وهربت بنو سعد بالظَّعن، ورأسهم وَبَر بن عُلَيْم"[7].

فقال الدليل للقائد علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "علامَ تحبسني؟ قد تفرَّقت الأعراب وأنذرهم الرعاء، قال علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ليس بعد، فإنَّا لم نبلغ معسكرهم، فانتهى بهم إليه فلم ير أحداً، فأرسلوه وساقوا النعم والشاء، النعم خمسمائة بعير، وألفا شاة[8] فعزل علي صفيَّ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[9] لقوحاً[10] تُدْعَى الحفذة، ثُمَّ عزل الخُمُس، وقسَّم سائر الغنم على أصحابه"، ثُمَّ مكث ثلاثاً

القتال. انظر: العقيد محمَّد صفاء، الحرب ٢١، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٢٣.

(١) الهَمَج: ماء وعيون عليه نخل. الحموي، معجم ٥/ ٤١٠، السمهودي، وفاء ٤/ ١٣٢٧.

(٢) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٢.

(٣) الفدفد: الفلاة، والمكان الصَّلب الغليظ والمرتفع. (قاموس: الفدفد).

(٤) الأكمة - محرَّكة: التل من القف من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، أو الموضع يكون أشدّ ارتفاعاً مِمَّا حوله، وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجراً. (القاموس: الأكمة).

(٥) الشاء: جمع شاة.

(٦) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٢.

(٧) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٠.

(٨) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٢.

(٩) الصَّفِيُّ: ما كان خالصاً للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١٠) اللقوح: الناقة الحلوب. (القاموس: لقوح).

أوقَعَ أثناءَها الرُّعْبَ في قلوب الأعراب"[1].

يُحَدِّثنا أحد شهود العيانفيقول: إني لبوادي الهَمَج، إلى يديع[2]، ما شعرت إلاَّ ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون، فقلت: "ما دهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وبَر بن عُلَيم، فقلت: "ما هذا المسير؟ قال: "الشرُّ، سارت إلينا جموع محمَّد، وما لا طاقة لنا به، قبل أن نأخُذَ للحرب أُهبتها، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا، وهو صنَعَ بنا ما صَنَع". قلت: "ومَن هو؟ قال: "ابن أخي، وما كُنَّا نعُدّ في العرب فتىً واحداً أجمع قلب منه".

فقلت: "إني أرى أمر محمَّد قد أمِن وغلظ، أوْقَعَ بقريش فصنع بهم ما صنع ثُم أوقع بأهل الحصون بيثرب، قينُقاع، وبني النَّضِير، وقريظة، وهو سائرٌ إلى هؤلاء بخيبر". فقال لي وبَر: "لا تخش ذلك". إنَّ بها رجالاً، وحُصُوناً منيعة، وماءً واتناً[3] لا دنا منهم محمَّدٌ أبداً، وما أحراهم أن يغزوه في عُقْرِ داره". فقلت: "وترى ذلك؟ قال: "هو الرأي لهم"[4]".

وهكذا نجح عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مهمَّته نجاحاً باهراً وقدم المدينة ولم يلق كيداً"[5].

أوضحت هذه السرية، والسرايا السابقة بعض الاستراتيجيات العسكرية التي كان يطبقها الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أعدائه، وهي:

ما ورد أنَّ سبب السرية هو تلك الأخبار التي بلغت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحركات بني سعد بن بكر المعادية للمسلمين، ذلك يعطينا دلالة واضحة أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتتبع أخبار الأعداء أولاً بأول".

ومثل هذه الروايات تؤكِّد لنا أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت لديه شبكة شبه منظَّمة من العيون، مبثوثة بين أعدائه، جعلته دائماً وأبداً في الصورة معهم، يعرف سكناتهم وحركاتهم أولاً بأول، مِمَّا مكَّنه كثيراً من القضاء على مخطَّطاتهم العدوانية ضد المسلمين ووئدها في مهدها قبل أن تستفحل، مِمَّا وفَّر على المسلمين الكثير من الجهد، وحقن الكثير من الدماء التي كانت ستسيل لو تمكَّن

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٠.

(٢) يديع: أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، ويذكر البلاذري أنها تُسَمَّى اليوم: (الحويط). (البكري: معجم ٤/ ١٤٤، البلاذري: رحلات ١٩).

(٣) وتن الماء: أي: دام ولم ينقطع. (الصحاح ٢٢١٢).

(٤) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٣.

(٥) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٠، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٢٦.

أولـئك الأعـداء مـن استكمال مخطَّطاتهم تلك وتنفيذها ضد المسلمين، وذلك ما كان يصبو إليه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جهاده مع أعدائه، لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كـان حريصاً أشدَّ الحِرْصِ على بلوغ أهدافه السامية من ذلك الجهاد المُقَدَّس بأقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، ودونما إراقة دماء كثيرة".

إلاَّ ما كـان مـن بعـض أولـئك الأعـداء الـذين كانـوا يشكلون تهديداً قوياً ومستمراً للمسلمين بقواهم العسكرية والسياسية، والتي كانت تشكل حاجزاً قوياً أمـام الـناس لاعتـناق مـا يـريدون بحـرِّية، فكان لابُدَّ من الإثخان في تلك القوى المسيطرة لإضعافها والقضاء على هيمنتها في المنطقة".

إنَّ نظـام المخابرات تفتخر به اليوم الدول المتقدمة مادياً، وله أولوية كبيرة في جيوشـها المـتطورة، وتمارسـه بأسـاليب غـير حـضارية ارتبطت بالظلم والعدوان والغدر".

ولكنَّ الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له قصب السَّبْق فيه، كما أنه مارسه في نطاق الحرب الفروسية المشرفة، دون المساس بالأخلاقيات والمُثُل العُليا".

كمـا أن تحـرُّك هـذه السرية في مسير ليلي إلى أرض العدو، وهذه استراتيجية ذكـية تـزوَّد بهـا قائـد الـسرية مـن مُبْتَكِـر الاستراتيجيات العسكرية، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـتي استطاع بها تحقيق مبدأ الكتمان مع أعدائه، حرمهم من معرفة نواياه، واتجاه حركة قوَّاته".

لقـد كانت معظم القبائل التي غزاها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعث إليها سراياه قبائل" قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لسارعت بالاستعداد للقائه ولاستعانت عليه بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء، ولكن عناية الله أولاً، ثُمَّ المـسير الليلـي حـال بيـنها وبـين ذلـك كله، فاستطاع النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقواته القلـيلة بالنـسبة لقـوات تلـك القـبائل، أن يـتغلَّب علـيها ويقـضي علـى نـياتها العدوانـية، ويُلْقِـي الرُّعْبَ في نفوسها ونفوس القبائل الأخر التي سمعت بانتصار المسلمين"(١)".

أيـضاً مـا ورد في هـذه الـسرية والـسرايا قـبلها مـن شن الغارة على الأعداء ومباغتـتهم في ديـارهم في غفلـةٍ مـنهم، وتلـك اسـتراتيجية اتَّـبعها الرسـول

(١) خطّاب، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد، ص ٢١٦ - ٢١٧، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٢٦.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع نوع معيَّن من الأعداء، وهم الأعراب، حيث كان دائماً يترصَّد أخبارهم من خلال شبكة العيون المبثوثة في ديارهم، فكان دائماً يباغتهم في ديارهم قبل استكمال جاهزتهم واستعدادهم، فالأعراب أشداء إذا ما استعدوا جيداً للقتال، وانتظمت صفوفهم فيه، عندها تكون مقاومتهم أكبر، وقتالهم أشرس، كما أنَّهم يستطيعون وبسرعة فائقة حشد قوَّة إمدادات كبيرة يتمكنون بها من الإطباق على أعدائهم وحصرهم من كُلِّ الجهات، وقد عرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من خلال تجارب سابقة معهم في الرجيع، وبئر معونة، وسرية زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - الأولى إلى بني فزارة، وغيرها".

لذلك فإنَّ في شَنِّ الغارة عليهم ومباغتتهم قبل ذلك، ولو من قوة مهاجمة صغيرة تُفْقِدهم اتزانهم، وتبُثُّ الرُّعْبَ في قلوبهم[1]، وتثير الاضطراب والفوضى في صفوفهم، فيسهل حين ذاك السيطرة عليهم وهزيمتهم، كما حدث في هذه السرية".

وفي الاستيلاء على أموال الأعراب التي كانت في غالبها من الماشية والإبل، إضعافٌ لهم اقتصادياً، لأنَّها تعدّ عصب حياتهم اليومية، لاعتمادهم عليها كثيراً، كما أنَّ في ذلك تحفيزاً للمسلمين وتشجيعاً لهم للغزو في سبيل الله لإصابة الغنائم الدنيوية العاجلة، إضافةً لما رُصِدَ لهم من الأجر العظيم عند الله، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنَّ ذلك يعدّ دافعاً وهدفاً من أهداف الجهاد في سبيل الله بقدر ما هو ممارسة المسلمين لحقهم المشروع في الغنائم التي أحلَّها الله لهذه الأُمَّة واختصَّها به دون غيرها من الأمم السابقة".

كما أنَّ ذلك يُعَدُّ تمشياً مع عادة قديمة متَّبعة لدى العرب في حروبهم في الجاهلية أبقى عليها الإسلام بعد تنظيمها وتقنينها وفق أنظمة الشريعة الإسلامية"[2].

وإلى جانب هذه السرايا تذكر المصادر الخاصة بالمغازي والسير معلومات متضاربة عن «سرية زيد بن ثابت إلى بني فزارة»[3] ولم يرد عن هذه السرية مايثبت

---

(١) المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شللٍ متوقعٍ في تفكير القائد الخصم. انظر: خطّاب، الرسول القائد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٤٥١.

(٢) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٣٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٩، وانظر، الواقدي - المغازي ٢/ ٥٦٤، الطبري، تاريخ ٢/ ٦٤٣ وأورد ذلك الإمام مسلم في الصحيح ٣/ ١٣٧٥ - ٧٦ (حديث ١٧٥٥)،

في الصحيحين، والتناقض والتضارب كبير في مرويات كتب المغازي والسير بشأنها.

سرية عبدالله بن رواحة إلى اليُسير بن رزام اليهودي:

بعد أن نجح المسلمون في القضاء علي أبي رافع زعيم يهود خيبر بعد حُيي بن أخطب اختارت اليهود رجلا شجاعًا منهم ليكون أميرا عليهم هو اليُسير بن رزام[1].

وما أن تقلد اليسير مهام منصبه كزعيم اختير تقديرًا لشجاعته حتى أصرَّ على أن يثبت لهم أنه أهل لهذا الاختيار فقرر إكمال مهمة سلفه والقيام بمحاولة جديدة لحشد اليهود وحلفائهم غطفان وتوجيه طاقاتهم لمباغتة المسلمين في عقر دارهم[2].

ولكن عين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنام عن أعداء الإسلام المتربصين ولا تغفل عن تحركاتهم العدوانية ضد قاعدته الحصينة.

حيث وصلته الأخبار من أحد عيونه في خيبر بنوايا اليُسير ونشاطاته المشبوهة ضد المسلمين، وأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستوثق من تلك الأخبار[3]

فأرسل دورية استطلاع منطقة صغيرة إلى خيبر قوتها ثلاثة أفراد بإمرة قائد خبير بمنطقة خيبر وأهلها هو عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإمام أحمد (عنه ابن كثير في البداية ٤/ ٢٦٤)، والبيهقي - دلائل النبوة ٤/ ٢٩٠، ورواية ثانية في الطبري، تاريخ ٢/ ٦٤٣ - ٦٤٤ رواية مغايرة يرد فيها أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - كان أميرا لسرية إلى بني فزارة علما بأن رواية أهل المغازي مضطربة من ناحية المتن ومناقضة لأوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشأن الأسرى.

(١) انظر: أبا نعيم، دلائل، ٢/ ٥١٧، وابن سيد الناس، عيون، ٢/ ١٦٤، البيهقي، دلائل، ٤/ ٢٩٤، ابن هشام، سيرة، ٣/ ٦١٨.

(٢) ذكر الواقدي أنه قام في اليهود فقال: إنه والله ما سار محمد إلى أحد من اليهود إلا بعث أحدا من أصحابه فأصاب منهم ما أراد، ولكني أصنع ما لا يصنع أصحابي، فقالوا: ما عسيت أن تصنع ما لم يصنع أصحابك؟، قال: أسير في غطفان فأجمعهم، فسار في غطفان، فجمعها، ثم قال: يا معشر اليهود، نسير إلى محمد في عقر داره، فإنه لم يُغز أحد في داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد، قالوا: نعم ما رأيت، انظر: الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٦.

(٣) ذكر الواقدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارجة بن حسيل الأشجعي، فاستخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما وراءه فقال: تركت أسير بن رزام يسير إليك في كتائب اليهود. انظر: الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٦ - ٥٦٧.

انطلقت الدورية في رمضان ووصلت خيبر سرًّا وهناك وزع القائد أفرادها على حصونها الرئيسية – الشق، والنطاة، والكتيبة.

فدخلوا مع الناس يسمعون منهم ويرون بأعينهم حال أهل خيبر وما يتكلمون به، خلال أيام رجعوا بعدها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتقرير مفصل يؤكد المعلومات السابقة، فقرر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثانية إلى خيبر، ولكن هذه المرة على رأس[1] فرقة مغاوير تطوعية قوتها ثلاثون رجلا من بينهم عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للإفادة من شجاعته وخبرته في هذا المجال.

و"في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2] انطلقت السرية إلى هدفها في خيبر بعد الاتفاق على خطة استدراجية مغايرة تماما لخطة الفرقة الخزرجية التي قتلت أبا رافع، ومشابهة لخطة الأوسية التي قتلت كعب بن الأشرف، وكانت ترتكز أساسا على تقرير الدورية الاستطلاعية الذي ورد فيه معلومات دقيقة عن اليُسير وشخصيته فوضعت الخطة بناء على ذلك "فأتوه فقالوا: إنا أرسلنا إليك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليستعملك على خيبر"[3].

تردد اليُسير في البداية، ولكنهم ما زالوا به يغرونه ويمنُّونه حتى طمع فيما قالوا، وشاور اليهود فخالفوه في الخروج، ولكنه أصرَّ عليه فخرج في رفقة ثلاثين يهوديًّا لحراسته ركب كل منهم مع رديف من المسلمين أفراد السرية، وحمل عبد الله بن أنيس اليُسير على بعيره، "فلما بلغوا قرقرة ثبار[4] وهي من خيبر على ستة أميال ندم اليُسير فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله، فزجر بعيره، ثم اقتحم يسوق بالقوم، حتى إذا استمكن من اليُسير ضرب رجله

---

(١) ذكر عروة في روايته أن قائد السرية هو عبد الله بن عتيك. انظر أبا نعيم، دلائل، ٢/٥١٧، والبيهقي، دلائل، ٤/٢٩٣.

(٢) الواقدي، مغازي، ٢/٥٦٦، وابن سعد، طبقات، ٢/٩٢ واللفظ له.
وقد أوردها البيهقي وابن القيم بعد فتح خيبر. وانظر البيهقي، دلائل (٤/٢٩٠ – ٢٩٣)، وابن القيم، زاد (٣/٣٥٩ – ٣٦٠).

(٣) أبا نعيم، دلائل، ٢/٥١٧.

(٤) قرقرة ثبار، قاع جنوب خيبر بين الحرة والصهباء المعروفة اليوم باسم جبل عطوة، على ستة أكيال من خيبر يقسمه الطريق إلى المدينة، ويسمى اليوم قعقران.
البلادي، معجم، ص٢٥٣، وقد ذكر البكري أنها تسمى قرقرة الكدر. البكري، معجم (٣/١٠٦٦).

فقطعها، واقتحم اليُسير وفي يده مخرش[1] من شوحط[2] فضرب به وجه عبد الله فشجه شجة مأمومة[3]، وانفكأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله، غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شدًا، ولم يصب من المسلمين أحد وقدموا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبصق في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح، ولم تؤذه حتى مات[4].

لقد كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبدالله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين، هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطة كلها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين فوقعت الدائرة عليهم.

والحرب إن لم تكن غليظة وشديدة، فلن تحسم المواجهة مع العدو، وستجعل الحرب تفنى كل شيء وتأكل كل شيء، فلابد من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولابد من الشدة معه حين لايجدي الحوار أو المناقشة، ولابد من الغلظة التي تشعر العدو أن من يقاتله لايخشى في الله لومة لائم[5].

سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان بن حرب:

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي مع سلمة بن أبي سلمة، في شوال سنة ٦ هـ. وذكروا أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا في الاغتيال، لاهذا، ولا ذاك. فقد ذكر المؤرخون: أن أبو سفيان بن حرب كان قد قال لنفر من قريش بمكة: ما أحد يغتال محمدا، فإنه يمشي في الأسواق، فندرك ثأرنا، فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله، وقال له: إن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله، فإني هاد بالطريق خريت، ومعي خنجر

(١) بميم مكسورة فخاء معجمة ساكنة فراء مفتوحة: عصا معوجة الرأس.

(٢) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي. (القاموس، واللسان، والصحاح: "شحط").

(٣) الشجة المأمومة: التي تبلغ أم الرأس وهي الجلدة التي تجمع الدماغ. الصحاح مادة "شج"، والصالحي، سبل (٦/ ١٨٠).

(٤) أبو نعيم، دلائل، ٢/ ٥١٧، البيهقي، دلائل، ٤/ ٢٩٣، وابن سيد الناس، عيون، ٢/ ١٦٤، ابن هشام، سيرة، ٣/ ٦١٨، ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٢، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٨٥.

(٥) التربية القيادية، ٤/ ١٨٩ إلى ١٩٢، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٣٧٥.

مثل خافية النسر، قال: أنت صاحبنا، فأعطاه بعيرا ونفقة، وقال: اطو أمرك، فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينمه إلى محمد، قال العربي: «لا يعلم به أحد». فخرج ليلا على راحلته [1] فسار خمسا، وصبح ظهر الحرة صبح سادسة، ثم أقبل يسأل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى المصلى، فقال له قائل: قد توجه إلى بني عبد الأشهل، فخرج يقود راحلته حتى انتهى إلى بني عبد الأشهل، فعقل راحلته، ثم أقبل يؤم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجدهم، فدخل، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه: «**إن هذا الرجل يريد غدرا، والله حائل بينه وبين ما يريد**». فوقف فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا ابن عبد المطلب**»، فذهب ينحني على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنه يساره، فجبذه [2] أسيد بن الحضير وقال له: تنح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجبذ بداخلة إزاره [3]، فإذا الخنجر، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا غادر**»، وسقط في يدي العربي وقال: دمي دمي يا محمد، وأخذ أسيد يلبب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اصدقني: ما أنت؟ وما أقدمك؟ فإن صدقتني نفعك الصدق، وإن كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به**»، قال العربي: فأنا آمن؟ قال: «**فأنت آمن**»، فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له، فأمر به فحبس عند أسيد، ثم دعا به من الغد فقال: «**قد أمنتك فاذهب حيث شئت، أو خير لك من ذلك**»، قال: وما هو؟ قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله يا محمد ما كنت أفرق الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي، وضعفت نفسي، ثم اطلعت على ما هممت به مما سبقت به الركبان، ولم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان، فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبسم، وأقام أياما ثم استأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرج من عنده، فلم يسمع له بذكر. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن أمية الضمري ولسلمة بن أسلم بن حريش: «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه»، قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن يأجج فقيدنا بعيرنا، فقال لي صاحبي:

---

(١) الراحلة: البَعيرُ القويّ على الأسفار والأحمال، ويَقَعُ على الذكر والأنثى.
(٢) الجبذ: الشد والجذب بقوة.
(٣) الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

يا عمرو، هل لك في أن نأتي مكة ونطوف بالبيت سبعا، ونصلي ركعتين؟ فقلت: إني أعرف بمكة من الفرس الأبلق، وإنهم إن رأوني عرفوني، وأنا أعرف أهل مكة، إنهم إذا أمسوا انفجعوا بأفنيتهم [1]، فأبى أن يطيعني، فأتينا مكة فطفنا سبعا وصلينا ركعتين، فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني وقال: عمرو بن أمية، واحزناه، فأخبر أباه، فنيد بنا أهل مكة فقالوا: ما جاء عمرو في خير، وكان عمرو رجلا فاتكا في الجاهلية، فحشد أهل مكة وتجمعوا، وهرب عمرو وسلمة، وخرجوا في طلبهما، واشتدوا في الجبل، قال عمرو: فدخلت غارا فتغيبت عنهم، حتى أصبحت، وباتوا يطلبون في الجبل، وعمى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا لراحلتنا، فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمي يختلي لفرسه حشيشا، فقلت لسلمة بن أسلم: إن أبصرنا أشعر بنا أهل مكة، وقد أقصروا عنا، فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا، وخرجت فطعنته طعنة تحت الثدي بخنجري، فسقط وصاح وأسمع أهل مكة، فأقبلوا بعد تفرقهم، ودخلت الغار فقلت لصاحبي: لا تحرك، وأقبلوا حتى أتوا عثمان بن مالك فقالوا: من قتلك؟ قال عمرو بن أمية، قال أبو سفيان: قد علمنا أنه لم يأت بعمرو خير، ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا كان بآخر رمق [2]ومات، وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم يحملونه، فمكثنا ليلتين في مكاننا ثم خرجنا، فقال صاحبي: يا عمرو بن أمية، هل لك في خبيب بن عدي ننزله؟ فقلت له: أين هو؟ قال: هو ذاك مصلوب حوله الحرس، فقلت: أمهلني وتنح عني، فإن خشيت شيئا فانج إلى بعيرك فاقعد عليه، وأت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، ودعني فإني عالم بالمدينة، ثم اشتددت عليه حتى حللته، فحملته على ظهري، فما مشيت به إلا عشرين ذراعا حتى استيقظوا، فخرجوا في طلب أثري، فطرحت الخشبة، فما أنسى وقعها دب، يعني صوتها، ثم أهلت عليه من التراب برجلي، فأخذت بهم طريق الصفراء، فأعيوا فرجعوا، وكنت لا أدرك مع بقاء نفس، فانطلق صاحبي إلى البعير فركبه، وأتى النبي ﷺ فأخبره، وأقبلت حتى أشرفت على الغليل غليل ضجنان، فدخلت في غار فيه معي قوس وأسهم وخنجر، فبينا أنا فيه إذ أقبل رجل من بني بكر من بني الدئل أعور طويل يسوق غنما ومعزى، فدخل علي الغار فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني بكر، فقال:

---

(١) الفناء: الساحة في الدار أو بجانبها.
(٢) الرمق: بقية الروح وآخر النفس.

وأنا من بكر، ثم اتكأ فرفع عقيرته [1] يتغنى يقول:

فلست بمسلم ما دمت حيا ::: ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي: والله إني لأرجو أن أقتلك، فلما نام قمت إليه، فقتلته شر قتلة قتلتها أحدا قط، ثم خرجت حتى هبطت، فلما أسهلت في الطريق إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما، فرميته فقتلته، فلما رأى ذلك الآخر استأسر، فشددته وثاقا [2]، ثم أقبلت به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما قدمت المدينة رآني صبيان وهم يلعبون، وسمعوا أشياخهم يقولون: هذا عمرو، فاشتد الصبيان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه، وأتيته بالرجل قد ربطت إبهاميه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك، ثم دعا لي بخير، وكان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام [3].

سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

في شوال من العام السادس الهجري قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رهط من الأعراب من عُكَل [4] وعرينة [5]، وكان هؤلاء الأعراب بهم هزال شديد من الجوع [6] "فبايعوه على الإسلام" [7] "ثم قالوا: يا رسول الله آونا وأطعمنا".

فأنزلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفة [8] وأكرمهم [9]، ونظرا لكونهم كانوا بادية أهل ضرع، ولم يكونوا أهل ريف [10] - كما ذكروا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [11] - لم يستطيعوا التأقلم مع جو المدينة وهوائها، فأخرجهم

---

(١) العقيرة: الصوت.

(٢) الوثاق: ما يُشد به كالحبل ونحوه.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٤٠٩، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٩٣ - ٩٤، الطبري، تاريخ ٢/ ٥٤٢.

(٤) عكل: قبيلة من تيم الرباب.

(٥) عرينة: حي من بجيلة.

(٦) ابن حجر، فتح (٨/ ٣٣٧)، عبد الرزاق، المصنف (١٠/ ١٠٦).

(٧) ابن حجر، فتح (١٢/ ٢٣٠).

(٨) الصفة: مكان في مؤخر المسجد النبوي مكان القبلة الأولى، ظُلل وأُعد لنزول الغرباء والمساكين وضعفاء المسلمين ممن لا مأوى له، وإليها ينسب أهل الصفة. انظر: أبا نعيم، الحلية (١/ ٣٢٠)، السمهودي، وفاء الوفاء (٢/ ٤٥٣ - ٤٥٤).

(٩) ابن حجر، فتح (١٢/ ٢٣٠).

(١٠) أي كانوا أهل ماشية ولم يكونوا أهل زرع.

(١١) ابن حجر، فتح (١٠/ ١٧٨)، وابن جرير الطبري، تفسير (٤/ ٢٠٦).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة إلى إبل الصدقة حول المدينة فشربوا من ألبان الإبل فصحُّوا "[1]، فعَدَوا على الراعي فقتلوه - بعد أن مثَّلوا به[2] وهربوا بالإبل "فجاء الخبر في أول النهار "[3] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى وجه السرعة، قام بتجهيز دورية قتالية تعقُّبية، قوتها عشرون شابًّا أنصاريًّا وأسند القيادة فيها إلى كرز بن جابر الفهري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزوَّدهم بقائف لاقتفاء الأثر[4]، اختزالا للجهد والوقت، لأن إهدارهما لا يتناسب مع الحالة الأمنية التي تتطلب سرعة القبض على هؤلاء المجرمين المفسدين في الأرض، والاقتصاص منهم فورا وبحزم؛ نتيجة ما قاموا به من إخلال وزعزعة بالأمن، وغدر وخيانة ونكران للجميل، إضافة إلى ارتدادهم عن الإسلام.

انطلقت الدورية، يتقدمُها القائف، وكما هو مخطط له تم القبض على العصابة في وقت وجيز جدًّا "فما ترجَّل النهار حتى أتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم، وقطع أيديهم وأرجلهم وَمَا حَسَمَهم، ثم أُلقوا في الحرة يستسقون، فما سقوا حتى ماتوا "[5].

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فرأيت الرجل منهم يكدم[6] الأرض بلسانه حتى يموت "[7].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الله تعالى أنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ

---

(١) ابن حجر، فتح (١٢/ ٢٣٠).
(٢) ذكر أصحاب المغازي: أنهم ذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه. انظر: ابن هشام، سيرة، ٤/ ٤٦١، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٩، ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٣، وزاد "أنهم قطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات".
ابن كثير، تفسير، ٢/ ٥٠، والهيثمي، مجمع، ٦/ ٢٩٤.
(٣) ابن حجر، فتح، ١/ ٣٣٥.
(٤) والقايف: بالقاف والتحتية، الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه، والجمع: القافة.
(٥) ابن حجر، فتح، ١٢/ ١١١.
(٦) كدمه ويكدمه: عضَّه بأدنى فمه.
(٧) ابن حجر، فتح، ١٠/ ١٤١، وخبر السرية صحيح متفق عليه. فقد أخرجه البخاري في صحيحه في مواطن عدة. انظر ابن حجر، فتح (١/ ٣٣٥، ٦/ ١٥٣، ١٠/ ١٤١ - ١٤٢، ١٧٨، ١٢/ ١٠٩ - ١١١ - ١١٢، وأخرجه مسلم أيضا في صحيحه. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١١/ ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧)، أبو داود، سنن (٤/ ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦.

الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] .

وقد يتصور البعض أن هذا العقاب كان جائرا وشديدا ، لكن بالنظر إلى ما قام به هؤلاء من جرائم ، وقياسا لما فعلوه من أعمال لا يقرها العقل ؛ فضلا عن الدين الذي تمردوا عليه وارتدوا عنه ، فنقول: إن العقاب الذي نالهم كان عادلا وكان الجزاء من جنس العمل فهم قد ارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا وسرقوا ومثَّلوا وحاربوا الله ورسوله واستهانوا بكل المبادىء والقيم الإنسانية .[1]

إن حادثة العرانيين ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة ونزول آيات بينات في هذا الحكم ، فقد حصر المولى عز وجل جزاء المحاربين في أربعة أمور وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر .

ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل ، ذلك أنه وصفهم بأنهم حرب لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها ، وتقتيلهم وسلبهم ونهب ممتلكاتهم ظلماً وجوراً لامستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان ، فكانت رحمة الله تعالى الرحيم بهم وبغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل ، والصلب ، وقطع الأيدي ، والأرجل من خلاف ، والإبعاد من مخالطة العامة ، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لاتتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة وحتى يرتدع غيرهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع ، ولكي يطهرهم مايوقع بهم من عقاب ، من الذنوب والآثام إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم .

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين وقد علل تعالى لحوق تلك الرذيلة بهم مدة الحياة الدنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة ، وباقية معهم إلى يوم القيامة ، لكون الرب جل وعلا أعد لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً .

ثم استثنى جل وعلا من هؤلاء من أناب إليه ورجع في أسلوب حكيم مؤثر داع إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة ، فلقد عفا عنهم تعالى إذا مارجعوا وجاءوا تائبين قبل القدرة عليهم ، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ٢٠٦ .

توبتهم ورجوعهم عن غيهم، لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قدر عليهم قبل التوبة لاينالون من العفو ماينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم وهذا نوع من العلاج في غاية الدقة والإنصاف، وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها مالايخفى على ذي عقل لبيب.

وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلح، فلا يقنط أحد من رحمته الواسعة، ولايحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته، عظيم ذنبه، وجسيم خطئه، مالم يقارف شركا وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجاً لامزيد عليه وذلك واضح مما يلي:

١ - وصف المحارب بأنه محارب لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢ - عظم الجزاء المرتب على الحرابة أيا كان هو.

٣ - مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

٤ - يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه حتى لايكون سده في وجهه حافزاً له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه[1].

سرية الخبط أو بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

تعتبر سرية الخبط، استمرارا لسياسة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديًا على المدى الطويل، ولتعويض المهاجرين، ولو جزءًا بسيطًا مما فقدوه من أموال ومتاع استولت عليها قريش عند مغادرتهم وطنهم مكة.

فقد حشد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجموعة من رجاله المخلصين في ثلثمائة صحابي من المهاجرين والأنصار[2] وأسند قيادتها إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن

(١) د. عبدالله الشنقيطي، لاعلاج القرآن الكريم للجريمة، ص٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٣٤٠.

(٢) في رواية النسائي ثلاثمائة وبضعة عشر. انظر النسائي، سنن (٤/ ٢٠٩).

وقد نصت رواية الواقدي وكاتبه ابن سعد علي "ثلثمائة رجل من المهاجرين والأنصار،

الجراح، وحدد لهم الهدف المنشود وهو رصد عير المشركين ربما قافلة تجارية مساحلة عن طريقها المعتاد، وقد تمر بمنطقة نفوذ قبيلة جهينة على ساحل البحر الأحمر.

ونظرا للضائقة الاقتصادية التي كان يمر بها المسلمون في ذلك الوقت، فقد كان تموين هذا الجيش ضعيفا بحيث لم يجد لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير جراب من تمر زودهم إياه، إضافة إلى أزوادهم الخاصة التي كانت في مجملها قليلة أيضا. وأثناء المسير لموقع العمليات، فَنِي زاد السرية العام "فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجُمع فكان مزودي تمر"[1] لأجل البركة في اجتماع الأزواد، وحتى يتساوى الكل في القوت فلا يتميز أحد عن أحد.

ورغم هذا الإجراء المنضبط من القائد الذكي إلا أن جرابا من تمر وهو مقدار ما تجمع من الزاد الخاص للجيش لم يكن يكفي جيشا مكونًا من ثلثمائة رجل.

فكان أبو عبيدة يقوتهم من هذا الجراب كل يوم "قبضة قبضة" ثم تمرة تمرة. عندما قارب من الانتهاء، وقد أدرك الجند صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن.

يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أفراد هذه السرية: "كنَّا نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل"[2] وكم هو رائع هذا الموقف المدهش حقًا والذي أدهش قبلنا وهب بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ الذي سأل جابرا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دهشًا: "ما تغني عنكم تمرة؟، فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت"[3].

ومع ذلك لم يؤثر ذلك على معنويات الجيش، ويستسلموا للأمر الواقع بل فكروا في حيلة يُبقون على أنفسهم حيث اضطروا إلى أكل ورق الشجر.

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكنا نضرب بعصينا الخبط[4]، ثم نبله بالماء

وفيهم عمر بن الخطاب. انظر الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٤)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٣٢)، ابن حجر، فتح (٨/ ٧٧)، والنووي على مسلم (١٣/ ٨٩).

(١) المزود بكسر الميم وسكون الزاي ما يجعل فيه الزاد. ابن حجر، فتح (٨/ ٧٩)، وإرشاد الساري (٦/ ٤٢٧).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٤).

(٣) ابن حجر. (٨/ ٧٧).

(٤) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، واسم الورق الساقط خَبَط بالتحريك، فعل

فنأكله"[1].

"فسمى ذلك الجيش جيش الخبط"[2]، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أحد جنود هذه السرية الشجاعة وهو رجل من كرماء الصحابة المشهورين فنحر للجيش "ثلاث جزائر[3]، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه"[4].

ولم يكن الله عز وجل ليتخلى عن جند له خرجوا في سبيله ابتغاء مرضاته، وطمعا فيما عنده من الأجر، فبينما هم كذلك من الجهد والجوع الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج الله فيها حوتًا ضخمًا، فألقاه على الشاطىء، ويصف لنا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: "وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم[5]، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر[6]، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل

بمعنى مفعول وهو من علف الإبل، والخبط ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويخفف بالماء. والقاموس المحيط، مادة (خبط).

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٤).

(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٧٨).

(٣) جمع جزور، والجزور: البعير، أو خاص بالناقة. (القاموس، مادة جزر).

(٤) ابن حجر فتح (٨/ ٧٨) وذكر الواقدي في روايته أن قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه الجزر من رجل جهني، وأن أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلا: تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك. الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٤ - ٧٧٥)، هذا وقد رجح ابن حجر هذا السبب عند ذكر الاختلاف في سبب نهي أبي عبيدة لقيس، فقال: قيل لخشية أن تفنى حمولتهم، وفيه نظر؛ لأن القصة أنه اشترى من غير العسكر، وقيل: لأنه كان يستدين على ذمته، وليس له مال، فأريد الرفق به، وهذا أظهر والله أعلم، فتح (٨/ ٨١).

(٥) الكثيب: التل من الرمل. (القاموس: الكثب).

(٦) العنبر سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس، قال الأزهري: العنبر سمكة بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين ذراعا يقال لها بالة، وليست بعربية، والمقصود به حوت العنبر SPERMWHALE وهو مميز الشكل والهيئة، ومظهره ملتو، ويتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضخم والبوز المربع الذي يخزن فيه كمية كبيرة من الدهن، وهو من أكبر أنواع المسننات من الحيتان حيث يتراوح طول الذكر منه خمسة عشر إلى عشرين مترا، ويزن حوالي من خمسة وثلاثين إلى ستين طنٍّ، والأنثى أصغر من الذكر، وتعتبر الحبارة هي غذاءه الرئيسي إذ يصيد منها كميات كبيرة وضخمة، وقد وجد في معدته من هذه الحبارات ما يبلغ طوله عشرة أمتار. والعنبر من الكائنات البحرية الغواصة فهو يستطيع الغوص إلى عمق ألف متر أو أكثر، كما يستطيع البقاء في الأعماق حوالي ساعة من

رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شـهرا، ونحـن ثلـثمائة حتـى سمِـنَّا، قـال: لقـد رأيتـنا نغترف من وقب[1] عينيه بـالقلال[2] الدهن. وتقتطع منه الفدر[3] كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبـيدة ثلاثـة عـشر رجـلا فأقعـدهـم في وقـب عينـيه، وأخـذ ضـلعا من أضلاعه فأقامها، ثم رجل أعظم بعير معنا فمر من تحتها[4] وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمـنا المديـنة أتيـنا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: «**ما حبسكم ؟**»، فقلنا: كنا نتـبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة". فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهـل معكـم مـن لحمـه شيء فـتطعمونا؟**»، قـال: فأرسـلنا إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه فأكله"[5].

ومن الدروس المستفادة من هذه السرية:

- جواز صدِّ أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه.

- وأن الجـيوش لا بـد لهـا مـن أمـير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وأنه ينبغـي أن يكـون الأمـير أفـضلهم، قالوا: يستحب للرفقة من الناس وإن قلوا أن يؤمـروا بعضهـم عليهـم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للـرفقة مـن المـسافرين خلـط أزوادهـم ليكون أبرك، وأحسن في العشرة، وأن لا

الـزمان. انظـر الفـيروز آبـادي، القامـوس، وابـن مـنظور، لـسان مادة: عنبر، وانظر ابن حجـر، فـتح (٨/ ٨٠)، والحلـبي، سـيرة (٣/ ٢٠٣)، ومـنير البعلبكـي: المـورد قامـوس انكليزي – عربي (ص: ٨٨٦).

(١) الوقب هو النقرة التي تكون فيها العين. ابن منظور، لسان، مادة (وقب).

(٢) جمـع قلـة وهـي الجـرة العظيمة، وذلك مما يقور الظن بأنه حوت العنبر حيث إنه يتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضخم الذي يتركز فيه كمية كبيرة من الدهن.
انظر: د. موسى العمودي، الثدييات البحرية، ص ١٤.

(٣) جمع فدرة وهي القطعة من اللحم. القاموس، واللسان (فدر).

(٤) وفي: "فأخـذ أبـو عبيدة ضلعا من أضلاعه فنصبه، ثم نظر إلى أطول رجل في الجيش، وأطول جمـل فحملـه عليـه، فمـر تحته". انظر ابـن حجـر فـتح (٨/ ٧٨)، ومـسلم بـشرح النووي (١٣/ ٨٨) واللفـظ له. قال ابن حجر: وهذا الرجل لم أقف على اسمه، وأظنه قيس بن سعد بن عبادة فإن له ذكرا في هذا الغزوة، وكان مشهورا بالطول. ابن حجر، فتح (٨/ ٨٠).

(٥) ابـن حجـر، فـتح (٦/ ١٣٠، ٨/ ٧٧ – ٧٨)، والقـسطلاني، إرشـاد الـساري لـشرح صـحيح الـبخاري (٦/ ٤٢٧ – ٤٢٨)، مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٤– ٨٥ – ٨٧ – ٨٨ – ٨٩ – ٩٠)، ابـن هـشام، سيرة (٤/ ٦٣٢ – ٦٣٣) الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٤ – ٧٧٥ – ٧٧٦ – ٧٧٧) وابن سعد، طبقات (٢/ ١٣٢)، والطبري، تاريخ (٣/ ٣٢ – ٣٣).

يختص بعضهم بأكل دون بعض والله أعلم[1].

- مشروعية المواساة بين الجيش عند وقوع المجاعة، وأن الاجتماع على الطعام يستدعي البركة فيه[2].

- ومن الفوائد أيضا: جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عشب الأرض، قاله ابن القيم[3].

وما أقدم عليه أصحاب السرية من أكل الخبط دليل على قوة شكيمتهم، وتمتعهم بفكر سليم هداهم إلى أكل ورق الشجر كي يبقوا على أنفسهم ولا يستسلموا للجوع فيُقضى عليهم، مع عظيم توكلهم على الله عز وجل الذي لم يخب ظنهم فأطعمهم رزقا من عنده من حيث لا يحتسبون. وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وقد سمعنا في وقتنا الحاضر بأن الجيوش الحديثة لديها فرق خاصة تسمى (قوات الصاعقة) يتم تدريبها تدريبا عنيفا يتضمن تعويدهم على أكل ورق الشجر وغيره استعدادا لما قد يلاقونه من جوع في مهماتهم، وقد رأينا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، في هذه السرية يأكلون ورق الشجر، كل تلك الفترة بدون تدريب مسبق على ذلك، وليس ذلك بمستغرب من جنود سامية أهدافهم يملأ الإيمان جوانحهم[4].

- وفي هذه السرية أيضا بيان ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الزهد في الدنيا، والتقلل منها، والصبر على الجوع وخشونة العيش، وإقدامهم على الغزو مع هذا الحال[5].

- وتدل القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ [المائدة: ٩٦].، وقد صح عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة "أن صيد البحر ما صيد منه،

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٦).
(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٨١).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ١٥٩).
(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٢٢.
(٥) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٦).

وطعامه ما مات فيه"، وفي السنن عن ابن عمر مرفوعا وموقوفا: «**أحلت لنا ميتتان، ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال**» حديث حسن، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: "أُحل لنا كذا، وحُرِّم علينا" ينصرف إلى إحلال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحريمه، فإن قيل: فالصحابة في هذه الواقعة كانوا مضطرين، ولهذا لما هموا بأكلها قالوا: إنها ميتة، وقالوا: نحن رسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن مضطرون فأكلوا، وهذا دليل على أنهم لو كانوا مستغنين عنها لما أكلوا منها[1].

- وفيها دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقراره على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الإجتهاد وعدم تمكنهم من مراجعة النص. وقد اجتهد أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدة من الوقائع وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة لا في أحكام عامة وشرائع كلية؛ فإن هذا لم يقع بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحد من الصحابة في حضوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألبتة[2].

لقد شهد العام السادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليات المواجهة مع العدو، ولايكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعاً أو تحطم عدواً أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: الآن نغزوهم ولايغزونا، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم، وكيف يتقدمون ليتصدروا مرحلة جديدة تبدأ معالمها وملامحها مع صلح الحديبية[3].

---

(١) ربما أنهم توقفوا باديء الأمر لعدم معرفتهم بالحكم الذي لم يرد فيه نص قاطع من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا في وقت متأخر في الحديث الذي يرويه أبو هريرة الذي أسلم بعد فتح خيبر - في البحر، وفيه: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" أخرجه مالك. انظر موطأ مالك (١/ ٢٢، ٢/ ٤٩٥)، والألباني صحيح سنن الترمذي (١/ ٢١)، وصحيح سنن أبي داود (١/ ١٩)، وصحيح سنن النسائي (١/ ١٤)، وصحيح سنن ابن ماجه (١/ ٦٧).

(٢) مسلم بشرح النووي، ١٣/ ٨٦، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٢٤.

(٣) التربية القيادية، ٤/ ١٨٩ إلى ١٩٢، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٣٧٥.

غزوة الحديبية[1]:

بعد غزوة الأحزاب شهد العام السادس من الهجرة نشاط عسكري كبير للدولة الإسلامية نتج عنه تحول في سير الأحداث العسكرية لصالح المسلمين، وبدأ سقف التطلعات يعلو، وأصبح المسلمون يشعرون بالرغبة الكبيرة في تتويج جهودهم والوصول لفتح مكة، والتمكن في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ الهجرة النبوية الشريفة.

وكان السبب في خروج المسلمين لهذه الغزوة رؤيا رآها النبي ﷺ قبيل خروجه، وملخصها: أن رسول الله ﷺ رأى أنه دخل البيت هو وأصحابه وطافوا به، وحلق بعضهم وقصر البعض، وأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا[2].

وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ...﴾ [الفتح: ٢٧].

وفي يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة ٦ هـ[3]، خرج الرسول ﷺ من المدينة متوجها بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة[4]. وقد كشف بذلك عن حقيقة النظرة الإسلامية إلى البيت العتيق، والمشاعر الإسلامية نحوه وتعظيمهم لشعائر الله في حجه وعمرته. وكان ذلك في الوقت نفسه إظهارا لخطأ دعاية قريش المعادية التي حاولت عبر فترة الصراع أن تبثها بين بطون القبائل والتي أرادت أن تظهر أنّ المسلمين لا يعترفون بمكانة البيت العتيق وحرمته. على أن هذا التوجه نحو أداء العمرة من قبل الرسول ﷺ والمسلمين، وخططهم في الوصول إلى مكة ودخولها لأداء النسك قد أحرج قريشا إلى درجة كبيرة وخصوصا أن ذلك يأتي في أعقاب فشل غزوة الأحزاب وانهيار التحالفات

---

(١) موضع فيه بئر يقع على مشارف مكة الشمالية الغربية وعلى مسافة تزيد على عشرين كيلو من المسجد الحرام. وجعلها ابن هشام: «أمر الحديبية» على اعتبار أن الأصل في ذلك الخروج للعمرة وليس للغزو، وقد سميت بالغزوة بها لأن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية (السيرة ٣/ ٤٢٧).

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٧٢، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٤، والمقريزي، إمتاع الأسماع ١/ ٢٧٤، الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ١٧٩.

(٣) ابن حجر – فتح الباري ٨/ ٩٧.

(٤) البخاري – الصحيح (فتح الباري – حديث ٤١٧٩).

القرشية مع القبائل الأخرى ومع يهود. وهي تبرز بوضوح وجلاء قوة المسلمين واستعلائهم في نظر العرب، في نفس الوقت الذي تخطأ فيه جميع الدعايات القرشية المعادية للمسلمين وأوقعت قريشا في الحرج الشديد، فهي إما أن تسمح للمسلمين وعلى رأسهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعمرة، فيتحقق العرب من ضعفها وكذب دعاياتها، وإما أن تعارض ذلك، فتصد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين عن دخول مكة وأداء العمرة، وبذلك ينكشف زيف ادعائها بالحرص على البيت العتيق وحرمته، ويتحدث العرب عن صد قريش لمن قصدوا تعظيمه وتكريمه والحج إليه، وكانت جميع هذه المعاني ماثلة أمام زعماء قريش حين واجهوا هذا الحدث الكبير.

ولم يكن خافياً على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عداوة قريش للمسلمين ولا تخفى على من له أدنى علم بأحداث الجزيرة في ذلك الوقت، فآخر هجوم قامت به على المدينة - كان قبل سنة فقط من خروج المسلمين لهذه الغزوة - حشدت فيه كل قواها المادية والمعنوية مستهدفة القضاء على المسلمين، وإبادة خضرائهم، لكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، فغيظهم على المسلمين يزداد يوماً بعد يوم، ومن المستحيل أن يمكنوا المسلمين من الدخول إلى مكة عن رضى منهم وطواعية، بل لن يتوانوا في الإيقاع بهم إن وجدوا سبيلاً إلى ذلك.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على علم بعداوة قريش وحنقها لذلك فقد أخذوا أهبتهم وحيطتهم قبل خروجهم من المدينة. وعزم على الخروج بأكبر عدد ممكن من المسلمين، ولذلك فإنه استنفر المسلمين من أهل البادية، غير أنهم أبطئوا عليه وتعلل بعضهم بأعذار شتى كشفها القرآن الكريم: ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً** ﴾ [الفتح: ١١ - ١٢].

وهكذا فقد خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه من المهاجرين والأنصار وبلغ عددهم ألفا وأربعمائة رجل [(١)]، حملوا معهم سلاحهم توقعا لشر

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٣٥٧٦، ٤١٥١، ٤١٥٤)، مسلم - الصحيح، كتاب الإمارة ص ٧٣، ٧٥، يحيى بن معين - التاريخ ١/ ٣٢١، البيهقي - دلائل النبوة ٢/ ٢١٤.

قريش [١] . وكانوا مستعدين للقتال [٢] .

وصلى الحبيب محمد ﷺ والمسلمون بذي الحليفة، وأهلّوا معه محرمين بالعمرة، وساقوا الهدي معهم سبعين بدنة، ثم بعث النبي ﷺ بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي من ذا الحليفة عيناً له إلى مكة، فسار بسر إلى قريش يتحسس أخبارهم ونواياهم إزاء المسلمين وردود فعل قريش [٣] .

وأرسل النبي ﷺ بعد وصوله الروحاء [٤] سريّة جعل عليها أبا قتادة الأنصاري - ولم يكن محرما بالعمرة - في جمع من الصحابة إلى ساحل البحر الأحمر بعد أن علم بوجود تجمع للمشركين في غيقة[٥]، وخشية أن يباغتوا المسلمين، فلم يلقوا كيدا ويظهر أنهم أخذوا طريق الساحل لتأمينه، إذ لم يلتحقوا بركب النبي ﷺ إلّا في : «السقيا» [٦] .

وحين وصل المسلمون عسفان [٧] جاءهم بسر بن سفيان الخزاعي بأخبار استعدادات قريش وتجميعها الجموع لصد المسلمين عن دخول مكة، وإرسالها طلائع من الفرسان إلى «كراع الغميم» [٨] .

روي البخاري قال: "فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٤١٧٩) .
(٢) وانفرد الواقدي بالقول بأنهم لم يكونوا يحملون السلاح، المغازي ٢/ ٥٧٣ .
(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٤١٧٩)، أحمد - المسند ٤/ ٣٢٣، ابن هشام - السيرة ٣/ ٣٠٨ .
(٤) الروحاء - بفتح الراء المهملة وسكون الواو ثم حاء مهملة ممدودة -: محطة في صدر وادي الصفراء على طريق مكة من المدينة على (٧٣كيلو) مشهورة (ببئر الروحاء) . نسب حرب: ٣٦١ .
(٥) غيقة: هو بفتح الغين المعجمة بعدها ياء ساكنة ثم قاف مفتوحة ثم هاء - قال السكوني: هو ماء لبني غفار بين مكة والمدينة، وقال يعقوب: هو قليب لبني ثعلب يصب فيه ماء رضوى وهو يصب في البحر . فتح الباري ٤/ ٢٣ .
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ١٨٢١ - ١٨٢٤)، والسقيا موضع يبعد ١٨٠ كيلومتر من المدينة في الطريق إلى مكة .
(٧) موضع على طريق المدينة - مكة، يبعد ٨٠ كيلومتر عن مكة .
(٨) واد بين عسفان ومكة قريب إلى عسفان، يبعد عنها ١٦ كيلو عن مكة، انظر: البلادي - معجم المعالم الجغرافية في السيرة، ص/ ٢٦٤ .

الأشطاط ، أتاه عينه قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش[(١)] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك ، فقال: أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين[(٢)] ، فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، قال: «**امضوا على اسم الله**» [(٣)] .

وقد صلّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه في عسفان صلاة الخوف [(٤)] .

ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قريشاً قد خرجت تعترض طريقه ، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد ، وهو لم يقرر المصادمة ، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصدام مع المشركين . فقال: «**من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟**» فقال رجل من أسلم: أنا يارسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي . وعند ذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس: «**قولوا نستغفر الله ونتوب إليه**» ، فقالوا ذلك .

فقال: «**والله إنها الحطة** [(٥)] **التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها**» [(٦)] .

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش[(٧)] في طريق تخرجه إلى ثنية المرار[(٨)] ، فهبط الحديبية من أسفل مكة ، فسلك

---

(١) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً ، والتحبش التجمع ، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حبشياً ، فسموا بذلك . النهاية ١/ ٣٣٠ .

(٢) محروبين: مسلوبين منهوبين . النهاية ١/ ٣٥٢ .

(٣) البخاري ، الصحيح (فتح الباري ، الأحاديث ٤١٧٨ - ٤١٧٩) ، أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٣ ، النسائي ، السنن (حديث ١٥٥٠ - ١٥٥١) ، ابن كثير ، التفسير ١/ ٥٤٨ .

(٤) مسلم ، الصحيح ٤/ ٢١٤٤ (حديث ٢٧٨٠) ، البيهقي ، السنن الكبرى ٣/ ٢٥٧ ، ابن كثير ، التفسير ١/ ٥٤٨ ، وهذا على رأي من أخر غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد فتح خيبر ، وهو الصحيح ، وخلافاً لما ذكره ابن إسحاق وابن هشام والواقدي (السيرة النبوية ، ٣/ ٢٠٣ ، المغازي للواقدي ، ١/ ٣٩٦) .

(٥) يريد قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿قُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال المفسرون: معناه: اللهم حط عنا ذنوبنا .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٣٨) .

(٧) بين ظهري الحمش: تقع شمال ثنية المرار . معجم المعالم الجغرافية للبلادي ، ص ١٠٦ .

(٨) ثنية المِرَار: هي طريق في الجبل تشرف على الحديبية ، الفتح ٥/ ٣٣٥ ، وقال البلادي: "إذا وقفت في الحديبية ونظرت شمالاً عدلاً ، رأيت جبلين بارزين بينهما فج واسع هذا الفج

الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فعجل خالد بن الوليد بالعودة إلى مكة حين علم بذلك فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[1] وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر وأصبحت مهددة من المسلمين تهديداً مباشراً[2].

يقول اللواء محمود شيت في هذا الدرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لايقترب من قاعدته الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يُطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية[3].

ويؤخذ من إتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته[4].

وعندما اقترب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: خلأت القصواء[5]، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ماخلأت القصواء، وماذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»[6]، ثم زجرها[7] فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه[8] النّاس تبرّضا، فلم يلبّثه النّاس حتّى نزحوه، وشكي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العطش؛ فانتزع سهما

ثنية المرار* معجم المعالم، ١٠٦.

(١) البيهقي، دلائل النبوة ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠، الواقدي، المغازي ٢/ ٥٨٢، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٩٥.

(٢) السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٧٤.

(٣) شيت خطاب، الرسول القائد، ص١٨٦ - ١٨٧.

(٤) السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٧٤.

(٥) بركت وحرنت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٢٩ - حديث ٢٧٣١).

(٧) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية ٢/ ٢٩٦.

(٨) يتبرضه: هو الأخذ قليلا قليلا.

من كنانته ، ثمّ أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتّى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] .

لقد خرج المسلمون من المدينة وهم أشد ما يكونون شوقاً إلى البيت الحرام ، ولقد كانوا عازمين على دخول مكة ، وأداء نسكهم مهما كلفهم ذلك من ثمن ، وفي الوقت نفسه كانوا حاسبين حساب قريش - لما كانوا يعلمونه من عدائها لهم وحنقها عليهم - ولذلك أخذوا أهبتهم لاجتياح كل ما من شانه أن يعوق طريق سيرهم ، لكن تغير الموقف تماما بعد أن بركت ناقته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة...** » [2] ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**» [3] .

فهذا النص يفسر لنا السبب في تغيير موقف الرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بروك الناقة ، ولا أعني ببروك ناقته البروك ذاته لكن أقصد ما وراء البروك وهو ما عبر عنه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة..**» .

والذي حبس الفيل عن مكة هو الله سبحانه ، وإذن فالله هو الذي حبس ناقة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وحين أدرك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الأمر أصدر التصريح الذي غير به موقفه الأول إلى ذلك الموقف السمح المتجاوب ، فكان له الأثر الفعال في نجاح الصلح حيث كان الجانب الإيجابي في مقابل سلبيات قريش [4] .

وعمل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إبلاغ رسالة واضحة لزعماء قريش تضمنت أنه لم يأت لحربهم أو حرب غيرهم ، وإنما جاء بقصد الاعتمار وتعظيم البيت العتيق وتكريمه وزيارته والطواف به [5] . وقد بيّن الرسول هذه الوجهة

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣١ - حديث ٢٧٣٢) ، وفي رواية صحيحة أخرى أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري - الصحيح ، فتح الباري - حديث ٢٥٧٧) ويمكن الجمع بين الحديثين .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الصلح: ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ وتقدم سنده مع طرف من أوله برقم (٣٥) .

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٢٩ - حديث ٢٧٣١) .

(٤) الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص١٥٩ .

(٥) البخاري ، الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

لعدد من الرجال المحايدين أحيانا، وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض كذلك.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعيّ في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة [1] نصح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل تهامة، فقال: «**إنّي تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل** [2]**، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت**». فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّا لم نجيء لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنّ قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدّة ويخلّوا بيني وبين النّاس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا، وإلّا فقد جمّوا** [3]**، وإن هم أبوا؛ فوالّذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي** [4]**، ولينفذنّ الله أمره**». فقال بديل: سأبلّغهم ما تقول.

وقد نقل بديل الخزاعي ذلك لقريش فاتهموه وخاطبوه بما يكره... "فانطلق حتّى أتى قريشا، قال: إنّا جئناكم من هذا الرّجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء. وقال ذوو الرّأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول: كذا وكذا. فحدّثهم بما قال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم أرسل خراش بن أميّة الخزاعي - وهو يقصد بيان موقفه أمام الناس جميعا - فعقروا جمله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش [5]. ووقع اختيار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الأمر على عمر بن الخطاب، فاعتذر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الذهاب إليهم، وأشار على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبعث عثمان مكانه [6]، وعرض عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأيه هذا معززاً بالحجة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء وحيث أن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد أشار على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثمان

---

(١) عيبة نصح: العيبة هي ما توضع به الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له والأمانة لسره.

(٢) العوذ المطافيل: العوذ هي الناقة ذات اللبن، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها.

(٣) جمّوا: أي استراحوا.

(٤) سالفتي: السالفة هي صفحة العنق. والمعنى من قوله حتى تنفرد سالفتي كناية عن القتل أو القتال وحيدا.

(٥) أحمد، المسند ٤/ ٣٢٤، الفتح الرباني ٢١/ ١٠١ - ١٠٤، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٩٦ - ٩٧.

(٦) المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لأن لـه قبـيلة تحمـيه مـن أذى المـشركين حتـى يـبلغ رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لرسول الله: إني أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفت عداوتي لهـا ، ولـيس بهـا من بني عدي من يمنعني ، وإن أحببت يارسول الله دخلت عليهم فلم يقل رسول الله شيئاً ، قال عمر: ولكن أدلك يارسول الله على رجل أعز بمكة مـني ، وأكثـر عـشيرة وأمـنع ، عـثمان بـن عفـان ، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**اذهب إلى قريش فخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهـذا البـيت**»[(١)] ، فعـدل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه إلى عثمان بن عفان الذي دخـل مكـة في جـوار أبـان بـن سـعيد بـن العـاص ، وأبلـغ قريـشا رسـالة الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)] ، وحين سمح زعماء قريش لعثمان بالطواف بالبيت العتيق فإنه أبـى أن يـسبق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطواف بالبيت ، فقد روي أن عثمان لما دخل في جـوار أبـان بـن سـعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج وأردف خلفه ، فلما قدم به إلى مكة قال له: طف يا بن عم ، فقال عثمان: يا بن عم إن لنا صاحباً لا نبتاع أمراً حتى يكون هو الذي يعمله فنتبع أثره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)] .

وقـد أخـرت قـريش عودة عثمان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فحسب المسلمون أنهـا قتلته[(٤)] ، وبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن عثمان قد قتل[(٥)] فدعا أصحابه إلى البـيعة تحـت شـجرة سمـرة ، فبايعوه جميعا على الموت[(٦)] سوى الجد بن قيس وكـان مـن المـنافقين[(٧)] ، وكـان أول مـن بايـع من الصحابة أبو سنان عبد الله بن وهـب الأسـدي[(٨)] وتابعـه الصحابة يبايعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بيعته فأثنى

---

(١) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ ، ابن هشام ، السيرة ٣/ ٣٠٨ .
(٢) أحمد – المسند ٤/ ٣٢٤ .
(٣) العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، ١/ ٤٧٨ .
(٤) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ .
(٥) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ .
(٦) البخاري – الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٦٩) ، مسلم – الصحيح – كتاب الإمارة (ص/ ٨١) ، وفي رواية صحيحة أخرى كانت البيعة على الصبر وعدم الفرار ، البخاري – الصحيح (حديث ٤١٦٩) ، مسلم – الصحيح (٣/ ١٤٨٣ ، حديث ١٨٥٦) ، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم التولي ، انظر ابن حجر – فتح الباري (شرح الحديث ٤١٦٩ ، ٦/ ١١٨) .
(٧) مسلم – الصحيح ٣/ ١٤٨٣ (حديث ١٨٥٦) وانظر كتاب الإمارة (ص ٦٩) من حديث الصحابي جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – وهو من الذين بايعوا تحت الشجرة .
(٨) ابن حجر – الإصابة ، ٩٥ – ٩٦ من حديث الشعبي ، وقال: وأخرجه ابن منده من طريق

عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**أنتم خير أهل الأرض**»[1] وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضا: «**لا يدخل النّار إن شاء الله من أصحاب الشّجرة أحد الّذين بايعوا تحتها**»[2].

ولما كان عثمان بن عفان قد حبس في مكة، فقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يده اليمنى وقال: «**هذه يد عثمان**»، فضرب بها على يده، وقال: «**هذه لعثمان**»[3] وبذلك فقد عدّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المبايعين تحت الشجرة. وقبل أن تتطور الأمور وتتأزم، عاد عثمان إلى معسكر المسلمين بعد بيعة الرضوان هذه مباشرة. وقد عرفت البيعة بذلك لأن الله تعالى أخبر أنه رضي عن المبايعين فيها فقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩][4].

فضل أصحاب البيعة:

لقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منها:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال ابن القيم: وتأمل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأيديهم ويضرب بيده على أيديهم وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو السفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه وفوق الخلائق كلهم كانت يده فوق أيديهم كما أنه سبحانه فوقهم[5].

- وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

عاصم عن ذر بن حبيش، وصححهما.

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٥٤).

(٢) مسلم - الصحيح - كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٢ حديث ٢٤٩٦).

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٣٦٩٨).

(٤) انظر الطبري، التفسير ٢٦/ ٨٦.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧٢).

تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩] .

- أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان أنه ألزمهم كلمة التقوى التي هي كلمة التوحيد وأنهم كانوا أحق بها وأهلها . قال تعالى: **﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾** [الفتح: ٢٦] .

وقد ورد الثناء عليهم في السنة المطهرة في أحاديث كثيرة ومن ذلك مايلي:

- عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض**» وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[(١)] .

- وقال جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أخبرتني أم مبشر: أنها سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عند حفصة: «**لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يارسول الله: فانتهرها فقالت حفصة: **﴿وإن منكم إلا واردها﴾** فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قد قال الله - عز وجل -: **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾** [مريم: ٧١ - ٧٢] .

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ تعالى: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**» ، قال العلماء: معناه لايدخلها أحد منهم قطعاً . . . وإنما قال إن شاء الله للتبرك لالشك وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها فقالت: **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾** فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وقد قال: **﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾** فيه دليل للمناظرة والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة لا أنها أرادت رد مقالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون[(٢)] .

- وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يصعد الثنية ثنية المرار**[(٣)]**، فإنه يحط**

(١) مسلم (٣/ ١٤٨٥) .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٥) .
(٣) ثنية المرار: مهبط الحديبية والمرار .

عنه ماحط عن بني إسرائيل» ، قال: فكان أول من صعدها خيلنا خيل بني الخزرج ثم تتام الناس فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر**» ، فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، قال: وكان رجلاً ينشد ضالة له[1] .

وهذا الحديث تضمن فضيلة عظيمة لأصحاب الحديبية رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وتلك الفضيلة مغفرة الله لهم وأكرم بها من فضيلة منحهم إياها الرب - جل وعلا - لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله والرسول بالسمع والطاعة[2] .

إن جيل الحديبية له سمات كما في النصوص الصحيحة ، فهم خير أهل الأرض ، وغفر الله لهم ، ولايدخل منهم أحد النار ، وهذا الجيل مكون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ومن صلى القبلتين ، ومن التحق بهم من الذين اتبعوهم بإحسان[3] .

عقد الصلح وما ترتب عليه من أحداث:

ولما لم تقبل قريش ما نقله بديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه جاء زائرًا للبيت ولم يأت مقاتلاً ، واتهمتهم ، بل وأسمعتهم ما يكرهون ، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسمع منه ، ثم يأتيهم بالخبر اليقين ، وقبل أن يباشر عروة ذلك ، ورغبة منه في منع تكرار ما حصل مع بديل قبله من تعنيف وسوء المقالة ، وضح لهم موقفه منهم وأقروا له بأنه غير متهم لديهم ، ثم أوضح لهم أن ما عرضه عليهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أمر رشد دعاهم إلى قبوله ، فوافقوا على رأيه ، فقد روي أنه قام فيهم فقال: "أي قوم ، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى . قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى . قال: فهل تتّهموني؟ قالوا: لا . قال: ألستم تعلمون أنّي استنفرت أهل عكاظ ، فلمّا بلّحوا [4] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى . قال: فإنّ هذا قد عرض عليكم خطّة رشد اقبلوها ودعوني آته . قالوا ائته .

فلما جاء الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يكلّمه ، فقال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٤٤ - ٢١٤٥) .
(٢) انظر: عقيدة أهل السنّة والجماعة (١/ ٢١٢) .
(٣) الصلابي ، السيرة النبوية ، ٢/ ٣٧٨ .
(٤) بلّحوا: التبلّح هو الامتناع عن الإجابة: وبلحوا بمعني امتنعوا عن أداء ما عليهم .

نحوا من قوله لبديل . فقال عروة عند ذلك: أي محمّد ، أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى ، فإنّي والله لا أرى وجوها ، وإنّي لأرى أشوابا [1] من النّاس خليقا أن يفرّوا ويدعوك . فقال له أبو بكر: امصص بظر اللّات [2] ، أنحن نفرّ عنه وندعه . فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر . قال: أما والّذي نفسي بيده ، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك . قال: وجعل يكلّم النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فكلّما تكلّم كلمة أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه السّيف وعليه المغفر ، فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب يده بنعل السّيف ، وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فرفع عروة رأسه ، فقال: من هذا؟ . قال: المغيرة بن شعبة . فقال: أي غدر [3] ، ألست أسعى في غدرتك؟ . وكان المغيرة صحب قوما في الجاهليّة فقتلهم وأخذ أموالهم ثمّ جاء فأسلم .

فقال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أمّا الإسلام فأقبل، وأمّا المال فلست منه في شيء**»[4] .

لقد حاول عروة بن مسعود أن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين ، وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك ، حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية ، وحاول أيضا أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم ، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين ، أثناء تلك المفاوضات . ولكن تحطم كل ذلك أمام الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامي المرصوص . ومن المفارقات الرائعة التي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة

---

(١) الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى .

(٢) امصص بظر اللات: البظر قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة واللات: صنم لهم ، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه .

(٣) غدر: من غادر وهي مبالغة في وصفه بالغدر .

(٤) البخاري ، كتاب في الشروط (٣/ ٢٣٨) رقم ٢٧٣٢ .

الإيمان التي كان يتمتع بها أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى قدرة هذا الدين في تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة بن شعبة - ابن أخي عروة بن مسعود نفسه - وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابًا فاتكًا سكيرًا، قاطعًا للطريق غير أن دخوله للإسلام حوله إلى إنسان آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهامّ حراسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه ندًّا له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة الذي كان قائمًا على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيف يحرسه وعلى وجهه المغفر فانتهر عمه وقرع يده بقائم السيف قائلاً له: اكفف يدك عن مس لحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن لا تصل إليك، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبتسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربي متوشحًا بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في أشد الغضب، ليت شعري من أنت يا محمد؟ من هذا الذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة**»، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غُدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس. كان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**»(1).

لقد فشل عروة في مفاوضاته ورجع محذراً قريش من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ولكنه حرص علي أن ينقل لهم الصورة كاملة، حتى يكونوا علي بينة من الأمر... فقد روي أنه كان "... يرمق أصحاب النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينيه. قال: فوالله ما تنخّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم فدلّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النّظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم،

(1) البخاري، كتاب في الشروط (٣/ ٢٣٨) رقم ٢٧٣٢.

والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنّجاشيّ، والله، إن رأيت مليكا قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمّدا. والله، إن يتنخّم نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النّظر تعظيما له، وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها[1].

ثم بعثت قريش بعد ذلك سيد الأحابيش، الحليس بن علقمة الكناني، فلما اقترب من معسكر المسلمين ورآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنّ هذا من قوم يتألّهون فابعثوا الهدي في وجهه حتّى يراه»** [2]، كما أمر المسلمين أن يلبّوا، فلما رأى الحليس الهدي في قلائده، وسمع تلبية المسلمين عاد أدراجه قبل أن يصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك إعظاما لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت» [3]، فكان جوابهم عليه أن طلبوا منه السكوت واتهموه بالجهل [4]، وقد أنكر الحليس عليهم موقفهم وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أيصدّ عن بيت الله من جاءه معظما له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد»، فقالوا له: «كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به» [5].

فقام رجل منهم، يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته.

فقالوا: ائته. فلمّا أشرف عليهم قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هذا مكرز، وهو رجل فاجر»**. فجعل يكلّم النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فبينما هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قد سهل لكم من أمركم»** [6]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قد أراد القوم الصلح حين**

---

(١) البخاري، الصحيح (فتح الباري – حديث ٢٧٣١).
(٢) البخاري، الصحيح (فتح الباري – حديث ٢٧٣١).
(٣) البخاري، الصحيح (فتح الباري – حديث ٢٧٣١).
(٤) ورد في الرواية الصحيحة قولهم له: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك»، مع أنهم كانوا قد أوفدوه ليفاوض نيابة عنهم.
(٥) البخاري، الصحيح (فتح الباري – الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٦) البخاري، الصحيح (فتح الباري – الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

بعثوا هذا الرجل» [1]، وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو أن لا يكون في صلحه (محمدا) إلّا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا»، فلما انتهى إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح [2].

بدأ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملي شروط الصلح، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو كاتب الصحيفة [3]، وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إعطاء عقد الصلح صبغة إسلامية فبدأه بالبسملة، فاعترض سهيل قائلا: «ما (الرحمن) فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب»، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلّا ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾. فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اكتب: باسمك اللّهمّ**». ثمّ قال: «**هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله**». فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمّد بن عبد الله»، فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني، اكتب: محمّد بن عبد الله**»، وذلك لقوله: «لا يسألونني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلّا أعطيتهم إيّاها». فقال له النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به**». فقال سهيل: والله لا تتحدّث العرب أنّا أخذنا ضغطة (قهرا) ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنها فتدخلها في أصحابك، فأقمت فيها ثلاثا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب»، فوافق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك [4]، فكتب. فقال سهيل: وعلى أنّه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك، إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده [5]، وقد خرج من أسفل مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمّد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ. فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّا لم**

---

(١) المرجع السابق نفسه، وانظر ابن هشام، السيرة ٣/ ٤٣٩ من حديث برواية ابن إسحاق وبإسناد حسن.

(٢) البخاري، الصحيح (الأحاديث ٢٧٣١ – ٢)، ابن هشام، السيرة ٣/ ٤٣٩.

(٣) صرح بهذه التسمية الشيخان، البخاري، الصحيح حديث ٢٦٩٨ – ٢٦٩٩، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣).

(٤) أخذنا ضغطة: أي قهرًا وعنوة.

(٥) يرسف في قيوده: أي يمشي مشيا بطيئا بسبب القيد.

نقض الكتاب بعد» . قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا . قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأجزه لي**» ، قال: ما أنا بمجيزه لك ، قال: «**بلى فافعل**» قال: ما أنا بفاعل . قال مكرز: بل قد أجزناه لك . وقد حاول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استثناء أبا جندل من الشرط غير أن سهيلا أصر على موقفه رغم موافقة مكرز بن حفص على طلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم يجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إزاء إصرار سهيل بدًا من إعادته إليه[1] .

فقال أبو جندل: أي معشر المسلمين ، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ . ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذّب عذابا شديدا في الله .

وقد تم الاتفاق في الصلح بعد ذلك على:

- وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .
- وعلى أنه من أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يردّوه عليه .
- وأن بيننا عيبة مكفوفة (صدور نقية) .
- وأنه لا إسلال ولا إغلال (ولا سرقة ولا خيانة) .
- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه[2] .
- وأنك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة . وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك ، وأقمت فيهم ثلاثة معك سلاح الراكب ، لا تدخلها بغير السيوف في القرب» (أغمادها)[3] .

ولقد تذمر كثير من الصحابة من أغلب شروط هذا الصلح ، وخصوصا من التعديلات التي أحدثها سهيل ابن عمرو فيها وأصر عليها ، فقد امتنع علي بن أبي طالب عن محو عبارة «رسول الله» التي كانت قد وردت في ديباجة العقد في بادىء

---

(١) البخاري ، الصحيح (فتح الباري ، الحديثان ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ ، مسلم ، الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣ ، عبد الرزاق الصنعاني ، المصنف ٥/ ٣٤٣ .

(٢) ورد في ثنايا الرواية عن الصلح بعد هذا الموضع من المتن قوله: «فتوائبت خزاعة فقالوا نحن مع عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهده ، وتوائبت بكر فقالوا نحن مع عقد قريش وعهدهم» . ولا شك أن هذا قد حصل في وقت لاحق ، بناء على ما ورد في العقد وهو ليس جزءا منه ، انظر أحمد - المسند ٤/ ٣٢٥ .

(٣) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٥ ، ابن هشام ، السيرة ٣/ ٣٠٨ بإسناد حسن .

الأمر [١]، وغضب المسلمون لشرط رد المسلمين لإخوانهم الذين يفرون من مكة إلى المعسكر الإسلامي بغير إذن أوليائهم، وسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله تكتب هذا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم.. إنّه من ذهب إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا**» [٢].

لقد كان الصلح في ظاهر شروطه لصالح قريش، حتى وجد المسلمون في أنفسهم من ذلك ما وجدوا، لكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قبل تلك الشروط كان يسير بتوجيه من الله العليم بما سيكون كيف يكون، فكان واثقاً كل الثقة أن كفته هي الراجحة، وإن ظهر للناس ما ظهر، أما قريش فكان محركها في سيرها هو العُنجُهِيَّة وحب السمعة، وقد صرحوا بذلك في وصيتهم لسهيل بن عمرو حين بعثوه للمفاوضة حيث قالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً".

وعلى أساس من هذه الوصية بنى سهيل بن عمرو شروطه للصلح، فعندما قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به" فقال سهيل: "والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَة . . . " [٣].

وهكذا كان هدف قريش هو الحفاظ على سمعتها دون نظر للعاقبة ولذلك صارت شروطها وبالاً عليها حتى تخلت عن أهمِ تلك الشروط، فطلبت من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤوي من جاءه من مكة مسلماً ولا يرده إليها، وهذا ما سيتضح فيما بعد.

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري حديث ٢٦٩٩، ٤٢٥١، ٢٦٩٨، وقد حصل التباس في تحديد الشخص الذي تولّى الكتابة عند امتناع علي - رضي الله عنه - عن ذلك، أورد الامام مسلم في صحيحه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعلي رضي الله عنه: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتب مكانها «ابن عبد الله»، ولا يستدل من ذلك على معرفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القراءة والكتابة فإن معرفة رسم هاتين الكلمتين ومحوه لهما أو معرفته رسم اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يتكرر كتابته أمامه كثيرا من قبل كتابه، لا يخرجه عن كونه أميًا كما وصفه القرآن الكريم، وذهب الجمهور إلى أن المقصود من قوله «كتب» بمعنى أمر بالكتابة انظر ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٥٠٤ (حديث ٤٢٥١).

(٢) مسلم، الصحيح - كتاب الجهاد ص ٩٣، (٣/ ١٤١١ - حديث ١٠٨٤).

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري، الحديثان ٢٧٣١ - ٢٧٣٢، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف ٥/ ٣٤٣.

ولقد ظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور أنها مهينة وأنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق، ولنستمع من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ردة فعله حينذاك، فقال عمر بن الخطّاب: فأتيت نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ألست نبيّ الله حقّا؟. قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟. قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدّنيّة [1] في ديننا إذا؟. قال: «**إنّي رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أو ليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: «**بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإنّك آتيه ومطوّف به**» [2].

ثم أعاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكلام مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمثل ما كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقّا؟. قال: بلى. قلت: ألسنا لى الحقّ وعدوّنا على الباطل. قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدّنيّة في ديننا إذا؟. قال: أيّها الرّجل، إنّه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه [3] فوالله إنّه على الحقّ. قلت: أليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟. قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟. قلت: لا. قال: فإنّك آتيه ومطوّف به [4]. قال الزّهريّ: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا [5].

والحقيقة أن الصحابة لم يكونوا يشكّون في أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت العتيق كما سبق وأعلمهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما جرى صلح الحديبية على الشروط التي تضمنها، فإنهم تألموا وساورت بعضهم الشكوك «حتى كادوا

---

(١) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟.

(٢) البخاري، الصحيح (فتح الباري، حديث ٢٧٣١ - ٢٧٣٢، ٣١٨٢)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤١٢، حديث ١٧٨٥، أحمد - المسند ٤/ ٣٢٥ باسناد حسن.

(٣) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

(٤) البخاري، الصحيح الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٣١٨٢، وفي مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن.

(٥) كما نقل ابن هشام (السيرة ٣/ ٣٠٨) قول عمر - رضي الله عنه -: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري ٥/ ٣٤٦ - ٧.

أن يهلكوا» وخصوصا حين أعيد أخوهم أبو جندل وهو يستنجد بهم قائلا: يا معشر المسلمين: أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني عن ديني» والرسول ﷺ يقول: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنّ الله - عزّ وجلّ - جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا**».

وكان عمر يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين [1].

ولم تكف قريش عن التحرش بالمسلمين خلال مرحلة المفاوضات وكتابة وثيقة الصلح بل حتى بعد إنجاز ذلك؛ وربما كان ذلك من أساليب الضغط على المسلمين خلال مرحلة المفاوضات، وقد تكون التحرشات المتأخرة بسبب طيش شبابها وتهورهم، غير أن الملاحظ هو أن المسلمين قد احتملوا تلك التحرشات بصبر وجلد، وانضباط دقيق، مع يقظة تامة واستعداد، وعند ما حاولت مجموعة كبيرة من رجال قريش قاربت ثمانين رجلًا الاستيلاء على معسكر المسلمين بشكل مباغت، سارع المسلمون بتطويقهم وأسرهم، ثم عفا الرسول ﷺ عنهم فأطلق سراحهم [2]، ثم أسر المسلمون بعد ذلك ثلاثين شابّا من قريش اعتدوا على معسكرهم، وأطلق النبي ﷺ سراحهم [3].

كما عفا ﷺ عن سبعين آخرين أسروا بعد إبرام الصلح، وعن أربعة آخرين كانوا يقعون بالرسول ﷺ بعد عقد الصلح واختلاط المسلمين بالمشركين [4]، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤].

ويثار سؤال عن السبب الذي ألجأ قريشاً لقبول الصلح والرضا به، ويرجع ذلك إلى بيعة الصحابة لرسول الله ﷺ مع ملابسات أخرى، وتوضيح ذلك:

فلما هب الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله ﷺ فبايعوه على القتال حتى يفتح الله عليهم أو يموتوا كان قد حضر ذلك المشهد بعض رسل قريش، فأذهلهم الأمر ثم نقلوا تلك الصورة إلى قومهم، فأحدثت في أنفسهم هزة عنيفة جعلت منهم آذاناً صاغية لقبول الصلح، فقد جاء عن عروة بن الزبير

---

(١) أحمد، المسند ٤/ ٣٢٥.
(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد ص/ ٣٣.
(٣) أحمد، المسند ٤/ ٨٦ بسند صحيح.
(٤) مسلم، الصحيح - كتاب الجهاد (ص/ ١٣٢) حديث ١٨٠٧.

ما نصه: " ودعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البيعة ونادى منادي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله ، فبايعوا فثاب المسلمون إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على ألا يفروا أبداً ، فرعبهم الله فأرسلوا من كانوا ارتهنوا من المسلمين ، ودعوا إلى الموادعة والصلح "(١) .

فهذا النص يبرز لنا مدى تأثير البيعة في نفوس المشركين .

وقد عزز أثر تلك البيعة ملابسات أخرى من قبل رسل المشركين أنفسهم:

فعروة بن مسعود حين رجع إلى قريش عظم لهم شأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكره لهم من أفعال الصحابة ما يبرهن على أنهم لن يسلموا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشيء أبداً وأنهم سيبذلون نفوسهم دونه ، ثم نصح قريشاً بقبول الهدنة ، وأن يخلوا بين المسلمين وما جاءوا له .

فقد جاء في حديث المسور ومروان من رواية معمر ما نصه:

" فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم والله لقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابة ما يعظم أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمداً ، والله إن يتنخم نخامة إلى وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عند ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها "(٢) .

وفي رواية: " ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء فروا رأيكم . . . "(٣) .

وكان لهذا وقعة في نفوسهم فقال أهل الرأي منهم: ليس خير من أن نصالح محمداً (٤) .

فهذه الموقف من رسل قريش معها - إلى جانب ما أحدثته البيعة في نفوسها من ذعر - كان السبب في انصياعها وقبولها الصلح(٥) .

---

(١) دلائل النبوة ، ٢/ ٢٢٨ ، مرويات غزوة الحديبية ، ص١٦٠ .
(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الصلح ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ .
(٣) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤ .
(٤) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤ .
(٥) مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ١٦٢ .

فلمّا تم الصلح وأبرم العقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثمّ احلقوا**» . قال: فوالله ما قام منهم رجل ، حتّى قال ذلك ثلاث مرّات" وذلك ما يعكس الحالة النفسية الانفعالية التي قاسى منها المسلمون حينذاك بسبب استفزازات قريش المتكررة إضافة إلى تصورهم الخاطيء في أن شروط الصلح قد تضمنت إجحافا بهم ، وكأنهم كانوا يأملون الرجوع عن الصلح . فلمّا لم يقم منهم أحد دخل على أمّ سلمة فذكر لها ما لقي من النّاس . فقالت أمّ سلمة: يا نبيّ الله ؛ أتحبّ ذلك؟ . اخرج ، ثمّ لا تكلّم أحدا منهم كلمة حتّى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلّم أحدا منهم حتّى فعل ذلك: نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتّى كاد بعضهم يقتل بعضا غمّا ، فدعا لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] وبذلك تحلل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المسلمين من عمرتهم ، وشرع التحلل للمحصر وأنه لا يلزمه القضاء [2] .

وبعد أن أقام المسلمون في الحديبية عشرين يوما [3] عاد بهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وكانت غيبتهم هذه عنها قد امتدت شهرا ونصف الشهر [4] .

لقد كان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا ، حيث فهمت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم ، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة ، في حق نفسه ، فأشارت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صواب ما أشارت به ففعله ، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به ، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر ، فكان ذلك رأيًا سديدًا ومشورة مباركةً ، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد[5] . كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة ، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء

---

(١) أحمد – المسند ٢/ ٣٤ باسناد صحيح .

(٢) البخاري – الصحيح (حديث ٢٧٠١) ، مسلم – الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ص/ ٩٧ ، أبو داود – السنن – كتاب المناسك (م ١٧٤٩) ، الحاكم – المستدرك ١/ ٤٦٧ .

(٣) وقيل سبعة عشر يوما ، انظر الواقدي ، مغازي ٢/ ٦١٦ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٩٨ .

(٤) ابن سيد الناس – عيون الأثر ٢/ ١٢٣ .

(٥) ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية ، ص١٦١ .

الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل ويعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته[1].

نزول سورة الفتح:

ولما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية قاصداً المدينة وحتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

وقد عبّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عظيم فرحته بنزولها: وقال: أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس[2]، فقال أصحاب رسول الله: هنيئاً مريئاً فمالنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥][3].

وقد أسرع الناس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فقال رجل: يارسول الله: أفتح هو؟ قال: «**نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح**»[4]، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لايمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام[5].

لقد نزل القرآن الكريم وبين للمسلمين بأن هذا الصلح هو فتح مبين ويؤكد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على صواب في قبول الصلح، بل لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح بالصلح ليغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقة واطمئناناً بأنهم على الصواب وأن مافعلوه هو الحق ومآله السعادة،

(١) المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص٢٧٣.
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٨٠) رقم ٤١٧٧.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٥/ ٧٨) رقم ٤١٧٢.
(٤) سنن أبي داود، معالم السنن، كتاب الجهاد رقم ٢٧٣٦.
(٥) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٤٩).

ثـم بين سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين فهو الذي وفقهم للصبر مع رسوله وموافقـتهم أخـيراً علـى ماجـنح لـه من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال الـسكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح، واستسلم للأمر على مضض فلم يحصل رفض لهذا الصلح، بل كلهم نزلوا على أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفضل السكينة التي أنزلها عليهم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ولله جُنُودُ السماوات وَالأَرْضِ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

فالقـرآن الكـريم يـبين أن الله هو الذي أنزل السكينة عليهم ليتذكروا فضله، ويداومـوا علـى شـكره، وهـذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتميز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة إذ السكينة أمر معنوي لايعلم نزوله إلا الله، وأشار القرآن الكـريم إلى بـيعة الرضـوان وهـي مـبايعة الـصحابة للنبي على الموت فأثنى الله - سبحانه وتعالى - على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن وقرر أنها مبايعة لله عـز وجـل فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبهذا نرى مايتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات فهو يبين الحقائق ويصحح العقائد، ويربي النفوس، ويفضح المنافقين، ويبشر المسلمين بغنائم قريبة تحققت في خيبر، ويبين أصحاب الأعذار فليس كل من تخلف عن الجهاد يعاتب، وإنمـا هـناك استثناء وهـذا مـن كمال رحمته الإلهية، ثم لما تم صلح الحديبية وعاد المسلمون إلى المديـنة ولم يتحقق ماقصدوه من دخول مكة أشار سبحانه وتعالى إلى الـرؤيا الـتي سـبقت أن رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشر بها أصحابه وبين أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ الله ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

ثـم خـتمت الـسورة الجليلة بـصفات مـدح للـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه الكرام[١].

قـال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

(١) حديث القرآن الكريم، ٢/ ٥٤٨ - ٥٥٥.

وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٨ - ٢٩].

فهذه الآيات الكريمة وصفت أصحاب محمد في أحلى وأجمل صورة إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة حالاتها الظاهرة والمظمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم. وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهم فقط إخوة الدين، فهي الشدة لله، والرحمة لله.

اللقطة الثانية: ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ والتعبير يوحي كأنما هذه هي هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حين يراهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي: الحالة الأصلية في حقيقة نفوسهم، فعبّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة: مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم، وأعماق سرائرهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل مايشغل بالهم، كل ماتتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه، ولاشيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة: تثبت أثر العبادة الظاهرة، والتطلع المضمر في ملامحهم ونضجها على سماتهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ سيماهم في وجوههم من الإشراق والوضاءة والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عن سماع قوله: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو: أثر العبادة، واختار لفظ السجود، لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ويحل مكانها التواضع النبيل والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشرَّ الأرض بها قبل أن يجيؤوا إليها: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ وصفهم في بشارته بمحمد ومن معه إنهم: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فهو زرع تام قوي يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لايضعف العود بل يشده: ﴿فَآزَرَهُ﴾ وأن العود آزر فرخه فشده: ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ الزرع، وضخمت ساقه وامتلأت: ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ لا معوجاً ولامنحنياً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً.

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة والزرع والعارفين منه النامي، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ وهم رسول الله وأصحابه، وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس: فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزراعة زرعة الله أو زرعة رسوله، وأنهم ستار لقدره، وأداة لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيؤون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة - صحابة رسول الله - فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجاً للأجيال تحاول أن تحققها ليتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضى وحده أجر عظيم، ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولاقيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ(1).

امتناع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رد المهاجرات:

صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد

---

(1) التربية القيادية، ٤/ ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢.

هاجرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلح الحديبية ، فأراد كفار مكة أن يردوهن فرفض طلبهم هذا ؛ بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي: (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته علينا) ، فلم تدخل النساء في العقد رأساً . فأنزل الله تعالى في حقهن: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١] .

فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا . . .﴾ إلخ [الممتحنة: ١٢] ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: «**قد بايعتك**» ، ثم لم يكن يردهن .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم ، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك ، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أميّة [(١)] .

حل أزمة المستضعفين:

ثمّ لما رجع النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة ، استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفر بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة ، وأن يلتحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة ، فأرسلت قريش في طلبه رجلين فقالوا: العهد الّذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرّجلين .

لقد شق ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزن إلى أخيهم في العقيدة ، وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش ، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته وفي علاقته الدولية ، فقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود ، وحذر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١] .

---

(١) البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٥٨) .

وقال جلّ وعلا: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها[١].

لقد التزم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعهده مع قريش وسلم أبا بصير إليهما وانطلق معهما، فخرجا به حتّى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرّجلين: والله إنّي لأرى سيفك هذا يا فلان جيّدا، فاستلّه الآخر. فقال: أجل والله إنّه لجيّد، لقد جرّبت به ثمّ جرّبت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتّى برد[٢]، وفرّ الآخر حتّى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعرا**»، فلمّا انتهى إلى النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قتل والله صاحبي، وإنّي لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبيّ الله، قد والله أوفى الله ذمّتك قد رددتني إليهم، ثمّ أنجاني الله منهم. قال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويل أمّه**[٣]، **مسعر**[٤]**حرب لو كان له أحد**»، فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردّه إليهم، فخرج حتّى أتى سيف البحر[٥].

وأخذ المستضعفون يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره حتى اجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتّجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حتى بلغ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤] وكانت حميّتهم أنّهم لم يقرّوا أنّه نبيّ الله، ولم يقرّوا ببسم

(١) سليم حجازي، منهج الأعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص٣٢٩.
(٢) حتى برد: أي خمدت أنفاسه وحواسه.
(٣) ويل أمه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم.
(٤) مسعر حرب: أي مقدام للحرب مسعّر لنارها.
(٥) سيف البحر (بكسر السين): أي ساحل البحر.

الله الرّحمن الرّحيم، وحالوا بينهم وبين البيت [1].

وبذلك تخلت قريش عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلت قريش من حيث طلبت العز [2].

العبر والعظات من غزوة الحديبية:

لقد حفلت غزوة الحديبية بكثير من الأحكام والفوائد الفقهية وبالدروس والعبر التي تنير للمسلم الطريق وتجنبه كثيراً من المزالق إذا وفقه الله للتنبه لها.

- المعارضة الموضوعية:

إن الإسلام يرحب دائما بالمعارضة الموضوعية التي يكون هدفها الإصلاح والتقويم، وليس تصيد الأخطاء والانتقاص من حقوق الآخرين من أجل منصب أو جاه أو سلطان، وفي هذه الغزوة كان هناك مثالين هامين للمعارضة الموضوعية، التي يكون هدفها البناء والمصلحة العليا لدولة الإسلام، فلقد ظهرت معارضه عمر بن الخطاب الشديدة لهذه الاتفاقية بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور أنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق، ولنستمع من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ردة فعله حينذاك، فقال عمر بن الخطّاب: فأتيت نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ألست نبيّ الله حقا؟. قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟. قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدّنيّة [3] في ديننا إذا؟. قال: «**إنّي رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أو ليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: «بلى، **فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإنّك آتيه ومطوّف به**» [4].

ثم أعاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكلام مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمثل ما كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقا؟. قال: بلى. قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل. قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدّنيّة في ديننا إذا؟. قال: أيّها الرّجل، إنّه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) البخاري، الفتح (٢٧٣١، ٢٧٣٢) واللفظ له، ومسلم مقطعا (١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥).

(٢) محمد رسول الله، صادق عرجون، ٤/ ٢٨١.

(٣) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟.

(٤) البخاري، الصحيح (فتح الباري، حديث ٢٧٣١ - ٢٧٣٢، ٣١٨٢)، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤١٢، حديث ١٧٨٥، أحمد، المسند ٤/ ٣٢٥ باسناد حسن.

وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه [(١)] فوالله إنّه على الحقّ. قلت: أليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟. قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟. قلت: لا. قال: فإنّك آتيه ومطوّف به[(٢)]. قال الزّهريّ: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا[(٣)].

ولما وقعت حادثة أبي جندل تألمت نفوس الصحابة لما يحدث لأخ لهم في العقيدة حتى أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين [(٤)].

عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح إلا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ماأخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٥)].

وبهذا يتبين أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قرر ذلك بقوله وفعله. وهو - والله أعلم - إنما أراد بهذا الفعل ارشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة[(٦)].

---

(١) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي: تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

(٢) البخاري، الصحيح الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٣١٨٢، وفي مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن.

(٣) كما نقل ابن هشام (السيرة ٣/ ٣٠٨) قول عمر - رضي الله عنه -: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري ٥/ ٣٤٦.

(٤) أحمد، المسند ٤/ ٣٢٥.

(٥) باشميل، صلح الحديبية، ص٢٧٠،، الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢ / ٣٣٦.

(٦) القيادة العسكرية في عهد رسول الله، ص٤٩٥،، الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢ / ٣٣٦.

وهذا الهدي النبوي الكريم بين أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون ارهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون[1].

- الشورى:

فالشورى ميزة عظمى لهذه الأمة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في معرض المدح للمؤمنين، وقرنها بالطاعة والصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٧].

وأمر بها نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد استشار الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه في غزوة الحديبية مرتين:

الأولى: استشار الصحابة في الإغارة على ذراري المشركين أو تركهم، ونزل على رأي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تركهم.

والثانية: استشار أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في أمر الناس حين لم يبادروا بالنحر والحلق، وقد أمرهم بذلك، فأشارت عليه بأن يبدأ ذلك بنفسه ففعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جعل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة من بعده شورى في الستة الباقية من العشرة المبشرين بالجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[2].

وبهذا تتضح لنا أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام حيث جعلها الله من

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص١٣٤، ١٣٥، الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢ / ٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب فضائل الصحابة: ٣٧٠٠.

صفات المؤمنين، وأمر بها نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواطن كثيرة، وعمل بها الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

فمن بعدهم أولى بالمشورة وأحوج إليها منهم.

وقد نوه ابن عطية بشأن الشورى، ثم حكى الإجماع على وجوب عزل من لا يستشير أهل الدين. قال: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه[1].

وقال ابن تيمية[2]: "لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله قد أمر بها نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الآية".

ومحل الشورى: هو أمور الحرب، والنوازل، وسائر الأمور التي لم يرد فيها دليل صريح من الشرع[3].

ومن فوائد الشورى:

١ - تأليف قلوب الأتباع واستطابة نفوسهم.

٢ - استخراج وجه الرأي منهم.

٣ - التعرف على مصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض[4].

- مشروعية الاستعانة بالمشرك:

جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بسر بن سفيان الخزاعي عيناً إلى مكة.

وقد استدل بعض العلماء بقصة بسر هذه على جواز الاستعانة بالمشركين في الجهاد.

قال ابن القيم: "إن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة، لأن عينه الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم"[5] اهـ.

---

(١) تفسير ابن عطية، ٣/ ٢٨٠.

(٢) السياسة الشرعية، ١٥٧.

(٣) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١٥٧، تفسير ابن عطية ٣/ ٢٨١.

(٤) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٧٨.

(٥) زاد المعاد ٣/ ٣٠١.

والظاهر أن ليس في قصة الخزاعي هذه دلالة على جواز الاستعانة بالمشرك في الجهاد؛ لأنه لم يرد في هذا الحديث ولا في غيره ما يدل على أنه كان كافراً إذ ذاك .

بل ورد عن بعض العلماء ما يدل على أنه أسلم قبل الحديبية(1) .

فقد قال عبد البر: "بسر بن سفيان بن عويمر الخزاعي، أسلم سنة ست من الهجرة، وبعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيناً إلى قريش إلى مكة، وشهد الحديبية، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان قوله: حتى إذا كان بغدير الأشطاط لقيه عينه الخزاعي، فأخبره خبر قريش وجموعهم، قالوا: هو بسر بن سفيان هذا"(2)

وقد نقل ابن حجر كلام ابن عبد البر وسكت عليه(3) .

وعلى فرض أنه لم يثبت ما ورد في إسلامه فلا تصلح قصته دليلاً على جواز الاستعانة بالمشرك، لوجود الاحتمال، لا سيما وهي معارضة بأحاديث صحيحة .

فالحاصل: أن قصة بسر بن سفيان الخزاعي لا دلالة فيها على جواز الاستعانة بالمشرك مطلقاً ولم يثبت في ذلك شيء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر بعض العلماء، وإنما وردت بذلك أحاديث كلها ضعيفة(4) .

وقد ذهب إلى جواز الاستعانة بالمشركين جماعة من العلماء، وقد استدلوا أيضاً بقصة شهود صفوان بن أمية لغزوة حنين، وهو مشرك، وبشهود قزمان غزوة أحد وهو مشرك، وبشهود ابن أُبيْ لبعض الغزوات(5) .

وقد اشترطوا لجواز ذلك شروطاً هي:

1 - أن يكون في المسلمين قلة وتدعوا الحاجة إلى ذلك .

2 - أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخشى ثائرتهم .

3 - أن يكون مع الإمام جماعة يستقل بهم في إمضاء الأحكام(6) .

---

(1) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٧٨ .
(2) الاستيعاب ١/ ٣٠٩ .
(3) الإصابة ١/ ٢٤٥ .
(4) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٧٨ .
(5) انظر: مسند أحمد ٣/ ٤٥٤، المغني لابن قدامة، ٨/ ٤١٤، نيل الأوطار، نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧ .
(6) المغني لابن قدامة ٨/ ٤١٤، نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧، سبل السلام ٤/ ٥٠، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٨٠ .

- استحباب الفأل:

قال ابن القيم: "استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل "سهل أمركم""[1].

وقد ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يفيد استحباب الفأل ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا طيرة وخيرها**[2] **الفأل**»، قالوا: «**وما الفأل يا رسول الله؟**» قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[3].

وفيه من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**»[4].

وفي سنن أبي داود من حديث عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[5].

فهذه الأحاديث تؤيد ما ذكره ابن القيم من استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطير المذمومة، والفرق بينهما: "أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء؛ فلذلك كرهت"[6].

- وجوب طاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والانقياد لأمره وإن خالف ظاهر ذلك القياس أو كراهته النفوس:

جاء في حديث المسور ومروان وغيره في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كرهوا الصلح مع قريش لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ورأوا أنهم قد وقعوا

(١) زاد المعاد، ٣/ ٣٠٥.
(٢) قال ابن حجر: "أفعل التفضيل هنا إنما هو بين القدر المشترك بين الشيئين، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ". فتح الباري ١٠/ ٢١٤.
(٣) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الطب: ٥٧٥٥.
(٤) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الطب: ٥٧٥٦.
(٥) سنن أبي داود مع معالم السنن / كتاب الطب: ٣٩١٩.
(٦) نقله ابن حجر، فتح الباري ١٠/ ٢١٥.

في حرج ، إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وظلت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم ، وكانوا يحذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي:

فكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي اجتهاداً فوالله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل"(1) .

وكان سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "اتهموا رأيكم رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرددته"(2) .

ولقد ظل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برهة من الزمن – متخوفاً أن ينزل الله به عقاباً للذي صنع يوم الحديبية:

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتحدث عن قصته تلك ويقول: "فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً"(3) .

قال ابن الديبع الشيباني تعليقاً على هذه الحادثة: "قال العلماء لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والانقياد لأمره ، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس أو كرهته النفوس ، فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به ، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة ، وأنه جار على أتم الوجوه وأكملها غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره"(4) اهـ .

وقد ذكر ابن القيم(5) أن الرأي الباطل أنواع: فذكر منها الرأي المخالف للنص ، والكلام في الدين بالخرص والظن مع التفريط في معرفة النصوص وفهمها ، والرأي المتضمن تعطيل الأسماء والصفات الإلهية ، ثم قال: "وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي ، والهوى على العقل ، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم

(1) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣١٣ .
(2) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣١٣ .
(3) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣١٣ .
(4) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، ٢/ ٦٢٢ .
(5) أعلام الموقعين ، ١/ ٧١ – ٧٢ .

هلاكه، وفي أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله.

كم نُفي بهذه الآراء من حق، وأُثبت بها من باطل، وأُميت بها من هدى، وأُحيي بها من ضلالة، وكم هدم من معقل الإيمان، وعمر بها من دين الشيطان، وأكثر أصحاب الجحيم، هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم، ولا عقل، بل هم شر من الحمر، وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠] [(١)].

أنموذج من التربية النبوية:

جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط ما حط عن بني إسرائيل**» [(٢)].

ويتجلى في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية جدير بالتأمل والتدبر.

فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستحث أصحابه على صعود الثنية ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال مغفرة الله تعالى.

وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة أهمها أمران:

الأول: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

الثاني: أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها وكل عمل يقومون به - حتى ما يرون أنه من العادات أو من دواعي الغريزة - يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في قلوب أصحابه:

فنراه يقول في موطن آخر: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**» [(٣)].

ويقول في موطن ثالث: «**وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة**

---

(١) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.
(٢) مسلم، كتاب صفات المنافقين رقم ٢٧٨٠.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة: ٥٣.

التي ترفعها إلى في امرأتك»[1] .

ولكن ما الذي يحدث حين تترسخ تلك المعاني في شعورهم؟

إن تلـك المعاني - إذا تمكنت من قلب المسلم - لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بـصبغة العـبودية لله وحـده ، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم فإن لهذا الـشمول آثاراً مباركة سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله" ومن أبرز تلك الآثار أمران:

الأول: أنـه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية ، ويجعله مشدوداً إلى الله في كـل مـا يـؤديه ، فهـو يقوم بنية العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع ، وكل إنتاج صالح ، وكل ما ييسر له ولأبـناء نـوعه الانـتفاع بالحـياة ، علـى أمثل وجوهها ، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله تعالى كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه ، ما دام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته .

الثانـي: أنـه يمـنح المـسلم وحدة الوجهة ، ووحدة الغاية في حياته كلها ، فهو يرضـى ربـاً واحـداً في كـل ما يأتي ويدع ، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي ، لا انقسام ولا صراع ، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته"[2] .

وقـد يقـول قائـل - انطلاقاً من واقعنا المؤلم الذي تلاشت فيه هذه المعاني أو كـادت - إن هـذه المعانـي خيالات وأوهام لا تعدو ذهن قائلها ولا رصيد لها من الواقـع ، ونحـن نطالـبه أن يرجع إلى الوراء قليلاً فينظر واقع الصحابة رضوان الله عليهم كيف استحالت تلك المعاني إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها ، وما حفظ الله سيرتهم إلا لتكون حجة على كل من جاء بعدهم[3] .

- مثل رائع لوفاء المسلم وثباته على العقيدة:

كان من جملة الشروط التي أخذتها قريش على المسلمين في صلح الحديبية: أن على المسلمين أن يردوا من جاءهم من قبل قريش ، ولا ترد قريش من جاءها من قبل المسلمين .

وقـد كره المسلمون هذا الشرط إلا أن سهيل بن عمرو قد أصر عليه ، وما أن

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الوصايا: ٢٧٤٢ .
(٢) العبادة في الإسلام ، ٦٦ .
(٣) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣١٥ .

وقع الاتفاق بين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسهيل بن عمرو على عقد الصلح حتى طلع عليهما أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، وكان قد خرج فاراً بدينه إلى المسلمين.

فلما رآه والده قام إليه فضرب وجهه وأخذ يجره بثيابه ليرده إلى مكة، وأبو جندل يستنجد برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين ليحولوا بينه وبين أبيه، لكن ماذا يملك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون؟ إنهم قد أعطوا قريشاً عهداً على رد من جاء من قبلها، فالأمر أصبح بيد قريش، وسهيل بن عمرو هو الناطق باسمها.

وحين رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إصرار سهيل بن عمرو على رد أبي جندل تركه وشأنه، ثم أوصى أبا جندل بكلمات قال فيها: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله عز وجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً**».

ورجع سهيل بن عمرو بأبي جندل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى مكة حيث الفتنة والتعذيب.

وليست قصة أبي جندل هذه بأعجب من قصة أبي بصير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأبو بصير ترك مكة فراراً بدينه من الفتنة، وقدم المدينة، لكنه لم يكد يستعيد أنفاسه حتى قدم في طلبه رجلان من قبل قريش.

فما الذي سيحدث يا ترى؟

هل خوف أبي بصير على دينه من الفتنة سيشفع له في عدم إسلامه لرسولي قريش؟

إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدرك حال أبي بصير تماماً ويشفق عليه أيما إشفاق، كيف لا! والله عز وجل يقول في حقه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

لكن كان يحول بين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين حماية أبي بصير من قريش العهد الذي أخذته قريش على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلذلك أسلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بصير إلى رسولي قريش بعد أن زوده بنحو الوصية التي زود بها أبا جندل.

وخرج الرجلان بأبي بصير يريدان مكة، حيث الفتنة والتعذيب.

ففي هاتين القصتين دروس عظيمة أهمها درسان:

الأول: وفاء المسلم بعهده، فقد رأينا كيف أسلم المؤمنون إخوانهم إلى الكفار وهم يعلمون أن مصيرهم ثَمّ هو التعذيب، وما فعلوا ذلك إلا وفاء بالعهد، فالوفاء صفة أصيلة في المؤمن، وقد امتدح الله المؤمنين بذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيْثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٠]، كما ذم الكفار بنقيض ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

الثاني: ثبات المؤمن على عقيدته مهما كلفه من ثمن، فأبو بصير وأبو جندل يعلم كل منهما ما ينتظره في مكة من الفتنة والتعذيب، لكن لم يعبأ واحد منهما لذلك إنما كان خوفهما على دينهما لأن العقيدة هي أغلى ما يملكه المؤمن، ولقد شهدت مكة نماذج كثيرة من ذلك الثبات، فقد شهدت قبل ذلك خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تتناوشه رماح قريش وهو يقول:

ما إن أبالي حين أقتل مسلماً ::: على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ::: يبارك على أوصال شلو ممزع[(١)(٢)]

صروح الكفر والطغيان تتهاوى أمام عزمات الإيمان.

يشعر القارئ لهذه الغزوة أن عناية الله ورعايته كانت تحوط المؤمنين وتلازمهم ملازمة ظاهرة، فحينما قدم المسلمون لهذه الغزوة - وكانوا عازمين على دخول مكة لأداء عمرتهم - حبس الله ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحديبية فكان ذلك الصلح العظيم.

ولما وجد الصحابة رضوان الله عليهم في نفوسهم من الصلح - بسبب شروط قريش - أنزل الله سورة الفتح فسرى بها عن أنفسهم وبشرهم بأن الصلح

---

(١) قال ذلك حين أرادت قريش قتله، وكان من قصته أنه جاء رهط من عضل والقاره إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فادّعوا الإسلام وطلبوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرسل معهم من يعلمهم، فأرسله في تسعة من القراء، سنة ثلاث، وأميرهم عاصم بن ثابت، فغدر بهم أولئك الرهط فقتلوا بعضهم وأسروا البعض، وكان ممن أسروا خبيب بن عدي فأسلموه إلى قريش. انظر صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المغازي: ٤٠٨٦، وسيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩.

(٢) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.

فتح مبين .

وعـندما قدم بعض المهاجرات فراراً بدينهن من فتنة قريش أرسلت قريش في ردهن فأنزل الله آية الامتحان ، تنهى المؤمنين عن ردهن إلى الكفار .

وقد أبرزت سورة الفتح جوانب كثيرة من مظاهر رعاية الله للمؤمنين في تلك الغزوة .

فهـل يـا ترى هذه الرعاية - التي أولاها الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رضـوان الله عليهم - كانت خاصة بهم ، أم أن هناك أسباباً بذلوها فأهلتهم لتلك الرعاية من الله سبحانه؟

إن الله سـبحانه وتعـالى قـد بـين في كـتابه المـؤهلات لـرعايته وعنايـته فقـال تعالى: ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] .

وقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِّنَ الْـمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢] .

وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] .

وقـال: ﴿ وَالَّـذِينَ جَاهَـدُوا فِيـنَا لَنَهْدِيَـنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَـعَ الْـمُحْـسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

فهـذه الصفات قد توافرت في الصحابة رضوان الله عليهم فنالوا تلك الرعاية والعـناية من الله ، ومتى توافرت في شخص أو أمة في كل زمان ومكان فإن رعاية الله سوف تتنزل عليهم ، لأن الله قد وعد بذلك ووعده الحق[1] .

حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

جـاء في حـديث المـسور ومـروان: أن المغـيرة بـن شعبة كان قائماً على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه السيف .

قـال ابـن القـيم: " في قـيام المغـيرة بـن شـعبة علـى رأس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيف ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس وهذه هـي العـادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين وليس هذا من النوع الذي ذمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**من أحب**

(١) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣٠٩ .

أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» [1].

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره[2]، ويشبه هذا مافعله أبو دجانة في غزوة أحد، فكل مايدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعاً ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مشية أبي دجانة: «**إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع**»[3].

معجزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة:

أجرى الله – تبارك وتعالى – على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدّلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدلّ على صدق دعواهم أنّهم رسل الله، وكي تقوم الحجّة البالغة على النّاس فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

والفرق بين المعجزة وغيرها من الدّلالة والعلامة أنّ المعجزة يشترط فيها التّحدّي وأن يكون المتحدّى به ممّا يعجز عنه البشر في العادة المستمرّة. أمّا الدّلائل والعلامات فتقع دالّة على صدق الأنبياء والرّسل من غير سبق تحدّ وسمّيت المعجزة كذلك لعجز الخلق عن معارضتها والإتيان بمثلها.

والحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أكثر الرّسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانا فله من المعجزات ما لا يحدّ ولا يعدّ، وقد ألّفت في معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤلّفات الكثيرة وتناولها العلماء بالشّرح والبيان. ممّن اعتنى بجمعها من الأئمّة أبو نعيم الأصبهانيّ والبيهقيّ.

والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة؛ أي جار على خلاف العادة الكونية التي أجراها الله تعالى في الكون سالم عن المعارضة يظهره الله تعالى على يد الرسول تأييدا له.

وفي هذه الغزوة وقعت معجزتين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما أن جازوا المسلمون الثنية – وكان آخر الليل – هبطوا على الحديبية فلم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٢٩): باب قيام الرجل للرجل.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).

(٣) فقه السيرة للبوطي، ص٢٤١، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣٠٩.

يجدوا بها إلا ماء منقطعاً لم يقم شيئاً لعطشهم - وكانوا قد نزلوا في شدة الحر - فهرعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكون قلة الماء، وعندها ظهرت معجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أكرمه الله بها حيث استحالت تلك البئر - التي قد نضب ماؤها أو كاد - عيوناً متدفقة:

ففي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق معمر: بعد أن ذكر الثنية وبروك ناقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ثم زجرها[1] فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء[2] يتبرّضه[3] النّاس تبرّضا، فلم يلبّثه النّاس حتّى نزحوه، وشكي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العطش؛ فانتزع سهما من كنانته، ثمّ أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتّى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

ولقد تكررت معجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتكثير الماء في غزوة الحديبية وذلك حينما وضع يده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإناء.

قال القرطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قصّة نبع الماء من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تكرّرت منه في عدّة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعيّ المستفاد من التّواتر المعنويّ ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه»[5].

ومن هذه المواطن الّتي حدث بها تكثير الماء ونبعه من بين أصابع نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «عطش النّاس يوم الحديبية والنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه ركوة[6]، فتوضّأ فجهش[7] النّاس نحوه فقال: «ما

---

(١) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية ٢/ ٢٩٦.

(٢) ثمد قليل الماء: أي حفيرة فيها ماء مثمود أي قليل.

(٣) يتبرضه: هو الأخذ قليلا قليلا.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣١ - حديث ٢٧٣٢)، وفي رواية صحيحة أخرى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري - الصحيح، فتح الباري - حديث ٢٥٧٧) ويمكن الجمع بين الحديثين.

(٥) فتح الباري (٦/ ٦٧٦، ٦٧٧).

(٦) ركوة: قال ابن الأثير: الركوة إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء والجمع ركاء. انظر النهاية (٢/ ٢٦١).

(٧) فجهش: قال ابن الأثير: الجهش أن يفزع الإنسان إلى الإنسان، وهو مع ذلك يريد أن يبكي كالصبي يفزع إلى أمه. انظر جامع الأصول (١١/ ٣٤٧).

لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ، ولانشرب إلّا ما بين يديك فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون. فشربنا وتوضّأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا. كنّا خمس عشرة مائة [1].

- ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنّه قال: «رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحانت صلاة العصر، فالتمس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضوء فوضع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده في ذلك الإناء فأمر النّاس أن يتوضّؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضّأ النّاس حتّى توضّؤوا من عند آخرهم» [2].

قال المزنيّ - رَحِمَهُ اللهُ -: نبع الماء من بين أصابعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعصا فتفجّرت منه المياه لأنّ خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللّحم والدّم. انتهى» [3].

نتائج غزوة الحديبية:

لقد تمخضت هذه الغزوة عن نتائج عظيمة لم تتوافر في غزوة قبلها أو بعدها فيما أعلم، وأهمها ما يلي:

أولاً: ترتبت على الصلح آثار إيجابية ضخمة منها ما يلي:

أ - اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

ب - دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص [4]، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم بعد أن خابت ظنونهم إذ كانوا

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٦). ورواه مسلم مختصرا برقم (١٨٥٦).
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٣). ورواه مسلم برقم (٢٢٧٩).
(٣) نقله عنه ابن عبد البر. انظر فتح الباري (٦/ ٦٧٧).
(٤) كان إسلامهما عقب صلح الحديبية، انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٦.

يتوقعون أنها القاضية على المسلمين، كما أخبر الله بذلك عنهم[1].

جـ - أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه.

يقول الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله، كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك"[2] اهـ.

وعقب عليه ابن هشام[3] بقوله: "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"[4] اهـ.

د - أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى[5].

ثانياً: كسب المسلمون الذين شهدوا هذه الغزوة بسببها فوائد كثيرة - أخروية ودنيوية - وأهمها ما يلي:

أ - فازوا برضى الله عز وجل عنهم.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . .﴾ الآية [الفتح: ١٨].

---

(١) قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٠ - ١١].

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ٣٢٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/ ٣٢٢.

(٤) جاء هذا العدد في حديث ابن عباس، صحيح البخاري مع الفتح كتاب المغازي: ٤٢٧٦، وقد روي أنهم أكثر من ذلك، انظر: مرويات غزوة فتح مكة لمحسن الدوم، ص ٥٦ وما بعدها.

(٥) أخذت بعض المعاني السابقة عن كتاب "سيرة الرسول" لمحمد عزة دروزة، ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣، وكتاب "موسوعة التاريخ الإسلامي" لأحمد شلبي ١/ ٣٣٠ - ٣٣١، وكتاب "السيرة النبوية" لأبي شهبة، ص ٢٨٢.

ب - أخبرهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن الله قد غفر لهم**».

ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا" فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر**» (1).

جـ - شهد لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم خير أهل الأرض.

ففي صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال لنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض...**» (2).

د - بشرهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بالنجاة من النار.

ففي صحيح مسلم من حديث أم مبشر أنها سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها...**» (3).

هـ - قسمت عليهم غنائم خيبر، ففي حديث مجمع بن جارية الأنصاري: "فقسمت خيبر على أهل الحديبية، فقسمها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهماً" (4).

وشرعت في هذه الغزوة كثير من الأحكام والرخص التي كان لها أثر كبير في حياة المسلمين ومن أهمها ما يلي:

أ- شرعت فيها صلاة الخوف على الصحيح. :

فقد أنزل الله تعالى على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف في هذه الغزوة وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهي قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا** ﴾ [النساء: ١٠٢].

---

(1) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: ١٢.
(2) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٥٤).
(3) مسلم - الصحيح - كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٢ حديث ٢٤٩٦).
(4) سنن أبي دواد مع معالم السنن، كتاب الجهاد: ٢٧٣٦.

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم.

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان[1]

قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين[2] ودّل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لايمكن التساهل فيها، ولايمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلايوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد[3].

ب - شرعت فيها الفدية لمن ارتكب شيئاً من محظورات الإحرام.:

فقد قال كعب بن عجرة رضي الله عنه: وقف عليَّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت[4] قملاً فقال: «**أيؤذيك هوامك**»[5] قلت: نعم، قال: «**فاحلق رأسك**» أو قال: «**احلق**» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النبي ﷺ: «**صم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك**[6] **بما تيسر**»[7] وفي رواية مسلم: أن النبي ﷺ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وهو يوقد تحت قدر والقمل يتهافت على وجهه فقال:

(١) مسلم (٢/ ٥٧٦) رقم ٣١١، سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة: ٢١٥.
(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٠٧.
(٣) التربية القيادية (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).
(٤) يتهافت: يتساقط، النهاية (٥/ ٢٦٦).
(٥) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش، والمراد القمل.
(٦) انسك: اذبح، النهاية (٥/ ٤٨).
(٧) صحيح البخاري مع الفتح كتاب المحصر: ١٨١٥.

أيؤذيك هوامك هذا؟ قال نعم، قال: فاحلق رأسك وأطعم فرقًا بين ستة مساكين (والفرق ثلاث أصع) أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة[1]، وآية البقرة المذكورة تبين حكم من كان مُحرمًا وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عجرة خاصة، وأصبحت لكل مسلم يمر بنفس الحالة.

جـ- شرع فيها الصلح مدة معلومة عند حاجة المسلمين إليه:

استدل العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة، سواء أكان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض، أما بدون عوض فلأن هدنة المدينة كانت كذلك، وإما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه.

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصغار لهم، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب أو السنة على جواز ذلك، قالوا: إلا إن دعت إليه ضرورة لامحيص عنها وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشافعي وأحمد رَحِمَهُمَا اللَّهُ وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لاينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة، وأنه لايجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت، لأنها هي المدة التي صالح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشاً عليها عام الحديبية[2].

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على مايراه الإمام من المصلحة وهو قول أبي حنيفة[3].

والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر جدد العقد، كما قال الشافعي[4].

وقال بعض المتأخرين يجوز عقد صلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة واستدل بقوله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ

---

(١) مسلم، كتاب الحج: ١٢٠١.
(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٤٢.
(٣) فتح القدير (٥/ ٥٤٦)؛ غزوة الحديبية، ص٢٩٤.
(٤) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣٠٩.

صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

وهذا قول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب.

وهذا القول مردود لما يلي:

أ - أن صاحب هذا القول قد خرق الاتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: اتفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدو لابد من أن يكون مقدوراً بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير بمدة[(١)].

ب - الآية التي استدل بها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. فقد نقل ذلك ابن جرير[(٢)] عن عكرمة والحسن وقتادة وابن زيد، وحكاه القرطبي[(٣)] عن مجاهد. ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية.

جـ - الأصل الذي انبنى عليه هذا القول: مردود بآية براءة السابقة وبواقع سيرة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخلفائهم مع أعدائهم.

د - أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة وقد تصدى لها سيد قطب[(٤)] رَحِمَهُٱللَّهُ ففندها، وبين أن سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلية الدعوة[(٥)].

د - شرع فيها التحلل للمحصر، وأنه لا يلزمه القضاء.

لما فرغ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه، قوموا فانحروا ثم احلقوا... حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها مالقي من الناس، فقالت أم سلمة يانبي الله أتحب ذلك؟

---

(١) د. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص٦٧٥، ٦٨٠.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٤ - ٢٦).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٤) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) ومابعدها.
(٥) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣٠٩.

أخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما[1].

وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقَصّر آخرون. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يرحم الله المحلقين**» قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا والمقصرين يارسول الله؟ قال: «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: «**والمقصرين**»[2].

وكان في هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية جملاً لأبي جهل في رأسه برة[3] من فضة، يغيظ بذلك المشركين[4].

ودل عمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحر والحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو مايقوم مقامها ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهلّ به، سواء كان حجّاً أو عمرة، كما دلّ على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب. بدليل أن جميع الذين خرجوا معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي أو استشهد منهم في غزوة خيبر[5].

هـ- شرعت فيها رخصة الصلاة في الرحال في حال المطر:

روى ابن ماجة عن أبي المليح بن أسامة قال: خرجت إلى المسجد في ليلة مطيرة فلما رجعت استفتحت فقال أبي: من هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تبل أسافل نعالنا فنادى منادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلوا في رحالكم[6]. وهذا الحديث

---

(١) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤٠) رقم ٢٧٣٢.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٨).
(٣) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٩).
(٥) فقه السيرة للبوطي، ص٢٤٣، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٩٦.
(٦) سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة: ٩٣٦.

صحيح، فسنده متصل برواية الثقات وقد صححه ابن حجر[1]..

و- شرع فيها قضاء الصلاة الفائتة بالنوم أو النسيان عند ذكرها.:

بعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك قفلوا راجعين إلى المدينة فلما كان من الليل عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلال ولم يوقظهم إلا حر الشمس[2] كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمن الحديبية فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يكلؤونا؟**» فقال بلال: أنا. فناموا حتى طلعت الشمس واستيقظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون قال: ففعلنا. قال: فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي[3] وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية وحاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص وذهب الدكتور حافظ الحكمي إلى أن ماورد من اختلاف بين حديث عبدالله بن مسعود في قصة الحديبية وغيره محمول على تعدد القصة كما رجح ذلك النووي[4]، وجنح إليه ابن كثير[5] وابن حجر[6]، والزرقاني، بل قال السيوطي لايجمع إلا بتعدد القصة[7].

ز- نزل في هذه الغزوة تحريم نكاح الكفار من المسلمات:

لما صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد هاجرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلح الحديبية، أراد كفار مكة أن يردوهن فأنزل الله تعالى في حقهن: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ**

---

(١) فتح الباري (٢/ ١١٣)، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٩٦.
(٢) يكلؤونا: يحرسنا.
(٣) سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة: ٤٤٧.
(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١ - ١٨٢)؛ غزوة الحديبية، ص٢٥٨.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣).
(٦) فتح الباري (١/ ٤٤٩)؛ شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧).
(٧) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٩٨.

تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١] .

ومعنى الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ ، قال ابن عباس: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدالله ورسوله، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، قال القرطبي: هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لاهجرتها[١] .

ح - نزل فيها أيضاً الأمر بفسخ نكاح المشركات وعدم الاستمرار عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَتُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ . . .﴾ [٢] .

وقد طلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أميّة [٣] .

* * * * *

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٣) .
(٢) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٩٨ .
(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٥٨) .

الفصل السابع:

[النشاط العسكري ما بين الحديبية وفتح مكة]

الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة:

رسائل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الملوك والأمراء:

لقد كان صلح الحديبية فتحا كبيرا للإسلام، ذلك أنه أتاح الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الله - عز وجل - داخل جزيرة العرب وخارجها، والحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأل جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز وكذلك خارج حدود الجزيرة العربية وقد عبّر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية.

وتُعَدُّ هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والاسلام، ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة[1].

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً[2].

١- كتاب إلى قيصر ملك الروم:

فقد أرسل الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاباً إلي قيصر ملك الروم كتابا هذا نصه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم**

(١) د. محمد العقيلي، السفارات النبوية، ص١٥.

(٢) د. سعيد المهجر، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص١١٢.

الـروم، سـلام عـلى من اتّبع الهدى: أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تـسلم يـؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيّين[1]: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] »[2].

ولما تسلم هرقل رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودقق في الأمر وأراد أن ستيقن الحقيقة فأرسل في طلب أحد ممن يعرف الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسأله عنه، فروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عباس، أنه أخبره أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدفعه إلى عظيم[3] بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكرا لما أبلاه الله، فلما أن جاء قيصر كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال حين قرأه: التمسوا[4] إلي هاهنا أحدا من قومه لنسألهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين كفار قريش (بعد صلح الحديبية)، قال أبو سفيان: فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء، فأدخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم، فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: أنا أقربهم إليه نسبا. قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمي. قال: وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري. قال قيصر: أدنوه مني. ثم

---

(١) واختلفوا في المراد بهم على أقوال: أصحها وأشهرها أنهم الأكارون، أي الفلاحون والزراعون. ومعناه إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك. ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادا. فإذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا. وهذا القول هو الصحيح. الثاني أنهم اليهود والنصارى، وهم أتباع عبد الله بن أريس الذي تنسب إليه الأروسية من النصارى، ولهم مقالة في كتب المقالات. ويقال لهم: الأروسيون. الثالث أنهم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها.

(٢) مسلم (١٧٧٣).

(٣) عظيم: حاكم أو ملك.

(٤) التمس الشيء: طلبه.

أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائله عن الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذبوه قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته عنه حين سألني عنه، ولكني استحيت أن يأثروا الكذب عني فصدقته عنه، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: قلت: فهو فينا ذو نسب [1] قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل من آبائه من ملك؟ قال: قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم. قال: فيزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة ونحن نخاف منه أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا أنتقصه بها لا أخاف أن تؤثر [2] عني غيرها. قال: فهل قاتلتموه وقاتلكم؟ قال: قلت: نعم. قال: فكيف كانت حربكم وحربه؟ قال: قلت: كانت دولا وسجالا، يدال [3] علينا المرة وندال عليه الأخرى. قال: فماذا يأمركم به؟ قال: قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: فقال لترجمانه حين قلت ذلك قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت رجل يأتم بقول قد قيل قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا؛ فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه، وسألتك: أشراف الناس يتبعوه أو ضعفاؤهم؟ فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل يزيد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه [4] أحد،

(١) ذو نسب: صاحب الأصل الشريف الطيب.
(٢) تؤثر: تحكى وتعرف.
(٣) أداله عليه: غلبه عليه وأظفره به.
(٤) السخط: الغضب أو كراهية الشيء وعدم الرضا به.

وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل ، وأن حربكم وحربه يكون دولا يدال عليكم المرة وتدالون [1] عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبتلى [2] وتكون لها العاقبة [3] ، وسألتك: ماذا يأمركم به؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج ، ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين ، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت [4] لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه . قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر به فقرئ ، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بداعية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فعليك إثم الأريسيين: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم [5] ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، هذا ملك بني الأصفر يخافه وقال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر [6] حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره [7] .

وفي هذا الموقف آيات بينات ودلالات واضحات على نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق فيما جاء به ومحل الشاهد من القصة شهادة أبي سفيان بن حرب وهو من أشد أعدائه في ذلك الوقت على - اتصاف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يبعثه الله بالصدق وأنهم لا يتهمونه بالكذب وبالوفاء وأنه

---

(١) أدال عليه: غلبه .
(٢) الابتلاء: الاختبار والامتحان بالخير أو الشر .
(٣) طلبه العاقبة: الخاتمة .
(٤) تجشم: تحمل المشقة التعب .
(٥) اللغط: صوت وضجة لا يفهم معناها .
(٦) ظهر: انتشر وساد .
(٧) مسلم (١٧٧٣) .

لا يغدر .

٢ - كتاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية:

وأرسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتاب إلى كسرى ملك الامبراطورية الفارسية ، مع عبدالله بن حذفة السهمي ، (أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[(١)] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فدعا عليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُمَزَّقُوا كلَّ ممزق) [(٢)] ، ونص الرسالة كما أورده الطبري كالتالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ، أسلم تسلم ، فإن أبيت عليك أثم المجوس) [(٣)] .

ثم كتب كسرى إلى أمير له باليمن يقال له " باذان " أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث " باذان " قهرمانه وهو " بابويه " . وكان كاتبا حاسبا بكتاب فارس وبعث معه رجلا من الفرس يقال له " خرخسر " وكتب معهما إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لبابويه أئت بدل هذا الرجل وكلمه وأتني بخبره فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بنخب من أرض الطائف فسألاهم عنه فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك . كفيتم الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلمه بابويه . فقال إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك وأن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) وهو ملك البحرين المنذر بن ساوى كما في شرح المواهب اللدنية للزرقاني (٣/ ٣٤١) ، ولم يرد في صحيح البخاري اسم عظيم البحرين (فتح ٨/ ١٢٨) .

(٢) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٨/ ٢٦/ ح/ ٤٤٢٤) وقد ثبت أن الملك كسرى أبرويز بن هرمز هو الذي تسلم رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومزقها ، قد مات في مارس ٦٢٨ م بمؤامرة دبرها له ولده شيرويه ، وذلك يطابق ما أوردته النصوص من أن موته كان بعد ذلك ببضعة أشهر . الرواية مطولة في الطبري - تاريخ ٢/ ٦٥٥ - ٦٥٧ ، وانظر ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٠ .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ - ٦٥٥) .

وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما . ثم أقبل عليهما فقال: ويلكما من أمركما بهذا؟ قال ربنا . يعنيان كسرى فقال رسول الله: لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي . ثم قال لها ارجعا حتى تأتياني غدا وأتى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه (شيرويه) فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل بعدما مضى من الليل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فدعاهما فأخبرهما فقالا هل تدري ما تقول أنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . ثم أعطى "خرخسرة" منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فقال والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول ولتنظرن ما قد قال فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام أنه لنبي مرسل . وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا [١] .

وقد تحقق ماأنبأ به رسول الله بكل دقة ، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨م وقد تمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر ، وتوالى على عرشه مدة أربع سنوات عشرة ملوك ، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان ، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً ، وكان ذلك في سنة ٦٣٧م ، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين [٢] .

إسلام باذان:

لم ولم يمض وقت طويل حتى قدم علي باذان كتاب شيرويه يخبره فيه بقتل كسري ويأمره بأخذ البيعة لنفسه ونص الكتاب علي:

أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلاغضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن

---

(١) البداية والنهاية ، ٣٠٧/٤ ، تاريخ الطبري ، ١٣٣/٢ .
(٢) السيرة النبوية للندوي ، ص٣٠٠ .

قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

فما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الابناء معه من فارس من كان منهم باليمن[(١)].

وكان من حكمة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه، حين رأى فيه الاداري الناجح والحاكم المناسب، مما يدلل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن الجدير بالذكر أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ولى ولده شهراً أميراً على اليمن بعد موته[(٢)].

- كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي ملك الحبشة:

أما كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي ملك الحبشة فقد ثبت أنه أرسله مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول[(٣)] الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لاشريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى[(٤)].

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي أخذه النجاشي، ووضعه على عينه، ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وكتب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وهاك نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٠٧، تاريخ الطبري، ٢/ ١٣٣.

(٢) أبو فارس، غزوة الحديبية، ص٢٤٢.

(٣) البتول: أصل البتل القطع وسميت البتول قيل: لانقطاعها عن نساء زمانها فضْلا ودِينا وحَسَبا. وقيل: لانقطاعها عن الدُّنيَا إلى اللّه تعالى. وقيل: المُنْقَطِعة عن الرجال لا شهوةَ لها فيهم.

(٤) البداية والنهاية، لابن كثير، ٤/ ٢٥٧، وتاريخ الطبري، ٢/ ٢٤٤ ٦٥٧.

عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسي، فورب السماء والأرض إن عيسي لا يزيد على ما ذكرت ثفْرُوقا[1]، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بخيبر[2].

وتوفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم وفاته، وصلي عليه صلاة الغائب[3].

-كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المقوقس حاكم مصر:

وكتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جُرَيْج بن مَتّي الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط،: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا

---

(1) ما بين النواة والقمع.

(2) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ٢٥، الطبقات الكبرى، ١/ ٢٠٧.

(3) دلائل البيهقي ج ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ٢/ ٣٣٠.

النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصاري، ولعمري ما بشارة موسي بعيسي إلا كبشارة عيسي بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوي، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك)[1].

ولما ورد جواب المقوقس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ضنّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه**»[2].

والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية، واتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري[3].

- وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شجاع بن وهب، أخا بني أسد ابن خزيمة، برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، حين عودته والمسلمين من الحديبية وقد تضمن نص الرسالة قوله: سلام على من اتبع

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٠ - ٢٦١، أكرم العمري - السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٥٩، الرحيق المختوم، ص ٣١٥.
(٢) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٠ - ٢٦١، ، ابن هشام، السيرة ١/ ٢٤٧، ابن حجر - الإصابة ٣٠٠١، ٣/ ٣٣٥، ٤/ ٤٠٥، ابن كثير - البداية ٥/ ٣٤٠.
(٣) الرحيق المختوم، ص ٣١٥.

الهدى ، وآمن به ، اني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يُبْقي لك ملكك[1] .

ولما بلغ الكتاب رمي به وقال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه ، واستعد ليرسل جيشًا لحرب المسلمين ، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك ، وصادف أن كان عنده دحية بكتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيئ بإيلياء ما يلزم لزيارته ، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ، وَوَصَلَه بنفقة وكسوة [2] .

- وعند مقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية أرسل سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي[3] وكان ملكًا على دين النصرانية ، فأكرمه ونزله وكتب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا خطيب قومي وشاعرهم فاجعل لي بعض الأمر فأبى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسلم ومات زمن الفتح [4] .

- وأرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابا العلاء الحضرمي[5] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي ، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية ، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فاسلم ، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين ، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار[6] ، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير ، وجاء فيه:

(سلام أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن من صلى

---

(١) الطبري - تاريخ ٢/ ٦٥٢ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ٣/ ٣٥٦ ، ابن سيد الناس - عيون الأثر ٢/ ٢٧٠ - ٧١ ، ابن هشام - السيرة ٤/ ٣٣٩ .

(٣) كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ٨٩ ، البلاذري ، فتوح ، ص٩٧ ، الدكتور جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٧/٢١٣ .

(٥) ابن سيد الناس - عيون الأثر ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ ، أبو عبيد القاسم - الأموال ص/ ٣٠ ، ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٦٣ ، القلقشندي - صبح الأعشى ٦/ ٣٦٨ ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ ٢/ ٢٦٥ .

(٦) ابن الأثير - الكامل ٢/ ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن سيد الناس - عيون ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإن آمن ومن أبى فإن الجزية عليه[1].

– وفي ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعمان[2]. وقد جاء فيه: «من محمّد النّبيّ رسول الله لعباد الله الأسبذيّين ملوك[3] عمان، وأسد عمان[4]، ومن كان منهم بالبحرين إنّهم إن آمنوا وأقاموا الصّلاة، وآتوا الزّكاة وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حقّ النّبيّ ﷺ، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنّهم آمنون وأنّ لهم ما أسلموا عليه، غير أنّ مال بيت النّار ثنيا للّه ورسوله، وأنّ عشور التّمر صدقة، ونصف عشور الحبّ، وأنّ للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأنّ لهم على المسلمين مثل ذلك، وأنّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا»[5].

وأوردت المصادر بعد ذلك عددا كبيرا من المرويات عن رسائل أخرى بعث بها النبي ﷺ ولكنها كان مختلف عليها بين المؤرخين كما أنها لم تثبت من الناحية الحديثية منها كتاب النبي ﷺ؟ إلى كل من أهل دما[6]، ورعية السّحيمي[7]، ومسيلمة الكذاب[8]، وعظيم بصري[9]، وبكر بن وائل[10]،

(١) الأموال لأبي عبيد، ص٢٨.
(٢) ابن طولون، إعلام السائلين، ص/ ٥٨، القلقشندي – صبح الأعشي ٦/ ٣٧٦.
(٣) وهم قوم من المَجُوس قيل أنهم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين. انظر: البلاذري، فتوح، ص٨٩، تاج العروس ٢/ ٥٦٤، مادة: السبذة.
(٤) أشد عمان: قبيلة، يقال لها أزد وأسد (بالزاي والسين).
(٥) أبو عبيد – الأموال ص/ ٢٨ – ٢٩، وانظر النص في البلاذري – فتوح ص/ ١/ ٩٦، من حديث ابن عباس – رضي اللّه عنهما –، ونص فيه: «ولم تمجّسوا أولادكم، فلكم ما أسلمتم عليه، غير أن بيت النار للّه ورسوله، فإن أبيتم فعليكم الجزية» والمقصود هو أنّ خزائن بيوت النار التي ألغاها الإسلام تصبح فيئا. انظر: موسوعة نضرة النعيم، ١/٣٤٨.
(٦) ابن طولون – إعلام السائلين ص/ ٩٧ – ٩٨، ابن الأثير – الكامل ٢/ ٢٢٥، وعن موضع دما وهي من قرى البحرين، انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٦١.
(٧) ابن حجر – الإصابة ١/ ٥١٦، ابن طولون – إعلام السائلين ص/ ٩٩ – ١٠١، وانظر أحمد – المسند ٥/ ٥٨٥.
(٨) ابن سعد – الطبقات ١/ ٢٧٣.
(٩) الواقدي – المغازي ٢/ ٧٥٥ – ٧٥٦.
(١٠) ابن حبان – موارد الظمآن، رقم (١٦٢٦). بسنده إلى أنس بن مالك، ابن طولون – إعلام ص/ ١٣٢، الزيلعي – نصب الراية ٤/ ٤١٩.

وبني عمرو بن حمير [1] ، وجبلة بن الأيهم [2] ، وذي الكلاع بن ناكور ، وذي عمرو [3] ، ومعد يكرب بن أبرهة [4] ، وأسقف بني الحارث ، وأساقفة نجران [5] ، وصاحب أيلة [6] ، وابن ظبيان الأزدي الغامدي [7] ، وزعماء حمير [8] ، ونفاثة بن فروة الدئيلي ملك السماوة [9] . ومن الممكن أن تكون هذه الرسائل صحيحة من الناحية التاريخية ، ولكنها تبقى دون الاحتجاج بها في موضوعات العقيدة والشريعة ، وإلى جانب ذلك فإن هذه الرسائل في مجموعها تؤكد على عالمية الإسلام وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام بالتبليغ على أوسع نطاق[10] .

لقد أوضحت تلك الكتب والرسائل التي بعثها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك العالم "أنّ هذا الدين ليس دين عربٍ أو جزيرة عربية ، وإنّما هو دين الإنسان حيثما كان هذا الإنسان ، ونداء إلى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة أو تسمح - على الأقل - لدعاتها بممارسة نشاطها بحريّة ، ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستماع إليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بيّنةٍ ، بعيداً عن الضغط والقسر والإكراه ، وإنذاراً لهذه السلطات بأنّها إن لم تُلَبِّ وتستجب ، فإنّ جيوش الدعوة الجديدة ستنساح عمّا قريب في مشارق الأرض ومغاربها لكي تسقط التيجان ، وتثلُّ العروش ، وتنْزل السلطات من مناصبها العليا ، وتخرج الناس بذلك وحده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده [11] .

---

(١) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٥ من رواية الواقدي .
(٢) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٥ .
(٣) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦ .
(٤) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٦ .
(٥) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٦ .
(٦) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٧٧ - ٢٧٨ .
(٧) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٨٠ .
(٨) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٨٢ .
(٩) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٨٤ .
(١٠) موسوعة نضرة النعيم ، ١/ ٣٤٨ .
(١١) عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ، مؤسسة الرسالة ، ودار النفائس ، بيروت ، الطبعة السادسة ١٤٠٢هـ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٦ ، ٢٩٣ .

غزوة ذي قرد [١]:

وقعت هذه الغزوة قبل غزوة خيبر بثلاث ليال وهي أول غزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الحديبية، وقبل خيبر. [٢]، فقد أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري على لقاح [٣] لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت ترعى بذي قرد، فأخذها بعد أن قتل راعيها، وحين علم سلمة بن الأكوع بما حدث فإنه أنذر إخوانه المسلمين وبادر بعد ذلك فلحق بعبد الرحمن الفزاري ورجاله، وأخذ يرميهم بنبله حتى استنقذ اللقاح من أيديهم وتهاربوا عنه حين وصله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون، وقد أردف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمة بن الأكوع خلفه على راحلته تكريما له حتى دخلوا المدينة. [٤]

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث كان من ضمن الرعاة في منطقة الغابة، وظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان.

وقد قتل المغيرون ابن أبي ذر وأسرو إمرأته وهي من غطفان أثناء الغارة في الغابة، ولكنها عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد نذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرن تلك الناقة، فلما أخبرت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نذرها تبسم وقال: «**بئسما جزيتها**» (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر) ثم قال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين**» [٥].

وقد عاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها [٦].

---

(١) غزوة ذي قرد: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة بينها وبين خيبر، والقرد في الأصل الصوف الرديئ ويقال لها غزوة الغابة والغابة الشجر الملتف.

(٢) ابن حجر، الفتح، ٧/ ٤٦٠ (حديث ٤٦٠)، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

(٣) جمع لقحه وهي النياق ذات اللبن.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٣٢ - ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦)، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

(٥) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٣٢ - ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦)، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٣٢ - ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦)، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

سرية أبان بن سعيد بن العاص:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقائد عسكري يعرف جيداً أن الأعراب الضاربين علي تخوم المدينة يتحينون الفرصة للإنقضاض علي المدينة كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها، تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة؛ فقبل أن يخرج إلي خيبر بجيشه أراد أن يرهب كل من تسول له نفسه الهجوم علي المدينة، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة أبان بن سعيد، بينما ذهب هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبًا عليه، فوافي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر، وقد افتتحها، والأرجح أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧هـ[(١)].

غزوة خيبر:

لقد كان يعادي محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوتين كبيرتين تلتف حولهما كل القوى في شبه جزيرة العرب، فأما القوة الأولى فهي قريش في مكة، بما لها من نفوذ أدبي ومادي، وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بما لها من نفوذ وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه. وقد استطاع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما - مجتمعين - قويًا، حتى لقد أصبح زمام المبادأة في يده، وقد استطاع ببعد نظره، وحسن سياسته، وما أظهر من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية، فأمِن به قريشًا وأمن الجنوب كله؛ لكنه لم يأمن من ناحية الشمال، حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم، ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو يثرب، وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق؛ فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أوروبية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية. واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد؛ لأنهم أحرص على دينهم من قريش، ولأنهم أكثر منها مكرًا ودسيسة، وليس من اليسير أن يوادعهم محمد بصلح كصلح الحديبية ولا أن يطمئن إليهم، وقد سبقت بينهم خصومات لم ينتصروا في إحداها؛ فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤٩٨ - ٩، حديث ٤٢٣٨).

وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يستعينوا بقوى خارجية . وإذن فلا بد من القضاء على قوة اليهود قضاء أخيرًا حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة ببلاد العرب ، ولابد من أن يسارع محمد إلى ذلك ، حتى لا يتاح لهم الوقت للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لهم [(١)] .

كما كان إجلاء بني النضير عن المدينة ونزول زعمائهم في خيبر حاسما في بلورة موقف معاد ليهود خيبر تجاه المسلمين ، وهو أمر لم يكن ظاهرا قبل ذلك[(٢)] ، فلم يكن يهود خيبر يُظهرون العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير ، الذي حز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر مارئي مثله في حي من الناس في زمانهم ، وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق ، حيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[(٣)] .

فحين نزل سلّام بن أبي الحقيق وابن أخيه كنانة بن الربيع ، وحيي بن أخطب خيبر فقد دان لهم أهلها بالولاء والطاعة [(٤)] ، وكان لذلك أثره في تصدي يهود خيبر للصراع ضد الإسلام والمسلمين ، حيث جرهم قادتهم الجدد إلى التصدي للإسلام بغية الانتقام وبدافع حقدهم الدفين على المسلمين ، ورغبتهم العارمة في استعادة ديارهم ومواقعهم ومصالحهم في المدينة ولذلك فقد أجلوا منها . وهكذا فقد قام يهود خيبر وزعماؤهم الجدد بدور بارز في تجميع الأحزاب وحشدهم ضد المسلمين ، بل إنهم أنفقوا أموالهم ، واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب . وطعن المسلمين في ظهورهم [(٥)] ، وهكذا أصبحت خيبر

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص ٣٩٣ .

(٢) ينقل ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٧٢) ما يفيد بأن حادثة إجلاء بني النضير عن المدينة لم يكن كافيا لكسر شوكتهم فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأولاد والأموال بل وحتى القيان ، وأنهم خرجوا في تظاهرة اعتداد بالنفس غريبة ، فقد «كانت العازفات خلفهم يضربن بالدفوف ويزمرن بالمزامير وهم يغادرون بخيلاء وفخر واعتداد بالنفس لم يحصل مثله في حي من الناس في زمانهم» .

(٣) السيرة النبوية الأصلية ، ١/ ٣١٩ .

(٤) ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٧٢) .

(٥) ابن هشام – السيرة ٣/ ٢٥٣ – ٢٥٥ ، وكان ذلك سببا في العقوبة الرادعة التي أنزلت ببني قريظة بعد فشل غزوة الأحزاب ، وكذلك في إرسال سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام

مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية[1].

وقد تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدا إلهيًا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الفتح: ١٨ - ٢١] وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ تعني فتح خيبر[2].

وقد كانت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة على أرجح الأقوال[3] رغم الخلاف بين مؤلفي كتب السيرة والمغازي حول ذلك[4].

فبعد الحديبية لم يقم الحبيب محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة إلا قليلا حتى أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية إلا أن يكون غازيًا متطوعًا ليس له من الغنيمة شيء[5].

وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه، وبعد تفكيره عن الكسب المادي؛ فليس الغنيمة قصده، وأن ما

بن أبي الحقيق (البخاري - الصحيح، فتح الباري - كتاب المغازي ٧/ ١٣٤٠).

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٤٩.

(٢) ابن كثير - التفسير ٧/ ٣٢٢، ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٤٦٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٠، الواقدي - مغازي ٢/ ٦٣٤، ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٤٦٤.

(٤) يكمن مرد الخلاف في الأصل إلى الاختلاف في تحديد بداية السنة الهجرية الأولى فقد احتسب بعضهم الأشهر بين محرم وربيع الأول وهو شهر الهجرة مما نجم عن احتساب إضافة سنة واحدة كاملة إلى تواريخ الحوادث بسبب أن السنة الهلالية الشرعية تبدأ من المحرم، ومنهم من امتنع عن ذلك واهملها معتبرا ربيع الأول بداية التقويم، وبذلك فإنه أسقط تسعة أشهر من تاريخ الحوادث، وفي هذه المناسبة ذهب كل من الزهري ومالك إلى أن خيبر وقعت في المحرم من السنة السادسة (ابن عساكر - تاريخ دمشق ١/ ٣٣) في حين ذهب محمد بن سعد إلى أنها وقعت في جمادى الأولى سنة ٧ هـ (الطبقات ٢/ ١٠٦) في حين اعتبرها شيخه الواقدي في صفر أو ربيع الأول السنة السابعة (المغازي ٢/ ٦٣٤).

(٥) مغازي الواقدي ٣١٢، طبقات ابن سعد ٣/ ١٥٢.

ينتظر من قتال أمام حصون خيبر لا تثبت له إلا النفوس المطمئنة المؤمنة ، التي تسامت عن المادة والرغبة فيها ، فإن النفوس المتعلقة بالمادة لا تثبت أمام الامتحان العسير . ولقد كانت تجربة الأحزاب كافية ليدرك الناس أن النفوس لا تباع رخيصة أمام متاع الحياة ، فإن غطفان وغيرها من الأعراب يوم الأحزاب لم يثبتوا على حصار يثرب ، فقد كانوا يريدون غنيمة سهلة ، فلما لم يستطيعوا تحقيقها ، أو لما بدا لهم أن تحقيقها أمر يحتاج إلى الصبر وبذل النفس ، تضعضعت قلوبهم ، وتفرقت كلمتهم ، ورضوا أن يعودوا من الغنيمة بالإياب ، ومحمد لا يريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة ، وهو يتوقع الحصار الطويل ، والقتال أمام خيبر أشد القتال .

وقاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش المسلمين وكان عدده ألفا وأربعمائة مقاتل فيهم مائتا فارس ، ولم يغب عن المشاركة في غزوة خيبر أحد من أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية سوى جابر بن عبد الله [1] سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة ، فطلب منهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرفقوا بأنفسهم: قائلاً: «**أيها الناس تدعون سميعاً قريباً وهو معكم**» [2] .

وكان سيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنود ليلاً ، فقد قال سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر فسرنا ليلاً[3] وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
وألقين سكينة علينا ::: وثبت الاقدام إن لاقينا
فأغفر فداء لك ما اتقينا ::: إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا[4]

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من هذا السائق؟**» قالوا عامر بن الأكوع .

---

(١) أبو داود – السنن ، كتاب الخراج والفيء والأمارة ٣/ ٤١٣ ، الحاكم – المستدرك ، ٢/ ١٣١ ، وكان غياب جابر بعذر مشروع (ابن هشام – السيرة النبوية ٣/ ٤٦٧) .
(٢) البخاري ، كتاب الدعوات رقم ٦٣٨٤ .
(٣) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦ .
(٤) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦ .

قال: «يرحمه الله».

قال رجل (وهو عمر بن الخطاب)[1] من القوم: وجبت يانبي الله، لولا متعتنا به[2].

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء - وهي من أدنى خيبر - صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا السويق، فأمر به فثري، فأكل وأكل معه الصحابة، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ[3].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عيناً لليهود من أشجع، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغي أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصرو لسنين لكفارهم، وماء وأتى يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ماأنت إلا عين لهم، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود... وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لايستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ماتقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم[4].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: قفوا. ثم قال: اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وماأقللن، ورب الشياطين وماأظللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير مافيها، ونعوذ بك من شرها وشر

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٦).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦.
(٣) الصراع مع اليهود (٢/ ٣٠).
(٤) مغازي الواقدي، ٢/ ٦١٠ - ٦٤١.

أهلها، وشر مافيها، أقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها[1].

ولما أدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان، وكانت قبيلة غطفان قد حاولت نجدة حلفائها اليهود، ولكنهم لم يشتركوا في القتال خوفا من أن يهاجم المسلمون ديارهم[2].

والحقيقة أن يهود خيبر كانوا يتوقعون من جانبهم أن يغزوهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك كانوا دائمي النشاط والتدبير، ولقد عرض بعضهم أن يسارعوا إلى تكوين كتلة يهودية منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء، ويهاجموا المدينة مستميتين دون اعتماد على البطون العربية التي فشلت من قبل في اقتحامها، وعرض آخرون أن يدخلوا في حلف مع محمد لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم في نفوس المسلمين والأنصار منهم بنوع خاص بعد ما قام به حيي واليهود من تأليب العرب للقضاء على المدينة؛ لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى، حتى لقد سبق المسلمون قبل الخروج لخيبر بقتل سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام من زعماء خيبر تمهيدًا للغزو، وحرمانًا لليهود من زعيمين كبيرين لهما رأي وتدبير، ولذلك كان اليهود على اتصال دائم بغطفان، وكان هؤلاء حلفاء دائمين لهم كحلف قريش مع الأحابيش، ولذلك استعانوا بهم أول ما ترامى إليهم اعتزام محمد غزوهم، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سريعًا إلى الحيلولة دون اتصال غطفان باليهود، فقد سارعت جيوش المسلمين، فحالت بين غطفان وبين خيبر، على أن غطفان كانت قد بدأت تعيد النظر في موقفها من عداء محمد بعد الأحزاب، وبعد أن تأكد لديها أن الموقف قد تحول إلى جانبه وبخاصة بعد الحديبية حيث سالمته قريش، فلم يكن زعماء غطفان جادين في معاونة خيبر، ولم يعودوا حريصين على الارتباط بها، كذلك كانت القبائل

---

(١) المستدرك، ٢/ ١٠٠.

(٢) ذكر ابن إسحاق أنهم تجمعوا وساروا نحو خيبر وبعد أن قطعوا مرحلة، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا وخلوا بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين خيبر (ابن هشام - السيرة ٣/ ٤٣٨)، ويقرر الواقدي وصول غطفان إلى حصون خيبر وينفرد بالقول أنهم رفضوا عرضا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنحهم تمر خيبر لذلك الموسم مقابل انسحابهم، ولا يصح الاعتماد على هذه المعلومات لضعف الواقدي وعدم ورود ذلك من طرق أخرى (الواقدي - مغازي ٣/ ٦٥٠).

العربية كلها في منطقة الحجاز ونجد قد بدأت تنظر إلى الموقف نظرة جديدة، وكان موقفها في غزوة خيبر موقف تربص وانتظار لما تسفر عنه نتيجة المعركة، فلقد انتصر محمد على قريش وثَبَتَ لها ولكل حلفائها، وأجبرها آخر الأمر على قبول الأمر الواقع وتوقيع صلح الحديبية. ومهما بدت قريش في ثوب من العزة بأن حالت بين محمد وبين دخول مكة؛ فإنها قد انكشفت حين اشترطت على نفسها أن تخلي له مكة من العام القادم ثلاثة أيام يطوف بالبيت فيها، ولم يبق من عدو شديد البأس غير خيبر ذات الحصون المنيعة[1].

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم[2] ومكاتلهم[3]، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**[4].

وكانت خيبر مكونة من ثلاث مناطق حربية: منطقة الوطيح والسلالم وفيها أدخل اليهود أموالهم وعيالهم، ومنطقة الكتيبة وأدخلوا فيها ذخائرهم، ومنطقة النطاة وفيها دخل المقاتلة ورجال الحرب وحولهم دار القتال الأول.

واستبسل اليهود استبسالًا عظيمًا في القتال، ولم يرتدوا عن شبر من الأرض بعد قتال شديد عنيف، واستمر القتال أيامًا عديدة حتى قلَّت المئونة عند المسلمين وأجهدوا إجهادًا شديدًا، مما جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتجه إلى الحصون التي بها الأموال والمؤن، وفي هجمات قوية استطاع أن يوفر لرجاله ما هم في حاجة شديدة إليه من التموين بفتح بعض الحصون مثل حصن الصعب بن معاذ، فقد وجدوا فيه كثيرًا من التموينات أغنت المسلمين ومكنتهم من مواصلة القتال[5]، وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر، وكان أول ماسقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبى النزار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٩٣.
(٢) المساحي: جمع ومفردها مسحاة، والمسحاة المجرفة من الحديد.
(٣) المكاتل: جمع مكتل، وهو المقطف الكبير.
(٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٢١٠.
(٥) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٩٤.

أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم[1].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن، والذي استغرق فتحه عشرة أيام[2]، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له**»، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه[3]، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبصق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عينيه ودعا له، فبرئ[4] ولقد أوصى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم**»[5]. وعندما سأله علي: يارسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[6].

وعندما حاصر المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم[7].

وتوجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠١.
(٢) مغازي الواقدي (٢/ ٦٥٧).
(٣) المستدرك (٣/ ٣٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٤) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٦.
(٥) مسلم (٢/ ١٨٧١) رقم ٢٤٠٤، ٢٤٠٥.
(٦) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم ١٤٠٥.
(٧) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ٥٠٢.

وبقية مافتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطاة التي كان فيها أشد اليهود[1].

وانتقل المسلمون بعد ذلك من معسكرهم في الرجيع، وعسكروا في منطقة المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة الذين كانوا أشد وأشرس اليهود، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بسبب انتصاراتهم المتكررة على عدوهم وحيازتهم طعامه ومتاعه، في الوقت الذي انحطت فيه معنويات يهود خيبر الآخرين، إضافة إلى ما أصابهم من رعب وقنوط وهم يشاهدون حصون منطقة النطاة وهي تتهاوى تحت ضربات المسلمين وحصارهم.

وتوجه المسلمون لفتح منطقة الشق التي تحتوي على عدد من حصون اليهود أهمها حصن أبيّ، وحصن النزار، وبعد مبارزات فردية هجم المسلمون على حصن أبي فاقتحموه وحازوا ما فيه من طعام ومتاع، وتمكن بعض مقاتلة اليهود من الانتقال إلى حصن نزار، فدعموا مقاومته بوجه الهجوم الإسلامي، وقاتلوا بالنبال والحجارة، غير أنهم سرعان ما تهاوت مقاومتهم، وكتب الله النصر للمسلمين، وفتح الحصن، وفر من تمكن من مقاتلته إلى منطقة الكتيبة حيث تحصنوا في حصن القموص المنيع، كما التحق بعضهم بمن كان في حصني الوطيح والسلالم. وقد حاصرهم المسلمون أربعة عشر يوما، حتى طلبوا الصلح دون أن يحصل قتال [2]. وكان القتال عند حصن نزار في منطقة الشق هو آخر قتال ليهود خيبر، فقد انهارت بعد ذلك مقاومتهم، فاقتصروا على التحصن في قلاعهم وآطامهم وحصونهم وكانوا دائما ينزلون على الصلح والثابت أن يهود حصن القموص سألوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلح ثم نكثوا العهد فحاز أموالهم [3]، وتواترت الروايات الصحيحة على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فتح خيبر عنوة فقد غلب على الأرض والنخل وألجأهم إلى حصونهم التي قاتلهم عليها أو صالحهم

(١) الواقدي - المغازي ٢/ ٦٦٣ - ٦٧٠.
(٢) الواقدي - المغازي ٦٥٨ - ٦٧١.
(٣) وكان صلحهم على أن للمسلمين ما كان عندهم من ذهب وفضة وسلاح ودروع «الصفراء والبيضاء والحلقة»، وأن لهم ما حملت ركابهم، على ألّا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكا لحيي بن أخطب، وحين سئلوا عنه أنكروا وجوده وادعوا أنه إنما أذهبته الحروب والنفقات، فوجد المسلمون المسك عندهم مما أسقط ذمتهم وعهدهم (أبو داود - السنن ٣/ ٤٠٨).

فنكثوا العهد [(١)] .

ولقد أيقن يهود حصني الوطيح والسلالم بعدم جدوى المقاومة بعد أن سقطت حصونهم الشمالية المنيعة: النطاة والشق والقموص ، ولذلك فإنهم سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسيّرهم وأن يحقن دماءهم ، وقد وافق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك [(٢)] . وبذلك فقد سقطت سائر منطقة خيبر أرضها وزروعها ومياهها وحصونها بيد المسلمين [(٣)] .

فدك:

ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر ، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود إلى يهود فَدَك ، ليدعوهم إلى الإسلام ، فأبطؤوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالصة ؛ لأنه لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب [(٤)] .

وادي القري:

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر ، انصرف إلى وادي القري ، وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي ، وهم على تعبئة ، فقتل مِدْعَم – عَبْدٌ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقال الناس: هنيئا له الجنة ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلا، والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَة [(٥)] التي أخذها يوم خيبر من**

---

(١) البخاري – الصحيح (فتح الباري ٣/ ٣٢ حديث ١٣٦٥)، مسلم الصحيح ٣/ ١٤٢٧ (حديث ١٣٦٥) ، أبو داود – السنن ٣/ ٤٠٨ – ٤١٠ ، كتاب الخراج (حديث ٣٠٠٩) بإسناد صحيح وقد جزم ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٣٥٢ – ٣٥٤ أنها فتحت عنوة ، وبه قال ابن عبد البر – الدرر ص/ ٢١٤ .

(٢) ابن هشام – السيرة ٣/ ٤٤٩ .

(٣) لقد صح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أبقى يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى ما أرادوا ذلك ، وكان هذا الاتفاق بمبادرة من يهود أنفسهم انظر: البخاري – الصحيح (باب معاملة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر) ٧/ ٤٩٦ ، مسلم – الصحيح – كتاب المساقاة ٣/ ١١٨٦ – ١١٨٧ ، أبو داود – السنن ، كتاب البيوع ٣/ ٦٩٧ .

(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٩٩) .

(٥) الشملة: كساء يُتَغَطَّى به ويُتَلفَّف فيه .

الغنائم[1]**، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا»** ، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشراك أو شراكين[2] ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«شراك من نار أو شراكان من نار»**[3] .

ثم عَبَّأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه للقتال ، وصَفَّهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحُباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حُنَيْف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصلي بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغَنَّمَهُ الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعًا كثيرًا .

وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوادي القري أربعة أيام . وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها – كما عامل أهل خيبر–[4] .

تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فَدَك ووادي القُرَي ، لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح ، فقبل ذلك منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأقاموا بأموالهم . وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه: هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديا ، أن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب خالد بن سعيد[5] .

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى

---

(١) الغنائم: جمع الغنيمة ، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا .
(٢) الشراك: أحد السيور من الجلد والتي تمسك بالنعل على ظهر القدم .
(٣) أخرجه البخاري ١١ / ٥٩٢ (٦٧٠٧) ومسلم ١ / ١٠٨ (١٨٣ / ١١٥) .
(٤) انظر: الطبري ٣/ ٩١ ، وفتوح البلدان: ص ٤١ ، وابن سيد الناس ٢/ ١٤٣ ، وابن كثير ٤/ ٢١٢ ، وزاد المعاد ٢/ ٣٥٤ ، والإمتاع: ص٣٣٢ ، وتاريخ الخميس ٢/ ٥٨ .
(٥) طبقات ابن سعد ، ١/ ٢٧٩ ، زاد المعاد ، ٣/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، الرحيق المختوم ، ص٣٧٦ .

اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب فأعتقها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتزوجها[(١)].

استشهد من المسلمين خلال هذه المعارك عشرون رجلا [(٢)]، في حين بلغ عدد قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلا [(٣)]، وذلك من خذلان الله تعالى ليهود، حيث كانوا يقاتلون من خلف حصونهم وهم يدافعون عنها، في حين كان المسلمون في حالة هجوم وهم بدون حواجز أو سواتر سوى عصمة الله تعالى[(٤)].

قسمة الغنائم:

وقد نزلت آية من الذكر الحكيم، أوضحت بأن غنائم خيبر هي خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين لا يشاركهم فيها أحد، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

ولم يُجْلِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر عنها بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة؛ لأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها، وكانت منطقة غنية خصيبة، ولا شك أن اليهود أقدر على زراعتها والقيام على استثمارها، ثم إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في حاجة إلى رجاله؛ لأن الدولة مازالت تحوطها المخاطر وهي في أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح. كما أنه لا يصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبة بدون استغلال، بينما الدولة في حاجة إلى المؤونة والمال، ثم إن قوة اليهود قد قضى عليها بعد هذا النصر، ولم تعد لهم شوكة يخاف منها.

---

(١) مسلم، كتاب النكاح (٢/ ١٠٤٥).

(٢) أورد ابن هشام في السيرة ٢٠/ ٨٠٤ – ٨٠٥ قائمة بأسماء الشهداء في خيبر، أما الواقدي فقد ذكر أنهم خمسة عشر شهيدا (المغازي ٢/ ٧٠٠).

(٣) الواقدي – المغازي ٢/ ٦٩٩، وقد سبيت نساؤهم، وكانت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب – رضي الله عنها – أصلا ضمن سبي خيبر وقعت في سهم دحية الكلبي، فاشتراها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعتقها ثم تزوجها في طريق العودة إلى المدينة (البخاري – الصحيح) فتح الباري حديث (٤٢١١)، وعنده أنه اصطفاها لنفسه، وانظر مسلم – الصحيح ٢/ ١٠٤٥ – ١٠٤٦ (حديث ١٣٦٥)، الحاكم – المستدرك ٤/ ٢٨.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١/ ٣٥٣.

فقـد سالم يهود فدك ، ويهود وادي القرى ، على ما سالم عليه يهود خيبر ، أما يهـود تـيماء فقـد أذعنوا وقبلوا دفع الجزية بدون قتال ، وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهى كل ما كان لهم من سلطان في شبه الجزيرة[1] .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا ، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين النصف من ذلك وهـو ألـف وثمانمائـة سـهم ، لرسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم ، لنوائبه وما يتنزل به من أمـور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهـل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفا وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فـرس ، لكـل فـرس سـهمان ، فقـسمت علـى ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد[2] .

وبالرغم من أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أبقى يهود خيبر في أرضهم على أن يعملـوا في زراعـتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها ، ولكن على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا .

وهنا تظهر براعة سياسية جديدة في عقد الشروط ، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحـونها يوفـر للمـسليمن الجـنود المجاهدين في سبيل الله ، ومن جهة أخرى فإن الـيهود هـم أصـحاب الأرض ، وهـم أدرى بفلاحـتها من غيرهـم ، فبقاؤهـم فيها يعطـي ثمـرة أكثـر وأجـود وبخاصـة وأنهـم لن يأخذوا أجراً ، ولكنهم سيأخذون نصف مايخرج من الأرض قلّ أو كثر .

وقـد ضـمن الرسـول بـشرط إجلائهـم متى شاء المسلمون إخضاعهم وكسر شـوكتهم ، لأنهـم يعلمـون إذا فعلـوا شـيئاً يـضر بالمسلمين يطردونهم منها ، ولا يعودون إليها أبداً .

وقـد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث اعتدوا علـى عبدالله بن عمر ففدعوا يديه من المرفقين ، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعـتدوا علـى عـبدالله بـن سهل فقتلوه فلما تحقق عمر من غدرهم

(١) ابـن هشام ٣/ ٣٧٨ – ٤١٠ . الواقدي ٣١٢ – ٣٢٠ . ابن سعد ٣/ ١٥٢ – ١٦٣ . إمتاع ١/ ٣١٠ – ٣٣٢ .

(٢) أبو داود – السنن ٣/ ٤١٣ ، الحاكم – المستدرك ٢/ ١٣١ ، البخاري – الصحيح – كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٣٧ ، مسلم – الصحيح كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٦) .

وخيانتهم أمر بإجلائهم[1].

ولقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء دويًا هائلا في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتلتهم، ووفرة سلاحهم ومتاعهم ومئونتهم[2]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر، وخذّلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي[3].

وبانتهاء سلطان اليهود تغير الموقف تغيرًا نهائيًا في جزيرة العرب لصالح المسلمين، وأتم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطته لإحكام الحصار حول مكة، والحقيقة أن مكة بعد غزوة خيبر أصبحت كالثمرة الناضجة تستعد للسقوط.

قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الأشعريين من الحبشة:

وفي نفس وقت فتح خيبر عاد مهاجرة الحبشة إلى المدينة، وتوجهوا إلى خيبر حين علموا بأمر غزوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، غير أنهم وصلوا إليها بعد الفتح وكان عددهم يتراوح بين ٥٢ - ٥٣ بقيادة جعفر بن أبي طالب، فقبل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين عيني جعفر بن أبي طالب والتزمه وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**»، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بلغنا مخرج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم

---

(١) رواه البخاري مختصراً في صحيحه، كتاب الديات، باب القسامة ٨/ ٤٢، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة حديث [١٦٦٩] ٢/ ١٢٩١، وانظر أيضا: السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ٣٢٧، تاريخ الطبري، ٢/ ١٤٠، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٦).

(٢) أحمد - المسند ٣/ ١٣٨، الهيثمي - موارد الظمآن ص/ ١٤٣.

(٣) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١/ ٣٥٣.

أحدهم أبو بردة، والآخرِ أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين افتتح خيبر[1].

وقد أشركهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين شاركوا في فتحها[2].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أقل قدراً من غيرهم[3].

فعن أبي موسى: . . . كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر - فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء ابنة عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت: أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ماقلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: كذا وكذا. قال: أليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان[4].

فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا[5] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، مامن الدنيا شيء هم به

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم ٤٢٣٠، ٤٢٣١.
(٢) البخاري - الصحيح - كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٣٧، مسلم - الصحيح كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٦).
(٣) فقه السيرة للغزالي، ص٣٥٠.
(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٣١.
(٥) فقه السيرة للغضبان، ص٥٣٥.

أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

- مشاهد من غزوة خيبر:

- إن تصدق الله يصدقك:

صح أن أعرابيًا شهد فتح خيبر وأراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء المعركة أن يقسم له قسما وكان غائبا، فلما حضر أعطوه ما قسم له، فجاء به إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا – أشار إلى حلقه – بسهم فأدخل الجنة. قال: «**إن تصدق الله يصدقك**». فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجبته وصلى عليه ودعا له، فكان مما قال: «**اللّهمّ هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا، وأنا عليه شهيد**» [2].

إن هذا الموقف شاهد قوي على ما يبلغه الإيمان من نفس أعرابي ألف حياة الغزو والسلب والنهب في الجاهلية فإذا به لا يقبل ثمنا لجهاده إلّا الجنة، فكيف يبلغ الإيمان إذا من نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.

- الراعي الأسود:

جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر كان في غنم لسيده فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل بغنمه حتى عهد لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما جاءه قال: ماذا تقول، وماذا تدعو إليه؟ قال: «**أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وأن لا نعبد إلا الله**» قال العبد: فماذا إلي إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال: «**لك الجنة إن مت على ذلك**» فأسلم، قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء**[3] **فإن الله سيؤدي عنك أمانتك**» ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما

---

(١) مسلم، فضل الصحابة، رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣.

(٢) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)؛ الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)؛ والحاكم (٣/ ٥٩٥)؛ والبيهقي (٤/ ١٥، ١٦)؛ وإسناده صحيح نقلا عن زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

(٣) الحصباء: الحجارة الصغيرة.

التقى المسلمون واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود واحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط [1] فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: **«لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين[2]، ولم يصل لله سجدة قط»**[3].

- بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لايدع للمشركين شاذة ولا فاذة[4] إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أما إنه من أهل النار»**. فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لايموت على هذه الحال أبداً، فاتبعه حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه [5] بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد إنك رسول الله، قال: «وماذاك» فأخبره. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة»**[6].

- أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟:

وعلى رغم المعاهدة التي عقدها يهود خيبر مع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن ابنا أبي الحقيق غيبا مالا كثيرا، غيبا مَسْكًا [7] فيه مال وحُلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إسحاق: وأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكِنَانة الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتي رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة [8]، فقال رسول الله

---

(١) الفسطاط: بيت من شعر، وضرب من الأبنية، والجماعة من الناس.
(٢) الحور العين: نساء أهل الجنة.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٩).
(٤) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.
(٥) ذبابُ السَّيْف: حَدُّ طَرَفِه الذي بين شَفْرَتَيْهِ وما حَوْلَه من حَدَّيْهِ.
(٦) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم ٤٢٠٢، ٤٢٠٧.
(٧) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).
(٨) الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟» قال: نعم، فأمر بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبي أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير، وقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة - وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم، ألقي عليه الرحي، وهو يستظل بالجدار فمات -[1].

- بهذا قامت السماوات والأرض:

وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليه ثم يضمّنهم الشطر. فشكوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدة خرصه[2]، وأرادوا أن يُرْشُوه فقال: ياأعداء الله تطعمونني السُّحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[3].

قال الحافظ بن عبد البرّ: وفيه أنّ المؤمن وإن أبغض في الله لا يحمله بغضه على ظلم من أبغضه».

لقد امتثل عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للمنهج الرّباني الّذي يكفل العدل بين النّاس، والّذي يعطي كلّ ذي حقّ حقه من المسلمين وغير المسلمين. ففي هذا الحقّ يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين. قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ١٣٥]. وقد أقرّ اليهود صنيع عبد الله بن رواحة لعلمهم أنّ العدل قد أمر الله عزّ وجلّ - به النّاس جميعا، لأنّه واجب لكلّ أحد على كلّ أحد في جميع الأحوال. والظّلم لا يباح منه شيء بحال، ولذا قالوا لعبد الله بن رواحة: (هذا الحقّ به تقوم السّماء والأرض): أي بهذا الحقّ والعدل قامت السماوات فوق الرّؤوس بغير عمد،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٣٣٦، تاريخ الطبري، ٢/١٣٨.
(٢) الخرص: الحَزَر والحدس والتخمين. وخرصَ العدد قدره تقديراً بظن لا إحاطة.
(٣) أحمد (٣/ ٣٦٧)، الهيثمي، مجمع الزوائد (٤/ ١٢١):، موطأ مالك (٤٣٩)، وأبي داود (٣٤٧)، وابن ماجة (١/ ٥٥٧ - ٥٥٨).

والأرض استقرّت على الماء تحت الأقدام[1] .

فالعداوة بين المسلمين واليهود قائمة ، وكيد اليهود للمسلمين قائم واضح للعيان .

إلّا أنّ الإسلام ما جاء ليظلم أحد ! وما جاء ليجاري الجاهليّات فيما تقع فيه من انحراف . وإنّما جاء لينشأ الإنسان الصّالح في الأرض .

إنّها ليست حادثا عارضا يمرّ فينسى ، إنّها درس هائل في التّربية على الأفق الأعلى لا يقدّمه إلّا الإسلام ، ولا يقدر عليه إلّا المسلمون . وإنّه لدرس في التّطبيق العمليّ للإنصاف الإلهيّ والعدل الرّبّانيّ الّذي لم تعرفه أمة في التّاريخ ، إلّا الأمّة الّتي ربّاها القرآن الكريم .

- زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص - حصن بني أبي الحقيق - كانت صفية في السبي ، فأعطاها دِحية الكلبي ، فجاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال يارسول الله: أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها ، وهي ماتصلح إلا لك ، فاستحسن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماأشار به الرجل ، وقال لدحية ، خذ جارية من السبي غيرها ، ثم أخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعتقها وجعل عتقها صداقها ، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها وبعد أن أسلمت[2] .

ولم يخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها ، فحملها وراءه ، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرّس بها فأبت عليه ، فوجد في نفسه ، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم ، وعطرتها ، وزفتها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبنى بها ، فسألها: «**ماحملك على الامتناع من النزول أولاً**» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود ، فعظمت في نفسه[3] .

فهي تعرف قومها ومكرهم . . فخشيت على رسول الله من مكرهم . . وهذا التصرف الذي أبدته صفية ، انتبه له عقلاء الصحابة . . فقد روى ابن هشام في

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ٢٧٣) .
(٢) البخاري ٧ / ٣٦٠ في المغازي: باب غزوة خيبر ، صحيح مسلم ٤/ ١٤٥ - ١٤٦ كتاب النكاح ، السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٣) .
(٣) السيرة - ابن هشام ٣/ ٣٥٠ .

السيرة: أن أبا أيوب الأنصاري بات يقظان ساهرا متوشحا بسيفه، يطيف بالقبة التي دخل فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صفية، فلما أصبح رسول الله سمع حركته ورأى مكانه فسأله: مالك يا أبا أيوب؟

أجاب: (يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك).

فدعا له الرسول وقال: «**اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني**»[(١)].

وينظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجه صفية فيرى بعينها خضرة (سوادا) فقال لها: «**ما هذه الخضرة بعينيك؟**» قالت: (قلت لزوجي كنانة بن الربيع - في ليلة عرسي - إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمرا وقع في حجري، فلطمني). وقال: «**أتريدين ملك يثرب؟**»[(٢)].

لقد صدق الله رؤيا صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأكرمها بالزواج من رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعتقها من النار، وجعلها أماً للمؤمنين، وزوجاً في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين[(٣)]

ولقد كان لصفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مكانا في قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فروي عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته، فقال: «**ألا قلت وكيف تكونا خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى**»[(٤)].

- الحجاج بن علاط السلمي وارجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: لما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر قال الحجاج بن علاط: يارسول! إن لي بمكة مالا وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن أكتبهم، فأنا في حل[(٥)] إن أنا نلت منك؟[(٦)] وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول مايشاء، فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ماكان

---

(١) السيرة - ابن هشام ٣/ ٣٥٠.
(٢) السيرة - ابن هشام ٢/ ١٦٥. السنن الكبرى (٩/ ١٣٨).
(٣) الصراع مع اليهود (٣/ ١٢٢).
(٤) شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٣٣).
(٥) فلان في حل: أبرأ ذمته وليس عليه لوم.
(٦) نال من غيره: ذكره بسوء من سب أو شتم.

عندك، فإني أريد أن اشتري من غنائم[١] محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا[٢]، أو أصيبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعقر، وجعل لايستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقال له قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حِبِّي قثم، حِبِّي قثم ::: شبيه ذي الأنف الأشم[٣]

نبي رب ذي النعم ::: برغم أنف من رغم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج: ويلك[٤] ماجئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على مايسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحاً، حتى قبل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه. قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى[٥] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأذن لي، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثاً، ثم اذكر ماشئت. فجمعت امرأته ماكان عندها من حلي ومتاع[٦] فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: مافعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لايخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا[٧] الذي بلغك، قال: أجل، لايخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ماأحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجرت فيها سهام

(١) الغنائم: جمع الغنيمة، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا.
(٢) استبيحوا: انتهكت حرماتهم وأموالهم.
(٣) الأشم: المرتفع الأنف مع طوله.
(٤) الويل: الحزن والهلاك والعذاب وقيل وادٍ في جهنم.
(٥) اصطفى: فضَّل واختار.
(٦) المتاع: كل ما يُنتفَعُ به ويُستَمتَعُ، أو يُتَبَلَّغُ بِهِ ويتُزَوَّدُ من سلعة أو مال أو زوج أو أثاث أو ثياب أو مأكل وغير ذلك.
(٧) شق: صعب.

الله ، واصطفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية بن حيي لنفسه ، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به ، قالت: أظنك والله صادقاً ، قال فإني صادق ، الأمر على ماأخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذ امر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل ، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمدالله ، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى صفية لنفسه ، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً ، وإنما جاء ليأخذ ماله ، وماكان له من شيء هاهنا ، ثم يذهب ، قال: فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين ، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس ، فأخبرهم الخبر وسر المسلمون ، ورد الله - تبارك وتعالى - ماكان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين(١) .

وفي هذا الخبر فقه غزير منه:

- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره ، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقه ، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأما مانال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن ، بمفسدة يسير في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب ، ولاسيما تكميل الفرح والسرور ، وزيادة الايمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة(٢) .

- قصة الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لما فتحت خيبر ، أهديت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة فيها سم ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود**» ، فجمعوا له ، فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟**» .

فقالوا: نعم يا أبا القاسم . فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أبوكم؟**» . قالوا: أبونا فلان . فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبتم بل أبوكم**

(١) أخرجه أحمد في المسند: (٣/ ١٣٨ - ١٣٩) ؛ عبدالرزاق في المصنف رقم ٩٧٧١ ، وأبو يعلى برقم ٣٤٧٩ ، والبيهقي في السنن (٩/ ١٥١) ؛ والدلائل (٤/ ٥٢٦٦ - ٥٢٦٧) .
(٢) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، ٢ / ٤٠٠ .

فـلان» . فقالـوا: صدقت وبررت . فقال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عـنه؟**» . فقالـوا: نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في ابينا . قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أهل النار؟**» .

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا .

فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخسؤوا فيها والله لانخلفكم فيها أبداً**» .

ثم قال لهم: «**فهل أنتم صادقي عن شيء إن سالتكم عنه؟**» .

قالوا: نعم . فقال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سماً**» .

فقالوا: نعم . فقال: «**ماحملكم على ذلك؟**» .

فقالوا: اردنا إن كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك[(١)] .

قـال: صـاحب بلـوغ الأمانـي عـن الـشاة المـسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحـارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم ، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إلـيه؟ فقيل: الذراع ، فاكثرت فيها من السم ، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ، ولم يسغها ، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها[(٢)] .

وفي روايـة: فتـناول الـذراع فأنـتهش منها ، وتناول بشر عظماً آخر ، فانتهش مـنه ، فلمـا أرغـم رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ارغـم بـشر مافي فيه ، فقال رسول الله: «**ارفعـوا أيـديكم، فـإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها**» ، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت ، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أنـي كـرهت أن أنغـص طعامـك ، فلمـا أكلت مافي فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك ، ورجوت أن لا تكون رغمتها وفيها بغي[(٣)] .

وقـال ابـن القـيم: وجـيء بالمـرأة إلى رسـول الله ، فقالـت: أردت قـتلك ، فقـال: «**ماكان الله ليسلطك علي**» ، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «**لا**» ، ولم يتعرض لها ، ولم يعاقـبها ، واحـتجم علـى الكاهـل ، وأمـر مـن أكـل مـنها فاحـتجم ، فمـات بعضهم[(٤)] .

---

(١) البخاري ، كتاب الجهاد والسير (٤/ ٧٩) رقم ٣١٦٩ .
(٢) بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣) .
(٣) البيهقـي في الـدلائل ٤ / ٢٦٣ ، مغازي رسول الله ، لعروة بن الزبير ، ص١٩٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٢٠١ - ٢٠٣ .
(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦) .

لقد كان السم الذي وضعته اليهودية قوياً جداً إذ مات بشر بن البراء فوراً، وبقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وقد روى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «**ياعائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[1] من ذلك السم**»[2].

وما تزال هذه حالهم وهذه طبيعتهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه، ولكنهم كانوا دائماً كما كانوا في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة.. ولا يتوانون لحظة عن المكر والغدر إن قدروا على التنكيل الظاهري بالمسلمين فعلوا، وإلا لجؤوا في حال ضعفهم إلى المؤامرات والدسائس ونصبوا الشباك للمسلمين وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو للإسلام والمسلمين، لينزلوا بهم المصائب ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم قساة جفاة لا يرحمون ولا يرعون فيهم عهداً ولا ميثاقاً.. هذه هي حقيقة اليهود.

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أي إلى الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخري.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر؛ ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخري.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على

(١) ابهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٩/ ١٥٩ - ١٩٦).

أطراف المدينة - قام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع [1].

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن حضور أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ [2].

وسبب الغزوة ماظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى فخرج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قاصداً قبائل محارب وبني ثعلبة، وذكر أن قادماً قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما كان منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له: نخل، على بعد يومين من المدينة، ولما وصل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، ولم يكن بينهم قتال، ولما حضرت الصلاة خاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف [3].

وقد صلى المسلمون صلاة الخوف بمنطقة نخل التي تبعد يومين عن المدينة [4]

وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم [5].

---

(١) الرحيق المختوم، ص ٣٧٩.

(٢) البخاري - الصحيح (فتح الباري حديث ٤١٢٨) وكذلك عند أبي معشر مما ذكره ابن حجر، وهو الراجح عند ابن حجر أيضا. وذهب ابن إسحاق أنها سنة ٤ هـ بعد الخندق (ابن هشام - السيرة ٣/ ٢٨٢)، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في أول السنة الخامسة من الهجرة (مغازي ١/ ٣٩٥، الطبقات ٢/ ٦١).

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١).

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١).

(٥) السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٥.

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع ركعات وللقوم ركعتان[(١)]

ودّل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لايمكن التساهل فيها، ولايمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلايوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد[(٢)].

وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأن المسلمون كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روي البخاري عن عن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزاة، ونحن ستّة نفر بيننا بعير نعتقبه[(٣)]، قال: فنقبت أقدامنا[(٤)]، فنقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنّا نلفّ على أرجلنا الخرق، فسمّيت غزوة ذات الرّقاع[(٥)]، لما كنّا نعصّب على أرجلنا من الخرق، قال أبو بردة: فحدّث أبو موسى بهذا الحديث، ثمّ كره ذلك قال: كأنّه كره أن يكون شيئاً[(٦)] من عمله أفشاه به)[(٧)].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق من تحدّثه نفسه بالاقتراب من المدينة بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره[(٨)].

---

(١) مسلم (٢/ ٥٧٦) رقم ٣١١.
(٢) التربية القيادية (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).
(٣) نعتقبه أي نتعاقب عليه في الركوب بحيث يركب كل واحد نوبة ثم ينزل فيركب الآخر وهكذا.
(٤) نقبت أي تقرحت من الحفاء وكثرة المشي.
(٥) ما ذكر هنا الصحيح في سبب التسمية، وهناك آراء أخرى منها: أنها سميت بذلك باسم جبل هناك، وقيل باسم شجرة، وقيل لأنه كانت ألويتهم رقاع، ويحتمل أنها سميت بمجموع ذلك، انظر هامش ٣ في صحيح مسلم (١٤٤٩).
(٦) في رواية البخاري شيء بالرفع على أنه فاعل تكون التامة.
(٧) البخاري – الفتح ٧ (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦)، واللفظ له.
(٨) محمد أحمد باشميل، غزوة الأحزاب، ص٧٧، ٧٨.

وعندما قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة ذات الرقاع أدركته القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة علق بها سيفه، وجاءه رجل فأخذ سيفه الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأراد أن يتعرض له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عناية الله فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: غزونا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة قبل [1] نجد. فأدركنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في واد كثير العضاه [2]. فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة. فعلّق سيفه بغصن من أغصانها. قال: وتفرّق النّاس في الوادي يستظلّون بالشّجر. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنّ رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السّيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلّا والسّيف صلتا [3] في يده. فقال لي: من يمنعك منّي؟ قال: قلت: الله. ثمّ قال في الثّانية من يمنعك منّي؟ قال قلت: الله. قال فشام السّيف [4] فها هو ذا جالس. ثمّ لم يعرض له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»** [5].

وفي رواية: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: **«من يمنعك مني؟»** قال: كن خير آخذ، قال: **«تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»** قال الأعرابي: أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلي سبيله، فجاء الرجل إلى قومه: (واسمه غَوْرَث بن الحارث) [6]، فقال: جئتكم من عند خير الناس [7].

إن في هذا الموقف دليل على نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك مايخافون منه [8].

وهذه القصة تكشف عن مدى رعاية الباري جلّ جلاله وحفظه لنبيه

---

(١) قبل نجد: أي ناحية نجد.
(٢) العضاه: هي كل شجرة ذات شوك.
(٣) صلتا: بفتح الصاد وضمها. أي مسلولا.
(٤) فشام السيف: معناه غمده ورده في غمده.
(٥) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٢٩١٠) ومسلم برقم (٨٤٣).
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١).
(٧) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ١ / ١٠٧، دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٤٥٦.
(٨) فتح الباري (١٥/ ٣١٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم هي تزيدك يقيناً بالخوارق التي أخضعها الله جل جلاله له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مما يزيدك تبصراً ويقيناً بشخصيته النبوية ، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك ، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أعزل غارق في غفلة النوم - أن يهوي به عليه فيقتله ، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟ [(1)].

ليس هذا تفسير إلا العناية الإلهية ، والإعجاز الإلهي ، الذي يتخطى العادات والسنن ، ويتجاوز قوى الناس ، لنصرة نبيه ، والذود عن دعوته [(2)] ، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرجفة ، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وماحدث مصداق لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] فليست العصمة المقصودة في الآية ، أن لايتعرض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأذى أو محنة من قومه ، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت ، وإنما المراد من العصمة أن لاتطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بعث لتبليغها[(3)] .

وفي مرجع المسلمون من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلين على الحراسة أثناء نومهم ، وهما عبّاد بن بشر ، وعمار بن ياسر ، فضرب عباداً بسهم وهو قائم يصلي فنزعه ، ولم يقطع صلاته ، حتى رشقه بثلاث سهام ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال: سبحان الله ، هلا نبهتني ، فقال كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها ، فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك ، وايم الله ، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها[(4)] .

---

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص٢٠٠ .
(٢) دورس وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص١٧٨ .
(٣) فقه السيرة للبوطي ، ص٢٠٠ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ، ٤/ ١٦٤ ، تاريخ الطبري ، ١/ ٤٩٨ .

ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً وعبراً منها:

أ - اهتمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمن الجنود ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً .

ب - تقسيم الحراسة ونلاحظ أن الرجلين الذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين ، نصفاً للراحة ونصفاً للحراسة ، إذ لابد من راحة جسم الجندي بعض الوقت .

جـ - التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته: فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة[1] .

د - الشعور بمسؤولية الحراسة: فلم يقطع عبّاد صلاته لألم يشعر به وإنما قطعها استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كلف بها وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد[2] .

هـ - مكان الحراسة استراتيجي: اختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فم الشعب مكان إقامة الحرس وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق ، لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر .

و - قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم ، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه ، وبالتالي يحدث مالا تحمد عقباه[3] .

لقد كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعدالغزوة نري أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نري عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حُنَيْناً ، وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام ، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا

---

(١) غزوة الأحزاب لأبي فارس ، ص٣٠ ، ٣١ .
(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ٤٢٨ ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢/٤٠٥ .
(٣) غزوة الأحزاب لأبي فارس ، ص٣٢ .

بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة؛ لأن الظروف في داخل البلاد كانت قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين [1].

السرايا بين غزوة خيبر وعمرة القضاء:

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى شوال سنة ٧ هـ، وبعث في خلال ذلك عدة سرايا. وهاك بعض تفصيلها:

- سرية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى تربة:

كان أول تلك السرايا، هي سرية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثين راكبا إلى تربة[2] القريبة من الطائف، وحينما علمت بطون هوازن الساكنة في تربة بذلك هربوا، فرجع عمر بأصحابه إلى المدينة، وكان ذلك في شعبان السنة السابعة من الهجرة. [3]

- سرية بشير بن سعد:

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرّة بناحية فدك، فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحدًا، فأخذ نَعَمَهم وانحدر إلى المدينة، أما القوم فكانوا في الوادي، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيرًا ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل، ولما أصبح اقتتل الفريقان قتالًا شديدًا حتى قتل غالب المسلمين، وجرح بشير جرحًا شديدًا حتى ظن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر[4].

- سرية غالب بن عبد الله:

وفي رمضان سنة سبع [5] وعندما علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبر سرية

(١) الرحيق المختوم، ص ٣٨١.

(٢) وتُربة هذه: واد قرب مكة يبعد يومين منها.

(٣) الواقدي - مغازي - رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢/ ٧٢٢، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١١٧ معلقا.

(٤) محمد بن عفيفي الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ١ / ١٥٤.

(٥) ابن سعد، طبقات، ٢/ ١١٩ .، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ١٩٠، ١٩٧، القسطلاني، المواهب ١/ ٥٣٨، الحلبي، سيرة ٣/ ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٧، ولم يذكر لها الواقدي تاريخًا - وذلك خلاف عادته -، وذكرها مباشرة بعد سرية بشير بن سعد إلى فدك، بل إنه لم يجعل

بشير بن سعد، ومصابها هيأ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام، وقال له: "سِر حتَّى تنتهي إلى مُصاب أصحاب بشير بن سعد، فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء"[1].

فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفَّره الله عليهم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزبير بن العوام: "اجلس، وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل"[2]، فخرج أسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مصاب بشير وأصحابه، وخرج معه علبة بن زيد"[3]. و"عقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عجرة. وأبو سعيد الخدري".

فلمَّا دنا غالب منهم بعث الطلائع، فبعث علبة بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة محالهم، حتى أوفى على جماعة منهم، ثُمَّ رجع إلى غالب، فأخبره فأقبل غالب يسير حتَّى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً، وقد اجتلبوا وعطَّنوا[4]، وهدأوا، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثُمَّ قال: "أمَّا بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنَّه لا رأي لمن لا يُطاع، ثُمَّ ألَّف بينهم[5] فقال: "يا فلان أنت وفلان، يا فلان أنت وفلان، لا يفارق كلّ رجل زميله"[6].

فلمَّا كان قرب الفجر انقضوا عليهم في هجوم فجري خاطف، وهم يتصايحون بشعارهم المُتَفَق عليه مسبقاً: "أمت! أمت!"[7].

وارتبك الأعراب بادئ الأمر، إلاَّ أنَّهم تمالكوا أنفسهم بعضاً من الوقت حيث أبدوا بعض المقاومة، فخرج الرجال فقاتلوا ساعة، وكان منهم رجل من

لها عنواناً مستقلاً، وإنَّما تحدَّث عنها بعد فراغه من سرية بشير، وكأنه يرى أنَّها متعلِّقة بها، وأنَّها كانت في نفس التاريخ. وتابعه في ذلك ابن كثير. انظر: الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٣، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٢٢.

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٦).

(٢) ذكر خليفة بن خياط (تاريخ ٧٨) أنهم كانوا ستين فقط.

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٣).

(٤) أي سقوا الإبل ثُمَّ أناخوها وحبسوها عن الماء. (لسان العرب ١٧/ ١٥٨).

(٥) في رواية أُخرى للواقدي ذكر فيها أنَّ أمير السرية آخى بينهم. (مغازي ٢/ ٧٢٥).

(٦) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٤).

(٧) مغازي الواقدي، ٢/ ٧٢٤).

أشدِّهم، فكان: إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين، قصد له فقتله[1]، حتَّى أوجع في المسلمين، غير أنَّ قوة وتنظيم المسلمين في هجومهم المباغت، وهول المفاجأة من ذلك الهجوم الفجري غير المتوقَّع أفقد الأعراب توازنهم، فانهزموا هاربين، ووضع المسلمون سيوفهم فيهم حيث شاءوا[2].

يقول أُسامة - رضي الله تعالى عنه - في وصف ذلك:

فصبَّحنا القوم فهزمناهم فكان منهم رجلٌ إذا أقبل القوم كان من أشدِّهم، وإذاأدبروا كان حاميتهم، قال: "فغشيته أنا ورجلٌ من الأنصار[3].

فلمَّا غشيناه قال: "لا إله إلاَّ الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي فوقع في نفسي من ذلك[4].

ثُمَّ تمكَّن المسلمون من السيطرة على الأعراب بسرعة، حيث استحوذوا على حاضر القوم بعد أن قتلوا منهم مَن قتلوا، وهَرَبَ الباقون أمامهم فاستاقوا:

النَّعم والشاء والذرية، وكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل، أو عدلها من الغنم، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم"[5]". وكان ذلك القتال يعدّ أوَّل تجربة عسكرية قتالية لأُسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما، حِبِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا جاء البشير بخبر النَّصر والفتح إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهلَّل وجهه فرحاً، وازداد فرحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما أخبره البشير عن شِدَّة بأس أُسامة، واستبساله في القتال، ولكنَّه حينما أخبره بخبر الرجل الذي قتله أُسامة تغيَّر وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعث إلى أُسامة".

"فدعاه فسأله، فقال: "لِـمَ قتلته؟ قال: "يا رسول الله! أوجَعَ في المسلمين، وقتل فلاناً وفلاناً، وسمَّى له نفراً، وإني حملت عليه، فلمَّا رأى السيف قال: "لا إله إلاَّ الله". قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أقتلته؟»** قال: "نعم". قال: **«كيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة؟»** قال: "يا رسول الله استغفر لي". قال: **«وكيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة؟»** قال: "فجعل لا يزيده على أن يقول: **«كيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة»**.

(١) مسلم (الصحيح ١/ ١٣٦).
(٢) الواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٤.
(٣) أخرجه البخاري (الصحيح٣/ ٨٨)، وأحمد (المسند، حديث رقم: ٢١٧٣٩).
(٤) أخرجه البخاري ومسلم (الصحيح ١/ ١٣٤).
(٥) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٢٥).

قال أُسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"[1].

بعض لأحكام المستنبطة والعبر والدروس المستفادة:

- قال الخطابي: "فيه من الفقه أنَّ الكافر إذا تكلَّم بالشهادة وإن لم يصف الإيمان وَجَبَ الكَفُّ عنه والوقوف عن قتله سواء أكان بعد القدرة أم قبلها[2]".

وقال ابن التين تعليقاً على قول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُسامة: «**أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟**» . في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحَد على قتلِ مَنْ تلفَّظ بالتوحيد[3]".

وقال القرطبي: "تكريره ذلك والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك[4]".

وقال النووي: "وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا شققت عن قلبه**»، فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأُصول أنَّ الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولَّى السرائر[5]".

وقال ابن حجر: "وفيه دليل على ترتُّب الأحكام على الأسباب الظاهرة دون الباطنة[6]".

والحقيقة إنَّ أسامة - رضي الله تعالى عنه - كان في ذلك الوقت صغيراً في السنِّ، وأنَّ ما حمله على قتل ذلك الرجل هو قِلَّة خبرته الفقهية، وبخاصَّة فقه الجهاد، باعتبار أنَّها أوَّل مشاركة جهادية، كما ورد في رواية ابن سعد[7]، ولأجل ذلك عذره النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنَّه أبلغ في اللوم والعتاب عليه سدّاً للذريعة، والتثبُّت، وبخاصَّةً وأنَّ الأمر يتعلَّق بحياة إنسان بدت منه شبهة تدرأ عنه القتل". والله تعالى أعلم"[8].

---

(١) البخاري (الصحيح٣/ ٨٨)، مسلم (الصحيح ١/ ١٣٦)، الواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٤.
(٢) الخطابي: حاشية سنن أبي داود ٣/ ١٠٢.
(٣) ابن حجر: فتح ١٢/ ١٩٥.
(٤) ابن حجر: فتح ١٢/ ١٩٥.
(٥) النووي على مسلم ٢/ ١٠٧.
(٦) فتح الباري ١٢/ ١٩٦.
(٧) مغازي الواقدي، ٢/ ٧٢٤).
(٨) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٧٠.

-وفيها من العبر والدروس المستفادة:

- إنَّ حُبَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأسامة بن زيد - ولأبيه من قبله - رضي الله تعالى عنهما - لم يشفع له عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أخطأ، فكان اللوم والتقريع والمحاسبة الشديدة على الخطأ".

وفي ذلك دليل على أنه لا محاباة، ولا محسوبيات في دين الإسلام، فالكل سواسية أمام الشارع، يحاسبهم على أخطائهم، لا فرق بين قريب أو بعيد، ولا غني أو فقير".

- استمرار سياسة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية ضد الأعراب مِمَّا أدَّى إلى حصد النتائج السريعة المتوخاة من تلك السياسة العسكرية المتبعة ضدَّهم، نصر، وغنائم، وتأديب، ورعب".

- كان الشعار في المعركة من مبتكرات النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزواته وبعوثه وسراياه وتتضح أهمية الشعار في القتال الليلي، أو الفجري الخاطف، وبخاصَّة إذا علمنا أنَّ العرب في ذلك الوقت يتشابهون فيما بينهم في اللباس والملامح، حيث لم تكن هنالك بزَّات[1] عسكرية خاصَّة لكل جيش كما هو الحال اليوم في المؤسسات العسكرية الحديثة، فكان الشعار ينوب مناب اللباس الخاص للتفريق بين المسلمين وأعدائهم في ميدان المعركة، كما أنَّه يبث روح الحماس في نفوس الجند وهم يتصايحون به أثناء الانقضاض على العدوّ، كما حدث في هذه السرية". والله تعالى أعلم.

- اتَّبع المسلمون الهجوم الفجري ضد الأعراب" فكان هذا الهجوم مباغتة كاملة أثَّرت على معنوياتهم، وأجبرتهم على الفرار".

- إنَّ الهجوم فجراً يؤَمِّن المباغتة، لأنَّ العدوَّ يكون بين نائم لا يفيد في القتال، أو مستيقظٍ غير مُتَهَيِئ له، وهؤلاء جميعاً غير متهيئين للقتال، ولا جدوى منهم للنهوض بأعباء الحرب".

ولكن الهجوم فجراً يحتاج إلى قوة مدربة تستطيع معرفة أهدافها، فلا يصطدم بعضها ببعض، فيؤدي ذلك إلى خسائر في الأرواح دون مبرر، مِمَّا يدل على تدريب المسلمين تدريباً متميزاً على فنون القتال، كما يحتاج الهجوم فجراً إلى قيادة

(١) جمع بزة: وهي البدلة العسكرية.

مسيطرة وإلى ضبط شديد لتنفيذ الأوامر "[١]".

وذلك واضح في الخطاب الذي ألقاه قائد السرية عليهم، وتأكيده على الضبط العسكري، ومبدأ طاعة الأوامر، ثُمَّ في تأليفه بين الجند ومؤاخاته بينهم، والحثّ على الاجتماع وعدم التفرُّق، وترك الإمعان في العمق دون مبرِّر".

"إنَّ نجاح المسلمين بهذا الهجوم معناه وصولهم إلى درجة عالية في التدريب والضبط، وهما أهمّ عناصر الجيش القوي الرصين"[٢]".

سرية بشير بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الجناب:

وفي شوال سنة سبع من الهجرة[٣] بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشير بن سعد على رأس سرية من ثلاثمائة رجل وعقد له اللواء وأرسله إلي الجناب[٤].

وذكر أهل المغازي الذين رووا أخبار هذه السرية أنَّ السبب الذي أهاج هذه السرية، هو ذلك التقرير المهم الذي جاء به عين النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منطقة خيبر وما جاورها، ودليله إليها من قبل، حُسَيْل بن نويرة الأشجعي، عن التحرُّكات العدوانية التي يقوم بها زعيم قوي ومؤثِّر من زعماء قبيلة غطفان، هو عُيَيْنة بن حصن الفزاري، ومحاولته حشد جمعٍ من غطفان في منطقة الجناب القريبة من خيبر، استعداداً للزَّحف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الإغارة على بعض

---

(١) خطَّاب: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد ٢١٧.

(٢) خطَّاب: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد ٢١٧، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٧٢.

(٣) أرَّخها الواقدي بسنة سبع من الهجرة، ولم يحدِّد الشهر الذي انطلقت فيه، وتابعه نقلاً عنه كلٌّ من: الطبري، والبيهقي، وابن كثير، والذهبي، أمَّا ابن سعد فحدَّدها بشهر شوَّال من نفس السنة، وتابعه في ذلك البلاذري، وابن سيد الناس، والقسطلاني، والشامي. والراجح هو رواية الواقدي الأكثر تفصيلاً للأحداث من رواية ابن سعد، وبها قرائن تُقوّي تحديد ابن سعد لها بشهر شوَّال من السُّنة السابعة أي بعد غزوة خيبر". فقوله مثلاً في بداية روايته: "قدم رجل من أشجع، يُقال له حُسَيْل ابن نويرة، وقد كان دليل النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر... إلخ".

انظر: الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٨، الطبري، تاريخ ٣/ ٢٣، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٠١، ابن كثير: بداية ٤/ ٢٢٣، ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠، البلاذري: أنساب ٣٧٩، ابن سيد الناس: عيون ٢/ ١٩١، القسطلاني: المواهب ١/ ٥٣٩، الشامي: سبل ٦/ ٢١٣.

(٤) قال ياقوت: "وقيل: "هو مِن منازل بني مازن، وقال نصر: "الجِناب من ديار بني فزارة بين المدينة وفَيْد، وقال ابن حبيب: "الجناب مِن بلاد فزارة، والحضارم من ناحية اليمامة". معجم البلدان ٢/ ١٦٤ – ١٦٥.

أطراف الدولة الإسلامية[١].

وبما أنَّ عُيَيْنَة بن حصن قد كانت له سابقة من قبل مع المسلمين، كانت سبباً في غزوة ذي قَرَد[٢]، لذلك أخذ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقرير حُسَيْل مأخذ الجد، وسارع ببعث هذه السرية لضرب ذلك الحشد في عُقْرِ داره، قبل أن تستكمل استعداداتهم للتحرُّك ثُمَّ الهجوم، كما فعلوا من قبل"[٣].

ففي شهر شوَّال من السنة السابعة من مُهَاجر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم رجل من أشجع، يُقال له، حُسَيْل بن نويرة، وقد كان دليل النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من أين يا حُسيل؟ قال: "قدمت من الجناب، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما وراءك؟ قال: "تركت جمعاً من غطفان بالجناب، وقد بعث إليهم عُيَيْنة يقول لهم: "إمَّا تسيروا إلينا وإمَّا نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سِرْ إلينا حتَّى نزحف إلى محمَّدٍ جميعاً، وهم يريدونك، أو بعض أطرافك"[٤]".

وكعادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استباق الأحداث، وسياسته المتبعة مع الأعداء عامَّة، والأعراب خاصَّة، بالتحرُّك سريعاً للقضاء على قُوَّة العدو، ووئدها في مهدها، قبل أن تستفحل وتنتشر، ولأنَّ لِعُيَيْنَة سابقة من هذا النوع من قبل، سارع النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستدعاء صاحبيه، ووزيريه أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وشاورهما في الأمر فقالا جميعاً: "ابعَث بشير بن سعد! فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيراً، فعقد له لواء، وبعث معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم أن يسيروا الليل، ويكمنوا النَّهار، وخرج معهم حُسيل بن نويرة دليلاً[٥]".

فساروا الليل، وكمنوا النهار، حتَّى أتوا إلى يمن وجبار، وهي نحو الجناب، والجناب يعارض سلاح، وخيبر ووادي القرى، فنزلوا بسلاح[٦]، ثُمَّ دنوا

(١) الواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٨، ابن سعد: طبقات ٢/ ١٢٠، الطبري: تاريخ ٣/ ٢٣.
(٢) في السنة السادسة أغار عُيَيْنَة بن حصن، وابنه عبد الرحمن في فوارس من غطفان على لقاح النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي كانت في الغابة، فقتلوا أحَد الرّعاة، واستاقوا اللقاح، فنذر بهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض الصحابة، ولحقوا بهم واستنقذوا اللقاح.
(٣) انظر: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٠٧.
(٤) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٨، الطبري، التاريخ ٣/ ٢٣، البيهقي، الدلائل ٤/ ٣٠١، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٢٣.
(٥) مغازي ٢/ ٧٢٨.
(٦) قال ياقوت: "سلاح كأنه على وزن قطام، موضع أسفل من خيبر، وسلاح - أيضاً، ماء

من القوم[1]".

فقال لهم الدَّليل: "بينكم وبين القوم ثُلُثا نهار أو نصفه، فإن أحببتم كمنتم[2]، وخرجت طليعة لكم حتى آتيكم بالخبر، وإن أحببتم سرنا جميعاً". قالوا: "بل نقدِّمك، فقدَّموه فغاب عنهم ساعة، ثُمَّ كرَّ[3] عليهم، فقال: "هذا أوائل سرحهم، فهل لكم أن تغيروا عليهم؟ فاختلف أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال بعضهم: "إنْ أغرنا الآن حذِرَنا الرجال والعَطَن[4]". وقال آخرون: "نغنم ما ظهر لنا ثُمَّ نطلب القوم[5]".

ثُمَّ إنَّهم أغاروا على سرح القوم، فأصابوا نعماً كثيرة ملأوا منها أيديهم:[6] "وتفرَّق الرعاء فحذَّروا الجمع، فتفرَّقوا ولحقوا بعلياء بلادهم، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتَّى أتوا محالّهم فيجدها وليس فيها أحد"[7].

فرجع بالنعم حتَّى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عَيْناً[8] لعُيينة فقتلوه، ثُمَّ لقوا جمع عيينة، وعيينة لا يشعر بهم، فناوشوهم، ثُمَّ انكشف جمع عيينة، وتبعهم أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً[9]".

ونفَّذ عُيينة بجلده هارباً، بعد أن دخله الرعب من المسلمين، فانهزم على فرس له عتيق يعدو به عدواً سريعاً، لا يلوي على شيء، حتَّى إنَّ حليفة الحارث بن عوف المري لمَّا استوقفه ليسأله عن شأنه، ردَّ عليه:

لا ما أقدرُ! الطلب خلفي! أصحاب محمَّد! وهو يركض". قال الحارث بن عوف: "أما لك بعد أن تبصر ما أنت عليه؟ إنَّ محمَّداً قد وطئ البلاد وأنت مُوضِعٌ في غير شيء". قال الحارث: "فتنحيت عن سَنَن[10] خيل محمَّد حتَّى أراهم ولا

لبني كلاب شبكة ملحة لا يشرب منه أحد إلاَّ سلح" (معجم ٣/ ٢٣٣).

(١) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(٢) كمن له: استخفى، والكمين: القوم يكمنون في الحرب. (القاموس: كمن).

(٣) كرَّ عليه: عطف. (القاموس: كرّ).

(٤) مالعَطَن – محرَّكة – وطن الإبل ومبركها حول الحوض، ومربض الغنم حول الماء.

(٥) مغازي ٢/ ٧٢٨.

(٦) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(٧) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(٨) العين: الجاسوس.

(٩) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(١٠) سَنَنُ الطريق، مثلثة وبضمتين: نهجه وجهته. (القاموس: سن).

يروني، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل، ما أرى أحداً – وما طلبوه إلاَّ الرعب الذي دخله". قال: "فلقيته بعد ذلك، فقال الحارث: "فلقد أقمت في موضع حتى الليل، ما رأيت من طلب". قال عيينة: "هو ذاك، إني خفتُ الإسار، وكان أثري عند محمَّدٍ ما تعلم في غير موطن". قال الحارث: "أيُّها الرجل، قد رأيت ورأينا معك أمراً بيِّناً في بني النضير، ويوم الخندق، وقريظة، وقبل ذلك قينقاع، وفي خيبر، إنَّهم كانوا أعزّ يهود الحجاز كُلِّه، يُقِرُّون لهم بالشجاعة والسَّخاء، وهم أهل حُصون منيعة، وأهل نخل، واللهِ إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم، لقد سار حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من النَّاس، ثُمَّ قد رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أُديل عليهم". فقال عيينة: "هو واللهِ ذاك، ولكنَّ نفسي لا تُقِرّني". قال الحارث: "فادخل مع محمَّد، قال: "أصير تابعاً! قد سبق قومٌ إليه فهم يزرُون[1] بمن جاءَ بعدهم يقولون: "شهدنا بدراً وغيرها". قال الحارث: "وإنَّما هو على ما ترى، فلو تقدَّمنا إليه لكنَّا من عِلِيَة أصحابه، قد بقي قومُه بعدهم منه في مُوادعَة وهو مُوقِعٌ بهم وقعة، ما وُطِئَ له الأمْرُ". قال عُيينة: "أرى واللهِ! فاتَّعدا يُريدان الهجرة والقدوم على النَّبيِّ ﷺ إلى أن مرَّ بهما فروة بن هبيرة القُشَيْري يُريد العُمرة وهما يتقاولان، فأخبراه بما كانا فيه وما يُريدان". قال فروة: "لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه في هذه المُدَّة التي هُم فيها وآتيكم بخبرهم! فأخّروا القدوم على رسول الله ﷺ، ومضى فَرْوَة حتَّى قدم مكة فتحسَّب من أخبارهم، فإذا القوم على عداوة النَّبيِّ ﷺ، لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً، فخبَّرهم بما أوقع محمَّد بأهل خيابر[2]". قال فروة: وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمُحَمَّد". قالت قريش: "فما الرأي، فأنت سيِّد أهل الوبر؟ قال: "نقضي هذه المدَّة التي بينكم وبينه، ونستجلب العرب، ثُمَّ نغزوه في عُقْرِ داره، وأقام أياماً يجول في مجالس قريش، ويسمع به نَوْفَل ابن معاوية الدِّيلِيُّ، فنَزل من باديته فأخبره بما قال لقُرَيْش، فقال نَوْفَل: "إذاً لأجِدُ عندكم شيئاً! قدمت الآن لمقدمك حيث بلغني، ولنا عدوٌّ قريبٌ دارُه، وهم عَيْبَة نُصْح محمَّد لا يغيبون عليه حرفاً من أُمورنا، قال: "من هُم؟ قال: خُزاعة، قال: "قَبُحَت خزاعة؛ قعدت بها يمينها! قال فروَة: "فماذا؟ قال:

---

(١) زرى عليه زرياً وزراية ومزرية ومزراة وزُرياناً بالضم: عابه، وعاتبه. (القاموس: زرى).

(٢) خيبر.

"استنصرْ قُرَيْشاً أن يعينونا عليهم، قال فروة: "فأنا أكفيكم". فلقي رؤساءَهم، صفوان بن أُمَيَّة، وعبد الله بن أبي ربيعة، وسُهَيْل بن عمرو، فقال: "ألا ترون ماذا نزل بكم! إنَّكم رضيتم أن تدافعوا مُحَمَّداً بالراح". قالوا: "فما نصنع؟ قال: "تُعينون نَوْفَل بن مُعاوية على عدوِّه وعدوِّكم". قالوا: "إذاً يغزونا محمَّدٌ فيما لا قِبَلَ لنا به فيوطئنا غَلَبَةً، وننْزل على حُكْمِهِ، ونحن الآن في مُدَّة وعلى ديننا". فلقي نوفل ابن معاوية، فقال: "ليس عند القوم شيء، ورجع فلقي عيينة والحارث فأخبرهم، وقال: "رأيت قومه قد أيقنوا عليه فقاربوا الرجل وتدبَّروا الأمر، فقدَّموا رِجْلاً وأخِّروا أُخرى[1]".

الأحكام المستنبطة والدروس المستفادة:

- مشروعية اتخاذ الأدلاَّء من غير المسلمين وإغرائهم بالمال لمساعدة المسلمين، وفي قصة الهجرة، وقصة هذه السرية، وفتح خيبر دليلٌ على ذلك.

- مشروعية اتخاذ العيون للتجسس على الأعداء، وتزويد المسلمين بأخبارهم وتحركاتهم ضد المسلمين، وقصة هذه السرية، وفتح مكة، وغير ذلك من قصص السرايا والغزوات والأخبار التي تصل تباعاً إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحرُّكات الأعداء وحشودهم دليلٌ على ذلك.

- إنَّ استخدام المسير الليلي كمسير اقترابي[2] إلى أرض العدو، واتخاذ الدليل طليعةً في أرض العدو، يُعَدُّ من الأُسس العملية المهمَّة للمباغتة، وهي أساليب تُعَدُّ من مبتكرات الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- استمرار نجاح سياسة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية الهجومية في حربه مع أعدائه من الأعراب بضرب حشودهم في قواعدها، والإغارة عليهم قبل استكمال استعداداتهم، مِمَّا كان له أبلغ الأثر في تلك النتائج المدهشة من إدخال الرعب في قلوبهم، والقضاء على مخططاتهم العدوانية - التي كانت موجَّهة ضد المسلمين - في مهدها، وبسط نفوذ المسلمين على أراضيهم، وبالتالي التمهيد للانطلاق فيما وراء ذلك لتحقيق أهداف المسلمين واستراتيجياتهم بعيدة المدى من نشر الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية فيما وراء مناطق نفوذ الأعراب.

- وضح من خلال هذه السرية، والسرايا قبلها، ذلك الترتيب الذكي الذي

(١) مغازي الواقدي ٢/٧٢٨، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢١٣.
(٢) المسير الاقترابي: هو الحركة من القاعدة إلى الهدف. (خطَّاب: الرسول القائد ١١٦).

كان يتبعه القائد الملهم، الخبير بخبايا الحرب وأمورها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك من خلال اختياره الرجل المناسب للمهمَّة المناسبة في المنطقة المناسبة، ذلك الاختيار كان يتم وفق معايير خاصّة تتعلّق بقدرات الرجل المختار، وخبرته في المنطقة المبعوث إليها، ومعرفته التامة بها وبأهلها". فكما رأينا في هذه السرية وما قبلها من السرايا في منطقة خيبر وما حولها، كان المبعوث على رأسها في غالب الأحيان هو بشير بن سعد الأنصاري، - رضي الله تعالى عنه، - فالتركيز على بشير دون غيره من الصحابة". وغالب بن عبد الله الليثي - رضي الله تعالى عنه، وغيرهما من القادة لم يكن من فراغ، وإنَّما كان بناءً على ما كان يتمتع به أولئك من قدرات أهليتهم لذلك مِمَّا ذكرنا، والله تعالى أعلم.

- إنَّ في استشارة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحبيه أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله تعالى عنه، وعمر بن الخطّاب - رضي الله تعالى عنه، لها أكثر من دلالة!. فمن كون ذلك يدل على فضلهما ومكانتهما ومنْزلتهما الرفيعة عند النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتَّى إنَّهما كانا بمثابة وزيرين له، وكانا من ألصق النَّاس به في كلِّ أموره، في سفره وإقامته، في سلمه وحربه، وكان دائم الاستشارة لهما، المصاحب لهما في كلِّ الأوقات، وكان دائم الحديث عنهما، كما يقول علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه: "وحسبت أني كثيراً أسمع النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر"(١)". وقد عرف الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - ذلك لهما، فكان أن قدَّموهما على غيرهما في الخلافة.

- أيضاً يدل ذلك على مكانة الشورى في الإسلام، باعتبار أنَّ المُشَرِّع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُطَبِّقها في كل زمان ومكان، وذلك تنفيذٌ لأمر الباري - عزَّ وجلَّ - له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وتعليمٌ لأمَّته من بعده بتطبيق هذا المبدأ الهام والحيوي في حياتهم بمختلف شؤونها، وما أصاب المسلمين من الضياع وتسلُّط الأعداء إلاَّ عندما تركوا هذا المبدأ، واستبدَّ قادتهم بالرأي دونهم، فكان ذلك وبالاً على الأُمةِ بأسرها.

- كذلك يدل على ما كان يتمتَّع به الشيخان الجليلان - رضي الله تعالى عنهما، من الحنكة والمعرفة بأمور الحرب والسياسة، حيث نصحا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإسراع بإرسال سرية إلى تلك المنطقة، يقودها رجلٌ مُحَنَّكٌ ذو

---

(١) البخاري، الصحيح: ٤/ ١٩٩.

خبرة ومعرفة بأحوالها وأهلها[1] .

عمرة القضاء:

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء[2] .

وقد اتجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكة المكرمة في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والبوادي، وكان كلما مر الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق بين مكة والمدينة خرجوا وشاهدوا منظر لم يألفوه من قبل حيث المسلمين بزي واحد من الأحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هديهم في علاماته وقلائده في مظهر بهي لم تشهد المنطقة له مثيلاً[3] .

وأصطحب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف، تحسباً لكل طارئ قد يقع، خاصة وأن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعوه، ولا عقد عقدوه[4] .

وما أن وصل خبر مسير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعه هذا العدد الضخم، وهذه الأسلحة المتنوعة، وفي مقدمة القافلة مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة حتى أرسلت إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكرز بن حفص في نفر من قريش، ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجج[5] بمر الظهران فقالوا له: يامحمد! والله ماعرفناك صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاندخلها إلا كذلك**» ثم رجع مكرز مسرعاً

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢١٦ .

(٢) ابن حزم – جوامع السيرة ص/ ٢١٩، ابن حجر – فتح ٧/ ٥٠٠، البيهقي – دلائل النبوة ٤/ ٣١٣ – ٣١٤ .

(٣) منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص٣١٠ .

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ – ٥٠٠، البيهقي – دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٢١ .

(٥) موضع يقع على ثمانية أميال من مكة، ياقوت – معجم ٥/ ٤٢٤ .

بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً لايدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم[١].

ووضع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلاح خارج الحرم قريباً منه تحسباً لكل طارئ، وأبقى عنده مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة يحرسونه وينتظرون أمر الرسول ليتحركوا في أي جهة وينفذوا أي أمر، ويقاتلوا متى دعت الضرورة لذلك[٢].

إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم فقد تسول لهم أنفسهم أن ينصبوا كميناً أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجوماً مباغتاً ولذلك احتاط وأخذ الحذر ووفى بعهده ووعده لقريش وعلّم الأمة لكي تحذر من أعدائها[٣]، وفي بقاء كوكبة من الصحابة في حراسة الأسلحة والعتاد لكي يراقبوا الموقف بدقة وتحفز معنى من معاني العبادة في هذا الدين[٤].

دخل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون مكة في موكب مهيب وهم يلهجون بالتكبير والتلبية، وأورد الترمذي رواية حسنة غريبة جاء فيها أن عبد الله بن رواحة كان يمشي بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ينشد:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ::: اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ::: ويذهل الخليل عن خليله[٥]

طاف المسلمون مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبيت العتيق وأظهروا القوة والجلد في طوافهم وسعيهم كما أمرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦]، ردّا على إشاعة قريش عنهم بأنهم ضعفاء «قد وهنتهم حمى يثرب» فقد أرملوا وسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، كما هرولوا في السعي ليظهروا للمشركين مدى قوتهم وجلدهم.[٧] وكانت قريش قد خرجت من مكة وتجمعت على جبل قعيقعان المواجه للركنين الأسود واليماني من البيت العتيق ينظرون إلى المسلمين في

(١) مغازي الواقدي، ٣/ ٧٣٤؛ طبقات ابن سعد، ٢/ ١٢١.
(٢) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.
(٣) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.
(٤) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.
(٥) فتح الباري ٧/ ٥٠٢ وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٨ - ٥٠٩)، مسلم - الصحيح ٢/ ٩٢٣ (حديث ١٢٦٦).
(٧) أحمد - المسند ٤/ ٢٣٩، رقم (٣٥٣٦).

طوافهم وسعيهم ويتعجبون من قوتهم ويلومون بعضهم بعضا بشأن الزعم بأن حمى المدينة قد أوهنتهم [(١)].

وقد قصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضّطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشاً، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم وقد أثر هذا الأسلوب في نفوس المشركين وبهذا الأسلوب النبوي الكريم أغاظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين وكايدهم، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتقرب إلى الله بمكايدتهم وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي دجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لاظهار عزة المؤمن ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في اغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهدي جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر، ليراه المشركون فيزداود غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل أسراهم وهاهو ذا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر المسلمين في عمرة القضاء باظهار التجلد والهرولة لاغاظتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم [(٢)]، وقد ذكر ابن القيم: (بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكيد المشركين بكل مايستطيع) [(٣)].

فهذه حرب نفسية شنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المشركين وقد أتت أكلها ولقد أقام الرسول في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، ويصلي بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلوات الخمس في جماعة، وكان بلال بن رباح بصوته الندي يرفع الأذان من علا ظهر الكعبة، فكان وقعه على المشركين كالصاعقة [(٤)].

والتلبية الجماعية التي كانت تعج بها أصوات المسلمين، والتي لم تنقطع منذ أن احرموا واستمرت حتى دخلوا مكة، فقد كان للتلبية مغزى ومعنى، فهي تعلن التوحيد وترفع شعاره، وتعني ابطال الشرك واسقاط رايته، وتعلن الحمد والثناء على الله الذي مكنهم من أداء هذا النسك فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله:

---

(١) البخاري – الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٨ – ٥٠٩، حديث ٤٢٥٦، ٤٢٥٧)، مسلم – الصحيح ٢/ ٩٢٣ (حديث ١٢٦٦)، أحمد – المسند ٤/ ٢٣٩.

(٢) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٨٢.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٧١).

(٤) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٧٠.

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك[1].

لقد كان مظهراً دعوياً مؤثراً عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها شاقاً طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسماً من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابة الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام[2].

وبعد أن أدى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناسك العمرة هو ومن معه، وجه جماعة من أصحابه إلى موضع سلاحهم في ياجج ليتيحوا الفرصة لإخوانهم الذين كانوا يحرسون السلاح لأداء نسكهم وقضاء عمرتهم، ففعلوا [3].

لقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وماجاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتنال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعين، فعمل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراعاة النفوس، وساعادها ولبى مطالبها من أجل أصلاحها والرقي بها؛ أنه من منهج النبوة في التربية[4].

ثم دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة المشرفة ومكث فيها إلى الظهر، وأورد ابن سعد رواية غير صحيحة جاء فيها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة [5].

ولما انقضت الأيام الثلاثة على إقامة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين في مكة، جاء المشركون من قريش إلى علي بن أبي طالب وقالوا له: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل»، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة في اليوم الرابع ونزل

(١) صلح الحديبية، ص٢٧٧، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٨/ ١٧٠.
(٢) منهج الأعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص٣١٤.
(٣) ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٢.
(٤) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٧٧.
(٥) ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٢.

بسرف فأقام بها إلى أن تتامّ الناس، ثم انصرف بهم إلى المدينة [(١)]، وقد نزل في عمرة القضاء هذه قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾ [الفتح: ٢٧].

ولما بلغ رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منطقة سرف[(٢)] تزوّج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة بنت الحارث الهلاليّة وكانت ميمونة، أخت أم الفضل، زوجة العباس بن عبدالمطلب، فتاة في السادسة والعشرين، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبو رهم بن عبدالعزى إلى أختها أم الفضل، فجعلته أم الفضل إلى زوجها العباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم، وهي خالة عبدالله بن عباس، وخالد بن الوليد ولما أنقضت الثلاثة أيام، التي نص عليها عهد الحديبية، أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتخذ من زواجه من ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبدالعزى، موفدين من نفر من قريش فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فأخرج عنا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر ابن إسحاق: «**وماعليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟**».

قالوا: لاحاجة لنا في طعامك فاخرج عنا[(٣)].

فخرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها في بسرف فبنى بها هناك، وهي آخر من تزوج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نسائه وآخر من مات من نسائه بعده، وأنه ماتت ودفنت بسرف، فمكان عرسها هو مكان دفنها، فرَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضاها [(٤)].

ولما أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم فتناولها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأخذ بيدها وقال لفاطمة دونك ابنة

---

(١) البخاري - الصحيح، فتح الباري ٧/ ٤٩٩ (حديث ٤٢٥١)، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٢، ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) سرف: - بفتح أوله وكسر ثانيه - موضع على ستة أميال من مكة، تزوج به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة بنت الحارث وهناك بنى بها، وهناك توفيت.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩).

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٢٥٩)، ابن القيم - زاد المعاد (٣/ ٣٧٢ - ٤)، أبو داود - السنن ٢/ ٤٢٥، البيهقي - دلائل (٤/ ٣٣٢ - ٦)، مسلم - الصحيح (٢/ ١٠٣٢ حديث ١٤١١).

عمك فحملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي وقال جعفر ابنة عمي وخالتها تحتي وقال زيد ابنة أخي فقضى بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالتها: وقال: الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي: أنت مني وأنا منك وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة. قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة[1].

وفي هذه القصة دورس وعبر وأحكام وفوائد منها:

١ - الخالة بمنزلة الأم.

٢ - الخالة تقدم على غيرها في الحضانة إذا لم يوجد الأبوان.

٣ - تزكية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ووصفه له بقوله: أشبهت خُلقي وخَلقي.

٤ - منقبة علي تأمل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت مني وأنا منك، والمعنى أنت مني وأنا منك في النسب والصهر، والسابقة والمحبة.

٥ - منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرسول أنت أخونا مولانا لأنه كان أخاً لحمزة بن عبدالمطلب فقد آخى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ماعلى الأخ الشقيق من واجبات والواجب هنا أن يكون ولياً على بنت حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٦ - الخالة تقدم على العمة في الحضانة: لقد حكم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبدالمطلب حية موجودة.

٧ - زواج المرأة لايسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٨ - لابد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها، لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئياً، فلابد من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

٩ - إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة، وتصبح بناته

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٢٥٩)، ابن القيم - زاد المعاد (٣/ ٣٧٢ - ٤)، أبو داود - السنن ٢/ ٤٢٥، البيهقي - دلائل (٤/ ٣٣٢ - ٦)، مسلم - الصحيح (٢/ ١٠٣٢ حديث ١٤١١).

كلها بنات أخيه في الرضاعة، فيحرم عليه نكاحهن[1].

لقد أثرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريش تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فلما دخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «**رحم الله امرأً اراهم اليوم من نفسه قوة**»، ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه. فلم يكد يترك الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، حتى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق كل ذي لب أن يتبعه، وسمع أبوسفيان بما كان من قول خالد بن الوليد، فبعث في طلبه، وسأله عن صحة ماسمع فأكد له خالد صحته فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبه، فحجز عنه عكرمة، وكان حاضراً، وقال: مهلا يا أباسفيان، فوالله خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ماقال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه. وهذه قريش كلها تبايعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم: وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كل بيت من قريش سراً وعلانية، وبهذه النتيجة الطيبة يمكننا القول بأن عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها)[2].

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَة، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أي المصالحة - التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون، وهذه العمرة تسمي بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والقصاص، والصُّلح.

السرايا والأحداث بين عمرة القضاء وغزوة فتح مكة:

وقد وقعت عدد من الأحداث والسرايا بعد رجوع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه العمرة، وهي كما يلي:

---

(١) زاد المعاد، (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)؛ صلح الحديبية لأبي فارس، ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) خطاب، الرسول القائد، ص٢٠٩، ٢١٠.

- سرية ابن أبي العوجاء السلمي رضي الله تعالى عنه إلى بني سليم :

بعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عودته من عمرة القضاء سرية من خمسين فارسا إلى بني سليم جعل عليها ابن أبي العرجاء السلمي ، فلما فصلوا من المدينة ، خرج عين لبني سليم كان معهم إلى قومه فحذرهم ، فجمّعوا واستعدوا للقتال ؛ وحين وصلت السرية ، ودعوا إلى الإسلام رفضوا واستكبروا وأحدقوا بالسرية فقتلوا عامة من فيها وأصيب ابن أبي العرجاء وسقط بين القتلى ثم تحامل ومن عاد إليه من بقايا سريته حتى بلغوا المدينة في شهر صفر سنة ٨ هـ[(١)] .

- اسلام عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

وفي الأول من شهر صفر من السنة الثامنة للهجرة خرج عمرو بن العاص عامدا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسلم ، فلقيه خالد بن الوليد وهو في الطريق إلى المدينة ، يريد ما يريد عمرو ، فقدما سويا على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبايعاه على الإسلام[(٢)] .

يقول عمرو بن العاص عن قصة إسلامه: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش ، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني ، فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، وإني قد رأيت أمراً ، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي ، فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا ، فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالو: إن هذا الرأي ، قلت: فاجمعوا لنا مانهديه له ، وكان أحب مايهدى إليه من أرضنا الأدم[(٣)] ، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري ، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، قال: فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري ، لو دخلت على النجاشي ، وسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني أجزأت عنها[(٤)] ، حيث قتلت رسول محمد ،

---

(١) الواقدي – مغازي ٢/ ٧٤١ بإسناده إلى الزهري ، ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٢٣ ، البيهقي – دلائل ٤/ ٣٤١ .

(٢) الفتح الرباني ٢١/ ١٣٣ – ١٣٦ ، ابن هشام في السيرة (٣/ ٣٨٤ – ٨٦) ، الواقدي ، مغازي (٢/ ٧٤١/ ٥٠) ، ابن سعد – الطبقات ٤/ ٢٥٢ .

(٣) الأدم: الجلد .

(٤) اجزأت عنها: كفيتها .

قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً صديقي، أهديت إلي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطينه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مد يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ماسألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لقتله قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك ياعمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت على أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم[1]، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى، قال: قلت: والله ماجئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتقدم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثم دنوت، فقلت: يارسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إني أبايعك على أن يغفر لي ماتقدم من ذنبي، ولا أذكر ماتأخر. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ياعمرو، بايع، فإن الإسلام يجب ماكان قبله، وإن الهجرة تجب ماكان قبلها**»، قال: فبايعته ثم انصرفت[2]. وفي رواية قال: ... فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «**مالك ياعمرو؟**» قال: قلت: أردت أن اشترط. قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يغفر لي. قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ماكان قبله، وأن الهجرة تهدم ماكان قبلها، وأن الحج يهدم ماكان قبله؟...**»[3].

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.
(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٤٩٤.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ماقبله رقم ١٢١، الفتح الرباني ٢١/١٣٣-١٣٦، ابن هشام، السيرة (٣/ ٣٨٤ - ٨٦)، الواقدي، مغازي (٢/ ٧٤١/ ٥٠)، ابن سعد - الطبقات ٤/ ٢٥٢.

- إسلام خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

ويقول خالد بن الوليد عن قصة إسلامه: (. . . لما أراد الله بي من الخير ماأراد قذف في قلبي حُبَّ الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليسٍ موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفس أني مُوضِع في غير شيء وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه بعُسْفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر آمناً منا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطلع على مافي أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت: الرجلِ مَمنوع! وافترقنا وعدل عن سَنَن خلينا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريشٍ بالرّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعاً، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمرة القضيَّة، فتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عُمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعَقلك عَقلُك! ومثل الإسلام جَهَله أحد؟ وقد سألني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنك فقال: «**أين خالد؟**» فقلت: يأتي الله به؟ فقال: مامثله جهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك ياأخي مافاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة .

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرني مقالة رسول الله . قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت إن هذه لرؤيا . . . فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر . قال: فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، فلما أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى مانحن فيه؟ إنما نحن أكَلَةُ رأس[1]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل .

قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد على العرب، فابى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش مااتبعته أبداً. فافترقنا وقلت: هذا رجل موتور يطلب وتراً، قد قتل أبوه وأخوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ماقال صفوان، قلت: فاطو ماذكرت من قتل من أبائه فكرهتُ أذكِّره، ثم قلت: وماعليَّ وأن راحل من ساعتي. فذكرت له ماصار الأمر إليه فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحر، لو صُبَّ عليه ذَنوب[1] من ماء لخرج. قال: وقلت له نحو مما قلت لصاحبيه، فأسرع في الاجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بضجّ مناخة. قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجج، إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه. قال: فادّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ماأخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبْنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فانخنا بظاهر الحرّة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعت المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسم إليَّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني اشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: الحمدلله الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير. قلت: يارسول الله قد رأيت ماكنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق فادع الله أن يغفرها لي فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإسلام يجُب ماكان قبله**»، قلت: يارسول الله، على ذلك؟ فقال: «**اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك**». قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ماكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يوم أسلمت يعدل لي أحد من أصحابه فيما حَزَبه[2].

وفي إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دروس ولطائف

---

(١) الذنوب: الدلو العظيمة.

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)؛ التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).

وعبر منها:

- غضبة النجاشي تدل على صدق إيمانه وحبه لرسول الله ﷺ، وحبه للمسلمين، وصدق النجاشي كان له أثر في إيمان عمرو بن العاص ودخوله في الإسلام، وبذلك نال النجاشي أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[1].

- كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام، والمسلمين فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة لأنهم كانوا يُعدُّونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين[2].

- أدرك خالد بن الوليد أن العاقبة لرسول الله ﷺ وتأمل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر[3] وفي هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام[4].

- الاهتمام بالبشر طريق من طرق التأثير عليهم وكسبهم إلى الصف المؤمن ولذلك قال رسول الله للوليد بن الوليد: «**مامثل خالد يجهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره**»، فكانت لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، وقد كان رسول الله ﷺ عليماً في مخاطبة النفوس والتأثير عليها، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة والزعامة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المضمار، ومدح ﷺ سداد رأيه ورجاحة عقله، ونضوج فكره، فانتزع ﷺ بهذه الكلمات كل الجوانب التي تجعل خالداً يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ماحصل له فيه من قيادة وتصدر، فلما كان ماهيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملاً شجعه ذلك على التغلب على وساوس إبليس ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).
(٢) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩١).
(٣) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٦٣.
(٤) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).

الدخول فيه ، لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوة للإسلام وضعفاً للشرك وكتب الله على أيديهم صفحات مشرقة من تاريخ المسلمين الجهادي أصبحت باقية في ذاكرة الأمة وتاريخها المجيد على مر الدهور وكر العصور ، توالي الأزمان[١] .

-سرية عبد الله بن غالب الليثي إلى بني الملوح:

نتيجة للتحركات المشبوهة والمعادية من الأعراب المحيطين بالمدينة ، فضلا عن قطعهم الطريق أمام الدعاة المسلمين ، فقد قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحملة واسعة ومكثفة لتأديب هؤلاء الأعراب ، قاد خلالها عدة غزوات ، وبعث أصحابه في سرايا تأديبية ، كان منها سرية بقيادة غالب بن عبد الله الليثي ، وقوة بضعة عشر رجلا ، إلى بني الملوح - القاطنين في منطقة الكديد الواقعة بين عسفان وقديد[٢] .

وكانت مهمتها بناء على الأوامر الصادرة لهم من القيادة العليا هي مباغتة بني الملوح بشنٍ غارة مفاجئة ومركّزة عليهم .

وكانت تلك هي الاستراتيجية التي اتبعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزواته ، وسراياه ضد الأعراب ، استطاع من خلالها تحقيق النصر عليهم ، وذلك يدل على ذكائه وشدة معرفته بأحوال الأعراب ونفسياتهم ، فهم أشداء إذا استعدوا للقتال ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، أما بمباغتتهم فتسهل السيطرة عليهم وإرعابهم .

وكذلك تظهر في ذلك منهجية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التخصصية حيث يرسل لكل منطقة ولكل قوم من هم خبير ومتخصص بأحوالهم وغالبا ما يكون منهم .

---

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٧) .

(٢) ابن حجر ، فتح (٨/ ٣) . وقديد: موضع بين مكة والمدينة بين منزلتي أمج وعسفان ، وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير لابن محرز المكي (معجم ما استعجم – كتاب الكاف والدال) .وقال الحموي: هو موضع على اثنين وأربعين ميلا من مكة (الحموي: معجم البلدان – باب الكاف والدال وما يليهما) .
قال البلادي: والكديد يعرف اليوم باسم (الحمض) أرض بين عسفان وخليص على (٩٠) ميلا من مكة على الجادة العظمى إلى المدينة ، وسمي الحمض لكثرة نبات العصلاء فيها ، وهي أرض تزرع عثريًا يسقيها وادي غران ، وأهلها زبيد من حرب . البلادي ، معجم (٢٦٣) .

خرجت السرية ميممة شطر الهدف وفي منطقة قديد[1] أثناء مسيرهم التقوا برجل من قبيلة ليث يدعى الحارث بن البرصاء الليثي، فألقوا القبض عليه فقال محتجًا: "إنما جئت أريد الإسلام، ما خرجت إلا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

فرد عليه القائد: "إن كنت إنما جئت مسلمًا فلن يضرك رباط يوم وليلة، وإن كنت على غير ذلك فسنوثق منك"[2].

ثم أمر بشد وثاقه، ودفع به إلى أحد أفراد السرية[3]، وقال له: "امكث معه حتى نمرَّ عليك، فإن نازعك فاحتز رأسه"[4].

ثم انطلقوا في طريقهم حتى وصلوا منطقة الكديد عند غروب الشمس، فكمنوا في الوادي، ثم أرسلوا جندب بن مكيث الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أحد أفراد السرية للاستطلاع، واستكشاف أحوال القوم.

يقول جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "فخرجت حتى آتي تلاً مشرفا على الحاضر[5]، فأسندت فيه، فعلوت على رأسه، فنظرت إلى الحاضر، فوالله إني لمنبطح على التل إذ خرج رجل منهم من خبائه، فقال لامرأته: إني لأرى على التل سوادًا ما رأيته في أول يومي، فانظري إلى أوعيتك هل تفقدين منها شيئا، لا تكون الكلاب جرَّت بعضها، قال: فنظر، فقلت: لا والله ما أفقد شيئا، قال: فناوليني قوسي وسهمين، فناولته، قال: فأرسل سهما، فوالله ما أخطأ جنبي فأنزعه فأضعه، وثبتُّ مكاني، قال: ثم أرسل الآخر، فوضعه في منكبي، فأنزعه فأضعه، وثبتُّ

(١) قديد: ثرية جامعة، مذكورة في رسم الفرع، وفي رسم العقيق، وهي كثيرة المياه والبساتين، وسميت قديدا لتقدد السيول بها، وهو واد فحل من أودية الحجاز التهامية يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة "ذرة" فيسمى أعلاه ستارة، وأسفله قديدا، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من (١٢٠) كيلوا مترا ثم يصب في البحر عند القضيمة، فيه عيون، وقرى كثيرة لحرب وبني سليم. انظر البكري، معجم (٣/ ١٠٥٤)، والبلادي، معجم (٢٤٩).

(٢) ابن هشام، سيرة (٢/ ٦١٠)، ابن سعد، طبقات (٢/ ١٢٤)، الفتح (٢١/ ١٢٩)، الطبراني، المعجم (٢/ ١٢٨).

(٣) ذكر الواقدي أنه يقال له: سويد بن صخر. الواقدي، مغازي (٢/ ٧٥١).

(٤) الفتح (٢١/ ١٢٩)، الطبراني، المعجم (٢/ ١٧٨).

(٥) الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به، ولا يرحلون عنه. ويقال للمناهل المحاضر، للاجتماع والحضور عليها. قال الخطابي: ربما جعلوا الحاضر اسما للمكان المحضور. يقال: نزلنا حاضر بني فلان، فهو فاعل بمعنى مفعول، ابن الأثير نهاية – باب الحاء مع الضاد.

مكاني، فقال لامرأته: لو كان ربيئة[1] لقوم لقد تحرك، لقد خالطه سهماي لا أبا لك، إذا أصبحت فابتغيهما، فخذيهما، لا يمضغهما عليَّ الكلاب. قال ثم دخل"[2].

ويرجع جندب إلى أصحابه الذين وضعوا خطة الهجوم بناء على ملحوظاته التي ضمَّنها تقريره عن مهمته التي أثبت من خلالها أن جند الإسلام الأوائل كانوا على قدر كبير من الشجاعة والقوة ورباطة الجأش، وقوة الاحتمال.

واتفقوا على شعار (أمت، أمت) كلمة تعارف بينهم[3].

وفي وجه السَّحر وبعد أن اطمأن بنو الملوح وناموا، شنُّوا عليهم هجوما فجريًا خاطفًا ومباغتًا أفقدهم توازنهم مما أمكنهم من السيطرة على المدافعين منهم بسهولة، حيث قتلوا بعضهم، ثم استاقوا ماشيتهم وتوجهوا قافلين بسرعة، حيث مروا بابن البرصاء وصاحبه فاحتملاهما معهم، ولكن الليثيين ما لبثوا أن نظموا صفوفهم بسرعة بعد زوال آثار الهجوم المباغت عنهم، وتبعوهم بقوة تعقبية كبيرة، حتى إذا ما أدركوهم في منطقة قديد ليس بينهم إلا الوادي فقط يقطعونه ليطبقوا عليهم بما لا قبل لهم به إذ بالعناية الإلهية تتدخل في آخر لحظة لإنقاذهم من الخطر المحدق بهم.

يقول جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سحابة نراها، ولا مطر، فجاء بشيء ليس لأحد به قوة، ولا يقدر أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا، وإنا لنسوق نعمهم، ما يستطيع منهم رجل أن يجيز إلينا، ونحن نحدوها[4] سراعًا، حتى فُتناهم، فلم يقدروا على طلبنا"[5][6].

---

(١) الربيئة: هو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدوّ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه. ابن الأثير: نهاية - باب الراء مع الباء.

(٢) ابن هشام (٤/ ٦١٠).

(٣) كلمة التعارف، هو الشعار المتفق عليه في أرض المعركة بين المقاتلين، حتى لا يضرب بعضهم بعضًا عن طريق الخطأ خاصة وأن المسلمين والمشركين كانوا يتشابهون في المظهر الخارجي، وهو أسلوب متبع الآن في المعارك الحديثة. خطّاب، الرسول القائد: (١٢٣) بتصرف.

(٤) نحدوها: نسوقها، حدا الإبل: زجرها وساقها. (القاموس: حدا).

(٥) ابن هشام (٤/ ٦١١).

(٦) الفتح (٢١/ ١٢٨ - ١٢٩)، الطبراني، المعجم (٢/ ١٧٨ - ١٧٩)، وابن خياط، تاريخ (٧٨)، وابن هشام، سيرة (٤/ ٦٠٩- ٦١٠ - ٦١١)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٢٤- ١٢٥)،

وقعت هذه السرية في صفر من السنة الثامنة للهجرة [1]

ولقد أثبتت هذه السرية القوة، والجلد، ورباطة الجأش، والشجاعة النادرة، والتحكم في الأعصاب، والأحاسيس، التي كان يتحلى بها جند الحق والإيمان، وطلائع الجهاد الإسلامي، إن الروعة لم تكن تتجلى في قوة وجلد ذلك الجندي الشجاع المؤمن جندب بن مكيث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحسب، بل في رباطة الجأش العظيمة التي تميَّز بها وهو يواجه سهمين قويين من رام قنَّاص ماهر، استقرا في جسمه وخالطاه، ومع ذلك ثبت كالطود[2] ولم يتزعزع، وكأنه قطعة من التل الذي كان منبطحا عليه، حتى إن الأعرابي تراجع عن شكه واثقًا أن ما رماه لم يكن كائنًا حيًّا، فلو كان كذلك لتحرك من مكانه على الأقل كما ذكر لزوجته. ولم يعلم ذلك الأعرابي أن الإيمان إذا تمكن من قلب الإنسان، فإنه يسمو به في روحانية عجيبة، وشفافية نادرة تسيطران عليه فتملكان عليه حسَّه وأحاسيسه.

إن قوة الإيمان تحرك في الجسم البشري قواه وطاقاته الكامنة، وتنفق فيه قوة عجيبة من التحكم والسيطرة والتحمل. وذلك ما كان عليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأشداء على الكفر والكافرين، وهذه القصة إحدى الشواهد القوية على ذلك[3].

وقد تحققت في السرية بعض الكرامات التي يجعلها الله عز وجل لأوليائه الصالحين عندما يكونون في حاجة ماسة للعون الإلهي، فيمدهم بهذه الكرامات لنصرهم على أعدائهم وحمايتهم ممن يريد الشر بهم، وهذا الأمر ليس قاعدة، وإنما يظهرها الله في بعض الأحيان لتكون عبرة وعظة وتثبيتا للمؤمنين إلى جانب مهمتها الأساسية.

إن هذه المكرمة مع الفارق الكبير تشبه المعجزة التي أجراها الله عز وجل على يد نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ**

والبيهقي، دلائل (٤/ ٢٩٨ – ٢٩٩).

(١) أحمد – المسند (الفتح الرباني ٢١/ ١٢٨)، سيرة ابن هشام ٤/ ٣٤١ – ٤٣، وابن سعد – الطبقات ٢/ ١٢٤، أبو داود – السنن ٣/ ١٢٨ – ١٢٩،، وكذلك الواقدي – مغازي ٢/ ٧٥٠ – ٧٥٢.

(٢) الطود: الجبل.

(٣) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٦٦.

الْبَحْـرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَـهُ أَجْمَعِـينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٧].

وقد تكررت مثل هذه الكرامات لبعض الصحابة مثل العلاء بن الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي جاز بجنده مياه الخليج العربي إلى جزيرة دارين، وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي جاز هو وجيشه نهر دجلة إلى المدائن ففتحوها بإذن الله، إن هذه الكرامات هي من جنود الجبار عز وجل، يرسلها في الوقت المناسب لتكون نصرًا وتثبيتًا للمؤمنين، وخذلانًا للكافرين وما يعلم جنود ربك إلا هو(١).

- سرية كعب بن عمير الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أطلاح(٢):

ففي شهر ربيع الأوَّل سنة ثمان من مهاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣)، بعث النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعب بن عمير الغفاري، نحو ذات أطلاح من البلقاء"(٤) في بعثة دعوية، مكونة من خمسة عشر رجلا، حتَّى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، وكانوا من قضاعة(٥)، ورأسهم رجل يُقال له: "سدوس"(٦).

---

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٦٧.
(٢) ذات أطلاح موقع بأطراف الشام من وراء وادي القرى وهو في نواحي مؤتة كما يُفْهَم من الأحداث. ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢١٨.
(٣) أرَّخها الواقدي، وابن سعد، بشهر ربيع الأوَّل سنة ثمان من الهجرة، وتبعهما في ذلك نقلاً عنهما كلٌّ من: "ابن سيد الناس، والشامي.
وذكرها الطبري نقلاً عن الواقدي في أحداث السنة الثامنة، ولكن دون تحديد الشهر".
وذكرها ابن كثير - أيضاً - عن الواقدي دون تحديد تاريخها، ولكنَّه ذكرها قبل غزوة مؤتة مباشرةً". انظر: الواقدي، المغازي ٢/ ٧٥٢، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٢٧، ابن سيد الناس، عيون ٣/ ١٩٧، الشامي، سبل ٦/ ٢٢٧، الطبري، تاريخ ٣/ ٢٩، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١.
(٤) البلقاء، إقليم من أرض الشام في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو الإقليم الذي تتوسطه مدينة عمان عاصمة الأردن، ومن أشهر مدن هذا الإقليم: عمان، والسَّلْط ومادبا والزرقاء والرصيفة، يتَّصِل به في الجنوب إقليم الشراة الذي قاعدته معان، وفي الشمال إقليم حوران. البلادي، المعجم، ص ٤٩.
(٥) قُضَاعة - قبيلة كبيرة البطون المشهورة من قبائل العرب. انظر: القلقشندي، قلائد الجمان، ٤١ - ٤٢.
(٦) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٧، ابن حجر، الإصابة ٣/ ٣٠١، الطبري، تاريخ ٣/ ٢٩.

"فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبال"[(١)] استفزازاً لهم، واستدراجاً للقتال غير المتكافئ بين الطرفين، نظراً لكثرة القضاعيين، واستعدادهم المبكر[(٢)]".

ولكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اضطروا في النهاية للدِّفاع عن أنفسهم، فقاتلوا قتالاً شديداً مريراً، ولكن كثرة القضاعيين لم تتح لهم الفرصة في قتال متكافئ فسقطوا شهداء على أرض ذات الطلح بعد أن سطَّروا بدمائهم الزكيَّة ملحمةً جهادية رائعة، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلمَّا برد عليه الليل تحامل[(٣)] حتَّى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره الخبر، فشقَّ ذلك عليه، وهمَّ بالبعث إليهم، فبلغه أنَّهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم[(٤)]".

لقد كشفت هذه السرية عمَّا تخبئه الوثنية مِن غِلٍّ وحقدٍ دفينٍ على الإسلام وأهله، غِلّ عصف بكُلِّ المبادئ، وحقد ألغى القِيَم الإنسانية.

فهؤلاء قوم هداة جاءوا لنشر الخير والسلام بين مَن قتلوهم، فكان جزاؤهم الغدر بهم، وقتلهم جميعاً بلا هوادة ولا رحمة.

وقد يقول القائل: "إذا كان الأمر كذلك، فلِمَ لَمْ يتوقَّف النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوة الأعراب إلى الإسلام، طالما أنَّهم لا يحترمون القيم والمبادئ، ولا يمكن الوثوق بهم؟".

قلنا: "الدعوة إلى الله لا يمكن أن تقف في أرضٍ ما، أو تتعثر بسبب ما يعترض طريقها من بعض الحوادث التي تعيق تقدمها".

وهناك حقيقة يجب ألاّ تغيب عن أذهاننا، وهي أنَّ طريق الدعوة إلى الله تعالى منذ بدأت حتى يرث الله الأرض ومَن عليها، لم يكن في يومٍ من الأيام مفروشاً بالورود، فكان لابدَّ من تقديم التضحيات في طريقها الطويل الشاق".

وقد وضَّح النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الحقيقة للصحابة - رضي الله تعالى عنهم - حاثّاً إياهم على الصبر والتحمُّل، وتقديم التضحيات، وذلك منذ فترة

---

(١) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٣).

(٢) يذكر الواقدي في رواية أخرى، أنه حينما دنا كعب وأصحابُه من القوم، رآهم عيناً لهم، فأخبرهم بقلَّة أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءوا على الخيول فقاتلوهم (مغازي ٢/ ٧٥٣).

(٣) تحامل: تكلَّف ما لا يطيق. (القاموس: حمل).

(٤) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٣).

مبكـرة جـداً ، وبالـتحديد في مكـة حينما أثقلت قريش من وطئتها على المسلمين المستضعفين في مكة ، فجاءوا يستنجدون بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] .

- سرية شجاع بن وهب إلى جمع من هوازن:

وفي ربيع الأول مـن العام الثامن للهجرة بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية من أربعـة وعـشرين رجـلا بإمـرة شـجاع بـن وهب إلى جمع من هوازن «بالسيّ» من أرض بـني عامـر ناحـية «ركـبة» فأغاروا عليهم ، فأصابوا نعما كثيرا وشاء وسبيا وعـادوا بعـد خمـس عـشرة لـيلة ، وجـاء في أثـرهم وفـد القوم إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم فرد المسلمون السبي [2] .

- سرية زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مدين [3] :

لم تُحَـدِّد المـصادر تاريخـاً محدَّداً لهذه السرية ، ولكن يمكن أن نستنبط لها تاريخاً تقـريبياً من خلال سير أحداث السرية النبوية المباركة ، حيث يمكننا الجزم بأنَّ هذه السرية كانت قبل غزوة مؤتة بلا شك ، وذلك في فترة هدنة الحديبية ، وهي الفترة التي زاد فيها نشاط السرايا والبعوث النبوية في المنطقة الشمالية من الجزيرة .

إذ أنَّ قائـد الـسرية زيـد بـن حارثـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كـان مـن قـادة مـؤتة الـذين

---

(1) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٢٢٧ .

(2) البخاري - الـصحيح (الفتح حـديث ٣١٣٤) ، (حديث ٤٣٣٨) ، مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٦٨ (حـديث ١٧٤٩) ، الـواقدي ٢/ ٧٥٣ - ٧٥٤ ولم يذكـر اشتراك عبد الله بن عمر فـيها كما لم يذكر ما أصاب المشاركين في السرية من الغنيمة ، وانظر ابن سعد ٢/ ١٢٧ من رواية الواقدي ، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ٢٦٧ .

(3) مَـدْيَن: تقـع غـرب تـبوك ، بينها وبـين خليج العقبة ، فإذا كان المقصود مدينة شعيب فهي تُعْـرَف اليوم باسم البدع ، وتقع على (٢٢٠) كيلو من تبوك ، يصل بينهما طريق معبَّد ، أمَّا إذا كـان المقـصود ديـار القبيلة فإنَّ الموقع والحدود تتأثر بسعة انتشار تلك القبيلة وتقلُّصها ، فـإذا ثـبت أنَّهـم من جذام كانت تمتد من ساحل البحر إلى قُرب تبوك ، ثُمَّ تدخل في الشراة شمالاً ، وتقرب من ضبة جنوباً" .
وأرض مـدين تُحَدُّ من الشرق بسراة حسمى ، ومن الغرب بالبحر ، ومن الشمال حقل أو العقـبة ، أمَّـا مـن الجنوب فلا تتجاوز ضِبة أو دونها والبِدع ، قرية تتوسط أرض خالية من العمـران ، فأقـرب قـرية تـبعد عـنها قرابة ستين كيلو ، وهي - أيضاً - تتوسط وادي عفال الخالـي مـن الـزراعة والحياة إلاَّ مـن هـذه القـرية ، وهي ذات زراعة لا بأس بها على آبار ضخ ، وفيها سكان وحوانيت ومقاهٍ ، وسكانها الحويطات ، وجُلُّهم من المساعيد" .
البكـري: معجـم ٤/ ١٢٠١ ، الحمـوي: معجـم ٥/ ٧٧ - ٧٨ ، الـبلادي: رحلات في بلاد العرب ، في شمال الحجاز والأردن ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣١ ، ١٣٨ .

استشهدوا بها[1].

فقبل معركة مؤتة الشهيرة، بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِبَّه ومولاه زيد ابن حارثة - رضي الله تعالى عنه - إلى منطقة مَدْيَن، وبالتحديد إلى بلدة مقنا على ساحل البحر الأحمر، في سرية لم تذكر الروايات قوَّتها".

واستطاع زيد - رضي الله تعالى عنه - التوغُّل في تلك المنطقة البعيدة عن قاعدة المسلمين، ومناطق نفوذهم، ونجح - رضي الله تعالى عنه - في الإغارة عليهم، فأصاب منهم سبايا، منهم ضميرة" وأخوه، وأُمُّه، وأبوه، فجاء بهم زيد - رضي الله تعالى عنه - إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيعهم، فخرج إليهم وهم يبكون، فقال لهم: «**مِمَّ تبكون؟**» قالوا: "فرّقنا بينهم وهم إخوة". فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تفرِّقوا بينهم، بيعوهم جميعاً**». كما أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بأُمِّ ضميرة وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيكِ؟**» قالت: "يُفَرَّق بيني وبين ابني". فقال: «**لا يُفَرَّق بين الوالدة وولدها**»، ثُمَّ أرسل إلى الذي ضُمَيرة عنده فدعاه فابتاعه منه ببكر فوهبه بعد ذلك لعلي، قال: "فكان خازناً له، قال: "وولد له[2].

وذكرت المصادر، الكتاب الذي كتبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ضميرة، وفيه: "أنَّهم كانوا أهل بيت من العرب، وكان مِمَّن أفاء الله على رسوله فأعتقهم، ثُمَّ خيَّر أبا ضميرة إن أحب أن يلحق بقومه فقد أمَّنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّ أحبَّ أن يمكث مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكون مع أهل بيته، فاختار أبو ضميرة الله ورسوله، ودخل في الإسلام، فلا يعرض لهم أحد إلاَّ بخير، ومَن لقيهم من المسلمين، فليستوصِ بهم خيراً، وكتب أُبيُّ بن كعب"[3].

---

(١) حيث أن سرية مؤتة قد أرسلت في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية فمن المتوقع أن يكون تاريخ إرسال سرية زيد هذه في ربيع الآخر من ذلك العام حيث أن زيد بن حارثة استشهد في مؤته كما هو ثابت في المصادر.

(٢) ابن حجر - فتح الباري (شرح الحديث ٤٣٣٨)، الطبري - تاريخ ٣/ ٣٤، الواقدي - مغازي ٢/ ٧٧٧، ابن سعد - الطبقات ٢٠/ ١٣٢.

ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٧٥ - ٦، وعن أحاديث التفريق هذه انظر: ابن حجر - الاصابة ٢/ ٢٠٦، عبد الرزاق الصنعاني - المصنف ٨/ ٣٠٧، الألباني - صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٤ - ٢٥، أبو داود - السنن ٣/ ١٤٤ - ١٤٥ (حديث ٢٦٩٦)، الدارمي - السنن ص/ ٣٢٧، البيهقي - السنن ٩/ ١٢٦.

(٣) ابن حجر (إصابة ٢/ ٢١٤، ابن سعد - الطبقات ٢٠/ ١٣٢.

غزوة مؤتة:

اختلف الرواة والإخباريون والمؤرِّخون، ومَن نَقَلَ عنهم من المتأخرين مِمَّن كتب عن مؤتة [(١)] في هذه المعركة العظيمة: هل هي غزوة، أو سرية؟ فبينما وردت تسميتها في بعض الروايات بغزوة جيش الأمراء[(٢)]، أطلق عليها بعضهم وقعة مؤتة[(٣)]، فيما تردَّد آخرون بين كونها غزوة أو سرية[(٤)]، على أنَّ أكثر أهل المغازي والسيرعلي أنها غزوة [(٥)]

وينفرد الواقدي بذكر السبب المباشر لهذه الغزوة، وهو أنَّ شرحبيل بن عمرو الغساني قَتَل صبراً الحارث بن عمير الأزدي الذي أرسله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ملك بصرى بكتابه، وكانت الرسل لا تُقْتَل، فغضب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرسل الجيش إلى مؤتة، والواقدي ضعيف لا يُعْتَمَد عليه وبخاصّةً إذا انفرد بالخبر[(٦)]، وقد أيده وقد تبعه في كُلٍّ من: ابن سعد[(٧)]، وابن سيد الناس[(٨)]، والقسطلاني[(٩)]، وابن القيم[(١٠)].

والبعض يذكر سبباً آخر، وهو النتيجة التي آلت إليها سرية ذات أطلاح[(١١)]،

---

(١) بالقرب من البلقاء دون دمشق انظر: فتح الباري ٧/ ٥١٠ - ٥١١، السهيلي: الروض ٧/ ٣١، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٢٨.

(٢) قال الزرقاني (شرح ٢/ ٢٦٧): وفي بعض الروايات تسميتها غزوة جيش الأُمراء، وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها، وما لاقوه من الحرب الشديدة مع الكفّار.

(٣) ابن خياط: تاريخ ٨٦، الذهبي: العبر ١/ ٩.

(٤) قال البنا (الفتح الرباني ٢١/ ١٣٦) باب ما جاء في سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة، من أرض الشام، في جمادى الأولى سنة ثمان، ويقال لها غزوة مؤتة. وعنْوَن لها ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤١) بغزوة مؤتة، ثُمَّ قال: وهي سرية زيد بن حارثة... إلخ.

(٥) ابن هشام: سيرة ٢/ ٣٧٣، الواقدي: مغازي ٢/ ٧٥٥، الطبري: تاريخ ٣/ ٣٦، ابن عبد البر: درر ٢٢٢، أبونعيم: دلائل ٢/ ٥٢٨، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٥٨، ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٣٤، ابن سيد النَّاس: عيون ٢/ ١٩٨، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، السهيلي: الروض ٧/ ٣١، ابن القيم: زاد ٢/ ١٥٥، الأشخر اليماني: بهجة ١/ ٣٩٠).

(٦) د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٦٧.

(٧) الطبقات ٢/ ١٢٨.

(٨) عيون الأثر ٢/ ١٩٨.

(٩) المواهب ١/ ٥٤٩.

(١٠) زاد المعاد ٣/ ٣٨١.

(١١) انظر: (با شميل: غزوة مؤتة ٢٥٣، ياسين سويد: معارك خالد ١٦٨، أحمد عادل كمال:

بينما يستند بعضهم على رواية أُخرى ضعيفة[1]، مفادها أنَّ صاحب مدينة بصرى[2] رفض ما جاء في رسالة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، وهدَّد بالمسير إلى المسلمين بجيوشه وغزوهم في عقر دارهم "فتهديده بالمسير إلى المسلمين يقتضي ردّاً على مستوى التحدي، فكانت غزوة مؤتة"[3].

ويذكر أبو زهرة، عن شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه ذكر في رسالة القتال: "أنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بعث إلى حرب الروم في مؤتة إلاَّ بعد أن قَتَل الوالي الروماني مَن أسلم في الشام"[4].

والحق أنَّ البحث عن الأسباب المباشرة لغزو القبائل العربية في أطراف الشام لا يؤثر على تفسير الأحداث كثيراً، لأنَّ تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار في إخضاع القبائل العربية وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية بصرف النظر عن الأسباب المباشرة[5].

فهذه الغزوة كما يقول ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى - كانت إرهاصاً لِمَا بعدها من غزو الروم، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6].

ويُكاد يتَّفِق أهل المغازي، وأهل الحديث - مِمَّن روَى منهم أحداث وقعة مؤتة - على أنَّ تاريخ الوقعة كان في جمادى الأولى من السَّنة الثامنة من مهاجر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[7].

الطريق إلى دمشق ١٤٥).

(١) الطبري (تاريخ ٢/ ٦٥٢).

(٢) مدينة بصرى: من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، وهي في منتصف المسافة بين عمَّان ودمشق، وبصرى اليوم آثار قرب مدينة درعة التي احتلت محلها، حتى ظنَّ بعض الناس أنَّها هي، وبصرى، ودرعة، داخل حدود الجمهورية السورية على أكيال من حدود المملكة الأردنية الهاشمية.
انظر: ياقوت: معجم ١/ ٤٤١، البلادي: معجم ٤٣ - ٤٤.

(٣) منير غضبان، فقه السيرة ٥٤٤.

(٤) خاتم النبيين، ٢/ ١١٣٩.

(٥) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٦٧.

(٦) الفصول في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٩٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٤٩.

(٧) ابن هشام: سيرة ٤/ ٣٧٣، الطبري: تاريخ ٣/ ٣٦، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٥٨، ابن حجر، فتح ٧/ ٥١١)،، الهيثمي (مجمع ٦/ ١٦٠)، الشامي، سبل٦/ ٢٢٨،، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ١٩٨، القسطلاني، المواهب ١/ ٥٤٩، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، ابن القيم، زاد

فلما ندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاس إلى مؤتة استجاب له حوالي ثلاثة آلاف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(١)].

وهو أكبر جيش إسلامي يتم حشده حتى ذلك الوقت، فإنَّ جيش المسلمين في الحديبية، ثُمَّ في خيبر - وهما الغزوتان اللتان سبقتا مؤتة - لم يتجاوز حاجز الألفين[(٢)]، مِمَّا دلَّل على نجاح صلح الحديبية عملياً، وأنَّ قوة المسلمين في تنامي وتزايد مستمر، بل إنَّ بعض الروايات ذكرت أنه تمَّ حشد ستَّة آلاف من المهاجرين والأنصار[(٣)].

وفي الجرف[(٤)]، عسكر الجيش الإسلامي كالعادة، وكان القائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أصدر أوامره الشريفة بإسناد قيادة الجيش لمولاه وحبِّه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: **«إنْ قُتِلَ زيد، فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر، فعبد الله بن رواحة»**[(٥)] وعند البيهقي: **«فإن أُصيب فليرتض المسلمون رجلاً، فليجعلوه عليهم»**[(٦)].

قال أبو قتادة - رضي الله تعالى عنه: "فوثب جعفر، فقال: "يا رسول الله! ما كنت أرهب أن تستعمل عليَّ زيداً، فقال: **«امض فإنَّك لا تدري أي ذلك خير»**[(٧)].

٣/ ٣٨١، الحلبي، سيرة ٣/ ٧٨٦).

(١) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٥)، ابن هشام، سيرة ٤/ ٣٧٣، الطبري، تاريخ ٣/ ٣٦، البيهقي، دلائل ٤/ ٣٥٨)، ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٨).

(٢) عوض الشهري، مرويات غزوة خيبر، ص ٢٠٦ - ٢٠٨، والحكمي، مرويات غزوة الحديبية ٥١.

(٣) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٥٩.

(٤) الجُرْف - بالضم ثُمَّ السكون - ما تجرَّفته السيول فأكلته من الأرض، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة، به كانت أموال لعمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه، ولأهل المدينة. وقيل: سُمِّيَ الجُرْف، لأنَّ تُبَّعاً مرَّ به، فقال: هذا جرف الأرض، وكان يُسَمَّى: العرض، وكان الجرف في عهد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابة معسكر للجيوش النبوية. والجُرف اليوم من أحياء المدينة الشمالية الكبيرة، يمتد من مزارع العيون شرقاً، حتَّى طريق المدينة تبوك غرباً. انظر: ياقوت: معجم ١/ ١٢٨، السمهودي: وفاء: ٤/ ١١٧٥).

(٥) أخرجه البخاري (الصحيح ١/ ٨٧).

(٦) البيهقي (الدلائل ٤/ ٣٥٩).

(٧) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، وأحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري (التاريخ ٣/ ٤٠).

ويبدو أنَّ بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد تكلَّم في إمرة زيد وتقديمه على غيره، فوضَّح لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانة زيد - رضي الله تعالى عنه - وأحقيته بالإمارة، وأنَّه مِن أحبِّ الناس إليه[1]، فسمعوا وأطاعوا".

ذلك هو مبلغ تقدير النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكفاءة زيد القيادية، وثقته الكاملة به، وهو تقديرٌ عظيمٌ، وثقةٌ بالغةٌ، واعتمادٌ هائلٌ استحقَّه زيد بمزاياه القيادية أولاً وقبل كل شيء، فما كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يولي ثقته الكاملة إلاَّ لمن يستحقها بجدارة، وقد لمسنا شجاعة زيد في الغزوات التي شهدها مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي سراياه التي قادها، ولمسنا شجاعته في الواجبات الأخرى التي ألقاها على عاتقه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استصحاب بناته وزوجته في الهجرة، في وَسَطٍ يعُجّ بالأعداء والحاقدين والموتورين من المشركين".

لقد قضى الإسلام مع ما قضى عليه من تقاليد الجاهلية، على الأنفة من تأمير مَن لم تُقَدِّمه السن، والاستمساك بِعُرَى التَّفاضُل بالأنساب والأحساب والعشائر والقبائل".. إنَّ التَّفَاضُلَ في الإسلام يخضع للتقوى وصالح الأعمال، بالإضافة إلى الكفايات المناسبة للعمل المناسب، وقد رفعت مزايا زيد القيادية، وإيمانه الراسخ العميق إلى الإمارة[2]".

وتجدرُ الإشارة أنه لأوَّل مرَّة في تاريخ غزوات النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسراياه يتم تولية أُمراء بالترتيب، "وما ولَّى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وقعة مؤتة ولا ولَّى بعدها ثلاثة قادة أو قائدين على سرية واحدة، ولكن بُعْد نظره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتقديره لأهمية هذه السرية وخطورتها هو الذي جعله يولِّي ثلاثة قادة على سرية واحدة، مرَّة واحدة فقط في حياته العسكرية كلها"[3].

وربَّما كان ذلك احتياطاً منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان متوقعاً أن تحُفَّ الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسياً[4].

---

(١) البخاري (الصحيح ٤/ ٢١٣)، وينصُّ ابن حجر (فتح ٧/ ٨٧) على أنَّ ذلك كان في مؤتة.

(٢) خطَّاب، القادة الشهداء في مؤتة، ٦٠ - ٦٤.

(٣) خطَّاب، القادة الشهداء ١١٤ - ١١٥.

(٤) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيح ٢/ ٤٦٧.

والذي حدث أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقد لهم لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، فتجهَّز الناس، وتهيؤوا للخروج [1].

وخرج معهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى بلغ ثنية الوداع [2]، وهناك أوصاهم قائلاً: **«اخرجوا باسم الله، فقاتلوا في سبيل الله عدوّ الله وعدوّكم، إنَّكم ستدخلون الشام فستجدون رجالاً في الصَّوامِع [3] معتزلين النَّاس فلا تعرضوا لأحدٍ منهم إلاَّ بخيرٍ، وستجدون آخرين للشياطين في رؤوسهم مفاحص [4]، فافلقوا هامهم [5] بالسيوف، لا تَقْتُلُنَّ كبيراً ولا فانياً، ولا صغيراً ضرعاً [6]، ولا تَقْتُلُنَّ امرأةً، ولا تُعْزِقُنَّ [7] نخلاً»** [8].

لقد تضمنَّت تلك الوصية أرقى قانون للحرب العادلة، قانون عجزت حتى الآن كُلّ النُّظُم والتشريعات أن تصل إليه من حيث الإنصاف في معاملة الأعداء، واجتناب الأعمال اللاإنسانية من التعرُّض للنساء والأطفال والعَجَزَة، ورجال الدين المعتَزلين بأي نوعٍ من أنواع الأذى، لقد كانت توصيات في الآداب الحربية، ودروس في الشرف العسكري، وأُسُس راسخة في المعاملة الإنسانية، والرأفة بغير المحاربين من النساء والشيوخ والأطفال، وتربيات عالية شريفة ما سمعت ولا دعت أُمة مثلها منذ فجر التاريخ حتى اليوم من غير سيد البشر محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

إنَّ أرقى الأُمم في العصر الحاضر لا تزال في مجال محاولاتها الالتزام بقانون الشرف العسكري، لا تزال تحبو حبواً إذا ما قِسْنَا محاولاتها بما وضعه الرسول

(١) ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٧).
(٢) ثَنِيَّة الوَدَاع - بفتح الواو - وهي اسم من التوديع، وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها مَن يريد الشام، واختلف في سبب تسميتها بذلك، والأشهر والصحيح أنه اسم جاهليّ قديم سُمِّيَ لتوديع المسافرين، وكان اسمها قديماً ثنية الركاب، وكانت هذه الثنية بين مسجد الراية، وقبر النَّفْس الزكية جوار سلع، وقد هُدِمَت اليوم وأُزيلَت بكاملها مع المسجد، وأُقِيمَ مكانها مدخل نفق المناخة من جهة الشمال. العباسي: عمدة الأخبار، ٢٨٣).
(٣) جمع صومعة، وهي مكان عبادة الرهبان من النصارى.
(٤) أي أنَّ الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص، كما تستوطن العصافير أعشاشها. (ابن الأثير، النهاية ٣/ ٣٨٥).
(٥) الهامة: رأس كل شيء. والمعنى: اضربوا رؤوسهم بالسيوف.
(٦) أي الصغير الضعيف.
(٧) أي: لا تقطعن. والعزق: القطع.
(٨) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٨) ابن الأثير في (النهاية ٣/ ٤١٥).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته هذه من قواعد راسخة لقانون الشرف العسكري"[١].

ثُمَّ ودَّع النَّاس أمراء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسلَّموا عليهم، فلمَّا ودَّعوا عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - بكى، فقالوا: "ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: "أما والله ما بي حُب للدُّنيا، ولا صبابة إليها، ولكني سمعت الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟!فقال المسلمون: "صحبكم الله، وردَّكم إلينا صالحين، ودفع عنكم". قال ابن رواحة:

لكنَّني أسأل الرحمن مغفرةً ::: وضربةً ذات فرغ تقذف الزبدا[٢]
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ::: بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا[٣]
أو طعنةً بيدى حران مجهزة ::: أرشده الله من غازٍ وقد رشدا[٤]

ثُمَّ أتى عبد الله بن رواحة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فودَّعه، فقال:

وثبَّت الله ما آتاه من حسن ::: تثبيت موسى ونصراً كالذي نصرا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ::: والله يعلم إني ثابت البصرا
إني تفرَّسْتُ فيك الخير نافلة ::: والوجه منك فقد أزرى به القدرا[٥][٦]

ثم تحرَّكت القوات الإسلامية من المدينة صوب الشام ويذكر الواقدي أنَّهم نزلوا وادي القرى في طريقهم إلى الشام، وأقاموا أيَّاماً[٧]، ولكن أنباء حركتهم وصلت إلى الروم قبل وصول المسلمين إليهم، فنذروا وجمعوا لهم جموعاً كثيرة من الروم وحلفائهم من القبائل العربية الشامية المتنصرة[٨].

هذا وقد اختلفت الروايات فيهم، وفي عدَّتهم فذكر أنَّهم كانوا مائة ألف من الروم، "وانضم إليهم من لخم[٩]، وجذام،

---

(١) با شميل، غزوة مؤتة ٢٦٢ - ٢٦٤.
(٢) ذات فرغ: يعني ذات سعة. الزبدُ: رغوة الدم.
(٣) رجل حرَّان: عطشان، أي متعطِّش للقتل. مجهزة: سريعة القتل.
(٤) الجدث: القبر.
(٥) نافلة: هبة من الله. وأزرى به القدرا: أي قصد به.
(٦) أبو نعيم، الحلية ١/ ١١٨.
(٧) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٦٠.
(٨) خطَّاب، الرسول القائد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٠٥، ٣٠٧.
(٩) لَخْم - بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة - وهم من بني كهلان بن سبأ، وكان لهم مُلْك بالحيرة، ثُمَّ كان لبقاياهم مُلك بأشبيلية، ومن لخم بني الدار، ومنهم تميم الداري

والقين[1]، وبَهْرَاء[2]، وبليّ، مائة ألف منهم[3]".

ولم تُحَدَّد بعض الروايات العدد، وإنَّما ذكرت أنَّهم جموع كثيرة من الروم، ونصارى العرب من قضاعة، وتنوخ، وبهراء، وغيرهم من نصارى العرب[4]".

وهذا ما ذكره بعض المؤرخين[5]". في حين وصفهم خليفة بن خياط[6] بأنَّهم جموع هرقل دونما تحديد".

والحقيقة أنَّ المبالغات التي أعقبت هذه المعركة، كثَّرت من عدد العدو وجعلته يبلغ هذا الرقم الخيالي[7]، وإن كان بمستطاع القبائل العربية الضاربة في المنطقة أن تؤلف مع الجيش الروماني قوة ضخمة، ولكنَّ الأمر لم يكن على تلك الدرجة البالغة من الخطورة، "فإنَّ الحملة الإسلامية كانت مكوَّنة من ثلاثة آلاف، وأنَّ أنباء مسيرها كانت معروفة، فلا يمكن أن يوجه إليها الروم مثل هذا العدد الحاشد من الجيوش، على أنَّ هذه الأعداد الضخمة لم تستخدمها بيزنطة في قتالها مع الفرس[8]".

فقد ذكرت المصادر أنَّ جيش هرقل الذي أعاد به كرامة الإمبراطورية البيزنطية عندما هزم جيوش كسرى، حتى استطاع دخول المدائن، كان لا يزيد

الصحابي. (القلقشندي، قلائد الجمان ٦٩).

(١) بنو القين قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسبون إلى القين بن جسر، ووهم ابن التين، فقال: بنو القين قبيلة من تميم. (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب٤٢٤، ابن حجر، فتح ٨/ ٧٤).

(٢) بَهْرَاء: وهم بنو بهراء بن الحافي بن قضاعة، والنسبة إليهم بَهْرَائي، ومنهم جماعة من الصحابة منهم المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه، وكان بينهم وبين اللخميين ملوك الحيرة حروب. (القلقشندي، قلائد الجمان ٤٩).

(٣) ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٣٥. الطبري، تاريخ ٣/ ٣٧، البيهقي، دلائل ٤/ ٣٦٠، ابن عبد البر، الدرر ٢٢٢، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ١٩٨، ابن القيم، زاد٣/ ٣٨١، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٣، ابن حزم، جوامع ٢٢٠، العامري، بهجة١/ ٣٩٠، الحلبي، سيرة ٢/ ٧٨٦.

(٤) ابن حجر، الإصابة ٣/ ٣٠١).

(٥) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، وأحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري (التاريخ ٣/ ٤٠.

(٦) تاريخ خليفة، ص ٨٦ - ٨٧.

(٧) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة ٢٩٦.

(٨) الشريف، مكة والمدينة ٥٣٤.

عدده عن سبعين ألفاً[1]".

"ولم يستخدم الروم هذه الأعداد، إلاَّ فيما بعد عندما اشتبكوا مع الدولة الإسلامية اشتباكاً حقيقياً خطيراً".

لذلك فإنه من الأصوب الأخذ بروايات الزُّهري، وابن عقبة، وابن عائذ، التي لم تُحَدِّد القوَّات بعددٍ معيَّن، وإنَّما ذكرت أنَّهم جموع كثيرة "وكلّ ما يمكن تصوُّره أنَّ قوَّة العدو كانت أكبر منْ قوَّة المسلمين، أو أنَّها كانت أضعافها"[2].

ويعتقد الجنرال أكرم أنَّها ربَّما كانت تتراوح بين عشرة آلاف، وخمسة عشر ألفاً[3].

إنَّ التحديد الذي وردَ في بعض الروايات التي ذكرناها بتلك الأعداد الضخمة، ربَّما كان اجتهاداً من بعض الرواة والإخباريين، أو حتى بعض شهود العيان الذين ربَّما نقل عنهم عروة وغيره من المؤرِّخين.

كما لم تزودنا المصادر البيزنطية بمعلوماتٍ وافرة عن الأحداث التي كانت بين بيزنطة والمسلمين، بما في ذلك أحداث معركة مؤتة، فنستطيع من خلالها معرفة عدد الجيش البيزنطي والحلفاء فيها، حيث كان الاعتماد على المصادر الإسلامية في ذلك، والتي نادراً ما تخطئ في وصف الأحداث، لاعتمادها على الإسناد الذي يصل في كثيرٍ من الأحيان إلى شهود العيان، أو حتَّى المشاركين في تلك الأحداث، وتلك عمليةٌ دقيقة ومرتَّبة لم يُسْبَق المسلمون فيها أبداً، بل لم تعرفها أُمة من الأُمم على الإطلاق، غير الأُمة الإسلامية.

ولكن حتَّى شهود العيان والمشاركون في صميم الأحداث لا يستطيعون في بعض الأحيان التعرُّف بدقة على عدد جند العدوّ[4].

---

(١) انظر: "الطبري، تاريخ ٢/ ١٨٣، الكندي، فتوح مصر، ص ٣٥، أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق ٣٩".

(٢) الشريف: مكة والمدينة، ص ٥٣٤.

(٣) الجنرال أكرم، سيف الله خالد بن الوليد ١٠٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٨٠.

(٤) في غزوة بدر العظمى ابتكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقة ذكية عَرَفَ من خلالها عدد جيش قريشٍ، حيث سأل الأسرى الذين أمسك بهم المسلمون: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشرة، ويوماً تسعة. قال القوم: ما بين الألف والتسعمائة. أحمد: المسند ٢/ ١٩٣، والواقدي: مغازي ١/ ٥٣).وانظر: العليمي، مرويات غزوة بدر ٩٩.

بـل يعتمدون أحياناً على الحدس والتخمين في إحصاءاتهم لجيوش الأعداء، لأنـه لم تكـن هـنالك إحصاءات دقيقة معلومة عن عدد الجند والجيوش، كما هو الحال اليوم[1].

وربَّما أنَّ بعض شهود معركة مؤتة من المسلمين شاهدوا تلك الكثافة العَدَدِيَّة والعُدَدِيَّـة مـن الجند الروماني المجهَّز بأحدث الأسلحة والعتاد، فهالهم ذلك المنظر الذي لم يتعوَّدوه من قبل، فقدَّروا عددهم اجتهاداً، ذلك التقدير الضخم.

فعـن أبـي هريـرة - رضـي الله تعـالى عـنه - قـال: شهدت مؤتة، فلمَّا رأينا المشركين، رأينا ما لا قِبَل لنا به من العدد والسلاح والكراع، والديباج، والحرير، والـذهب، فـبرق بـصري، فقال لي ثابت بن أرقم: "يا أبا هريرة، مالك؟! كأنَّك تـرى جمـوعاً كـثيرة، قلـت: "نعـم". قـال: "إنَّـك لم تشهد بدراً معنا، إنَّا لَم نُنصَر بالكثرة[2]".

ومهما قيل في مبالغة الذين سجَّلوا تعداد الروم وحلفائهم، فإنَّ الحقيقة تبقى واضـحة للدارسين بأنَّ الرُّوم وحلفاءهم كانوا أضعاف تعداد المسلمين، كما أنَّهم يقاتلـون في بلادهم دفاعاً عنها، بينما يقاتل المسلمون بعيداً عن قاعدتهم الرئيسية المديـنة، وبـذلك تكـون المـزايا العسكرية في التفوُّق العَدَدِيّ والعُدَدِيّ، وفي قرب قواعد الروم إلى قوَّاتهم المقاتلة، هذه المزايا مع الروم على المسلمين بلا مراء[3].

وفي مـآب من البلقاء[4]، احتشدت جيوش الحلفاء من الروم والقبائل العربية المتنـصرة، فلمَّـا علـم المسلمون بأمر جموعهم المتفوقة عليهم فواقاً ساحقاً، أقاموا على معان[5] ليلتين يفكرون في أمرهم، واستشار زيد بن حارثة - رضي الله تعالى

---

(١) بـل إنَّ الكثير من دول العالم اليوم لا تُعْطِي إحصاءات دقيقة وصحيحة لجيوشها لاعتبارات أمنية. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٨١.

(٢) الواقدي، مغازي ٢/ ٦٧٠.

(٣) خطَّاب، القادة الشهداء ١٨٠، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٨٢.

(٤) مآب: وهي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، افتتحها أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه في خلافـة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه سنة ثلاث عشرة، وجاء في تقويم البلدان: أنَّ مـآب مديـنة قديمـة قد بادت، وصارت قرية تُسَمَّى الربة، وهي من معاملة الكرك على أقـل مـن نـصف مـرحلة إلى الشمال منها، وهي اليوم قرية صغيرة حيَّة من محافظة الكرك. انظر: الحموي، معجم ٥/ ٣١، الملك المؤيد، تقويم البلدان ٤٧.

(٥) معـان: مدينة في أطراف الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، وهي عاصمة إقليم الشراة، ومفترق طرق. ومعان اليوم إحدى مدن الأردن المزدهرة، ويبلغ عدد سكانها حوالي خمسة

عنه - أصحابه، فقال له بعضهم: "نكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنخبره بعدد عدونا، فإمَّا أن يُمدَّنا بالرجال، وإمَّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له"[(١)].

ويذكر الوليد بن مسلم أنَّ بعضٍ المسلمين نصح زيد بالانصراف، مكتفياً بما حقَّقه من مكاسب معنوية، قائلاً له: "قد وطئت البلاد، وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء، وعبد الله بن رواحة ساكت، فسأله زيد عن رأيه فقال: "إنَّا لم نسر إلى هذه البلاد ونحن نريد الغنائم، ولكنَّا خرجنا نريد لقاءهم، ولسنا نقاتلهم بعددٍ ولا عُدَّة، فالرأي المسير إليهم".

"فشجَّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: "يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة وكثرة، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنَّما هي إحدى الحسنيين، إمَّا ظهور، وإمَّا شهادة، قال: "فقال الناس: "قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس". وقبل زيد رأيه وسار إليهم[(٢)].

إنَّ تشجيع عبد الله بن رواحة المسلمين على قتال الروم وحلفائهم، واستجابة المسلمين لهذا التشجيع، له دلالة لا يُمكن أن يختلف فيها اثنان، هي أنه كان يثق ثقةً عالية برجاله، وأنَّ رجاله كانوا يثقون به ثقةً مُطْلَقة، والثقة المتبادلة بين القائد ورجاله من أهمِّ مزايا القائد المتميِّز، ولا يمكن أن يثق الرجال بقائدهم ثقةً مُطلَقة عفواً وبدون أسباب، كما أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يولي المراكز القيادية إلاَّ لأشخاص لهم مؤهلات عالية، ومزايا واضحة المعالم، فقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحرصُ أعظم الحِرْص على تولِّي الرجل المناسب للعمل المناسب، تطبيقاً لتعاليم الإسلام في الولاية، وثقة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعبد الله بن رواحة، وثقة رجال عبد الله بن رواحة به، أسبابها وحوافزها واحدة، وهي تَمَتُّع عبد الله بن رواحة بالإضافة إلى عمق إيمانه، بمزايا قيادية أهَّلته لأن يكون أحد قادة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]".

وعشرين ألف نسمة، وجديرٌ بالذِّكر أنَّ معان تبعد عن المدينة المنورة حوالي (٨١٠) كيلومتر، وعن مؤتة حوالي (١٥٠) كيلومتر. انظر: البكري، معجم ٤/ ١١٧٢ - ١٢٤١، الحموي، معجم ٥/ ١٣٥، البلادي، معجم ٣٠٠.

(١) ابن هشام (سيرة٤/ ٣٧٥).

(٢) ابن هشام، سيرة٤/ ٣٧٥.

(٣) خطَّاب، القادة الشهداء ١٨٢ - ١٨٣.

ويعتقد بعض المحلِّلين والمنَظِّرين العسكريين، وغيرهم من المؤرِّخين المعاصرين، أنَّ تشجيع عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - للمسلمين، واندفاعه بهم نحو العدوّ، رغم تفوقهم العددي، وقُرْب قواعدهم، كان مغامرة خطرة، ومجازفة مهلكة، وخطأً عسكرياً فادحاً، وذلك بموجب المقاييس المادية[1]".

ولكن المقاييس المادية تُطَبَّق على الذين يعتمدون الوسائل المادية وحدها في حروبهم، أمَّا الذين يحاربون حرباً عقديَّة، جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن عقيدتهم، وعن حُرِّية انتشارها، فلا تُطَبَّق عليهم المقاييس المادية وحدها، التي تُطَبَّق على غيرهم في حروبٍ استثماريَّةٍ أو توسُّعيَّةٍ من أجل أمجادٍ شخصيةٍ، وأحقاد عنصرية أو طائفية، وعلى ذلك فلا تُطَبَّق هذه المقاييس المادية على أمثال عبد الله بن رواحة، لأنَّهم كانوا يخوضون حرباً عقديَّة لا دخل للمادَّة فيها من قريبٍ أو بعيد، وإلاَّ فماذا يمكن أن يُقال في غزوة بدر الكبرى الحاسمة، بالنسبة للمقاييس المادية وحدها، وكان تفوُّق المشركين على المسلمين بنسبة ثلاثة على واحد في الأشخاص، وبنسبة مائة على واحد بالخيل، والخيل أنجح سلاح في الحروب القديمة؟!

لقد حرَّض عبد الله بن رواحة المسلمين على القتال لأغراض عقديَّة، فكان تحريضه خطأً بالنسبة للمقاييس المادية، ولكنه كان عين الصَّواب بالنسبة للجهاد والحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك[2].

ولكي نعرف مدى اندفاع عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - وحماسه لخوض حرب عقائدية إيمانية هدفها إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، وإعزاز دينه، وأقصى ما يتمناه فيها هو نيل شرف الشهادة، وبذل روحه رخيصة في سبيل الله عزَّ وجلَّ، يحدِّثنا زيد ابن أرقم - رضي الله تعالى عنه - وكان من المشاركين في مؤتة - قال: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو يُنشِد أبياته هذه:

إذا أويـتني وحملـت رحلـي ::: مسيرة أربعٍ بعد الحساء[3]

---

(١) خطَّاب، القادة الشهداء ١٨١، الغزالي، فقه السيرة ٣٦٦، باشميل، غزوة مؤتة ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) خطَّاب، القادة الشهداء، ص ١٨٢ - ١٨٣، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٩٤.

(٣) الحساء: جمع حسى، وهو ماء يغور في الرمل، وإذا بُحِثَ عنه وُجِد.

وجـــاء المـــسلمون وغـــادروني ::: ولا أرجـــع إلى أهلـــي ورائـــي[١]
فـــشأنك أنعـــم وخـــلاك ذم ::: بـــأرض الـــشام مـــشتهى الـــثواء[٢]

في أبـيات"... قـال: "فلمَّـا سمعـتهنَّ مـنه بكـيت". قـال: "فخفقـني بالـدرة[٣]، وقـال: "ما عليك يا لُكع[٤] أن يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شعبتي الرحل[٥]"[٦]".

وكمـا اندفـع عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - بفورة حماس إيمانية زخمة، اندفع - أيضاً - بفورة حماس شاعرية رائعة، راح يُصَوِّر فيها مقام المسلمين في معان، ثُمَّ انطلاقهم بقوة وحماس إيماني نحو عدوهم المتربص في مآب:

جلبـنا الخـيل مـن أجـام قرح[١٣] ::: تغـر مـن الحـشيش لهاالعكـوم[٧]
عـــبأنا أعنـــتها فجـــاءت ::: أزل كـــأنَّ صـــفحته أديم[٨]
فـــلا وأبي مـــآب لنأتيـــنها ::: فأعقـــب بعـــد فتـــرتها جمـــوم[٩]
فـــرحنا والجـــياد مـــسومات ::: تـــنفس في مناخـــرها الـــسموم[١٠]
أقامـــت ليلـــتين علـــى معـــان ::: وإن كانـــت بهـــا عـــرب وروم
حـــذوناها مـــن الـــصوان سـبتاً[١٤] ::: عـــوابس والغـــبار لهـــا بـــريم[١١][١٢]

---

(١) قوله: ولا أرجع، فهو مجزوم على الدعاء، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله.
(٢) الثواء: الإقامة.
(٣) خفقني: أي ضربني. والدرة: السوط.
(٤) اللكع: اللئيم.
(٥) شعبتا الرحل: طرفاه المقدّم والمؤخّر. والحقيبة: ما يجعله الراكب وراءه إذا ركب.
(٦) ابن هشام (سيرة ٤/ ٣٧٦).
(٧) العكوم: جمع عكم. وهو الجنب.
(٨) أزل: أملس. صفحته ظاهرة. والأديم: الجلد.
(٩) الجموم: استراحة الفرس.
(١٠) مسومات: أي مرسلات. والسموم: الريح الحارَّة.
(١١) البريم: الحزام. وأصل البريم خيط تنظمه المرأة ثُمَّ تشده على وسطها.
(١٢) ابن هشام، سيرة٤/ ٣٧٥ - ٣٧٦.
(١٣) قـرح: هـو موضـع كـان بـوادي القـرى مـن صـدره، فغلـب عليه اسم العُلا لأنه أعلى الـوادي، وكان سوقاً مشهورة في الجاهلية، وهو اليوم مدينة العُلا. (البلادي: معجم المعالم ٢٥٠، ومرداد، مدائن صالح ٦٤).
(١٤) حـذوناها: أي جعلـنا لهـا حذاءً وهو النَّعل. والصوان: حجارة مُلْس، واحدتها: صوانة. والسبت: النعال التي تُصْنَع من الجلود المدبوغة.

ولما مضى زيد - رضي الله تعالى عنه - بالجيش، وسار بهم في مناطق تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، فكان من الطبعي أن يتعرَّضوا لبعض التحرُّشات العدائية من أهل تلك البلاد الذين كانوا يدينون بولائهم سياسياً، وعقائدياً، للدولة البيزنطية، وإن كانت بينهم خلافات مذهبية متأصلة[1]، ولكنَّهم اتَّحدوا ضد المسلمين.

وسار زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - بالمسلمين على جبال بين الشراة والبلقاء، على ريفها وعمارتها، فمر بقرية من قرى الجبال، يُقال لها: "أكثب، فشدَّ أهلها على ساقة[2] المسلمين فأصابوهم بجراحة، وقتلوا رجلاً من المسلمين، فبلغ ذلك جماعة الجيش، فاستأذنوا زيد بن حارثة في الرجعة إليهم والانتقام منهم، فقال زيد: "لا أرى ذلك، لأنَّ عدوَّكم أمامكم قد جمعوا لكم، ودنوا منكم، فأكره أن تفلّوا حدَّكم[3] ونشاطكم بقتال غيرهم، ثُمَّ لا آمن أن يجمعوا لكم فيكونوا من ورائكم، فتكونوا بين عسكرين"[4].

لقد كان رأي زيد - رضي الله تعالى عنه: "المضي قُدُماً، وعدم استنْزاف قوة المسلمين في قتال قد يُعيق تقدُّمهم نحو عدوّهم، وربَّما كان ذلك سبباً لوقوع المسلمين بين فكّي كمَّاشة".

وكان شرحبيل بن عمرو الغساني قام بتحرُّشات عدائية - حيث جمع جموع العرب المتنصرة - وقام بإرسال الطلائع لتعيق تقدم المسلمين، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، حيث قَتَل المسلمون أخاه سدوس، قائد الطليعة الأولى، مِمَّا أثار الذُّعْر والهلع في قلب شرحبيل، فتحصَّن[5]".

وتحرَّك المسلمون نحو جيوش الروم، وحلفائهم من القبائل، فحصل التماس الأوَّل في تخوم البلقاء" ولكن المسلمين رأوا أنَّ منطقة قرية مؤتة، بين الكرك[6]

(١) كان نصارى الشام يعاقبة، ونساطرة، وهم يخالفون مذهب الدولة البيزنطية الملكاني.
(٢) الساقة: مؤخرة الجيش.
(٣) أي تضيِّعوا نشاطكم وقوَّتكم.
(٤) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٥٥.
(٥) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٥٥.
(٦) الكَرَك: مدينة تاريخية تقوم على مجموعة من الجبال التي يتخلَّلها وادٍ عميق، وفيها القلعة الحصينة المشهورة، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلاَّ من جهة الربض، وكان الصليبيون احتلُّوها فأخافوا الحجَّاج المارِّين بهذا الطريق، وقد هاجمها صلاح الدِّين حتَّى فُتِحَت صُلْحاً عام ٥٨٤ هـ، وهي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية.

والطفيلة[1] ، أنسب لقبول المعركة فيها ، وذلك لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيعون التحصُّن بها ، نظراً لقلَّة قوتهم بالنسبة إلى الأعداء"[2] .

فما "مِن شكٍّ أنَّ قوة العدو كانت أضخم كثيراً من قوة الجيش الإسلامي ، وإن لم تبلغ العدد الذي ذكره الإخباريون ، وكان التكافؤ منعدماً بين القوتين من حيث العدد ، ومن حيث عُدَّة الحرب"[3] .

وفي مؤتة تعبأ المسلمون ، ونظَّموا صفوفهم ، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة ، يُقال له: قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار ، يُقال له: عباية بن مالك ، ثُمَّ التقى الناس"[4] .

وقد لاحظ المسلمون تفوّق الروم وحلفائهم عليهم ، ولكنَّهم لم يكترثوا بذلك[5] .

وبدأ هجوم المسلمين باندفاع قائدهم زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - بلواء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو صفوف العدو "فحارب مستقتلاً مستميتاً حتَّى مزَّقته رماح العدو"[6] وذلك وفق وصف رواية عروة: حتى شاط في رماح القوم"[7] .

إنَّ ذلك الوصف يدل على قوة اندفاع زيد - رضي الله تعالى عنه - واستماتته في القتال ، مع عدم اكتراثه بقوة العدو ، وكثافته العَدَدِيَّة والعُدَدِيَّة ، وهو أمر يدل على فرط شجاعته وجرأته واستهانته بالموت ما دام في سبيل الله - عزَّ وجلَّ .

وكلمة (شاط) [8] تعطي عمقاً بعيداً عن مدى شراسة الحملات التي قام بها

انظر: ياقوت ، معجم ٤/ ٤٥٣ ، البلادي ، رحلات ١٥١ - ١٨٥ .

(١) بلدة الطفيلة بلدة رائعة الجمال ببساتينها ومناظرها الخلاَّبة ، تبعد خمسين كيلو عن مؤتة ، ولها طريق يذهب جنوباً إلى أذرح ، فمعان ، وطريق يذهب شمالاً إلى مؤتة ، فالكَرَك .
انظر: علي العتوم: تجربة مؤتة ٨٥ ، البلادي: رحلات ١٥١ .

(٢) خطَّاب ، الرسول القائد ، ص٣٠٧ ، وانظر: ابن هشام ، سيرة ٤/ ٣٧٧ .

(٣) الشريف ، مكة والمدينة ٥٣٥ ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٠٣ .

(٤) ابن سعد ، طبقات ٢/ ١٢٧ .

(٥) خطَّاب: الرسول القائد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ص ٣٠٧ . غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٠٤ .

(٦) خطَّاب: الرسول القائد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ص ٣٠٧ .

(٧) ابن هشام ، سيرة٤/ ٣٧٥ .

(٨) أصل الإشاطة: الإحراق ، أي كأنه احترق برماح الأعداء من شدَّة تمزيقها له ، وكأنَّهم

ذلك البطلِ المغوار في العمق داخل صفوف العدو ، وما تمزيق جسده الطَّاهر برماحهم إلاَّ نتيجة حتمية لتلك الجرأة العظيمة التي كان يتمتع بها ، ويحمل بها على العدو ، معطياً من نفسه القدوة الصالحة لجنده ، وما ذلك إلاَّ لعلو نفسه ، وقوة رباطة جأشه .

نعم ! لَمَّا كانت نفس زيد بن حارثة الكلبي - رضي الله تعالى عنه - حِبِّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كبيرةً توَّاقةً للمعالي ، دفَعَ جسده الطاهر الزكي الثَّمَن غالياً في أحضان رماح العدو وحرابهم ، وما كاد يسقط القائد البطل شهيداً في سبيل الله تعالى ، حتَّى تلقَّف منه اللواء ، ومِن ثَمَّ خلفه في القيادة - حسب أمر القائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطل آخر شاب من آل بيت النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موئل البطولات ، وأركان الشجاعة ، ولا غَرْوَ في ذلك ، فهو جعفر ابن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه ، ابن عمّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطل الأبطال ، وقائد الشجعان .

وتقدَّم البطل الشاب بفرسه يصول ويجول براية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حتى إذا ما ألحمه القتال ، ترجَّل عن فرسه ، كما يذكر أَحَد شهود العيان: "والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرسٍ له شقراء ، فعقرها ، ثُمَّ قاتل القوم"[1] ، راجلا ، وهو يرتجز:

يا حبَّذا الجنَّة واقترابها ::: طيبة وبارد شرابها

والروم روم قددنا عذابها ::: كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذا لاقيتها ضرابها

ثُمَّ اندفع يقاتل بشجاعة نادرة ، وجرأة لا مثيل لها ، ورباطة جأش عظيمة ، والضربات تنهال عليه من كُلِّ جانبٍ ما بين طعنة رمح ، وضربة سيف ، ورميل نبل ، دون أن تثنيه عن الاستمرار ، أو تعيق تقدمه بلواء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان يمثل رمزاً عظيماً للمسلمين في معاركهم ، لأجل ذلك كان تركيز العدوّ على إسقاطها شديداً ، فلمَّا أعياهم البطل جعفر - رضي الله تعالى عنه - بقوة تماسُكه ، ورباطة جأشه العظيمة ، ورأوا أنَّ الضربات على جسده لم تزده إلاَّ إمعاناً وتقدُّماً نحو صفوفهم ، عندها حوَّلوا ضرباتهم إلى اليد العظيمة التي كانت تمسك

حنقوا عليه نتيجة الحملات الشرسة والقوية التي كان يحمل بها عليهم في العُمْق .

(١) أبو داود (السنن ٣/ ٦٢ - ٦٣) ، ابن هشام (السيرة ٤/ ٣٧٨) ، الزرقاني (شرح المواهب ٢/ ٢٧٢) .

اللـواء بقـوة، وتقاتـل بـه بـلا هوادة، فقطعوها، وظنَّ الأعداءُ أنَّها النهاية، وأنَّ اللـواء سوف يسقط، فتسقط معه معنويات المسلمين، ولكنَّ القائد العظيم تلقَّفه: "بـشماله، فقُطِعَـت، فاحتضنه بعضديه"(١)، ولكن "ورغم استبسال جعفر وثباته هذا، فقد انتهى صموده الرائع بأن سقط شهيداً بعد أن اعتورته سيوف الرومان، وهـو يحتـضن اللـواء في إصـرار وتـصميم، حتَّى صعدت روحه الطاهرة، ليأخذ مكانه بين الصِّدِّيقين والشُّهداء"(٢).

بـل بـين الملائكـة، فقـد صـحَّ أنَّ الله قـد عوَّضه من يديه جناحين يطير بهما مـع الملائكـة في الجـنة(٣)، ويأكـل من ثمارها حيث شاء، فلذلك سُمِّيَ الطيَّار في الجنَّة"(٤).

ويكـون أوَّل مـن حـاز على لقب طيَّار في التاريخ الإسلامي، ويتفرَّد به دون النَّاس أجمعين"(٥). ولكنَّه في ذات الوقت ليس طيَّاراً عادياً، أو حتى رائد فضاء، بل طيَّاراً في الجنَّة مع الملائكة المقرَّبين، يطير مع جبريل، وميكائيل، وقد ميَّزه الله - سـبحانه وتعـالى - عـن الملائكـة بـأن جعل جناحيه مضرجين، مخضوبةً قوادمه بالـدماء(٦). وذلك علامة على أنَّهما وسام شرف علوي مُنِحَ له مكان يديه اللتين ضـحَّى بهما بإصرار في سبيل الله تعالى، وهو يقاوم بقوة وعنادٍ عجيبين ألاَّ تسقط راية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرضاً.

نعـم! سـقط القائـد الـشاب شـهيداً، وفي جـسده بـضعٌ وتـسعون مـا بـين طعـنة ورمـية، مـنها خمـسون بـين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره، يعني في

(١) ابـن هشام (السيرة ٤/ ٣٧٨)، (المستدرك ٣/ ٢٣٢)، (المجمع للهيثمي ٩/ ٢٧٣)، ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤٦).
(٢) با شميل، غزوة مؤتة ٢٩٦، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٣٠٨.
(٣) أخرج البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧) من طريق الشعبي قال: "كان ابن عمر إذا حيَّا ابن جعفر قـال: الـسلام علـيك يا ابن ذي الجناحين". قال ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٧٦): كأنه يشير إلى حديث عبد الله بن جعفر.
وأخـرج الطبرانـي، كمـا في (مجمع الزوائد ٩/ ٢٧٣) بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عـنهما حديثاً طويلاً عن المعركة، قال في آخره: "ذا جناحين يطير بهما حيث شاء، مخضوبة قوادمه بالدماء". قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما حسن.
(٤) أخرجه الحاكم، المستدرك ٣/ ٢٣٢، الهيثمي، مجمع ٩/ ٢٧٣.
(٥) منير غضبان، فقه السيرة ٥٤٨.
(٦) أخـرج الطبرانـي، مجمـع الـزوائد ٩/ ٢٧٣)، الحـاكم (المـستدرك ٣/ ٢٣٤)، وابـن حجـر (فتح الباري ٧/ ٧٦)، ابن سعد (الطبقات ٤/ ٣٩).

ظهره"[1].

وفي ذلك "بيان فرط شجاعته وإقدامه"[2].

فلمَّا قُتِلَ جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثُمَّ تقدَّم بها، وهو على فرسه، وكان لمقتل صاحبيه الواحد تلو الآخر على ذلك النحو المؤثِّر، أثره في نفسه، فجعل يستنْزل نفسه ويتردَّد، بعض التردُّد، ويرتجز:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه ::: لتنزلن أو لتكرهنَّه
قد طال ما كنت مطمئنة ::: مالي أراك تكرهين الجنَّة
إن أجلب الناس وشدُّوا الرنَّة[4] ::: هل أنت إلاَّ نطفة في شنَّة[3]

وقال أيضاً:

يا نفس إلاَّ تُقْتَلي تموتي ::: هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيتِ فقد أُعْطِيت ::: إنْ تفعلي فعلهما هُديت

يريد صاحبيه زيداً، وجعفراً، ثُمَّ نزل، فلمَّا نزل أتاه ابن عم له بعرق[5] من لحم، فقال: شُدَّ بهذا صُلبك، فإنَّك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثُمَّ انتهس منه نهسة[6]، ثُمَّ سمع الحطمة[7] في ناحية النَّاس، فقال: وأنت في الدُّنيا! ثُمَّ ألقاه من يده، ثُمَّ أخذ سيفه، فتقدَّم، فقاتل حتَّى طُعِنَ، فاستقبل الدم بيده، فدلك به وجهه، ثُمَّ صُرِعَ بين الصَّفين، فجعل يقول: يا معشر المسلمين، ذُبُّوا[8] عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتَّى يحوزوه[9]، فلم يزالوا كذلك حتَّى مات مكانه"[10].

وينفي بعض المعاصرين رواية تردُّد عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٦).
(٢) ابن حجر (فتح ٧/ ٥١٢).
(٣) النطفة: الماء القليل الصافي. والشَّنَّة: القربة القديمة.
(٤) أجلب الناس: يُقال: أجلب القوم إذا صاحوا واجتمعوا. والرَّنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.
(٥) العرق: العظم الذي عليه بعضِ لحم.
(٦) انتهس: أي أخذ منه بفمه يسيرا.
(٧) الحطمة: الكسرة. والمراد بها هنا اشتداد القتال بين الطرفين.
(٨) الذَّبُّ: الدفع، والمنع. (القاموس: ذَبَّ).
(٩) الحوز: الجمع وضم الشيء، كالحيازة والاحتياز. (القاموس: الحوز).
(١٠) ابن الأثير، (أُسْد الغابة ٣/ ٢٣٨).

عنه، كونها تتعارض مع موقفه قبل ذلك من تشجيعه للمسلمين لملاقاة الروم، وتحرُّقه للشهادة في سبيل الله[1].

بينما يربط بعضهم هذا الموقف بما عُرِفَ من تقلبات نفسية الشُّعراء وحساسيتهم[2].

بينما ما حدث من عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - لا يعدو كونه أمراً طبعياً، وموقفاً من مواقف ضعف النفس البشرية يعتريها أوقات الشدة والأزمات، وهو بالتالي لا يُدلِّل على خَوَر عبد الله رضي الله تعالى عنه وجُبْنه، كما يفهمه البعض من ظاهر الرواية، فذلكَ أمرٌ مفروغٌ منه، فعبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - مشهودٌ له بالشجاعة، والجرأة، ورباطة الجأش، وليس اختيار النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الخبير في أصحابه - له قائداً من قوَّاد هذه الموقعة العظيمة التي كانت في عمق الأراضي الخاضعة لنفوذ الدولة البيزنطية، وبعيداً عن قاعدة المسلمين، وانتدابه له سابقاً في أقوى سراياه وبعوثه، وأصعبها مهمّة وجُرأة، وهي سرايا المغاوير، إلاَّ دليلاً من الأدلة القاطعة على ذلك.

والصحابة - رضي الله تعالى عنهم، وإن كانوا مشهورين بالشجاعة والجرأة وحُب الموت في سبيل الله تعالى، فهم في النهاية ليسوا ملائكة، بل بشر يعتريهم الخوف والضَّعْف في مواطنهما، بل ربَّما مغادرة ميدان المعركة، كما حدث من بعضهم في بعض المواقع، وقد سوَّغ لهم الشرع التحيُّز إلى فئة، وعدم الاستقتال.

إنَّ ما حدث من عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - أمرٌ طبعي يمكن أن يحدث لكُلِّ إنسان في مثل تلك الظروف الصعبة والمواقف المحرجة.

ولكن معالجة الموقف بمثل تلك القوة، والشجاعة، ورباطة الجأش، لا تحدث من كُلِّ إنسان، فما قام به عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه، لا يقوم به إلاَّ رجال أبطال مؤمنون أمثاله، ولو كان غير ذلك لأطلَقَ لنفسه العنان، ولما استطاع مصابرتها والتغلُّب على فلتاتها.

وكان يمكن أن يمر ذلك الموقف دون أن يحس به أحد من الناس، ولكنَّ رجلاً شجاعاً، شاعراً، مؤمناً، مرهف الحسّ، صادقاً مع نفسه، كعبد الله بن رواحة -

(١) الدويدار، صور من حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٥٢١ - ٥٢٣.

(٢) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة ٢٩٧، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٣١٥.

رضي الله تعالى عنه ، لا يمكن أن يدعه يمر عليه هكذا بسهولة ، دون أن يُصَوِّر أحاسيسه تجاهه تصويراً صادقاً قوياً ، ويُعَبِّر عن خلجات نفسه نحوه تعبيراً دقيقاً رائعاً بصوتٍ عالٍ مرتفع ، استطاع معه شهود العيان ، ومِن ثَمَّ الرواة تسجيله بمدادِ العزَّةِ والكرامةً ، لتتطلَّعَ عليه الأجيال الإسلامية تلو الأجيال ، فتعتبر ، ولعلَّه أراد ذلك فعلاً[1]

اشتعال المعركة بين الجيشين:

هذا وقد أشعلت الحملات والاختراقات البطولية - التي قام بها القادة الثلاثة في العمق داخل صفوف العدو رغم تفوقه العَدَدِي والعُدَدِي - أشعلت حماس المسلمين جميعاً ، واشتعل القتال على طول الجبهة ، وأبدى المسلمون من صنوف البطولات الجماعية ، والفردية ، أسوة بقوَّادهم ما أذهل الروم وحلفاءَهم .

فهذا عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - كما يذكر الأوزاعي في رواية - وفي مجلس من مجالس الأنصار في المدينة ، ومعهم نفر منهم ، حين نزل قول الله - تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ . [الصَّفّ: ٤] . يعاهدون الله - تبارك وتعالى - على الجهاد في سبيله حتى الموت ، فلمَّا أخذ عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - الراية ، فصاح بأولئك النَّفر الذين حضروا ذلك المجلس ، فتلا عليهم الآية وقال لهم: إنَّ ما كنتم عاهدتم الله عليه قد جاء مصداقه ، "اصدقوا الله يصدقكم ، فجاءوا يخبُّون[2] كأنَّهم بقر نُزِعَت من تحتها أولادها ، فتقنَّموا بين يديه ، فلمَّا شدَّ على الروم شدُّوا معه حتى شُدِخُوا[3] جميعاً"[4] .

وهذا عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله تعالى عنه - ، أحد شهود العيان والمشاركين في مؤتة ، يُحَدِّثنا عن إحدى تلك البطولات ، فيقول:

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣١٦ .

(٢) الخَبَب - محرَّكة - ضرب من العدو ، أو كالرمل ، أو أن ينقل الفرس أيامنه جميعاً ، وأياسره جميعاً ، أو أن يراوح بين يديه ، والسرعة خب خباً وخبيباً وخبباً . (القاموس: خبب) .

(٣) الشدخ: الكسر في كل شيء رطب أو يابس ، وقيل: هو التهشيم . وقال الليث: الشدخ كسرك الشيء الأجوف ، كالرأس ونحوه . وفي الحديث: فشدخوه بالحجارة . (اللسان ، والقاموس: شدخ) .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ ، ٥/٣١٤ - ٣١٥ .

خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، فرافقني مَدَدِيٌّ[1] من أهل اليمن ليس معه غير سيفه، فنحر رجلٌ من المسلمين جزوراً[2]، فسأله المَدَدِيُّ طائفة من جلده[3]، فأعطاه إيَّاه، فاتَّخذه كهيئة الدرق[4]، ومضينا، فلقينا جموع الروم، وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب، فجعل الرومي يفري[5] بالمسلمين، فقعد له المَدَدِيُّ خلف صخرة، فمرَّ به الرومي فعرقب فرسه[6]، فخرَّ[7] وعلاه فقتله، وحاز فرسه وسلاحه"[8].

ويتصدَّى عقيل بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - لرجلٍ آخر فيقتله بعد مبارزةٍ بالسيوف[9].

ولكن، ومع تلك البطولات التي أبداها المسلمون قُوَّاداً وأفراداً، إلاَّ أنه بمقتل عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه، آخر قائد مُعَيَّن في المعركة، انفرط عِقد المسلمين و"صار المسلمون لا قائد لهم يحفظ نظامهم"[10].

"وأصبح الموقف الآن خطيراً، ومن الممكن أن يتحوَّل بسهولة إلى ما هو أسوأ، ويؤدي إلى هزيمة تامة للمسلمين"[11].

تولى خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القيادة وانسحابه بالمسلمين:

ويدرك ثابت بن أقرم، أخو بني العجلان - رضي الله تعالى عنه - هذه الحقيقة، فيحاول تدارك الموقف، ويحتوي خطورته قبل تفاقمها، فيخطف اللواء

(١) أي: من أمداد اليمن، والأمداد: جمع مدد، وهم الأعوان والأنصار الذين كانوا يُمدُّون المسلمين في الجهاد.
(٢) الجزور: البعير، أو الناقة المجزورة، أي المنحورة.
(٣) طائفة من جلده: أي قطعة من جلده.
(٤) الدرق: ضرب من الترسة، الواحدة: درقة، تُتَّخذ من الجلود.
(٥) كناية عن المبالغة في القتل.
(٦) عرقب فرسه: أي قطع عرقوبه، وهو عصب غليظ في رجل الدَّابة بمنْزلة الركبة في يدها.
(٧) خرَّ: أي سقط من علو.
(٨) أخرجه مسلم (الصحيح ٤/ ٢٤)، وأبو داود (سنن ٣/ ١٦٣) وهذا لفظه. وأحمد (المسند، حديث رقم: ٢٣٩٩٦٠).
(٩) الطبراني، (المعجم الأوسط ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦).
(١٠) أبو زيد، شلبي، سيف الله خالد بن الوليد، ص ٦٣.
(١١) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٣٢٢.

من يد عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - قبل أن يسقط أرضاً: ثُمَّ سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه، ثُمَّ قال: إليَّ أيها الناس فاجتمع إليه الناس"[1].

فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجلٍ منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه[2].

"وثابت أبى القيادة، لا نُكُوصاً[3] عن الموت، بل شعوراً بوجود الأكفأ منه في الجماعة، وحملانه الراية خشية أن تسقط من آيات الجرأة في هذا الموقف العصيب"[4].

"ولقد كان خالد عند ظن أصحابه، لمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطير هذه، فجعل هدفه أن ينسحب بالمسلمين"[5].

فقد "كانت المهمَّة الأساس المنوطة بخالد في تلك الساعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة قدراً دقيقاً، ودرس ظروف المعركة درساً وافياً، وتوقع نتائجها، اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل"[6].

ولأنَّ "قتال الانسحاب شاق مرهق، وبخصاصة وأنَّ خالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطة"[7]، "لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين"[8].

من أجل ذلك رأى القائد الذكي المحنَّك، أنه حتى يؤَمِّن انسحابه من ميدان المعركة بقوَّةٍ وانتظام، وبأقل خسائر، لا بدَّ أن يستخدم أسلوب (الهجوم أفضل وسيلة للدفاع)، فبدأ في "تحقيق هدفه، بأن رسم خطَّةً سعى فيها إلى إيهام العدو

---

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ١٣٠.
(٢) ابن سعد، طبقات، ٢/ ١٣٠.
(٣) نَكَصَ عن الأمر نُكُوصاً، ونَكْصاً ومنكصا: تكأكأ عنه وأحجم.
(٤) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٦٨.
(٥) خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٩٨.
(٦) ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، ص ١٧١.
(٧) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٦٩.
(٨) خطَّاب، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٣٠٨.

أنَّ المسلمين لازالوا في أماكنهم يقاتلون، فدفع مقدمتهم إلى مناوشة العدو "[1].
بينما تحرَّك ببقية الجيش، وأعاد تنظيم قوَّاته، وألَّف مؤخرة قوية لحماية الانسحاب من ميدان المعركة.

"لقد كان خالد قائداً ماهراً، محرِّكاً للجيوش لا نظير له، أُلْهِمَ القيادة إلهاماً، فهو يستعين في مواقفها بكُلِّ ما عرفت الحربِ من فنٍّ يستخدمه على السليقة[2]، وعلى البصيرة الملهمة، فدار بالجيش دورةً ضمَّ بها صفوفه، ثُمَّ قاتل به في غير اندفاع، ومع ذلك في غير تراجع، وكان بذاته قدوةً للمسلمين"[3].

يقول - رضي الله تعالى عنه - واصفاً قوَّة الانسحاب الذي نفَّذه مع المسلمين، وشِدَّة القتال، وضراوته في أثناء الانسحاب، نتيجة ضغط العدوِّ عليهم -: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلاَّ صفيحة يمانية"[4].

ولَّما رأى المسلمون ما يصنعه خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه، ازدادت حميتهم للقتال، واشتعل حماسهم، فهاجموا بعنف على طول الجبهة، فالمثل الذي ضربه خالد - رضي الله تعالى عنه - لهم قد أثار الحميَّة والشجاعة في صفوف المسلمين، وازدادت المعركة عنفاً[5]، لدرجة أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يصف أحداث المعركة للصحابة - رضي الله تعالى عنهم - في المدينة: **«الآن حمي الوطيس»**[6] [7].

نعم! لقد حمي وطيس المعركة بين الطرفين، حتى إنَّ المسلمين نسوا ما أصابهم بفقدان قادتهم الثلاثة في بداية المعركة: فيندفع قطبة بن قتادة العذري، قائد ميمنة المسلمين، إلى الأمام، فيطعن مالك بن رافلة الأراشي، قائد العرب المتنصرة، حلفاء الروم في المعركة، برمحٍ مضى فيه ثُمَّ انحطم، كما وصف ذلك

---

(١) خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٩٩.
(٢) السليقة: يعني على الفطرة والطبيعة.
(٣) الشريف، مكة والمدينة، ص ٥٣٦.
(٤) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧).
(٥) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٦.
(٦) الوطيس: الضراب في الحرب، ولم يُسمع هذا الكلام من أحد قبل النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من فصيح الكلام عبِّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق. (الشامي: سبل ٦/ ٢٥٩ - ٢٦٠).
(٧) أخرجه ابن عساكر، تاريخ، ٥/ ٥٤٤، من رواية ابن عائذ بسنده عن العطَّاف بن خالد وهو منقطع.

في شعره الذي قاله مفتخراً بقتله:

طعنت ابن رافلة بن الأراشي ::: برمح مضى فيه ثُمَّ انحطم
ضربتُ على جِيدِه ضربةً ::: فمال كما مال غصن السلم[1]

ثُمَّ بدأ خالد بن الوليد – رضي الله تعالى عنه – بعد ذلك عملية الانسحاب الشاملة من ميدان المعركة، عندما قامت مؤخّرة المسلمين بقتال التعويق لإحباط مطاردة العدو للمسلمين، وإنقاذ القسم الأكبر من قوات المسلمين من التطويق[2].

وانتشرت المؤخّرة على جبهةٍ واسعة، واستطاع خالد – رضي الله تعالى عنه – قطع التماس القريب مع العدوّ، ولكنه لم يكن بعيداً عن مدى النبال، وكان تراجع المسلمين تحت حماية وابلٍ من سهام النَّبَّالة الذين كان على رأسهم النبَّال الإسلامي المشهور واقد بن عبد الله التميمي، وكان من أرمى الناس، وقد كبَّر وقال: ارفعوني على ترس[3]، فرفعوه، فقال: انظروا إلى مواقع نبلي، فإن رضيتم أخبروني، فرمى المشركين حتَّى ردَّهم الله"[4].

وعندما تراجع المشركون "جمع خالد قوَّاته، وقطع التماس مع العدوّ، وانسحب مع قوَّاته بعيداً إلى الخلف، وأصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال، وكان كلاهما يلتمس الراحة وإعادة التنظيم[5].

ويذكر ابن الديبع الشيباني، أنَّ خالد بن الوليد – رضي الله تعالى – عنه:

قاتل قتالاً شديداً ودافع عن المسلمين حتى انحاز بهم إلى جبل "[6]. وكانت تلك فرصة للمسلمين لدفن شهدائهم في المعركة. قال سعيد بن أبي هلال:

"بلغني أنَّهم دفنوا يومئذٍ زيداً، وجعفراً، وابن رواحة في حُفْرَةٍ واحدةٍ"[7] كما

---

(١) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٣٨١.
(٢) خطّاب، الرسول القائد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٣٠٨.
(٣) الترس: الدرقة، جمعها درق، وتُتَّخذ من الحديد أو المعدن، ويستخدمها المحارب في ميدان المعركة كوقاية من ضربات العدو.
(٤) أخرجه سعيد بن منصور (السنن ٢/ ٢٩٧ – ٢٩٨)، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٢٧.
(٥) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٦ – ١٠٧.
(٦) وجيه الدين عبد الرحمن بن علي، حدائق الأنوار، ٢/ ٦٥٦.
(٧) أخرجه سعيد بن منصور (السنن ٢/ ٢٩٧ – ٢٩٨).

تمَّ تقسيم أسلاب القتلى من العدوِّ على مقاتليهم، إلاَّ أنَّ خالداً - رضي الله تعالى عنه - استكثر سلب الرومي الذي قتله المَدَدِيّ، فبعث إليه: "خالد بن الوليد، فأخذ من السلب. قال عوف: فأتيته، فقلت: يا خالد! أما علمت أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى بالسلب للقاتل؟!. قال: بلى، ولكني استكثرته. قلت: لتردَّنه عليه، أو لأُعَرِّفَنَّكها عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبى أن يردَّ عليه"[1].

وهكذا استطاع خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، بتوفيقٍ من الله، ثُمَّ بحنكته وتدبيره، أن يحتفظ بتوازن المعركة حتى الليل.

ثُمَّ أصبح غازياً، قد جعل مقدّمته ساقه، وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فأنكروا ما جاء به من خلاف ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا: قد جاءهم مدد[2].

فرعبوا، ولسان حالهم يقول: "إذا كان المسلمون على قلَّتهم، قد فعلوا ما فعلوا بالأمس، فكيف وهم اليوم قد جاءهم المدد، وازداد العدد؟!.

لقد أحجم الروم عن الهجوم، وكذلك لم يهاجمهم خالد، فقد كان يريد أن يخرج من المعركة غير المتكافئة بجيشه سليماً، ويُرْعِب العدوَّ حتى لا يلاحقه في تراجعه، فلمَّا اطمأنَّ إلى نجاح خطته تراجع بقوَّاتِه، وبَعُدَ بها حتَّى صارت في مأمن"[3].

وهكذا: "انحاز الفريقان كُلٌّ عن كُلٍّ قافلاً عن غير هزيمة، فقفل المسلمون على طريقهم التي أبدوا منها، حتَّى مرُّوا بتلك القرية، والحصن الذي كانوا شدوا على ساقهم، وقتلوا رجلاً منهم، فحاصروهم في حصنهم حتى فتحه الله عليهم عنوة، فقتل خالد مقاتلتهم في نقيع[4] إلى جانب حصنهم صبراً فيها، فَسُمِّي ذلك النقيع، نقيع الدم إلى اليوم، وهدموا حصناً هدماً لم يعمر بعده إلى اليوم". ثُمَّ رجع خالد رضي الله تعالى عنه بالمسلمين سالمين إلى المدينة[5].

وبذلك استطاع سيف الله بث الرُّعب في قلوب حلفاء الروم، وأعوانهم من العرب المتنصِّرة، الذين يمرّ المسلمون في طريق عودتهم عبر أراضيهم، فلم تذكر

---

(١) أخرجه مسلم (الصحيح ٤/ ٢٤)، وأبو داود (سنن ٣/ ١٦٣) وهذا لفظه. وأحمد (المسند، حديث رقم: ٢٣٩٩٦٠).
(٢) أخرجه ابن عساكر.
(٣) الشريف، مكة والمدينة، ص ٥٣٧.
(٤) النَّقيع: البئر الكثيرة الماء. (القاموس: نقيع).
(٥) أخرجه ابن عساكر، ابن حجر (فتح ٧/ ٥١٤).

الروايات أنَّهم تعرَّضوا للمسلمين بأي أذى كما فعلوا بالأمس[1].

معجزة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموقف أهل المدينة من الجيش:

كُلُّ تلك الأحداث كانت تجري على أرض المعركة بعيداً في مؤتة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقلها بتفاصيلها أولاً بأوَّل مباشرةً لمن كان بالمدينة من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم: "فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثُمَّ أخذ جعفر فأُصيب، ثُمَّ أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتَّى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، حتَّى فتح الله عليهم"[2].

وفي حديث أبي قتادة: "ثُمَّ أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأُمراء، هو أمَّر نفسه، ثُمَّ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إنه سيفٌ من سيوفك فأنت تنصره، فَمِن يومئذٍ سُمِّيَ سيف الله**»[3].

وتلك كانت معجزة نبوية، أطلع الله سبحانه وتعالى من خلالها رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أحداث المعركة، وهو على بُعْد آلاف الكيلومترات عنها عياناً، وكأنه حاضرٌ معهم.

يذكر موسى بن عقبة في روايته أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله - تبارك وتعالى - رفع لي الأرض، حتَّى رأيت معتركهم**»[4].

وإذا كانت هذه الرواية فيها بعض الضَّعف باعتبار أنَّها مرسلة، فهناك بعض الوقائع المماثلة التي قد تؤيد وقوعها، فهذه المعجزة نظير ما وقع في قصَّة الإسراء، حيث قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَـمَّا كذَّبتني قريش قمت في الحِجْر، فجلَّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أُخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه**»[5].

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص ٢٢٧.
(٢) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧).
(٣) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، أحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري، التاريخ، ٣/ ٤٠.
(٤) ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٧).
(٥) أخرجه البخاري انظر (فتح الباري ٨/ ٣٩١).

تحرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين سريعا لإمداد أهل مؤتة:

كان الروم وحلفاؤهم قد أحجموا عن مطاردة المسلمين نتيجة تلك المناورة الذكية التي قام بها خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه - في ميدان المعركة، ولكنَّ الذي زادهم إحجاماً ورعباً، تلك المناورة الأذكى من مبتكر المناورات الذكية الذي سمَّى: "الحربَ خدعة"[(١)]. القائد الأعلى للقوات الإسلامية، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي ما أن وصله الخبر مباشرة عن أحداث المعركة بواسطة الوحي الإلهي، حتَّى أمر المسلمين في المدينة - بعد أن قصَّ عليهم الخبر - كما أسلفنا - بالتحرُّك سريعاً لإمداد المسلمين في مؤتة، حيث قال: "انفروا، فأمدُّوا إخوانكم ولا يتخلَّفَنَّ منكم أَحَد، فنفروا في حَرٍّ شديدٍ، مشاةً وركبانا، وذلك في حَرٍّ شديدٍ"[(٢)].

وإذا كان خبر تحرُّك المسلمين سابقاً من المدينة نحو مؤتة، قد وصل إلى مسامع الروم وحلفائهم بسرعة فائقة، مكَّنتهم من الاستعداد لهم ذلك الاستعداد الجيد، فإنَّ الخبر بمسير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين من المدينة سريعاً لإمداد إخوانهم في مؤتة، ربَّما يكون قد وصل إلى مسامع الروم وحلفائهم أسرع مِمَّا كان متصوَّراً في ذلك الوقت نظراً للتأييد الإلهي للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتلك المعجزة النبوية التي خصَّه الله بها دون غيره من الأنبياء، وهي النَّصر بالرُّعب مسيرة شهر[(٣)].

والمسافة بين المدينة وبيت المقدس كانت تساوي مسيرة شهر في ذلك الوقت،

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وجابر بن عبد الله، رضي الله تعالى عنهم. انظر: (فتح الباري ٦/ ١٥٨).
قال النووي (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٤٥): واتَّفقوا على جواز خداع الكُفَّار في الحرب كيفما أمكن، إلاَّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

(٢) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، أحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري (التاريخ ٣/ ٤٠).

(٣) أخرج البخاري في الصحيح (فتح الباري ١/ ٤٣٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: "إنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أُعطيت خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهرٍ، وجُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجل مِن أُمَّتي أدركته الصَّلاة فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النَّبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصَّة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة".

فإذا علمنا أنَّ مؤتة كانت أقرب للمدينة من بيت المقدس، فإنه لا بُدَّ أن يكون الرعب قد دخل قلوب الروم وحلفائهم منذ اللحظة التي تحرَّك فيها النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المسلمين من المدينة، فآثروا السلامة، مكتفين بما حققوه في بداية المعركة، وتجنَّبوا المغامرة الخطرة في تعقُّب المسلمين، خوفاً من الاصطدام بالمدد النَّبويِّ المتحرِّك سريعاً من المدينة صَوْب منطقة العمليات في مؤتة.

الشاهدُ أنَّ تلك الحركة من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد تكون (مناورة تكتيكية) لإرهاب الأعداء، وإدخال الرُّعب في قلوبهم، وقد أدَّت مهمَّتها على الوجه المطلوب. والله تعالى أعلم[1].

وهكذا أُسدِل الستار على تلك المعركة العظيمة، وفقد المسلمون من رجالهم بضعة عشر شهيداً، بالإضافة إلى القادة الثلاثة – رضي الله تعالى عنهم – أجمعين[2].

أمَّا العدو فلا توجد معلومات عن مقدار خسارته، ولكنَّها لا شكَّ كانت جسيمة، لأنَّ كُلَّ قائدٍ من قادة المسلمين الذين تولَّوا القيادة قبل خالد كان شجاعاً، ومقاتلاً بارعاً، كما أنَّ السيوف التي كسرت بيد خالد، لا شكَّ أنَّها كُسِرت في أجساد الأعداء"[3].

واختلف أهل المغازي حول نتيجة مؤتة اختلافاً كبيراً، هل انتصر فيها المسلمون أم هزموا أم ماذا كانت نتيجتها؟فهناك من يقول إنَّ المسلمين هَزموا الروم هزيمة منكرة في مؤتة[4].

والسبب في ذلك يرجع إلي حديث أنس بن مالك عن النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثُمَّ أخذها خالد ففتح عليه"، يدل على ظهوره عليهم[5]. والله تعالى أعلم بالصواب.

وقال ابن كثير: وهذا يقتضي أنَّهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم، وقتلوا من أمرائهم، وقد تقدَّم فيما رواه البخاري أنَّ خالداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلاَّ صفحة يمانية. وهذا يقتضي أنَّهم

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٢٢٧.
(٢) انظر، ابن هشام، سيرة٤/ ٣٨٨، الواقدي (مغازي٢/ ٧٦٩).
(٣) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٦ – ١٠٧.
(٤) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٣٨٣، البيهقي، دلائل ٤/ ٣٧٥، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٩ – ٢٥٠).
(٥) دلائل النبوة للبيهقي، ٤/ ٤٩٣.

أثخنوا فيهم قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلُّص منهم. هذا وحده دليلٌ مستقلٌّ، وقد ذكر ابن إسحاق: أنَّ قطبة بن قتادة العذري - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن زافلة، ويقال: رافلة، وهو أمير أعراب النصارى فقتله، وقال يفتخر بذلك:

طعنت بن رافلة الأراشي ::: برمحٍ مضى فيه ثُمَّ انحطم

فذكر شعره إلى أن قال:

وسقنا نساء بني عَمِّه غداة ::: رقوقين سوق النعم

وهذا يؤيد ما نحن فيه، لأنَّ مِن عادة أمير الجيش إذا قُتِلَ أن يفرَّ أصحابه، ثُمَّ إنه صرَّح في شعره بأنَّهم سبوا من نسائهم. وهذا واضح فيما ذكرناه. والله أعلم[(١)].

وهناك من يقول إنَّ الروم هم الذين هَزموا المسلمين، وجزم به الواقدي[(٢)]، وكاتبه ابن سعد[(٣)].

وهناك قول ثالث يقضي بانسحاب خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه بالمسلمين - بعد تولِّيه القيادة - من ميدان المعركة بعد قتال قويّ ومرير، ثُمَّ إحجام الروم عن مهاجمة المسلمين بعد خطَّته الإيهامية الذَّكية بتغييره مراكز الجيش، ومِن ثَمَّ انسحاب كُلّ طرف عن الآخر دون قتال.

وهذا قول ابن إسحاق[(٤)]، وابن عبد البر[(٥)]، وابن حزم[(٦)]، وابن سَيِّد

---

(١) ابن كثير، البداية، ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) وساق الواقدي خمس روايات تُدَلِّل على هزيمة خالد بالناس. ثُمَّ قال - مُعَلِّقاً على روايةٍ ذكرها حول اشتداد المعركة حينما أخذ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه الراية وقال: و... لأثبت عندنا أنَّ خالداً انهزم بالناس. (مغازي ٢/ ٧٦٣ - ٧٦٤).

(٣) وقال ابن سعد: "فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء، وانكشف الناس، فكانت الهزيمة". (الطبقات ٢/ ١٢٩).

(٤) واستدلَّ ابن إسحاق على رأيه بشعر أحد شهود المعركة، وهو قيس بن المسحر اليعمري، الذي قال فيه:

وقفت بها مستجيراً فنافذاً ::: ولا مانعاً من كان حُمَّ به القتلُ

على أنَّني آسيت نفسي بخالد ::: ألا خالدٌ في القومِ ليس له مثلُ

قال ابن إسحاق: فبيَّن قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره، أنَّ القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقَّق انحياز خالد بمن معه. انظر: ابن هشام، سيرة ٤/ ٣٨٣.

(٥) الدرر، ص ٢٢٣.

(٦) جوامع السيرة ٢٢٢.

النَّاس[(١)] ، ورجَّحه ابن القيم[(٢)] ، واعتمده معظم المؤرِّخين المعاصرين[(٣)] .

وهذا القول وسط بين القولين السابقين ، وهو الراجح فيما يبدو لي لعدَّة اعتبارات ، فهو قول غالبية أهل المغازي كما رأينا .

كما أنَّ القول بهزيمة المسلمين غير صحيح لثلاثة أُمور:

أولاً: الروايات في ذلك ضعيفة ، فهي عن الواقدي ، وتلميذه ابن سعد الذي يعدّ في غالب الظَّن ناقلاً عن شيخه ، والواقدي متروك خاصّةً إذا انفرد . ورواية أبي موسى التي ذكرها ابن سعد ضعيفة أيضاً .

ثانياً: مخالفة هذه الروايات لرواية الصحيح ، وقول النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه: «**ففتح الله عليهم**» .

ثالثاً: قلة قتلى المسلمين في المعركة ، وعدم وقوع أسرى منهم في أيدي العدو ، وكل ذلك يخالف ما يكون عليه المنهزم عادةً في المعركة[(٤)] .

أيضاً القول بهزيمة الروم وحلفائهم في المعركة ، غير صحيح ، لثلاثة أسباب:

أولاً: لو أنَّ المسلمين هَزموا الروم وحلفاءهم في مؤتة ، لاشتهر ذلك ، وذاع صيته ، ولتواتر تواتراً يُؤمن بجانبه الكذب ، وبخاصّةً أنَّ أوَّل مواجهة قتالية بين المسلمين والروم كما كانت بدر أوَّل مواجهة قتالية بين المسلمين والمشركين ، وقد تواترت نتيجتها ، وذاع صيتها ، وبلغ صداها أرجاء الجزيرة العربية .

ثانياً: وقوع عدد كبير من الأسرى في أيدي المسلمين ، وذلك ما لم تذكره الروايات .

ثالثاً: طرد الروم وحلفائهم من المناطق التي كانت خاضعة لسلطانهم في منطقة مؤتة ، وما حولها ، وإخضاعها لنفوذ المسلمين ، وذلك لم يحدث ، حيث استمر الروم وحلفاؤهم في المنطقة يُشكِّلون تهديداً للمسلمين ، بدليل بَعْث النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرايا وبُعُوث إلى تلك المنطقة بعد مؤتة ، ثُمَّ مسيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه على رأس جيش العُسْرة إلى تبوك .

---

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٠١ .

(٢) قال ابن القيم: والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أنَّ كُلَّ فئة انحازت عن الأُخرى . (زاد ٢/ ١٥٦) .

(٣) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٣٤٢ .

(٤) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٣٤٢ .

إذاً القول الراجح: هو أنَّ سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام "بعملية انسحاب بارعة دلَّت على مهارته الحربية الفائقة"(١).

ولقد "كانت عملية التراجع والانسحاب التي قام بها خالد بن الوليد في أثناء معركة مؤتة من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارةً ونجاحاً"(٢).

"ومثل هذا التدبير من خالد، ليس بالعمل الميسور الذي يستطيعه كُلّ قائد، بل هو عمل عظيم جسيم يتطلَّب مهارةً وحزماً، ورباطة جأش، وثقةً بنصر الله، وكثيراً ما عرف التاريخ قوَّاداً عِظاماً كان السر في شهرتهم إنجاء جيوشهم من مثل هذا الموقف الحرج الذي لو اختلَّ أقل تدبير فيه لفني الجيش"، ولكن خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه - كان له قصب السَّبْق في ذلك، فعلى الرغم من ضغط القوَّات المتحالفة على المسلمين بشدَّة، وكثرة كاثرة، استطاع ذلك البطل أن ينظم انسحاباً قوياً ناجحاً دون أدنى خسائر تُذْكَر، مع الإثخان في العدو، وهو أمر يخالف ما جرت به العادة من أنَّ المنسحِب هو الذي في الغالب يتكبَّد الخسائر، فلمَّا صار العكس وأفلت خالد - رضي الله تعالى عنه - بجيشه من قبضة العدوّ رغم تشديدهم الضغط عليهم، اعتبره المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتحاً، بل نصراً مؤزَّراً، استحق عليه اللقب الذي قلَّده إياه القائد الأعلى للقوَّات الإسلامية، وهو الذي شاهد أحداث المعركة عِياناً بواسطة النقل الإلهي.

"ولقد عرف له الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسن تدبيره"(٣)، "ونجاحه في الانسحاب بجيشه بانتظام دونما خسارة تذكر"(٤)، "فلقَّبه سيف الله وهو وسام لم يمنحه أحَد من الصحابة"(٥)، "بل هو أوَّل وسام يمنح لقائد في تاريخ الإسلام"(٦)، بل في التاريخ البشري عامة، "ولعلَّ الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أسبق من غيره، في تقدير القوَّاد العِظام. "ولعمري مهما أجاد الإنسان في وصفه ومدحه، فلن يصفه بأحسن ولا بأوفى مِمَّا وصفه به رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٧)(٨).

---

(١) با شميل: غزوة مؤتة، ص ٢٦١.
(٢) ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، ص ١٧١.
(٣) أبو زيد شلبي، خالد بن الوليد، ص ٦٤.
(٤) با شميل، غزوة مؤتة، ٢٦١.
(٥) أبو زيد شلبي، خالد بن الوليد، ٦٤.
(٦) با شميل، غزوة مؤتة، ص ٢٦١.
(٧) أبو زيد شلبي، خالد بن الوليد، ص ٦٤.
(٨) غزوة مؤتة والسرايا، ص٣٤٣.

لقد "مضى خالد بلقب سيف الله في مؤتة، والذين يدَّعون ذلك كثيرون، أمَّا الذي يملك الشهادة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده في الدُّنيا هو خالد بن الوليد"[1]. أخرج الحاكم، وصحَّحه، عن الشعبي، عن عبد الله بن أبي أوفى: أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تُؤذوا خالداً، فإنه سيفٌ من سيوفِ الله صبَّه على الكُفَّار**»[2].

"إنَّ الجماعة المسلمة بحاجةٍ أنْ تُفْقَه معادن الرجال، وتضع الرجال في مواضعهم وهي تخوض معركتها مع العدوّ"[3].

ردة فعل أهل المدينة لنتيجة المعركة:

"لقد صمد المسلمون في معركة مؤتة صموداً هو أروع ما يصنع الإيمان الصادق، وقد دفع المسلمون الثمن غالياً دونما شك، تمَثَّل هذا الثمن الغالي بصورةٍ رئيسية في مصرع قادة الجيش الرئيسيين الثلاثة، الواحد بعد الآخر، وبأُسلوبٍ تمثَّلت فيه أرقى معاني البطولة، واسترخاص الأرواح في سبيل الله"[4].

وهذا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف بطولتهم، واسترخاصهم أرواحهم في سبيل الله، ومدى غبطتهم وسرورهم بمصيرهم بما "رأوا من فضل الشهادة"[5] بقوله: «**وما يسرهم أنَّهم عندنا**»[6].

"إنَّ روعة المقاومة الإسلامية في معركة مؤتة التاريخية، والتي يسرت للمسلمين انسحاباً منظَّماً مشرفاً بعد ذلك الصدام الهائل، انسحاباً يمثِّل في واقعه أعلى درجات الانتصار بالنسبة لظروف المعركة الصعبة"[7].

وتكفينا هنا شهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وصف ذلك الانسحاب القوي بالفتح والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة[8].

إنَّ شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغتا حداً كبيراً، وقد أكسبهم هذا الروح

---

(١) منير غضبان، فقه السيرة، ٥٤٦.
(٢) المستدرك، ٣/ ٣٣٨.
(٣) منير غضبان، فقه السيرة، ص ٥٤٦.
(٤) با شميل: غزوة مؤتة، ص ٢٨٦ – ٢٨٧.
(٥) ابن حجر، فتح ٧/ ٥١٣.
(٦) أخرجه البخاري، (انظر: فتح الباري ٦/ ١٨٠).
(٧) با شميل، غزوة مؤتة، ص ٢٨٨.
(٨) غزوة مؤتة والسرايا، ص٣٤٤.

العالي إقداماً حقَّر أمامهم كبرياء الأُمم التي عاشت مع التاريخ دهراً تصول وتجول لا يوقفها شيء.

"إنَّ الاستهتار بالخطر، والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هي قوَّة غامرة قاهرة تعدَّت الرجال إلى الأطفال، فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز، وحسبك أنَّ جيش مؤتة لَمَّا عاد إلى المدينة قابله الصبيان بصيحات الاستنكار، يقولون: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله؟! إنَّ أولئك الصِّغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومَن معه فِراراً يُقابل بحثو التراب.

أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟!.. أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟!.. مَن آباؤهم؟!.. مَن أُمَّهاتهم؟!.. كيف كان الآباء يُرَبُّون؟!.. وكيف كانت الأمَّهات يُدَلِّلْن؟!.. إنَّ مسلمة اليوم بحاجة ماسَّة إلى أن تعرف هذه الدروس"[1].

"وحين ترتفع الوتيرة الإيمانية لدى الفتيان الناشئين في الجيل الإسلامي إلى هذا المستوى، فلا شك أنَّ هذا التغيير هو الكفيل بتغيير حال المسلمين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] "[2][3].

وتعيير أهل مؤتة بالفُرَّار لم يكن من الصبيان وحدهم، بل تعدَّاهم إلى بقية النَّاس مِمَّن لم يخرج، وبقي في المدينة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد "استنكر المسلمون على الجيش أن يعود من غير أن ينتصر، وعيَّروا رجاله حتى أحرجوا بعضهم"[4].

أخرج الحاكم بسندٍ صحيحٍ عن أُمِّ سلمة - رضي الله تعالى عنها -:

"أنَّها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصَّلاة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلَّما خرج صاح به النَّاس: يا فُرَّار، أفررتم في سبيل الله عزَّ وجلَّ! حتَّى قعد في بيته فما يخرج، وكان في غزوة مؤتة مع خالد بن الوليد"[5].

---

(١) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٦٩.
(٢) منير غضبان، فقه السيرة، ص ٥٤٨.
(٣) غزوة مؤتة والسرايا، ص ٣٥٠.
(٤) الشريف: مكة والمدينة، ص ٥٣٧.
(٥) أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/ ٤٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم لم يخرِّجاه.

وفي اللحظة المناسبة، يتدخَّل القائدُ البصيرُ المُحَنَّك الذي يدرك معنى النَّصر الحقيقي، ويدرك ظروف وملابسات معركة مؤتة، وما أبداه المسلمون فيها من بسالةٍ، وبطولاتٍ حقيقيةٍ أذهلت أعداءهم.

ويدرك ما قام به خالد والمسلمون من تنظيم انسحابٍ رائعٍ ومنظَّمٍ. يتدخَّل رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوةٍ ليَرُدَّ عن الجيش البطل الشجاع، ويرُدَّ على تعيير أهل المدينة لهم بالفُرَّار قائلاً: **«ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى»**[1].

ويأمر سلمة وغيره مِمَّن تحرَّج من تعيير المسلمين بالخروج إلى الصَّلاة دون حرج، ودون وجل، فهم أبطال كرَّار على العدوِّ إن شاء الله تعالى، وليسوا فُرَّارا.

وحتَّى يُرَسِّخ هذه الحقيقة في نفوس الجميع، اجتمع رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الجيش وقائده البطل خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقام عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقصَّ على النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قصة المددي[2]، وما فعل خالد فقال: خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مَدَديّ من اليمن... ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له اشقر عليه سرج مذهب وله سلاح مذهب، فجعل الرومي يضرب بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفر الرومي، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى بالسلب للقاتل؟ قال بلى - ولكني أستكثرته، قلت لتردنها إليه أو لاعرفنكها عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله فقصصت عليه قصة المددي ومافعل خالد، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا خالد ماحملك على ماصنعت؟»** قال: استكثرته، فقال: **«رد عليه الذي أخذت منه»**.

قال عوف: فقلت: دونكها ياخالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وما ذلك؟»** فأخبرته قال: فغضب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ووافقه الذهبي.

(١) ابن هشام، سيرة ٤/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) مددي أي جاء مدداً. وفي رواية: رجل من حمير.

وقال: «**ياخالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره**»[(١)] .

هذا موقف عظيم من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقص ولا إهانة، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه وإنما اجتهد فغلّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته في الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك، لأنه - والحال هذه - قد دخل في أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر شيئاً من التشفي من خالد، ولم يقره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً وبين حق الولاة على جنودهم، وكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرا خالداً بعد رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع، لأنه لايمكن أن يأخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنساناً بجريرة غيره، فلابد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر[(٢)] .

إن الأمة التي لا تقدر رجالها ولا تحترمهم لايمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليماً، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يحترم ويقدر، بمقدار مايقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الاطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٥٤] .

وفي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل أنتم تاركون لي أمرائي**» وسام آخر يضاف إلى خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث عُدَّ من أمراء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا من المنهاج النبوي

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، ص١٣٧٣ رقم ١٧٥٣ .
(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي، ٧/ ١٣٠ .

الكريم في تقدير الرجال[1] .

حزن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على قتلى مؤتة:

وهكـذا دافـع الـنَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خالد وأصحابه ، وكرَّمهم في أكثر من مناسبة ، ولكنَّه مع ذلك قد وَجِدَ على مَن استشهد منهم ، فكما رأينا سابقاً كيف وَصَفَ للنَّاس حادث استشهادهم ، وعيناه تذرفان بأبي هو وأُمِّي ، - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم [2] .

وتُحَدِّثـنا أُم المؤمنين ، عائشة - رضي الله تعالى عنها - فتقول: "لَمَّا جاء قتل زيـد بـن حارثـة ، وجعفـر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، جلس رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْـرَفُ فـيه الحُـزْن ، قالت عائشة: وأنا أطَّلِع من صائر الـباب - تعـني مِـن شِـقّ الـباب - فأتـاه رجـل ، فقـال: إي رسـول الله! إنَّ نساء جعفر[3] . . وذكر بكاءهُنَّ ، فأمره أن ينهاهُنَّ . . . "[4] .

ثُمَّ إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أهله ، فقال: «**اصنعوا لأهل جعفر طعاماً فإنَّهم قد جاءهم ما يشغلهم**»[5] .

قـال عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "ثُمَّ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم ، فقال: لا تـبكوا علـى أخـي بعـد الـيوم ، ثُـمَّ قـال: ائتونـي بـبني أخي ، فجيء بنا ، كأنَّا أفـراخ[6] ، فقـال: ادعوا إليَّ الحلاَّق ، فجيء بالحلاَّق فحلق رؤوسنا ، ثُمَّ قال: أمَّا مُحَمَّـدٌ فشبيه عمنا أبي طالب ، وأمَّا عبد الله فشبيه خَلْقِي وخُلُقِي ، ثُمَّ أخذ بيدي فأشـالها[7] ، فقـال: اللَّهُمَّ اخلف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه -

---

(١) معين السيرة ، ص٣٧٨ .

(٢) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٤٥٢ .

(٣) قـال ابـن حجـر (فتح ٧/ ٥١٤): يُحتمل أنه يريد زوجاته ، ويحتمل أن يريد من يُنسب إليه مـن النساء في الجملة . وهذا الثاني هو المعتمد ، لأنا لا نعرف لجعفر زوجة غير أسماء بنت عميس .

(٤) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧) .

(٥) أخـرجه أبـو داود ، (انظـر: عون المعبود ، حديث: ٣١١٦) . والترمذي ، (انظر: تحفة الأحوذي ، حـديث: ١٠٠٣) . وابـن ماجـه ، (السنن ، حديث: ١٦١٠) . والحاكم ، (المستدرك ١/ ٥٢٧) . والدارقطني ، (٢/ ٧٨ - ٧٩) .والبيهقي ، (السنن ٤/ ٦١) .والطبراني ، (المعجم ٢/ ١٠٨) .

(٦) أفراخ: جمع فرخ ، وهو ولد الطائر .

(٧) أشالها: أي رفعها بيده .

قالها ثلاث مرات - ثُمَّ جاءت أُمّنا فذكرت يتمنا، وجعلت تُفَرِّح له[1]، فقال: «**العيلة تخافين عليهم وأنا وليُّهم في الدُّنيا والآخرة!**» [2].

وهكذا كان المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطوفاً رحيماً، رقيق القلب، يواسي أُسَر الشهداء ويدعو لهم ولأبنائهم، ويكفلهم برعايته وحنانه.

فهذا أُسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يقف أمامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيتذكَّر أباه، فتدمع عيناه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شوقاً إليه، وحناناً وعطفاً به[3].

ولا غرابة في ذلك، فهو نبيُّ الرحمة المهداة. فها هو - أيضاً - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يخفِّفُ عن أصحابه لَمَّا اشتدَّ حزنهم على مَن أُصيب في مؤتة، وبكوا: وهم حوله، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قُتِلَ خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل مِنَّا، قال: لا تبكوا، فإنَّما مثل أُمَّتي مثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتثَّ[4] رواكبها، وهيأ مساكنها، وحلق سعفها[5]، فأطعَمَت عاماً فوجاً، ثُمَّ عاماً فوجاً، ثُمَّ عاماً فوجاً، ولعلَّ آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً، وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدنَّ ابن مريم في أُمَّتي خلفاً من حواريه".

وفي رواية أخرى: «**ليدركن المسيح من هذه الأُمَّة أقوام إنَّهم لمثلكم أو خير منكم - ثلاث مرَّات - ولن يخزي الله أُمةً أنا أولها والمسيح آخرها**» [6].

وهكذا كان وَجْدُ الصَّحابة - رضي الله تعالى عنهم - على مَن أُصِيبوا بمؤتة شديداً، وكان مِمَّا بُكِيَ به أهل مؤتة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قول حسَّان بن ثابت[7]:

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرِبَ أَعْسَرُ ::: وَهَمٌّ إِذا نُوِّمَ النَّاسُ مُسْهِرُ[8]

---

(١) من أفرحه إذا غمَّه، وأزال عنه الفرح، وكأنَّما أرادت أنَّ أباهم توفي ولا عشيرة له.

(٢) أخرجه النسائي، (السنن الكبرى ٥/ ١٨٠)، وأحمد، (المسند، حديث رقم: ١٧٤٩)، والطبراني، (المعجم ٢/ ١٠٥)، وابن سعد، (الطبقات ٤/ ٣٦ - ٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، (المصنّف١٤/ ٥١٩). وهذا لفظه، وابن سعد، (الطبقات٤/ ٦٣).

(٤) اجتث: اقتلع.

(٥) أي قصَّ سعف نخلها، والسعف من النخل بمثابة الورق من الشجر.

(٦) أخرجه الحكيم الترمذي (نوادر الأصول ص ١٥٧)، ابن أبي شيبة (المصنف ٤/ ٥١٧)، وحسَّن ابن حجر (فتح ٧/ ٦) إسناده، كما أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/ ٤٣). وصحَّحه المناوي (فيض القدير٥/ ٣٥٣).

(٧) ابن هشام (سيرة ٤/ ٣٨٣ - ٣٨٤).

(٨) تأوَّبني: أي عاودني ورجع إليَّ. وأعسر: معناه عسير. ومسهر: أي مانع من النوم.

فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابه ::: سَفُوحاً وَأَسْبَابُ الْبُكَاء التَّذَكُّرُ[1]
فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرَ مُوَسَّدِ ::: وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ
أغرٌّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِن آلِ هَاشِمٍ ::: شَعُوباً وخلفاً بعَدَهُم يَتأخَّرُ[2]
غَداة مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ ::: بِمُؤْتَةَ مِنْهُم ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ[3]
وزَيْدٌ، وعبدُ الله حِينَ تَتَابَعُوا ::: جَمِيعاً وَأَسْبَابُ المَنِيَّةِ تَخْطُرُ
فَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُواْ ::: إلَى المَوْتِ مَيْمُون النَّقِيبَةِ أَزْهَرُ[4]
رَأَيْتُ خِيَارَ النَّاسِ تَوَارَدُواْ ::: أَبِيٌّ إذَا سِيمَ الظُّلامَةَ مُجْسِرُ[5]
بَلَى! إنَّ فُقْدَانَ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ::: بِمُعْتَرَكٍ فِيهِ القَنَا مُتَكَسِّرُ[6]
لِذِكْرَى حَبِيبٍ هَيَّجت لِي عَبْرَةٌ ::: جِنَانٌ وَمُلْتَفُّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ[7][8]

الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة:

- جواز تعليق الإمارة بشرط:

قال ابن حجر: "وفي الحديث جواز تعليق الإمارة بشرط [9].

فقد عين الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة أميرا على الجيش، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن أبي رواحة [10]. وقد اتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السرية هذا الإجراء احتياطيًا للمرة الأولى، حيث ولّى عددا من الأمراء بالترتيب، والراجح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توقع أن تحف بالسرية الأخطار بسبب بعد المسافة، وجهلهم بالمنطقة التي وجهوا إليها، وعدم حصول تجربة سابقة في الاحتكاك بقوات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها من القبائل العربية في بلاد الشام».

---

(١) عبرة: أي دمعة. والسفوح: السائلة.
(٢) تواردوا شعوب - بفتح الشين - اسم للمنية، من قولك: شَعبت الشيء إذا مزَّقته. وخلفاً: يعني مَن يأتي بعد.
(٣) أسباب المنية تخطر: يقال خطر في مشيته، إذا تبختر فيها وتحرَّك.
(٤) ميمون النقيبة: أي مسعود ومنجح فيما يطلبه، وأزهر: أي أبيض.
(٥) أبيٌّ: عزيزٌ. سيمَ: إذا كلِّف. مجسر: كثير الجسارة.
(٦) المعترك: موضع الحرب.
(٧) الحدائق: الجنات، واحدتها حديقة.
(٨) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٤.
(٩) فتح الباري، ٧/ ٥١٣.
(١٠) الواقدي، المغازي ٢/ ٧٥٦، وابن سعد، الطبقات ٢/ ١٢٨.

وقال ابن حجر: "وفيه جواز تولية عدّة أمراء بالترتيب، وقد اختلف: "أتنعقد الولاية الثانية في الحال أم لا؟ والذي يظهر أنها في الحال تنعقد، ولكن بشرط الترتيب". وقيل: "تنعقد للأول فقط، وأما الثاني فبطريق الاختيار". واختيار، الإمام مقدم على غيره لأنه أعرف بالمصلحة العامّة[1]".

وفيه جواز التأمّر في الحرب بغير تأمير. قال البيهقي: "وفيه دلالة على أنّ الناس إذا لم يكن عليهم أمير، ولا خليفة أمير، فقام بإمارتهم مَنْ هو صالح للإمارة، وانقادوا له، انعقدت ولايته[2]".

وذكر البغوي - نقلاً عن الخطّابي: "أنّ خالد بن الوليد تأمّر عليهم بعد ما أصيب الأمراء، من غير تأمير من النبيّ ﷺ لمكان الضرورة، وذلك أنه نظر فإذا هو في ثغر مخوف لم يأمن فيه ضياع المسلمين، فأخذ الراية، وتولّى أمر المسلمين، ورضيه رسول الله ﷺ، فصار هذا أصلاً في كلّ أمر حدث ممّا سبيله أن يتولاّه الأئمّة، ولم يشهدوه، وخيف عليه الضياع، إنّ القيام به واجبٌ على من شهده من جماعة المسلمين، وإن لم يتقدّم منهم في ذلك، وكذلك إن وقع ذلك في واحدٍ خاصٍ، نحو أن يموت رجلٌ بفلاة، فإنّ على من شهده حفظ ماله وإيصاله إلى أهله، وإن لم يوص به، كما يجب تكفينه وتجهيزه، لأنّ أمر الدّين على التّعاون والتّناصح[3]".

- جواز الاجتهاد في زمن النّبيّ ﷺ:

وفيه جواز الاجتهاد في زمن النّبيّ ﷺ [4]".

فضل خالد بن الوليد رضي الله عنه:

- وفيه فضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث سمّاه رسول الله ﷺ، سيف الله، ولم يزل يعرف بهذا الاسم فيما بعد[5]".

حكم عقر جعفر - رضي الله تعالى عنه - لفرسه:

- أمّا عقر جعفر - رضي الله تعالى عنه - لفرسه، فاختلف في حكمه، فقد

(١) فتح الباري، ٧/ ٥١٣.
(٢) السنن الكبرى، ٨/ ١٥٤.
(٣) شرح السنة ١١/ ٥، وفتح الباري ٧/ ٥١٣.
(٤) فتح الباري ٧/ ٥١٣.
(٥) انظر: العامري، بهجة المحافل ١/ ٣٩٣، ابن حجر، فتح ٧/ ٥١٣.

علّق أبو داود على حديث عقر جعفر - رضي الله تعالى عنه - لفرسه في المعركة بقوله: "ليس هذا الحديث بالقوي[1]، وقد جاء نهي كثير من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تعذيب البهائم وقتلها عبثاً[2]".

قال السّهيلي: "وأمّا عقر جعفر فرسه، ولم يعب ذلك عليه أحد، فدلّ على جواز ذلك إذا خيف أن يأخذها العدو، فيقاتل عليها المسلمين، فلم يدخل هذا في باب النهي عن تعذيب البهائم وقتلها[3]".

وقال ابن قدامة: "ويقوى عندي أنّ ما عجز المسلمون عن سياقه وأخذه، إن كان مِمَّا يستعين به الكفّار في القتال، كالخيل، جاز عقره وإتلافه، لأنّه مِمَّا يحرم إيصاله إلى الكفّار بالبيع، فتركه لهم بغير عِوَض أولى بالتحريم، وإن كان مِمَّا يصلح للأكل فللمسلمين ذبحه والأكل منه مع الحاجة وعدمها، وما عدا هذين القسمين لا يجوز إتلافه؛ لأنّه مجرّد إفساد وإتلاف، وقد نهى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذبح الحيوان لغير مأكله[4]".

الحكم باستشهاد القادة الثلاثة - رضي الله تعالى عنهم:

وفي الحديث: "الحكم باستشهاد القادة الثلاثة - رضي الله تعالى عنهم، فهم مِمَّن يقطع لهم بالجنّة، وذلك بشهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، وذكر ذلك ابن كثير[5]".

وفي حديث الجناحين اللذين أثابهما الله عز وجل جعفراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه بدلاً من يديه اللتين قُطِعَتا، اختلف في معنى الجناحين، أهما على الحقيقة أم لا؟". قال ابن حجر: "روى النسفي عن البخاري أنه يقال لكلّ ذي ناحيتين جناحان، وأنّه أشار إلى أنّ الجناحين في هذه القصّة ليسا على ظاهرهما[6]".

وقال السهيلي: "وممّا ينبغي الوقوف عليه في معنى الجناحين أنّهما ليسا كما يسبق إلى الوهم على مثل جناحي الطّائر وريشه، لأنّ الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، وفي قوله - عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّ الله خلق آدم على صورته**»، تشريف

(١) أخرجه أبو داود (السنن ٣/ ٦٢ - ٦٣)، وذكره ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٧٨.
(٢) السّنن، ٣/ ٦٢ - ٦٣.
(٣) الروض الأنف، ٧/ ٣٦ - ٣٧.
(٤) المغني، ١٣/ ١٤٦.
(٥) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٥.
(٦) فتح الباري، ٧/ ٥١٥.

لـه عظيم، وحاشا للّه من التّشبيه والتّمثيل، ولكنها عبارة عن صفة ملكية، وقوة روحانية، أعطيها جعفر كما أعطيتها الملائكة، وقد قال الله تعالى لموسى: ﴿اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢]. فعبّر عن العضد بالجناح توسعاً، وليس ثَمَّ طيران، فكيف بمن أعطي القوة على الطيران مع الملائكة أخليق إذاً أن يوصف بالجناح مع كمال الصّورة الآدمية، وتمام الجوارح البشريّة، وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة: "ليست كما يتوهم من أجنحة الطير، ولكنّها صفات ملكية لا تفهم إلاّ بالمعاينة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١]. فكيف تكون كأجنحة الطير على هذا، ولم ير طائر له ثلاثة أجنحة ولا أربعة، فكيف بستمائة جناح كما في صفة جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدلّ على أنّها صفات لا تنضبط كيفيتها للفكر، ولا ورد - أيضاً - في بيانها خبر، فيجب علينا الإيمان بها، ولا يفيدنا علماً إعمال الفكر في كيفيتها، وكلّ امرئ قريب من معاينة ذلك[(١)]".

السَّلَبَ قليلا كان أو كثيرا للقاتل لا يُخَمَّس:

- وفي حديث المدديّ، وقصّته مع خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من الفقه، كما ذكر الخطابي: "أنَّ الفَرَس مِن السَّلَب، وأنّ السَّلْبَ قليلاً كان أو كثيراً؛ فإنّه للقاتل لا يُخَمَّس، ألا ترى أنّه أمر خالداً بردّه عليه مع استكثاره إيَّاه، وإنّما كان ردّه إلى خالد بعد الأمر الأوّل بإعطائه القاتل نوعاً من النكير على عوف، وردعاً له وزجراً لئلاً يتجرأ الناس على الأئمة، ولئلاً يتسرعوا إلى الوقيعة فيهم، وكان خالد مجتهداً في صنيعه ذلك، إذ كان قد استكثر السَّلْبَ، فأمضى له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتهاده لِمَا رأى في ذلك من المصلحة العامّة بعد أن كان خطَّأَه في الرأي الأوّل، والأمر الخاصّ مغمور بالعامّ، واليسير من الضرر محتمل للكثير من النفع والصلاح، ويشبه أن يكون النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عوَّض المَدَديَّ من الخُمُس الذي هو له، وترضَّى خالداً بالصَّفْح عنه، وتسليم الحكم له في السَّلَب[(٢)]".

ونلاحظ أن خالدا لما أخطأ في اجتهاده بمنع القاتل من السلب الكثير أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضع الأمر في نصابه بإعادة الحق إلى صاحبه ولكنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غضب لما سمع عوفا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرّض بخالد ويتهكم عليه بقوله: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عوف قد جرّ

(١) الروض الأنف، ٧/ ٣٨ - ٣٩.
(٢) الخطابي، شرح سنن أبي داود، حاشية، ٣/ ١٦٤، وانظر، البغوي، شرح السنة، ٣/ ١١.

بـرداء خالد لّما مرّ بجانبه فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُعطه يا خالد**» وهذا من باب ردّ الاعتبار إلى الأمير والقائد لأن في حفظ مكانته بين الناس مصلحة ظاهرة.

جواز الإعلام بموت الميت:

- ويستفاد من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعى زيـداً، وجعفراً، وابن رواحة، قبل أن يأتيهم الخبر"... الحديث. جواز الإعلام بمـوت الميت، ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، قال ابن المرابط: "النعي الذي هـو إعلام الناس بموت قريبهم مباح، وإن كان فيه إدخال الكرب والمصائب على أهلـه، لكـن في تلـك المفـسدة مصالح جمّة لما يترتّب على معرفة ذلك من المبادرة لـشهود جـنازته، وتهيـئة أمره، والصلاة عليه، والدّعاء له، والاستغفار، وتنفيذ وصاياه وما يترتّب على ذلك من الأحكام".

وأمّـا نعي الجاهليّة: "فقال سعيد بن منصور: "أخبرنا ابن علية، عن ابن عون قال: "قلت لإبراهيم: "أكانوا يكرهون النعي؟ قال نعم".

قـال ابـن عـون: "كانوا إذا توفي الرجل ركب رجل دابة، ثُمَّ صاح في النّاس: "أنعـى فلانـاً"، وبـه إلى ابـن عـون قـال: قال ابن سيرين: "لا أعلم بأساً أن يؤذن الرجل صديقه وحميمه".

وحاصـله أنّ محض الإعلام بذلك لا يكره، فإن زاد على ذلك فلا، وقد كان بعض السلف يُشَدِّد في ذلك حتى: "كان حذيفة إذا مات له الميّت يقول: "لا تؤذنوا بـه أحـدًا، إنّي أخاف أن يكون نعياً، إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُذُنيَّ هاتين ينهى عن النعي". أخرجه الترمذي، وابن ماجه بإسنادٍ حسنٍ".

قال ابن العربي: "يؤخذ من مجموع الأحاديث ثلاث حالات:

الأولى: إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح، فهذا سُنة.

الثانية: دعوة الحفل للمفاخرة، فهذه تكره.

الثالثة: الإعلام بنوعٍ آخر كالنياحة ونحو ذلك فهذا يَحْرُم[1].

معجزة إعلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستشهاد القادة:

- وفي إخـبار الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النّاس بمصاب أهل مؤتة، علم ظاهر من

(١) ابن حجر، فتح الباري ٣/ ١١٦ - ١١٧، ٧/ ٥١٣، غزوة مؤتة والسرايا، ص ٤٥٦.

أعلام النُّبوّة[(١)]".

مشروعية الحزن علي فقد عزيز وإقامة العزاء:

- وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي ذكرت فيه ظهور الحزن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما عرف بمصاب أصحابه في مؤتة من الفوائد:

بيان ما هو الأولى بالمصاب من الهيئات، ومشروعية الانتصاب للعزاء على هيئته، وملازمة الوقار والتثبُّت".

ويؤخذ منه - أيضاً: "أنّ ظهور الحزن على المصاب إذا أصيب بمصيبة لا يخرجه عن كونه صابراً راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يُقال: "إنّ مَن كان ينْزعج بالمصيبة ويعالج نفسه على الرضا والصبر أرفع مرتبة مِمَّن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلاً، أشار إلى ذلك الطبري[(٢)]".

مشروعية صنع الطعام لأهل الميت:

وفي حديث أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصنع طعام لآل جعفر، فيه ندب تهيئة طعام لأهل الميّت، والإلحاح عليهم في أكله لئلا يضعفوا بتركه[(٣)]".

قال السهيلي: "وهذا أصل في طعام التعزية، وتسميه العرب الوضيعة"[(٤)]".

قال ابن إسحاق: "سمعت عبد الله بن أبي بكر يقول: "لقد أدركت الناس بالمدينة إذا مات لهم ميّت، تكلّف جيرانهم يومهم ذلك طعامهم، فلكأني أنظر إليهم قد خبزوا خبزاً صغاراً، وصنعوا لحماً، فجُعِل في جفنة، ثُمّ يأتون به أهل الميّت، وهم يبكون على ميِّتهم، مشتغلين، فيأكلونه لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهله حين أُصيب جعفر: **«لا تغفلوهم أن تصنعوا لهم طعاماً يومهم هذا، ثُمَّ إنّ الناس تركوا ذلك»** [(٥)].

إظهار الحزن ثلاثا:

- وفي حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقوله: "ثُمَّ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثُمّ أتاهم فقال: **«لا تبكوا على أخي بعد اليوم»**.

(١) فتح الباري، ٧/ ٥١٣.
(٢) فتح الباري، ٧/ ٥١٤ - ٥١٥.
(٣) العامري، بهجة، ١ / ٣٩٠ - ٣٩١.
(٤) الروض، ٧/ ٤٢.
(٥) البيهقي، دلائل ٤/ ٣٧٠.

قال ابن كثير: "وهذا يقتضي أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرخص لهم في البكاء ثلاثة أيام، ثُمَّ نهاهم عنه بعدها[1]".

- جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفي:

أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما نعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعاً لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ماكان سائداً عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

- زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتزوجها وولدت له محمد بن أبي بكر وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب وولدت له أولاداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنها وعنهم أجمعين[2].

وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفك نفسي حزينة ::: عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى ::: أكر وأحمر في الهياج وأصبرا[3]

مشروعية الرثاء:

- أمّا بالنسبة للمراثي[4] التي قيلت في أهل مؤتة، فيؤخذ منه جواز رثاء الميّت، وقد رثت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أباها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورثاه غيرها، وفعله كثيرٌ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم من العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وما ورد من النهي عنها محمول على ما يظهر فيه تبرم أو على فعله مع الاجتماع له، أو على الإكثار، أو على ما يجدد الحزن[5]".

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٢ . وكانت الرخصة في البكاء العادي، وليس النياحة المنهي عنها ابتداءً.
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٤) جمع مرثية، وهي عدّ محاسن الميّت نظماً ونثراً.
(٥) العامري: "بجهة المحافل، ١/ ٣٩٥.

ومما يدلّ على جوازه أيضاً هو فعل الصحابة له في حياة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حيث رثى الشعراء من الصحابة أمثال حسّان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وغيره شهداء بدر ، وأُحُدٍ ، وغيرهما من الغزوات والسرايا دون اعتراض من النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِمَّا يعدّ تقريراً لذلك". والله تعالى أعلم"[١] .

الدروس المستفادة:

لقد خرج المسلمون من هذه الغزوة بدروس وعبر جمها ، علي الأمة أن تضعها في اعتبارها في شتى شئونها من هذه الدروس:

أهمية معركة مؤته:

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم ، لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين ، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية ، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان ونستطيع أن نقول أن تلك الغزوة هي خطوة عملية قام بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام ، فقد هز هيبتها من قلوب العرب وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين ، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني ، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم ، ومعرفة أساليبهم في القتال[٢] .

- أخلاق الحرب في الإسلام [الوصايا التي زود بها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش مؤتة]:

فلقد كانت التوصيات التي تزوّد بها جيش مؤتة من القائد الأعلى للقوات الإسلامية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعَدُّ من أعظم وأرقى قوانين حرب الفروسية المشرفة على مدى التاريخ الإنساني قاطبةً ، فلَمْ ولن تعرف أُمّة من الأُمَم السابقة واللاحقة مثل تلك الآداب الحربية التي كان المسلمون يطبّقونها في حروبهم ضدّ أعدائهم ، والتي تُعدّ بحقّ وثيقة فعلية تطبيقية لحقوق الإنسان على أرض الواقع ، لا على واقع الحبر والورق ، وأرفف المنظمات والهيئات ، لقد كان الجندي المسلم يسير بانضباطٍ عجيبٍ ، مطَبِّقاً الأوامر والتعليمات الصادرة إليه من رؤسائه

(١) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٤٥٨ .
(٢) الصراع مع الصليبيين ، ص٦٤ .

بصورةٍ تلقائية عفوية ، لأنّه يعتبر ذلك جزءٌ حيويٌّ من دينه الذي يسعى ويحرص كلٍّ الحرص على تقديم الصورة الصحيحة عنه".

وهكذا كان كُلّ جنديٍ من جنود الإسلام الأوائل عبارة عن قدوة صالحة تمثّل الإسلام أصدق تمثيل في كلّ مكانٍ حلّ به .

"لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحلّلين على اختلاف مشاربهم ودياناتهم ، ولكن المُحلِّل المُنْصِف ستزول دهشته حتماً عندما يقرأ تلك التعاليم والوصايا النبوية لقوّاد وجنود السرايا والبعوث ، والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية ، وأصبح الذين شاركوا بالأمس في السرايا والبعوث مشاركين اليوم على رأس تلك الجيوش الفاتحة ، مقتدين نفس النهج ، سائرين على نفس الطريق الذي رسمه لهم قائد الأمة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حتى تلك الأوامر والتعاليم النبوية صارت تتكرّر على ألسنة الخلفاء ، وقادة جيوش الفتح فيما بعد"[1] .

"لقد كان تطبيق صحابة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدستور الحربي من أعظم الأسباب التي حبَّبت الإسلام إلى نفوس غير المسلمين ، فدخلوا فيه طائعين مختارين مستبشرين ، لأنّهم رأوا حقيقة الإسلام متمثلة في سلوك أولئك الأصحاب الكرام الذين ربّاهم القرآن ، وأدّبهم الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]" .

- إكرام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآل جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أسماء بنت عميس فقال: «**ائتني ببني جعفر**» ، فأتت بهم فشمهم وقبلهم وذرفت عيناه ، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم ، أصيبوا هذا اليوم ، فجعلت تصيح وتولول فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم[3] ، ونلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

- حب الشهاد باعث للتضحية:

إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة في نيل الشهادة لكي

(١) بريك أبو مايلة ، السرايا والبعوث حول المدينة ومكّة ، ص ٥٣ .
(٢) باشميل ، غزوة مؤتة ٢٦٤ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٨) .

يكرمهم الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ويدخلون جنات الله الواسعة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وتقدُّم المسلمين لملاقاة عدوّهم المتفوّق عليهم في العدد والعتاد، لأمرٌ يُثير الدهشة فعلاً، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على ما كان يتمتّع به أولئك القوم من إيمان عظيم وقويٍّ، ذلك الإيمان الذي جعلهم يستصغرون معه عدوّهم، وتنقلب معه موازين المعركة، فأصبح وقوداً أشعل نار الشجاعة والإقدام في نفوسهم، وأوقد الحماس في قلوبهم، وأيقظ كوامن قواهم البشرية المكنونة".

نعم! لقد كان الإيمان المتّقِد في جوانح أولئك القوم يجعلهم أُناساً آخرين، فتراهم يطيرون في ساحات الوغى إلى الموت طيراناً، وينقضّون على أعدائهم، وكأنهم عقبان تُلاحِق فرائسها، كيف لا!؟ وهم يتحسّسون الجنّة ونعيمها، وكأنّهم يرونها أمامهم رأين العين، فيندفعون إليها جارفين أمامهم سدود الأعداء، جاعلين منها طُرُقاً مُمَهَّدة للدخول إليها".

لقد تمثّلت هذه الحقيقة واضحة العيان في قتال القادة الثلاثة واندفاعهم بالمسلمين صوب أعدائهم في العمق، حتى أصبحت قصص استشهادهم صوراً رائعة للبطولة، يمكن أن يؤلف في كلّ واحدةٍ منها كتابٌ مستقلّ".

إنّهم فعلاً لا يقاتلون الناس بعددٍ ولا عدّة، كما ذكر عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القائد الثالث، وإنما يقاتلون بتأييد الله عز وجل لهم، ووعده إيّاهم بالنصر والتمكين، وسواء قُتِلُوا أم غَلَبُوا، فهم في كِلا الحالين فائزون برضَى الله عز وجل عنهم، وموعودون بالأجر العظيم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٧٤][(١)].

من فقه القيادة:

إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبدالله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً. وفي زحمة الأحداث قالوا أنت، قال: ماأنا بفاعل... فاصطلح الناس على خالد.

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٩.

وفي رواية أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به فقال: والله ماأخذته إلا لك.

إن مضمون كلا الروايتين واحد، أن ثابتاً جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد(١)، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا. ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين - وهو ممن حضر بدراً - ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على اسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل(٢).

إن كثيراً ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفاً على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى اولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد(٣).

- تموين الجيش الإسلامي وتسليحه:

وضّحت رواية عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ تموين جيش المسلمين كان يعتمد أحياناً على تبرعات الموسرين دون المشاركين فيه، وتلك عادة حسنة للعرب في جاهليتهم(٤)، زادها الإسلام قوّة وتماسكاً حيث كان الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - يتسابقون في الإنفاق في سبيل الله تعالى باعتبار أنّه جهاد في سبيل الله بالإضافة إلى مجاهدتهم بأنفسهم، وذلك طاعة لله تبارك وتعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلباً للأجر والمثوبة العظيمة من الباري عز وجل.

كما وضحّت الرواية كذلك مدى بساطة تسليح المسلمين بالمقارنة مع ما كان عليه الروم وحلفاؤهم من البهرجة والغطرسة والغرور، وتوضح أيضاً مدى

(١) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٢٤).
(٢) من معين السيرة للشامي، ص٣٧٦.
(٣) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٤٩٦.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٢٥٩.

بسالة جند الإسلام الأوائل، ومحاولتهم التواؤم مع الظروف، وعدم التسليم للنقص الواضح في عدّتهم وعتادهم، ولكن حسب إمكاناتهم، كما فعل ذلك المَدَدِيّ بصنعه درقة له من جلد الجزور".

يقول أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لقد فتح الفتوح قوم ما كانت حلية سيوفهم الذهب والفضّة، وإنما كانت حلية سيوفهم العُلابي[1]، والآنك[2] والحديد[3]".

مقاييس الإيمان وأثرها في المعارك:

لما توقف الجيش الإسلامي في معان يناقش كثرة جيش العدو وكانت المقاييس المادية لا تشجعهم على خوض المعركة ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبدالله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُردْفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وجاء المسلمون وغادروني ::: بأرض الشام مُشتهى الثّواء

فلما سمعتها منه بكيت. قال: فخفقني بالدرة وقال: وما عليك يالُكَعْ أن يرزقني الله الشهاد وترجع بين شعبتي الرَّحل[4].

إن المتأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (... هذا عظيم جداً أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين؛ أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله - عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لايُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها، دع غيره من الأبطال والشجعان

---

(١) العلابي: "الجلود الخام غير المدبوغة. وقيل: "العصب تؤخذ رطبة فيشد بها جفون السيف وتلوى عليها فتجف.

(٢) الآنك: "الرصاص.

(٣) أخرجه البخاري، انظر: "فتح الباري ٦/ ٩٥.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).

من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان...)[1].

- التقدير والإكرام والإعجاب الذي حظي به جيش مؤتة من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لقد كان التقدير والإعجاب والإكرام الذي حظي به أهل مؤتة من القائد الأعلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العوامل التي جعلت جيش المسلمين من أنجح جيوش العالم في ذلك الوقت، وأعظمها وأرفعها معنوية".

فحين يُقَدِّرُ القائد الجهدَ المبذول، ويعطيه حقّه من التقدير والإعجاب، بل ويُصَحِّح ردود الفعل الخاطئة التي كانت لدى بعضهم تجاه الجيش، لا شكّ أن ذلك يعطي أفراده الراحة النفسية التامّة، بل ويدفعهم إلى مزيدٍ من البذل، ومزيدٍ من العطاء بلا حدود، ومواصلة المشوار بلا تردد".

لقد كان المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيظل للأبد، من أنجح القادة العالمّيين على الإطلاق، وستظل مكافآته المعنوية سنية عظيمة، والتي كانت عبارة عن أوسمة رفيعة المستوى والشأن، على صدور حامليها غير مسبوقة، ولا ملحوقة بإذن الله تبارك وتعالى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها".

وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "نلاحظ تأكيد الشارع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراعاة حُرمة الأمير، والقائد، والإمام ومكانته بين الناس وترك التطاول عليه، وأنّ ذلك مِمَّا يفسد القلوب، ويؤدي بالتالي إلى التنازع المؤدّي للفشل، وفيه من الحض والتأكيد على السمع والطاعة لولاة الأمر مهما كانوا ومهما فعلوا ما لم يأمروا بمعصية".

وأنّهم يستحقون هذا الأمر لكونهم يكابدون مشقّة التّصدّي للأمور الخاصّة بالرّعية من السهر على راحتهم، والدفاع عنهم، يقول النووي: "ومعنى الحديث، أنّ الرعية يأخذون صفو الأمور، فتصلهم أعطياتهم بغير نكد، وتبتلى الولاة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها، وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية، والشفقة عليهم، والذّبّ عنهم، وإنصاف بعضهم من بعض، ثُمَّ متى وقع علقة أو عتب في بعض ذلك توجَّه على الأمراء دون الناس"[2].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٩.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٢/ ٦٥.

لقد كان المصطفى ﷺ دائماً وأبداً حريصاً على أمّته، رؤوفاً بهم، وفي تحذيره إياهم من منازعة أهل الأمر ومخالفتهم، فيه من المصلحة العامّة للأمّة ما لا يخفى إلاّ على المكابر المعاند، أو الجاهل المغرور، لأنّ ذلك مِمَّا يوقع الفتن المهلكة التي تهلك الحرث والنسل، وتكون وبالاً على الأمّة، تُدَمِّر اقتصادها، وتعصف بمجتمعاته الآمنة، ويذهب ضحيتها الأبرياء"[(١)].

- مواساته ﷺ لأسر الشهداء:

كانت مواساة النّبيّ ﷺ لأسر شهداء مؤتة، ورعايته وعطفه على أبنائهم، لفتة أبويّة حانية عطوفة من أبٍ رحيم عطوفٍ مشفق، لا يأل جهداً في التخفيف عن معاناة أولئك وغيرهم من أفراد المجتمع الإسلامي بأسره".

كيف لا! وهو الذي كان يفيض حناناً، وشفقةً، ورحمةً". كيف لا! وهو الذي كانت حياته ﷺ بأبي هو وأُمّي تكريساً لهذه الحقيقة".

ألم يصفه الباري عز وجل بذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وكفى بالقرآن دليلاً وشاهداً"[(٢)].

الفوائد التي اكتسبها المسلمون من نتائج غزوة مؤتة:

لقد "كانت معركة مؤتة إستطلاعية أفادت المسلمين كثيراً في معرفة خواص قوّات الروم، وأساليب قتالها، وخواص حلفائها من القبائل، وأساليب قتالهم وقوّتهم، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضدّ الروم، ولا تعدّ خسائر المسلمين الطفيفة شيئاً يُذْكَر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادت من الاطلاع على خواص قوات الروم وحلفائها، وتنظيمهما، وتسليحها، وأساليب قتالها، مِمَّا سترى أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد[(٣)]".

"وإذا كانت الأمور بنتائجها، والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهوراً على عدوّهم، أنهم تركوا في نفوسهم أثراً من الرهبة، جعلهم يحجمون عن قتالهم، وينكلون عن متابعتهم"[(٤)].

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٩.
(٢) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٩.
(٣) خطاب، الرسول القائد ٣٠٩.
(٤) الدويدار، صور ٥٢٧.

"ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة مؤتة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى ، فبينما رأى الروم تلك الغزوة غارة من الغارات التي اعتاد البدو شنّها بين حين وآخر ، كانت سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة في الحقيقة غزوة من نوع آخر ، لم تقدر إمبراطورية الروم أهميتها ، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمّة جديدة خاصّة ، جعلت المسلمين يتطلّعون جدّياً إلى فتح أرض الشام[1] .

وحقيقةً - كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ، قد كانت مؤتة إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم ، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله[2] .

سرية ذات السلاسل:

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة في جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة [3] بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أن قضاعة التي اشتركت في القتال إلى جانب الروم في مؤتة بدأت تتجمع مرة أخرى ، وتريد الاقتراب من المدينة لتهديدها ، كما كانت هذه السرية لتأديب الأعراب في تلك الناحية ، والأخذ بثأر المسلمين من القبائل التي اشتركت في غزوة مؤتة ضدّهم [4] ، كما ذكر بعضهم أنّه بناءً على نتيجة غزوة مؤتة ، كان لزاماً على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستردّ هيبة المسلمين ، ويُعِيد إليهم كرامتهم في تلك البلاد[5] .

وسواء قَصَدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأديب الأعراب ، وصدّ عدوانهم على أطراف الدولة الإسلامية عندما بلغته أخبار حشودهم وتحرُّكاتهم ، فتحرّك بسرعة لضربهم قبل استكمال استعداداتهم القتالية ، كما هي عادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائماً مع أعدائه ، أم أراد الثأر من القبائل العربية المتنصرة الحليفة للرومان ، والتي شاركت إلى جانبهم في مؤتة ، أو غير ذلك من الأسباب التي ذُكِرَت قديماً وحديثاً ، فإنّ السبب الحقيقي وراء ذلك كلِّه هو إعلاء كلمة الله عز وجل في تلك البقاع ،

---

(١) عبد العزيز زائد ، دروس من السيرة النبوية ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) ابن كثير ، الفصول في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٩٥ . غزوة مؤتة والسرايا ، ص٤٦٠ .

(٣) الطبري ، تاريخ ٣/ ٣١ ، ابن سيد الناس ، عيون ٢/ ٢٠٤ ، ابن القيم ، زاد ٢/ ١٥٧ ، والقسطلاني ، المواهب ١/ ٥٥٤ .

(٤) ابن سيد الناس (عيون ٢/ ٢٠٤) ، (البيهقي ، دلائل ٤/ ٣٩٩ - ٤٠٠) الغزالي ، فقه السيرة ٣٧٠ ، والدكتور سيد طنطاوي ، السرايا الحربية ، ص ١٣٦ ، اللواء خطاب ، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ص ٣٠٩ .

(٥) الشريف: مكّة والمدينة ٥٣٧ ، وهيكل: حياة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ص ٤١٥ .

ونـشر الدعوة الإسلامية ، بعد إزاحة القوى السياسية والعسكرية التي كانت تقف حجر عثرة في وجه نشر الإسلام في المنطقة .

والقـبائل العـربية المتنـصرة والحليفة للدولة البيزنطية كانت من تلك القوى ، وكانـت تقـوم بتحركات مشبوهة ونشاطات معادية للمسلمين في المنطقة الشمالية مـن الجزيـرة علـى أطراف الدولة الإسلامية ، وبخاصّة بعد مؤتة ، فكان لا بُدَّ من ردعهـا وإخـضاعها لـسيطرة المـسلمين ، لأنّ المـسلمين - أيـضاً - كانوا في وضع اسـتعدادي متناسـق ومتدرِّج لمنازلة الدولة البيزنطية ، إحدى القوَّتين العظميين في ذلـك الـوقت ، لوضع حد لسلطانهم ، والقضاء على قوّتهم العسكرية والسياسية المناهضة لنشر الإسلام في المنطقة [١] .

فعلـي الفـور جهـز الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـرية مـن ثلاثمائـة مـن المهاجرين والأنصار عهد بأمرها إلى عمرو بن العاص بهدف أن يقضي على خطر قضاعة في مهده [٢] .

فقـد بَعَـثَ رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . "فقال: خُـذ علـيك ثيابك وسلاحك ثُمَّ ائتني" . قال عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فأتيته وهو يتوضّأ ، فـصعّد فيَّ النظـر ، ثُـمَّ طَأطـأ ، فقـال: إنّـي أُريد أن أبعثك في جيش فيُسَلِّمك الله ويُغَـنِّمك ، وأرغـب لـك مـن المـال رغـبة صـالحة ، قال: قلت: يا رسول الله! ما أسـلمت مـن أجـل المال . ولكني أسلمت رغبة في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقال: «**يا عمرو! نِعْمَ المال الصّالح للمرء الصالح**» [٣] .

وفي المسجد النبوي الشريف ، كما هو المعتاد في مثل هذه الحالة ، تَتِمُّ مراسم تولية عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسمياً قائداً على الجيش .

يُحدِّثُـنا الحـارث بـن حسَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدمت المدينة: "فإذا المسجد غاصّ بأهلـه ، وإذا رايـة سـوداء تخفـق ، وبـلال مـتقلّد الـسيف بـين يـدي رسـولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلت: ما شأن النّاس؟" .

"قالـوا: هـذا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يـريد أن يـبعث عمـر بـن العـاص

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٩٨ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ٢/ ١٣١ ، ابن هشام ، سيرة ٤/ ٦٢٣ ، فتح الباري ، ٨/ ٧٤ .

(٣) أخـرجه أحمد (المسند ، حديث: ١٧٧٣٠) ، والبخاري ، (الأدب المفرد ص ٩٧) ، والحاكم ، (المستدرك ٢/ ٣) .

وجهاً"[١] .

وعقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر لواءً أبيض، وجعل معه راية سوداء: "وأمره أن يستعين بمن يَمُرُّ به من بليّ[٢] ، وعُذرة[٣] ، وبلقين"[٤] .

ولعل الحكمة من إرسال هذه السرية تحت قيادة عمرو بن العاص هو أن بني بلي هم أخوال عمرو حيث أنّ أمّ العاص بن وائل كانت امرأة من بليّ، فبعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم يستألفهم لذلك"[٥] .

فانطلق عمرو بالجيش وكان يسير بالليل ويكمن النهار. فلمّا قرب من القوم بلغه أنّ لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمدّه"[٦] .

فندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرين الأوّلين، فانتدب فيهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب في سراة المهاجرين، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجرّاح، فأمدّ بهم عمرو بن العاص"[٧] . وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: "لا تختلفا"[٨] .

"فلمّا قدموا على عمرو قال: أنا أميركم، وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم. قال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو: إنما أنتم مدد أُمْدِدتُ به، فلمّا رأى ذلك أبو عبيدة، وكان رجلاً حسن الخُلق، لَيِّن الشكيمة[٩] ، سعى لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وعهده. قال: يا عمرو إنّ آخر ما عهد إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قال: إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا، وإنّك إن عصيتني لأطيعنّك. فسلّم أبو عبيدة الإمارة

---

(١) أخرجه أحمد (المسند ٣/ ٤٨٢)، وأخرجه النسائي (السنن الكبرى ٥/ ١٨١).

(٢) بليّ: قبيلة كبيرة من قضاعة، يُنسبون إلى بلى بن عمرو بن قضاعة، ومن بلى جماعة من الصحابة. (قلائد الجمان، ص ٤٥، وفتح الباري ٨/ ٧٤).

(٣) بنو عذرة: قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسبون إلى عذرة بن سعد، وكانوا معروفين بشدّة العشق، وغلبة الهوى. (القلقشندي: قلائد الجمان، ص ٤٩، ابن حجر: فتح: ٨/ ٧٤).

(٤) أخرجه أحمد (المسند، حديث: ١٧٧٣٠)، والبخاري، (الأدب المفرد، ص ٩٧)، والحاكم، (المستدرك ٢/ ٣).

(٥) الطبراني، المعجم، ٢٠/ ٣٤٠، ابن هشام، سيرة، ٤/ ٦١٢.

(٦) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٣٣٧ - ٣٣٩، زاد المعاد، ٣/ ٢٨٤.

(٧) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٨) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٩) أي: ليّن الخُلق، سمحه.

لعمرو بن العاص"[١].

وتذكر بعض الروايات[٢] أنّ ذلك الأمر لم يرق لبعض المهاجرين باعتبار أسبقيتهم للإسلام، ورأوا أن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استبدّ بالإمارة دون أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنّه دارت مناقشات حول هذا الموضوع، ولكنّ أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبمّا عُرِفَ عنه من الحكمة والكياسة، استطاع إقناعهم بالحُسنى بأنّه آثر الطاعة والامتثال لأمر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خشية الفرقة والفتنة بين المسلمين[٣].

فأطاع الجيش كله لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان عمرو يُصَلّي بالناس، وكان الجوّ شاتياً شديد البرودة في تلك المناطق، ويوماً مّا: "أصابهم بردٌ شديدٌ، لَمْ يُرَ مثله، فخرج لصلاة الصّبح فقال: والله لقد احتلمت البارحة، ولكنّي والله ما رأيت برداً مثل هذا، أهل مرَّ على وجوهكم مثله؟ قالوا: لا. فغسل مغابنه[٤] وتوضأ وضوءه للصلاة، ثُمَّ صلَّى بهم". وفي رواية: «فتيمَّم»[٥].

وكان قبل ذلك قد أصدر أوامره بمنع إشعال النيران في المعسكر لمدّة ثلاثة أيام رغم حاجتهم للتدفئة، فغضب عمرِ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال لأبي بكر: "لِمَ لَمْ يدَع عمرو الناس أن يوقدوا ناراً ألا ترى إلى هذا الذي منع الناس منافعهم؟. فقال أبو بكر: دعه قائماً، ولاّه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا لعلمه بالحرب"[٦]. "فهدأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"[٧].

ثم أنّ المسلمين انطلقوا: حتّى نزلوا جبل طيء، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعلمه إلاّ رافع بن عمرو، فإنّه كان ربيلاً في الجاهلية"[٨].

---

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٢) انظر رواية الشعبي عند أحمد، المسند ١/ ١٩٦، ورواية الزهري عند عبد الرّزّاق (المصنّف ٥/ ٤٥٢ - ٤٥٤).

(٣) كان مِمَّا قال أبو عبيدة رضي الله عنه: "إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد إليّ وإليه أن لا تتعاصيا، فخشيت إن لم أُطعه أن أعصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدخل بيني وبينه الناس. وإني والله لأطيعنه حتى أقفل". تاريخ مدينة دمشق، ٢/ ٧٠.

(٤) المغابن: الأرفاغ. وهي بواطن الأفخاذ عند الحوالب. (الجوهري: الصحاح، وابن الأثير: النهاية، مادة: غبن).

(٥) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود ١/ ٥٣٢)، والحاكم (المستدرك ١/ ٢٨٥) وهذا لفظه.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ١٢/ ٥٣١).

(٧) أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/ ٤٥).

(٨) أي: كان لِصّاً في الجاهلية.

- بإمعان المسلمين في طلب القوم حتّى وصلوا إلى تلك المنطقة البعيدة نسبياً عن المنطقة المحدَّدة سلفاً لعمليات السّرية، ويُشير إليه طلب القائد البحث عن دليل بالطريق - ثُمَّ إنّهم لقوا في آخر ذلك جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرّقوا فنهاهم عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتبعوا العدوّ مخافة أن يكون لهم كمين من وراء الجبل"[1].

ويبدو أنّ نتيجة ذلك الإمعان في طلب العدوّ وتقصّيهم حتّى آخر بلادهم، نفذ تموين الجيش، فيقول عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فأصابتنا مخمصة[2] شديدة فانطَلَقتُ ألتمس المعيشة فالتَقَيتُ قوماً يريدون أن ينحروا جزوراً لهم، فقلت: إن شئتم كفيتكم نحرها وعملها وأعطوني منها، ففعلتُ فأعطوني منها شيئاً فصنعته، ثُمّ أتيت عمرو بن العاص فسألني مِن أين هو؟ فأخبرته. فقال: أسمعك قد تعجّلت أجرك، وأبى أن يأكله، ثُمّ أتيت أبا عبيدة بن الجرّاح فأخبرته، فقال لي مثلها، وأبى أن يأكله، فلمّا رأيت ذلك تركتها"[3].

وبعد أن أدّت السرية مهمّتها على أكمل وجهٍ، رجع عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجيش قافلاً إلى المدينة، وكان قد: "بعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشّره بما فتح الله عليهم"

قال عوف: "فلمّا قفل الناس من ذلك السفر كنت أوّل قادم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئته وهو يصلّي في بيته. فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته"[4].

قال: صاحب الجزور، ولم يزد عليَّ شيئاً"[5].

وتلك معجزة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد ذكر له خبر الجزور، قبل أن يتكلم ويخبره عن خبرهم في تلك السّرية.

وأثناء عودة الجيش إلى المدينة، وفي الطريق أراد رافع الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دليل المسلمين في السرية - أن يصحب رجلاً صالحاً من أفرادها ينفعه الله به، فتوسّم في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ١٢/ ٥٣١).
(٢) أي: جوع شديد.
(٣) البيهقي (الدلائل ٤/ ٤٠٥).
(٤) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٦٢٥ - ٦٢٦، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٧٤، البيهقي، دلائل ٤/ ٤٠٤.
(٥) البيهقي، الدلائل ٤/ ٤٠٥.

أبي بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خيراً، فصحبه، يقول رافع: "فوفّق لي أبو بكر فكان يُنَيِّمني على فراشه، ويلبسني كساء له من أكسية فدك"[1].

"فلمّا دنونا من المدينة قافلين قال: قلت: يا أبا بكر! إنّما صحبتك لينفعني الله بك، فانصحني وعلّمني. قال: لو لم تسألنِ ذلك لفعلت"[2]. قال: أتحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم. قال: تشهد ألاّ إله إلاّ الله، وأن محمّداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي الزكاة إن كان لك مال، وتحجّ البيت، وتصوم رمضان. حفظت؟ قلت: نعم. قال: وأخرى لا تُؤَمَّرَنَّ على اثنين. قلت: هل تكون الإمرة إلاّ فيكم أهل بدر؟ قال: يوشك أن تفشو حتّى تبلغك ومَن هُو دونك، إنّ الله لَمَّا بعثَ نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل فهداه الله، ومنهم مَن أكرهه السيف، فهم عوّاذ الله[3]، وجيران الله في خفارة الله[4]، إن الرجل إذا كان أميراً فتظالم الناس بينهم فلم يأخُذ لبعضهم من بعض، انتقمَ الله منه. إنّ الرجل لتُؤخذ شاة جاره فيظل ناتئ عضلته[5] غضباً والله من وراء جاره"[6].

قال: ففارقته على ذلك"[7].

فلمّا قدموا على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف وجدتم عمراً وصحابته لكم، فأثنوا عليه خيراً، وقالوا: يا رسول الله! صلّى بنا وهو جنب، فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرو فسأله، فأخبره بذلك وبالذي لقي مِنَ البرد، فقال: يا رسول الله! إنّ الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. ولو اغتسلت مُت. فضحك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرو"[8].

كما ذكروا للنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صنعه عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من منعه إيّاهم إشعال النيران في معسكرهم رغم البرد الشديد، وحاجتهم للنار في التدفئة،

---

(١) أخرجه ابن خزيمة، كما ذكر ابن حجر (إصابة ١/ ٤٩٧).
(٢) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦٢٤ - ٦٢٥.
(٣) أي: في عصمة الله ومنعه.
(٤) أي: في حراسة الله تبارك وتعالى.
(٥) أي: بارزاً عصب وجهه وحلقه، كنّى بذلك عن شدّة الغضب فإنه يبلغ من الشخص هذا المبلغ. والعضلة: هي كلّ لحمة مكتنزة غليظة.
(٦) أخرجه الطبراني، المعجم ٥/ ٢١، الهيثمي، مجمع ٥/ ٢٠٢.
(٧) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦٢٤ - ٦٢٥.
(٨) أخرجه أبو داود، انظر، عون المعبود ١/ ٥٣٢، والحاكم (المستدرك ١/ ٢٨٥) وهذا لفظه.

ومنافعهم الأخرى، وشكوا إليه - أيضاً - منعه إيّاهم إتباع العدوّ رغم هزيمته وفراره[1].

فقال: يا رسول الله إنّي كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوّهم قِلّتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم، فحمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره. فقال: يا رسول الله! من أحبّ الناس إليك؟ قال: «لِمَ؟» قال: لأُحبَّ مَنْ تُحبّ. قال: «عائشة». قال: من الرجال؟ قال: «أبو بكر»[2].

قال عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «عمر». فعدّ رجالاً فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم"[3].

الأحكام المستنبطة:

- جواز تأمير المفضول على الفاضل:

قال ابن حجر: وفي الحديث جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية، ومنقبة لعمرو بن العاص لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم، لكن يقتضي أنّ له فضلاً في الجملة[4].

- مزية أبي بكر على الرجال، وبنته عائشة على النساء:

وقال ابن حجر - أيضاً: وفي الحديث مزية أبي بكر على الرجال، وبنته عائشة على النساء[5].

- تفضيل أبي بكر، ثمّ عمر على جميع الصحابة:

- وقال النووي: وفيه دلالة تنبيه لأهل السُّنّة في تفضيل أبي بكر، ثُمَّ عمر على جميع الصحابة[6].

---

(١) الهيثمي (مجمع ٥/ ٣١٩)، ورواية ابن أبي شيبه (المصنف ١٢/ ٥٣١)، ورواية ابن حبان (كتاب السير، حديث ٤٥٢٣)، والحاكم (المستدرك ٣/ ٤٥).
(٢) خرجه ابن حبان (انظر: الإحسان، حديث ٤٥٢٣).
(٣) أخرجه البخاري (الصحيح ٤/ ١٩٢، ٥/ ١١٣) وقد أخرجه مسلم (الصحيح ٥/ ٩) وأحمد (المسند، حديث: ١٧٧٧).
(٤) فتح الباري ٨/ ٧٥.
(٥) فتح الباري ٨/ ٧٥.
(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٥٣.

وكان الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - يعرفون هذا الأمر جيِّداً، ومتداوَلٌ بينهم، حتّى إنّ الشّباب من صغار الصحابة كانوا يُفاضلون بين الصحابة بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقدّمون أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان، فلا يُنكر عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أخرج البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كُنَّا نخيّر بين الناس في زمن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنخيّر أبا بكر، ثُمّ عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"[1].

ونقل البيهقي عن الشافعي أنّه قال: "أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبي بكر، ثُمّ عمر، ثُمّ عثمان، ثُم عليّ"[2].

وفي قصّة رافع الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يظهر جليّاً تميُّز الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هيئته، ومظهره، وتعامله مع الناس، ذلك التميّز الواضح القويّ لاحظه رافع، فاختاره صاحباً له من بين جميع أفراد السرية، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على المواهب العظيمة التي حباها الله عز وجل لذلك الرجل العظيم. حيث عرف الناس فضله وتميُّزه، سواء القريبون منه في مجتمع المدينة الذين كانوا يرون بأعينهم، ويسمعون بآذانهم، ويلاحظون بحواسهم، تقديم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له وتفضيله إيّاه، وحديثه الدائم عنه عن أعماله الخَيِّرة في خدمة الإسلام منذ اللحظة التي صدّق فيها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أخرج البخاري في الصحيح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي فيه: فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله...**» الحديث[3].

أو الذين يرافقونه في البعوث والسرايا من الإعراب، فيلاحظون ذلك التميُّز المُلْفِت للنظر لشخصية الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال ما يرونه ويتوسّمونه فيه من خلال الخير، وأعمال البِرِّ، وحُسن الخُلُق، وكرامة المظهر، وحُسن التعامل، كما حدث هذا في هذه السرية، والله تعالى أعلم[4].

(١) فتح الباري ٧/ ١٦، ٥٣.
(٢) ذكر ذلك ابن حجر: (فتح الباري ٧/ ١٧)، نقلاً عنه.
(٣) البخاري، الفتح ٧ (٣٦٦١).
(٤) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٤٢٧.

جواز التيمم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك:

وفي حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنّه صلّى بأصحابه وهو جُنُب لخوفه من شدّة البر.

قال ابن حجر: "وفي هذا الحديث جواز التيمّم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك سواء كان لأجل البرد أم غيره"[1].

وقال الخطابي: "وفيه من الفقه أنّه جعل عدم إمكان استعمال الماء كعدم عين الماء، وجعله بمنْزلة مَن خاف العطش ومعه ماء، فأبقاه لشقته وتيمّم خوف التلف، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة: فشدّد فيه عطاء بن أبي رباح وقال: يغتسل وإن مات، واحتجّ بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُم جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٥]. وقال الحسن نحواً من قول عطاء. وقال مالك وسفيان: يتيمّم، وهو بمنْزلة المريض وأجازه أبو حنيفة في الحضر وقال صاحباه: لا يجزيه في الحضر، وقال الشافعي: إذا خاف على نفسه مِن شدّة البرد تيمّم وصلّى وأعاد كلّ صلاةٍ صلاّها كذلك، ورأى أنّه من العُذْر النّادر، وإنما جاءت الرّخص التامّة في الأعذار العامّة"[2].

جواز صلاة المتيمم بالمتوضئين وجواز الاجتهاد في زمن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وقال ابن حجر أيضاً: "وفي الحديث جواز صلاة المتيمِّم بالمتوضّئين، وجواز الاجتهاد في زمن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[3].

البعد عن الإمارة والرياسة:

وفي حديث رافع الطائي - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى -، وقصته مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنفيرٌ من التّعرُّض للرياسة، والوعيد لأهلها، وأمرهم بالاستقامة[4]. وقد وردت في معناه أحاديث كثيرة عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا أبا ذرّ! أراك ضعيفاً، وإني أُحِبّ لك ما أُحِبّ لنفسي، فلا تأمرنّ على اثنين، ولا تولينّ مال اليتيم". وعنه قال: "قلت: يا رسول الله! ألا استعملني؟ فضرب على منكبي فقال: يا «أبا ذرّ! إنّك ضعيف، وإنّها أمانة، وإنّها

(١) فتح الباري ١/ ٤٥٤.
(٢) حاشية سنن أبي داود ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩.
(٣) فتح الباري ١/ ٤٥٤.
(٤) العامري، بهجة المحافل ١/ ٣٦٥.

يوم القيامة حسرة وندامة إلاَّ مَن أخذها بحقّها، وأدّى الذي عليه فيها» .[1]

قال النووي: "هذا الحديث وما أشبهه أصلٌ عظيمٌ في اجتناب الولايات"[2] .

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة**»[3] .

الدروس من هذه السرية:

- إخلاص عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **:**

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتني**» ، فأتيته ، وهو يتوضأ ، فصعَّد فيَّ النظر ، ثم طأطأ ، فقال: «**إني أريد أن أبعثك على جيش[4]، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة**» ، قال: قلت: يارسول الله ما أسلمت من أجل المال ، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ياعمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح**»[5] .

فهذا الموقف يدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد بين له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح ، لأنه يبتغي به وجه الله ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته[6] .

- الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

عندما وصل المدد الذي بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو ، فقال له عمرو: إنما قدمت علي مدداً لي ، وليس لك ان تؤمني ، وأنا الأمير ، وإنما أرسلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليَّ مدداً ، فقال المهاجرون كلا ، بل أنت

---

(١) مسلم (الصحيح ٤/ ١٠٥) .
(٢) شرح صحيح مسلم .
(٣) البخاري (الصحيح ٨/ ١٠٦) .
(٤) جيش سرية ذات السلاسل .
(٥) رواه ابن حبان كما في الموارد ٢٢٧٧ ؛ صحيح السيرة ، ص٥٠٨ . صححه الألباني ، صحيح الأدب المفرد .
(٦) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٣) .

أمير أصحابك وهو أمير أصحابه، فقال عمرو: لا، بل أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف وكان حسن الخلق، لين الطبع قال: لتطمئن ياعمرو وتعلمن أن آخر ماعهد إليَّ رسول الله أن قال: إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا وأنك والله ان عصيتني، لأطيعنك فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس[1].

لقد أدرك أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن أي اختلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الفشل ومن ثم تغلب العدو عليهم، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جنديا تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تختلفا[2].

- عبقرية عمرو بن العاص:

ظهرت عبقرية عمرو العسكرية في ذات السلاسل في حرصه على وحدة الصف، وفي حرصه على سلامة قوته ويتجلى ذلك في عدة صورة منها:

١ - أنه كان يسير ليلاً ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره وبعد نظره أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما، فيستعد للقاء جيش المسلمين ولهذا رأى عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن السير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قواته وحقق بذلك أمرين مهمين:

- إخفاء تحركاته عن عدوه وبذلك يضمن سلامة قواته.

- حماية الجند من شدة الحر وحتى يبقى لهم نشاطهم فيصلون إلى مكان المواجهة، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

٢ - عدم السماح للجند بإيقاد النار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النار لحاجتهم الماسة إلى التدفئة منعهم من ذلك معتمداً في ذلك على خبرته الحربية وعمق فكره العسكري وخوفاً من وقوع مفسدة أعظم من تلك المصلحة وهي أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين - وهم قلة - لأعدائهم فيهجموا عليهم ويتجلى هذا الفقه في حزمه الشديد، مع أصحابه عندما كلمه أبو بكر في ذلك، فقال: لايوقد أحد منهم ناراً

---

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٢) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص٢٠٩.

إلا قذفته فيها، فلما رجعوا إلى المدينة ذكروا ذلك لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم، فأقره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فعله.

٣ - منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعدائهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم وتتبع فلولهم ولكن قائد السرية منع جنده من ذلك لئلا يترتب على هذه المطاردة مفسدة أعظم منها وهي أن يقع المسلمون في كمين ويتجلى هذا الفقه في قول عمرو بن ا لعاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد، فأقره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا التصرف الحكيم الذي حقق للجيش الأمن والحماية[١].

سرية أبي حدرد الأسلمي إلى الغابة:

وفي أعقاب سرية ذات السلاسل، تحدثت المصادر التي تعنى بالسيرة والتاريخ عن سريتين أخريين قبل فتح مكة، أولهما سرية ابن حدرد إلى الغابة.

وقد وقع الخلاف بين أهل المغازي في هذه السرية، فذكر الواقدي أنها كانت بقيادة أبي قتادة بن ربعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذكر فيها مشاركة عبد الله بن أبي حدرد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الذي جاء يستعين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نكاحه، فأرسله مع هذه السرية إلى غطفان نحو نجد لعله يصيب مهر زوجته، وفعلاً غنموا في تلك السرية نَعَمًا كثيرة وغنما بحيث كانت سُهمَانهم اثني عشر بعيرا[٢].

وكذلك أخرج الإمام مسلم في صحيحه[٣]. رواية مشابهة غير أنه لم يذكر فيها اسم الصحابي المستعين برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]، ولكن هناك بعض

---

(١) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٥٤٠.
(٢) الواقدي، مغازي، ٢/ ٧٧٧ - ٧٨٠، الهيثمي، مجمع، ٦/ ٢٠٦ - ٦٠٧.
(٣) النووي على مسلم، ٩/ ٢١٠ - ٢١١.
(٤) اختلفت الروايات في تسمية الصحابي المستعين برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرواية ابن خياط والطبري عن ابن إسحاق، والواقدي، وابن حجر ورد اسمه عندهم (عبد الله بن أبي حدرد) ونسبته رواية ابن هشام إلى أبيه، بينما وقع اسمه في رواية أحمد، ورواية البيهقي عن ابن إسحاق (أبو حدرد الأسلمي) ولعل الخلاف وقع لكون كل منهما له صحبة، فلعله اشتبه على بعض الرواة فجعلهما واحدا، أو أن كلمة ابن سقطت من بعض النساخ فتلقفها من بعده أبو حدرد، وباعتبار أن كليهما له صحبة لم يشك في الأمر وأمضاه. والله

القرائن الدالة على وحدة القصة مثل التاريخ الذي ذكره الواقدي للسرية لا يتعارض مع إمكانية رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخبر في الصحيح[(١)].

كما أن منطقة عمليات السرية وهدفها الذي توجهت إليه يكاد يكون واحدا في كلا الروايتين، ففي رواية الصحيح أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثهم إلى بني عبس، وفي رواية الواقدي أنه بعثهم إلى غطفان نحو نجد، ومعلوم أن بني عبس من غطفان ومسكنهم في نجد[(٢)] فرواية الصحيح أخص وأدق من رواية الواقدي.

وكذلك كون المرأة من الأنصار في الروايتين، وتقارب قيمة المهر المدفوع فيهما هو مائتا درهم في رواية الواقدي، وأربع أواق في رواية الصحيح، وقد صرح ابن حجر في "الإصابة" في رواية مختصرة ولكنها مماثلة لرواية الصحيح - خاصة فيما يتعلق بقيمة المهر - أنه ابن أبي حدرد نفسه[(٣)].

فكل هذه القرائن[(٤)] تعطينا بعض الدلائل التي يمكن بواسطتها الحكم بوحدة القصة[(٥)] إضافة إلي أن الحلبي اعتبرها قصة واحدة[(٦)].

وقد ذكر ابن إسحاق أن هذه السرية بعثها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الغابة[(٧)] بقيادة عبد الله بن أبي حدرد نفسه، وذلك لاستطلاع خبر رجل من جشم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس - أو قيس بن رفاعة - كان قد أقبل "في بطن عظيم من جشم حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة، يريد أن يجمع قيسًا على

تعالى أعلم .انظر: بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٩٢ .

(١) لأن أبا هريرة رضي الله عنه لم يهاجر إلا بعد خيبر، والتاريخ الذي ذكره الواقدي للسرية هو شعبان سنة ثمان، كما أن ابن حجر قد ذكر أن أول مشاهد عبد الله الحديبية ثم خيبر .

(٢) الكلبي، جمهرة النسب، ص٤١٤ .

(٣) ابن حجر، الإصابة، ٢/ ٢٩٥ .

(٤) استدل بعض أهل المغازي بقرينة واحدة هي عدد سهمان الجيش على جعل هذه السرية هي السرية التي خرج فيها ابن عمر رضي الله عنهما وجاء ذكرها في الصحيحين. انظر ابن سيد الناس، عيون، ٢/ ٢٠٩، والشامي، سبل، ٦/ ٢٩٠، وابن حجر، فتح، ٨/ ٥٦، والزرقاني، شرح، ٢/ ٢٨٤ .

(٥) انظر: بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٩٢ .

(٦) انظر الحلبي، سيرة، ٣/ ٢٠٦ .

(٧) الغابة: هي أرض من مقصر جبل أحد إذا أكنع في قناة إلى الشمال، تشمل مدفع وادي النقمي في الخليل، ويمكن اعتبار الخليل كله من الغابة. البلادي، معجم، ٣٢٢ .

حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان عبد الله بن أبي حدرد قد استعان برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صداق امرأة تزوجها وأصدقها مائتي درهم ، فلم يجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعينه به ، فلما أقبل هذا الرجل بقومه ، استدعاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وبعثه ورجلين معه في هذه السرية ، وفي الغابة تطورت المهمة وباجتهاد من أصحاب السرية من الاستطلاع إلى هجوم ليلي مكثف على حاضر القوم بعد قتل صاحبهم رفاعة بن قيس فنجحوا في ذلك وفر الأعراب بنسائهم وأطفالهم وما خف من أموالهم تاركين نَعَمًا كثيرة خلفهم[1] .

ويروي لنا أبو حدرد قصة هذه الغزوة بقوله ، قال: تزوجت امرأة من قومي فأصدقتها مائتي درهم ، فأتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أستعينه على نكاحي ، فقال: «**كم أصدقت؟**» فقلت: مائتي درهم ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبحان الله والله لو كنتم تأخذونها من واد ما زاد، لا والله ما عندي ما أعينك به**» ، فلبثت[2] أياما ثم أقبل رجل من جشم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس ، أو قيس بن رفاعة في بطن[3] عظيم من جشم حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيسا على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان ذا اسم وشرف في جشم ، فدعاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجلين من المسلمين فقال: «**اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم**» ، وقدم لنا شارفا[4] عجفاء ، فحمل عليها أحدنا فوالله ما قامت به ضعفا ، حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم ، حتى استقلت وما كادت ، وقال: تبلغوا على هذه ، فخرجنا ، ومعنا سلاحنا من النبل[5] والسيوف حتى إذا جئنا قريبا من الحاضر مع غروب الشمس فكمنت في ناحية وأمرت صاحبي فكمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبرت وشددت في العسكر فكبروا وشدا معي ، فوالله إنا لكذلك ننتظر أن نرى غرة أو نرى شيئا وقد غشينا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء ، وقد كان لهم راع قد سرح في ذلك البلد فأبطأ عليهم حتى تخوفوا عليه ، فقام صاحبهم رفاعة بن قيس فأخذ سيفه فجعله في عنقه وقال: والله لأتبعن أثر راعينا هذا ، ولقد أصابه شر فقال نفر ممن معه: والله لا تذهب ، نحن نذهب نكفيك ، فقال: لا

(١) انظر ابن هشام ، سيرة ، ٤/٦٢٩ .
(٢) اللبث: الإبطاء والتأخير والانتظار والإقامة .
(٣) البطن: الفرع من القبيلة .
(٤) الشارف: الناقة المسنة التي ارتفع لبنها .
(٥) النبل: السهام .

يذهب إلا أنا، قالوا: فنحن معك، فقال: والله لا يتبعني منكم أحد، وخرج حتى يمر بي فلما أمكنني نفحته بسهم فوضعته في فؤاده، فوالله ما تكلم فوثبت إليه فاحتززت رأسه، ثم شددت في ناحية العسكر وكبرت وشد صاحباي، وكبروا فوالله ما كان إلا النجاء ممن كان فيه عندك بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم، وما خف معهم من أموالهم واستقنا إبلا [1] عظيمة، وغنما كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجئت برأسه أحمله معي، فأعطاني من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيرا [2] في صداقي [3] فجمعت إلي أهلي [4].

وذكر المؤرخون أن هذه السرية كانت في شعبان سنة ثمان [5]

سرية أبي قتادة بن ربعي إلى بطن أضم:

أما السرية الثانية، فهي سرية أبي قتادة إلى بطن أضم [6] وكانت في أول رمضان سنة ثمان من الهجرة [7]، فقبل خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة، قام بعملية استعراضية مرسومة القصد منها تحويل انتباه قريش وحلفائها عن خطته لغزوها[8].

حيث أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية إلى أضم وادٍ من أودية أشجع "[9]

---

(١) الإبل: الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه.

(٢) البعير: ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.

(٣) الصداق: المهر.

(٤) البيهقي، الدلائل، ٤/ ٤٢٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٢٤٩ - ٥٠، ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٩، أحمد، المسند ٦/ ١١ - ١٢، الواقدي، مغازي ٢/ ٧٧٧، البيهقي، دلائل النبوة ٤/ ٣٠٣ - ٣٠٤، الطبري، تاريخ، ٣/ ٣٤.

(٦) ماء على طريق مكة - اليمامة عند السمينة، ياقوت - معجم، ١/ ٢٨١، وحدد ابن سعد في (الطبقات ٣/ ١٧٩) المسافة بينها وبين المدينة بثلاثة برد.

(٧) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٩٧ بإسناد متصل، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٣٣.

(٨) ذكر ذلك الواقدي أثناء سياقه لغزوة الفتح حيث لم يفرد لهذه السرية فصلا خاصًا بها، فقال: وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر إلى بطن أضم، ليظن ظان أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار. المغازي، ٢/ ٧٩٦ - ٧٩٧.

(٩) ذكر الشريف: أن وادي أضم من أعظم أودية الحجاز، ويسمى اليوم وادي الحمض، وهو يسيل من الجنوب الشرقي لحرة خيبر، ويسير نحو الجنوب الغربي حتى يقارب (يثرب)

يشير الواقدي إلى أنها كانت بقوة ثمانية أفراد منهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ومحلِّم بن جثَّامة الليثي، وكانوا تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]. فخرجوا حتى إذا توسطوا وادي أضم، مرَّ بهم رجل أشجعي يقال له عامر بن الأضبط على جمل له ومعه زاده ومتاعه، فسلم عليهم بتحية الإسلام فأمسك عنه القوم. "وحمل عليه محلم بن جثامة، فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره، ومتاعه"[2] ويذكر الواقدي[3]: أنهم لم يلقوا جمعًا، فانصرفوا راجعين حتى انتهوا إلى ذي خشب[4]، فبلغهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجه إلى مكة، فيمموا شطر مكة حتى لحقوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسقيا[5].

وتلاحقت أحداث الفتح، ثم غزوة حنين، وبينما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاة الظهر، إذ "عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها، وهو بحنين، فقام إليه الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، يختصمان في عامر بن أضبط الأشجعي، عيينة يطلب بدم عامر، وهو يومئذ رئيس غطفان، والأقرع بن حابس يدفع عن محلم بن جثامة لمكانه من خندف، فتداولا الخصومة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[6] "ثم ارتفعت الأصوات، وكثرت الخصومة واللغط"[7]، "فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوم عامر بن الأضبط

المدينة. حيث تتصل به أودية فرعية منها وادي العقيق، ويتصل به كذلك وادي القرى. وهو يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من العيون التي عند خيبر، ثم يتجه غربا حيث يصب في البحر الأحمر جنوب قرية الوجه، ويبلغ طول وادي الحمض زهاء (٩٠٠) كيلو متر، الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٦.

(١) الواقدي، مغازي (٢/ ٧٩٧)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٣٣).

(٢) ابن هشام، سيرة (٤/ ٦٢٦)، البلاذري، أنساب، ص٣٨٥، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٠٥).

(٣) انظر الواقدي، مغازي (٢/ ٧٩٧).

(٤) ذي خشب: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة. الحموي، معجم البلدان (٢/ ٣٧٢).

(٥) السقيا: قرية جامعة وهي في طريق مكة بينها وبين المدينة، وقال كثير: إنما سميت السقيا بما سقيت من الماء العذب وهي كثيرة الآبار والعيون والبرك، وبالسقيا مسجد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جنب الجبل وعنده عين وهي تجري إلى صدقات الحسين، عليها نخل كثير.

انظر الحربي، المناسك، ص ٤٥٠، والبكري، المعجم (٣/ ٧٤٢ - ٧٤٣)، وعبد الله بن خميس، المجاز بين اليمامة والحجاز (ص ٢٩٦).

(٦) ابن هشام، سيرة (٤/ ٣٢٧).

(٧) البيهقي، دلائل (٤/ ٣٠٨).

الأشجعي: «**هل لكم أن تأخذوا منا خمسين بعيرا، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟**» فقال عيينة بن بدر: والله لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحرقة[1] مثل ما أذاق نسائي".

"فقام رجل من بني ليث يقال له ابن مكيتل[2]، وهو قصد من الرجال، فقال: يا رسول الله، ما أجد لهذا القتيل مثلاً في غرة الإسلام[3]، إلا كغنم وردت فرميت أولادها فنفرت أخراها، اسنن اليوم، وغيِّر غدًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل لكم أن تأخذوا خمسين بعيرًا الآن، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟**» فلم يزل بهم حتى رضوا بالدية، قال قوم محلم: ائتوا به حتى يستغفر له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فجاء رجل طوال ضرب اللحم[4] في حلة قد تهيأ فيها للقتل"[5]، "فجلس بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيناه تدمعان، فقال: يا رسول الله إني قد فعلت الذي بلغك وإني أتوب إلى الله، فاستغفر لي يا رسول الله. فقال رسول الله: «**أقتلته بسلاحك في غرة الإسلام: اللهم لا تغفر لمحلم. بصوت عال**»[6] فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه"[7].

قال راوي الحديث: "فأما نحن بيننا فنقول: قد استغفر له، ولكنه أظهر ما أظهر ليدع الناس بعضهم من بعض"[8].

وقد ذكر أصحاب المغازي أنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ..﴾ [النساء: ٩٩][9].

---

(١) الحرقة: التوجع والألم والحرارة. (اللسان: حرق).
(٢) مكيتل رجل قصير مجموع. انظر البنا، الفتح (١٦/ ٥٠)، والبلاذري، أنساب، ص ٣٨٥.
(٣) غرة الإسلام: أوله. ابن الأثير، النهاية (٣/ ٣٥٤).
(٤) ضرب اللحم: خفيفه. (القاموس: ضربه).
(٥) البيهقي، دلائل (٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٦) أبي داود، سنن (٤/ ٦٤٣).
(٧) البيهقي، دلائل (٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٨) الهيثمي، مجمع (٧/ ٨). البنا، الفتح الرباني (١٦/ ٥٠)، وأبو داود، سنن (٤/ ٦٤١ - ٦٤٣)، وابن أبي شيبة، المصنف (٤/ ٥٤٧ - ٥٤٨)، وابن هشام، سيرة (٤/ ٦٢٧ - ٦٢٨)، والبلاذري، أنساب (٣٨٥)، والبيهقي، سنن (٩/ ١١٦)، ودلائل (٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٩) اختلف في سبب نزول هذه الآية، وفيمن نزلت فيه اختلافا كبيرا. قال السهيلي: "وأما

عـن الحسن قال: "فو الله ما مكث محلم بن جثامة إلا سبعا حتى مات فلفظته - والـذي نفـس الحـسن بـيده - الأرض . ثـم عـاد والله فلفظته ، فلما غل قومه عمـدوا إلى صـدَّين[1] فـسطحوه[2] بينهما ، ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه ، قـال: بلغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شأنه ، فقال: والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم فيما أراكم منه"[3] .

وفي لفـظ الأرض لهـذا القاتل بعد دفنه الزجر والتهديد والعظة ما يجعل دماء المـسلمين مـن أعظـم المحرمات التي لا يجوز التساهل فيها كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولكن الله أراد أن يعظكم ويريكم عظم الدم عنده» .

*****

الذي نزلت فيه الآية: ﴿لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ﴾ والاختلاف فيه شديد ، فقيل اسمه فليت ، وقـيل: هـو محلـم كمـا تقدم ، وقيل: نزلت في المقداد بن عمرو ، وقيل في أسامة ، وقيل: في أبي الـدرداء . ولا يـستقيم نـزولها في أسـامة رضـي الله عنه لأنه لم يكن مشركا بل ولد في الإسـلام . واخـتلف أيضا في المقتول ، فقيل: مرداس بن سهيل ، وقيل: عامر بن الأضبط . والله أعلم . انظر: الروض (٧/ ٥٢٩) . والألباني ، صحيح سنن الترمذي (٣/ ٤٠) ، وقال عنه الألباني: صحيح ، والحاكم ، المستدرك (٢/ ٢٣٥) .

(١) صدَّين: جبلين صغيرين ، (القاموس: صدّ) .

(٢) فسطحوه بينهما: بسطوه وأضجعوه بينهما . (القاموس: السطح) .

(٣) رواه ابـن هـشام ، سـيرة (٤/ ٦٢٨) ، وابـن أبـي شـيبة ، المـصنف (١٤/ ٥٤٨ - ٥٤٩) ، والطبري ، تفسير (٩/ ٧٢ - ٧٣) . السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ٢٧٤ .

الفصل الثامن:
[فتح مكة]

فتح مكة:

التزمت قريش بشروط صلح الحديبية حوالي السنة ونصف السنة، ثم وقعت في خطأ كبير حين أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلفاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة، سكنت بعد صلح الحديبية؛ ودخلت خزاعة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، فلما كانت مؤتة خُيِّل لقريش وحلفائها أن المسلمين قد قضي عليهم، ظن بنو بكر أن الفرصة سانحة ليصيبوا ثأرهم من خزاعة، وحرضهم على ذلك رجال من شباب قريش لم يقدروا الموقف تقديرًا صحيحًا، وقد أعانت قريش بكرا بالخيل والسلاح والرجال [(1)]؛ وقالوا: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فعلوا ذلك للضغن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(2)]. وبيتت بنو بكر خزاعة ذات ليلة وهم على ماء لهم يسمى الوتير، فقتلوا منهم، وهزموهم حتى ألجؤوهم إلى الحرم، وإلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي بمكة [(3)]، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[(4)]، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يانوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يابني بكر أصيبوا ثأركم[(5)]، وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

---

(١) أوضح موسى بن عقبة أن من بين أشراف قريش الذين أعانوا بكرا على خزاعة: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإعانة كانت بالسلاح والرقيق. ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ٣١٣، من رواية موسى دون إسناد، وانظر ابن حجر - فتح الباري ٨/ ٦.

(٢) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٨٩، الواقدي مغازي ٢/ ٧٨٤.

(٣) ابن هشام، ٤/ ٥٥٤، ابن كثير، البداية، ٤/ ٢٧٨.

(٤) انظر، الواقدي (٢/ ٧٨١ - ٧٨٤).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٥٤).

يـــارب إني ناشـــد محمـــداً ::: حلـــف أبيـــنا وأبـــيه الأتلـــدا
هـــم بيـــتونا بالـــوتير هجّـــدا ::: تُمّـــت أسـلمنا فلـــم ننـــزع يدا[1]
وزعمـــوا أن لـــست أدعـــوا أحـــد ::: وادع عـــباد الله يأتـــوا مـــدداً
ونقـــضوا ميـــثاقك المـــؤكدا ::: إن ســـيم خـــسفا وجهـــه تـــربدا
في فـــيلق كالبحـــر يجـــري مُـــزبدا ::: إن قريـــشاً وأخلفـــوك المـــوعدا
فـــيهم رســـول الله قـــد تجـــردا ::: وجعلـــوا لي في (كَـــدَاء) رُصَّـــدا
فانـــصر هـــداك الله نـــصراً أعـــتدا ::: وهـــم أذل وأقـــل عـــددا
قـــد كنـــتم وُلـــدا، وكـــنا والـــداً ::: وقـــتلونا ركّعـــا وســـجدا

فقـال الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُـصرتَ ياعمـرو بن سالم**[2]**! لا نصرني الله إن لم أنـصر بني كعـب**». ولمـا عـرض الـسحاب مـن السماء قال: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب**»[3].

وجـاء في روايـة: أن رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسـل إلى قـريش فقـال لهم: «**أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أُتْدوا خزاعة**[4]**، وإلا أوذنكم بحرب**» فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم، فلا ندى ماقتلوا لنا سَبَد، ولا لَبَد[5]، ولا نـبرأ مـن حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم، ولكن نؤذنه بحرب[6]، وفي هذا دلـيل علـى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفاجئ قريشاً بالحرب وإنما خيرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[7].

ولـيس هـناك مـن شك في أن انتصار قريش لحلفائها ودعمها لهم على حلفاء المسلمين، هو نقض صريح لبنود صلح الحديبية أدركت قريش أخطاره، وندمت علـى فعلـها لـه، ولـذلك فإنهـا بـادرت إلى إرسـال أبي سفيان إلى المدينة لتمكين الـصلح وإطالـة أمـده ولعل المدة كانت سنتين، فكانوا يريدونها عشرًا، ولقي أبو سـفيان بديل بن ورقاء في الطريق، وبالرغم من أن بديلًا أنكر أنه لقي محمدًا؛ فإن

(١) يريد أن أم عبد مناف وأم قصير خزاعيتان.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤)؛ البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).
(٤) أي تدافعوا دية قتلاهم.
(٥) السَّبد الشعر واللَّبد الصوف، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.
(٦) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١ - ٧٨٤).
(٧) التاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤).

أبا سفيان عرف أنه كان بالمدينة، ومن أجل ذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم تستقبله ابنته استقبالًا حسنًا، ولما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلمه في العقد وإطالة مدته لم يرد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، ورفض كبار الصحابة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي أن يساعدوه، بل لقد أغلظ له عمر الجواب وقال: "أنا أشفع لكم إلى رسول الله!! فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به".

فانصرف محنقًا يفيض أسى مما لقي من هوان، وعاد إلى مكة يحمل لقومه نتيجة سفارته الفاشلة، وقد أدرك أن الموقف تحول نهائيًا إلى غير صالح مكة، وأخذ رجال مكة يتناقشون في موقف أصبح ميئوسًا منه[١].

ومما يذكر عند نزوله في المدينة دخل على ابنته أم حبيبة – أم المؤمنين – وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه؛ فقال: يابنية! ماأدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر[٢].

وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صِلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ستة عشر سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة[٣]، وهذا ماكان يتصف به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين، وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية[٤].

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرَ أن يترك لهم فرصة حتى يتجهزوا للقائه؛ لذلك أمر فنادى بالتجهز فاحتشد له جيش قوي لم تشهد الجزيرة مثله من قبل عدة ونظامًا، فلقد بلغت عدته أكثر من عشرة آلاف، وبلغت قوة الفرسان فيه أكثر من

(١) ابن هشام، ٣/ ١٢ – ١٤. ابن كثير، ٤/ ٢٨٠، ٢٨١.
(٢) ابن كثير، ٤/ ٢٨٠، ٢٨١.
(٣) معين السيرة، ص٣٩٥.
(٤) التاريخ الإسلامي (٧/ ١٧٠، ١٧١).

ألفين، وإذا كان جيش الأحزاب في موقعة الخندق قد بلغ مثل هذا العدد أو نحوه فإنه كان مفكك القيادة متنازع الأهواء، أما هذا الجيش فكان تحت قيادة موحدة حازمة، وكان هدفه واضحًا محددًا، ولم تكن القبائل التي اشتركت فيه مدفوعة بالكسب المادي مأجورة كما كانت حال غطفان في يوم الخندق. ولما اكتملت عدة الجيش أعلن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن سيرهم على نبأ وسأل ربه قائلا: «**اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها**»[(١)].

وهذا شأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

وتحرك الجيش الكبير في عدته التي لم تشهدها الجزيرة من قبل عدة وسلاحًا ونظامًا وحسن طاعة، يملأ نفوس رجاله الإيمان بأن لا غالب لهم من دون الله، وسار محمد على رأس هذا الجيش وكل تفكيره أن يدخل البلد الحرام من غير أن يريق قطرة دم واحدة[(٢)]

إن حركة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب سواءً كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحة في هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعندما قرر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر حتى لايصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة.

فقد أخذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبوبكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله بدليل أن أبا بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما سأل ابنته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن مقصد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت له: ماسمّى لنا شيئاً وكانت أحياناً تصمت. وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقاصده

---

(١) ابن كثير - البداية ٤/ ٢٨٣، ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٨٩ بإسناد حسن من حديث الزهري عن عروة عن المسور.

(٢) ابن هشام، ٤/ ١٤.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم لأنهن ربما يذعن شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية فتتنقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة[2].

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث قبل مسيرة مكة سَرَية مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سَرَية إلى بطن إضَم، ليظن ظان أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بتلك الأخبار... فمضوا ولم يلقوا جمعاً، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبن) حتى لقوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسُّقيا[3].

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك مايمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها[4].

وقد بث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش: (وأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنقاب[5]، فكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه... إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة[6].

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين وقد استفاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حدِّه النافع لصالح المسلمين وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرية واتخاذها أساساً لتحركاته واستعدادته ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢)؛ شيت خطاب، الرسول القائد، ص٣٣٣، ٣٣٤.
(٢) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٣٩٥، ٣٩٦.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).
(٤) القيادة العسكرية، ص٤٩٨.
(٥) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.
(٦) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٦).

في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة[1] .

وعندما أكمل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعداده للسير إلى فتح مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طريق الوحي على هذه الرسالة ، فقضى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه المحاولة وهي في مهدها ، عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا والزّبير والمقداد ، قال: «**انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها**» فذهبنا تعادى [2] بنا خيلنا حتّى أتينا الرّوضة فإذا نحن بالظّعينة . فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي من كتاب . فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثّياب . فأخرجته من عقاصها [3] ، فأتينا به النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممّن بمكّة يخبرهم ببعض أمر النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما هذا يا حاطب؟**» قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إنّي كنت امرأ من قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكّة ، فأحببت إذ فاتني من النّسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني . فقال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّه قد صدقكم**» فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه . فقال: «**إنّه شهد بدرا، وما يدريك لعلّ الله – عزّ وجلّ – اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» ونزلت فيه: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: ١] [4] .

على الرغم من كل ماذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم ، وتقطع مابينهم

---

(١) القيادة العسكرية ، ص٣٦٥ .
(٢) تعادى: أصلها تتعادى أي تتسابق .
(٣) عقاصها: ضفائر شعرها جمع عقصة بمعنى ضفيرة .
(٤) البخاري ، الفتح ٨ (٤٨٩٠) واللفظ له . مسلم (٢٤٩٤) .

وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث، ليكون العلاج على مسرح الأحداث وليكون الطرق والحديد ساخن(١).

إن ماقام به حاطب أمر عظيم ولذلك نزل القرآن الكريم، يوجه المجتمع المسلم نحو مايجب عليهم فعله نحو أعداء دينهم، كما أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامل حاطب معاملة رحيمة تدل على حرصه الشديد على الوفاء لأصحابه وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة منهم، لقد جعل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه، وهذا منهج نبوي حكيم، فلم ينظر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب وإن كانت كبيرة، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز دينه، فوجد أنه قد شهد بدراً، وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال الدعوة، والجهاد، والعلم، والتربية (٢).

بدأت قوات الفتح مسيرتها المظفرة من المدينة في العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة (٣)، بعد أن استخلف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري (٤)، وكانوا صياما فواصلوا الصوم حتى بلغوا كديدا فأفطر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفطر الجيش (٥)، وقد وصل المسلمون إلى مرّ الظهران وعسكروا هناك دون أن تصل قريشا أية أخبار عن تحركهم مما يدل على نجاح المسلمين في تعمية الأخبار (٦).

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).
(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٧٦).
(٣) مسلم، شرح النووي ٣/ ١٧٦ (حديث ١١٣ - ١١٤).
(٤) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٩٩، ابن حجر، المطالب العالية ٤/ ٢٤٨، الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٤، وانفرد ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٣٥ بأنه عبد الله بن أم كلثوم، معلقا.
(٥) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٥، فتح الباري ٤/ ١٨٠ - ١٨١ (حديث ٤٢٧٥)، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٨٤ (حديث ١١١٣) وفي رواية ثانية عند مسلم: أن الإفطار كان بكراع الغميم (الصحيح حديث ١١١٤) والموضعان متقاربان.
(٦) صحيح مسلم، شرح النووي ٣/ ١٧٦ وقد وردت روايات صحيحة بخروج بعض زعماء قريش يتحسسون الأخبار وإلى أنهم رأوا نيران المسلمين وتعجبوا من كثرة الجيش وأن

وفي الجحفة لقيه العباس بن عبدالمطلب عمه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسُرَّ ﷺ وكان العباس قد أسلم قبيل غزوة خيبر [(١)].

وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة، إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ﷺ [(٢)].

وفي الطريق إلى مكة، قدم بعض زعماء قريش إلى النبي ﷺ فأعلنوا إسلامهم، منهم ابن عم أبيه وأخوه من الرضاعة أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدالله بن أمية بن المغيرة [(٣)] فلقيا رسول الله بثينة العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يارسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: لاحاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ماقال؛ فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن رسول الله ﷺ، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية ::: لتغلب خيل اللات خيل محمد

أحدهم قد ظن أنهم خزاعة، ابن حجر، المطالب ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٨.

(١) أحمد، المسند، الفتح ٢١/ ١٢٢، الصنعاني، المصنف ٥/ ٤٦٦، وأخرجه النسائي، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٢١٧. وقد وردت روايات ضعيفة تبين إسلامه قبل غزوة بدر الكبرى، ابن سعد، الطبقات ٤/ ١٠ - ١١، بل إن إحدى الروايات جعلت إسلامه قبل الهجرة إلى المدينة، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٣١ بإسناد منقطع وفيه الواقدي، ومع التأكيد على ما قدمه الصحابي الجليل العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ من خدمات جليلة للإسلام قبل إسلامه وبعد ذلك حيث كان عينا للرسول ﷺ على قريش وملاذا للمستضعفين من المسلمين في مكة قبل أن يسلم، فإن أسره في معركة بدر مع المشركين ومطالبة النبي ﷺ إياه بأن يفتدي نفسه من الأسر تقطع بعدم دخوله الإسلام حتى ذلك الوقت. ويترجح أنه كتم إسلامه في الفترة التي أعقبت غزوة خيبر لمقتضيات مصلحة المسلمين.

(٢) محمد السيد الوكيل، تأملات في السيرة النبوية، ص٢٥٤.

(٣) الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٣ - ٤٥، ابن هشام، السيرة ٢/ ٤٠٠، الطبري، تاريخ ٣/ ٥٠، البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٢٧ - ٨، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤ - ١٦٧، ونقل مسلم في صحيحه ٢/ ٣٩٥.

لكالمدلج الحيارن أظلم ليله ::: فهذا أوان الحق أهدي وأهتدي
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ::: وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ::: إلى الله من طردت كل مطرد
فما كنت في الجيش الذي نال عامراً ::: وأدعى وإن لمن أنتسب لمحمد
أريد لأرضيهم ولست بلا قط ::: وإن كان ذا رأي يلم ويفند
هم عصبة من لم يقل بهواهم ::: مع القوم مالم أهد في كل مقعد
أفر سريعاً جاهداً عن محمد ::: ولا كلَّ عن غير لساني ولا يدي
هداني هاد غير نفسي ودلني ::: توابع جاءت من سهام وسردد
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ::: سيسعى لكم امريء غير مقدد

قال فلما أنشد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدره، فقال: «**أنت طردتني كل مطرد**»[(١)].

وكان أبو سفيان بن الحارث يهجوا بشعره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً، وأما عبدالله ابن أمية فقد قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ماظننت أني أصدقك[(٢)].

ومع فداحة جرمهما فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عفا عنهما وقبل غدرهما، وهذا مثال عال في الرحمة والعفو والتسامح ولقد كفّر ابوسفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين[(٣)].

إسلام أبو سفيان:

وتابع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيره حتى أتى مر الظهران[(٤)]، فنزل فيه

---

(١) الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٣ - ٤٥، ابن هشام، السيرة ٢/ ٤٠٠، الطبري، تاريخ ٣/ ٥٠، البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٢٧ - ٨، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤ - ١٦٧، ونقل مسلم في صحيحه ٢/ ٣٩٥.
(٢) ابن هشام، (١/ ٢٩٥ - ٣٠٠).
(٣) التاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).
(٤) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ كلم.

عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب[١].

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[٢] الحرب، فقال: أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها... وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك، فداك أبي وأمي، قال العباس قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله، قال فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذ البغلة حتى أتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمدلله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال قلت: يارسول الله إني قد أجرته... فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً ياعمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ماقلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً ياعباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم. ومابي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: «**إذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فاتني به فلما أصبح غدوت به**» فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن**

---

(١) معين السيرة، ص٣٨٧؛ الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).
(٢) حمشتها الحرب: احرقتها.

لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم قال العباس: قلت يارسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فأجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ياعباس: «**احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها**». قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال ياعباس من هذا؟ فأقول: سُليم؟ فيقول: مالي ولسُليم، ثم تمر به القبيلة، فيقول: ياعباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول مالي ولمزينة... حتى مر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال سبحان الله ياعباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجرين والأنصار، قال: مالأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك[١].

إنها النبوة تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلا ناطقاً على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض[٢].

لقد تعمد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة حيث أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيقاد النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب

---

(١) صحيح السيرة النبوية، ص٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠.

(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٧٥.

القريشيين من شدة هوله[١] .

وقد قصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لايفكروا في أية مقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء ، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماأراد ولقد كان اهتمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقاً عسكرياً بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية[٢] .

علي أبواب مكة:

ولما اقترب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة توقف عند ذي طوى[٣] وزع المهام ، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى ، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[٤] ، وبطن الوادي ، فقال: يا أبا هريرة ادع لي الأنصار فدعاهم فجاؤوا يهرولون ، فقال: «**يامعشر الأنصار، هل ترون أوباش[٥] قريش قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً وأحض بيده ووضع يمينه على شماله وقال موعدكم الصفا**»[٦] .

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء[٧] من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه ، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأمرهم أن يكفوا أيدهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم وبهذا كانت المسؤوليات واضحة ، وكل قد عرف ماأسند

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥) .

(٢) العبقرية العسكرية وغزوات الرسول ، اللواء محمد فرج ، ص٥٦٥ .

(٣) ذي طوى واد من أودية مكة ، كله معمور اليوم ، يسيل في سفوح جبل أذاخر والحجون من الغرب ، وتفضي إليه كل من ثنية الحجون - كداء قديما - وثنية ربع الرسام - كدى - قديما . ويذهب حتى يصب في المسفلة عند قوز المكاسة - الرمضة قديما - من الجهة المقابلة .

(٤) البياذقة: هم الرجالة (وهو فارسي معرب) .

(٥) أوباش: جموع من شتى البطون .

(٦) مسلم ، الصحيح ٣/ ١٤٠٥ (حديث ١٧٨٠) .

(٧) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٨٩ (حديث ٤٢٩٠ - ٤٢٩١) .

إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه[1].

ولم يرتدع المشركون المعاندون ورءوس الكفر من قريش عن غيهم حتى بعد أن أحدقت بهم قوات المسلمين، فقد عولوا على تجميع قوات من قبائل شتى من حلفائهم لكي يدفعوهم لحرب المسلمين بقصد منعهم من دخول مكة، وكانوا مهيّئين للالتحاق بتلك القوات إذا حققت ما يؤملون، أما في حالة الفشل فإنهم يعطون ما طلب أبو سفيان منهم من الصلح. وقاد جموع أحلاف قريش التي تجمعت في الخندمة[2] صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو[3].

ولما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي سفيان ومضي قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسم الأحمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟[4].

وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدُّ ماأرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله ماأرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم... ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي عِلة ::: هذا سلاح كامل وألّة[5]

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزماً حتى بلغ

---

(١) البخاري، الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٠).
(٢) أحد جبال مكة.
(٣) ابن هشام، السيرة ٢/ ٤٠٧.
(٤) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٤٠٥.
(٥) ألة: حربة.

بيته فقال لامرأته: أغلقي عليّ الباب . . .

فقالت المرأة لفارسها المعلَم: فأين ماكنت تقول؟

فقال: يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ::: إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
لهم نهيت[2] خلفنا وهمهمة ::: واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ::: ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة[3] ::: لم تنطقي باللوم أدنى كلمة[1]

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربعة في آن واحد ولم تلق تلك القوات مقاومة وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربعة ضربة قاضية لفلول المشركين حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة ، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد ، ونجحت خطة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى ، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها ، في سلم واستسلام ؛ إلا ماكان من المنطقة التي توجه إليها خالد ، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو وغيرهم ، مع بعض حلفائهم عند الخندمة وكانت مقاومة المشركين يسيرة ، وكانت أعنف المواجهات قد حصلت عند جبل الخندمة حين التحمت قوات خالد بالمشركين فاستشهد اثنان من فرسان المسلمين على أصح الروايات [4] ، في حين قتل من المشركين اثنا عشر رجلا [5] ، وكان هذا

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥) .
(٢) النهيت: صوت الصدر .
(٣) المؤتمة: الاسطوانة ، وأبوزيد: سهيل بن عمرو .
(٤) البخاري ، الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠) ، وفي رواية ابن إسحاق ثلاثة (ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٠٧) ، والعمدة على ما أورده البخاري فقد نص على اثنين من الشهداء بين المسلمين .
(٥) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٠٧ ، الحاكم المستدرك ٣/ ٢٤١ ، ونقل البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٠) من مراسيل موسى بن عقبة أنهم قريب من عشرين رجلا بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة من هذيل وذكر الواقدي أنهم أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل المغازي ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٩ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ١٢٦ ، وجعلهم الطبراني سبعين رجلا وهو ما نقل عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ، ٤/ ٣٣١ .

القتال الذي جرى في مكة بسبب عدم احترام المقاومين للأمان الذي أعلنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل مكة، وقد توجع أبو سفيان بسبب كثرة القتلى وخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلا: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم[1] لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء وكان الشعار المرفوع من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه[2].

دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام[3]، وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ماأكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[4]، مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[5]، وعندما دخل مكة فاتحاً - وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي - رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[6]، وهو ابن مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة[7].

قال ابن كثير: "وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في مثل هذا الجيش العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود - أي ركع - يقولون حطة فدخلوا

---

(١) مسلم، الصحيح ٢/ ٩٥ - ٩٦.
(٢) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص٢٤٥.
(٣) مسلم رقم ١٣٥٨.
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٨) رقم ٤٢٨١.
(٥) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٩٦.
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢٨٩.
(٧) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص٣٣٧.

يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة) [(١)].

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكة: على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ... إن الموكب الفخم المهيب الذي ينسب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً وأي كرامة عظمى حفّه الله بها هذا الصباح الميمون، وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعاً وانحناءً..) [(٢)].

وحين مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان عند المضيق بمر الظهران، قال سعد بن عبادة حامل رايتهم: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة» [(٣)] فتأثر أبو سفيان من ذلك واشتكى إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقالة سعد، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذب** [(٤)] **سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة**» [(٥)]، وأخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راية الأنصار من سعد بن عبادة ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعدا كلم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك ملتمسا أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه[(٦)].

وبهذا التصرف الحكيم من الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنىً عنها، وفي نفس الوقت لم يُث سعد بن عباده، ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لأبنه، ومن طبيعة البشر أن لايرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه[(٧)].

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥).
(٢) فقه السيرة للغزالي، ص٣٧٩، ٣٨٠.
(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٦ (حديث ٤٢٨٠).
(٤) كانت تستعمل بمعنى أخطأ.
(٥) البخاري، الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠).
(٦) ابن حجر، مختصر زوائد البزار، ص/ ٢٤٨، فتح الباري - شرح حديث (٤٢٨٠)، ابن حجر، المطالب العالية ٤/ ٢٤١، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٦٩، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٨.
(٧) انظر: قيادة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السياسية والعسكرية، ص١٩٦.

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

ورُكِـزت راية رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالحجون عند مسجد الفتح ، ثم نهـض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد . فأقبل إلى الحجَـر فاستمله ، ثـم طـاف بالبيـت ، وفي يـده قوس ، وحول البيت وعليه ، ثلاثمائة وستّون صنمًا ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً** ﴾ [الإسراء: ٨١] .

﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾ [سبأ: ٤٩] . والأصنام تتساقط على وجوهها[١] .

إنـه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله ، إذ كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطعن تلـك الآلهـة الـزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً[٢] .

وقد تم تحطيم الأصنام جميعا ، وكان عددها ثلاثمائة وستين صنما [٣] . وكانت قـد علقـت في جـدران الكعبة الداخلية صورا لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقـسمون بـالأزلام فقـال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قـاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بـالأزلام**» [٤] . ووردت روايـة أخـرى تذكـر وجـود صـورة مـريم معلقـة داخل الكعـبة[٥] فغطـيت جمـيع الـصور بالزعفـران وتم إزالتها من جوف الكعبة قبل أن يـدخل الـنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها [٦] ، ووجد فيها حمامة من عيدان فكسّرها ورمى بها خارج الكعبة ، وعند ما طهرت الكعبة دخلها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى بها[٧] .

وحـين خـرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـن الكعبة دعا عثمان ابن طلحة فأعطاه مفتاح

---

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٠٨ (حديث ١٧٨١) .
(٢) فقه السيرة للبوطي ، ص٢٨٢ .
(٣) الـبخاري ، الـصحيح ٥/ ١٨٨ ، حـديث ٤٢٨٧ ، مـسلم ، الـصحيح ٣/ ١٤٠٨ (حديث ١٧٨١) .
(٤) الـبخاري ، الصحيح ٥/ ١٨٨ ، أحمد ، المسند ١/ ٣٦٥ ، وأورد البخاري رواية أخرى جاء فيها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم» (حديث ٣٣٥١) .
(٥) البخاري ، الصحيح (حديث ٣٣٥١) .
(٦) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٨٨ .
(٧) الـبخاري ، الـصحيح ٥/ ٢٢٢ (حـديث ٤٤٠٠) وقد أورد الإمام البخاري في هذه الرواية الـصحيحة تفاصـيل دقيقة عن المكان الذي صلّى فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جوف الكعبة ، كما أورد تفصيلات عن بناء الكعبة والأعمدة الداخلية .

الكعبة فأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة كما كانت في الجاهلية قائلاً: اليوم يوم بر ووفاء [(١)] وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال ياعثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت، فقال لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ماقال [(٢)]، ولقد أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفاتيح الكعبة قائلاً له: هاك مفتاحك ياعثمان اليوم يوم بر ووفاء [(٣)]، خذوها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم [(٤)]، ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت من غير إحرام مهللا مكبرا شاكرا ذاكرا حامدا [(٥)].

فلم يشأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الاثارة أولاً، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا [(٦)].

ثم أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلالا الحبشي أن يؤذن، فصعد إلى ظهر الكعبة وأذن عليها [(٧)].

لقد أذن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين، الله أكبر

---

(١) الصنعاني، المصنف ٥/ ٨٣ - ٨٥ الأحاديث ٩٠٧٣، ٩٠٧٤، ٩٠٧٦، وانظر ابن حجر، فتح الباري - شرح حديث (٤٢٨٩).
(٢) المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).
(٤) المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٥) البخاري، الصحيح ٣/ ٢١ (حديث ٤٢٨٦)، مسلم، الصحيح ٢/ ٩٩٠ (حديث ١٣٥٨) وفيه أنه كان يلبس المغفر منذ دخل مكة، ثم نزعه عن رأسه ولبس عمامة سوداء.
(٦) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٠١.
(٧) الذهبي، المغازي ص/ ٥٥٥، البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٧٨ بإسناد، ابن سعد - الطبقات ٣/ ٢٣٤ - ٢٣٥، الواقدي، مغازي ٢/ ٨٤٦.

الله أكبر الله أكبر[1].

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، أحد هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع منصت خاضع[2].

إعلان العفو العام:

لما دخل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة وكبر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد، كان الناس حوله ينظرون، والعيون شاخصة إليه، ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[3].

وقد نزل قول الله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٦].

لم يدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة دخول الفاتحين، بل إنه دخل خاشعا للّه تعالى وهو يقرأ سورة الفتح ويرجّع في قراءتها وهو على راحلته[4]، وقد دخل المسجد الحرام وطاف بالكعبة المشرفة فاستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين ولكي يعلّم أبناء الأمة آداب الطواف، وأعلن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرمة مكة وبأنها لا تغزى بعد الفتح[5]، ورفع من مكانة قريش وأمر بألّا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح وإلى يوم القيامة[6].

لقد ترتب على العفو العام الذي أصدره الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة

(١) فقه السيرة للغزالي، ص٣٨٣.
(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٢٦٩.
(٣) القاسم بن سلام، الأموال/ ١٤٣، ابن سعد ٢/ ١٤١ - ١٤٢.
(٤) البخاري، الصحيح (فتح الباري - حديث ٤٢٨٠.
(٥) الترمذي، السنن ٣/ ٨٣، وقال عنه: إنه حسن صحيح، أحمد، المسند ٤/ ٤١٢.
(٦) مسلم - الصحيح ٢/ ٩٧ (حديث ١٧٨٢)، أحمد - المسند ٣/ ٤١٢، بإسناد صحيح.

لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى[١].

إهدار دم رجال من أكابر المجرمين:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الذي لابد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح[٢].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبدالعزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد - مصغراً - ومقيس بن حبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبدالمطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي وذكر الحاكم أن فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة[٣].

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه[٤].

والحقيقة أن هؤلاء الذين أهدرت دماؤهم ارتبطت أسماؤهم بقضايا معينة ومواقف تستدعي المساءلة والجزاء من أمثال عبد العزى بن خطل الذي ارتد وقتل من بعثه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه لجمع الصدقات، ثم لحق بالمشركين، وقد وجد متعلقاً بأستار الكعبة فقتل جزاء ارتداده وقتله لصاحبه وخيانته الأمانة، وكذلك قتل الحويرث بن نقيذ بيد علي بن أبي طالب لكثرة ما كان يؤذي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، كما قتل مقيس بن صبابة بيد غميمة بن عبد الله لقتله رجلاً من الأنصار قتل أخاه عن طريق الخطأ، وهناك من أمّنهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كإحدى جاريتي ابن خطل الهاجيتين لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسارة مولاة بني المطلب ورجلين احتميا بأم هاني بنت أبي طالب قيل إنهما الحارث بن هشام وزهير بن أمية وكذلك عبد الله بن سعد بن أبي السرح وعكرمة بن أبي جهل

(١) المجتمع المدني للعمري، ص١٧٩.
(٢) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)؛ تأملات في السيرة، ص٢٦٢.
(٣) فتح الباري (٧/ ٩).
(٤) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).

وكلهم أسلموا وحسن إسلامهم . وهبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه .

لقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكيماً بل سيد الحكماء ، يزن الأمور بالعدل ، ويضع الدواء على الجرح ، ويقدِّر المصالح والعواقب ؛ قال لقريش: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» ثم أهدر دم بعض المجرمين ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة . فالأمر ليس تسامحاً مطلقاً ، أو عقاباً مطلقاً ، وإنما الأمر هو أن لكل حادث حديث يناسبه ، وإعطاء كل مسألة حقها .

إن التسامح المشروع لا يكون إلا إذا صادف محلاً مناسباً ، وإن أولئك المجرمين الذين أهدرت دماؤهم ليسوا موضعاً صالحاً للتسامح ، وإن التسامح مع أولئك المجرمين قد يأتي بمفسدة أكبر وهذا أمر لا يجوز بحال من الأحوال .

ولقد خشي بعض الأنصار أن يكون الأمان الذي منحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقريش وتسامحه معهم دليلا على رغبته في قريته ورغبته في المقام بين أبناء عشيرته ، فأخبره الوحي بما قالوا فخاطبهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا معشر الأنصار**» . قالوا: لبّيك يا رسول الله قال: «**قلتم أمّا الرّجل فأدركته رغبة في قريته**» . قالوا: قد كان ذاك . قال «**كلّا إنّي عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم**» . فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الّذي قلنا إلّا ضنّا [1] بالله وبرسوله . فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم**» [2] .

خطبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثاني من الفتح:

وفي اليوم الثاني للفتح بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية ، فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: ياأيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم

(١) الضن: هو الشح .
(٢) مسلم ، الصحيح ٣/ ١٤٠٦ حديث ١٧٨٠ ، وأورد الإمام البخاري أن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان سينزل في بيته ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» ، ولذلك فقد أقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبة ضربت له في الحجون (البخاري ، الصحيح ٥/ ١٨٧) ، (مسلم ، الصحيح ١/ ٥٦٧) .

الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد - يقطع - فيها شجراً لم لا تحل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم .

يامعشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينَّه ، فمن قتل بعد مقامي هذا ، فأهله بخير النظرين ، إن شاؤوا قدَّم قاتله ، وإن شاؤوا فعقله) [١] .

ثم أقامَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكةَ لتوطيدِ التوحيدِ ودعائمِ الإسلام وتثبيتِ الإيمان ومبايعةِ الناسِ . وفي الصحيح عن مجاشع قال: أتيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأخي بعد الفتح ليبايعَه على الهجرةِ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ذهبَ أهلُ الهجرةِ بما فيها ولكنْ أبايعَه على الإسلامِ والإيمانِ والجهادِ»** [٢] .

والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة ، فقد عز الإسلام ، وثبت اركانه ودعائمه ، ودخل الناس فيه أفواجا ، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من بلد لايقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك فهي باقية إلى يوم القيامة ، ولكن هذا دون تلك ، فقد تكون واجبة ؛ وقد تكون غير واجبة ، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عز شأنه : ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وللهِ مِيرَاثُ السماواتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [الحديد: ١٠] [٣] .

ولما فرغ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيعة الرجال بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة ، على أن لايشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين في معروف ، ولما قال النبي: **«ولا يسرقن»** قالت هند: يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني مايكفيني ويكفي بنيَّ ، فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من

---

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١) وعقله: ديته .
(٢) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤٣٠٥ (٥/ ١١٤) .
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧) .

ماله بغير علمه؟ فقال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خذي من ماله مايكفيك وبنيك بالمعروف**» . ولما قال: «**ولا يزنين**» قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «**وإنك لهند بنت عتبة؟**» قالت: نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .

وقد بايعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير مصافحة ، فقد كان لايصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه ، وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: (لا والله ، مامست يد رسول الله يد امرأة قط) وفي رواية: (ماكان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: «**إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة**» [(١)] .

سرية خالد بن الوليد إلى العزى :

وبعد تطهير البيت العتيق من الأصنام عاد البيت كما أراه الله تعالى مركزا للتوحيد الخالص ، وكان ذلك أكبر ضربة للوثنية في جزيرة العرب حيث كانت الكعبة من أعظم مراكزها ، وإتماما لهذا الهدف الأساسي ، فإنه ما أن تم فتح مكة وجرى تطهير الكعبة ، حتى بادر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إرسال بعض أصحابه لهدم ما تبقى من مراكز الوثنية ، فقد وجّه خالد بن الوليد إلى نخلة[(٢)] من ديار ثقيف لهدم «العزّى» التي كانت لها مكانة عظيمة عند العرب عامة وقريش خاصة ، حيث كانوا يزورونها ويهدون إليها ويتقربون عندها بالذبائح ، وقد بلغ من تعظيمهم لها أن قريشا حمت لها شعبًا من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة ، كما جعلوا لها منحرًا خاصًا ينحرون فيه هداياها يقال له: الغبغب[(٣)] .

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ، فاشتد ذلك على قريش فأخذت تدافع عن آلهتها بكل ما تملك من قوة ، وأعلنت الحرب على المسلمين من أجلها ، بل إن أبا سفيان بن حرب قال يوم أحد للمسلمين مفتخرًا بها: لنا العزى ولا عزى لكم ، فرد عليه المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم .

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣١٩) .

(٢) كانت بواد من نخلة الشامية يقال له: حراض بإزاء الغمير على عين المصعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال . ابن الكلبي ، الأصنام ، ص١٨ .

(٣) ابن الكلبي ، الأصنام (١٩ - ٢٠) .

ويوم جاء الحق وزهق الباطل – يوم الفتح الأعظم – يومها تساقطت تلك الأصنام المحيطة بالكعبة المشرفة على يد نبي الهدى والرحمة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراياه وبعوثه لتحطيم بقية معاقل الشرك والوثنية منها سرية قوتها ثلاثون فارسًا [1] بقيادة خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، توجهت إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب العزى، لخمس ليال بقين من شهر رمضان[2] .

انطلق خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأصحابه لإزالة ذلك الطاغوت من الوجود نهائيًا، وعندما وصلت السرية إلى العزى قام إليها خالد "فقطع السمرات [3] وهدم البيت الذي كان عليها"[4] وهو يردد: "كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك"[5] .

ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استدرك على قائد السرية: "هل رأيت شيئًا؟، قال: لا"[6] فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئًا"[7] .

فرجع خالد وهو متغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة [8] إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة فهربوا إلى الجبل وهو يصيحون "يا عزى خبليه، يا عزى عوريه. فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها"[9] .

---

(١) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٣).

(٢) انظر ابن خياط، تاريخ (٨٨)، وابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٦)، الطبري، تاريخ (٣/ ٦٥)، والعامري، بهجة (١/ ٤٤٥). انظر الواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٣)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٥).

(٣) والسمرات جمع سمرة: وهي شجرة السمر بفتح السين وضم الميم: وهي من شجر العضاه أي ذي الشوك، وشوكها قَصير، وورقها صغير، ولها برم، أي ثمر أصفر، ويُؤكل.

(٤) أخرج ذلك النسائي، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي الطفيل رضي الله عنه. انظر ابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤)، وأبا نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧).

(٥) ابن خياط، تاريخ (٨٨).

(٦) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٤)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٦).

(٧) انظر أبا نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧)، وابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤).

(٨) السدنة جمع السادن: هو خادم بيت الأصنام.

(٩) انظر أبا نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧)، وابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤).

فقدم إليها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشجاعته الإيمانية المعروفة، وضربها بالسيف حتى قتلها" ثم رجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك فقال: "تلك هي العزى" [(١) (٢)].

سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديدا[(٣)] في منطقة تعرف بالمشلل[(٤)]. وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم، يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تحرجًا وتعظيمًا لها حيث كان "ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة" [(٥)].

ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا "فلما قدموا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحج ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية" [(٦)].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

---

(١) أبو نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧)، ابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤).

(٢) ابن سعد، طبقات (٦/ ٣٥٤)، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٩/ ٨)، وابن حبان، الثقات (٥/ ٤٩٢)، والذهبي، ميزان الاعتدال (٤/ ٣٣٧)، وابن حجر، تهذيب التهذيب (١١/ ١٣٨ - ١٣٩)، وتقريب التهذيب (٥٨٢). أبو يعلى، المسند (٢/ ٥٣٥)، والنسائي، السنن الكبرى - كتاب التفسير (٤/ ١٧)، وأبو نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧).

(٣) قديد: ثرية جامعة، مذكورة في رسم الفرع، وفي رسم العقيق، وهي كثيرة المياه والبساتين، وسميت قديدا لتقدد السيول بها، وهو واد فحل من أودية الحجاز التهامية يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة "ذرة" فيسمى أعلاه ستارة، وأسفله قديدا، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من (١٢٠) كيلوا مترا ثم يصب في البحر عند القضيمة، فيه عيون، وقرى كثيرة لحرب وبني سليم. انظر البكري، معجم (٣/ ١٠٥٤)، والبلادي، معجم (٢٤٩).

(٤) المشلل: قال عنها البكري: والمشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة. وقال مالك: كانت حذو قديد. البكري، معجم ما استعجم (٣/ ١٠٥٥).

(٥) ابن حجر، فتح (٨/ ١٧٥، ٣/ ٤٩٨)، وعند مسلم. النووي على مسلم (٩/ ٢٢ - ٢٣ - ٢٤)، وعند أحمد بسند صحيح. البنا، الفتح (١٨/ ٧٩).

(٦) صحيح موقوف أخرجه مسلم عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. النووي على مسلم (٩/ ٢٢).

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان محرف الحنيفية دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الخزاعي عمرو بن لحي[١].

ولما كان الفتح الأعظم في السنة الثامنة من الهجرة سنة تحطيم الأوثان وبالتحديد في الرابع والعشرين من شهر رمضان[٢] بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها رجلا من أهلها سابقا الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا[٣] وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيًا.

انطلق زيد ومن معهٍ في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها". فصاح بها السادن صيحة الواثق: "مناة دونك بعض عصاتك" ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ذلك ويضربها ضربة إيمانية قاتلة قضت عليها، ثم يقبل على الصنم مع أصحابه" فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئا، وانصرف راجعا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

وتزول مناة من الوجود كما زالت من قبل من القلوب، ويطوف الأنصار بين الصفا والمروة من غير جناح ولا حرج[٥].

سرية عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سواع[٦]:

وسواع اسم صنم كان لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية[٧].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤٩٩). الفاكهي، أخبار مكة (٥/ ١٦٣).
(٢) ابن سعد، الطبقات (٢/ ١٤٦)، عيون (٢/ ٢٣٨)، الشامي، السبل (٦/ ٣٠٤).
(٣) ابن كثير، تفسير (٥/ ٢٥٤)، والزرقاني، شرح (٢/ ٣٤٩)، ابن هشام، سيرة (١/ ٨٦)، ابن كثير، بداية (٤/ ٣٧٥)، والطبري، تاريخ (٣/ ٦٦).
(٤) ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٦). الطبري، تاريخ (٣/ ٦٣)، ابن هشام، سيرة (١/ ٨٦).
(٥) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٨٩.
(٦) وسمي باسم سواع بن نوح عليه السلام. انظر الشامي، سبل (٦/ ٣٠٣)، الحلبي، سيرة (٣/ ٢٠٩).
(٧) سيرة ابن هشام (١/ ٧٨)، ابن الكلبي، الأصنام، ص٥٦.

بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع "[1].

وكان سواع هذا حجرًا على صورة امرأة وظل هذا الوثن منصوبا تعبده هذيل وتعظمه[2] حتى إنهم كانوا يحجون إليه حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجا. بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية بقيادة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتحطيم سواع.

ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: " فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟، قلت: أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟، قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك وهل يسمع أو يبصر، قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟. قال: أسلمت لله "[3].

وهكذا تم القضاء على سواع الذي لم يجد من يدافع عنه بقوله: " ولا تذرن سواعًا "[4].

سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين:

وأرسل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطفيل بن عمرو الدوسي لإحراق (ذي الكفّين)[5] صنم عمرو بن حممة الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهدم «ذي الكفين» وحرقه وجعل يحش النار في جوفه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ::: ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا

ثم انحدر معه من قومه ٤٠٠ سراعا فوافوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطائف بعد

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٦٧ - ٦٦٨).

(٢) الطبري، تاريخ (٣/ ٦٦). فتح الباري (٨/ ٦٦٩) الشامي، سبل (٦/ ٣٠٣).

(٣) ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٦)، الواقدي، مغازي (٢/ ٨٧٠)، الطبري، تاريخ (٣/ ٦٦)، الشامي، سبل (٦/ ٣٠٣)، والحلبي، سيرة (٣/ ٢٠٩).

(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٩٣.

(٥) وذو الكفين صنم من خشب لعمرو بن حممة الدوسي.

مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق [1]

ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لايجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة .

وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لايجوز منها إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى أو أعظم شركاً عندها وبها[2] .

وفي فتح مكة نزل قول الله تعالى: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْواجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً﴾ [النصر][3] .

نتائج فتح مكة:

ولقد كان من أبرز نتائج فتح مكة مبادرة قبائل العرب إلى قبول الإسلام بعد أن تيقنوا من نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، وقد أورد الإمام البخاري رواية من حديث عمرو بن سلمة جاء فيها: أن العرب كانت «تلوّم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم[4]

ويرى ابن إسحاق أن العرب كانت «تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل أفواجا يضربون إليه من

(١) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٨٥ .
(٢) السرايا والبعوث النبوية، ص٣٠٢ .
(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٩ (حديث ٤٢٩٤) .
(٤) البخاري، الفتح ٧ (٤٣٠٢) .

كل وجه» [١].

- ومن نتائج فتح مكة المكرمة تحول مركز ثقل معسكر الشرك إلى الطائف حيث سارعت كل من قبيلتي هوازن وثقيف إلى التصدي للإسلام وقيادة معسكر الشرك المعادي له[٢].

الأحكام الشرعية المهمة من فتح مكة:

وإضافة إلى ما تحقق في فتح مكة من اتساع رقعة ديار الإسلام، وتسارع وتيرة دخول العرب في الإسلام، وإنهاء مقاومة قريش وحلفائها، وتحولهم إلى قوة إيجابية دافعة لنشر العقيدة الإسلامية والتصدي لخصومها ودفع الخطر عنها فقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية المهمة من جراء فتح مكة وخلال أحداث غزوتها، من ذلك:

- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية؛ حيث صام الرسول في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدًا فأفطر [٣].

- قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة [٤].

- صلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة، واستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة [٥]

- وكان في إقرار الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجوار أم هاني [٦]إقرارا لأمان النساء [٧].

- وقد أبيحت المتعة يوم الفتح ثم حرمت بعد ذلك تحريما أبديا إلى يوم القيامة [٨].

---

(١) ابن هشام، سيرة ٢/ ٥٦٠.
(٢) انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١ / ٣٧٣.
(٣) مسلم، الصحيح ١/ ٤٥١.
(٤) البخاري، الصحيح ٥/ ١٩٠.
(٥) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٩، مسلم، الصحيح ١/ ٢٨٩.
(٦) البخاري، الصحيح ٤/ ١٢٢.
(٧) أبو داود، عون المعبود ٧/ ٤٤.
(٨) مسلم، الصحيح بشرح النووي ٣/ ٥٥٣، وانظر الصحيح ١/ ٥٨٦، ٥٨٧.

- كما توضحت الأحكام الخاصة بنكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله [(١)]
- قرر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة ، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة ، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه [(٢)]
- ومنها حق الزوجة في الإنفاق على نفسها وعيالها من مال زوجها بالمعروف دون علمه إذا امتنع عن النفقة [(٣)]
- ومنها تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام والأوثان [(٤)]
- ومن ذلك تحريم الشفاعة في حد من حدود الله [(٥)].
- ومنها منع صبغ الشيب بالسواد وبيان حكم خضابه بالحناء [(٦)].
- والنهي عن قتل المرأة مادامت لا تقاتل [(٧)].
- عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال ، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يوصي بأكثر من الثلث [(٨)].
- ومنها جواز دخول مكة بغير إحرام [(٩)(١٠)].

مواقف ودروس:

-موقف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما حدث ما حدث من حاطب بن أبي بلتعة قال عمر: يا رسول الله ، دعني اضرب عنق هذا المنافق ، فقال: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على**

---

(١) مالك ، الموطأ (شرح الزرقاني ٣/ ١٥٦ ، ١٥٧).
(٢) البخاري ، الصحيح ٨/ ١٩١ .
(٣) مسلم ، الصحيح ٢/ ٦٠ .
(٤) البخاري ، الصحيح ٣/ ١١٠ ، مسلم ، الصحيح ١/ ٦٩٠ ، ٦٨٩ .
(٥) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٩٢ ، مسلم ، الصحيح ٢/ ٤٧ .
(٦) مسلم ، الصحيح ٢/ ٢٤٤ .
(٧) البخاري ، الصحيح ، فتح (حديث ٣٠١٤ - ٣٠١٥) ، مسلم ، الصحيح (حديث ١٧٤٤) ، أحمد ، المسند ٢/ ١١٥ .
(٨) البخاري ، الصحيح ، الفتح الأحاديث ٢٧٤٣ ، ٢٧٤٤) ، الترمذي ، السنن ٣/ ٢٩١ .
(٩) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري (حديث ٤٢٨٦) ، مسلم ، الصحيح (حديث ١٣٥٨) .
(١٠) انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ١ / ٣٧٣ .

من شهد بدراً فقال: **اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[1] ومن هذا الموقف يمكن أن نستخرج بعض الدروس والعبر منها:

- حكم الجاسوس القتل، فقد أخبر عمر بذلك ولم ينكر عليه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن منع من إيقاع العقوبة بسبب كونه بدرياً.

- شدة عمر في الدين: لقد ظهرت هذه الشدة في الدين حينما طالب بضرب عنق حاطب.

- الكبيرة لا تسلب الإيمان: إن ماارتكبه حاطب كبيرة وهي التجسس ومع هذا ظل مؤمناً.

- لقد أطلق عمر على حاطب صفة النفاق بالمعنى اللغوي لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إذ النفاق إبطان الكفر والتظاهر بالإسلام، وإنما الذي أراده عمر، إنه أبطن خلاف ماأظهر إذ أرسل كتابه الذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله ويبذل دمه في سبيله[2].

- تأثر عمر من رد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتحول في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكى من الخشية والتأثر ويقول: الله ورسوله أعلم، ذلك لأن غضبه كان لله ولرسوله فلما تبين له أن الذي يرضي الله تعالى ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو غضُّ النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد استجاب لذلك[3].

- لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطب؛ ذهب لهذا الرأي الدكتور عبدالكريم زيدان حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطب في العفو عمن يعمل عمله، لأن العفو عنه كان لعلة لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصحابة وهو كونه شهد بدراً، فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ مما يدل على أن إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة مافعله حاطب أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقه[4]، وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيم وذكر أقوال الأئمة الأربعة ثم قال: والصحيح أن قتله راجح إلى رأي الإمام، فإن

(١) مسند أحمد (١/ ٢١٣).
(٢) السيرة النبوية لأبي فارس، ص٤٠٤.
(٣) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٧٦، ١٧٧).
(٤) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٢).

رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح، استبقاه[1].

- إسلام أبو سفيان:

إن في هذه القصة دروس وعبر وحكم في كيفية معاملة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنفوس البشرية ومن أهم هذه الدروس:

- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه فلم يملك أن يقول: بأبي أنت وأمي يامحمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. إنه يفدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبيه وأمه، ويثني عليه الخير كله: ماأحلمك وأكرمك وأوصلك[2]، وعندما قال العباس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»... ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ماتتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[3]، وكان هذا الاسلوب النبوي الكريم عاملا على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش، لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سبيله[4] وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس[5].

- وفي قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه العباس عن أبي سفيان: أحبسه بمضيق الوادي، حتى تمر به جنود الله فيراها[6]، ففعل العباس وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يشن حرباً نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيان بعينيٍّ رأسه مدى قوة ماوصل إليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط

---

(١) زاد المعاد (٣/٤٤٣).
(٢) فقه السيرة النبوية للغضبان، ص٥٦٤.
(٣) المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٣).
(٤) محمد قلعجي، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص٢٤٥.
(٥) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/٤٥٥.
(٦) سيرة ابن هشام (٤/٥٢).

وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية[1]، وبالفعل تم مارسمه رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لاقبل لقريش بهم حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله! ياعباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجرين والأنصار. قال: مالأحد بهؤلاء قِبلُ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة قال: فنعم إذا...)[2].

-إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وظهر، انقحمت[3] بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبدالله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً وأحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبدالله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يارسول الله تؤمنه؟ فقال: «**نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر!**» ثم قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن حوله: «**من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف ومامثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ماكان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع!**» فخرج عبدالله إلى أبيه، فقال سُهيل: كان والله بَراً، صغيراً وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة[4].

لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثراً من الأعمال الصالحة[5]، يقول الزبير بن

---

(١) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٤٧.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).
(٣) أي رميت بنفسي.
(٤) مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦ - ٨٤٧)؛ المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١).
(٥) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٦، ٢١٧).

بكار: كان سهيل بعد كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كردوس[1] يوم اليرموك[2].

-إسلام صفوان بن أمية:

قال عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: . . . وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة[3]. وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: وَيْحك انظر من ترىّ قال: هذا عمير بن وهب. قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ماجاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمد عليّ. فلحقه فقال: ياعمير، ماكفاك ماصنعت بي؟ حمّلتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عُمير قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يارسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤَمِّنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أمنته**»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يارسول الله، جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خذ عمامتي**».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ مُعتجراً[4] به، بُرد حَبَرة[5]. فخرج عمير في طلبه الثانية حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْده مَجْدك، وعزه عزك، ومُلكه مُلكك ابن أمك وأبيك. اذكر الله في نفسك. قال له: أخاف أن أقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم وقد بعث

(١) كردوس: فرقة كبيرة.
(٢) سيرة أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).
(٣) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وهو كان مرفأ مكة ومرس سفنها قبل جدة. معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).
(٤) الاعتجاز بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).
(٥) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

إليك بُبْرده الذي دخل فيه معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يُصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلّم صاح صفوان: يامحمد، إن عمير بن وهب جاءني بُبردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك. فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين. قال: «**انزل أبا وهب**». قال: لا والله، حتى تبين لي قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر، فنزل صفوان.

وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عارية مُؤَدَّاة**»، فأعاره، فأمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحملها إلى حنين، فشهد حنُيناً، والطائف ثم رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مُلئ نَعَماً وشاءً ورعاءً فأدام إليه النظر ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرمقه فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟**» قال: نعم. قال: هو لك ومافيه. فقال صفوان عند ذلك: ماطابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه[1].

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لاتصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه مافي أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ثم أسلم مكانه[2]، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: والله لقد أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماأعطاني وإنه لابغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ[3][4].

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٣ – ٨٥٥).
(٢) التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).
(٣) مسلم، كتاب الفضائل رقم ٢٣١٣، ص١٨٠٦.
(٤) السيرة النبوية – دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٥٦٧.

- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبدالله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يارسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حَيٍّ من عَكّ[1]، فاستغثتهم عليه فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيء أقول: قال: قل لا إله إلا الله. قال عكرمة: ماهربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لا تُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد أستأمنت لك محمداً رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمَّنك فرجع معها وقال: مالقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يؤمئذ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابه: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبّوا أباه، فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولايبلغ الميت**».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة. فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عكرمة وثب إليه - وماعلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رداء - فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فوقف بين يديه، وزوجته مُتنقبة، فقال: يامحمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني. فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**صدقت، فأنت آمن!**» فقال عكرمة: فإلى ما تدعو يامحمد؟ قال: «**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة - وتفعل، وتفعل، حتى عدّ خصال الإسلام**». فقال عكرمة: والله مادعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى مادعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرُّنا برّا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فسُرَّ بذلك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم قال: يارسول الله علمني خيرَ شيء أقوله. قال: «**تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله**». قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم**

(١) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية. معجم ما استعجم، ص٢٢٣.

مهاجر ومجاهد» . فقال عكرمة ذلك .

فقال رسول الله: «**لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه**» ، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها ، أو مسير وضعت فيه ، أو مقام لقيتك فيه ، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له مانال منّي من عرض، في جهي أو أنا غائب عنه!** » فقال عكرمة: رضيت يارسول الله ، لاأدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل لله ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيداً[1] .

وبعد أن أسلم رد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأته له بذلك النكاح الأول[2] .

لقدكان سلوك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام ، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه ، وابتسم له ورحب به وفي رواية قال له: «**مرحباً بالراكب المهاجر**» [3] ، فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه ، فأسلم ، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها ، فقد أخذت له الأمان من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه ، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة ، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم تُوّج بإسلامه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان صادقاً في إسلامه فلم يطلب من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دنياً وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له من كل ماوقع فيه من ذنوب ماضيه ، ثم أقسم أمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ماكان ينفق في الجاهلية ، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ماكان يبذله في الجاهلية ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل

---

(١) يعني يوم اليرموك .

(٢) مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ – ٨٥٣) .

(٣) مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) .

نفسه وماله في سبيل الله[1].

إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟**» قال أبو بكر: يارسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «**أسلم**»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غيروا هذا من شعره**»[2]، ويروى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[3].

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توقير كبار السن واحترامهم ويؤكد ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**»[4]. وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم**»[5]، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمة للاسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى[6][7].

- إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضالة؟**» قال: نعم فضالة يارسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله مارفع يده عن صدري حتى مامنْ خلق الله شيء أحبُّ إلي منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت

---

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥).
(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٧.
(٤) سنن الترمذي، كتاب البر، باب ١٥.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ٢٠.
(٦) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٩٥).
(٧) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٥٦٨.

بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلُمَّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ::: يأبى عليك اللهُ والاسلامُ
لرأيت دين الله أضحى بَيِّناً ::: بالفتح يوم تكسُّر الأصنام
لو مارأيت محمداً وقبيله ::: والشرك يغشي وجهه الإظلام[1]

- إسلام عبدالله الزبعري شاعر قريش:

لما فتحت مكة فر عبدالله الزبعري السهمي إلى نجران فلحقته قوافي حسان فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعدمن رجلاً أحلَّك بُغضُه ::: نجران من عيش أحذَّ لئيم[2]

أي فليبق الله لنا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الرجلِ العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليُدم الله عليك ابن الزبعري عيشاً ذليلاً مهيناً أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله ويسأل الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه[3]:

غضب الإله على الزبعري وابنه ::: وعذاب سوء في الحياة مقيم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعري فقام وقعد وقلّب أموره ثم اراد الله به الخير فعزم على الدخول في الإسلام ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلن أسلامه وطلب من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام فقال له رسول الله: «إن الإسلام يجب ماقبله»[4]. ثم ادناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حله[5]، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6]، قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: وله - ابن الزبعري - في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشعار كثيرة، ينسخ بها ماقد مضى من شعره في كفره[7].

---

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧).
(٣) محمد كابتي، الصحابي الشاعر عبدالله بن الزبعري، ص٩٢.
(٤) المغازي (٢/ ٨٤٨).
(٥) الزركلي، الأعلام (٤/ ٨٧)؛ الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٠٨).
(٦) الصحابي الشاعر عبدالله بن الزبعري، ص٩٧.
(٧) الاستيعاب لابن عبدالبر (٢/ ٣١٠).

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر له بحلة[1].

وقال القرطبي: (وكان شاعراً مجيداً، وله في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أشعاراً كثيرة، ينسخ بها ماقد مضى في كفره[2]...) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه[3].

محصلة فتح مكة:

نعم إن الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين المعتدي والمعتدي عليه قديم قدم الإنسانية، وقد عرفت الإنسانية الحرب على مر الدهور وكر العصور، فالحرب ضرورة إنسانية واجتماعية، ووسيلة من وسائل حل المشاكل الاجتماعية، وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب - كغيره من الديانات والحضارات - ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدينة القرن العشرين، ولا إلي ما يقرب منه، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة، فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف آثارها إلي آخر حد يمكن الوصول إليه، بدون الإخلال بسلامة الحوزة، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً، كلها ترقي إلي احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية، وأن التفاهم فيه العطف خير بدلاً منها، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية.

وهذه المعاني والقيم الإنسانية والحضارية التي صاغها الإسلام في الحرب قد تجسدت بوضوح في فتح مكة، فالخسائر لا تذكر إضافة إلى القيم والمعاني الإنسانية التي أرساها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللنظر إلي محصلة الفتح:

- حادث سرقة واحدة لأخت أبي بكر الصديق لم يعرف صاحبها» فقام أبو

(١) الإصابة (٢/ ٣٠٨).
(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٤٠٧).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).

بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشدكم بالله والإسلام طوق أختي ؛ فوالله ما جاء أحد ، ثم قال الثانية والثالثة فما جاء به أحد ، فقال: يا أخية احتسبي طوقك ؛ فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل .

قال ابن كثير: يعني به الصديق ذلك اليوم على التعيين لان الجيش فيه كثرة ولا يكاد أحد يلوي على أحد مع انتشار الناس ولعل الذي أخذه تأول أنه من حربي والله أعلم .

- حادث سرقة آخر قامت به امرأة قرشية مخزومية ضبطت متلبسة بجرمها ، وجرت محاولات ووساطات كبرى لتفادي عقوبتها بقطع يدها .

- أتكلمني في حد من حدود الله؟:

قال عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله . فلما كان العشيُّ قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» . ثم أمر رسول صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بتلك المرأة فقطعت يدها .

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت . قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ [(١)] .

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء ، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لايفرق بين الناس ، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء ، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى ، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير لعبرة للمسلمين حتى لايتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلامية[(٢)] .

حادثة قتل واحدة لثأر قديم:

أعطى رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لخزاعة التي قُتل منها أربعة وعشرون قتيلاً

---

(١) البخاري ، المغازي رقم ٤٣٠٤ .

(٢) معين السيرة ، ص٤٠٢ ؛ التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣) .

غدراً ونُهبت أموالها حق الثأر لنفسها ساعة محددة من النهار فقال:» كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر ، فخبطوهم ساعة وهي الساعة التي أحلت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فلما كان بعد الفتح بيوم أقبل خراش بن أمية فحمل على جندب بن الأدلع الهذلي ، فطعنه في بطنه فمات . فجعلت حشوته تسيل من بطنه ، فسمع بذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: «**يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل؛ فقد والله كثر إن نفع. إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم أو قتل غير قاتله أو قتل بذحول الجاهلية. فقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّه. فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فدِيتُه كاملة، وإن شاؤوا فقتله**» . ثم ودى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة . قال ابن هشام: مائة ناقة . وبلغني أنه أول قتيل وداه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] .

- بيوت المسلمين المهاجرين جميعاً كانت في مكة ، وهي حقهم المغتصب ؛ ومع ذلك فقد أبى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استردادها ، بل نزل خارج مكة .

فقد روى البخاري وغيره عن أسامة بن زيد أنه قال: يا رسول الله ! أين تنزل غداً؟ تنزل في دارك؟ قال: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار**» [2] .

وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انزل في بعض بيوت مكة غير منازلك ، فأبى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**لا أدخل البيوت**» [3] ولم يزل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد لكل صلاة من الحجون [4] .

- الذين قتلوا في مكة كان هناك من قتل في الحرب والمواجهة مع خالد وخراش الذي سبق ذكره ، وكان هناك مجرمو حرب فثلثهم كانوا بالمدينة ، فارتدوا عن الإسلام وهربوا إلى مكة وقتلوا بعض القتلى . وآخرون كانوا من عتاة المجرمين ومن بينهم ثلاثة نسوة ارتدت إحداهن وكانت اثنتان منهن تغنيان بهجاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان عددهم ثلاثة عشر أسلم ثمانية منهم واستؤمن لهم ،

---

(١) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٤٤ .
(٢) البخاري ، ح/ ٤٢٨٤ .
(٣) البخاري ، ح/ ٤٢٨٤ ، وفتح الباري ، ٨ / ٣٢٤ .
(٤) فتح الباري ، ٨ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

وقتل منهم خمسة»[1].

- هـدمت أصنام المشركين فقط ؛ فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مكة يوم فتحها وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص ، وكان هبل أعظمها ، وفي يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوس وقد أخذ بسِيَة القوس فجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن في عينيه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه ، وفي لفظ لقفاه من غير أن يمسه»[2].

- عفا رسول الله عن فضالة بن عمير الليثي من بني بكر الذي حاول اغتياله ومسح صدره ودعاه إلى الإسلام فأسلم.

- أما طعام الفاتحين ، فقد روى الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأم هانئ (ابنة عمه) يوم الفتح: هل عندك من طعام نأكله؟ قالت: ليس عندي إلا كسر يابسة (خبز يابس جاف) ، وإني لأستحي أن أقدمها لك ، فقال: هلمي بهن. فكسَّرهن في ماء وجاء بملح ، فقال: هل من أدم؟ فقالت: يا رسول الله ! ما عندي إلا شيء من خل ، فقال: هلميه ، فصبه على الطعام وأكل منه ، ثم حمد الله ، ثم قال: يا أم هانئ ! لا يفقر بيت فيه خل»[3].

لقد جاء فتح مكة ليرسي ويحدد المبادئ العليا التي تنطلق منها البشرية مثل: - إعلان التوحيد: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[4].

- إلغاء الجاهلية وآثارها:

«**لا إن كل رباً في الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدميَّ هاتين. وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج**»[5].

فقد أعلن المبدأ ، وأعلن تنفيذه مباشرة ، فأسقط دم ابن عمه ربيعة بن الحارث

---

(١) مسلم ، ح/ ١٧٨١ ، والبخاري ، ح ٤٢٨٧ .
(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام ٤ / ٤٦ .
(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ، ٦ / ١٧٦ .
(٤) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٣٥ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، ٢ / ١٦١ ، تاريخ الطبري ، ٢ / ٤١٢ .
(٥) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٣٥ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، ٢ / ١٦١ ، وتاريخ الطبري ، ٢ / ٤١٢ .

وفي رواية: «**وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبد المطلب**» فيسقط ربا عمه العباس مع دم ابن عمه ربيعة .

- دية قتيل الخطأ:

«**ألا وفي قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة منها أربعون في بطونها أولادها**»[1] . . وذلك لتغليظ حرمة الدم فلا يتساهل فيه .

- إلغاء الفوارق الطبقية ، ووحدة البشرية:

«**ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها. كلكم لآدم وآدم من تراب**» ثم تلا هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣][2] . . .

فالناس كلهم من أصل واحد . يتفاوتون بقربهم من ربهم أو بعدهم عنه . وليس الأمر الضابط على سلطة الدولة فقط كما يقول الرئيس الأمريكي ؛ بل الضوابط على سلطة الخلق جميعاً بحيث لا يطغى فرد على فرد بنسب أو جاه أو مال . إنما الكفاءة والبر التقي الكريم .

لقد كان يعلن هذه المبادئ في بيت الله الحرام ، وفي سلطان قريش التي تفخر على العرب جميعاً بأنسابها ، وفي عشرة آلاف من العرب وبجوارهم ألفان من قريش ، ويسقط كل الفضل العربي أو المصري أو اليمني أو القرشي ؛ يعلن هذا ضد عواطف جيشه كله الذي يفخر بانتمائه العربي ويعتز بنسبه ، ويخوض الحروب والأهوال من أجل كرامة القبيلة وسيادتها .

ولم يكن إعلان هذا المبدأ نتيجة ثورة شعبية مثلت أكثرية جيشه اضطر لجاراتها من الفرس والروم ، بل أعلن ذلك أمام قريش ومَنْ وراءها من العرب: «**إن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. كلكم لآدم وآدم من تراب**»[3] .

---

(١) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٣٥ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، ٢ / ١٦١ ، وتاريخ الطبري ، ٢ / ٤١٢ .

(٢) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٣٥ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، ٢ / ١٦١ ، وتاريخ الطبري ، ٢ / ٤١٢ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، حديث رقم ٣٢٧٠ .

- حرمة مكة والبيت الحرام، واعتبار السلم أساس العلاقات الدولية: «**ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ووضع هذين الأخشبين؛ فهي حرام بحرام الله، لم تحل لأحد كان قبلي ولن تحل لأحد كائن بعدي، لم تحل لي إلا ساعة من نهار يقصرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده هكذا ولا ينفَّر صيدها، ولا يعضد عضاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها**» فقال العباس وكان شيخاً مجرباً: إلا الإذخر[1] يا رسول الله؛ فإنه لا بد منه للقبر وظهور البيوت. فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعة، ثم قال: «**إلا الإذخر؛ فإنه حلال**»[2].

فرمز السلام في الوجود ومعقله هو مكة والبيت الحرام حيث يأمن الطير فلا يصاد، والحشيش فلا يقطع، والشوك فلا يقلع. بَلْهَ الإنسان إنه مركز السلام والأمن في الوجود[3].

سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

وخلال إقامته في مكة المكرمة بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد على رأس سرية كبيرة من المهاجرين والأنصار ورجال من بعض القبائل العربية المسلمة كسليم، وبني مدلج بن مرة[4] بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسين رجلا فيهم عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر إلى بني جذيمة[5]، وذلك في شوال سنة ثمان من الهجرة، داعيا لهم إلى الإسلام ولإخضاع قبائل الأعراب الحليفة لقريش، والتي كانت تكوِّن كتلة الأحابيش التي شاركت ضمن الجيوش القرشية التي خاضت بدرا وأحدا والخندق ضد المسلمين، وذلك إكمالا لإحكام سيطرة

---

(١) الإذخر: حشيش طيب الريح، والجليل الثّمام وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت. وقيل هو الثّمام إذا عظم وجلّ. لسان العرب: مادة (ذخر، جلّ).

(٢) المغازي، للواقدي، ٢ / ٨٣٥، والسيرة النبوية، لابن هشام، ٢ / ١٦١، وتاريخ الطبري، ٢ / ٤١٢.

(٣) د. منير محمد الغضبان، عندما يحكم الإسلام.. وعندما تحكم الجاهلية، مجلة البيان، العدد ٥٨.

(٤) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٢٩).

(٥) وكانوا يقيمون في يلملم، قال ابن سعد إنهم بأسفل مكة على ليلة منها ناحية يلملم (الطبقات ٢/ ١٤٧)، وذكر أن «يلملم» جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث، وقيل هو واد، ويمكن الجمع بينهما فيكون جبل يشرف على واد، انظر ياقوت - معجم البلدان ٨/ ٥١٤. وبلادهم تبعد ثمانين كيلو إلى الجنوب من مكة.

المسلمين على المنطقة ونشر الدعوة فيها، وفتح الطريق أمامهم إلى الطائف ثاني أكبر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية آنذاك، والتي كانت تمثل حاجزا أمام نشر الدعوة الإسلامية فيها"[1].

تحركت السرية نحو هدفها، ثم إن بني جذيمة لما سمعوا بخبر السرية استعدوا للقتال ولبسوا السلاح، وعلى الغميصاء[2] تقابل الجيشان، فدعاهم خالد إلى الإسلام "فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا"[3].

ونظرًا لما هذه الكلمة من ماضٍ سيء في تاريخ الإسلام، حيث كانت تطلق في مقام الذم للمسلمين الأوائل بمكةً، والاستهزاء بهم من قِبَلِ المشركين، ونظرا لدقة الموقف وحراجته والذي يتطلب سرعة الخاطر في إعطاء القرار الحاسم من أي قائد يحرص على نجاح مهمته، فقد تأوَّل خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ "الذي كان يعرف الكلمة وظروف استعمالها"[4]، كلمتهم تلك على أنها استهزاء وسخرية بالمسلمين "فجعل يقتل منهم ويأسر"[5] ثم إنه أمر بعد فترة بقتل الأسرى باعتبار أنهم كانوا مستهزئين بالإسلام، فرأى أنه لا بدَّ وأن يثخن فيهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من الأعراب.

ولكن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر، وبعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ[6]، لم ينقادوا لأمر خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وخالفوه في اجتهاده، ورأوا أن بني جذيمة قد "عبروا عن إسلامهم بما يعرفون"[7]، وكان أكثرهم معارضة له عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، حيث قال عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره"[8].

---

(١) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣١، ابن كثير، التفسير ٤/ ٣٠٦.
(٢) الغميصاء: مكان أسفل مكة على ليلة ناحية بلملم. انظر ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٧)، والبكري، معجم (٣/ ١٠٠٠)، وذكر البلادي أنه لا يعرف موضعا قريبا من مكة يعرف بهذا الاسم، وأنه ربما تغيَّر اسم المكان مع الزمن. البلادي، معالم مكة (٢٠٥).
(٣) ابن حجر، فتح، ٨/ ٥٧.
(٤) أكرم العمري، المجتمع المدني، ص١٩٤.
(٥) ابن حجر، فتح (٨/ ٥٧، ١٣/ ١٨٢).
(٦) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٠ - ٤٣١)، والواقدي، مغازي (٣/ ٨٨٠ - ٨٨١).
(٧) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣١، ابن كثير، التفسير ٤/ ٣٠٦. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص١٩٤، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٩.
(٨) ابن حجر، فتح (٨/ ٥٧، ١٣/ ١٨١).

ويذكر الواقدي أن بني سليم قتلوا كل من كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فكان عدد قتلى بني جذيمة قريبا من ثلاثين رجلا[1]، منهم رجل غير جذيمي ساقته منيته وأودى به عشقه لامرأة جذيمية إلى مصيره المحتوم[2].

وعند رجوع السرية من مهمتها رفع المعارضون لخالد تقريرا مفصلا بما حدث للقائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي عبَّر عن إنكاره لفعل خالد بقوله: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**». قالها مرتين[3]. كما أنكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خالد ما فعله من شتم عبد الرحمن بن عوف وقال: «**لا تسبّوا أحدا من أصحابي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه**»[4].

وروي ابن إسحاق أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عليًّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمال فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال وزادهم فوق ذلك إحسانا إليهم وتطييبا لنفوسهم[5][6].

وقد ذهب البعض إلي إدانة خالد بن الوليد في فعله هذا فأخذوا يسوقون الروايات الضعيفة المُشْعِرةِ بإدانة خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه فعل ذلك إدراكا لثأر قديم مع بني جذيمة[7].

والحقيقة أن كل هذه الروايات ضعيفة لا يحتج بها، فالواقدي متروك، وابن

---

(١) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٨٤).

(٢) الطبراني، معجم (١١/ ٣٧٠)، والبيهقي، دلائل (٥/ ١١٧ - ١١٨). وجاء في رواية فقال الرجل: إني لست منهم، إني عشقت امرأة منهم، فدعوني انظر إليها نظرة - قال فيه -: فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أما كان فيكم رجل رحيم. انظر: ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٩)، ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٣)، الطبري، تاريخ (٣/ ٦٨).

(٣) ابن حجر، فتح (٨/ ٥٧)، القسطلاني، إرشاد الساري (٦/ ٤١٧).

(٤) مسلم - الصحيح ٤/ ١٩٦٧، (حديث ٢٥٤١).

(٥) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٠).

(٦) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٢٨ - ٤٣٣)، والواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٥ - ٨٨٤)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٧ - ١٤٩)، والبيهقي، دلائل (٥/ ١١٣ - ١١٨)، ابن حجر، فتح (٦/ ٢٧٤، ٨/ ٥٧، ١٣/ ١٨١)، والقسطلاني، إرشاد (٦/ ٤١٦ - ٤١٧)، وأخرجه الإمام أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (٢١/ ١٦٧).

(٧) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣١)، والواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٦ - ٨٨٢).

إسحاق ساقها بلا سند . والغريب أن الواقدي بعد ما يسوق عدة روايات تدين لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يختمها برواية حول الحادثة كلها تذكر أن خالدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قتل بني جذيمة إلاّ بعد أن امتنعوا أشدّ الامتناع وقاتلوا وتلبسوا السلاح ، وأنه انتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء ، ولا يسمع أذانا ثم حمل عليهم فادَّعوا بعدُ الإسلام[1] .

فهناك شخصية خالد قائد الجيش وما يتطلبه منه الموقف من حزم وسرعة بديهة وتصرُّف عاجل ، وهناك على ما أعتقد قلة خبرته الفقهية الضرورية لإصدار الأحكام الاجتهادية قياسا مع الصحابة الذين أنكروا عليه ، كعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، لسابقتهم في الإسلام ، وحداثة عهده به[2] .

وهناك شخصية أفراد القبيلة وماضيهم المليء بالغدر والفتك[3] ، والذي يعرفه خالد جيدا .

وهناك الأهم ، وهو تصرفهم أثناء الحادثة ، قوم مدجَّجون بالسلاح ، مستعدون للقتال ، وفجأة عند ما ظهر عليهم المسلمون قالوا: صبأنا صبأنا . وكانت هذه اللفظة متداولة في مكة ، وتطلق على كل من أسلم حديثا على سبيل الذم والاحتقار ، فكان واجب القيادة يحتم على خالد سرعة الحسم ، فربَّما أنه رأى في تقديره الشخصي وما أدّى إليه اجتهاده أنهم لو كانوا قد أسلموا لما لبسوا السلاح ، واستعدوا للقتال وهم يعرفون أن المسلمين قريبون منهم ويسمعون أخبارهم .

وما خبر فتح مكة بالخبر الذي يخفى ، وربما أنه اعتقد أنهم لو أسلموا لكانوا عرفوا النطق بالشهادتين ، وهي الوثيقة الوحيدة التي تفرق بين المسلم والكافر أو ربما أنه ظن أنهم قالوا كلمتهم تلك احترازا وخوفا من السيف[4] .

وقال الخطابي: " وقد يحتمل أن يكون خالد إنما لم يكفَّ عن قتالهم بهذا القول

---

(١) الواقدي ، مغازي (٣/ ٨٨٣) .

(٢) لم يسلم خالد رضي الله عنه كما تذكر روايات أهل المغازي إلاّ قبيل فتح مكة . ابن هشام ، سيرة (٣/ ٢٧٧) ، والواقدي ، مغازي (٢/ ٧٤٦ - ٧٤٩) . والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتفاوتون في الفقه ، ويدل على ذلك حديث: "ربَّ مبلغ أفقه من سامع" .

(٣) ورد في بعض روايات أهل المغازي أنهم كانوا من أشرِّ حيٍّ في الجاهلية وكانوا يسمّون "لعقة الدم" . انظر الحلبي ، إنسان (٣/ ٢١٠) .

(٤) وقد حدث مثل ذلك لأسامة بن زيد في سرية الحُرقات من جهينة ، حينما قتل رجلا منهم قال: لا إله إلا الله بعد أن رفع عليه السيف . انظر ابن حجر ، فتح (٧/ ٥١٧) .

من قِبَلِ أنه ظنَّ أنهم عدلوا عن اسم الإسلام إليه أنفة من الاستسلام والانقياد فلم ير ذلك القول منهم إقرارا منهم بالدين".

ويعتقد أنه قد جرى اجتهاده بالنسبة للأسرى قياسا على أسرى بدر، وما جرى حولهم من عتاب الله عز وجل لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فربما أنه ظنَّ أنهم أسرى كفّار، لا بدَّ من أن يثخن فيهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من المشركين.

فكل هذه الاحتمالات وما يصاحبها من أمور دقيقة وملابسات شائكة، تجعل أي قائد في مثل موقف خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موضع شكٍّ في مثل من هم في موقف بني جذيمة، فجرى اجتهاده الذي لامه عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المسألة تتعلق بأرواح أناس بَدَرَ منهم شبهة تدرأ القتل عنهم" وإنما نقم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خالد موضع العجلة، وترك التثبت في أمرهم أن يتبين المراد من قولهم: صبأنا"[1].

وأخيرا لو كان الأمر سيئًا للدرجة التي وردت في بعض الروايات التي لا تصلح للاحتجاج بها لضعفها الشديد ونكارتها، والتي استغلها بعض الحاقدين على الإسلام ورجالاته الأفذاذ، مثل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سيف الله المسلول، الذي دوّخ الكفرة والمشركين بانتصاراته الباهرة - لحدث بعد هذه الحادثة أمران مهمان جدا لا بدّ من حدوثهما في مثل هذه المسائل الخطيرة وهما:
أولا: نزول آيات قرآنية تشجب تصرف خالد وتعاتبه عليه كما حدث في سرية أضم وقصة محلم بن جثامة مع عامر بن الأضبط[2].

ثانيًا: محاسبة خالد ومعاقبته على فعلته أو على أقل تقدير عزله من قيادة الجيش والسرايا بعد تلك الحادثة، وذلك أمر لم يحدث مطلقا.

ثم إن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ائتمنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دماء المسلمين وأعراضهم، ومن بعده صاحبُه وخليفته أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا يمكن أن يقتل أحدًا من الناس دون حقٍّ إلاَّ متأولاً. قالها أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما بلغه قتل خالد لمالك بن نويرة[3].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) الخطابي، أعلام (٣/ ١٧٦٥).
(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٢٥٨ - ٢٥٩).
(٣) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٥٤.

الفصل التاسع:
[غزوة حنين والطائف]

غزوة حنين:

بعد فتح مكة والقضاء على أعظم قوة للشرك في الجزيرة العربية لم يبق أمام المسلمين إلا قبائل هوازن وثقيف المتاخمة لمكة المكرمة، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصمما على مطاردة فلول الوثنية والإجهاز على معاقل الشرك في جزيرة العرب التي لا يجتمع فيها دينان، وقد ترامت أنباء فتح مكة في أنحاء الجزيرة العربية وخاصة في ديار هوازن وثقيف القريبة من مكة، وما أن سمعت قبائل هوازن بهذا الفتح الإسلامي الكبير حتى تداعت فيما بينها تتدارس هذا الحدث الجلل وترصد تحركاته نحوها، فكانت النتيجة أنها عزمت أن تهاجم المسلمين قبل أن يهاجموها، فأعدت عدتها وحشدت قواها المادية والبشرية، فنزلوا حنينا، وقد أرادوها موقعة حاسمة فحشدوا كل ما لديهم من القوات [1] والأموال والنساء والأبناء حتى يستقتلوا فلا يفكر أحد منهم في الفرار ويترك أهله وماله. واستنفروا معهم غطفان وغيرها [2]. وكان يقود الجموع مالك بن عوف النصري - الذي اجتمع إليه بنو نصر قومه، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، وقليل من بني هلال، وعدد من بني عوف بن عامر، وعمرو بن عامر، وتخلف من هوازن كعب وكلاب، أما ثقيف فقد التحقت بهم كلها مع أحلافها بالإضافة إلى بني مالك [3] وقد بلغ تعداد قوات المشركين هذه عشرين ألف مقاتل [4]، وقد رتب مالك بن عوف قواته في صفوف حسنة، جعل الخيالة في المقدمة ثم الرجالة، وخلفهم حشد النساء والأولاد والأنعام والأثقال [5].

بلغت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبار التحشدات التي جمعتها قوى الشرك لمواجهة الإسلام، وأراد جمع المعلومات الدقيقة عنهم، ولذلك فإنه بادر بإرسال عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي للتعرف على أمرهم، فارتحل إليهم ومكث فيهم

(١) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٥.
(٢) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٥، الطبري، تاريخ ٣/ ٧٠.
(٣) ابن إسحاق، المغازي ص ٥٧١، الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٨، ابن هشام، السيرة ٤/ ٤١٤.
(٤) الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٣.
(٥) مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٦ (حديث ١٠٥٩).

يوما أو يومين قبل أن يعود بأخبارهم إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ [١] .

لقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه فاته شئ مهم جداً إذ لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ؛ لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو[٢] .

استعدادات الجيش الإسلامي:

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة عن المشركين بدأ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالاستعدادات المطلوبة لمواجهتهم وسعى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا، وتكفل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إذا أتتك رسلي فأعطهم – أو قال فادفع إليهم – ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا، أو أقل من ذلك**» فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**نعم**» [٣] وفي رواية: أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ استعار منه يوم حنين دروعا فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: «**لا، بل عارية مضمونة**» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب، قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم[٤] .

---

(١) الذهبي، المغازي ص ٥٧١ – ٧٢، الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٨ .
(٢) القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص٣٦٩ .
(٣) أبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية، (٣/ ٨٢٦) رقم ٨٥٦٦ .
(٤) أبو داود، كتاب البيوع والإجارات، باب تضمين العارية (٣/ ٨٢٣) رقم ٨٥٦٢ .

واستدان أربعين ألف درهم من حويطب بن عبد العزى» ، وقبل عون نوفل بن الحارث بن عبد المطلب له بثلاثة آلاف رمح [1].

وكان جيش الفتح في مكة مستعدا إذ لم يلق مقاومة تذكر في فتح مكة ، كما أن إقامته في مكة بعد الفتح مدة خمسة عشر يوما قد منحته الكثير من الراحة واستعادة النشاط ، إضافة إلى ما تحقق له من ارتفاع في الروح المعنوية بما منحه الله من نصر ، ولذلك فإنه كان مهيأ لمواجهة عدوان المشركين ، وقد تحرك جيش المسلمين بناء على أمر قائده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم الخامس من شوال سنة ٨ هـ ميمما نحو تجمعات المشركين في حنين [2].

وكان قوام جيش المسلمين عشرة آلاف - وهم من خرجوا معه من المدينة - وألفان من مسلمة الفتح ؛ فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفا ، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء[3] وهم ألفان[4] فبلغ عدد قوات الجيش الإسلامي اثنى عشر ألف مقاتل ، وهو أكبر جيش للمسلمين يخرج للقتال في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى هذه الغزوة [5] ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصا على تأمين قواته لذلك فقد اهتم بحراسة الجيش ومراقبة تحركات العدو [6].

ولقد كان لوجود «الطلقاء» من أبناء مكة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام آثاره السلبية فقد رأى بعضهم أثناء تقدم الجيش الإسلامي نحو حنين شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها ، ومشاهدها التي طال عهدهم بها ، فقالوا: يارسول الله: إجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط) ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله أكبر! قلتم

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ١/ ٣٨٥ .
(٢) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٣٧ ، البيهقي ، السنن ٣/ ١٥١ ، النسائي ، السنن ٣/ ١٠٠ ، ابن حجر ، فتح الباري ٢/ ٥٦٢ .
(٣) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فتح مكة وخلى سبيلهم .
(٤) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٥) رقم ١٠٥٩ .
(٥) الواقدي ، المغازي ٣/ ٨٩٠ ، الهيثمي ، كشف الأستار ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ابن إسحاق: ابن هشام ، السيرة ٤/ ١٢٤ ، البيهقي ، دلائل ٥/ ١٢٣ .
(٦) أبو داود ، السنن ١/ ٢١٠ ، ٢/ ٩ ، وانظر ابن حجر ، الإصابة ١/ ٨٦ .

والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة»، قال: ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبنّ سنن من قبلكم»[١].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم اسلامهم ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوضح لهم مافي طلبهم من معاني الشرك وحذرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[٢]، وقد سمح لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشاركة في الجهاد لأنه لايشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماماً من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والأخلاق وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار[٣].

ومن هذا الموقف يتبين لنا:

- أن المجتمع الجاهلي وصل إلى الدرك الأسفل في فساد الاعتقاد والجهل بحقائق التوحيد والبعد عن المنهج السوي.

- كما يدل على أن تعليق الأسلحة على ذات أنواط هذه مع أن ظاهره لا شيء فيه تابع للباعث عليه وهو الاعتقاد، ولذلك اعتبر هذا الفعل اتخاذ إله من دون الله كما أنكر عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة.

- فيه معجزة نبوية حيث أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن أمته ستتبع سنن الأمم الماضية، وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما يشاهد في حياة المسلمين اليوم من انحراف وتقليد وتبعية في مختلف جوانب الحياة دليل ظاهر على هذه المعجزة.

- فيه تحذير شديد من اتباع أهل الأهواء والزيغ من الأمم الماضية من اليهود والنصارى وغيرهم[٤].

ومن تلك الآثار السلبية، ما أصاب بعض المسلمين من غرور وإعجاب

---

(١) الترمذي، السنن ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢، النسائي، السنن الكبرى (تحفة الاشراف (١١/ ١١٢، حديث ١٥٥١٦)، أحمد المسند ٥/ ٢١٨، ابن كثير، التفسير ٢/ ٢٤٣.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).
(٣) التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٦٢).
(٤) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ص١٣٤.

بكثرتهم ، فقال أحدهم: «لن نغلب من قلة» ، وقد أصاب هذا الشعور آخرين منهم مما استحقوا معاقبة الله لهم فأذاقهم مرارة الهزيمة في المواجهة الأولى في حنين ، وعاقبهم وبيّن لهم أن النصر هو من عند الله ، وبأن شعورهم بالزهو لكثرتهم كان سببا في ذلك الدرس القاسي ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] .

ولقد انتبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك الانحراف ، فأكد لهم أن النصر من عند الله ، وأنه يفتقر لربه ويدعوه وحده فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللّهمّ بك أحول، وبك أجول، وبك أقاتل**» ، كما قص على أصحابه قصة النبي الذي أعجب بكثر أمته فابتلاهم الله بالموت ، فكان إدبارهم في المواجهة الأولى والأهوال التي واجهوها قد أرجعتهم إلى التصور الصحيح وإفراد التوكل على الله سبحانه ، فقد ذكر الصحابة "أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله ، فقلنا يا رسول الله: إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله ، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال: «**لن يروم[1] هؤلاء شيء، فأوحى الله إليه أن خير أمتك في إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت**» . فشاورهم فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم ، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه ، ولكن الموت ، فأرسل عليهم الموت فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا .

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فأنا أقول الآن - حيث رأى كثرتهم -: «**اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل**» . "[2] .

هكذا أخذ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة[3] .

وهذا الموقف يبين مدى صلة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه وافتقاره إليه في

---

(١) لن يروم هؤلاء شيء: أي لن يكافئ ، أو لن يقوم لهؤلاء شيء .
(٢) أحمد: (المسند ٤/ ٣٣٢ و٣٣٣ و٦/ ١٦ - ١٨) . والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٥٣ ، والطبري: تهذيب السنن والآثار ، حديث (١٥٩ و١٦٠) . الدارمي - السنن ٥/ ١٣٥ .
(٣) المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري ، ص١٩٩ .

جميع حركاته وسكناته، وأنه يستبعد منه أن يغتر بكثرة من معه، بل كان دأبه الخضوع والتواضع لله، والتوكل عليه في كل شؤونه، ومقام النبوة أعلى وأرفع من أن يتصور وقوع مثل هذا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

واستقراء سيرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغزواته يدل على أن ما أصاب المسلمين من انكسار أمام أعدائهم كان مصدره مخالفة بعض أتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأوامره وتوجيهاته العسكرية، كما حصل في غزوة أحد، وكما حصل في غزوة حنين، فإن الروايات صحت أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجه النصح والتنبيه للمسلمين أن لا يغتروا بكثرة عددهم.

وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخشى أن يغتر المسلمون ويعجبوا بكثرتهم، فأراد أن يذكرهم بما حصل لمن قبلهم من الأمم من عقوبة بسبب الاغترار والإعجاب بالكثرة.

والحقيقة أن تصرفات بعض الأعراب والطلقاء لم تكن تهمهم نتائج الصراع ومدلولاته بقدر ما كان يعنيهم الحصول على الغنائم [١]، وكذلك بعض زعماء قريش الذين كانوا يقفون في مؤخرة جيش المسلمين يراقبون تطور المعركة وينتظرون معرفة المنتصر فيها [٢].

تعبئة الجيشين:

كانت قوات المشركين قد سبقت المسلمين إلى وادي حنين، فاختاروا مواقعهم، ووزعوا قواتهم، وأحكموا خطتهم التي اعتمدت على رفع الروح المعنوية لدى جنوده بالخطب والشعارات فوقف مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف خطيباً في جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال، فقال: إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً [٣]، لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم [٤].

ثم أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، فقال لهم: فإذا كان في السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفوا

---

(١) البخاري، الصحيح ٤/ ٢٥، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤٠١.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٦٨، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١/ ٣٧٦.
(٣) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم وهو الذي لم يجرب الأمور.
(٤) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).

صفوفكم، ثم تكون الحملة منكم [1].

وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم، لأن المقاتل - من وجهة نظره - إذا شعر أن أعزّ مايملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار مخلفاً ماوراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إفتتحنا مكة، ثم غزونا حنيناً فجاء المشركون بحنين صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفّت المقاتلة، ثم صفّت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم [2].

ثم أمرهم بتجريد السيوف وكسر أجفانها، فقال لهم: واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا [3].

وقد جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت [4].

وعمل مالك بن عوف علي الاستفادة من طبوغرافية الموقع وثناياه وأشجاره وانحدار طريق المسلمين إليهم، وعلى المفاجأة ومباغتة المقاتلة المسلمين بالنبال بهدف إبادتهم، وكانت عنده معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فنصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله سبحانه وتعالى وعنايته [5].

وكان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين، لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالباً مايكون في مركز الضعف [6].

وقد آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى - بفضل الله تعالى - ثم بثبات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كسب المسلمون

---

(١) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٢) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٣) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٤) مجمع الزوائد (٦/ ١٧٩ - ١٨٠؛ المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨ - ٤٩) صحيح الاسناد.
(٥) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٦) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).

الجولة وانتصروا على أعدائهم[(١)].

وكان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوزاني، استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شنَّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك[(٢)].

وحاص الأمر أن معنويات المشركين كانت عالية بسبب كثرتهم وشجاعتهم وخبراتهم القتالية[(٣)].

وعلى الجانب الإسلامي، عبأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه بالسّحر وعقد الألوية والرايات ورتب الجند على هيئة صفوف منتظمة، واستقبل بجيشه وادي حنين[(٤)]، وانحدروا مع بزوغ الفجر تتقدمهم على المجنبات الخيالة بقيادة خالد بن الوليد[(٥)]، وكان المقاتلة من بني سليم في طليعة القوات الإسلامية منذ خروجها من مكة[(٦)].

بدء المعركة:

اندفع المسلمون نحو جموع هوازن، فانكشفوا، فانكب المسلمون على ما تركوه من الغنائم، وبينما هم منشغلون بذلك، نفذت هوازن الخطوة الثانية من خطتها فبغتوا المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم في بعض، وسرعان ما عادت قواتها لتستقبل المسلمين، في الوقت الذي ظهرت قواتها الكامنة فأمطرتهم بوابل عنيف من السهام من الجانبين «ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقا ما كانوا يخطئون»[(٧)]، وفوجيء المسلمون

---

(١) القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص٢٥٢.

(٢) غزوة حنين للشيخ محمد أحمد باشميل، ص١٢٨ - ١٣١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٣٠، الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٣، وانظر ابن هشام السيرة، ٢/ ٤٤٢، أحمد، المسند ٣/ ٣٧٦.

(٤) الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٥ - ٧.

(٥) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٥.

(٦) الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٦ - ٨٩٧.

(٧) البخاري، الصحيح ٤/ ٣٥ (حديث ٤٣١٧)، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١ (حديث ١٧٧٦).

وتساقط شهداؤهم [1] وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين لا يلوون على شيء، حيث انكشفت خيالة المسلمين في البداية ثم اتبعهم المشاة، ثم بقية الجيش، واستمر القتال في هذه الجولة من الفجر إلى الليل ثم استمرت طوال ذلك الليل، وتقدم المصادر الموثقة معلومات مفصلة عن الصعوبات التي واجهها المسلمون من الحر الشديد، والأرض الرملية، وارتفاع الغبار في وجوههم مما حد من قدرتهم على الرؤية [2].

ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونفر قليل في الميدان يتصدّون لهجمات المشركين ونترك العباس عمّ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين. فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم نفارقه. ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذاميّ. فلمّا التقى المسلمون والكفّار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركض بغلته قبل الكفّار. قال عبّاس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكفها إرادة أن لا يسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أي عبّاس ناد أصحاب السّمرة»** [3]. فقال عبّاس: (وكان رجلا صيّتا) فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السّمرة؟ قال: فو الله لكأنّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبّيك يا لبّيك. قال: فاقتتلوا والكفّار. والدّعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار. قال: ثمّ قصرت الدّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج. يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هذا حين حمي الوطيس»** [4] قال: ثمّ أخذ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار.

---

(١) البخاري، الصحيح (الفتح حديث ٤٣١٥)، مسلم، الصحيح ٣/ ١٣٩٨ (حديث ١٧٧٥).
(٢) أحمد، المسند ٥/ ٢٨٦، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٨٢.
(٣) أصحاب السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان. ومعناه نادهم.
(٤) هذا حين حمي الوطيس: قيل الوطيس هو التنور المسجور. وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من أحد قبل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمّ قال: «انهزموا، وربّ محمّد» . قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى . قال: فوالله ما هو إلّا أن رماهم بحصياته . فما زلت أرى حدّهم كليلا وأمرهم مدبرا[1] .

لقد كان ذلك درسا قاسيا عاقب الله تعالى به أولئك الذين أصابهم العجب والزهو ووصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] .

سبب هزيمة المسلمين في بداية المعركة:

إن انكشاف المسلمين وتوليهم أمام عدوّهم له عدة أسباب ، منها: ما يعود إلى استعداد العدو العسكري ، ودقة ممارسته للحروب والفروسية ، وإحكام الخطة واختيار الموقع المناسب لهجومهم المباغت دون أن يشعر بهم المسلمون ، مما أدى إلى تفوقهم وتقدمهم مبدئيا ، وقد صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة كما سنوضح ذلك .

ومنها ما يعود إلى المسلمين أنفسهم ، فقد صدر من بعض أفراد الجيش الإسلامي في هذه الغزوة أمور أدت إلى انكسار المسلمين وتقهقرهم أمام هوازن ، كاغترار بعضهم بكثرتهم ، وطلب البعض الآخر منهم ذات أنواط ينوطون بها أسلحتهم مضاهاة منهم للكفار الذين لهم ذات أنواط .

وتهور البعض الآخر كذلكوخروجهم إلى هوازن دون أن يستكملوا وسائل القتال ، وانكباب بعضهم على جمع الغنائم وحيازتها قبل أن يستسلم الكفار استسلاما كاملا .

هذا مجمل الأسباب التي رجحت بها كفة العدو على كفة المسلمين في بداية المعركة . وسأحاول تحليل هذه الأسباب وإيضاحها مستنداً إلى الروايات الواردة في ذلك .

أولا: أسباب نجاح هوازن في بادئ الأمر:

أ – كثرتهم الهائلة ، فقد جندوا جنودا لم يواجه المسلمين مثلها في غزواتهم مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، التي سبقت هذه الغزوة .

ب – بث الحماسة والقوة المعنوية في نفوسهم والتزامهم بتوجيهات قائدهم .

(١) مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب في غزوة حنين (٣/١٣٩٩) رقم ١٧٧٢ .

ج - سبقهم إلى وادي حنين وتحصنهم بين أشجاره ومضايقه وبث الكتائب التي تكمن في جميع نواحيه .

هذه بعض المرجحات التي كانت في جانب المشركين أدت إلى تفوقهم في أول الأمر .

وخاصة خطبة مالك بن عوف فيهم ، خطبته الحماسية التي كان لها أثرها الفعال ووقعها في نفوسهم ، حيث أثار فيهم النخوة والشجاعة والبسالة ، الأمر الذي جعل هوازن يستميتون في ساحة المعركة ، يتساقطون واحدا تلو الآخر وهم مصممون على الانتصار[1] .

ثانيا: بيان الأسباب الداخلية لانحدار المسلمين في أول الأمر:

أ - اغترار بعض المسلمين بكثرتهم ، كما تقدم في حديث: "لن نغلب اليوم عن قلة".

فكانت هذه المقالة بادرة سوء تألم منها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأن فيها إعجاب بالعدد والكثرة وغفلة عن الله الذي لا يكون النصر للمسلمين إلاّ من عنده: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ الله الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] .

ب - عدم تمكن عقيدة التوحيد في بعض المسلمين كما في حديث أبي واقد الليثي في قول بعضهم: "يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط".

وكانت هذه الكلمة مؤلمة لسمع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يدل على وجود حفنة من هذا الجيش لم يصلوا بعد إلى المستوى الإيماني المطلوب ، لحداثة عهدهم بالإسلام .

ج - الخفة والعجلة التي حصلت من بعض القوم وشبانهم ، حيث خرجوا إلى هوازن قبل استكمال وسائل الحرب فلم يستطيعوا الوقوف أمام سهام المشركين ونبالهم ، وهذا ما صرح به حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

د - فرار الأعراب وعدم ثبوتهم أمام المشركين مما شجع العدو في مواصلة مطاردة المسلمين .

هـ - انهزام الطلقاء:

و - انكباب المسلمين على جمع الغنائم واشتغالهم بها ، وذلك أن المسلمين

---

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١ / ١٤٧ .

حملوا على الكفار فلاذوا بالفرار تاركين أموالهم وعتادهم ، فظن المسلمون أن الكفار انهزموا إلى غير رجعة ، فأقبلوا على جمع الغنائم وحيازتها ، فانتهز المشركون غفلة المسلمين فانهالوا عليهم من كل صوب يضربون ويطعنون ، فانكشف المسلمون أمام المشركين لا يلوي أحد منهم على أحد ، والكفار في آثارهم يطاردونهم .

ز - إن ما حصل للمسلمين في غزوة حنين من انكسار أمام الأعداء ، كان مصدره أمر الله وقدره ، وذلك ليطأطئ رؤوس أقوام رفعها الإعجاب بكثرتهم وقدرتهم القتالية ، فأدبهم الرب عز وجل ليعلمهم أن النصر من عنده سبحانه وتعالى ، وأن كثرتهم وجموعهم لا تجدي عنهم شيئا[1] .

والحقيقة أن من سنن الله الكونية التي لا تتخلف أن الله سبحانه وتعالى ، جعل للنصر والظفر على الأعداء أسبابا ، كما جعل للهزيمة والانحدار أسبابا ، فمن أخذ بأسباب النصر جاءه النصر بإذن الله ، ومن تخلى عنها أو عن بعضها جاءته الهزيمة والانتكاس .

والعبرة التي يجب تقريرها والتأكيد عليها في هذا المبحث أيضا أن الجيش الإسلامي الذي يكون قائده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذا حصل منه تقصير في جنب الله ، فإنه يعاقب بالهزيمة ولا يخرج عن سنة الله في ذلك ، فلا ينتصر وهو غير مستوجب لشروط النصر وأسبابه .

فوقوع مثل هذا في جيوش المسلمين المقصرين في حق الله عليهم ، والذين قوادهم من البشر العاديين أولى وأحرى ، وإنه لدرس عظيم تقدمه لنا سيرة سلفنا الصالح وحياة ذلك الرعيل الأول ، الذين عاش بين ظهرانيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والوحي ينزل عليه ، وقد أذاقهم الله حلاوة النصر من عنده إذا صبروا وصدقوا واستكملوا عناصر النصر المادية والمعنوية ، ولم يغفلوا عن الله .

كما أذاقهم مرارة الهزيمة ، إذا هم غفلوا عن الله وتنازعوا وركنوا إلى الدنيا وبيّن لهم أن ذلك الانهزام ما جاءهم إلا من عند أنفسهم إما إعجابا بكثرتهم أو بإقبالهم على حطام الدنيا ، أو بغير ذلك من الأسباب .

والحاصل أن انتصار المسلمين مرتبط بأسباب وموانع ، فإذا توفرت الأسباب وانتفت الموانع حصل النصر بإذن الله قل العدد أو كثر ، كما قال تعالى: ﴿ كَمْ مِنْ

---

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١ / ١٥٥ .

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

على أنه قد يقال بعدم التعارض مطلقا بين ما وقع في حنين ، وما يتضمنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة**» (١) ذلك أن ما وقع في حنين ليس هزيمة كسر فيها المسلمون ولم يقم لهم بعدها قائمة في هذه المعركة ، وإنما الذي حدث هو إدبار في بادئ المعركة ، أعقبه بعد ذلك انتصار عظيم على الكفار ، وغنيمة لما معهم ، فمثل هذه الحال لا يقال فيها إنها هزيمة نهائية ، وعليه فلا تعارض ، وهذا أظهر واوجه . (٢) .

نزول النصر من عند الله:

أما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد ثبت وصمدت معه فئة قليلة من الصحابة ، وكان يركب بغلته (٣) ، وينظر إلى إدبار المسلمين ويدعوهم إلى الثبات ، وهو يدفع بغلته نحو العدو وهو يردد: «**أنا النّبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب**» ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يمسكان بعنان بغلته لئلا تسرع به بين جموع العدو ، وقد تراجع قليل من المسلمين يسيرا في الوقت الذي ابتعد معظمهم مدبرين ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (٤) .

ولما طلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي الناس بالثبات وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان فأسرعوا إليه عجلين ، ثم نادى الأنصار ثم بني الحارث بن الخزرج فتلاحقوا نحوه حتى أصبحوا بين ثمانين ومائة مقاتل ، عادوا إلى قتال هوازن وحلفائها ، وكانت جولة جديدة أخلصوا فيها النية وحسن التوجه إلى الله وأظهروا فيها من الشجاعة وصدق

---

(١) ونص الحديث: "عن ابن عباس ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة". (مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٠) .

(٢) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١ / ١٥٨ .

(٣) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠ ، القسطلاني - المواهب اللدنية ١/ ١٦٣ ، الواقدي - المغازي ٣/ ٨٩٥ - ٦ .

(٤) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠ ، الحاكم - المستدرك ٣/ ٢٥٥ ، أبو يعلى - المسند ٣/ ٣٣٨ (رقم ٣٠٣) ، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٤٢ .

العزيمة والثبات ما مكنهم من الصمود بوجه المشركين [1]، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه ويسأله النصر، وهو يقول: «**أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب اللّهمّ نزّل نصرك**» [2].

وحين غشيه الأعداء ترجل عن بغلته وقاتل، وكان الصحابة إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته وثباته [3]. وعند ما رأى من فر من المسلمين موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم عادوا إلى المعركة والتحقوا بقوات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم ينادون: لبّيك لبّيك! حتى إن بعضهم لم ينتظر حتى يتمكن من أن يلوي عنان بعيره ليعود به، فهو يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه ويعود راكضا حتى ينتهي إلى موقع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجالد المشركين[4]. واشتد القتال وتكاتفت قوى الإيمان والخير فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا حين حمي الوطيس**» [5].

وأخذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبضة من تراب وحصيات من الأرض فرمى بهما وجوه الكفار وهو يقول: «**شاهت الوجوه**» [6]؛ فما كان منهم أحد إلّا ملئت عينه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**انهزموا وربّ محمّد**» كررها مرتين [7].

وهكذا لم تصمد قوات المشركين طويلا في الجولة الثانية حين صدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، فانهارت قوى الشرك، وفرت من ميدان المعركة بشكل غير منظم مخلفة وراءها أعدادا كثيرة من القتلى وكمية كبيرة من الغنائم، كما خلفت شراذم من قواتها تمكن المسلمون من القضاء عليهم بسهولة، وأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعقب المشركين المهزومين وقتلهم حتى يمنع إمكانية تجمعهم ثانية واحتمال عودتهم إلى القتال فكانت خسائر المشركين في القتلى خلال هزيمتهم

---

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٤٤ - ٥، الصنعاني - المصنّف ٥/ ٣٨٠ - ٨١، ابن سعد - الطبقات ٤/ ١٨.

(٢) مسلم - الصحيح ٣ (١٤٠١).

(٣) البخاري - الصحيح ٤/ ٣٥ - ٥٣، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١ (حديث ١٧٧٦)، النووي - شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٥) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠.

(٦) مسلم - الصحيح، ٣/ ١٤٠١ - ١٤٠٢.

(٧) مسلم - الصحيح، ٣/ ١٤٠٢.

أعظم من خسارتهم خلال المعركة . وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل النساء والأجراء وكل من لا يحمل السلاح ، كما نهى عن قتل الأولاد والذرارى حين بلغه أن بعضهم قد قتل خلال المعركة ، فقال: "ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ألا لا تقتل الذرية ثلاثا".

قال أسيد: يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين؟ ، فأجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها»** (١) .

عوامل انتصار المسلمين في حنين:

كانت معركة حنين تجربة عسكرية خطيرة في معارك المسلمين ، وكانت أيضا مدرسة تربوية عظيمة إذ ذاق فيها المسلمون مرارة الاندحار ، ووطأة الفرار أمام زحف المشركين ونبالهم وعظيم تخطيطهم واشتداد هجمتهم عليهم في بداية المعركة هجمة رجل واحد .

كما أذاقهم الله في هذه المعركة نفسها حلاوة النصر وبهجة الغلبة على أعدائهم ، وتلك إحدى الحسنيين ، وهذا من خصائص معركة حنين التي كانت المعركة الفاصلة الأخيرة بين المسلمين والمشركين في الجزيرة كما كانت بدرا المعركة الفاصلة الأولى بين الطائفتين .

وفي قادم السطور نبحث في عوامل انتصار المسلمين ، والتي يمكن أن تكون على النحو التالي:

- ثبات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ساحة المعركة يناشد ربه النصر والعون ، ويعلن لأعداه من هوازن وغيرهم بأنه نبي حقا لا ينبغي له أن يَفِرّ مهما تكاثرت جموعهم ، فكان يركض بغلته نحوهم وهو يقول:

أنا النبي لا كذب ::: أنا ابن عبد المطلب

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»** (٢) ، فيه إشارة

---

(١) أحمد - المسند ٣/ ٤٣٥ .

(٢) وأما نسبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عبد المطلب دون أبيه عبد الله "فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الناس لما رزق من نباهة الذكر وطول العمر ، بخلاف عبد الله فإنه مات شابا ، ولهذا كان كثير من العرب يدعونه ابن عبد المطلب ، كما قال ضمام بن ثعلبة لما قدم: "أيكم ابن عبد المطلب" وقيل: لأنه كان اشتهر بين الناس أنه يخرج من ذرية عبد المطلب رجل يدعو إلى الله ويهدي الله الخلق على يديه ويكون خاتم الأنبياء ، فانتسب إليه ليتذكر ذلك من كان يعرفه ،

إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب ، فكأنه يقول أنا النبي ، والنبي لا يكذب ، فلست بكاذبٍ فيما أقول حتى أنهزم ، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر ، حق فلا يجوز علي الفرار(1) .

- الثبات في المعركة حين لقاء العدو وذكر الله عز وجل بحضور قلب وإلحاح في الدعاء ، وقد ذكر الله في هذين العاملين في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] .

ولا ينتصر المسلمون على عدوهم إلا إذا حققوا في أنفسهم التحلي بهذين العاملين وغيرهما من عوامل النصر التي ذكرها الله مادية ومعنوية .

- رجوع المسلمين إلى المعركة:

لقد عاد المسلمون إلى المعركة مسرعين حين رأوا ثبات نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحين سمعوا النداء بالرجوع كما تبينه الرواية الآتية: فلما نادي العباس بن عبد المطلب قائلاً أين أصحاب السمرة؟ عادوا أدراجهم مسرعين ، يقول العباس: فوالله! لكأن عطفتهم(2) ، حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا: يا لبيك يا لبيك!(3) .

قال النووي: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيدا ، وأنه لم

وقد اشتهر ذلك بينهم ، وذكره سيف بن ذي يزن قديما لعبد المطلب قبل أن يتزوج عبد الله آمنة ، وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنبيه أصحابه بأنه لابد من ظهوره وأن العاقبة له ، لتقوى قلوبهم إذا عرفوا أنه ثابت غير منهزم . (ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٣١ - ٣٢ ، والنووي: شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠٦ ، والزرقاني: شرح المواهب ٣/ ١٧ ، ٢٠ - ٢١ وزاد: وفي الروض قال الخطابي: إنما خص عبد المطلب بالذكر في هذا المقام تثبيتا لنبوته وإزالة للشك لما اشتهر وعرف من رؤيا عبد المطلب المبشرة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولما أنبأت به الأحبار والكهان فكأنه يقول: أنا ذاك فلا بد مما وعدت به لئلا ينهزموا عنه ويظنوا أنه مغلوب أو مقتول ، فالله أعلم أراد ذلك رسوله أم لا . إهـ .

ثم قال الزرقاني: "فليس هذا من الافتخار بالآباء في شيء ، وبفرض تسليمه فهو جائز في الحرب لإرهاب العدو". وانظر: الروض الأنف للسهيلي ٧/ ٢٠٦ - ٢٠٧ ، والمواهب للقسطلاني ١/ ١٦٣ ، وفيض القدير للمناوي ٣/ ٣٨ .

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١ / ١٨٦ .

(٢) قوله: "لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها: أي عودهم إلى أماكنهم وإقبالهم إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطفة البقرة على أولادها ، أي كان فيها انجذاب مثل ما في الأمهات حين حنت على أولادها".

(٣) النووي: شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠٢ .

يحصل الفرار من جميعهم، وإنما فتح عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة، ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأة للانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة فتقدم أخفاؤهم فلما رشقوهم بالنبل ولوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم إلى أن أنزل الله السكينة على المؤمنين كما ذكر الله تعالى في القرآن".[1].

- المعجزة النبوية التي حصلت في هذه المعركة وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر إلى اجتلاد المسلمين واشتباكهم مع المشركين فقال: «**هذا حين حمي الوطيس**» ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار فامتلأت أعينهم ترابا من تلك الرمية فهزمهم الله عز وجل.

- تأييد الله للمسلمين بجند من عنده: وكان هذا التأييد السماوي بعد أن أدب الله المؤمنين الذين اغتروا وأعجبوا بكثرتهم وبعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وذلك بسبب ما حل بهم من الخوف عندما ركب الأعداء ظهورهم يسوقونهم، فركبت إبل المسلمين بعضها بعضا وولوا مدبرين، إلاّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطائفة يسيرة معه، وفي هذه الحال الحرجة أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا من عنده تقوية لقلوب المؤمنين وتثبيتاً لهم، ولقد صوّر القرآن الكريم هذا أتم تصوير فقال: جل ذكره: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥].

قال الشوكاني عند تفسير هذه الآيات قوله: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ٢٦]، أي: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين، بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم ينهزموا، وقيل الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا،: ﴿**وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوهَا**﴾ قال: هم الملائكة،: ﴿**وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، والإشارة بقوله: ﴿**وذلك**﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب وسمى ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بدّ من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم، وتعظيما له، وقوله: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ**

(١) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠ كتاب الجهاد والسير.

الله ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ؛: ﴿ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ؛: ﴿ الرَّحِيمٌ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه[1] .

ويتبين من الروايات السابقة أن الله سبحانه أيد عباده المؤمنين بجنود من عنده لينصر بهم أولياءه ويخذل بهم أعداءه لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وسواء قاتلت الملائكة فعلا في معركة حنين أو لم تقاتل فإن فائدة نزو لهم تحقق ولاشك سواء كان ذلك عن طريق القتال الفعلي أو عن طريق أمر آخر يريده الله من إنزالهم لنصرة الحق ودحض الباطل[2]

ما أسفرت عنه معركة حنين من ضحايا وغنائم:

لقد فقد المشركون في هذه المعركة من رجالهم وأبطالهم وأهل النجدة فيهم ما يزيد على مئات القتلى ، ذلك أن معركة حنين من المعارك الفاصلة التي لم ير المسلمون مثلها ضراوة وشدة في عهدهم الأول .

لقد استمات فيها المشركون وقاتلوا ببسالة نادرة فقتل من بني مالك وحدهم سبعون رجلا يتساقطون في ساحة المعركة واحدا تلو الآخر ، [3]وفقدوا أفلاذ أكبادهم وأغلى أموالهم ، ذلك أن مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم ، وكان يهدف من رواء ذلك أن يكثر على المسلمين من ناحية وأن يحرض قومه على القتال والصمود في المعركة للدفاع عن أطفالهم ونسائهم من ناحية ، وأن لا يفكر واحد منهم في الفرار . فصارت جميع تلك الأموال والنساء والنعم بأنواعها رزقا ساقه اله للمسلمين على يد هؤلاء الكفار الذين قذف الله في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم وذراريهم معهم[4] .

ولهذا فقد كان سبي حنين كثيراً جداً ، فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء[5] ، أما الغنائم فقد بلغت أربعة آلاف أوقية فضة [6] ، أما الإبل فكانت

---

(١) الشوكاني: فتح القدير ٢/٣٤٨ .
(٢) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١ / ١٨٩ .
(٣) وعند الواقدي في مغازيه ٣/٩٠٧ أن عدد القتلى منهم قريب من مائة رجل .
(٤) أبو داود الطيالسي: المسند ٢/١٠٨ - ١٠٩ ، وأحمد: المسند ٣/ ١٩٠ ، ٢٧٩ .
(٥) الصنعاني - المصنف ٥/ ٣٨١ ، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٥ من رواية الزهري عن ابن المسيب مرسلا ، الطبري - تاريخ ٣/ ٨٢ ، الذهبي - المغازي ص/ ٦٠٦ .
(٦) ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٢ .

أربعة وعشرين ألفا»[١]، أما الأغنام فكانت أكثر من أربعين ألف شاة [٢]، وقد حبس الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا السبي والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف [٣].

لم تكن خسائر المسلمين كبيرة خلافا للتوقعات من خلال المعلومات العامة عن إصابات المسلمين في الجولة الأولى وفرار الكثير منهم، بل إنها كانت طفيفة جدا إذا ما أدخلنا قوة المشركين واستعداداتهم وخططهم في الاعتبار وذلك من فضل الله وحفظه ورحمته بالمسلمين، فقد استشهد منهم أربعة شهداء [٤]، وجرح عدد منهم، أشارت المصادر من بينهم إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن أبي أوفى وخالد بن الوليد [٥]، ومما يؤكد صحة هذه الأرقام بالإضافة إلى ورودها في مرويات صحيحة، قيام المسلمين بعد الجولة الثانية بمطاردة المشركين إلى مسافات بعيدة، كما أنهم توجهوا إلى حصار الطائف بعد انتهاء معركة حنين مباشرة[٦].

ملاحقة فلول المشركين والأحداث التاريخية التي أعقبت ذلك:

لما انهزم المشركون في موقعة حنين وباءوا بالفشل انسحبوا على إثر ذلك وتفرقوا في الجبال والأودية يجرون ذيل الخزي والندامة، تاركين وراءهم كثيرا من أطفالهم ونسائهم وأموالهم، وعند ذلك أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمطاردتهم وتعقبهم تأديبا لهم حتى لا تسول لهم أنفسهم أن يتكتلوا أو ينقضوا على المسلمين مرة أخرى، فلجأت مجموعة كبيرة منهم إلى أوطاس [٧]، وعسكرت مجموعة

---

(١) ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٥٢ . وكان معهم خيل وأبقار وحمير وبغال غير أن المصادر لم تذكر عددها.

(٢) ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٥٢ .

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار للهيثمي ٢/ ٣٥٣، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن»، انظر، الإصابة ١/ ١٤٥ .

(٤) هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث، انظر: البخاري – الصحيح ٥/ ١٢٦، الحميدي – المسند ٢/ ٣٩٨، الهيثمي – كشف الأستار ٢/ ٣٤٦، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر، فتح الباري ٨/ ٤٢ .

(٥) البخاري – الصحيح ٥/ ١٢٦ (حديث ٤٣١٤)، الهيثمي – كشف الأستار ٢/ ٣٤٦، البزار – مختصر الزوائد ص/ ٤٩ – ٥٠ (رقم ٨١٦)، الحميدي – المسند ٢/ ٣٩٨ بإسناد صحيح.

(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٧٩ .

(٧) واد بين حنين والطائف.

أخرى منهم في نخلة [1]، أما غالبية من انهزم من ثقيف فقد تبعوا قائدهم مالك بن عوف النصري إلى حصونهم بالطائف، وقد لا حق مقاتلة المسلمين الفارين حسب توجيهات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعد الفراغ من من حنين أرسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية لمطاردة وتعقب الفارين وجعل علي قيادتها أبي عامر الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان ضمن أفرادها أبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وذلك لمطاردة الفارين من هوازان وجشم الذين كان على رأسهم دريد بن الصِّمة الجشمي للإجهاز مبكرًا على أي تحشد آخر لهم مضاد للمسلمين، حيث التقوا بهم في وادٍ يسمى أوطاس، وهناك دارت معركة قوية بين الطرفين قتل فيها دريد بن الصِّمة. "وهزم الله أصحابه" [2] بعد أن "أفضى فيهم إلى الذرية" [3] وسبوا نساءهم، [4] وأصيب قائد السرية إصابةً قاتلةً إذ "رماه رجل [5] بسهم فأثبته في ركبته" [6].

قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابن أخي أبي عامر: "فانتهيت إليه فقلت: يا عم [7] من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني ولَّى، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه [8] الماء" [9]، وكأن الجرح قد التهب على أبي عامر التهابا حادًّا عرف منه قرب منيته، فأوصى ابن أخيه أن يقرىء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه السلام ويطلب منه أن يستغفر له، وذلك بعد أن استخلفه على قيادة السرية "فمكث يسيرا ثم مات" [10].

---

(١) موضع بين حنين ومسباحة.
(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٤١).
(٣) البنا، الفتح (١٤/ ٦٥)، البيهقي، سنن (٩/ ١٣٠).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/ ٣٥).
(٥) ابن حجر، فتح (٨/ ٤٢ - ٤٣).
(٦) ابن حجر، فتح (٨/ ٤١).
(٧) انظر ابن حجر، فتح (٨/ ٤٢ - ٤٣).
(٨) نزا منه الماء: أي ظهر وارتفع وجرى ولم ينقطع. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٦٠).
(٩) ابن حجر، فتح (٨/ ٤١).
(١٠) ابن حجر، فتح (٨/ ٤١).

ويرجع أبو موسى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدخل عليه بيته، حيث يصف لنا الحالة التي وجد عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنعرف مدى ما كان عليه من الزهد وشظف العيش، وهو الذي لو أراد لحيزت له الدنيا بأسرها.

يقول أبو موسى: "دخلت عليه وهو في بيت على سرير مرمل[(١)]، وعليه فراش وقد أثّر رمال السرير بظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر، وقلت له: قال: قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماء فتوضأ، ثم رفع يديه ثم قال: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، حتى رأيت بياض إبطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس**». فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما**»[(٢)(٣)].

بقي أن نقول أنه لم يكن بالإمكان إعطاء رقم دقيق لعدد قتلى المشركين الإجمالي في معركة حنين فقد كان عدد قتلى بني مالك من ثقيف في الجولة الثانية من حنين قد بلغ اثنين وسبعين قتيلا وقتل من الأحلاف قتيلان، وقتل بأوطاس كما أسلفنا ثلاثمائة من بني مالك، وتشير المصادر إلى أنه قتل خلق كثير من فروع هوازن الأخرى وخاصة من بني نصر بن معاوية وغيرهم ممن قتلوا أثناء فرارهم إلى نخلة من حنين[(٤)].

موقف الشيماء:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله اني لأخت

---

(١) ابن حجر، فتح (٨/ ٤٣).
(٢) النووي، صحيح مسلم (١٦/ ٦٠).
(٣) ابن حجر، فتح (٨/ ٤١ – ٤٢)، صحيح مسلم بشرح النووي – كتاب فضائل الصحابة (١٦/ ٥٩ – ٦٠). ورواه أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (٢١/ ١٧٦ – ١٧٧). ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٥٤ – ٤٥٧)، والواقدي، مغازي (٣/ ٩١٥)، وابن عبد البر، درر (٢٤١) والعامري، بهجة المحافل (١/ ٤٢٥ – ٤٢٨)، والبيهقي، سنن (٩/ ٥١، ٩١، ٩٢، ٢٤١)، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٢١.
(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٨٠.

صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتو بها رسول الله ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: يارسول الله! إني أختك من الرضاعة، قال ماعلامة ذلك؟ قال عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك[(١)]، وعرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: «**إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وان أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومي فعلت**»، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[(٢)]، ومتعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلمت، وأعطاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء[(٣)].

غزوة الطائف:

كان لثقيف مواقف عدائية ضد المسلمين منذ ظهور الإسلام، ومن أبرزها موقفهم الآثم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الله عز وجل ويطلب منهم نجدته حتى يؤدي رسالة ربه، فردوه ردا قبيحا وأغروا سفهاءهم وصبيانهم بمطاردة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورميه بالأحجار حتى أدموا قدميه[(٤)] ومن تلك المواقف تكتل ثقيف مع قريش في صلح الحديبية، ونصرهم لها على المسلمين ولما دانت قريش بالإسلام بفتح مكة المكرمة ثارت ثائرة هوازن فأخذت في حشد قواتها للزحف على المسلمين، فكانت ثقيف أول من لبى دعوتها وانحاز إلى جانبها، فخرجت الأحلاف من ثقيف بقيادة قارب بن الأسود الثقفي، وخرجت بنو مالك بقيادة ذي الخمار سبيع بن الحارث وأخيه أحمر بن الحارث، ووقفت مع هوازن كتلة واحدة في وجه المسلمين.

ولما اندحر الفريقان الهوازني والثقفي في موقعة حنين أمام جحافل المسلمين، انسحبوا من ساحة المعركة، فعسكر بعضهم بأوطاس، وبعضهم بنخلة، وتوجه بعض منهم نحو الطائف ومعه مالك بن عوف النصرى، فدخلوا حصن الطائف وتحصنوا به.

---

(١) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣)؛ السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦).
(٣) ابن إسحاق - سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٨، البيهقي - دلائل النبوة ٣/ ٥٦، الطبري - جامع البيان ١٠/ ١٠١، وعن لقاء حليمة السعدية، انظر البخاري - الأدب المفرد ص/ ٤٤٠، أبو داود - السنن ٢/ ٦٣٠، الحاكم - المستدرك ٣/ ٦١٨، ٤/ ١٦٤، ابن كثير - البداية ٤/ ٣٦٤، السيرة النبوية للندوي، ص٣٥٨.
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤١٩ والبداية والنهاية ٣/ ١٣٥.

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين أمر بالغنائم فحبست في الجعرانة، ثم قرر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير بنفسه إلى الطائف[1].

وأمر خالد بن الوليد أن يسير على مقدمته[2].

فتجمعت قوات المسلمين في أعقاب النصر المظفر الذي كتبه الله لهم في معركة حنين، وتوجهوا بقيادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف بهدف القضاء على قوات ثقيف التي فرت من حنين، وكانت فلول ثقيف بقيادة مالك بن عوف قد لجأت إلى حصونها المنيعة في الطائف وجمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية لعام كامل، وأغلقت أبوابها واتخذت كافة الإجراءات والاستعدادات التي تمكنها من مواجهة حصار طويل وواصلت ترميم الحصون وتدعيمها إلى حين وصول طلائع المسلمين المتجهة نحوهم[3].

وصل الجيش الإسلامي إلى الطائف في حدود نهاية الأسبوع الثالث من شهر شوال، فباشروا إحكام الحصار حول حصون العدو مدة أسبوعين، وكان نزولهم أول الأمر قريبا من حصون العدو وعلى مرمى سهامهم مما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء وجرح عدد آخر منهم، ثم تحول المسلمون وعسكروا في الموضع الذي بنى فيه المسجد[4]، وكان القتال تراشقا بالسهام في أول الأمر، ثم استخدم المسلمون «الدبابة» بهدف الوصول إلى الأسوار وثقبها آمنين من السهام، ولكن ثقيفا فطنت للأمر فألقت عليهم قطع حديد محمّاة أحرقت الدبابة وحين خرج المقاتلون المسلمون منها، ضربوهم بالسهام فقتلوا بعضهم.. واستخدم المسلمون المنجنيق لرمي التحصينات بالحجارة بهدف هدمها وإيقاع إصابات في قوات العدو في الوقت نفسه[5].

ومن الملاحظ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمل في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل مثل المنجنيق وهو من أسلحة الحصار

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨، والروض الأنف ٧/ ٢٣١، البداية والنهاية ٤/ ٣٤٥و٣٤٧ وزاد المعاد ٣/ ٤٧٢ وفتح الباري ٨/ ٣٣و٣٥.
(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٨، زاد المعاد ٣/ ٤٩٦.
(٣) ابن هشام - السيرة ٤/ ١٧٠ - ١٧١، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٨.
(٤) مسلم - الصحيح ٢/ ٧٣٦، أحمد - المسند ٣/ ١٥٧، وانظر رأي الحافظ ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ٣٥٦، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٧٨.
(٥) ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٧٨ - ٤٨٣ برواية ابن إسحاق.

الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وُجهت إليه، فبحجارته تُهدّم الحصون والأبراج وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال[1].

والدبابة، وهي من أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأول مرة في حصار الطائف وهي على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرمي[2].

غير أن هذه الآلات وعدم وجود خبراء في استعمالها وإجادة التهديف بها جعل أثرها محدودا. ولذلك فقد وجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أفضل وسيلة للضغط على ثقيف هي في تهديد مواردها الاقتصادية الحيوية المتمثلة في بساتينها، فأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحريق بساتين الأعناب والنخيل في ضواحي الطائف، مما كان له أثره الكبير في كسر معنوياتهم، فناشدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعها للّه وللرحم، فاستجاب لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن تحقق الهدف المنشود[3].

وكان من التعليمات العسكرية أن أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناديا ينادي، أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج جماعة فأعتقهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة وزاد من ألمهم[4].

وكان ذلك من أعظم التدابير العسكرية التي أضعفت من قوة المشركين وفتت في عضدهم ومعنوياتهم وفرقت جمعهم، فأسلم هؤلاء، فأعتقهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم[5].

لقد صمدت ثقيف بوجه الحصار، ورغم ما واجهته من وابل السهام التي أمطرها بها المسلمون لينالوا بها درجة من الجنة وعدهم بها رسول الله

---

(١) اللواء محمد فرج، المدرسة العسكرية الإسلامية، ص٤٠٧.
(٢) القيادة في عهد الرسول، ص٤٠٥.
(٣) البيهقي، السنن الكبرى ٩/ ٨٤، الشافعي، كتاب الأم ٧/ ٣٢٣.
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٥٨ – ١٥٩.
(٥) البخاري – الصحيح ٥/ ١٢٩، أحمد – المسند ١/ ٢٣٦، ابن حجر – فتح الباري ٨/ ٤٦، الصنعاني – المصنّف ٥/ ٣٠١، ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٥٨ – ١٥٩، وانظر ابن هشام – السيرة ٢/ ٤٨٥.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تمكنت ثقيف من إيقاع إصابات شديدة بالمسلمين فقد كثرت الجراحات بينهم واستشهد منهم اثنا عشر شهيداً، وكل ذلك مقابل ثلاثة قتلى في صفوف ثقيف التي كانت ممتنعة بالحصون والأسوار العالية [1].

لقد نجحت التدابير العسكرية التي استخدمها المسلمون بتوجيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم وهي: الأمر بقطع أعناب ثقيف ونخيلهم وتحريقها إغاظة لهم وهزا لمعنوياتهم وكان في ذلك نكاية بالغة بهم، حتى طالبوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعها لله وللرحم، فلما بلغته مناشدتهم له بذلك، تركها، ولكن بعد أن أثر بدون شك في نفوس القوم وأضعف عزائمهم.

الثاني: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث المسلمين يومئذ على الرمي فقال: «**من رمى بسهم في سبيل الله فله درجة في الجنة**» [2]، فكان في ذلك حافز قوي للمسلمين على التسابق في الرمي للفوز بدرجات عظيمة في الجنة حتى قال أحدهم: بلغت يومئذ ستة عشر سهما، وكانت تلك السهام الكثيرة، تنهال على ثقيف كالوابل الغزير فزلزل ذلك كفار ثقيف زلزالا شديدا وحصرهم في حصنهم وشل قدرتهم الدفاعية.

الثالث: ذلك النداء الموجه إلى العبيد الذين يعيشون تحت سيطرة سادات ثقيف "أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر" [3] فما أن بلغهم هذا النداء الإسلامي حتى تسابقوا إلى المسلمين واحدا بعد آخر طلبا للحرية ورغبة في الخلاص من ظلم جبابرة الجاهلية فكانت مكافأتهم على هذه التضحية من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أعتقهم وخلصهم من رق الجاهلية وأغلالها، وأسلموا وحسن إسلامهم وكان في ذلك إضعاف لشوكة ثقيف وخلخلة لصفوفهم من داخلها، وكان عدد العبيد الذين نزلوا من حصن الطائف ولحقوا بالمسلمين ثلاثة وعشرين عبدا [4].

---

(١) البخاري - الصحيح ٨/ ٢٠، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٨٦ - ٤٨٧، الواقدي - المغازي ٣/ ٩٢٩ - ٣٠.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٣٢، رقم ٢٥٦٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقى (٩/ ١٦١، رقم ١٨٢٩٠).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/ ١٥٨ - ١٥٩.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/ ١٥٨ - ١٥٩.

فك الحصار عن الطائف والعودة إلى الجعرانة:

ثـم إن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بفك الحصار، والعودة إلي الجعرانة، والسبب في ذلك الوقت يرجع إلي أن الله - جل وعلا - لم يأذن في فتح الطائف حينئذ، فإن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون قالت له يا رسول الله ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف قال لم يؤذن لنا الآن فيهم وما أظن أن نفتحها الآن [1] كما أن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدرك أن ثقيفاً ستأتي معلنة إسلامها وولاءها للمسلمين عما قريب بدون مشقة وقتال، ولذا فقد أشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة بترك حصار الطائف ولما رأى في أصحابه الرغبة في مواصلة القتال والتصميم على الفتح، أذن لهم في ذلك[2] وقال: اغدوا على

---

(١) السيرة الحلبية، ٣/ ٨١.

(٢) وكان لعمر بن الخطاب دور مهم في الاستجابة لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفك والعودة بالجيش، فلما قال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وهو على حصن الطائف: يا عبيد محمد، إنكم والله ما لاقيتم أحدا يحسن قتالكم غيرنا، تقيمون ما أقمتم بشر محبس، ثم تنصرفون لم تدركوا شيئا مما تريدون.

نحن قسي وقسا أبونا والله لا نسلم ما حيينا.

وقد بنينا طائفا حصينا.

فناداه عمر: "يا ابن حبيب والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا، إنما أنت ثعلب في جحر يوشك أن يخرج، فقال أبو محجن: إن قطعتم يا ابن الخطاب حبات عنب، فإن في الماء والتراب ما يعيد ذلك". فقال عمر: "لا تقدر أن تخرج إلى ماء ولا تراب، ولن نبرح عن باب جحرك حتى تموت!" قال: يقول أبو بكر: "يا عمر لا تقل هذا، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يؤذن له في فتح الطائف، فقال عمر: وهل قال لك هذا رسول الله؟" فقال: نعم، فجاء عمر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "لم يؤذن لك يا رسول الله في فتحها؟ قال: "لا". قال: أفلا أؤذن في الناس بالرحيل! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بلى" فأذن عمر بالرحيل، فجعل المسلمون يتكلمون، يمشي بعضهم إلى بعض، فقالوا: ننصرف ولا نفتح الطائف! لا نبرح حتى يفتح الله علينا؟ والله إنهم لأذل وأقل من لاقينا قد لقينا جمع مكة وجمع هوازن، ففرق الله تلك الجموع! وإنما هؤلاء ثعلب في جحر، لو حصرناهم لماتوا في حصنهم هذا! وكثر القول بينهم والاختلاف، فمشوا إلى أبي بكر فتكلموا، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: الله ورسوله أعلم، والأمر ينزل عليه من السماء، فكلموا عمر فأبى وقال: قد رأينا الحديبية ودخلني في الحديبية من الشك ما لا يعلمه إلا الله، وراجعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ بكلام ليت أني لم أفعل، وأن أهلي ومالي ذهبا ثم كانت الخيرة لنا من الله فيما صنع، فلم يكن فتح كان خيراً للناس من صلح الحديبية - بلا سيف دخل فيه من أهل الإسلام مثل من كان دخل - من يوم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يوم كتب الكتاب، فاتهموا الرأي، والخيرة فيما صنع رسول

القتال، فغدوا فأصابتهم جراحات شديدة من وقع نبال ثقيف فأعاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته في ترك الحصار، ففرح الصحابة بذلك وعلموا أن ما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الصواب، وسارعوا إلى الرحيل، طالبين من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو على ثقيف جزاء صنيعهم السيئ ضد المسلمين، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اهد ثقيفا**»[(١)].

وقد ذكر ابن كثير الحكمة في تأخير الفتح عامئذ فقال: وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردوا عليه قوله وكذبوه، فرجع مهموما فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناداه ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام وقد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل أستأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم مَنْ يعبده، لا يشرك به شيئاً**». فناسب قوله: "بل أستأني أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل". إهـ[(٢)].

وقد أورد الإمام البخاري رواية صحيحة تدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يستهدف من غزو الطائف وحصارها تحقيق فتحها، وإنما أراد أن يكسر شوكة ثقيف، ويجعل للمسلمين اليد العليا عليهم في وصولهم إليها ومحاصرتها في عقر دارها حيث عرفها أن بلادها - الطائف - هي في قبضة المسلمين وأنهم سيدخلونها متى شاءوا ذلك،[(٣)] ويظهر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرغب في أن يشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء منهم لفتح بلدة صغيرة حصينة تحيط بها ديار الإسلام من كل صوب، إذ لم يكن لثقيف رغم عنادها وصمودها إلا الإسلام أو الاستسلام، وإضافة إلى ذلك فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدرك أن ثقيفا إذا تحولت إلى الإسلام فإنها ستكون مادة له وقوة ومنعة فهم أهل شجاعة

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولن أراجعه في شيء من ذلك الأمر أبدا! والأمر أمر الله وهو يوحي إلى نبيه ما يشاء!. انظر: مغازي الواقدي ٣/ ٩٣٥ - ٩٣٦.

(١) مغازي الواقدي، ٣/ ٩٣٧.

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٤٠٤.

(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٢٨، ٩/ ١١٣.

وفطنة وذكاء وكان يطمع في إسلامهم ويدعو لهم بالهداية .

نعم إن الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تركهم في آخر الأمر ، لا لعجز عن مناجزتهم ، ولكن رأى أن ثقيفا مآلها الإسلام أو الاستسلام فقد أحيطت بالمسلمين من كل مكان فلماذا يتعرض جيش المسلمين لخسائر كبيرة في حصار مدينة حصينة مآلها إلى السقوط دون أية ضحايا ، طال الوقت أم قصر؟

وهل بوسع الطائف أن تقاوم طويلا وحدها بعد أن دخلت مكة في الإسلام ودانت المناطق من حولها للمسلمين؟

وكيف تصرف إنتاجها الزراعي وكيف تقوم بتجاراتها وكل مواصلاتها مقطوعة؟

تقسيم الغنائم:

لقد اقترح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه فك الحصار ، فلما رأى حرصهم على القتال سمح لهم بذلك حتى اقتنعوا بعدم جدوى ذلك ، فلما أعاد عليهم فكرة فك الحصار ثانية أظهروا الرضا بقراره الحكيم ونفذوه وعادوا مرة أخرى إلى الجعرانة حيث خلفوا غنائم حنين قبل أن يتوجهوا إلى الطائف [(١)] ، وكان النبي قد أخر قسمتها ، كما أنه لم يتعجل في قسمتها بعد عودته مع الجيش سوى شيء قليل من الفضة قسمه عند وصوله [(٢)] ، ثم انتظر بضع عشر ليلة مؤملا قدوم هوازن وإسلامها ولكنه ، حين أبطأت عليه ، بادر إلى تقسيم الغنائم [(٣)] ، حيث قسمها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك ، حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء والأعراب تأليفا لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام ، فأعطى مائة من الإبل لأحد زعماء غطفان ، ومثلها لأحد زعماء تميم ولستة آخرين من زعماء قريش . وقسم أيضا لاثنين وخمسين رجلا ذكرتهم المصادر من المؤلفة قلوبهم [(٤)] ، وقد استمالت هذه القسمة قلوب الزعماء وأتباعهم فاظهروا الرضا بها وزادهم ذلك رغبة في الإسلام ، ثم حسن إسلامهم فأبلوا في الإسلام بلاء

---

(١) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٢٨ - ٩/ ١١٣ .

(٢) الحاكم ، المستدرك ٢/ ١٢١ .

(٣) البخاري ، الصحيح - فتح ٨/ ٣٢ .

(٤) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٩٤ - ٤٩٦ ، الزرقاني ، شرح المواهب اللدنية ٣/ ٣٧ ، ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٤٨ .

حسنا وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله [1]. وذلك ما عناه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلّا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» [2]، وعبر عن هذا صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطاني وأنه لابغض الناس إلي فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي [3].

ولقد أوضح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكمة من وراء تقسيمه الغنائم على تلك الصورة التي كان لها أثر سلبيّ على مشاعر بعض المسلمين الذين لم تشملهم القسمة فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله إنّي لأعطي الرّجل وأدع الرّجل، والّذي أدع أحبّ إليّ من الّذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**» [4].

وقال: «**إنّي لأعطي رجالا حدثاء عهد بكفر أتألّفهم**» [5].

ولقد وجد الأنصار في أنفسهم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث لم ينلهم ما نال غيرهم من الغنائم، مع بلائهم الشديد في هذه الغزوة وفي غيرها من معارك الإسلام الفاصلة.

ولقد كانوا - لكثرة عددهم وشدة بأسهم في الحرب - أعمدة أساسية للجيش النبوي في أية معركة ضد أعداء الإسلام، فهم الذين ناصروا هذا الدين وقام على كواهلهم، وفتحوا قلوبهم وأبوبهم لكل من جاءهم من إخوانهم المهاجرين الفارين بدينهم، وناضلوا أشد النضال من أجل إقامة هذا الدين وتثبيت دعائمه.

ولقد سجل الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) ابن عبد البر - الاستيعاب ١/ ١٠٣، وانظر: ابن سعد - الطبقات ٧/ ٣٧، ابن حجر - الإصابة ١/ ٥٨، ابن حزم - جوامع السيرة ص ٢٤٨.
(٢) مسلم - الصحيح ٤/ ١٨٠٦، وانظر البخاري - الصحيح ٢/ ١٠٤، ٤/ ٧٣، ٨/ ٧٩، ابن حجر - فتح الباري ٣/ ٣٣٦.
(٣) مسلم، كتاب الفضائل (٤/ ١٨٠٦) رقم ٢٣١٣.
(٤) أخرجه البخاري (١/ ٣١٢، رقم ٨٨١).
(٥) (فتح الباري ٨/ ٥١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فهم أنصار الله وأنصار رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقا وصدقاً.

ومن هنا لم يكن الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحرمانه الأنصار من الغنائم يجهل حقهم أو يحط من قدرهم حاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، وإنما تركهم ثقة منه بقوة إيمانهم وسخاوة نفوسهم، وأعطى الغنائم أناساً يخاف هلعهم وجزعهم ويتألفهم على الإسلام.

ويبدوا أن الأنصار خفي عليهم ما أراده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من توزيع الغنائم على ذلك النحو، فتأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وقالوا: «يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم»، وقالوا: «إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا» (١)، فراعى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجدانياً مايملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فلما دخل سعد بن عباده على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يارسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك ياسعد**» قال: يارسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟**» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يامعشر الأنصار ماقالة بلغتني**

---

(١) نقل ابن هشام أنه لما أعطى رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئا، قال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك في قصيدة أوردها (السيرة ٣/ ٤٩٧) ورد فيها قوله:

وأت الرسول وقل يا خير مؤتمن ::: قدام قوم هم آووا وهم نصروا
علام تدعى سليما وهي نازحة ::: للمؤمنين إذا ما عدّل البشر
سماهم اللّه أنصارا بنصرهم ::: دين الهدي وعوان الحرب تستعر

وهي قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا.

عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «**ألا تجيبوني يامعشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، إلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار[1]، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**»[2]، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[3].

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاه والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فنطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار[4].

ومن خلال موقف النبي ﷺ من قضية توزيع الغنائم يتضح لنا حقيقتان:

الأولى: دقة نظر رسول الله ﷺ وعمق معرفته بدخائل النفوس البشرية وما يقوم اعوجاجها، حيث أعطى تلك العطايا السخية ومنح تلك المنح الهائلة لأناس يعادونه، وكفار لم يدخلوا في دين الله بعد وآخرين يتألف بهم

---

(١) الشعار: الثوب الذي يلي الجسد، والدثار فوقه، ومعنى الحديث: أن الأنصار هم البطانة والخاصة.

(٢) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.

(٣) السيرة النبوية، ٣/ ٥٠٠.

(٤) المجتمع المدني في عهد النبوة، ص٢١٩.

قومهم لعلهم يهتدون ويسلمون، وكانت النتيجة التي توخها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تخصيص هؤلاء الذين تألفهم بهذه العطايا أن أسلموا وحسن إسلامهم وكانوا جنودا صادقين في الدفاع عن الإسلام والانخراط في سلك المهاجرين والأنصار الذين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه.

وعلى وجه الإيجاز كانت تلك الأعطيات بردا وسلاما على نفوس أولئك النفر وشفاء لما في صدورهم من مرض الضلال وحب المادة وقد عبروا أنفسهم عن هذا الإحساس وهذا التحول النفسي الخطير حين قال بعضهم "أعطاني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين، وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لحب الخلق إلي" وكفى بهذه النتيجة العظيمة دليلا على حسن ذلك التقسيم للغنائم، وأنه واقع موقعه، وكيف لا يكون كذلك وهو عمل المعصوم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

الحقيقة الثانية: في هذه الغزوة تجلت قوة إيمان أصحاب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثباتهم العظيم أمام مغريات المادة وأنهم كانوا كما قيل "يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع"(1).

بل إنهم أعظم من هذا بكثير كانت غايتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الدفاع عن دينه ونشر الحق، ولم تكن المادة مسيطرة على نفوسهم ولا باعثة لهم على الجهاد كما يزعم ذلك أعداء الله من المستشرقين وأذنابهم، وهذا الموقف العظيم لهم من أعظم الأدلة على طهارة نفوسهم ووضوح هدفهم ونبل مقاصدهم في جهادهم في سبيل الله، ولقد رباهم الرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التربية الإسلامية الكاملة في معناها، ووثق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إيمانهم ووكلهم إلى هذا الإيمان، وما كان تساؤلهم في مبدأ توزيع الغنائم ولا تعجبهم من ذلك التقسيم لها إلا بسبب خفاء الحكمة عليهم في ذلك حتى بين لهم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكمة من ذلك فرضوا وسلموا له تسليما ولم يبق في نفوسهم حرج ولا ميل عن الحق، بل كانوا مغتبطين بما أوضحه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم من أنه وكلهم إلى ما في قلوبهم من الغنى والخير والإيمان واليقين(2).

---

(1) ذكر ذلك الجاحظ: "فمن كلامه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ذكر الأنصار فقال: "أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع". البيان والتبيين، ٢/ ٤٥.

(2) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ١/ ٤٠٢.

جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم أثناء توزيعه الغنائم:

وتحدثت المصادر عن نماذج من جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم الصلفة وغير المنضبطة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء توزيعه الغنائم، كما تحدثت عن قوة تحمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصبره الكبير على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، وإدراكه لأحوالهم وما جبلوا عليه من قساوة وفظاظة وأنانية، وقد طمأنهم على مصالحهم وعاملهم على قدر عقولهم وكان بهم رحيما ولهم مربيا ومصلحا.

فلما قرر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العودة إلى الجعرانة فوصلها ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، وأقام بها ثلاث عشرة ليلة ينتظر هوازن لعلها أن تقدم مسلمة فيرد إليها سبيها وأموالها، ولما لم تقدم في هذه المدة، شرع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توزيع الغنائم حسب ما تقتضيه المصلحة العامة، فوضعها في موضعها اللائق بها، غير أن بعض أهل الزيغ والنفاق عباد الدينار والدرهم انتقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صنيعه هذا ونسبه إلى الجور والظلم فخاطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلهجة قاسية تنبئ عما انطوت عليه نفسه من الحقد والغل والبعد عن هدي الإسلام وتعاليمه السامية "يا محمد اعدل" فتألم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وغضب غضبا شديدا حتى طلب عمر بن الخطاب الإذن منه في قتل هذا المنافق الخبيث، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منعه من ذلك وقال: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**» (١). ذلك أن هذا القائل معدود في الصحابة وله شيعة وأتباع، فالحكمة تقتضي عدم قتله وأن يتركه وما تولى.

ومن المواقف التي تدل علي غلظة وجفاء الأعراب ماورد عن أبو موسى الأشعري حيث قال: كنت عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ماوعدتني؟ فقال له: «**أبشر**» فقال: قد أكثرت علي من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «**رد البشرى، فاقبلا أنتما**»، قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «**اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا**»، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من

---

(١) النسائي في سننه الكبرى ج ٥/ ص ٣١ حديث رقم: ٨٠٨٧، الطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ ص ٣٤ حديث رقم: ٩٠٦٠.

وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة[1].

وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: . . . فلما كان يوم حنين آثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ماعدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال: فقلت والله! لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: فأتيته، فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال: «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله**» قال: ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» قال: قلت: لاجرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً[2].

لقد عرف الأعراب بالجشع والحرص على أتفه متاع الدنيا مع الغلظة وشراسة الطبع والجفاء، لبعدهم عن مواطن الوعي الاجتماعي وتحررهم من قيود النظام وقوانين الحضارة الإنسانية، فالأعراب قوم من العرب يعيشون في البوادي ويتتبعون مواقع القطر وأماكن الخصب، ولا تجمعهم قرية ولا يحكمهم قانون ولا يخضعون لسلطان وقد سجل القرآن على هؤلاء الأعراب أشد الكفر والنفاق وأسوأ الجهل والفظاظة الأمر الذي يؤدي إلى كل تصرف وحشي وكل قول غليظ جاف.

قال تعالى: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [التوبة: آية ٩٧، ٩٨].

وتاريخ الأعراب في الجاهلية حافل بالهمجية والفوضى وما يتبع من تصرفات نادة عن الذوق والوعي والمسئولية.

والإسلام جاء ليستنقذ هؤلاء التعساء وغيرهم من الظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، وقد استمرت الدعوة الإسلامية في طريقها لتخليص هذه النفوس المأفونة من رق الكفر وأغلال الجاهلية فأقبل على هذه الدعوة المحمدية من علم الله فيه الخير فتحرر من تقاليد الجاهلية وانحرافها في الفكر والسلوك في العقيدة والعمل بيد أنّ كثيراً من هؤلاء الجاهليّين ظل شاكاً في حقيقة الدعوة الإسلامية يتربص بها

(١) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٢٨.
(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم حديث ١٠٦٢.

الدوائر يخرج مع المسلمين لا حباً في نصر الدين وإنما للحصول على الغنائم ويبدوا أن فرار الأعراب يوم حنين لا يبعد أن يكون من دوافعه ريب في قلوبهم وشك في إيمانهم، على أنهم ليسوا على درجة واحدة في ذلك.

قدوم وفد هوازن إلى الجعرانة مسلمين:

وبعد قسمة الغنائم جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا فقالوا يارسول الله إنا أصل وعشيرة [(١)] وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يارسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك[(٢)] اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا[(٣)] لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر [(٤)]. ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت رسول الله خير المكفولين ثم أنشأ يقول:

أُمنُنْ علينا رسول الله في كرم ::: فإنك المرءُ نرجوه وننتظر[(٥)]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ::: إذ فوك يملؤه من محضها دَرَر
فاعفو عفا الله عما أنت راهبه ::: وإذ يزينك ماتأتي وما تذر
إنا نؤمل عفوا منك تلبسه ::: من أمهاتك إن العفو مشتهر[(٦)]
يا خير من مرحت[(١)] كمت [(٢)]الجياد له ::: عند الهياج [(٧)]إذا ما استوقد الشرر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ::: هذى البرية إذ تعفو وتنتصر[(٨)]
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ::: يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر[(٩)]

---

(١) العشيرة: الأهل أو القبيلة.
(٢) حواضنك: النساء اللاتي أرضعنك، فحاضنة الرسول ﷺ من بني سعد بن بكر وهم من هوازن.
(٣) ملحنا: وفي رواية مالحنا، يعني أرضعنا، وابن أبي شمر هو الحارث الغساني ملك الغساسنة.
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).
(٦) إن العفو مشتهر: أي حسنه بين الناس.
(٧) الهياج: القتال.
(٨) هذى البرية: إشارة للنسوة التي طلب العفو عنهن.
(٩) البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤). ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٥٧٥ - ٥٧٧، المعجم الصغير: ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧. والكبير: ٥/ ٣١١ - ٣١٢. والأوسط ٢/ ٢٤٤ رقم ٧٧ "مجمع البحرين" .٦. تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي٧/ ١٠٥ - ١٠٦.

فجمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين وخطب فيهم، وقال: «**إنه يريد أن يرد السبي لهوازن، فمن أحبَّ منكم أن يطيب [٣] ذلك فليفعل، ومن أحبَّ أن يكون على حظه حتّى نعطيه إيّاه من أوّل ما يفيء الله[٤] علينا فليفعل**»، ورغم أن المسلمين نادوا: «طيبنا [٥] يا رسول الله لهم»، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: «**إنّا لا ندري من أذن منكم فيه ممّن لم يأذن، فارجعوا حتّى يرفع إلينا عرفاؤكم[٦] أمركم**»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبروه أنهم طيبوا[٧] وأذنوا [٨].

ولقد كان إسلام هوازن نصرا آخر كتبه الله للمسلمين سرّ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف ووعدهم برد أهله وأمواله عليه وبإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلما، فجاء مالك مسلمًا فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة. لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ::: في الناس كلهم بمثل محمد

---

(١) مرحت: نشطت.

(٢) كمت: جمع كميت من الخيل بين الأسود والأحمر.

(٣) يطيب: والمعنى فمن أحب منكم أن يعطيه عن طيب نفس منه من غير عوض فليفعل. وقال السهيلي: "عوض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لم تطب نفسه بالرد مما كان بيده واستطاب نفوس الباقين، وذلك أن المقاسم كانت قد وقعت فيهم فلا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم، ويجوز له ذلك قبل المقاسم، كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهل خيبر حين من عليهم، وتركهم عمالا للمسلمين في أرضهم التي افتتحوها عنوة" (الروض الأنف ٧/ ٢٨١).

(٤) يفيء: أي يرجع إلينا من مال الكفار من خراج أو غنيمة أو غير ذلك، ولم يرد الفيء الاصطلاحي وحده (فتح الباري ٥/ ١٧٨).
وقال ابن الأثير: "أراد بما يفيئه الله عليه: الخمس الذي جعله الله له من الفيء خاصة دون الناس، فإنه يعطي كل من أخذ منه شيئاً عوضه من ذلك". (جامع الأصول ٨/ ٤٠٩).

(٥) طيبنا: أي رضينا بذلك.

(٦) عرفاؤكم: وهو القائم بأمر طائفة من الناس، يلي أمورهم ويتعرف أحوالهم، سمي بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يعرف بها من فوقه عند الاحتياج.

(٧) طيبوا: بفتح الطاء المهملة وتشديد التحتانية، أي حملوا أنفسهم على ترك السبايا حتى طابت بذلك، يقال طيبت نفسي بكذا إذا حملتها على السماح به من غير إكراه فطابت بذلك.

(٨) البخاري - الصحيح ٣/ ٨٧، ١٥٦.

وسط الهباءة[٣] خادر[٤] في مرصد ::: أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
بالسمهري وضرب كل مهند ::: وإذا الكتيبة عردت[١] أنيابها
ومتى تشاء يخبر عما في غد ::: فكأنه ليث على أشباله[٢]

وقد أسلم بعد ذلك بعض زعماء ثقيف أمثال عروة بن مسعود الثقفي الذي لحق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طريق المدينة فأسلم على يديه وعاد إلى الطائف يدعو إلى الإسلام، ويؤذن من على سطح منزله فرماه بعض المشركين فأصابه، ودفن بناء على وصيته مع شهداء المسلمين أثناء حصار الطائف[٥].

إسلام هوازن:

ثم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة بن مسعود أشهرا تشاوروا فيما بينهم على نبذ الخلافات التي كانت بينهم، وعلى أن يتحدوا جميعا على أمر يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وذلك بأن يبعثوا وفدا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتفاوض معه على الدخول في الإسلام، وذلك أنهم تيقنوا أن لا طاقة لهم بحرب القبائل من حولهم وقد أسلمت وبايعت، وأخذ أمر الإسلام يعلو يوما بعد يوم، وأن دولة الأصنام قد أخذت طريقها في الأفول".

قال ابن إسحاق: "ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا".

فقد روي أن عمرو بن أمية أخا بني علاج، كان مهاجرا لعبد بن عمرو (لشيء كان بينهم) - وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب - فمشى إلى عبد ياليل ابن عمرو، حتى دخل داره، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول لك: "اخرج إلي، قال: "فقال عبد ياليل للرسول ويك! أعمرو أرسلك إلي؟".

قال: "نعم، وها هو واقفا في دارك[٦]، فقال: "إن هذا لشيء ما كنت أظنه،

---

(١) عردت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).
(٣) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص٦٨٩.
(٤) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.
(٥) ابن هشام - السيرة ٢/ ٥٣٧ - ٨، ابن كثير - البداية والنهاية ٥/ ٢٩.
(٦) عند الواقدي: "وكان عبد ياليل يحب صلحه ويكره أن يمشي إليه فقال عبد ياليل: "إن هذا شيء ما كنت أظنه بعمرو، وما هو إلا عن أمر قد حدث وكان أمرا سوءا ما لم يكن من ناحية محمد".

لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك، فخرج إليه، فلما رآه رحب به فقال له عمرو: "إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه كان من أمر هذا الرجل[1] ما قد رأيت، قد أسلمت العرب كلها[2]، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم".

فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينهما، وقال بعضهم لبعض: "أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[3]، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع، فأتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا، كما أرسلوا عروة فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة، فقال: "لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجالا فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة، فبعثوا مع عبد ياليل: "الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة ابن معتب".

ومن بني مالك: "عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان، أخا بني يسار، وأوس بن عوف، أخا بني سالم بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة أخا بني الحارث فخرج بهم عبد ياليل وهو ناب[4] القوم وصاحب أمرهم، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة ابن مسعود، لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه، فلما دنوا إلى المدينة، ونزلوا قناة[5]، ألفوا بها المغيرة بن شعبة، يرعى في نوبته ركاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، – وكانت رعيتها نوبا على أصحابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيّين، وضبر[6] يشتد يبشر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن

---

(١) يريد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) عند الواقدي: "وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بهم طاقة، وإنما نحن في حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب! ولا نأمل من أحد منا يخرج شبرا واحدا من حصننا هذا، فانظروا في أمركم! قال عبد ياليل: "قد والله رأيت ما رأيت، فما استطعت أن أتقدم بالذي تقدمت به، وإن الحزم والرأي الذي في يديك" (المغازي ٣/ ٩٦٢).

(٣) السرب: المسلك والطريق. "النهاية، ج٢، ص١٥٥".

(٤) ناب القوم: "سيدهم (القاموس المحيط ١/ ١٣٥).

(٥) قناة: "بالفتح واد بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بالعاقول ثم يمضي شمالا في موازاة الحرة، ثم يمر بقبور الشهداء جنوب جبل أحد". معجم البلدان ٤/ ٤٠١ والمدينة بين الماضي والحاضر للعياشي ص ٤٩٠".

(٦) ضبر الفرس والمقيد يضبر ضبرا وضبرانا جمع قوائمه ووثب". القاموس المحيط٢/ ٧٤.

يدخل على رسول الله ﷺ، فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام، بأن يشرط لهم رسول الله ﷺ شروطا ويكتتبوا من رسول الله ﷺ كتابا في قومهم وبلادهم وأموالهم، فقال أبو بكر للمغيرة: "أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه[1]، ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه، فروح الظهر معهم، وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية[2]، ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده[3]، كما يزعمون".

فكان خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم، وكان

---

(١) وعند الواقدي "فقال أبو بكر: "أقسمت بالله عليك لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ بخبرهم حتى أكون أنا أخبره - وكان رسول الله ﷺ قد ذكرهم ببعض الذكر - فأبشره بقدمهم، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ فأخبره، والمغيرة على الباب، ثم خرج إلى المغيرة فدخل المغيرة على النبي ﷺ وهو مسرور، فقال يا رسول الله، قدم قومي يريدون الدخول في الإسلام بأن تشرط لهم شروطا، ويكتبون كتابا على من وراءهم من قومهم وبلادهم، فقال رسول الله ﷺ: "لا يسألون شرطا ولا كتابا أعطيته أحدا من الناس إلا أعطيتهم فبشرهم! فخرج المغيرة راجعا فخبرهم ما قال لهم رسول الله ﷺ وبشرهم".

(٢) وعند الواقدي "فكل ما أمرهم المغيرة فعلوا إلا التحية، فإنهم قالوا: "أنعم صباحا ودخلوا المسجد فقال الناس: "يا رسول الله، يدخلون المسجد وهم مشركون؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن الأرض لا ينجسها شيء".

(٣) وفي زاد المعاد نقلا عن موسى بن عقبة فقال المغيرة بن شعبة: "يا رسول الله أنزل قومي علي فأكرمهم، فإني حديث الجرح فيهم، فقال رسول الله ﷺ: "لا أمنعك أن تكرم قومك، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن" وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجير الثقيف، وأنهم أقبلوا من مصر حتى إذا كانوا ببعض الطريق، عدا عليهم وهم نيام، فقتلهم ثم أقبل بأموالهم حتى أتى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: "أما الإسلام فنقبل، وأما المال فلا فإنا لا نغدر" وأبى أن يخمس ما معه، وأنزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف في المسجد، وبنى لهم خياما لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لا يذكر نفسه، فلما سمعه وفد ثقيف، قالوا: "يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله ﷺ، ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغه قولهم، قال: "فإني أول من شهد أني رسول الله" (زاد المعاد ٣/ ٥٩٦).

خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم، وقد كان فيما سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات[1] لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرا واحد بعد مقدمهم، فأبى أن يدعها شيء مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه**[2]**، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه**»، فقالوا:

---

(١) اللات: "كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش".
قال ابن جرير: "وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: "اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا".
وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرءوا اللات: "بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السويق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه". (تفسير بن كثير ٤/ ٢٥٣و٢٥٤)".

(٢) وعند ابن قيم الجوزية: "فقال كنانة بن عبد ياليل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟".
قال: "نعم، أن انتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم"، وأنه سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرخص لهم الزنى، والربا والخمر، "فأبى عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".
وقال: "هي عليكم حرام وتلا الآيات الواردة في ذلك فارتفع القوم فخلا بعضهم ببعض، فقالوا: "ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يوما كيوم مكة، انطلقوا نكاتبه على ما سألناه، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: "نعم لك ما سألت، أرأيت الربة - يعنون اللات - ماذا نصنع فيها؟.
قال: "اهدموها" قالوا: "هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها، فقال عمر بن الخطاب: "ويحك يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك إنما الربة حجر، فقالوا: "إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، وقالوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تول أنت هدمها، فأما نحن فإنا لا نهدمها أبدا، قال: "فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها" فكاتبوه (انظر زاد المعاد ٣/٥٩٦ - ٥٩٧)، ومغازي الواقدي (٣/٩٦٦ - ٩٦٧).

"يا محمد، فسنؤتيكها، وإن كانت دناءة[1]".

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابهم، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن[2]، فقال أبو بكر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا رسول الله، إني قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن"[3].

هدم اللات:

قال ابن إسحاق: "فلما فرغوا من أمرهم، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية فخرجا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: "ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بما له بذي الهدم[4]، فلما دخل المغيرة بن شعبة، علاها يضربها بالمعول[5]، وقام قومه دونه - بنو متعب - خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حسرا[6] يبكين عليها ويقلن:

(١) عند الواقدي: "فقالوا: "يا محمد، أما الصلاة فسنصلي، وأما الصيام فسنصوم، وتعلموا فرائض الإسلام وشرائعه".

(٢) وذكر موسى بن عقبة "أن وفدهم كانوا إذا أتو رسول الله خلفوا عثمان ابن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله عن العلم فاستقرأه القرآن، فإن وجده نائما، ذهب إلى أبي بكر الصديق فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبا شديدا (زاد المعاد ٣/ ٥٩٦، والبداية والنهاية ٥/ ٣١) والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٥٠٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٣٨ - ٥٤٠، الروض الأنف ٧/ ٣٣٢ - ٣٣٥، وزاد المعاد ٣/ ٥٩٥ - ٥٩٧، والبداية والنهاية ٥/ ٢٩ - ٣١ وتاريخ الخميس ٢/ ١٣٤ - ١٣٦، وشرح المواهب ٤/ ٦ - ٨ والطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٢ - ٣١٤ و٥/ ٥٠٨ ومغازي الواقدي ٣/ ٩٦٠ - ٩٦٨).

(٤) بذي الهرم: محل بالطائف (شرح المواهب ٤/ ٩) وكذا في البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣٣".

(٥) المعول: الفأس العظيمة يقطع بها الصخر، والجمع معاول (مختار الصحاح ص ٤٦٣).

(٦) حسر: أي متكشفات". وعند موسى ابن عقبة "وقد استكفت ثقيف رجالها ونساءها والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال، ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة، ويظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين - يعني المعول - وقال لأصحابه: "والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف

لتبكين دفاع[2] ::: أسلمها الرضاع[1]

لم يحسنوا المصاع[3]

قال ابن إسحاق: "ويقول أبو سفيان – والمغيرة يضربها بالفأس: "وآهالك آهالك[4] فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها وحليها[5] أرسل إلى أبي سفيان وحليها مجموعة ومالها من الذهب والجزع[6]، وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفد ثقيف، حين قتل عروة، يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاهم على شيء أبدا فأسلما، فقال لهما رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**توليا ما شئتما؟**» فقالا: "نتولى الله ورسوله، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وخالكما أبا سفيان بن حرب**»، فقالا: "وخالنا أبا سفيان بن حرب".

فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية، سأل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو مليح بن عروة أن يقضي عن أبيه عروة دينا كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم**»، فقال له قارب بن الأسود: "وعن الأسود يا رسول الله، فاقضه – وعروة والأسود أخوان لأب وأم – فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الأسود مات مشركا**»،

بصيحة واحدة وفرحوا وقالوا أبعد الله المغيرة قتلته الربة وقالوا لأولئك من شاء منكم فليقترب، فقام المغيرة فقال: "والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله فاعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجرا حتى سووها بالأرض وجعل سادنها يقول: "ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع المغيرة قال لخالد: "دعني أحفر أساسها فحفروه حتى أخرجوا ترابها وجمعوا ماءها وبناءها، وبهتت عند ذلك ثقيف، ثم رجعوا إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقسم أموالها من يومه وحمدوا الله على اعتزاز دينه ونصرة رسوله: "(البداية والنهاية ٥/ ٣٣ – ٣٤، وشرح المواهب ٤/ ٩).

(١) الرضاع: اللئام، القاموس المحيط ٣/ ٣٠.

(٢) سميت "دفاع "لأنها كانت تدفع عنهم، وتنفع وتضر على زعمهم، القاموس المحيط ٣/ ٢١.

(٣) المصاع: "المضاربة بالسيوف، القاموس المحيط ٣/ ٨٥.

(٤) آهالك: "كلمة تقال في معنى التأسف والتحزن (مختار الصحاح ص ٣٤).

(٥) حليها: "بضم الحاء وكسر اللام والياء المشددة، جمع حلى بفتح فسكون، عطف خاص على عام (شرح المواهب ٤/ ٩).

(٦) الجَزْع والجِزْع: "الخرز اليماني الصيني، فيه سواد وبياض تشبه به الأعين (القاموس المحيط ٣/ ١٢).

فقال قارب لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله، لكن تصل مسلما ذا قرابة، يعني نفسه، إنما الدين علي، وإنما أن الذي أطلب به، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال الطاغية، فلما جمع المغيرة مالها، قال لأبي سفيان إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دينهما فقضى عنهما"[(١)].

كتاب الرسول ﷺ لثقيف:

قال ابن إسحاق: "وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم: بسم الله الرحمن الرحيم: "من محمد النبي، رسول الله، إلى المؤمنين: "عن عضاه[(٢)] وج[(٣)] وصيده لا يعضد، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد، وإن هذا أمر النبي محمّد ﷺ، وكتب خالد بن سعيد: "بأمر الرسول محمّد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ"[(٤)].

الأحكام الفقهية من إسلام وهوازن وهدم اللات:

قال الإمام ابن القيم:

- وفي قصة هذا الوفد من الفقه أن الرجل من أهل الحرب إذا غدر بقومه وأخذ أموالهم، ثم قدم مسلما، لم يتعرض له الإمام، ولا لما أخذه من المال ولا يضمن ما أتلفه قبل مجيئه من نفس ولا مال، كما لم يتعرض النبي ﷺ لما أخذ المغيرة من أموال الثقفيّين، ولا ضمن أتلفه عليهم، وقال "أما الإسلام فأقبل، أما المال فلست منه في شيء[(٥)].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤١ - ٥٤٢ والروض الأنف ٧/ ٣٣٦ - ٣٣٧ وتاريخ الطبري ٣/ ٩٩ - ١٠٠ وأسد الغابة ٤/ ٣٧٥ - ٣٧٦ و٦/ ٢٩٩ والبداية والنهاية ٥/ ٣٢ - ٣٤ والإصابة ٣/ ٢١٩ و٤/ ١٨٤ ومغازي الواقدي ٣/ ٩٦٩ - ٩٧٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٥٠٤ - ٥٠٥"، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٥٠٢.

(٢) عضاه: كل شجر ذي شوك.

(٣) وج: واد بالطائف، وسميت "وجا" بوج بن عبد الحق من العمالقة وقيل من خزاعة".

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤٢ - ٥٤٣ والروض الأنف ٧/ ٣٣٧، وزاد المعاد ٣/ ٥٠١ والبداية والنهاية ٥/ ٣٤ وشرح المواهب ٤/ ٩ - ١٠)، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٥٠٣.

(٥) أصل القصة المغيرة هذه في صحيح البخاري ٣/ ١٧٠ كتاب الشروط، باب الشروط في

- ومنها جواز إنزال المشرك في المسجد[1]، ولا سيما إذا كان يرجو إسلامه، وتمكينه من سماع القرآن، ومشاهدة أهل الإسلام وعبادتهم".

- ومنها حسن سياسة الوفد، وتلطفهم حتى تمكنوا من إبلاغ ثقيف ما قدموا به فتصوروا لهم بصورة المنكر لما يكرهونه الموافق لهم فيما يهوونه حتى ركنوا إليهم واطمانوا فلما علموا أنه ليس لهم بد من الدخول في دعوة الإسلام أذعنوا، فأعلمهم الوفد أنهم بذلك قد جاؤوهم ولو فاجؤوهم به من أول وهلة لما أقروا به، ولا أذعنوا، وهذا من أحسن الدعوة وتمام التبليغ، ولا يتأتي إلا مع ألباء الناس وعقلائهم".

- منها أن المستحق لإمرة القوم وإمامتهم أفضلهم وأعلمهم بكتاب الله وأفقههم في دينه".

- ومنها هدم مواضع الشرك التي تتخذ بيتا للطواغيت، وهدمها أحب إلى الله ورسوله، وانفع للإسلام والمسلمين من هدم الحانات والمواخير[2]، وهكذا حال المشاهد المبينة على القبور التي تعبد من دون الله، ويشرك بأربابها مع الله لا يحل إبقاؤها في الإسلام، ويجب هدمها، ولا يصح وقفها، ولا الوقف عليها، وللإمام أن يقطعها وأوقافها لجند الإسلام، ويستعين بها على مصالح المسلمين، وكذلك ما فيها من الآلات، والمتاع والنذور التي تساق إليها".

يضاهى بها الهدايا التي تساق إلى البيت الحرام، للإمام أخذها كلها وصرفها في مصالح المسلمين، كما أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموال بيوت هذه الطواغيت، وصرفها في مصالح الإسلام، وكان يفعل عندها ما يفعل عند هذه المشاهد، سواء من النذور لها، والتبرك بها، والتمسح بها، وتقبيلها واستلامها، هذا كان شرك القوم بها، ولم يكونوا يعتقدون أنها خلقت السماوات والأرض، بل كان شركهم بها كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه".

الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

(١) في صحيح البخاري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد". الحديث ١/ ٨٣ كتاب الصلاة باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضا في المسجد".

(٢) الحانوت: "دكان الخمار، ومحل التجارة وجمعه حوانيت، والحانة البيت الذي يباع فيه الخمر وهو الحانوت أيضا ويجمع على حانات". والمواخر والمواخير: "مجمع أهل الفسق والفساد". (المصباح المنير ١/ ١٩٠ - ١٩١ والقاموس المحيط ١/ ١٤٦ والمعجم الوسيط ١/ ٢٠١، و٢/ ٨٥٧).

- ومنها استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطواغيت، فيعبد الله وحده، لا يشرك به شيء في الأمكنة التي كان يشرك به فيها وهكذا الواجب في مثل هذه المشاهد أن تهدم، وتجعل مساجد إن احتاج إليها المسلمون وإلا أقطعها الإمام هي وأوقافها للمقاتلة وغيرهم".

- ومنها أن العبد إذا تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتفل عن يساره، ولم يضره ذلك، ولا يقطع صلاته، بل هذا من تمامها وكمالها[1]".

وفي غزوة حنين نزلت الآيات: قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى:

- أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت الهزيمة.

- خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع.

- أن عدد المشركين، كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

- أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

- كان العدو مهيَّأً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رأيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

٦ - وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٠٠ - ٦٠٢، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٥٠٩.

أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم[1].

- عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين لعدة أسباب منها:

- ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

- شجاعة القائد: فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب بل تقدم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها أن لاتسرع.

- ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

- سرعة استجابة الفارين والتحاقهم بالقتال.

- وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- رمية الحصى: فقد أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد[2].

٧ - الاستعانة والاستغاثة بالله عز وجل فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

- إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتها فيها وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم وفي سورة التوبة[3]: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩).
(٢) مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٦ - ١١٧).
(٣) السيرة النبوية لابي فارس، ص٤٢٣. السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٥٦٩.

مواقف إيمانية:

- حراسة أنس بن أبي مرثد الغنوي للمسلمين:

لما سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن هوازن ومن شايعها من القبائل الأخرى حشدت قواها لضرب المسلمين، اهتم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك غاية لاهتمام، وأعد للموقف عدته.

فأمر أحد قواده أن يذهب إلى القوم ليعلم له ذلك، وليرصد له وجهتهم وقدراتهم القتالية، زيادة في التثبت في حقيقة الأمر.

فذهب ذلك الجندي لمهمته، فدخل في القوم فوجدهم على أتم استعداد لملاقاة المسلمين، قد جمعوا جموعهم بما فيهم النساء والذراري والأموال، فعاد مسرعا، فنقل لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرهم، فتبسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله**».

(عن سهل بن الحنظليّة، أنهم ساروا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين فأطنبوا السّير، حتّى كانت عشيّة، فحضرت الصّلاة عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إنّي انطلقت بين أيديكم حتّى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله**» ثمّ قال: «**من يحرسنا اللّيلة؟**» قال أنس بن أبي مرثد الغنويّ: أنا يا رسول الله، قال: «**فاركب**» فركب فرسا له، فجاء إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال (له) رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استقبل هذا الشّعب**[1] **حتّى تكون في أعلاه، ولا نغرّنّ**[2] **من قبلك اللّيلة**» فلمّا أصبحنا خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مصلّاه فركع ركعتين ثمّ قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثوّب بالصّلاة[3]، فجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلّي وهو يلتفت إلى الشّعب حتّى إذا قضى صلاته وسلّم قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**» فجعلنا ننظر إلى خلال الشّجر في الشّعب فإذا هو قد جاء حتّى وقف على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلّم فقال: إنّي انطلقت حتّى كنت في أعلى

---

(١) الشعب: الطريق بالجبل وجمعه شعاب.
(٢) لا نغرّن من قبلك الليلة: أي لا نؤخذ على غرة من الناحية التي أنت بها.
(٣) ثوّب بالصّلاة: أي أقيمت الصلاة.

هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلمّا أصبحت اطّلعت الشّعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا ، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل نزلت اللّيلة؟**» قال: لا إلّا مصلّيا أو قاضيا حاجة ، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أوجبت** [1] **فلا عليك أن لا تعمل بعدها**» [2] .

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الإهتمام بالأفراد ، فقد ظهر اهتمام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر هام ، ثم إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أبشروا فقد جاء فارسكم . إنها الكلمة التي يستعملها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة ، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي ، إنه ليس كماً مهملاً ، ولارقماً في سجل ، ولا بزالاً في آلة ، يستغنى عنه عند الضرورة: ليؤتى بغيره . إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي [3] في قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾ [الإسراء: ٧٠] .

وفي قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها ، فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات ، ويرفع بها الدرجات ، والمقصود أنه عمل عملا صالحاً كبيرا يكفي لتكفير ماقد يقع منه من سيئات في المستقبل ، ويرفع الله به درجاته في الجنة ، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات [4] .

والحديث يدل على اهتمام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البالغ بمعرفة أعدائه ، حيث كان يتابع تحركاتهم ويرقب سيرهم حتى يكون على بصيرة وخبرة بما يدبرون ضده من مؤامرات ، وفيه معجزة نبوته حيث أخبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ما حشدته هوازن من قوة ستكون غنيمة للمسلمين ، وقد وقع ما أخبر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وفيه منقبة عظيمة لأنس بن أبي مرثد الغنوي ، وفضل الحراسة في سبيل الله عز وجل .

وفيه تسابق الصحابة وحرصهم على ما فيه نفع للمسلمين وخدمة لدينهم

(١) أوجبت: أي لنفسك الجنة .
(٢) أبو داود (٢٥٠١) ، وصححه الألباني (٢١٨٣) .
(٣) معين السيرة ، ص٤٢٩ .
(٤) التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤) .

وامتثال أمر نبيهم ﷺ . ودقة التزامهم بأوامره ﷺ . فلم يبرح أنس موضعه إلا في حدود الرخصة التي أذن له فيها رسول الله ﷺ . وهكذا يكون الاتباع والامتثال بالوقوف عند أوامر الشرع ففيها الفلاح والصلاح .

- شجاعة أم سليم يوم حنين:

وفي هذه الغزوة تبرز بوضوح كامل قيمة المرأة في المجتمع المسلم ، فإنها فيه عضو فعال ، فها هي الأحاديث الصحيحة تصرح بأن المرأة على عهد رسول الله ﷺ تشارك في الحرب ، كما أنها في السلم سيدة البيت ومربية أجيال ، فليس في الإسلام حظر للمرأة أن تشارك الجيش أعباءه في القتال ، بل في ذلك حث لها على سقي الماء ومداواة الجرحى وتمريض المرضى ، وأكثر من ذلك فقد قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً[(١)] ، فكان معها فرآها أبو طلحة . فقال: يارسول الله هذه أم سليم معها خنجر ، فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه . فجعل رسول الله ﷺ: يضحك . قالت: يارسول الله: اقتل من بعدنا[(٢)] من الطلقاء[(٣)] انهزموا بك[(٤)] فقال رسول الله: «**يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن**»[(٥)] .

ولكن كل ذلك مقيد بقيود الإسلام وشروطه التي تهدف إلى صيانة المرأة عن الابتذال والسفور ، والخروج عن حد الاعتدال ، لتكون لقمة سائغة لكل جسد شهواني ، كما تدعو إليه حضارة الغرب والشرق اليوم ، ويقلدهم في ذلك أذنابهم من أبناء المسلمين ، الذين اغتروا بهذه الدعايات الزائفة ، التي يروجها دعاة الباطل والإلحاد ، بغية الانجراف في تياراتهم المنحرفة الضالة ، التي تهدف إلى خلخلة البناء الإسلامي من أساسه الأول وهو الأسرة ، وقوام الأسرة في الإسلام ، هو المرأة المسلمة ، فإذا خرجت وانتهكت الحرمات ، وتبرجت تبرج الجاهلية الأولى ، فقد وصل دعاة تحرير المرأة إلى مبتغاهم الخبيث[(٦)] .

---

(١) خنجراً: سكين كبير ذات حدين .
(٢) من بعدنا: من سوانا .
(٣) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الاولى .
(٤) انهزموا بك: انهزموا عنك .
(٥) مسلم ، رقم ١٨٠٩ ؛ صحيح السيرة النبوية ، ٥٦٣ .
(٦) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص ٣٢٣ .

وقد استنبطت من غزوة حنين والطائف جملة أحكام منها:

- جواز وطء المسبية بعد الاستبراء:

- نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل [(١)].

وقوع العزل في أوطاس:

العزل هو نزع الذكر بعد الإيلاج ليُنْزل خارج الفرج، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع الإماء خشية أن تحمل الأمة فيمتنع بيعها لأنها تصير بذلك أم ولد[(٢)]".

فعن أبي سعيد الخدري أنهم أصابوا سبايا يوم أوطاس، فأرادوا أن يستمعوا منهن ولا تحملهن، فسألوا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ذلك فقال: «**لا عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله عز وجل قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة**» [(٣)].

- منع المختثين من الدخول على النساء الأجنبيات:

جاءت الشريعة الإسلامية بالمحافظة على الأعراض وسدت كل المنافذ التي يخشى منها على أعراض المجتمع الإسلامي، ومن ذلك حماية الأسرة المسلمة من دخول بعض الرجال الذين أطلق عليهم في عرف السلف المخنثون، وهم من خلق متخلقا بأخلاق النساء وزيهن وكلامهن وحركاتهن من غير تكلف، ولا إربة له في النساء أصلا، وهذا الضرب من الرجال شاذ في تكوينه، غير أن هذا الشذوذ خلقي جبلي فيه ولذلك كان بعض هؤلاء يدخلون على النساء بلا إنكار عليهم في ذلك ولكن لما بدر من بعضهم وصف النساء وتحديق النظر في مفاتن المرأة ومحاسنها حظر عليهم الشرع الإسلامي الدخول على النساء منعا للفتنة وسدا للذريعة فعن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: "دخل عليّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعندي مخنث[(٤)] فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: "يا عبد الله أرأيت إن فتح

---

(١) أحمد - المسند ٣/ ٤٨٨.

(٢) هدي الساري ص:"١٥٦، والمصباح المنير للفيومي ٢/ ٤٨٥.

(٣) شرح معاني الآثار ٣/ ٣٣.

(٤) المخنث: "بكسر النون وفتحها هو الذي يشبه النساء في أخلاقه وكلامه وحركاته، ويطلق

الله عليكم الطائف فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان[1] ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أرى هذا يعرف[2] ما هاهنا لا يدخلن عليكن**» . قالت: "فحجبوه[3]".

-النهي عن قتل النساء والضعفاء ومن في حكمهم:

من محاسن الإسلام أنه دين الرحمة والعدالة ، ومن أبرز ما يؤكد هذه الحقيقة موقفه من الضعفاء والنساء والأطفال في حال النّزال والقتال والتقاء الصفين ، لأن هؤلاء المستضعفين ليسوا أهل شوكة ولا مكيدة في الحرب ، ولا ذنب لهم في الغالب فيما جره عليهم أهلوهم الكفرة من الصد عن سبيل الله ومحاربة الإسلام ، فلا يجوز قتلهم ولا التنكيل بهم ، إلا إذا كان الشيخ الهرم محاربا للمسلمين برأيه أو بأي وسيلة تمكنه ، أو حاولت المرأة قتل أحد من المسلمين فيجوز قتلها دفاعا عن النفس ، وأما الطفل فلا يتصور منه ذلك فهذا النمط من الرحمة والعطف في الحروب والمعارك الشديدة لا مثيل له في أي مبدأ من المبادئ قديما وحديثا ، تاريخ الحروب البشرية شاهد صدق بذلك".

ولقد أكد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المبدأ وجعله من أهم التوصيات التي يجب أن يجعلها كل أمير جيش أو سرية نصب عينيه ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين

عليه مخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل .

(١) وعند أبي داود وابن ماجه: "عن أم سلمة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها: "إن يفتح الله الطائف غدا دللتك على امرأة تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أخرجوهم من بيوتكم" ولفظ ابن ماجه "فسمع مخنثا وهو يقول إلخ".

وعنده أيضاً فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أخرجوه من بيوتكم" وقوله (تقبل بأربع وتدبر بثمان فسره البخاري في الحديث بقوله: "قال أبو عبد الله: "تقبل بأربع وتدبر بثمان: "يعني أربع عكن بطنها ، فهي تقبل بهن ، وقوله تدبر بثمان: "يعني أطراف هذه العكن الأربع لأنها محيطة بالجنين حتى لحقت ، وإنما قال بثمان ولم يقل بثمانية وواحد الأطراف وهو ذكر ، لأنه لم يقل بثمانية أطراف".

(٢) وعند أبي داود وأحمد والبيهقي "فقال: "ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكن هذا وحجبوه".

(٣) (صحيح مسلم: "٤/ ١٧١٦ كتاب السلام ، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب) .

خيرا ، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا**» [1] .

والشاهد من الحديث قوله: «**ولا تقتلوا وليدا**» وهو نهي والنهي يقتضي التحريم ، فيحرم قتل الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان ، الذين ليس من شأنهم أن يقاتلوا ".

وهكذا امتازت الحروب الإسلامية بهذا المبدأ ، فلا يقتل إلا من يتأتى منه القتال ، أما الذين لا يد لهم في القتال ولا قدرة عليه ، فالشريعة الإسلامية تنهى عن قتلهم وترويعهم ، وقد جاءت جملة صالحة فعن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: " مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين بامرأة مقتولة ، فقال: «**ألم أنه عن هذا؟**» . فقال رجل: "أردفتها فأرادت أن تقتلني ، فقتلتها ، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدفنها" [2] ".

وعن الأسود بن سريع أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث سرية يوم حنين ، فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية فلما جاؤوا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما حملكم إلى قتل الذرية؟**» قالوا: "يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين ، قال: «**أو هل خياركم إلا أولاد المشركين، والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**» [3] .

-إقامة الحد في دار الحرب:

الحد في اللغة: "المنع والفصل بين الشيئين ، فكأن حدود الشرع فصلت بين الحلال والحرام".

وفي الشرع: "هي عقوبة مقدرة شرعا في معصية لتمنع من الوقوع في مثلها".

وفي هذه الغزوة جيء برجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سكر فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كان عنده فضربوه بما كان في أيديهم وحثا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٧ كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الأمير على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ، وقد ساق البيهقي جملة من النصوص بعدة أسانيد فيها النهي عن قتل الرهبان والشيوخ والمرضى والصبيان والنساء والوصفاء والعسفاء". (السنن الكبرى ٩/ ٨٩ - ٩١) .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٠١ .

(٣) أحمد - المسند ٣/ ٤٨٨ ، الحاكم - المستدرك ٢/ ١٢٣ ، البيهقي - السنن ٩/ ١٣٠ . أبو داود - السنن ١٢/ ١٩٦ - ١٩٧ ، أحمد - المسند ٤/ ٣٥٠ ، الدارقطني - السنن ٣/ ١٥٧ - ١٥٨ .

التراب، ودعا له جزاء ما ارتكب وتطهيرا له مما علق به من دنس المعصية".

فعن عبد الرحمن بن أزهر الزهري قال: "رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين يتخلل الناس - أي يدخل بينهم - يسأل[1] عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بسكران فأمر من كان عنده فضربوه بما كان في أيديهم، ثم حثا عليه التراب - أي: "رمى بيده عليه التراب - ثم أتي أبو بكر بسكران فتوخّي[2] الذي كان من ضربهم عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضربه أربعين"[3].

- تحريم الغلول في الغنيمة:

الغلول: "هو اعتداء بعض أفراد الجيش على أموال الغنيمة قبل قسمها وهو من كبائر الذنوب، ولا يقدم عليه إلا ضعيف الإيمان ضعيف النفس يحمله جشعه وسوء طبعه على هذه الخيانة العظيمة لإخوانه المجاهدين معه في سبيل الله ولعظيم خطر الغلول جاءت النصوص في الكتاب والسنة تحذر من الوقوع فيه وتبين أنه ذنب عظيم وجريمة أخلاقية فظيعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

قال الشوكاني: "قوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ أي يأت به حاملا له على ظهره كما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه ويعاقب عليه".

---

(١) وسبب السؤال عن منزل خالد بينه ما رواه عبد الرزاق والحميدي وأحمد وأبو عوانة الجميع من طريق معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: "جرح خالد بن الوليد يوم حنين فمربي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا غلام وهو يقول من يدل على رحل خالد بن الوليد؟ فخرجت أسعى بين يدي رسول الله وأنا أقول: "من يدل على رحل خالد بن الوليد؟ حتى أتاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مستند إلى رحل قد أصابته جراحة فجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده، ودعا له".

(مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٨٠ - ٣٨١ ومسند الحميدي ٢/ ٣٩٨ ومسند أحمد ٤/ ٨٨ و٣٥٠ - ٣٥١ ومسند أبي عوانة ٤/ ٢٠٣).

(٢) "تَوَخَّي": "أي قصد يقال: "توخيت الشيء أتوخاه توخيا، إذا قصدت إليه وتعمدت فعله، وتحريت فيه".

(٣) (شرح معاني الآثار ٣/ ١٥٦). أبو داود - السنن ١٢/ ١٩٦ - ١٩٧، أحمد - المسند ٤/ ٣٥٠، الدارقطني - السنن ٣/ ١٥٧ - ١٥٨.

وقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨١]، أي تعطى جزاء ما كسبت وافيا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيراً أو شراً، ويدخل تحتها الغال دخولاً أوليا لكون السياق فيه[١]". اهـ".

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فذكر الغلول[٢] فعظمه وعظم أمره[٣] ثم قال: «**لا ألفين[٤] أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته بعير له رغاء[٥]، يقول: "يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئاً[٦] قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته فرس له حمحمة[٧]، فيقول يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته شاة لها ثغاء[٨]، يقول: "يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته نفس لها صياح[٩]، فيقول يا رسول الله! أغثني، فأقول: "لا أملك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع[١٠] تخفق[١١]، فيقول: "يا رسول الله! أغثني، فأقول:**

---

(١) فتح القدير ١/ ٣٩٤".

(٢) الغلول: الخيانة في المغنم".

(٣) قوله: "ذكر الغلول فعظمه وعظم أمره"، قال النووي: "هذا تصريح بغلظ تحريم الغلول، وأصل الغلول: "الخيانة مطلقاً، ثم غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانة في الغنيمة قال نفطويه: "سمي بذلك؛ لأن الأيدي مغلولة عنه، أي محبوسة، يقال: "غل غلولاً، وأغل إغلالاً". (شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤٩٥).

(٤) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا ألفين أحدكم إلخ"، (ألفين) بضم الهمزة وبالفاء المكسورة أي لا أجدن أحدكم على هذه الصفة، ومعناه لا تعمل عملا أجدكم بسببه على هذه الصفة". قال عياض: "وفي رواية العذري "لا ألفين" بفتح الهمزة والقاف وله وجه كنحو ما سبق لكن المشهور الأول". (شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤٩٥).

(٥) رغاء: "الرغاء صوت الإبل". (النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٤٠).

(٦) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا أملك لك شيئا"، قال النووي: "قال القاضي: "معناه من المغفرة والشفاعة إلا بإذن الله تعالى، قال: "ويكون ذلك أولاً غضباً عليهم لمخالفته ثم يشفع في جميع الموحدين بعد ذلك، كما سبق في كتاب الإيمان في شفاعات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". (شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤٩٥).

(٧) حمحمة: "هو صوت الفرس دون الصهيل".

(٨) ثغاء: هو صوت الغنم".

(٩) صياح: "هو صوت الإنسان".

(١٠) رقاع: جمع رقعة والمراد بها هنا الثياب".

(١١) تخفق: "تضطرب".

"لا أملك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[1]، فيقول: "يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئا قد أبلغتك"» [2].

ومن هذا تظهر عناية الإسلام بالحقوق العامة وتقديمها على المصلحة الخاصة، وذلك أن الغنائم حق مشاع لجميع أفراد الجيش لا يجوز لفرد منهم أن تغلبه مصلحة نفسه فيأخذ من هذا الحق المشاع لنفسه بحجة أن له حقاً فيها، ولذلك جاءت هذه النصوص تنذر بالويل والعذاب الأليم لمن يغل ويخون في الغنائم قبل أن تتميز الحقوق وتظهر بالقسمة العادلة حصة كل فرد من أفراد الجيش الإسلامي، ويتضح ذلك جليا في تشديد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخذ الخيط والمخيط وما فوق ذلك وما دون ذلك فهو أعظم حماية للحقوق العامة وأجل صيانة لاحترام المصالح العامة للأمة، وفي نفس الوقت فإن حقوق الفرد لا تضيع فسوف تقسم هذه الغنائم ويأخذ كل فرد حقه كاملا غير منقوص، وهذه خصائص الدين الإسلامي العظيمة التي يجب فهمها وتطبيقها بالعلم والعدل" [3].

- جواز إعطاء الغنائم للمؤلفة قلوبهم.:

وجواز قطع وتحريق أشجار وبساتين الكفار إذا كان في ذلك إضعاف لهم.

كما شرعت العمرة من الجعرانة:

فقد أحرم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعمرة من الجعرانة وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما مايفعله كثير مما لاعلم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولااستحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها[4].

---

(١) الصامت: "الصامت من المال: "الذهب والفضة". (انظر: "النهاية في غريب الحديث ١/ ٢١٤ - ٤٣٦ و٢/ ٢٥١و٣/ ٥٢).

(٢) البخاري: "الصحيح ٤/ ٥٩ كتاب الجهاد باب الغلول". ومسلم: "الصحيح ٣/ ١٤٦١ كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول والرفض له".

(٣) إبراهيم بن إبراهيم قريبي، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٦٩٥.

(٤) مسلم - الصحيح ٤/ ١٨٠٦، زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).

-إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة مايصنع في الحج:

قال يعلى بن منيه: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق[١]، أو قال: أثر صفرة، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيط (قال) فلما سري عنه قال: أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة، أو قال أثر الخلوق، واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك[٢].

نتائج غزوة حنين والطائف:

- انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

- كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمشركي العرب.

- رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، حصول الأنصار على وسام عظيم وهو شاهدة رسول الله لهم بالإيمان والدعاء لهم ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة.

- انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

- توسعت الدولة الإسلامية وأمتدّ نفوذها وأصبح لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمراء بمكة وعلى قبيلة هوازن وصارت تلك الأماكن جزء من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوث دعوية بدون خوف أو وجل من أحد وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة[٣].

* * * * *

(١) خلوق: طيب.
(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٥٧٨.
(٣) الأساس في السنّة وفقهها في السيرة النبوية، ٢/ ٩٦١.

الفصل العاشر:
[النشاط العسكري ما بين حنين وتبوك]

تنظيم استيفاء الصدقات والجزية:

شرع الرسول ﷺ بعد عودته إلى المدينة في أواخر ذي القعدة في تنظيم الإدارة والجباية، وكان ﷺ قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس ويعلمهم القرآن، وكان رزق عتاب ثلاثين درهما في الشهر (١).

وفي مطلع المحرم من العام التاسع وجّه الرسول ﷺ عماله على المناطق المختلفة. فبعث:

- بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار.
- وعباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة.
- ورافع بن مكيث إلى جهينة.
- وعمرو بن العاص إلى فزارة.
- والضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب.
- وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب.
- وابن اللّتبيّة الأزدى إلى بني ذبيان.
- ورجلا من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم (٢).
- والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء.
- وزياد بن لبيد إلى حضرموت.
- وعدي بن حاتم الطائي إلى طيء وأسد.
- ومالك بن نويرة إلى بني حنظلة.
- والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد (٣).

---

(١) ابن حجر - الإصابة ٢/ ٤٥١، البخاري - التاريخ الكبير ٧/ ٥٤، خليفة بن خياط - التاريخ ص/ ٨٨.
(٢) الواقدي - المغازي ٣/ ٩٧٣، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٦٠.
(٣) ابن هشام - السيرة ٤/ ٣٢٨.

- والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين .
- وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم ، ويقدم عليه بجزيتهم [1] .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستوفي الحساب على العمال ، يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، كما فعل مع عامله ابن اللُّتبيَّة بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل[2]: هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال: «**ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر**» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: «**اللهم هل بلغت**» مرتين[3] وكان يقول أيضا: «**أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقًا فما أصاب بعد رزقه فهو غلول**» [4] .

السرايا والأحداث حتى غزوة تبوك:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى الطائف ، وأمره بأن يهدم «ذي الكفين» صنم عمرو بن حممة الدوسي ، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف ، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهدم «ذي الكفين» وحرقه وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مددا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام [5] .

- سرية عيينة بن حصن الفزاري - في المحرم سنة ٩ هـ - إلى بني تميم، في خمسين فارسا:

لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري ، وسببها أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بشر بن سفيان إلى بني كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بني كعب فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك لم تعطونهم أموالكم

(١) ابن هشام – السيرة ٤/ ٣٢٨ .
(٢) منصور الحرابي ، الدولة العربية الإسلامية ، ص٤٣ .
(٣) مسلم ، باب محاسبة الإمام عماله رقم ١٨٣٢ ، صحيح السيرة ، ص ٥٧٩ .
(٤) التراتيب الإدارية للكتاني ، (١/ ٢٦٥) .
(٥) ابن هشام – السيرة ٢/ ٣٨٥ .

فاجتمعوا واشهروا السلاح ومنعوا بشرا من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعب نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة فقال لهم بنو تميم والله لا ندع يخرج بعير واحد ولما رأى بشر رضي الله تعالى عنه ذلك قدم المدينة وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فعند ذلك بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري فكان يسير الليل ويكمن النهار فهجم عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا فجاء بهم إلى المدينة فأمر بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم منهم عطارد ابن حاجب والزبرقان بن بدر والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الأهتم ورباح بن الحارث فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري فجاءوا إلى باب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالا يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستبطئوه فجاءوا من وراء الحجرات فنادوا بصوت جاف اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين يا محمد اخرج إلينا فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تأذى من صياحهم وأقام بلال رضي الله تعالى عنه الصلاة وتعلقوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلمونه فوقف معهم، قالوا له نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا**» ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى الظهر ثم جلس في صحن المسجد بعد أن قالوا: إن مدحنا لزين وإن شتمنا لشين نحن أكرم العرب فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبتم بل مدح الله عز وجل الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام**» ثم قالوا له: فائذن لخطيبنا وشاعرنا قال: «**أذنت فليقم**»، فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد مفاخراً، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحسن جوائزهم،

ورد عليهم نساءهم وأبناءهم[١].

سرية قطبة بن عامر رضي الله تعالى عنه إلى حي من خثعم بناحية تبَالَة. بالقرب من تُرَبَة في صفر سنة ٩ هـ :

بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطبه بن عامر في عشرين رجلا إلى حي من خثعم وأمره أن يشن الغارة عليهم فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها فأخذوا رجلا فسألوه فاستعجم عليهم أي سكت ولم يعلمهم بالأمر فجعل يصيح بالحاضر وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه كما تقدم ويحذرهم فضربوا عنقه ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى في الفريقين وساقوا النعم والشاء إلى المدينة [٢].

- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كِلاَب في ربيع الأول سنة٩هـ :

- في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة ارسل رسول الله جيشا إلى القرطاء عليهم الضحاك بن أبي بكر الكلابي وكان من الشجعان الأبطال ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط فلقوهم بالزج زج لاوة [٣] فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم وغنم أموالهم فلحق الأصيد أباه سلمة وسلمة على فرس له في غدير بالزج فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسبه وسب دينة فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه في الماء ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه [٤]

سرية علقمة بن مجزز:

ثم بلغ رسول الله أن جمعًا من الحبشة رآهم أهل جُدَّةَ في مراكبهم يريدون الإغارة عليهم، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزِّز في ثلاث مئة، فذهب حتى وصل جُدَّةَ، ونزل في المراكب ليدركهم، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك، فلما رأوا المسلمون يريدون هربوا، ولم يلقَ المسلمون كيدًا، فرجع علقمة بمن معه[٥].

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٣/ ٢١٦ - ٢٢١.
(٢) كتاب المغازي للواقدي، ٣/ ٩٨١، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ٤٤٦.
(٣) موضع بنجد.
(٤) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ٢/ ٢٢٩، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ٤٥٠، الطبقات الكبرى، ٢/ ١٦٢.
(٥) طبقات ابن سعد، ٢ / ١٦٣.

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر:

كان الرسول ﷺ قد أهدر دم كعب بن زهير في أعقاب هجوه لأخيه بجير بقصيدة عرّض فيها بالرسول ﷺ وبأبي بكر (رضي الله عنه)[1]، فكتب إليه أخوه محذرا وحثه علي القدوم وقد سمع كعب نصيحة أخيه بجير التي ضمنها قصيدته التي جاء فيها قوله:

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ::: فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

فأسلم وقدم على النبي ﷺ فأمنه، فأنشده قصيدته المشهورة «بانت سعاد» التي ألقاها في المسجد على مسامع النبي ﷺ وأصحابه وهي قصيدة طويلة نقل منها ابن هشام أكثر من خمسين بيتا فيها اعتذار وإقرار بالخطأ ومديح ودفاع عن الرسول ﷺ ودينه ورد فيها قوله:

نبئت أن رسول الله أوعدني ::: والعفو عند رسول الله مأمول
لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم ::: نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
مهلا هداك الذي أعطاك ::: أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

وقد سر النبي ﷺ ذلك، وحين بلغ قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ::: مهنّد من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ::: ببطن مكة لما أسلموا زولوا

أشار النبي ﷺ بكمه إلى الناس ليأتوا ويسمعوا منه، ورمى على كعب بردة كانت عليه[2] وهي التي صارت إلى الخلفاء[3]، قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة باسناد أرتضيه فالله أعلم[4].

ويقال إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل[5]، فقال:

---

(١) ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٠١، الذهبي - المغازي ص ٦١٨ - ٢١٦، البيهقي - دلائل النبوة ٥/ ٢٠٧.
(٢) ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٠١.
(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).

مـن سـرّه كـرمُ الحـياة فـلا يزل ::: في مقْـنَب مـن صـالحي الأنصار[1]
يتطهـرون يـرونه نُـسكا لهـم ::: إن الخـيار هـم بـنو الأخـيار
والقائـدين[4] الـناس عـن أديـانهم ::: كـسوالف الهـندي غـير قـصار[2]
والـبائعين نفوسـهم لنبـيهم ::: كالجمـر غـير كلـيلة الأبـصار
والناظـرين بـأعين محمـرة ::: للمـوت يـوم تعانـق وكـرار
المُكـرهين الـسَّمْهريَّ بـأذرع ::: بالمـشرفيِّ وبالقـنا الخطّـار[3]
ورثـوا المكـارم كابـراً عـن كابـر ::: بـدماءِ مـن علقـوا مـن الكفـار

إلى أن قال:

لـو يعلـم الأقـوام علمـيَ كلَّـه ::: فـيهم لـصدَّقني الـذي أمـاري[5]
قـوم إذا خَـوتِ الـنجوم فـإنهم ::: للطـارقين[6] الـنَّازلين مقـاري[7]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبدالله ابن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة[8].

سرية عبد الله بن حذافة السهمي:

عن علي بن أبي طالب قال: استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا من الأنصار يرجح أن يكون عبد الله بن حذافة السهمي[9]، على سرية وأمرهم أن يطيعوه،

---

(١) المنقب: الجماعة من الخيل. يريد به القوم على ظهور جيادهم.
(٢) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.
(٣) المشرفي: السيف، والقنا، الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.
(٤) القائدين: المانعين الناس.
(٥) أماري: أجادل.
(٦) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقون الذين يأتون بالليل.
(٧) ابن هشام – السيرة ٤/ ٢٠١.
(٨) معين السيرة، ص٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣.
(٩) البخاري – الصحيح (فتح الباري حديث ٤٥٨٤)، مسلم – الصحيح ٣/ ١٤٦٥، (الحديث ١٨٣٤)، أحمد – المسند ٣/ ٦٧، وانظر صحيح سنن ابن ماجه للألباني ٢/ ١٤٢ (حديث ٢٨٦٣) والحاكم – المستدرك ٣/ ٦٣٠ – ١.

فأغضبوه في شيء، فأمرهم فأوقدوا نارا، ثم ذكرهم بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بالسمع والطاعة له، وأمرهم أن يدخلوا النار التي أوقدوها، فامتنعوا وقالوا: «إنما فررنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النار» وحين علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمر قال **«لو دخلوها ما خرجوا منها، إنّما الطّاعة في المعروف»**[(١)]. وقد روى الشيخان أن الآية: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩] قد نزلت فيه عندما أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السرية[(٢)].

ويستفاد من هذا الموقف ما يأتي:

- إن الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للحكام لا تقل ضرراً وفساداً عما يضادها من الطيش والفوضى دون طاعة لحاكم أو أمير.

- أنه لا طاعة مطلقة إلا للرسل عليهم السلام فليس من المخلوقين من أمره حتم بإطلاق إلا الرسل عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: من نصب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضل في ذلك كأئمة الضلال الرافضة الإمامية؛ حيث جعلوا في كل وقت إماماً معصوماً تجب طاعته، فإنه لا معصوم بعد الرسول، ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء[(٣)].

- أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما في حدث سرية عبد الله بن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أمر أصحابه بأن يوقدوا ناراً ويدخلوها؛ فلما بلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً؛ إنما الطاعة في المعروف»**[(٤)].

ومما قاله ابن القيم في شأن تلك الحادثة: وإن كانوا مطيعين لولي الأمر فلم تدفعهم طاعتهم لولي الأمر معصيتهم لله ورسوله؛ لأنهم قد علموا أن من قتل

---

(١) البخاري – الصحيح (فتح الباري حديث ٧١٤٥)، مسلم – الصحيح ٣/ ١٤٦٩، كتاب الإمارة، (الحديث ١٨٤٠).

(٢) خالف ذلك الحافظ ابن كثير (التفسير ٢/ ٣٠٣) والطبري (التفسير ٨/ ٤٩٨ – ٩) وقالا إنها إنما نزلت في خالد بن الوليد، وقالا إن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، وذكر الواقدي في المغازي (٣/ ٩٨٣) وتابعه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٦٣) أنها نزلت في علقمة بن محرز حين بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سرية لرد الأحباش عن جدة.

(٣) الفتاوى، ١٩/ ٦٩.

(٤) رواه البخاري، ح/ ٧١٤٥.

نفسه فهو مستحق للوعيد؛ فإذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعة لولي الأمر، فكيف من عذّب مسلماً لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر.

وأيضاً فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبة الدنيوية؟[1].

سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طيء:

وفي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس - صنم لطيء - ليهدمه وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم - حاتم الطائي الذي ضرب المثل بجودة - مع الفجر فهدموا الفلس وخربوه، وملؤوا أيديهم من السَّبي والنَّعَم والشَّاء وفي السبي أخت عدي بن حاتم سَفَّانة بنت حاتم طيّئ. وهرب عدي إلى الشام[2].

ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سفَّانة من رسول الله أن يَمُنَّ عليها، فأجابها لأنه كان من سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكرم الكرام، فدعت له، وكان من دعائها: شكرتْكَ يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتكَ يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سببًا لردّها عليه.

وقيل: أنها قالت له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا محمد أرأيت أن تمن علي ولا تفضحني في قومي فإني بنت سيدهم إن أبي كان يطعم الطعام ويحفظ الجوار ويرعى الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العريان ولم يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال لها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هذه مكارم الاخلاق حقا ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه خلوا عنها فإن أباها يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق»**[3].

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سببًا في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان فرّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ٦٩.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٦٢٤.
(٣) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٣/ ٢٢٤.

من حديث مجيئه أن أخته توجهت إليه بالشام، وأخبرته بما عُوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعًا، فإن يكن نبيًّا فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكًا فأنت أنت. قال: والله، هذا هو الرأي[1].

فخرج حتى جاء المدينة، ولقي رسول الله، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "من الرجل؟" قال: عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته، وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تُكلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك. ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفًا فقدّمها إلى عدي، وقال: "اجلسْ على هذه". فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأعطاها له، وجلس هو على الأرض، ثم قال: «**يا عدي، أسلم، تسلم**» قالها ثلاثًا، فقال عدي: إني على دين، وكان نصرانيًّا. فقال له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أنا أعلم بدينك منك**» فقال عدي: أأنت أعلم بديني منّي؟ قال: «**نعم**». ثم عدّد له أشياء كان يفعلها اتباعًا لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء كأخذه الرباع وهو ربع الغنائم. ثم قال: «**يا عدي، إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقول: إنما اتَّبعه ضَعَفةُ الناس ومن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله، ليوشكَنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحِيْرة؟**» قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «**فوالله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم**». فأسلم عدي رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ وعاش حتى رأى كل ذلك[2].

وفي هذه القصة دروس وعبر كثيرة منها:

- كان عدي وهو مقبل على رسول الله يحمل في تصوره أنه أحد رجلين إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة شعر بخلق التواضع وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢ / ١٦٤، دلائل النبوة: ٥ / ٣٤٠ وما بعدها.

(٢) دلائل النبوة، ٥ / ٣٣٧ وما بعدها.

- كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موفقاً حينما انتقد عدياً في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يعلم من دينه مالا يعلمه الناس من حوله.

- لما ظهر للنبي أن عدياً قد أيقن بنبوته تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وماهم فيه من الفقر فأبان له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لايقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

- كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موفقاً في دعوته حيث كان خبيراً بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كل إنسان بما يلائم علمه وفكره وماينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ولذلك أثر في زعماء القبائل ودخل الناس في دين الله أفواجاً[1].

- وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحياته، ووجد هذه السمات أيضاً في لون حديثه وكلامه ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سبب في إسلامه وزيادة يقينه وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا ومظاهر الأبهة والترف التي كان قد أسبغها عليه قومه[2].

* * * * *

(١) التاريخ الإسلامي (٨/ ٥٨، ٨٦).
(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٣٢١.

الفصل الحادي عشر:
[غزوة تبوك: «جيش العسرة»]

غزوة تبوك[1] «جيش العسرة»:

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي**»[2].

وللغزوة اسم آخر، وهو: غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١١٧]. وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة[3].

وسميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه[4]، حتى أن الفاروق عمر بن الخطاب كان يقول: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن

---

(١) تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك، انظر: المجتمع الإسلامي للعمري، ص٢٢٩.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤) رقم ٧٠٦.

(٣) البخاري (٥/ ١٥٠) رقم ٤٤١٥.

(٤) الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص٨٣.

الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه[١].

كما تسمي الغزوة باسم الفاضحة، وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين[٢].

أسباب الغزوة:

هناك أسباب غير مباشرة لغزوة تبوك تتمثل في أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب، كما أمرهم بجهاد المشركين، وخلافا لما حصل مع المشركين الذين لا يقبل منهم إلا الدخول في الإسلام أو أن يأذنوا بقتال، فإن أهل الكتاب لهم حق الاحتفاظ بدينهم إذا ما اعترفوا بالسيادة لدولة الإسلام وأدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهكذا فقد كانت غزوة تبوك استجابة إيمانية لفريضة الجهاد حيث كان الروم أقرب الناس إلى ديار الإسلام ولذلك فإنهم أولى الناس بالدعوة.[٣] وقد قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣][٤]، فبعد القضاء على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلاء يهود من المدينة وغيرها، كان على المسلمين أن يقاتلوا أهل الكتاب من النصارى الذين كانوا يقطنون على المشارف الشمالية الغربية من جزيرة العرب، حيث كانت المنطقة التي توجه إليها الرسول في هذه الغزوة من ديار قضاعة وهي خاضعة لسلطان الإمبراطورية البيزنطية (الروم)[٥].

وهناك أسباب مباشرة دعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتعجيل والقيام بهذه

---

(١) مجمع الزوائد، ٦/ ١٩٤.

(٢) شرح المواهب اللدنية، ٣/ ٦٢، الصرع مع الصليبيين، ص٨٤.

(٣) يقول الحافظ ابن حجر «فعزم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة لقربهم إلى الإسلام وأهله» انظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٥.

(٤) الطبري، التفسير، ١١/ ٧١.

(٥) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١/ ٣٨٧.

الغزوة، وتمثلت في الأنباء التي وصلت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء[1] فأراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[2].

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان. ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة - ٩هـ - وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته، فظنوا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلقهن، فسري فيهم الهم والحزن والقلق. يقول عمر بن الخطاب - وهو يروي هذه القصة: وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان في عوالى المدينة، يتناوبان إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزواجه ...»[3].

وفي لفظ آخر - أنه قال -: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نَوْبَتِهِ، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نساءه ..[4].

وهذا يدل على خطورة الموقف، الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان، ويزيد ذلك تأكداً ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق - برغم هذا كله - طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق

---

(١) البلقاء: هي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمان.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/ ١٦٥.
(٣) البخاري، الفتح، ٨ (٤٩١٣).
(٤) البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته، ٦/ ١٨٠، رقم ٥١٩١.

ما كانوا يخفونه في صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله. ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشؤوا وكرة للدس والتآمر، في صورة مسجد، وهو مسجد الضِّرَار، أسسوه كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا ما يؤتي به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم في الخارج، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله، حتى قام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدل أن يصلي فيه(١).

الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد ومواقف المنافقين:

ثم دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرا لكثرة المشاركين فيها، وبعد المسافة التي كان على الجيش أن يقطعها، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله سبحانه وتعالى، فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة في توفير الأموال المطلوبة كل حسب مقدرته.

وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة استجابة لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**من جهّز جيش العسرة فله الجنّة**»(٢)، فيقول عبدالرحمن بن خُباب: شهدت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليَّ مائة بعير(٣) بأحلاسها(٤) وأقتابها(٥) في سبيل الله، ثم حضّ(٦) على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يارسول الله عليّ ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما**

(١) الرحيق المختوم، ص٤١٩.
(٢) البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عثمان (٤/ ٢٤٣).
(٣) البعير: ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.
(٤) الحِلْسُ، بالكسْر: كُلُّ شيءٍ وَلِيَ ظهرَ البعيرِ والدَّابَّةِ تحتَ الرَّحْلِ والسَّرْجِ.
(٥) القتب: هو الرحل الذي يوضع حول سنام البعير تحت الراكب هو بمنزلةِ المِرْشَحَةِ تكون تحتَ اللِّبْدِ. انظر، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٥/ ٥٤٦.
(٦) الحض: الحثُّ بقوة.

عمل بعد هذه»[(١)] .

وعن عبدالرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش العسرة، قال: فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقلبها بيده ويقول: **«ماضرّ ابن عفان ماعمل بعد اليوم يرددها مراراً»**[(٢)] .

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما أبقيت لأهلك؟»** قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ماعنده، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما أبقيت لأهلك؟»** قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً[(٣)] .

وروي أن عبدالرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة[(٤)] .

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(٥)] .

وفي مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير مايفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرساً كريماً[(٦)] .

ولا شك في أن عددا آخر من الصحابة قد ساهموا في تغطية بقية النفقات كل على قدر طاقته، والدليل على ذلك أن فقراء المسلمين قدموا ما قدروا عليه من النفقة، رغم بساطته وقلته، على استحياء منهم فقد جاء أحدهم بصاع من تمر،

---

(١) سنن الترمذي، مناقب (٥/ ٦٢٥ - ٦٢٦) رقم ٣٧٠٠ .
(٢) سنن الترمذي، المناقب (٥/ ٦٢٦) رقم ٣٧٠٢؛ مسند أحمد (٥/ ٦٣) .
(٣) سنن أبي داود، الزكاة (٢/ ٣١٢ - ٣١٣) رقم ١٦٧٨ .
(٤) السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦ .
(٥) مغازي الواقدي، ٣/ ٣٩١ .
(٦) السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، ص١٦١ .

وجاء آخر بنصف صاع منه، مما عرضهم لسخرية ولمز المنافقين، فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقالوا: ما أعطى بن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء [١].

ولقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد فهذا عُلَبَة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابتني بها في جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أين المتصدق هذه الليلة**» فلم يقم أحد، ثم قال: «**أين المتصدق فليقم**» فقام إليه فاخبره، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبشر، فو الذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة**» [٢].

فهذه إشارات مهمة.. فالفاقة ليست عُذراً للتخلّف عن ركب السائرين، ولا القعود عن مشاركة العاملين، بل الاحتجاج بالفقر والتعذّر به عن خدمة هذا الدين ذنب يُضاف إلى ذنوب صاحب العُذر.

وفي هذه القصة وماجرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصرة دين الله وبثّ دعوته في الآفاق وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عيشة عملية [٣].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدثنا عن قصته: ... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت - وقد خرج أول صحابة رسول الله - فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله [٤] عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا [٥]، فأصابني قلائص [٦]،

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٦ - ٦١٧.
(٢) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٣/ ٤٦٣، العمري، المجتمع المدني، ص٢٣٥.
(٣) صادق عرجون، محمد رسول الله، ٤/ ٤٤٣.
(٤) عقبة: أي بالتعاقب.
(٥) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٦) قلائص: إبل.

فسقتهن حتى أتيته، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات ثم قال: سقهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا[1].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية، أجراً وثواباً يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليتعاقب وواثلة على راحلته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متمم بعضها لبعضها الآخر[2].

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد فلم يجد مايحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل[3].

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[4] وهم الذين عناهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»[5].

---

(١) أبي داود في سننه، ٣/ ٥٦، حديث رقم ٢٦٧٦، الطبراني في معجمه الكبير، ٢٢/ ٨١، حديث رقم ١٩٦.
(٢) معين السيرة، ص٤٥٣.
(٣) المجتمع المدني، ص٢٣٦.
(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٨.
(٥) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤٣٣.

موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، ظهر المنافقون بوجههم الحقيقي، فلما أرسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى القبائل يستنفرها بالخروج مع الجيش الإسلامي من المدينة إلى تبوك وقد أشار القرآن الكريم إلى إعلان النفير فقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وكان النفير المعلن أمرا واجبا على الجميع تنفيذه والالتزام به؛ فقد طالبهم القرآن الكريم أن ينفروا شبابا وشيوخا أغنياء وفقراء وأن يكون جهادهم جميعا بالأموال والأنفس، فقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ الله ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

ولما أن أمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم كان ذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بالله لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ والله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢] (١)، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها ويخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم» (٢).

ولقد نجم النفاق في المدينة واستعلن بشأن هذه الغزوة، «وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكّا في الحق، وإرجافا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٣)، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٢].

(١) الطبري - تفسير ١٤/ ٢٧٢.
(٢) ابن هشام - السيرة ٣/ ٥١٦.
(٣) ابن هشام - السيرة ٣/ ٥١٧.

وحين عرض النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على الجد بن قيس أحد بني سلمة المشاركة في جهاد الروم، اعتذر عن ذلك تحت ستار الخوف من الفتنة بسبب شدة ولعه بالنساء وقال: «وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقال: «**قد أذنت لك**»، وفيه نزلت الآية: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٤٩].

وكما اعتذر الجد بن قيس كذبا ونفاقا، فقد بادر عدد من المنافقين إلى تقديم أعذار كاذبة للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لكي يأذن لهم بالتخلف عن الغزوة، ولذلك نزلت الآية: ﴿**عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ**﴾ [التوبة: ٤٣].

لم يقتصر النفاق على من نافق من أهل المدينة بل إنه امتد إلى البادية حولها، قال تعالى: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ**﴾ [التوبة: ١٠١].

وحيث إن المنافقين من الأعراب، وهم أقسى قلوبا وأكثر جفوة وأقل علما بالأحكام والسنن، فإنهم أشد كفرا ونفاقا من منافقي أهل المدينة، كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿**الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ**﴾ [التوبة: ٩٧] (١).

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين ولم يعد هناك أي مجال للتستّر على المنافقين أو مجاملتهم بل أصبحت مجابهتهم أمرا ملحا بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى والرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والذي نزل به القرآن الكريم، بل أصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبا شرعيا. فحين بلغ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن أعدادا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الغزوة، أرسل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم (٢).

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود،

(١) الطبري - تفسير ١١/ ٣.
(٢) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٢١٧ - ٢١٨.

فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات وابتكار أساليب التثبيط واختلاف الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة وأوكارها حازماً حاسماً، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه ونفذ بحزم وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسؤول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكز الإشاعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها[1].

وحين ابتنى المنافقون مسجدا لهم ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين وتفريقا لاجتماعهم ووحدتهم وطلبوا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصلي فيه، نهاه الله تعالى عن ذلك وسماه (مسجدا ضرارا) فقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨][2].

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله تعالى[3].

وهكذا فقد تخلف عن هذه الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهل الأعذار، وثلاثة من الصحابة تخلفوا دون أن يكون لهم عذر[4].

إعلان النفير وتعبئة الجيش:

سارع المؤمنون إلى الالتحاق بهذه الغزوة التي كشف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وجهتها كما أسلفنا لكي يستعدوا لذلك، ولم يهابوا المشاق التي تنتظرهم بسبب بعد المسافة والحر الشديد وقلة المئونة، كما لم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا ورغد العيش والأمن الذي يوفره لهم البقاء في المدينة.

---

(١) الصراع مع الصلبيين، ص١٢١.
(٢) الطبري، التفسير، ١٤/ ٤٦٨ - ٤٧٥.
(٣) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٨.
(٤) وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وسوف يرد تفصيل أمرهم فيما بعد.

ولما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه من المدينة ضرب معسكره بالجرف عند ثنية الوداع لكي يتلاحق أفراد الجيش به [1]، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري [2]، وخلف على أهله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث أمره بالإقامة فيهم. وقد أرجف به المنافقون وقالوا: «ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه»، ليشيعوا الفرقة والفتنة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاصة أصحابه وأهل بيته، وقد أحزن ذلك علياً وأدخل الغم على نفسه لما بلغه ذلك فأخذ عليّ سلاحه وخرج من المدينة حتى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجرف، فأخبره بما قاله المنافقون عنه [3]، وقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟، وقد كذّب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقولة المنافقين وقال لعلي: **«ولكنّي خلّفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنّه لا نبيّ بعدي»** [4] فرجع علي إلى المدينة[5].

وكان استخلاف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته، فكان استخلافه في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافاً عامًّا، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول؛ لأن خلافته كانت في أهله خاصة[6].

فلما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب عسكره ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أبي ومن معه على جده عسكره أسفل منه، نحو ذباب[7]، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله تخلف عنه عبد الله بن أبي

---

(١) البخاري، الصحيح، الفتح حديث ٤٤١٦، مسلم، الصحيح، ١٨٧٠ - ١٨٧١، حديث ٢٤٠٤.

(٢) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٩.

(٣) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٤) وردت الحادثة، في البخاري - الصحيح ٥/ ٧، وفي مواضع أخرى منه، كما أوردها مسلم في صحيحه، ٧/ ١٢٠ - ١٢١ مع بعض التعديل لبعض المفردات، فقد جاء فيه: «أما ترضى» بدلا من «أفلا»، وأسقط اسم علي من وسط الحديث. وانظر: أحمد، فضائل الصحابة.

(٥) زاد المعاد، ٣/ ٥٣٠، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٩٠.

(٦) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٦٦، ٤٦٧.

(٧) جبل قرب المدينة.

فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب[1].

وأراد أن يوهن قلوب المؤمنين فرجع قائلا: "يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟ وقال: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال"[2].

وهذا الفعل ليس بغريب عليهم، فقد سبق أن فعلوه في غزوة أحد كما هو معلوم.

خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طريق التصميم والجهاد وحوله المسلمون في ثلاثين ألف جندي[3]، وكان معهم عشرة آلاف فرس[4]، وكان لواء الجيش الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وراية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء[5]، واستعمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف في أصحابه على العسكر[6]، وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك[7].

وقد سلك الجيش طريق الشام وفي الطريق إلى تبوك لحق بالجيش أبو خيثمة مالك بن قيس وكان من الأنصار بعد أن كان تخلف بالمدينة[8]، وكان من قصته أنه رجع بعد أن سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيامًا إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[9] قد رشت كل واحدة منهما عريشها،

---

(١) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٥١٩.
(٢) انظر: المقريزي، إمتاع الأسماع، ١ / ٤٥٠، ابن هشام، السيرة النبوية، ٢ / ٥٢٥.
(٣) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٨/ ١١٣، مسلم، الصحيح، ٨/ ١١٢ (حديث ٢٧٦٩)، ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ١٨! ، وما ورد لا يتعارض مع ما أورده ابن إسحاق والواقدي.
(٤) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٦، برواية زيد بن ثابت، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٦.
(٥) المغازي، ٣/٩٩٦، الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/١٦٦.
(٦) سبل الهدى والرشاد، ٥/٦٥٢، الصراع مع الصليبيين، ص٩٩.
(٧) إمتاع الأسماع، ١/٤٥١، شرح المواهب اللدنية، ٣/ ٧٢.
(٨) الحاكم، المستدرك، ٣/ ٥٠ - ٥١، والذهبي، ميزان، ١/ ٣٠٦، ابن كثير، البداية، ٥/ ١٠ - ١١.
(٩) حائطه: أي بستانه.

وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الضح[1] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه[2] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعل حتى إذا دنا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كن أبا خيثمة**»، فقالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولى لك**[3] **يا أبا خيثمة**»، ثم أخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا، ودعا له بخير[4].

لقد أبصر أبو خيثمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعين العقل وتذكر وتيقظ ضميره وحاسب نفسه، عندما رأى ما أعدت له زوجتاه من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة، وتذكر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فشعر بالذنب وتيقظ ضميره فخرج يقطع الفيافي والقفار حتى وصل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تبوك وحصل على رضاه وسروره[5].

ولما وصل أبو خيثمة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقر بذنبه، عاتبه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاتبة تحمل في طياتها اللوم والتأنيب والتهديد، إذ قال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولى لك يا أبا خيثمة**» فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهلكة.

---

(١) الضح: أي في الشمس.
(٢) ناضحه: أي جمله.
(٣) أجدر بك.
(٤) الحاكم، المستدرك، ٣/ ٥٠ - ٥١، والذهبي، ميزان، ١/ ٣٠٦، ابن كثير، البداية، ٥/ ١٠ - ١١، البداية والنهاية، ٥/ ٨.
(٥) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١١١، ١١٢.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوي كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربين.

ولقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على علم تام بمعادن أصابه وطبائعهم يدل ذلك قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كن أبا خيثمة**»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو خيثمة، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم معادن رجاله، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب المنيب إلى ربه إذ زلت قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعادنهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم ويسيرون معه، ويجاهدون تحت رايته[1].

كما لحق به أبوذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو لم يتخلف وإنما أبطأ به بعيره، مما دعاه إلى أن يأخذ متاعه فيحمله على ظهره، ويتبع أثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماشيا [2].

وذكر ابن إسحاق قصته فقال: ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «**دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره. فقال: «**دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**» وتلوَّم[3] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كن أبا ذر**»[4] فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو ذر، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رحم الله**

---

(١) الصراع مع الصليبيين، ص١٣٣.
(٢) الواقدي، ٣/ ١٠٠٨ - ١٠١٥.
(٣) تلوم على بعيره: تمهل.
(٤) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء؛ أي أرجو الله أن تكون أبا ذر.

أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[1]، ومضى الزمان، وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه[2].

الوصول إلى تبوك:

وصل المسلمون إلى تبوك، ولم يجدوا أثرًا للحشود الرومانية ولا القبائل العربية، وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقا في الدخول مع المسلمين في قتال، حتى القبائل العربية المتنصرة آثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية[3].

وعندما انتهى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك على رأس جيش العسرة، فلم يلق كيداً، وكعادته - عَلَيْهِ السَّلَامُ - في حربه مع أعدائه، أراد أن يستثمر حملته تلك التي نجحت في بث الرعب في نفوس الروم وحلفائهم من العرب المتنصرة، وذلك لإخضاع المنطقة ومن فيها من القبائل العربيّة، والدويلات الموالية للروم التي باتت تشكل حرباً وتهديداً للمسلمين بتحالفها السياسي والعسكري مع البيزنطيين، الذي أثمر بوقوفهم جنباً إلى جنب ضد المسلمين في مؤتة.

لذلك جهّز النّبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشاً من الفرسان، أسند قيادته لفارس مغوار حقّق لتوه نجاحاً منقطع النظير في معركة مؤتة التي دارت أحداثها في محيط المنطقة، ومع نفس العدوّ.

ذلكم هو سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصدرت الأوامر النّبويّة العليا لقائد الجيش بأن يتوجّه تلقاء دومة الجندل. تلك الدويلة الصّغيرة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٧٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ١٧٨.

(٣) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ص ١٤٥ بإسناد صحيح.

التي كانت تتمتّع باستقلال ذاتي بوسط بلاد كلب، ويملكها الأكيدر بن عبد الملك الكندي الذي كان نصرانياً يدين بالولاء للدولة البيزنطية[1].

ولما علم خالد بن الوليد بقيادته السرية إلى دومة الجندل سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله! كيف بدومة الجندل وفيها أكيدر، وإنما نأتيها في عصابة[2] من المسلمين"[3].

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه منظر العين في ليلةٍ مقمرةٍ صافيةٍ"[4].

يرسل الله - تبارك وتعالى - البقر إلى حصن الأكيدر لتخرجه من بين أهله وقومه، وعزه ومنعته، إلى خالد وأصحابه، لتتحقّق المعجزة النّبويّة، ويتحقق صدق الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فبينما خالد وأصحابه في منْزلهم ليلاً، إذ أقبلت البقر حتّى جعلت تحتك[5] بباب الحصن، وأكيدر يشرب ويتغنى في حصنه بين امرأتيه، فاطّلعت إحدى امرأتيه[6] فرأت البقر تحتك بالباب والحائط، فقالت امرأته: لم أر كالليلة في اللحم. قال: وما ذاك؟ فقالت: هذه البقر تحتك بالباب والحائط[7].

هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك مثل هذا؟ قال: لا أحد. فنَزل فأمرَ بفرسه فأُسْرِجَ له وركب معه نفرٌ من أهل بيته فيهم أخٌ له، يُقال له: حسَّان، فخرجوا بمطاردهم[8]. ليصيد البقر الذي جاء بنفسه إليهم هذه الليلة خلاف العادة، ولم يَدُر بخَلَد الأكيدر وامرأته، ومَن ركب معه من أهله أنّ ذلك قدراً إلهياً، وأمراً عُلوياً، ومُعجزة نبويّة أكرم الله بها نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمدّه بها تأييداً له وتمكيناً على أعدائه، فلمّا فصلوا من الحصن، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرّك"[9]. فلمّا التقوا: شدّت عليهم خيل خالد بن

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٤٣٨.
(٢) عصابة: جماعة ليست بالكثيرة العدد.
(٣) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٤) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٥) احتك به، وحك نفسه عليه.
(٦) ذكر الواقدي، مغازي ٣/ ١٠٢٥، أنّ اسمها الرباب بنت أنيف بن عامر بن كندة.
(٧) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٨) جمع مطرد، وهو رمح قصير يُطعَن به. وقيل: يطرد به الوحش.، اللسان ٤/ ٢٥٧.
(٩) الواقدي، مغازي ٣/١٠٢٦.

الوليد، فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان، وقاتل حتّى قُتِلَ وهرب مَن كان معهما، فدخل الحصن"[1]، "وقال خالد لأكيدر: أرأيتك إن أجرتك تفتح لي دومة؟ قال: نعم. فانطلق حتّى دنا منها"[2]. "ونادى أكيدر أهله: افتحوا باب الحصن، فرأوا ذلك، فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر"[3] "فلمّا رأى ذلك قال خالد: أيها الرجل! خلّني فلك الله لأفتحنّها لك، إنّ أخي لا يفتحها لي ما علم أنّي في وثاقك. فأرسله خالد، ففتحها له، فلمّا دخل أوثق أخاه وفتحها لخالد. ثُمَّ قال: اصنع ما شئت. فدخل خالد وأصحابه، فذكر خالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والذي أمره، فقال له أكيدر: والله ما رأيتها قط جاءتنا إلاّ البارحة - يريد البقر - ولقد كنت أضمّر لها[4]، إذا أردت أخذها فأركب لها اليوم واليومين، ولكن هذا القَدَر. ثُمَّ قال: يا خالد! إن شئت حكّمتك، وإن شئت حكّمتني. فقال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت! فأعطاهم ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح"[5]. "ثُمَّ إنّ خالداً قدم بالأكيدر على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، وخلّى سبيله، فرجع إلى قريته"[6]. ثُمّ إنّ أكيدر دومة الجندل أهدى لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حلّة حرير"[7] فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها. فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة، خير منها وألين»[8].

ويستفاد من هذه السرية ما يأتي:

- الحكمة من اختيار خالد بن الوليد لقيادة هذه السرية:

يتبيّن من إسناد النّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قيادة هذه السرية لسيف الله خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، مدى ما كان يتمتع به عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من حنكة عسكرية فذّة، وذكاءٍ

(١) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٦٦.
(٢) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٣) الواقدي، مغازي، ٣/ ١٠٢٥، وابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٦.
(٤) ضمّر الخيل تضميراً، علّفها القوت بعد السّمَن. (القاموس: الضمر).
(٥) البيهقي، دلائل ٥/ ٢٥٢.
(٦) البيهقي، دلائل٥/ ٢٥٠.
(٧) مسلم، الصحيح٥/ ٦٩.
(٨) أخرجه مسلم، الصحيح ٥/ ٦٨، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٤٤٣.

منقطع النظير ، فخالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو القائد المظَفَّر ، وبطل مؤتة المُتَوَّج ، ولا بُدَّ أنّه أصبح معروفاً معرفة تامّة لدى القبائل العربية المنتصرة التي واجهته في مؤتة ، وعرفت مدى ما كان يتمتّع به مِن ذكاءٍ قياديّ ، وحنكةٍ عسكريةٍ ، فأراد النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستثمر هذا النجاح لخالد ضدَّهم ، ويرميهم به ليتحصَّل على أفضل النتائج المرجوة بأقل قدر ممكنٍ من الخسائر ، وتلك استراتيجية الرسول القائد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائماً مع أعدائه .

-المعجزة النبوية :

قال الأكيدر لخالد: "والله ما رأيتها قط جاءتنا إلاّ البارحة - يريد البقر - ولقد كنت أضمّر لها إذا أردت أخذها ، فأركب لها اليوم واليومين".

ويحقُّ للأكيدر وأهله أن يتعجّبوا مِن فِعل البَقَر تلك الليلة ، لأنّه أمر خلاف العادة ، وهكذا المعجزات النّبويّة دائماً تكون خارقة للعادات ، ولقد كانت تلك قدرة إلهية ، ومعجزة نبويّة ، هيأها الله - تبارك وتعالى - لنبيّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأييداً له وتمكيناً على أعدائه ، فما كانت البقر لتأتي لحتفها بنفسها لولا أنّ خالقها أمرها بذلك ، وساقها بلا سائق إلى ذلك المصير ، فالبقر وإن كانت حيواناً لا يعقل ، ولكنها بفطرتها التي فطرها الله عليها تُدرك مكامن الخطر ومدارك الهلكة ، فتبتعد عنها كثيراً ، وهو الأمر الذي تعوّده الأكيدر عنها حيث كان يضمّر لها الخيل ، ويستعد لها ثُمّ يركب في طلبها اليوم واليومين حتّى يجدها في مكامنها البعيدة عن الخطر ، ولكن قدر الله عز وجل ، وقدرته العلية ، وأمره الذي لا يُردّ ، سخّر ذلك البقر لنبيّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله في خدمة أهدافه وطوّعه جندياً مجنّداً من جنوده ، يستدرج به أعداءه بعيداً عن دار عِزه وسلطانه ليقع فريسة سهلة المنال في يد الجندي الآخر خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، الذي خرج في طاعة قائده وإمامه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومنطلقاً دونما جدال ولا مناقشة ، مِمَّا يدل على ما كان يتمتع به سلفنا الصالح - رضي الله تعالى عنهم - مِنَ الإيمان المُطلق بنبيّهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتصديقه فيما يقول ، وطاعتهم لولي الأمر ، وتأدّبهم الجم مع مقامه الشريف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، ومعرفتهم حقّ الإمام من الطاعة فيما يأمر بمعروف .

- لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا - :

قال النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه حينما رآهم يتعجّبون من الجُبَّة التي أهداها له الأكيدر: "أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا". هذه الحادثة على بساطتها توضح لنا أمرين على درجةٍ كبيرةٍ

من الأهمية:

الأمر الأوّل: معرفة مدى ما كان عليه الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - من البساطة، والتواضع، والزهد، وترك بهرج الدنيا، ربّاهم على ذلك المربِّي الأوّل، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي مات وهو لم يشبع من خُبز الشعير بأبي هو وأُمي، وهو الذي لو أراد لَحِيزَت له الدُّنيا بأسرها.

الأمر الثّاني: معرفة مدى تفاهة متاع الدنيا وملذاتها، مقارنةً بنعيم الآخرة، وما أعدّه الله - تبارك وتعالى - للمتّقين في جنّات النعيم، فحُلَّة الديباج المنسوجة بالذهب لا تساوي شيئاً إذا قيست بمناديل الجنّة التي هي ليست من اللباس، بل دونه، فما بالك بلباسها؟!.

وهكذا كان المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُربِّي أصحابه مُوَضحاً لهم أنّ الدُّنيا بملذّاتها ونعيمها، وبما فيها من ذهبٍ وفضّةٍ وحريرٍ وديباجٍ، لا تساوي شيئاً يُذكر بِمَا أعدّه الله تبارك وتعالى لعباده في جنّاتٍ فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر.

وحينما يعرف الإنسان المؤمن التقيّ هذه الحقيقة الناصعة، فإنّه يكون أدعى لترك ما في الدنيا من ملذّات وشهوات، وأقرب للزهد فيها، والتّطلّع لِما ادّخره الله عز وجل لعباده المتّقين بالعمل الصالح، والجدّ في الطاعة، والتّقى والعفاف: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. [المطفّفين: ٢٦].

وقد آتت هذه التربية العظيمة أكلها وأينعت ثمارها مع سلفنا الصالح - رضي الله تعالى عنهم - وهكذا رأيناهم حينما فتحت لهم الدّنيا، وانساقت إليهم بحذافيرها، لم يغرّهم بهرجها، ولم ينخدعوا بنعيمها، ولم ينساقوا وراءها، بل كانوا أزهد الناس فيها، فملكوها ولم تملكهم، وساقوها بزمام التقى، والعفاف، وغنى النفس، والورع، والزهد، ولم تسقهم بزمام الشهوات، والملذّات، والنعيم الزائل، والمعاصي الموبقة، روّضوها لطاعة الله وجعلوها دار عبور وممرّ، وطريقاً إلى الجنّة، ولم تروّضهم لشهواتها وملذاتها، فتجعلها طريقاً لهم إلى النار، ولم يتّخذوها دار بقاء وقرار.

إنّه عندما عرف السلف حقيقة هذه الدّنيا الفانية، دانت لهم فدانت لهم أممها من أقطارها، وعندما ضيّع الخلف هذه المفاهيم الصحيحة، ولم يعرفوا الدّنيا على حقيقتها، دانوا لها، فتداعت عليهم أُممها من أقطارها: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ . [الرعد: ١١] [(١)] .

وفي تبوك وصلت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدية من ملك أيلة فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي عبارة عن بغلة بيضاء ، وكساء من البرد ، وكان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان ، عاملاً لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام ، أسلم بعد ما رأي من جلاد المسلمين وشجاعتهم ، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨ هـ ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولاً بإسلامه ، وأهدي له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه ، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له: عفراء ، وضربوا عنقه [(٢)] .

وتشير بعض الروايات إلى حصول مراسلة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في تبوك - وبين هرقل ملك الروم ، وأن الأخير أرسل رسولا من قبيلة تنوخ العربية ليتعرف له على بعض علامات النبوة عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٣)] .

وعقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح [(٤)] ،

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٤٥٢ - ٤٥٥ .

(٢) بن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير ، ١/ ٢٧٤ ، الروض الأنف ، ٤/ ٣٧٨ ، البيهقي ، دلائل٦/ ٩ .

(٣) وكان دحية الكلبي قد حمل رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل في أول السنة السابعة من الهجرة ، فإذا صح هذا الخبر ، فإن إرسال دحية الكلبي يكون للمرة الثانية ، وقد أورد الإمام أحمد تفصيلات عن وصول الرجل التنوخي إلى تبوك وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض عليه الإسلام فامتنع بحجة أنه مكلف برسالة هرقل ، ونقل التنوخي عن النبي ذكره لكتبه التي أرسلها إلى الملوك وكيف رد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سؤال هرقل عن رسالته قال: «تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النار؟» ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سبحان اللّه أين اللّيل إذا جاء النّهار؟» ، كما ذكر الرجل التنوخي اعتذار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنهم في سفر وإلّا لمنحه جائزة ، وأن عثمان ابن عفان قدم الجائزة نيابة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي «حلة صفورية» . ويذكر التنوخي بعد ذلك بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أنزله ضيفا على أحد أصحابه من الأنصار ، فلما قام من المجلس ناداه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلما وصل التنوخي إليه حل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبوته عن ظهره وقال: «ههنا إمض كما أمرت له» ، قال التنوخي: فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة . أحمد ، المسند ، ٣/ ٤٤٢ .

(٤) المغازي ، ٣/ ١٠٣٢ . وجرباء: بلدة بالشام تلقاء السراة . وأذرح: مدينة بالشام ، قيل هي فلسطين ، قال في القاموس: بجنب جربا .

ولأهـل مقنا[١]، يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام، وتخضع لسلطان المسلمين، لقد انفرد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإمارات الواقعة في شمـال الجزيـرة وعقـد معهـا معاهـدات وبـذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الـشمالية[٢]، وبهذه المعاهدات قصّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجنحة الروم، فقد كانت هذه القبائل تابعـة للـروم ودخلـوا في النـصرانية، فإقـدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعتبر قصٌّ لهذه الأجنحة، وبتر لحبال تبعيتهم للروم، وتحريـر لهـا من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تـساقط فـتاتهم شـيئاً يعيـشون بـه، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة وقد وفوا بعهـد الـصلح والتـزموا أداء الجـزية، فأعطـوها عن يد وهم صاغرون[٣]، وهذه سياسـة نـبوية حكـيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقـد اسـتطاع أن يفـصل بين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخـضع لحكـم المسلمين وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمـة الفـتح الإسـلامي في عهـدهم فمـنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[٤].

في طريق العودة إلى المدينة:

ومـر المـسلمون في طـريق عـودتهم مـن تـبوك بالحجـر وقـد ثـبت أن الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهـى المـسلمين عـن دخـول مـساكن ثمـود خـشية أن يـصيبهم ما أصابهم، فقد تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فـنادى في الـناس: الـصلاة جامعـة، فقـال: "مـا تدخلون على قوم غـضب الله علـيهم، فـناداه رجـل مـنهم: نعجب منهم يا رسول الله، قال: **«أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»**[٥].

---

(١) مغازي الواقدي، ١/ ٤١٥، الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص١١٩ – ١٢٤. والمقنا: قرب أيلة. انظر: معجم البلدان، ٨/ ١٢٨.
(٢) الصراع مع الصلبيين، ص٢١٧.
(٣) محمد صادق عرجون، ٤/ ٤٧٩.
(٤) الصراع مع الصلبيين، ص٢٢١.
(٥) البخاري، الصحيح، فتح الباري ٨/ ١٢٥، أحمد – المسند ٤/ ٢٣١.

كما ورد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى الجيش عن شرب ماء الحجر أو الوضوء منه وأن يعلفوا إبلهم بما عجنوه بماء بئر الحجر فقد روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الناس نزلوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يهريقوا ما استقوا من بئارها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[1] وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم ثم زجر[2] فأسرع حتى خلفها**»[3].

وهذا منهج نبوي كريم في توجيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وأن لا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء، لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقاً للتأثر بعذاب الله، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم، فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون، من نقمة الله وغضبه.

إن الله عز وجل ماقص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذها منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى - سبحانه - أبلغ. ولهذا تسجى النبي صلوات الله وسلامه عليه - بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته[4] وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم**»[5].

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣٣٧٩.
(٢) زجر: أي زجر ناقته ومعناه ساقها سوقاً شديداً حتى خلفها أي جاوز المساكن.
(٣) البخاري، كتاب الأنبياء رقم ٣٣٨١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١١.
(٤) صور وعبرمن الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٨٠.
(٥) البخاري، كتاب الأنبياء رقم ٣٣٨١.

وحين اشتكى المسلمون ما أصاب إبلهم من التعب والجهد دعا الله سبحانه وتعالى قائلا: «**اللّهمّ احمل عليها في سبيلك إنّك تحمل على القويّ والضّعيف، وعلى الرطب واليابس، في البرّ والبحر**» ، فاستجاب الله تعالى - جل شأنه - لدعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنشطت الإبل حتى وصلت بهم المدينة دون أن يشتكي أحد منها [(١)] .

وحاول جماعة من المنافقين المشاركين في الجيش وهم ملثمون حتى لا يعرفوا أن ينفروا دابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتطرحه من رأس عقبة في الطريق مع عتمة الليل ، فعلم بمؤامرتهم وفطن لهم وأمر بإبعادهم بعد أن عصمه الله تعالى من أذاهم [(٢)] ، فعن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك إلى المدينة هم جماعة من المنافقين بالفتك به وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق ، فأخبر بخبرهم فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا ، وأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه ، عمار آخذ بزمام الناقة ، وحذيفة يسوقها ، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم ، فغضب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبصر حذيفة فرجع إليهم ومعه محجن ، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه ، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس ، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة: «**هل عرفت هؤلاء القوم؟**» قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم ، ثم قال: «**علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟**» قالا: لا ، فأخبرهما بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم لهما واستكتمهما ذلك؟ فقالا يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: «**أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**» قال ابن إسحاق: وفيهم أنزل الله عز وجل: ﴿**وهموا بما لم ينالوا**﴾ [التوبة: ٧٤] [(٣)] .

ولما أشرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة قال هذه طابة أسكننيها ربي تنفى خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد ، ولما رأى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبل أحد

---

(١) أحمد - المسند ٦/ ٢٠ ، موارد الظمآن في زوائد ابن حبّان ص/ ٤١٨ ، بإسناد حسن .
(٢) أحمد ، المسند ، ٥/ ٣٩٠ - ٩١ ، البيهقي ، السنن ، ٩/ ٣٢ - ٣ .
(٣) أحمد ، المسند ، ٥/ ٣٩٠ - ٩١ ، البيهقي ، دلائله ، ٥ / ٢٥٦ - ٢٥٨ ، البداية والنهاية ، ٥ / ٢٥ .

قال: «**هذا أحد جبل يحبنا ونحبه**» ، ثم قال: «**إن خير دور الأنصار دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعد، وفي كل دور الأنصار خير**» ، ثم لحق سعد بن عبادة بالجيش ، فقال له أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير دور الأنصار فجعلنا آخرها دارا ، فأدرك سعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: يا رسول الله ، خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرها ، فقال: «**أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار**» (١) .

ولما اقترب الجيش الإسلامي من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لاستقباله (٢) ، ومعهم النساء والولائد وهم يرددون:

طلع البدر علينا ::: من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ::: ما دعا لله داع(٣)

وكان أول ما فعله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند دخوله المدينة أن صلّى في مسجده الشريف ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى(٤) .

حرق مسجد الضرار:

وقد أصبح الموقف جديًا من المنافقين بعد الرجوع من غزوة تبوك ، فقد امتنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة في مسجد الضرار الذي كانوا بنوه قبل الغزوة ، وأمر بتحريقه ، وأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إلا الْحُسْنَى والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] (٥) .

وقصة المسجد الضرار أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ

---

(١) رواه والبخاري في الصحيح: في الزكاة ، الحديث ، ١٤٨١ ، ومسلم في الصحيح ، في كتاب الفضائل ، الحديث ١١ ، فتح الباري ، ٣ / ٣٤٣ . البيهقي ، دلائل ٥/ ٣٥٢ .
(٢) البخاري ، الصحيح ، ٦/ ٨ ، كتاب المغازي .
(٣) ابن حجر ، فتح الباري ، ٤٤٢٦ - ٤٤٢٧ .
(٤) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري - الحديث ٤٤١٨ ، مسلم ، ٤/ ٢١٢٣ ، حديث ، ٢٧٦٩ .
(٥) الطبري ، التفسير ، ١١/ ٢٣ - ٢٤ ، ابن هشام ، السيرة ، ٣/ ٥٣٠ .

علـم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قـدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسـلام كلمـة عالـية وأظهـرهـم الله يـوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعـداوة وظاهـر بهـا وخـرج فـاراً إلى كفـار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حـرب رسـول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمـر المـسلمين ماكـان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسـق قـد حفـر حفائـر فـيما بـين الـصفين فوقـع في إحـداهن رسـول الله ﷺ وأصـيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسـه صـلوات الله وسـلامه علـيه، وتقـدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنـصار فخاطـبهم، واستمالهم إلى نـصره وموافقـته، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعـم الله بـك عيـنا - يـا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قـبل فـراره وقـرأ علـيه القـرآن، فأبـى أن يـسلم وتمـرد، فـدعا علـيه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة وذلك أنه لما فرغ الناس من أحـد ورأى أمـر الرسـول ﷺ في ارتفـاع وظهـور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة مـن قـومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهـم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلـبه ويـرده عما هو فيه، وأمرهـم أن يتخذوا له معقلاً يقدم علـيهم فـيه مـن يقـدم مـن عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلـك، فـشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خـروج رسـول الله ﷺ إلى تـبوك وجـاءوا فـسألوا رسـول الله ﷺ أن يأتـي إلـيهم فـيصلي في مـسجدهم ليحـتجوا بـصلاته فيه على تقريـره وإثـباته وذكـروا أنهـم بـنوه للـضعفاء مـنهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: إنّا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله، فلما قفـل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمـنين في مسجدهـم، مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة[1].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/٣٨٨.

وكان هدف المنافقين من بناء مسجد الضرار أربعة أمور:

١ - الضرار لغيرهم، هو المضارّة.

٢ - الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق.

٣ - التفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لايحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة مالا يخفى.

٤ - الإرصاد لمن حارب الله ورسوله. أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله[1]

وقد خيب الله تعالى مسعاهم، وأبطل كيدهم، بأن أمر نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدمه وإزالته.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى﴾ ذم لهم على أيمانهم الفاجرة، وأقوالهم الكاذبة لذلك قال تعالى: ﴿والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ثم نهى الله - تعالى - رسوله والمؤمنين عن الصلاة في هذا المسجد نهياً مؤكداً فقال - سبحانه -: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

والملاحظ في واقعة المسجد الضرار أن العناية الإلهية كانت تحيط بالحبيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أطلعه الله عز وجل على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلى في البناء، فأضفى عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالإشاعات[2].

كما إن ما قام به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنّة لقادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج ببتره وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهوره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر

---

(١) تفسير الشوكاني، ٢/٤٠٣.
(٢) الصراع مع الصليبين، ص١٨١.

النبوي الحازم لتدلُّنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد ضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[(١)].

والحقيقة أن هذا المسجد - مسجد الضرار - الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين.. هذا المسجد مايزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه... وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتَتَترَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوف أو القلق عليه[(٢)].

ولا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين والمستعمرين يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سمومهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب والقيم الخلقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة لاسيما في بلاد إفريقيا ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون[(٣)].

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقة، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتن لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم

---

(١) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٣٠.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٧١٠ - ١٧١١.
(٣) أبو شهبة، السيرة النبوية، ٢/ ٥٠٨.

ويدمر مصيرهم الأخروي[1].

كما امتنع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة على أمواتهم فقد منعه الله من ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤][2].

وقد نهى الله تعالى عن قبول أعذار المنافقين، فقال في محكم التنزيل: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

وقد أمر الله تعالى بعدم تصديقهم وبالإعراض عنهم ووصفهم بأنهم رجس فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

المخلفون:

كان عدد المتخلفين كبيرا، ولما كان عدد أفراد الجيش كبيرا فقد ظن المتخلفون أن أحدا لا يفطن إلى غيابهم وكانوا أربعة أصناف فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلفون الذين لهم أعذار شرعية وعذرهم الله سبحانه وتعالى: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

ثانيا: المخلفون الذين ليس لهم أعذار شرعية وتاب الله عليهم: وفيهم نزلت ثلاث آيات:

١ - قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

---

(١) الصراع مع الصليبين، ص١٨٢.

(٢) البخاري، الصحيح، فتح الباري، ٣/ ٢١٤، ٨/ ٣٢٣.

هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم والمراد بالعمل الصالح: ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن والمراد بالعمل السيئ: هو تخلفهم عن هذه الغزوة. وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه.

وأصل الاعتراف والإقرار بالشيء. ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفي قوله: ﴿عَسَى الله أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة، أو مقدمة التوبة وهي الإعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي وهو عسى هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع لإن الأطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين: ﴿إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنوب ويتفضل على عباده[1].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع.. وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأمر ما مع الهم باللحاق به عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فلم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق. وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين فلما قدم النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكان ما كان من المتخلفين قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري[2] وأمر رسول الله باجتنابهم وشدد الأمر عليهم، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم[3].

٣ - قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ الله إلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

(١) تفسير الشوكاني، ٢/ ٣٩٩.
(٢) أي الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة وأصحابه.
(٣) تفسير الآلوسي، ١١/ ١٧.

﴿لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثلاثة هم: هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وفيهم نزلت هذه الآية[١].

وسوف نرجع الحديث عنها إلي نهاية الحديث عن الغزوة لطول الحديث الذين قد يخرج عن السياق.

ثالثا: المخلفون من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

وقد جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤا به من الأعذار بحق أو باطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتخلف عن الغزوة وطائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذر، وهم منافقوا الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولاصدقوا، ثم توعدهم الله – سبحانه – فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا بل كذبوا بالله ورسوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا والآخرة[٢].

ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ...﴾.

والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون، فاحترسوا منهم[٣].

رابعا: المخلفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨١ – ٨٣].

(١) حديث القرآن الكريم، ٢/ ٦٧٧.
(٢) تفسير الشوكاني، ٢/ ٣٩١.
(٣) حديث القرآن الكريم، ٢/ ٦٨١.

ويلاحظ اختلاف سياسة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاملته للمنافقين عندما اعتذروا له عن المسلمين حيث أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامل المنافقين باللين والصفح، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقوبة؟ ولاشك أن الشدة والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون، وكيف يستحق المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم - على أي حال - أنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا، من الدرك الأسفل في النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جلّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم، وفيما معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يُبدو لنا هم أيضاً، الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلايزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عين الله وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة[1].

مواقف إيمانية من غزوة تبوك:

قصة الثلاثة الذين خلفوا:

وردت قصة الثلاثة الذين خلفوا على لسان كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لم أتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة العقبة[2] حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ حتى جمعتها في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً

(١) زاد المعاد، ٣/ ٥٧٨.
(٢) ليلة العقبة: الليلة التي بايع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصار على الإسلام.

ومفازاً، وعدوا كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريدون الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه، فطفقت أغدوا لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقضي شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون معه ولم أقضي من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضي شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقضي شيئاً. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[1]، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فطفقت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه[2]. فقال له معاذ بن جبل: بئس ماقلت: والله يارسول الله! ماعلمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً[3] يزول به السراب[4]، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه[5] المنافقون فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجه قافلاً[6] من تبوك حضرني بثي[7]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أطل

---

(١) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.
(٢) والنظر في عطفيه: أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.
(٣) مبيضاً: لابس البياض.
(٤) يزول به السراب: يتحرك وينهض، والسراب ما يظهر للإنسان.
(٥) لمزه المنافقون: عابوه واحتقروه.
(٦) توجه قافلاً: راجعاً.
(٧) حضرني بثي: حزني.

قادماً[١] زاح [٢] عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه[٣]، وصبح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب ثم قال: (تعال) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ماخلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: يارسول الله! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[٤]، ولكني، والله! لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن[٥] الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه[٦] إني لأرجو فيه عقبى الله[٧]. والله! ما كان لي عذر، والله! ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»** فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا. لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما اعتذر به إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لك. قال فوالله! مازالوا يؤنبونني[٨] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدراً، فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

(١) أظل قادماً: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.
(٢) زاح: ازال.
(٣) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.
(٤) أعطيت جدلاً: فصاحة وقوة في الكلام وبراعة.
(٥) ليوشكن: ليسرعن.
(٦) تجد عليّ فيه: تغضب.
(٧) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ويثيني عليه.
(٨) يؤنبونني: يلومنني اشد اللوم.

قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض. فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا[1] وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم[2]، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي. فسلمت عليه فوالله! مارد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله[3] هل تعلم إني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام[4]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل علي كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ. حتى جاءني فدفع إلى كتاباً من ملك غسان. وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة[5]، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت: حين قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتايمت[6] بها التنور، فسجرتها[7]، بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي[8]، إذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتيني فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا

---

(١) استكانا: خضعا.
(٢) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سناً وأقواهم.
(٣) أنشدك بالله: أسألك بالله.
(٤) نبطي أهل الشام: فلاحو العجم.
(٥) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.
(٦) فتايمت: تيممت: قصدت.
(٧) فسجرتها: احرقتها.
(٨) استلبث الوحي: أبطأ.

الأمـر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت له: يارسول الله! إن هـلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقـربنك فقالـت: إنـه والله! مـا به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمـره مـا كـان إلى يـومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال فقلت: لا أسـتأذن فـيها رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومـا يـدريني مـاذا يقـول رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا اسـتأذنته فـيها، وأنا رجل شاب. قال فلبثت بذلك عشر ليال. فكمـل لنا خمسون ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكـر الله عـز وجل منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعـت صوت صارخ أوفى على سلع[(١)]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبـشر. قـال: فخـررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج قال: فآذن[(٢)] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تـوبة الله عليـنا حـين صـلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا فـذهب قِبَل صـاحبي مبـشرون، وركض رجل إليَّ فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلـي. وأوفـى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صـوته يبشرني، فنزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومـئذ، واسـتعرت ثـوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم[(٣)] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يـتلقني الـناس فـوجا فـوجا[(٤)]، يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك حتـى دخلـت المـسجد، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس في المسجد، وحوله الـناس فقـام طلحـة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله! ما قام رجل مـن المهاجـرين غـيره. قال: فكان كعب لاينساها لطلحة قال كعب: فلما سلمت علـى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يبرق وجهه من السرور، ويقول: أبشر بخـير يـوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله! أم من عـند الله؟ فقـال: لا بـل مـن عـند الله وكـان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استنار وجهـه كان قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت يا رسـول الله: إن مـن تـوبتي أن أنخلـع[(٥)] مـن مالـي صـدقة إلى الله وإلى رسول الله

---

(١) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه وسلع جبل بالمدينة معروف.
(٢) فآذن الناس: أي اعلمهم.
(٣) أتأمم: أي أقصد.
(٤) فوجاً فوجاً: الفوج الجماعة.
(٥) أنخلع من مالي: أتصدق به.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمسك بعض مالك، فهو خير لك**» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . قال: وقلت: يا رسول الله: إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت قال: فو الله! ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه[1] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومي هذا ، أحسن مما أبلاني الله به . والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقى . قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨] حتى بلغ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امنوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩] .

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط ، بعد إذ هداني للإسلام ، أعظم في نفسي ، من صدقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، وقال الله: ﴿**سَيَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٨] . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا ، تخلفنا عن الغزوة ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا[2] ، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[3] .

---

(١) أبلاه الله: أنعم عليه .

(٢) إرجاءه أمرنا: تأخيره أمرنا .

(٣) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤٤١٨ ؛ صحيح السيرة النبوية ، ص٦١٤ .

ومن الفوائد في هذه القصة:

فوائد الشدائد:

الشدائد ميدان، وفي الميدان يكون المران، وقد قيل: عند الطعان يتبين الرجال، والتجربة خير برهان. وصعوبة الملمات والشدائد محك تظهر فيها الصفات والخلائق، وتنكشف فيها القدرات والمواهب؛ فالشدة تظهر العلة، والأمة تتعلم في الملمة، وما وعظ امرأ مثل تجاربه. والناجحون في الحياة هم الذين واجهوها، وتعاملوا معها، واعتادوا شرها وخيرها.

في الشدائد يتميز المؤمن عن المنافق، والصادق عن الكاذب، ويقف المرء على حقيقة إيمانه، ومدى عمقه ورسوخه، فحاشا لله سبحانه أن يعذب عباده بالابتلاء، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة [1]، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠ - ١١]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فلما هجر الناس كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد تخلفه عن غزوة تبوك، وضاقت به الحال والمقام، جاءه كتاب من ملك غسان النصراني، فإذا فيه: «بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك، ولست بدار مضيعة ولا هوان، فالحق بنا نواسك». فما كان منه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلا أن أحرقه، فقد علم أن هذا من البلاء.

لقد ميزت هذه الأزمة عدو الإسلام من صديقه، وكشر كل ذي ناب عن نابه، وبان لنا ما وراء الأكمة، وعند النازلة تعرف أخاك. ولم نكن نعلم ماذا يريد أن يفعل ملك غسان لولا قصة هؤلاء المخلفون الثلاثة. لقد كان الأعداء يمكرون ويخططون من وراء ستار، فصاروا ينفذون علنا أمام الأنظار، فزالت الغشاوة عن البصائر والأبصار. إن أمر عدو ظاهر أيسر من أمر عدو مختف وكامن، ومواجهة خصوم تعرفهم أيسر من مواجهة خصم لا تعرفه.

جزى الله الشدائد كل خير ::: عرفت بها عدوي من صديقي

ولقد كان الخروج إلى تبوك لقتال الروم في وقت جدب في البلاد، وشدة حر، واستواء الثمار، وخرج الجيش المسلم بقيادة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبدأ

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٧٢١.

المنافقون في الظهور؛ بسخريتهم ببعض المسلمين، ومحاولتهم توهين القوى وتشتيت الطاقات، وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين يعسكر بجنوده أثناء المسير إلى تبوك أسفل معسكر النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ثم تخلف ابن أبي ومعه كثير من المنافقين عن الجيش، وقال بعضهم: «أيغزو بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد؟! أيحسب أن قتالهم كقتال غيرهم؟! والله! لكأني أنظر إليهم مقرنين غدا في الحبال». وكان بعضهم قد تخلف بتعلات باطلة، من بعد الشقة وشدة الحر. لقد كانت هذه الحال، وهذه الشدة كافية في فضح المنافقين، وتمييز المؤمنين الصادقين.

- الصدق منجاة:

الصدق من أعظم مقامات الإيمان وشعبه، ولقد أدرك كعب وهلال، ومرارة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ خطورة الكذب فعزموا على سلوك طريق الصراحة والصدق وإن عرّضهم ذلك للتعب والمضايقات، ولكن كان أملهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتهم ثم يعودون إلى الصف الإسلامي أقوى مما كانوا عليه[1]، وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

- العقاب بالهجر:

الهجر عقوبة زجرية متعددة الغايات والمقاصد الشرعية المحمودة، من فوائدها:

أن الزجر بالهجر عقوبة شرعية للمهجور، ويبعث اليقظة في نفوس المسلمين من الوقوع في المعصية وتحذيرهم، وتحجيم انتشار المعاصي، وقمع العاصي وزجره، ليضعف عن نشر المعصية، فإنه إذا حصلت مقاطعته والنفرة منه بات كالثعلب في جحره. أما معاشرته ومخالطته، وترك تحسيسه ببدعته: فهذا تزكية له، وتنشيط وتغرير بالعامة، إذ العامي مشتق من العمى، فهو بيد من يقوده غالباً، فلابد إذاً من الحجر على أهل المعاصي استصلاحاً للديانة وأحوال الجماعة، وهو ألزم من الحجر الصحي لاستصلاح الأبدان.

قال ابن تيمية عن العقاب بالهجر: إن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي

(١) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٣٨.

هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً [1].

وهـذا الهجـر التربـوي يختلف عن الهجر الذي يكون بين المسلمين على أمور الدنـيا فهذا دنيوي وذاك ديني، فالهجر الديني مطلب شرعي يثاب عليه فاعله، أما الهجـر الدنـيوي فإنـه مكـروه إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام فإنه يكون محرماً [2]، لقول رسـول الله ﷺ: **«لا يحـل لمسلم أن يهجـر أخـاه فـوق ثـلاث يلتقيان فيعـرض هـذا ويعـرض هـذا وخـيرهما الـذي يـبدأ بالـسلام»** [3]، ولقـوله ﷺ: **«من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»** [4].

التنظيم الدقيق للمجتمع الإسلامي:

يتميـز المجتمع الإسلامي بالتنظيم الدقيق، والاستجابة السريعة لأوامر القيادة العليا، فقد استجاب المجتمع المسلم كله في المدينة لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صـدر مـن القائد الأعلى ﷺ وامتنعوا جميعاً عن الحديث هؤلاء الثلاثة ووصـف كعـب لنا ذلك فقال: . . . فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هـي الـتي أعـرف، فأمـا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكـيان، وأمـا أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطـوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد [5] . . . وقد أطلق كعب السلام علـى ابـن عمـه أبي قتادة فلم يرد عليه السلام وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحب الله ورسـوله؟ فـسكت، مـع أنـه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقـف مـوزَّع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبـيق الهجـر التربوي ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذي أوحـى بـه إيمـان أبـي قـتادة هـو تنفـيذ أمـر الـنبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه [6].

وقـد بلـغ الالتزام بالأمر النبوي في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله ﷺ الـثلاثة الـذين خلفـوا باعتـزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمراً كان

(١) مجموع الفتاوى، ٢٠/ ٣٢ ٣٦.
(٢) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٣٨.
(٣) مسلم، كتاب البر، رقم ٢٥٦٠، ص١٩٨٤.
(٤) مسند أحمد، ٤/ ٢٢٠.
(٥) الصراع مع الصليبين، ص١٩٥.
(٦) التاريخ الإسلامي، ٨/ ١٤٠.

مفعولا فالتزم الجميع بذلك واستأذنت زوج هلال بن أمية وكان شيخاً طاعناً في السن لايجد من يخدمه فطلبت من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك شريطة ألا يقربها فالتزمت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(1)] .

الابتلاء بالخير والشر:

لما أرسل ملك غسان إلي كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول له:" قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك قال: هذا أيضاً من البلاء والشر ، فسجرت لها التنور وأحرقتها فيه»[(2)] .

ولم يكن هذا الابتلاء يحتاج إلى مجرد تفكير ، بل سارع إلى حسم مادته من جذورها ، وذلك بتسجيرها لأول وهلة وعدم الجواب على تلك الرسالة ؛ فالأمر جد خطير ، والبلاء عظيم ، هكذا الصبر والعزيمة . ولهذا وذاك جاء الفرج: «حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عن كلامنا صليت على ظَهْر بيت لنا صلاة الفجر ، ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله عز وجل قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا ؛ إذ سمعت نداءً من ذروة سَلْع أن أبشر يا كعب بن مالك ! فخررت ساجداً وعرفت أن الله قد جاءنا بالفرج»[(3)] . والله يقول جل وتقدس: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] .

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة وإن خُيِّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ، إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير .

-الولاء التام لله ورسوله:

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنيان ويقوض الأركان ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعقوبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأن يرسل سفيره لكعب برسالة خاصة منه إليه يغريه فيها تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان

---

(١) الصراع مع الصلبيين ، ص١٩٦ .
(٢) البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٤١٨ .
(٣) البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٤١٨ .

ولامضيعة، فالحق بنا نواسك[1]، فكان تعليق كعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ مني ماوقعت فيه أن طمع فيَّ رجال من أهل الشرك! ثم أحرق الرسالة[2]

إن هذا الذنب وهذا العقاب لم يحلل كعباً من ولائه لدينه.. لعقيدته، لم يحلله من قضيته الكبرى، لقد نظر إلى هذا الكتاب على أنه جزء من الابتلاء. فحمل الكتاب ثم أوقد التنور وقال: "وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ" فأحرق الكتاب في التنور وبقي يعاني ألم القطيعة.

لقد رفض رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذا الود الظاهر في وقت هو فيه أحوج ما يكون إلى من يواسيه ويواليه؛ لكن لما قام في قلبه من عظم الولاء لله ولرسوله، والبراءة من أعداء الدين؛ رفض هذه الدعوة التي كشفت له بصيرته ما وراءها، فرفضها وعدها بلاء آخر فكانت عقباه الخير.

علمتنا هذه القصة أن الأمة حين تربي أبناءها وفق شرع ربها، وحين تبني في نفوسهم صرح الإيمان، وحين تغرس في قلوبهم نبتة الإخلاص لله ولدينه؛ فإن قوى الأرض وإن هزمتهم في وقت ظاهرا لن تهزمهم في بواطنهم، ولن تفلح في تركيعهم، ولن تنال من عزتهم، ولن تقوى على تغيير مبادئهم.

- صدق الإخوة في الله:

من أثمن ما يملكه المسلم في هذه الحياة الدنيا بعد الصلة بالله عقد الأخوة الإيمانية الذي عقده مع من يحبهم في الله، وتعاهد معهم على العمل سوية في سبيل نصرة دين الله. هذا العقد من أقوى الأسباب لمجابهة الصعاب والتحديات، ولحل المشكلات التي تعترض الطريق، وبه يشعر المسلم أنه ليس وحيدا، فهناك من يشد أزره ويضع يده على يده، فعندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حتى صاروا يتلقون كعباً وصاحبيه أفواجاً يهنئونهم بما تفضل الله به عليهم من التوبة وجاء كعب إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ووجهه يبرق من السرور فقال له: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**».

(١) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٤١٨.
(٢) المغازي، ٣/ ١٠٥١ - ١٠٥٢.

وفرحة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة بتوبة المولي عز وجل علي كعب لدليل واضح علي صدق الإخوة في الله التي تربط الصحابة رضوان الله عليهم ببعض البعض وبالحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

تبشير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعب:

والتبشير بالخير والشيء الطيب السار والأمر المفرح من السنة ، وهو من الآداب الإسلامية العظيمة ، والبشارة تكون في الأمور التي تسر وسميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بشر بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بشرته ، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يبرق وجهه من السرور ، ويقول: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**» [(1)] .

وفيه دليل على جواز التهنئة والتبشير بأمور الخير بل على ندبها إذا كانت دينية فإنها إظهار السرور بما يسر به أخوه المسلم وإظهار المحبة وتصفية القلب بالمودة .

-تشرع أنواع من العبادات شكرا لله عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله - سبحانه وتعالى - عليه ، لا تحدها حدود ولا تصورها مثل ، وقد تفنن هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

١ - سجود الشكر:

حينما سمع كعب البشارة بتوبة الله عليه خرّ ساجداً من فوره شكراً لله - تبارك وتعالى - ، فقد كان من عادة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة وقد تعلموا ذلك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٢ - مكافأة الذي يحمل البشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما ، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى ، وما كان يملك وقتئذ غيرهما ، ثم استعار ثوبين ، فلبسهما ، ولاشك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة ، فإن كان المبشر غنياً كان له هدية ، وإن كان فقيراً كان له صدقة ، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى ، على إنزاله الفرج .

---

(١) أنخلع من مالي: أتصدق به .

٣- التصدق بالمال:

فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله تعالى لكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[١].

قيام الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على دفن ذي البجادين[٢] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

قال عبدالله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «**أدنيا إلى أخاكما، فدلياه إليه**»، فلما هيأه بشقة، قال: «**اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه**». قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[٣].

هذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام، من يبرُّ ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضياً عنه[٤].

وإذا تأملنا قول عبدالله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حينما سمع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول بحق ذي البجادين: اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارضى عنه، فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد[٥].

---

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي، ص٤٩٣.

(٢) البجاد: الكساء الغليظ الجافي. وإنما سمى ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلما كان قريباً منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقيل له: ذو البجادين، لذلك. السيرة النبوية لابن هشام، ٤/١٨٢.

(٣) صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

(٤) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٧٢.

(٥) صحيح السيرة النبوية، ص٥٩٨.

نجد أنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس[1].

وهي تعبير عن الغبطة والتي هي تمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تتمنى زوال النعمة عن غيرك والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير[2].

معجزات علي طريق الغزوة:

- ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. قال محمود بن لبيد: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ماكان، ودعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة[3].

لما جاوز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله - سبحانه وتعالى - سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء، وبالرغم من أن هذه معجزة تأكد الصحابة رضوان عليهم أنها معجزة، إلا أن المنافقين لم يعترفوا بذلك وصدق فيهم قوله المولي عز وجل: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

- ناقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لما كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائراً في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم وكان عقبيًّا بدرياً، وهم عم بني عمروبن حزم، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُّصيت وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أليس محمد يزعم أنه نبي؟ ويخبركم عن السماء، وهو لايدري أين ناقته؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد

(١) معين السيرة، ص٤٥٢.
(٢) الصراع مع الصلبيين، ص١٦٣، ١٦٤.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/١٧٦.

يخبركم أنه ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لايدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، وهي في هذا الوادي ، في شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتوني بها ، فذهبوا فجاؤوا بها ، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال: والله لعجب من شيء حدَّثناه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آنفاً ، عن مقالة قائل ، أخبره الله عنه بكذا وكذا ، للذي قال زيد ابن اللصيت . فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ، ولم يحضر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زيد ، والله ، قال هذه المقالة قبل أن تأتي فأقبل عمارة على زيد ، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليّ عباد الله ، إن في رحلي لداهية ، وما أشعر ، أخرج ، ايْ عدو الله[1] من رحلي ، فلا تصحبني . قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس: لم يزل مُتَّهماً بشرً حتى هلك[2] .

-التحذير من هبوب ريح شديدة:

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد، ومن كان له بعير فليوثق عقاله، ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه صاحب له**» ، ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا رجلين من بني ساعدة ، خرج أحدهما لحاجته والآخر في طلب بعيره ، فأما الذي خرج لحاجته فانه خنق على مذهبه - أي موضعه - وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيء ، فاخبر بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه**» ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي ، وأما الآخر طيئا أهدته لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رجع إلى المدينة [3] .

-تكثير ماء عين تبوك:

قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم ستأتون**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ٤/ ١٧٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ٤/ ١٧٧ .

(٣) أخرجه البخاري ، ٨ / ١٢٥ (٤٤١٩) ، ومسلم ، ٤ / ٢٢٨٦ (٣٨ ، ٣٩ / ٢٩٨٠ ، ، وأحمد ٢ / ٩ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، والبيهقي في الدلائل ، ٥ / ٢٣٣ ، وفي السنن ٢ / ٤٥١ ، والحميدي ، (٦٥٣) ، وعبد الرزاق ، (١٦٢٥) ، والطبراني في الكبير ، ١٢ / ٤٥٧ ، وانظر الدر المنثور ، ٤ / ١٠٤ .

غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» ، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان ، والعين مثل الشراك[1] ، تنبض[2] بشيء من مال ، فسألهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل مسستما من مائها شيئاً؟**» قالا: نعم ، فسبهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لهما ماشاء الله أن يقول ، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلاً حتى اجتمع في شيء ، وغسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه يديه ووجهه ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استقى الناس[3] .

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل: «**يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ماهاهنا قد ملئ جناناً**»[4] .

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء ولكن الله – عز وجل – أجرى على يد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة ، ولم يكن هذا آتيا لسد حاجة الجيش ، بل أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة ولقد تحقق ما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فترة قليلة من الزمن ، ولازالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها ، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لايتكلم إلا صدقاً ولايخبر إلا حقاً ولاينبئ بشيء إلا ويتحقق[5] .

-تكثير الطعام:

(عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لمّا كانت غزوة تبوك أصاب النّاس مجاعة قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا [6] فأكلنا وادّهنّا [7] . فقال

---

(١) الشراك: هو سير النعل ومعناه ماء قليل جداً .

(٢) تنبض: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ومعناه تسيل .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٥/ ٤١ ؛ مختصر مسلم ، رقم ١٥٣٠ .

(٤) الجنان: جمع جنة وهي المزارع والبساتين ، أخرجه مسلم ٤ / ١٧٨٤ – ١٧٨٥ حديث (١٠ / ٧٠٦) وأحمد ٥ / ٢٣٨ وابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد (٥٤٩) ، والبيهقي في الدلائل ٥ / ٢٣٦ وابن خزيمة (٩٦٨) ومالك في الموطأ ١٤٤ ، وانظر كنز العمال (٣٥٣٩٨) .

(٥) الصراع مع الصلبيين ، ص١٤٢ .

(٦) النواضح: من الإبل التي يستقى عليها .

(٧) ادّهنّا: أي اتخذنا دهنا من شحومها .

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**افعلوا**» . قال فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلّ الظّهر [1] ولكن ادعهم بفضل أزوادهم [2] ، ثمّ ادع الله لهم عليها بالبركة لعلّ الله أن يجعل في ذلك [3] . فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم**» . قال: فدعا بنطع [4] فبسطه ثمّ دعا بفضل أزوادهم ، قال: فجعل الرّجل يجيء بكفّ ذرة ، قال ويجيء الآخر بكفّ تمر ، قال ويجيء الآخر بكسرة ، حتّى اجتمع على النّطع من ذلك شيء يسير .

قال فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بالبركة ، ثمّ قال: «**خذوا في أوعيتكم**» قال: فأخذوا في أوعيتهم حتّى ما تركوا في العسكر وعاء إلّا ملؤوه قال فأكلوا حتّى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيحجب عن الجنّة**»[5] .

ومن هذا الحديث نتعلم:

- التربية على الأخذ بالأسباب .
- عمق تلك التربية .
- المشورة وقبولها .
- التراجع عن القرار ليس ضعفاً في القيادة .
- كثرة البذل والتضحية مع قلة الإمكانات فكيف بالعكس؟
- أهمية الربط بما يقوي الإيمان رغم حصول ما يستدعي ذلك فكيف في غير هذا الموطن؟
- الإيمان بالمعجزات .
- عظم البركة والدعاء بها .
- قوة الضبط والتنفيذ في الجيش المسلم .

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله

(١) الظهر: الدواب .
(٢) أزوادهم: جمع زاد وهي لا تملأ إنما تملأ بها أوعيتهم .
(٣) لعلّ الله أن يجعل في ذلك: فيه محذوف تقديره يجعل في ذلك بركة أو خيرا ، أو نحو ذلك .
(٤) نطع: هو بساط متخذ من أديم .
(٥) الحديث في صحيح مسلم في الايمان حديث ٤٥ ، ١ / ٥٦ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته وتدل على رفعة منزلته وتكريمه عند ربه[1] .

أهم نتائج الغزوة:

- إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعاً مسلمهم وكافرهم على السواء ، لأن قوة الروم كانت في حس العرب لاتقاوم ولاتُغْلب ، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم ، ولعل ما حدث للمسلمين في غزوة (مؤتة) كان مؤكداً على ماترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لاتقهر ، فكان لابد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب .

- إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالمياً - حينذاك - ليس بدافع عصبي أو عرقي ، أو تحقيق أطماع زعامات معاصرة ، وإنما بدافع تحريري حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالاً فحققوا انتصاراً للمسلمين دون قتال ، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية ، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندل ، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حاليا على خليج العقبة) وكتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبينهم كتاباً يحدد مالهم وما عليهم[2] وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتاثير الإسلامي ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة ، ويعد ماحدث في تبوك نقطة البداية العملية للفتح الإسلامي لبلاد الشام[3] ، وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك ، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان والتي واصلها خلفاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعده ، ومما يؤكد هذا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موته جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربة موجّهة صوب الروم ، وطليعة لجيش الفتح ، ضم هذا الجيش جُلَّ

(١) انظر: الصراع مع الصلبيين ، ص١٤١ .
(٢) الشجاع ، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، ص٢٠٩ .
(٣) عبدالرحمن أحمد ، المسلمون والروم في عصر النبوة ، ص١٢٠ .

صحابة رسول الله ولكنه لم يقم بمهمته إلا بعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه[(١)] .

لقد وضع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأسس الأولى والخطوات المثلى لفتح بلاد الشام والفتوحات الإسلامية .

-توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول:

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة ، وخيبر وغزوة تبوك ، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد ما امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية ، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة ، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها فقد سُمِّيَ العام التاسع للهجرة في المصادر الإسلامية بعام الوفود[(٢)] .

دروس وعبر من غزوة تبوك:

ولئن انتهت غزوة تبوك ، فما انتهى نورها ، وما انتهت دروسها وعبرها ومواعظها ، ففي كل حديث منها قصة ، وفي كل قصة عظة وعبرة ، فهاكم بعض دروسها وعبرها:

- أن هذه الأمة أمة جهاد ، ومجاهدة ، وصبر ، ومصابرة ، ومتى ما تركت الجهاد ، ضُربت عليها الذلة والمسكنة .

دعِ المِداد وسطِّر بالدَّمِ القانِي ::: وأسكتِ الفَمَ واخطبْ بالفمِ الثَّانِي
فَمُ المدافعِ في صدرِ العداة لهُ ::: منَ الفصاحةِ ما يُذري بسحبانِ

- أن الله تعالى ، كتب العزة والقوة لهذه الأمة ، متى ما صدقت وأخلصت ، فها هي دولة الإسلام الناشئة ، تقف في وجه الكفر كله بقواه المادية فتهزمه ، وتنتصر عليه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ...﴾ [الحج: ٤٠] .

- أنه ما تسلل العدو سابقًا ولاحقًا إلا من خلال الصفوف المنافقة ، ولم يكن الضعف والتفرقة في هذه الأمة ، إلا من قِبَل أصحاب المسالك الملتوية: ﴿لَوْ

(١) الشجاع ، دراسات في عهد النبوة ، ص٢٠٩ .
(٢) موسوعة نضرة النعيم ١/ ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٤٧].

- إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شؤونها السياسية والعسكرية والاجتماعية . . . منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته ، وقد مارس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض المواقف التي حدثت في الغزوة ومنها:

- قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد: فقد قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ، ثم يجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا ، فادع الله ، قال: «**أتحب ذلك؟**» قال: نعم ، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1] .

- قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة: فقد أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك ، فاستأذنوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم ، فلما أذن لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك جاءه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأبدى مشورته في هذه المسألة ، وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل ، ثم ذكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حلا لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها ، فعمل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا .

- قبول مشورة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة: عندما وصل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين ، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام ، فأشار عليه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام ، ولقد كانت مشورة مباركة ؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا ، إذ إنه يتطلب تكتيكًا خاصًا لأن الحرب في

(١) أخرجه ابن حبان ، كتاب الجهاد ، باب غزوة تبوك ، رقم ١٧٠٧ .

الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر[1].

- أن مواجهة الأعداء، لا يشترط فيها تكافؤ القوى: يكفي المؤمنين أن يعدُّوا أنفسهم بما استطاعوا من قوة، ثم يثقوا بالله، ويتعلقوا به، ويثبتوا، ويصبروا، وعندها يُنصروا، فها هو سلفهم ابن رواحة يقول: "والله ما نقاتل الناس بعَدد، ولا عُدد، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي كرمنا الله به"[2].

فيا أمة الإسلام في كل زمان ومكان اتقوا الله، وأجمعوا أمركم، وذُودوا عن دينكم ومحارمكم؛ فإن من لا يذود عن دينه ومحارمه ولا ينتصر لدينه؛ ذليل حقير، غير حقيق بالعزة؛ بل لا تحلو له الحياة، اصبروا، وصابروا، ورابطوا، وبما تمسك به أسلافكم تمسكوا، جاهدوا كجهادهم، واصبروا كصبرهم، وتوكلوا على الله، وثقوا بالله واطمئنوا، وأبشروا، والعاقبة للمتقين: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

"خذوا إيمان إبراهيم، تنبت لكم في النار جنات النعيم".

وبانتهاء هذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تتربى عليها أمته في أجيالها المقبلة[3].

سرية جرير بن عبدالله البجلي إلى ذي الخلصة:

وكان من نتائج حركة الوفود التي شهدها العام التاسع من الهجرة أن بدأت حملة توعية واسعة النطاق في المناطق النائية التي تحتاج إلى ذلك، فقد كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية ويتعلمون ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وشرع ﷺ يبعث دعاته في شتى الجهات واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن لتعليمها مبادئ الإسلام

(١) غزوة تبوك، باشميل، ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) ابن هشام - السيرة ٣/ ٤٣٥ - ٤٤٢.
(٣) صادق عرجون، محمد رسول الله، ٤/ ٦٠.

وأحكامه فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها، وأصبحت الحاجة داعية إلى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام لكي تتطهر قلوبهم وتشفى صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة [1] فقد ثبت إرسال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن كلا منهما إلى جهة [2]، كما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية من مائة وخمسين راكبا عليهم جرير بن عبد الله البجلي فكسروا الصنم ذا الخلصة في الكعبة اليمانية وقتلوا من كان عنده، فدعا لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان من تفصيلها، أن جرير بن عبدالله قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**» فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لاأثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضرب يده على صدْري حتى رأيت أثر يده في صدري فقال: «**اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً**». قال: فما وقعت عن فرسي بعد، قال وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخشعم وبجيلة، فيه نصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرّقها بالنار وكسرها، قال: ولمّا قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له إن رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا فإن قدر عليك ضرب عنقك قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهدوا أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد ثم بعث جرير رجُلاً من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشره بذلك فلّما أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب قال: فبرّك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خيل أحمس ورجالها خمس مرّات [3].

حج أبي بكر بالناس:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اعتمر بعد الفراغ من حصار الطائف حيث أهلّ بالعمرة من الجعرانة، ثم عاد بالجيش إلى المدينة، وقد حج المسلمون والمشركون معا عام الفتح، ثم أمّر أبا بكر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) على الحج في العام التاسع الهجري، فخرج في ذي الحجة إلى مكة ومعه عدد كبير من الصحابة [4]، وساقوا

(١) فقه السيرة للبوطي، ص٣٢٢.
(٢) سبق الحديث عن تفاصيل ذلك عند الحديث عن عام الوفود... فليراجع.
(٣) البخاري، المغازي، ٥/ ١٣٢، رقم ٤٣٥٧.
(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢/ ١٦٨، ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ٨٢.

معهم الهدي[1].

فلما خرج الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العصباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجة كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول فكان يعرف الناس مناسكهم: في وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات... الخ وعلي يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لايدخل الجنة إلا مؤمن، ولايطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولايحج بعد العام مشرك[2].

وقد أمر الصدِّيق أبا هريرة في رهط آخر من الصحابة لمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته[3].

إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية، وأتباعها، حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم[4].

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ١ - ٣].

وقد أمهل المعاهدون لأجل معلوم منهم إلى انتهاء مدتهم فقال تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ٨٢.
(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٦٢٥.
(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٣٧.
(٤) انظر: موسوعة نظرة النعيم، ١/ ٣٩٩.

كما أمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقد كلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحج مراعاة لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة للإسلام فلذلك تدارك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر وأرسل علياً بذلك فهذا هو السبب في تكليف علي بتبليغ صدر سورة براءة لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر وقد علق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبة فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور[1]؟ وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير. وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع [2].

لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد[3].

حجة الوداع:

بعد أن بلّغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البلاغ المبين وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، أعلن في الناس وأذّن فيهم وأعلمهم أنه حاج في السنة العاشرة - بعد أن مكث في المدينة تسع سنين كلها معمورة بالجهاد والدعوة والتعليم أعلن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عزمه على أداء فريضة الحج - وهي الحجة الوحيدة التي أداها بعد هجرته إلى المدينة [4] - وهذا الإعلان الذي قصد به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبلاغ

---

(١) صحيح السيرة النبوية، ص٦٢٤.
(٢) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٤٠.
(٣) قراءة سياسية للسيرة التبوية، ص٢٨٣.
(٤) مسلم، الصحيح، ٢/ ١٨٨٧، الحديث ١٢١٨.

الناس فريضة الحج، ليتعلموا المناسك منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وليشهدوا أقواله، وأفعاله، ويوصيهم ليبلغ الشاهد الغائب، وتشيع دعوة الإسلام، وتبلغ الرسالة القريب والبعيد[1]. فقدم المدينة عدد كبير من المسلمين وفدوا من مختلف أنحاء جزيرة العرب للحج معه، والاقتداء بهديه، قال جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذّن في الناس في العاشرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجٌّ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعمل مثل عمله...[2].

وقد تهيأ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للخروج من المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة[3]، فتَرَجَّلَ وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه وقلَّد بُدْنَه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحُلَيْفَة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: **«أتاني الليلة آت من ربي فقال: صَلِّ في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة»**[4].

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذَرِيَرة وطيب فيه مِسْك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبَيصُ الطيب يري في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلي الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مُصَلَّاه، وقَرَن بينهما، ثم خرج، فركب القَصْوَاءَ، فأهَلَّ أيضاً، ثم أهَلَّ لما استقلت به على البَيْدَاء[5].

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، ثم نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى) فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة فدخلها نهاراً من أعلاها، ثم سار، حتى دخل المسجد، وذلك ضحى[6]، فاستلم الركن[7] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرمل

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ٨/ ٤٢٢، وشرح الأبي، ٤/ ٢٤٤.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ٨/ ٤٢٢، وشرح الأبي، ٤/ ٢٤٤.
(٣) البخاري، الصحيح، فتح الباري ٨/ ١٠٤، ابن هشام، السيرة، ٤/ ٢٧٢، برواية ابن إسحاق، بإسناد حسن، ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١٢٥، بإسناد جيد.
(٤) ابن حنبل في مسنده، ٦/ ٢٩، حديث رقم: ٢٤٠٤٨، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١.
(٥) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١.
(٦) زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١، السيرة النبوية للندوي، ص٣٨٧.
(٧) مسلم، كتاب الحج باب حجة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقم ١٢١٨، زاد المعاد في هَدْي خير العباد، ٢/ ١٠١.

ثلاثاً[(١)]، ومشى ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم[(٢)] عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فقرأ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين قل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا. فرقى عليه، حتى إذا رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره. وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذه ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت[(٣)] قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا[(٤)] مشى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة**»[(٥)].

فقال سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله! ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصابعه واحدة في الأخرى. وقال: «**دخلت العمرة في الحج مرتين "لا بل لأبد أبد**"»[(٦)]

وأقام بمكة أربعة أيام: يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء فلما كان يوم الخميس ضحى، توجه بمن معه من المسلمين إلى مني ونزل بها، وصلى بها الظهر والعصر، والمغرب والعشاء والفجر ومكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة[(٧)]، فسار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تشك

---

(١) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.
(٢) نفذ إلى مقام ابراهيم: بلغه ماضياً في زحام.
(٣) انصبت قدماه: انحدرت.
(٤) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.
(٥) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي رقم ١٢١٨.
(٦) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي رقم ١٢١٨؛ صحيح السيرة النبوية، ص٦٥٩.
(٧) نمرة: موضع بجنب عرفات وليست من عرفات.

قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام[١]، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز[٢] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفه، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة. فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له، فأتى بطن الوادي[٣]، فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن في فرشكم أحداً تكرهونه[٤]، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح[٥]، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها[٦] إلى الناس: اللهم اشهد. اللهم اشهد، ثلاث مرات[٧]وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خَلَف، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله ﷺ، حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات[٨] وجعل جبل المشاة بين يديه[٩]، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى

(١) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه، ولا تقف مع العرب في عرفات ولكن رسول الله ﷺ وقف عرفات.
(٢) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها، وإنما توجه إلى عرفات.
(٣) بطن الوادي: وادي عرنة، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء إلا مالكاً قال من عرفات.
(٤) أي لايجوز للمرأة أن تدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريب أو بعيد أو امرأة إلا من يرضى عنه زوجها.
(٥) الضرب المبرح: الشديد الشاق.
(٦) ينكتها: يقلبها ويرددها إلى الناس مشيراً إليهم.
(٧) صحيح السيرة النبوية، ص٦٦١؛ مسلم كتاب الحج، رقم ١٢١٨.
(٨) الصخرات: صخرات في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.
(٩) جبل المشاة: مجتمعهم. وقيل جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرجالة.

غاب القرص[1]، ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاته والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، يقول فيه: «**اللهم! إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم! لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين**»[2].

وهنالك أنزلت عليه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، ولما نزلت بكي عمر، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يبكيك؟**» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال: «**صدقت**». فلما غربت الشمس أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة ضم إليه زمام ناقته، حتى أن رأسها ليصيب طرف رحله، وهو يقول: أيها الناس عليكم السكينة، وكان يلبي في مسيره ذلك، لايقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، وأمر المؤذن بالأذان فأذن، ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم، أمر، فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء، ثم نام، حتى أصبح، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جداً، وذلك قبل طلوع الشمس، ثم سار من مزدلفة، مردفاً للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فلما أتى بطن محسر، حرك ناقته، وأسرع السير، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، وقطع التلبية، ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا

(١) حتى غاب قرص الشمس: حتى غابت الشمس وذهبت الصفرة.
(٢) السيرة النبوية للندوي، ص٣٨٩.

بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض وأمر بالتبليغ عنه [1] فعن أبي بكرة قال: خطبنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم النحر ، قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادي وشعبان**» .

وقال: «**أي شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلي؟ قال: «**أي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: «**أليست البلدة؟**» قلنا: بلي . قال: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه ، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلي . قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعي من سامع**» [2] .

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «**ألا لا يجني جَانٍ إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به**» [3] .

وأقام أيام التشريق بمني يؤدي المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدي من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها .

وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً ، فقد روي أبو داود بإسناد حسن عن سَرَّاءِ بنت نَبْهَانَ قالت: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الرءوس ، فقال: «**أليس هذا أوسط أيام التشريق**» . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

---

(١) صحيح السيرة النبوية ، ص٦٦٢ ، السيرة النبوية للندوي ، ص٣٨٩ .

(٢) البيهقي في سننه الكبرى ، ٥/ ١٦٦ ، حديث رقم: ٩٥٥٧ ، الطبراني في الأحاديث الطوال ١/ ٣٢٠ ، حديث رقم: ٦٠ ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٥٥٠ ؛ السيرة النبوية لأبي شهبة ، ٢/ ٥٧٨ .

(٣) أخرجه ابن ماجة ، ٢ / ١٤٧ ، أحمد ، ٣ / ٤٩٨ - ٤٩٩ ، السيرة النبوية الصحيحة ، ٢/ ٥٥٠ ؛ السيرة النبوية لأبي شهبة ، ٢/ ٥٧٨ .

وفي يوم النَّفْر الثاني – الثالث عشر من ذي الحجة – نفر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من منى، فنزل بخَيف بني كِنَانة من الأَبْطَح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس [1].

وقد تكررت خطب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع:

فقد خطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر، وخطبة ثانية في ثاني يوم النحر[2]، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر بمنى – وهذا التكرار كان أمراً لابد منه لحاجة المسلمين، فهي الحجة الوحيدة التي حجّها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد عزّ فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النافذة في الجزيرة كلها، كما كانت الوداع الأخير فما أشد حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التذكير والنصح والتوصية وإلى تكرار القول والتأكيد عليه حتى يعوه ويحفظوه ولاينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة[3].

وقد وافى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند عودته من اليمن، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحج، فحج معه [4]، وقد اشتكى بعض الجند عليّا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه اشتد في معاملتهم، وأنه استرجع منهم حللا كان نائبه على اليمن قد وزعها عليهم، فأوضح لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غدير خم قرب الجحفة مكانة عليّ وفضله لينتهوا عن الشكوى [5]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من كنت مولاه فعليّ مولاه»** [6].

وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس في غدير خُمّ قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقد جاء في هذه

(١) مسلم، كتاب الحج، رقم ١٢١٨؛ صحيح السيرة النبوية، ص٦٦٣، السيرة النبوية للندوي، ص٣٩٠.
(٢) السيرة النبوية للندوي، ص٣٩٠.
(٣) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٧٩؛ المستفاد من قصص القرآن، ٢/ ٥١٥.
(٤) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٦٠٢ – ٦٠٣، ابن كثير، البداية، ٥/ ٢٠٩.
(٥) ابن كثير، البداية، ٥/ ٢١٢.
(٦) أحمد، فضائل الصحابة، ٢/ ٥٩٤، رقم ١٠١٠، المسند، ٤/ ١٦٤، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، كما في تحفة الأشراف، ٣/ ١٣، وابن ماجه، ١/ ٤٤، والترمذي، ٥/ ٦٣.

الخطبة: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله. واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[(١)].

وقد تأخر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر الناس بالرحيل، وتوجه إلى المدينة[(٢)].

ولما أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات، وقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون صدق الله وعده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دخلها نهارا[(٣)].

الدروس والعبر والفوائد من حجة الوداع:

لقد جاءت حجته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حافلة بالأحكام والمناسك والوصايا، أفرد لها العلماء كتبا خاصة بها[(٤)]، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك مما تزخر به كتب الفقه والحديث وشروحه[(٥)].

- استحباب نزول الحاج إلى عرفات بعد زوال الشمس إن تيسر ذلك.

- وصلت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة مرحلة من النضج متقدمة وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، فوسع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العام التاسع والعاشر من الهجرة دائرة التلقي المباشر من خلال استقباله الوفود ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وقد تلقت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب، رقم ٢٠٤٨، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٥١، السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٥٨١.
(٢) السيرة النبوية للندوي، ص٣٩٠.
(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ١/ ٢٤٩، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٦٠٢.
(٤) انظر مثلا ابن كثير، البداية، ٥/ ٢٢٣ - ٢٣٣.
(٥) ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ١٠١ - ٣٢٤، وانظر مسلم، الصحيح بشرح النووي، ٨/ ١٧٠.

في أن تبقى رحى الإسلام دائرة وإلى الأبد[1]، ففي حجة الوداع كانت اللمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- استحباب خطبة الإمام بالحجاج بعرفات، يبين فيها للناس ما يحتاجون إليه، ويعتني ببيان التوحيد، وأصول الدين، ويحذر فيها من الشرك والبدع والمعاصي، ويوصي الناس بالعمل بالكتاب والسنة.

وقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب في حجة الوداع ثلاث خطب: خطبة يوم عرفة، والخطبة الثانية يوم النحر في منى، والخطبة الثالثة في منى يوم الثاني عشر من ذي الحجة. ومذهب الشافعي أن الإمام يخطب يوم السابع من ذي الحجة كذلك[2]، ويعلم الإمام الناس في كل خطبة ما يحتاجون إليه إلى الخطبة لأخرى.

- تأكيد غلظ تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، والأبشار الجلدية.

- استخدام ضرب الأمثال وإلحاق النظير بالنظير؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**».

- إبطال أفعال الجاهلية، وربا الجاهلية، وأنه لا قصاص في قتلى الجاهلية.

- فقد أشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهمية قطع المسلم بعلاقته بالجاهلية، أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك ولم يكن حديثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجرد توصية بل كان قراراً أعلن عنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله والأمم التي ستأتي من بعده وهذه هي صيغة القرار: ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع، دماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع[3]، لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لاصلة لها برجس الماضي وأدرانه[4].

وقد حذر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذنوب والخطايا والآثام، ماظهر منها ومابطن، لأن الذنوب والخطايا تفعل بالفرد مالايفعله العدو بعدوه فهي سبب مصائبه في الدنيا: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠] فترديه في نار جهنم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات مالايفعله السيف، وأعلن

(١) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣١.
(٢) فتح الملك المعبود في تكملة المنهل المورود، ٢/ ٢٠.
(٣) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣١.
(٤) محمد قلعجي، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص٣٠٣.

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام ، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر ، ولكن الشيطان لاييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا والذنوب ، حتى تردى صاحبها في المهاوي[1] .

- إن الإمام ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يجب أن يبدأ بنفسه وأهله ؛ لأنه أقرب لقبول قوله ، وطيب نفس من قرب عهده بالإسلام فقد خطب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله»** [2] .

- المساواة بين البشر: فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لافضل لعربي على عجمي ، ولالعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ، الناس من آدم وآدم من تراب[3] ، حيث حدد أن أساس التفاضل لاعبرة فيه لجنس ، ولالون ، ولاوطن ، ولاقومية ، . . . وإنما أساس التفاضل قيمة خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة جداً[4] .

- الموضوع من الربا هو الزائد على رأس المال ، أما رأس المال فلصاحبه . فقد قال الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ". . . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله[5] .

- الأخوة في الله هي العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم»** . وقال: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى**

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص٣٠٣ .
(٢) صحيح السيرة النبوية ، ص٦٦١ ، مسلم كتاب الحج ، رقم ١٢١٨ .
(٣) مسند أحمد ، ٣/ ٤١١ ، إسناده صحيح .
(٤) عرجون ، الموسوعة في سماحة الإسلام ، ٢/ ٨٧٦ .
(٥) صحيح السيرة النبوية ، ص٦٦١ ، مسلم كتاب الحج ، رقم ١٢١٨ .

تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

– مراعاة حق النساء، ومعاشرتهن بالمعروف، ووجوب نفقة الزوجة وكسوتها، وجواز تأديبها إذا أتت بما يقتضي التأديب لكن بالشروط والضوابط التي جاءت بالكتاب والسنة، وأن لا يحصل منكر من أجل ذلك التأديب فقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه**[2] **فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح**[3]**، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»**[4].

– الوقوف بجانب الضعيف حتى لايكون هذا الضعف ثغرة في البناء الإجتماعي، فأوصى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء[5]، فقد شدّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في وصيته بالإحسان إلى الضعفاء[6]، وأوصى خيراً بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية[7].

– التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشياً، فإن في ذلك الصلاح والفلاح، والنجاة في الدنيا والآخرة[8]، فقد بين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنها تعتمد على السمع والطاعة مادام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولاطاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ

---

(١) مسلم، كتاب الحج، رقم ١٢١٨.
(٢) أي لا يجوز للمرأة أن تدخل أحدا إلى بيت زوجها من قريب أو بعيد أو امرأة إلا من يرضى عنه زوجها.
(٣) الضرب المبرح: الشديد الشاق.
(٤) صحيح السيرة النبوية، ص٦٦١، مسلم كتاب الحج، رقم ١٢١٨.
(٥) قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص٣٠٤.
(٦) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٧٥.
(٧) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣٢.
(٨) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص٥٧٦.

حكم الله تعالى[1].

- الوصية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2]:

فلقد أوضح الحبيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم في الرجوع إلى مصدرين لاثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما، الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون آخر، وأنه لاينبغي أن يكون لأيّ تطور حضاري أوعرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما[3].

لقد وصف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الداء والدواء ووضع العلاج لكل المشكلات بالالتزام التام بما جاء من أحكام في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي**». هذا هو العلاج الدائم وقد كرر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نداءه للبشرية عامة عبر الأزمنة، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب والسنة في حل جميع المشكلات التي تواجه البشرية، فإن الإعتصام بهما يجنب الناس من الضلال، ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل، لقد اجتازت تعاليم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن، وأسوار القرون، وظل يتردد صداها حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه فيقول لهم: «**أيها المؤمنون، أيها المسلمون أيها الحجاج بل كان يقول لهم يا أيها الناس**» وقد كرر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بزمان أو مكان أو لون، فقد بعثه الله للناس كافة وأرسله رحمة للعالمين[4].

- قوله: «**لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**» ففي ذلك لام الأمر، والمعنى خذوا مناسككم، وهكذا وقع في رواية غير

---

(١) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣٣.
(٢) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٥.
(٣) فقه السيرة للبوطي، ص٣٣٣.
(٤) أحمد محمد باشميل، الجانب السياسي في حياة الرسول، ص١٣١.

مسلم، وتقديره: هذه الأمور التي أتيت بها في حجتي من الأقوال، والأفعال، والهيئات هي أمور الحج وصفته وهي مناسككم فخذوها عني واقبلوها، واحفظوها واعملوا بها، وعلموها الناس، وهذا الحديث أصل عظيم في مناسك الحج، فهو كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1].

فقد علّم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته الكرام مناسك الحج بصورة عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «**خذوا عني مناسككم**»[2]، وعلى هذا فيستحسن من الدعاة وهم يعلمون الناس معاني الإسلام أن يعلموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشرعية، أو بعضها في الأقل بصورة عملية كالوضوء، والصلاة، وتعليم قراءة القرآن بصورة سليمة[3].

- وفي قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**» إشارة إلى توديعهم، وإعلامهم بقرب وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحثهم على الأخذ عنه، وانتهاز الفرصة وملازمته، وبهذا سميت حجة الوداع.

- الحث على تبليغ العلم ونشره، وأن الفهم ليس شرطاً في الأداء، وأنه قد يأتي في الآخر من يكون أفهم ممن تقدم ولكن بقلة، وأن الأفضل أن يكون الخطيب على مكان مرتفع؛ ليكون أبلغ في سماع الناس ورؤيتهم له، فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... **فليبلغ الشاهدُ الغائبَ**»[4] وفي هذا توجيه نبوي كريم لكي تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس؛ فهذا من باب التعاون على الخير، ولأن الغائب قد يكون أوعى للعلم وأكثر فهمًا له من الحاضر الذي سمع، وعلى الدعاة والعلماء عندما يلقون درسا أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه[5].

- الأمر بطاعة ولي الأمر مادام يقود الناس بكتاب الله تعالى، وإذا ظهرت منه بعض المعاصي والمنكرات، وُعِظَ وَذُكِّر بالله وخُوِّف به لكن بالحكمة والأسلوب الحسن.

---

(١) البخاري برقم ٧٢٤٦.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٤٩؛ مسلم، ٢/ ٩٤٢، رقم ١٢٩٧.
(٣) المستفاد من قصص القرآن، ٢/ ٥١٨.
(٤) السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٤٩؛ مسلم، ٢/ ٩٤٢، رقم ١٢٩٧.
(٥) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ٢/ ٥١٨.

- معجزة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظاهرة الدالة على صدقه، وذلك بسماع الناس لخطبته يوم النحر وهم في منازلهم[1] فقد فتح الله لأسماعهم كلهم لها.

- الأضحية سنه مؤكدة على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهي في حق الحاج وغير الحاج فلا يجزئ عنها الهدي، وإنما هي سنة مستقلة؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن خطب الناس بمنى انقلب فذبح كبشين أملحين[2] وهذا غير الهدايا التي نحرها بيده وأشرك عليّاً في الهدي وأمره بنحر الباقي من البدن[3].

- حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفع أمته، والنصح لهم في الحياة، وبعد الممات؛ ولهذا صلى على شهداء أحد بعد ثمان سنوات، وزار أهل البقيع ودعا لهم، وأوصى الأحياء ونصحهم، ووعظهم وأمرهم ونهاهم فما ترك خيراً إلا دلهم عليه، ولا شرًا إلا حذرهم منه[4].

- التحذير من فتنة زهرة الدنيا لمن فتحت عليه، فينبغي له أن يحذر سوء عاقبتها، ولا يطمئن إلى زخارفها، ولا ينافس غيره فيها، ويستخدم ما عنده منها في طاعة الله تعالى[5].

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين:

عاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بعد أن أدى حجة الوداع مع من صحبه من المسلمين ومن شهده معه من أهل الموقف، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة من السنة العاشرة، والمحرم وصفر من السنة الحادية عشرة، وضرب على الناس بعثا إلى الشام، وأمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه[6]، وأمره أن يوطيء الخيل

---

(١) البخاري، ومسلم برقم، ١٦٧٩.

(٢) انظر: فتح الباري، ٣/ ٥٧٤، ٥٧٧، وشرح النووي، ٨/ ٤٢٢ - ٤٣٤ و٩ / ٥١ - ٥٢ و١١/ ١٨٢، وفتح الملك المعبود في تكملة المنهل المورود شرح سنن أبي داود ٢/ ٢٠ و٢/ ٥٤، ٢/ ٩٩ - ٢٠٦.

(٣) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٦.

(٤) سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٧.

(٥) فتح الباري ١١/ ٢٤٥، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات، ص ٢٥.

(٦) أحمد، الفتح الرباني، ٢١/ ٢٢٠ - ٢٢٣، الواقدي، مغازي، ٣/ ١١١٧ - ١١١٨، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٢٤٨.

تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتجهز الناس [(١)]

وذكر المؤرخون أن هذه السرية أنّها كانت لتأديب القبائل وأهل القرى في تلك المنطقة الذين شاركوا في غزوة مؤتة ضدّ المسلمين، [(٢)].

وربّما يكون ذلك أحد أسباب بعث هذه السرية، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال حصرها بهذا السبب وحده، فنظر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعد من مجرّد الانتقام وإدراك التأثر، لأنّ استراتيجيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقائد للأمّة الإسلامية، وبشيراً ونذيراً للناس كافّة، كانت بعيدة المدى جداً، وقضايا التّأثر والانتقام من القضايا التي عفا عليها الزمن في الإسلام، وأصبحت من أدران الجاهلية التي قضى عليها الإسلام، وتركها المسلمون وراءهم، وإنّما كانت تلك السرية تدخل ضمن نطاق التمهيد الذي بدأه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للفتوح في الشام، فكان لا يمكن القفز من على تلك المناطق التي لم تخضع لسلطان المسلمين بعد، والتوغل في مناطق الشام الداخلية قبل تمهيد الطريق إليها[(٣)].

وقال ابن سعد: "أَمَرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالتّهيّؤ لغزو الروم، فلمّا كان من الغد دعا أُسامة بن زيد فقال: سِر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتك هذا الجيش، فَأَغِر صباحاً على أهل بُنى، وحرّق عليهم، وأسرِع السّير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخُذ معك الأدلاء، وقدم العيون والطلائع أمامك" [(٤)].

وقال الواقدي: "فلمّا أصبح يوم الخميس لليلةٍ بقيت من صفر، عقد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده لواءً ثُمّ قال: **«يا أُسامة! اغزُ باسم الله، في سبيل الله، فقاتلوا مَن كفر، اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا تمنّوا لقاء العدوّ، فإنّكم لا تدرون لعلّكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهمّ اكفناهم، واكفف بأسهم عنّا، فإن لقوكم قد أجلبوا وصيّحوا، فعليكم بالسكينة والصّمت، ولا تنازعوا ولا تفشلوا فتذهب ريحكم، وقولوا: اللهمّ نحن عبادك**

(١) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٦٠٦.

(٢) البيهقي، دلائل ٧/ ٢٠٠ – ٢٠١، ابن سعد، طبقات، ٢/ ١٩٠ – ١٩١.

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص٤٦٩.

(٤) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٩٠-١٩١، المغازي، ٣/ ١١١١– ١١٢٥. عيون الأثر ٢/ ٣٥٥ -٣٥٦، السيرة الحلبية، ٣/ ٢٢٧ – ٢٢٨.

وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنّما تغلبهم أنت، واعلموا أنّ الجنّة تحت البارقة»[(١)].

وخرج أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما: "بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي، وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأوّلين، والأنصار، إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصّدّيق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش، فتكلّم قوم، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين - فغضب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضباً شديداً - فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثُمّ قال: "قد بلغني أنّكم قلتم في أسامة" وإن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإنّ هذا لمن أحبّ الناس إليّ بعده"[(٢)].

وإنّما طعن من طعن في إمارتهما لأنّهما كانا من الموالي، وكانت العرب لا ترى تأمير الموالي وتستنكف عن اتباعهم كل الاستنكاف، فلمّا جاء الله عز وجل بالإسلام، ورفع قدْر مَن لم يكن عندهم قدر بالمسابقة، والهجرة، والعلم، والتُّقى، عرف حقّهم المحفوظون من أهل الدين، فأمّا المرتهنون بالعادة، والممتحنون بحب الرياسة من الأعراب ورؤساء القبائل، فلم يزل يختلج في صدورهم شيء من ذلك، لا سيّما أهل النفاق، فإنّهم كانوا يسارعون إلى الطعن وشدّة النكير عليه"[(٣)].

وربّما كان ذلك قصد المنافقين في الطّعن على أُسامة بن زيد، وأبيه زيد من قبل - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أمّا مَن طَعَنَ في تأميرهما من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يكن كذلك، لأنّ الإسلام قد أذهب عنهم عبية الجاهلية الأولى التي مكث النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دهراً وهو يربيهم على نفض أدرانها، والانسلاخ عن أوظارها، وإلقاء نفاياتها البغيضة بعيداً عنهم، وعن مجتمعهم الذي تأسّس بالإسلام، وبُنِي بتعاليمه، فارتفعوا بها عالياً وعن تلك الشوائب السفلى، فما كان لهم بعد ذلك

(١) المغازي، ٣/ ١١١٧ - ١١١٨.
(٢) البخاري، الصّحيح٥/ ١٤٥.
(٣) البنا، الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٢، والزرقاني، إرشاد الساري، ٦/ ١٢٧، وشرح المواهب ٣/ ١٠٩.

كله ، وبخاصّة بعد نضوج ثمر الغرس الذي غرسه فيهم المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ثلاثةٍ وعشرين عاماً مضت ، أن يتعلّقوا بشيءٍ من تلك الشوائب والأدران المنتنة من دعاوى الجاهلية ، وفخرها بالأنساب[١] .

وإنّما طَعَن مَن طَعَن منهم في تأمير أُسامة لِصِغَر سِنِّه ، فقد ورد أنّ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمله وهو ابن ثماني عشرة سنة"[٢] .

وكذلك لوجود بعض كبار الصحابة وأهل الفضل منهم تحت إمرته ، فكأنّهم رأوا أنّه كيف يتأمّر عليهم وهم أفضل سابقة ، وأكبر سنّاً ، وأقرب موقعاً من النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كأبي بكر الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وأبي عبيدة بن الجرّاح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وهنا قد يسأل سائل: إذاً لماذا أمّره النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مثل هؤلاء السابقين؟

والجواب هو حول إدراك ثأره ، ومن ذلك بيان فضله ومنقبته العظيمة بمحبة النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ، استمراراً لحبه أباه من قبل والأهمّ من ذلك كلّه ، هو أن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بَعَثَ زيداً أميراً على عِدَّة سرايا وأعظمها على جيش مؤتة ، وسار تحت رايته فيها نجباء الصحابة ، وكان خليقاً بذلك لسوابقه وفضله وقربه من النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَمّر أُسامة في مرضه على جيشٍ فيه جماعة من مشيخة الصحابة وفضلائهم ، وكأنّه رأى فيه ذلك ، سوى ما توسَّم فيه من النجابة أن يُمَهد الأرض ، وتوطئة لمن يلي الأمر بعده لئلاّ ينْزع أحد يداً من طاعة ، وليعلم كلٌّ منهم أنّ العادّة الجاهلية قد عميت مسالكها ، وخفيت معالمها"[٣] .

والذي حدث أن أُسامة بن زيد – رضي الله تعالى عنهما – عسكر بجيشه في الجرف[٤] ، الذي كان بمثابة قاعدة عسكرية للمسلمين وبخاصّة للجيوش المنطلقة

---

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص٤٧٣ .

(٢) ابن سعد ، طبقات ٤/ ٦٦ .

(٣) البنا ، الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٢ ، الزرقاني ، إرشاد ٦/ ١٢٧ ، شرح المواهب ٣/ ١٠٩ .

(٤) الجُرْف – بالضم ثُمَّ السكون – ما تجرَّفته السيول فأكلته من الأرض ، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، به كانت أموال لعمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه ، ولأهل المدينة . وقيل: سُمِّيَ الجُرْف ، لأنَّ تُبّعاً مرَّ به ، فقال: هذا جرف الأرض ، وكان يُسَمَّى: العرض ، وكان الجرف في عهد النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابة معسكر للجيوش النبوية . والجُرف اليوم من أحياء المدينة الشمالية الكبيرة ، يمتد من مزارع العيون شرقاً ، حتّى طريق المدينة تبوك غرباً .انظر: ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ١٢٨ ، السمهودي ، وفاء ، ٤/ ١١٧٥ .

إلى شمال المدينة .

وبلغ الاهتمام من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعث تلك السرية ، أنّه صار يُردد وهو في الرمق الأخير بأبي هو وأُمي صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم: «**انفذوا جيش أُسامة، انفذوا جيش أُسامة**» [(1)] .

وذلك يدل على الأهمية القصوى ، والاستراتيجية التي كان يُمَثِّلها إرسال ذلك الجيش بالنسبة للمسلمين ، وهو الأمر الذي حدا بالصّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رغم المخاطر التي كانت تُحيط بالمسلمين داخلياً وخارجياً ، أن يُسارع في بعث السرية ، ويُصرّ على ذلك رغم معارضة كبار الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - له .

وتوفي الحبيب المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقِيدُ الأُمّة الإسلامية ، بل فَقِيد العالم بأسره ، - صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ، توفي وأسامة معسكرٌ بجيشه في الجرف ، وذُهِل المسلمون في المدينة .

ورجع المسلمون الذين عسكروا بالجرف ودخلوا إلى المدينة ، ودخل بريدة ابن الحصيب بلواء أُسامة معقوداً حتّى أتى باب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغرزه عنده" [(2)] .

ولم يقدر لهذا البعث أن يخرج في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لوفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما أخر خروج الجيش إلى ما بعد بيعة الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [(3)] .

* * * * *

(1) ابن سعد ، طبقات ٤/ ٦٧ .
(2) ابن سعد ، طبقات ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، المغازي ، ٣/ ١١١١ - ١١٢٥ ، عيون الأثر ، ٢/ ٣٥٥ - ٣٥٦ ، السيرة الحلبية ، ٣/ ٢٢٧ - ٢٢٨ ، شرح المواهب ، ٣/ ١٠٨ - ١٠٩ .
(3) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري ، ٨/ ١٥٢ حديث ٤٤٦٩ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا ، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يوفِّقنا لأداء حقه ، وأنْ يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته ، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله ، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم ، ونصيحة لعباده .

وبعد:

فما أجمل العيش مع سيرة الحبيب محمد ﷺ . وما أجمل ذلك الشعور الذي يشعر به المرء ، وقد خطت يداه طرفا من سيرة أشرف الخلق أجمعين . وكتب قلمه عن خير خلق الله ﷺ ، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين .

وأود أن أذكر في ختام هذا العمل أن ما وجد القارئ الكريم فيه من صواب فهو محض فضل الله فله الحمد والمنة ، وما وجد من خطأ فإن كاتبه لم يألُ جهد الإصابة وأستغفر الله تعالى وأتوب إليه ، والله ورسوله بريئ منه ، ويأبى الله تعالى إلا أن يتفرد بالكمال كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعةِ كامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجْحَدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً ، ولكن مِن عُدَّت غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه ، فيا أخي الكريم ، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه ، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه ، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحق فاقبله ولا تلتفت إلى قائله ، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى مَن يَرُدَّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه ، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود . فقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً .

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة ، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل ، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة ، وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات " .

وقال أيضًا: " . . فإن كل طائفة معها حق وباطل ، فالواجب موافقتهم فيما

قالـوه من الحق ، ورد ما قالوه من الباطل ، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب ، ويسر عليه من الأسباب "[1] .

وعلـى المـتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق ، وغايـته النـصيحة لله ، ولكـتابه ، ولرسـوله ، ولإخوانه المسلمين ، وإن جعلَ الحقَ تـبعاً للهـوى: فَسَدَ القلـبُ والعملُ والحالُ والطريقُ . . . والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * * * *

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص٣٧٨ .

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أبو بكر محمد بن حسين الآجري:
١ - أخلاق أهل القرآن، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦ هـ.
٢ - أخلاق حملة القرآن، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة النهضة، ١٩٨٧م.
- عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، وط ثانية، ١٤٠٧ هـ.
- الأصفهاني: أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآدابه، تحقيق: أحمد محمد مرسي، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٧٢ م.
- محمد ناصر الدين الألباني:
١ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط. أولى، ١٣٩٩ هـ.
٢ - صحيح الترمذي، بيروت، ١٩٨٨ م.
٣ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٥، ١٤٠٥ هـ.
٤ - سلسلة الأحاديث الضعيفة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط. رابعة، ١٣٩٨ هـ.
٥ - صحيح الجامع الصغير وضعيفه، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م
٦ - صحيح الجامع الصغير وزياداته، دمشق، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٠ هـ.
٧ - صحيح سنن أبي داود، تحقيق زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩ هـ.
٨ - صحيح سنن ابن ماجه، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢ هـ.
٩ - صحيح سنن النسائي باختصار السند، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٠ مج، ط ١، ١٤٠٩ هـ.
- محمد بن الحسن بن زيالة: أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، المدينة المنورة، المجلس العلمي، ١٤٠١ هـ.

- الزمخشري:
١ - أساس البلاغة، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤ هـ.
٢ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، العراق، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، ١٩٨٠ م
٣ - تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف، سنة الطبع ١٩٦٧م، دار المعرفة.
- ابن عبد البر:
١ - الاستيعاب، تحقيق، علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط. أولى، ١٤١٢ هـ.
٢ - الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٦ م.
- عبد الرحمن حسن الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، بيروت، ١٩٨٠ م.
- ابن حجر العسقلاني:
١ - الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار الفكر، ٤ مج، د. ت.
٢ - تهذيب التهذيب، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٤ هـ.
٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ.
٤ - مختصر زوائد البزار.
٥ - المطالب العالية، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، (بدون مكان الطبع وبدون تاريخ).
- هشام بن محمد الكلبي: الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة، ١٩٦٥ م.
- الفاكهي: أبو عبد الله بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري):
أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكتبة ومطبعة النهضة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- عبدالكريم زيدان: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- عبدالرحمن أحمد سالم: المسلمون والروم في عصر النبوة، دار الفكر العربي، طبعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- الشاطبي: الاعتصام، تحقيق محمد حسنين مخلوف، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨ م، ٢ مج.
- محمد أبو زهرة:
١ - أصول الفقه، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت.
٢ - خاتم النبيين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بيروت، المكتبة العصرية، د. ت.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، بيروت، ١٩٨٠ م.
- محمد صالح الشبيبي: إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، تحقيق إسماعيل أحمد، وإسماعيل حافظ، مكة المكرمة، ١٤٠٠ هـ.
- ابن طولون الصالحي: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تحقيق محمود الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣ م.
- الأصفهاني: الأغاني، ط. دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق: محمد خليل هرّاس، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦ م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن الدمشق (٥٧١هـ): تاريخ دمشق، تحقيق: محيى الدين العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.
- تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجلس العلمي بدمشق ١٩٥١م، ومطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨١م، تحقيق شكري فيصل، وسكينة الشهابي.
- أبو الحسن البلاذري:
١ - فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٢ هـ.
- فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- فتوح البلدان، مطبوعات الموسوعات بمصر، ١٩٠١م.
٢ - أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف بمصر، القاهرة، د. ت.
- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، طبعة دار المعارف.
- ابن القيم:
١ - بدائع الفوائد، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.
- الفوائد، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

- الفوائد ، المكتبة القيمة ، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ .
٢ - التفسير القيم ، تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة ، مكتبة السنة المحمدية ، د . ت .
٣ - الداء والدواء ، تحقيق محمد جميل غازي ، جدة ، دار المازني ، ١٩٨٣ م .
٤ - زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٥ ، الكويت ، مكتبة المنار ، ١٤٠٧ هـ .
٥ - شفاء الغليل ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ م .
٦ - صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب ، تحقيق سليم بن عيد الهلالي ، السعودية ، الدمام ، مكتبة ابن الجوزي ، ١٩٨٩ م .
٧ - مدارج السالكين ، ط ٢ . ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨ هـ .
٨ - مفتاح دار السعادة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د . ت .
٩ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٧٩ م .
١٠ - مختصر الصواعق المرسلة على الجمهية المعطلة ، لابن القيم الجوزية ، اختصره محمد الموصلي ، مكتبة الرياض الحديثة .
- مختصر الصواعق المرسلة - اختصار محمد بن الموصلي - تحقيق الدكتور الحسن بن عبدالرحمن العلوي - مكتبة أضواء السلف - الرياض - الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ .
- الزبيري ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (٢٣٦هـ): نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .
- الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ): جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة .
- الملك المؤيد ، عماد الدين إسماعيل بن نور الدين محمَّد بن عمر ، صاحب حماه (٧٣٢هـ):
- تقويم البلدان ، طبع في باريس بدار الطباعة السلطانية ١٨٥٠م .
- الفيروزابادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، بيروت ، المكتبة العلمية ، د . ت .
- د . حسين مؤنس: دراسات في السيرة النبوية ، الزهراء للإعلام العربي ط الثانية القاهرة ١٩٨٥ .

- كامل سلامة: دولة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التكوين إلى التمكين، دار عمار، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، القاهرة، د. ت.

- السيد محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، دار الفكر، د. ت.

- الذهبي:

١ - تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام (المغازي)، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١١ هـ.

٢ - سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ت.

٣ - الكبائر، مؤسسة الريان للتوزيع والنشر، لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـ.

- الكبائر، دار الندوة الجديدة - بيروت.

- د. عبدالناصر العطار: دستور للأمة من القرآن والسنة، مؤسسة علوم القرآن، الشارقة - عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

- ابن جرير الطبري:

١ - تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، د. ت.

٢ - تفسير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، القاهرة، دار الحديث ١٤٠٧ هـ ١٢ مج وبهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري.

- البغدادي: تاريخ بغداد، الخطيب بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت. مصورة عن طبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٩ هـ.

- فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ترجمة: محمود فهمي حجازي وآخرين، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٣ م.

- جلال الدين السيوطي:

١ - تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، د. ت.

٢ - الخصائص الكبرى (وكفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)، تحقيق: محمد خليل هراس، القاهرة، المطبعة الحديثة، د. ت.

٣ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٣ هـ.
٤ - شرح سنن النسائي، القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٧ م.
٥ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ.
٦ - الإسراء والمعراج وهو (الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء)، خرّج أحاديثه أبو عبدالله القاضي، دار الحديث، القاهرة، جمادى الآخرة، ١٤٠٩هـ.
- الشامي، محمَّد بن يوسف الصالحي (٩٤٢هـ): سُبُل الهُدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق مجموعة من العلماء، طبع لجنة إحياء التراث الإسلامي في وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة ١٤٠٤هـ.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد، وعلي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٤ هـ.
- أبو البقاء الحلي: المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية.
- خليفة بن خياط العصفري:
١ - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، ١٩٧٧ م.
٢ - الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد، مطبعة العاني، د. ت.
- عثمان بن سعيد الدارمي:
١ - تاريخ الدارمي عن أبي زكريا يحيى بن معين في الجرح والتعديل، تحقيق: أحمد محمد نور يوسف، دمشق، دار المأمون للتراث، د. ت.
٢ - سنن الدارمي، تحقيق: السيد المدني، وفيصل إياد، الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية، ١٤٠٤ هـ.
- سنن الدارمي، تحقيق: فؤاد أحمد أزمرلي، وخالد السبع العلمي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ، وبيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري:
١ - التاريخ الصغير، تحقيق: محمود إبراهيم زيد، حلب، ١٩٧٧ م.
٢ - التاريخ الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
٣ - صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ.
- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٦ هـ.
- ابن الجوزي:

١ - تاريخ عمر بن الخطاب ، مطبعة التوفيق الأدبية بمصر ، د . ت .
- سيرة عمر بن عبد العزيز ، بيروت ، دار الفكر ، د . ت .
٢ - زاد المسير في علم التفسير ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط ٤ ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م .
٣ - الشفا في مواعظ الملوك ، بيروت ، دار الفكر ، د . ت .
٤ - صفوة الصفوة ، حيدر آباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٩٢ هـ .
٥ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٧ م .
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر عطا وآخرين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
٦ - تلقيح فهوم أهل الأثر ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، دون ذكر الطبعة .
- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ، القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٩٧٥ م .
- ابن أبي الدنيا: الشكر ، تحقيق يس السواس ومحمود الأرناؤوط ، بيروت ، ١٩٨٥ م .
- حسين باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة ، عمارتها ، كسوتها ، سدانتها ، المملكة العربية السعودية ، تهامة ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ .
- عمر بن شبة: تاريخ المدينة ، تحقيق فهيم شلتوت ، المملكة العربية السعودية جدة ، ١٣٩٣ هـ .
- اليعقوبي
١ - تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ .
٢ - البلدان
- محمد بن عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمد عبدالمحسن الكتبي ، تصحيح عبدالرحمن محمد عثمان .
- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي:

١ - تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار المعرفة ط ١، ١٤٠١ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، تقديم يوسف المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ط ٢، ١٤٠٧ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ط. ثانية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧ م، وط. مكتبة الرياض الحديثة، دار الفكر، ١٤٠٠ هـ.
٢ - السيرة النبوية، تحقيق محمد السعيد الخضراوي ومحيي الدين مستو، دمشق/ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ.
- الفصول في اختصار سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحقيق: محمد الخطراوي وآخرين، دمشق/ بيروت، دار القلم، ١٣٩٩ م.
٣ - شمائل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط. ثانية، بيروت، ١٩٨٧ م.
٤ - البداية والنهاية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الريان للتراث.
- أبو حيان: تفسير البحر المحيط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٠ م.
- عز الدين بن جماعة الكناني: المختصر الكبير في سيرة الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ط دار البشير، عمان، سنة ١٩٩٣ م.
- الإمام البغوي:
١ - معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، ط. ثانية، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
٢ - شرح السنة،، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠ هـ.
- تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل.
- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤ م.
- الشيخ طنطاوي جوهري: تفسير الجواهر، بيروت، دار الفكر، د. ت.
- الحسن البصري: تفسير الحسن البصري، تحقيق: محمد عبد الرحيم، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٢ م.
- النيسابوري: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مطبوع بهامش جامع البيان للطبري، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٩٨٧ م.
- عبد الرزاق بن همام الصنعاني:

١ - تفسير القرآن، تحقيق مصطفى علم محمد، الرياض، مكتبة الرشد، ١٩٨٩ م.
٢ - سبل السلام شرح بلوغ المرام، تحقيق فؤاد أحمد أزمرلي، وإبراهيم محمد الجمل، القاهرة، دار الريان للتراث، ط ٤، ١٤٠٧ هـ.
٣ - المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٣ م.
- الفخر الرازي: التفسير الكبير، بيروت، دار التراث العربي، د. ت.
- الإمام أبو الحجاج مجاهد بن بكر التابعي: تفسير مجاهد، تحقيق محمد عبد الرحمن الطاهر بن محمد السوركي، باكستان، اسلام اباد. وبيروت، المنشورات العلمية، د. ت.
- الشيخ أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٤ م.
محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- أبو زكريا يحيى بن شرف النووي:
١ - تهذيب الأسماء واللغات، بيروت، د. ت.
٢ - رياض الصالحين، تحقيق عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق، راجعه: شعيب الأرناؤوط، دار المأمون للتراث، مكتبة المنارة الزرقاء، ودار ياقوت للتراث ط ١، ١٤٠٩ هـ.
٣ - شرح النووي لصحيح مسلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٤٩ هـ.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمَّد الجزري (٦٣٠هـ):
١ - أسد الغابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، بيروت، دار الفكر، د. ت.
٢ - الكامل في التاريخ، على بن أبي الكرم ابن الأثير، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ.
٣ - جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ويوسف الشيخ، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣ هـ.
- جامع الأصول من أحاديث الرسول، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م.
- ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمَّد الجزري (٦٠٦هـ):
- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمَّد

الطناحي، طبع المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
٤ - منال الطالب، تحقيق د. محمود الطناحي، مطبعة المدني بالقاهرة نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٩م.
أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي:
١ - الجامع الصحيح، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٨ م.
- سنن الترمذي: وهو الجامع الصحيح، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، ط. ثانية، دار الفكر، ١٩٦٤ م.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) تحقيق كمال يوسف، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ هـ
٢ - مختصر الشمائل المحمدية، الترمذي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، د. ت. / الأردن، عمان، ١٩٨٥ م.
- البيهقي:
١ - الجامع لشعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، الهند، بومباي، الدار السلفية، ٨ مج، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- شعب الإيمان، تحقيق البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.
٢ - دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، القاهرة، دار الريان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ هـ.
٣ - السنن الكبرى، تحقيق: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن حزم الأندلسي
١ - جمهرة أنساب العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢ م.
٢ - جوامع السيرة، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٨٦ م.
- الإمام السندي:
١ - حاشية السندي على سنن الترمذي، (الجامع الصحيح) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، دار البشائر، ٤ مج، ١ مج فهارس.
٢ - حاشية السندي علي صحيح البخاري، القاهرة، دار التراث العربي، د. ت.
- أبو نعيم الأصفهاني:
١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة دار الرياض، ط ٥، ١٤٠٧ هـ،

وبيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧ هـ .
٢ – دلائل النبوة ، تحقيق محمد رواس قلعجي ، وعبد البر عباس ، ط ٢ ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م .
– الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي: حياة الصحابة ، تحقيق: الشيخ نايف العباس ، ود . محمد علي دولة ، دار العلم ، دمشق ، ١٩٨٥ م .
– محمد حسين هيكل: حياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٨ م .
– عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ، تحقيق: عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٩ م .
– عون الشريف قاسم: دبلوماسية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٧ م .
– ابن علان الأشعرى ، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ، دار الحديث ط١ ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
– محمد بن علان الأشعري ، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة .
– محمد رواس قلعه جي: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال سيرته الشريفة ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م .
– عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط . سادسة ، ١٤٠٢ هـ .
– محمد بن علان الصديقي: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، القاهرة ، دار الريان ، ٤ مج ، ١٤٠٧ هـ .
– محمد سليمان المنصور فوري: رحمة للعالمين ، ط . الهند ، بكديودلي ، د . ت .
– صفي الرحمن المباركافوري: الرحيق المختوم ، المنصورة ، دار الوفاء ، ١٩٨٧ م .
– محمود شكري الآلوسي:
١ – المعاني ، ط ٤ ، بيروت ، دار إصدار التراث ، ١٩٨٥ م .
– تفسير الآلوسي ، المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للآلوسي إدارة الطباعة المصطفائية بالهند ، بدون ذكر سنة الطبع .

٢ - بلـوغ الأرب في معـرفة أحـوال العرب ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية .

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي .

- أبـو عـبد الـرحمن الـسهيلي: الـروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، مصر ، المطبعة الجمالية ، ١٩١٤ م/ بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨ م .

- مـصطفى الـزرقا: عظمـة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم رسل الله ، دار القلم ، دمشق ط١ ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م .

- عبد الرحمن بن ناصر السعدي:

١ - الـرياض الناضـرة والحدائـق الـنيرة الزاهـرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة ، منشورات المؤسسة السعدية ، الرياض ، د . ت .

٢ - تفـسير الـسعدي المـسمى تيـسير الكـريم الـرحمن في تفـسير كلام المنان المؤسسة السعدية بالرياض ، ١٩٧٧م .

- أحمـد بن حجر الهيثمي: زوائد ابن حبان ، تحقيق: محمد عبد الرازق حمزة ، ط . دار الكتب العلمي ، بيروت ، د . ت .

- الطرطوشـي: سـراج الملـوك ، تحقـيق محمد فتحي أبو بكر ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٤ م .

- أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه:

١ - سـنن ابـن ماجـه ، تحقـيق محمـد فـؤاد عـبد الباقي ، بيروت ، دار إحياء التراث ، ١٣٩٥ هـ ، وطبعة دار الفكر ، د . ت .

٢ - مـسند ابـن ماجـه ، تحقـيق: عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨١ م .

- أبـو داود سـليمان بـن الأشعث: سنن أبي داود ، نشر وتوزيع محمد علي السيد سوريا ، حمص ، ١٣٨٨ هـ .

- سـنن أبـي داود ، مـراجعة وضبط وتحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار الفكر ، د . ت .

- الدارقطني: سنن الدارقطني ، بيروت ، عالم الكتب ، د . ت .

- أحمد بن شعيب النسائي: سنن النسائي ، ، بيروت ، دار الفكر ، والقاهرة ، دار الحديث ، ١٩٨٧ م .

- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، اعتناء وترقيم: عبد الفتاح أبو غده، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، دار البشائر، ١٤٠٦ هـ.

- ابن إسحاق، السيرة، تحقيق: محمد حميد الله، المغرب، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ١٣٩٦ هـ.

- ابن هشام: سيرة ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة، د. ت.

- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفي السقا وآخرون، بيروت، دار القلم، د. ت، الرياض، دار طيبة، ومكة المكرمة، دار الخير، بيروت/ دمشق، ١٤١٢ هـ.

- محمد عزت دروزه: سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ط. ثانية، بيروت، ١٩٦٥ م.

- مهدي رزق الله أحمد، الرياض: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢ هـ.

- أكرم العمري:

١ - السيرة النبوية الصحيحة، الطبعة الاولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م مكتبة المعارف والحكم بالمدينة المنورة.

٢ - المجتمع المدني

- محمد بن محمد أبو شهبة: - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، القاهرة، دار الباعة المحمدية، ١٩٧٠ م.

- محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

- أبو الحسين أحمد بن فارس:

١ - سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المختصرة، تحقيق محمد كمال عز الدين، بيروت، ١٩٨٩ م.

٢ - معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٩ م.

- محمد أبو فارس:

١ - السيرة النبوية، دراسة وتحليل، دار الفرقان الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، عمان.

٢ - الصراع مع الصليبيين، دار البشير، طنطا، طبعة عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣ - الصراع مع اليهود، دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٤ - غزوة أحد، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار الفرقان، عمان - الأردن.
٥ - في ظلال السيرة النبوية، الهجرة النبوية، دار الفرقان، عمان - الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٦ - غزوة بدر الكبرى، دار الفرقان، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، حققه: جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط ٧، ١٤٠٣ هـ.
- العقيدة الطحاوية، تعليق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطائف، د. ت.
- محمد بن يوسف بن عبد الباقي الزرقاني:
١ - شرح المواهب اللدنية، ط. مصر، د. ت.
٢ - شرح موطأ مالك، القاهرة، مكتبة الحلبي، ١٩٦١ م.
- القسطلاني:
١ - شرح المواهب اللدنية، ط. ثانية، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٣ هـ.
٢ - إرشاد الساري، لشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٣٠٤ه.
- البغدادي: شرف أصحاب الحديث، تحقيق: محمد سعيد أوغلي، دار إحياء السنة النبوية، د. ت.
- القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤ هـ. مصورة عن طبعة الحلبي في القاهرة، ١٩٧٧ م.
- القاضي أبو الفضل عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق العلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى، طبعة دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م
- ابن تيمية:
١ - الصارم المسلول على شاتم الرسول، طبعة الحرس الوطني السعودي، إشراف الإدارة العامة للشئون الدينية، د. ت.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، الناشر: زكريا علي يوسف، مطابع العاصمة بالقاهرة.

٢ – العقيدة الواسطية ، شرح الشيخ صالح الفوزان ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ٥ ، ١٤١١ هـ .
٣ – الفتاوى ، مجموع الفتاوى ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، د . ت .
٤ – مجموعة الرسائل الكبرى ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ، ١٣٢٣ هـ .
٥ – مكارم الأخلاق ، إعداد عبد الله بدران ، ومحمد عمر الحاجي ، مكة المكرمة ، ١٤١٤ هـ .
٦ – السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، بيروت ، دار الاعتصام ، ١٩٦٩ م .

– ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) (٢٥٧هـ):
– فتوح مصر وأخبارها ، بغداد ، مكتبة المثنى (مصورة عن طبعة ليدن ، ١٩٢٠ م) .
– فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمَّد صبيح ، مكتبة ابن تيمية ، بدون تاريخ .
– أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ .
– مرداد ، محمَّد بن عبد الحميد: مدائن صالح تلك الأعجوبة ، مطابع الروضة ، جدة ، السعودية ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .
– أبو حاتم البستي:
١ – صحيح ابن حبان ، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان ، المدينة المنورة ، ١٩٧٠ م .
٢ – السيرة النبوية ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .
– ابن خزيمة السلمي: صحيح ابن خزيمة ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي ، الرياض ، شركة الطباعة العربية السعودية ، د . ت .
– صحيح ابن خزيمة ، تحقيق: محمد الأعظمي ط ١ ، المكتب الإسلامي ببيروت ، ١٤٠٠ هـ .
– محمد رزق ، صحيح السيرة النبوية ، دار ابن تيمية ، ١٤١٠ هـ .
– إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية ، دار النفائس ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ – ١٩٩٨م .

- عبدالحميد البلالي: وقفات تربوية من السيرة النبوية ، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، المنار ، الكويت .
- محمد سعيد القحطان: الولاء والبراء في الإسلام ، دار طيبة الرياض ، الطبعة السادسة ١٤١٣هـ .
- صحيح مسلم بشرح النووي ، القاهرة ، دار الريان للتراث ، ١٤٠٧ هـ ، وبيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٣٤٩ هـ .
- صحيح مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د . ت .
- إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي ، طبقات الشافعية ، بغداد ، المكتبة العربية ، ١٣٥٦ هـ .
- محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٠ هـ .
- الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٥٧ م .
- ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد ، تحقيق ، أحمد أمين وآخرين ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٣٨١ هـ .
- العقد الفريد ، تقديم عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د . ت .
- الطحاوي: عقيدة أهل السنة والجماعة ، تحقيق: محمد بن مانع ، القاهرة ، د . ت .
- محمد بن إبراهيم الحمد: عقيدة أهل السنة والجماعة ، تقديم الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الرياض ، دار الوطن ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ .
- القاضي أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم ، تحقيق ، محيي الدين الخطيب ، بيروت ، المكتبة العلمية ، ١٩٨٥ م .
- أبو الطيب العظيم آبادي: عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ط ٢ ، ١٣٨٨ هـ .
- محمد بن محمد بن سيد الناس: عيون الأثر ، في فنون المغازي والشمائل والسير ، تحقيق محمد الخطراوي ، ومحيي الدين نتو ، المدينة المنورة/ بيروت ، دار ابن كثير ، ١٤١٣ هـ .
- ابن قتيبة الدينوري:
١ - عيون الأخبار ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د . ت .

٢ - الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط القاهرة، (د. ت)
٣ - المعارف، تحقيق: محمد إسماعيل، وعبد الله الصاوي، باكستان، آرام باغ كرامي، ١٩٧٦ م.
- الشهرستاني، الملل والنحل، جـ٢، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط بيروت، ١٩٨٠م.
- أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن، غاية السول في خصائص الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحقيق عبد الله بحر الدين بن عبد الله، بيروت، دار البشائر، ١٤١٤ هـ.
- أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، القاهرة، د. ت.
- الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، ط. خامسة، دمشق، دار القلم، ١٤١٤ هـ.
- الفيروزابادي: القاموس المحيط، بيروت، دار الجيل، د. ت.
- أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأمثال، تحقيق عبد المجيد قطامش، بيروت، ١٩٨٠ م، (منشورات جامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية).
- ابن أبو زيد القيرواني: كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، تحقيق محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ، بيروت، مؤسسة الرسالة، تونس المكتبة العتيقة، ط ٣، ١٤٠٦ هـ.
- علي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٧ مج، ط ٥، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.
- ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٥٦ م.
- لسان العرب، أعاد ترتيبه: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد، وهاشم الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١ م، بيروت، دار صادر، د. ت.
- حسن خالد: مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.
- محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٣ هـ.
- الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسين آل ياسين، ١٩٩٤ م.

- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، مراجعة لجنة مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٠٧ م.
- مختار الصحاح، دراسة وتقديم: عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، القاهرة، دار المنار، ١٩٩٣ م.
- مختار الصحاح، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٤٠٦ هـ.
- محمد علي الصابوني:
١ - مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، ١٩٩١ م.
٢ - مختصر تفسير الطبري، بيروت، دار القرآن الكريم، د. ت.
- المنذري:
١ - مختصر سنن أبي داود، وعليه معالم السنن للخطابي، وتهذيب السنن لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، ١٣٦٧ هـ.
٢ - مختصر صحيح مسلم، تحقيق: محمد نصار الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بيروت، دار القلم، ١٤٠٣ هـ.
- محمد بن عبد الوهاب، مختصر السيرة، تحقيق عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب، نشر مطابع الرياض، الرياض.
- عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، مختصر سيرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نشر دار الفيحاء دمشق - دار السلام الرياض، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
المسعودي: مروج الذهب، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٦٤ م.
- أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي: شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهدي النجار، ط. ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ.
- عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية، المسمى التراتيب الإدارية، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.
- نظام الحكومة النبوية المسمي التراتيب الإدارية، دار الأرقم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.

- الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ، الهند ، حيدرآباد الدكن ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت .

- المستدرك على الصحيحين ، وبذيله التلخيص للذهبي ، طبعة فريدة بفهرس الأحاديث بإشراف يوسف عبد الرحمن ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت .

- منصور الحرابي: الدولة العربية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا .

- الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٨ م ، وبيروت دار الفكر .

- الطيالسي: مسند أبي داود ، دار الكتاب اللبناني ، ودار التوفيق ، ١٣٢١ هـ .

- أبو يعلى الموصلي: مسند أبي يعلى ، تحقيق: حسين سليم أسد ، ط . ثانية ، دمشق ، ١٤١٠ هـ .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، رقم أحاديثه: محمد عبد السلام عبد الشافي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، شرحه وصنع فهارسه ، أحمد محمد شاكر ١٠ مج ، (غير مكتمل) .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ ، (ست مجلدات) .

- الإمام أحمد بن حنبل: المسند ، بمقدمته فهرس رواة المسند من الصحابة وضعه: محمد ناصر الدين الألباني ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة .

- حافظ ابن حجر عمر البزار: مسند البزار ، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله ، ط . مؤسسة علوم القرآن ، بيروت .

- مسند الشافعي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د . ت .

- ابن أبي شيبة: المصنف في الأحاديث والآثار ، تحقيق: مختار أحمد الندوي ، ط ١ ، الهند ، ١٤٠٣ هـ .

- المصنف في الأحاديث والآثار ، تحقيق: كمال يوسف الحوت ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٣ م .

- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، بيروت ، دار التراث العربي/ تركيا ، المكتبة الإسلامية ، ١٩٨٢ م .

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف ، ط .

أولى، القاهرة، دار الحديث، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط ٢.، لبنان، بيروت، دار الأمواج، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.
- الطبراني:
١ - المعجم الوسيط (المعجم الأوسط للطبراني).
٢ - مكارم الأخلاق، تحقيق: فاروق حمادة، ط. ثالثة، الدار البيضاء، دار الثقافة، د. ت.
- محمد بن عمر الواقدي: المغازي، ط ٣.، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٤ هـ.
- عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، المدينة المنورة، مكتبة دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤ م.
- يحيى المعلمي: مكارم الأخلاق في القرآن الكريم، القاهرة، دار الاعتصام، د. ت.
- الخرائطي: مكارم الأخلاق ومعاليها، تحقيق: سعاد سليمان الخندقاوي، مصر، مطبعة المدني، ١٩٩١ م.
- د. وهبة الزحيلي: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- أحمد بن علي المقريزي: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، صححه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٤١م.
- المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسى، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٢٠/ ١٩٩٩، بيروت.
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول للواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- د. محمد السيد الوكيل: تأملات في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار المجتمع، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- د. عبدالعزيز الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الاولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- د. علي معطي: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد

الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، اسـتراتيجية الرسـول السياسية والعـسكرية ، مؤسـسة المعارف بيروت ، الطبعة الاولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

- منير محمد الغضبان:

١ - الـتحالف السياسي في الإسلام ، دار السلام ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٢ - عندما يحكم الإسلام . . وعندما تحكم الجاهلية ، مجلة البيان ، العدد ٥٨

٣ - التربية القيادية ، دار الوفاء المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٤ - فقـه الـسيرة النـبوية ، مطـبوعات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أُمّ القرى ، مكّة المكرَّمة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

٥ - المـنهج التربـوي للـسيرة النـبوية التربـية الجهاديـة ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٦ - المـنهج الحركـي للـسيرة النـبوية ، مكتـبة المـنار الأردن الطـبعة الثالـثة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

- محـمـد سـعيد رمـضان البوطـي: فقـه الـسيرة ، الطبعة الحادية عشرة ، دار الفكر ، دمشق - سوريا ، ١٩٩١م .

- جمـال الـدين أبـو الحجـاج يوسـف بـن الزكـي عبدالـرحمن المـزي: تحفـة الأشراف ، الدار القيمة ١٣٨٤٠هـ .

- قاضـي القـضاة أبـي الـسعود محمد العمادي الحنفي: تفسير أبي السعود ، المـسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا - الناشر - مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض - مطبعة السعادة - القاهرة .

- وهـبة الزحيلـي: التفـسير المـنير ، د . دار الفكـر المعاصـر ، بـيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م . الطبعة الأولى .

- الإمـام عـبدالله أحمـد بـن محمـد النـسفي المتوفي سنة ٧١٠هـ: تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل - . الناشر ، دار الكتاب العربي - بيروت .

- ديـوان زهـير بن أبي سلمى ، تحقيق: كرم البستاني ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ م .

- أبـو العـباس ثعلـب: شـرح ديـوان زهـير بن أبي سلمى ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٤ هـ .

- محـمـد الـسيد حـمـد يوسـف: الـتمكين للأمـة الإسـلامية في ضـوء القـرآن

الكريم، دار السلام، مصر، الطبعة الاولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- صالح أحمد العلي: تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر، بغداد - ١٩٦٩م.
- عبدالوهاب كحيل: الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول ﷺ في مكة، عالم الكتب بيروت، الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الشيخ محمد أبي زهرة: خاتم النبيين ﷺ: الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، دار الفكر بيروت.
- عماد الدين خليل: دراسات في السيرة النبوية، الطبعة الحادي عشر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار النفائس بيروت.
- د. عبدالرحمن الشجاع: دراسات في عهد النبوة، دار الفكر المعاصر - صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- محمد قطب:
١ - دراسات قرآنية، دار الشروق، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢ - منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- محمود شيت خطاب:
١ - دروس في الكتمان، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة العاشرة، ١٩٨٨م.
٢ - سفراء الرسول، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- سفراء النبي ﷺ، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٣ - غزوة بدر الكبرى الحاسمة.
٤ - الرسول القائد ﷺ، محمد شيت خطاب، بيروت، دار الفكر، ١٩٧١ م.
٥ - القادة الشهداء في مؤتة، دار قتيبة للطباعة والنشر، الطبعةالأولى١٤١١هـ.
٦ - محمود شيت خطّاب، وعبد اللطيف زايد: دروس عسكرية من السيرة النبوية، الناشر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- د. عبدالناصر العطار: دستور للأمة من القرآن والسنة، مؤسسة علوم القرآن، الشارقة - عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

- د. علي جريشة: دعوة الله بين التكوين والتمكين، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري

١ - غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

٢ - السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى - جمادى الأول - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

- محمد العقيلي: السفارات النبوية، دار إحياء العلوم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- محمد عزة دروزة: سيرة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صور مقتبسة من القرآن الكريم - عني بها الأستاذ عبدالله إبراهيم الأنصاري، طبعه على نفقته خليفة حمد آل ثاني - حاكم قطر، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية ١٤٠٠هـ - الدوحة.

- أبو الحسن الندوي:

١ - السيرة النبوية، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة.

٢ - ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين، الطبعة السابعة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار المعارف.

- مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.

- محمد الصّوياني: السيرة النبوية، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- عبدالحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- محمد بن علي الصبان المصري ت سنة ١٢٠٦هـ: حاشية الصبان - ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر.

- محمد علي كابتي: الصحابي الشاعر عبدالله بن الزبعري، دار القلم،

دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- محمد أحمد باشميل
١ - صلح الحديبية، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م - ١٣٩٣هـ.
٢ - غزوة الأحزاب، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
٣ - غزوة بدر الكبرى، طبع دار الفكر، الطبعة السادسة، سنة ١٣٩٤هـ.
٤ - غزوة تبوك، دار الفكر، بيروت.
- أمين دويدار: صور من حياة الرسول، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، لاتاريخ.
- محمد فوزي فيض الله: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، تأليف: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- سلمان العودة: الغرباء الأولون، الطبعة الثالثة، عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، دار ابن الجوزي، الدمام السعودية.
- محمد عيظة بن سعيد من مذجح: غزوة أحد دراسة دعوية، دار أشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- علي محمد الصّلابي:
١ - السيرة النبوية (عرض وقائع وتحليل أحداث) دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م
٢ - فقه التمكين في القرآن الكريم، دار البيارق، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- محمد عبد الرؤوف المناوي: فيض القدير، شرح الجامع الصغير، القاهرة، ١٩٣٨م.
- محمد قلعجي: قراءة سياسية للسيرة النبوية، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، بيروت، لبنان.
- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، دار النفائس، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- سليمان السّوَيكت، محنة المسلمين في العهد المكي، مكتبة التوبة الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- خالد أبو صالح: مرض النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ووفاته وأثره على الأمة دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

- حسين أحمد الباكري: مرويات غزوة أحد، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية، إشراف د. أكرم العمري - عام ١٣٩٩م - ١٤٠٠هـ.
- حافظ الحكمي: مرويات غزوة الحديبية، دار ابن القيم، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- أحمد باوزير: مرويات غزوة بدر، مكتبة طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- إبراهيم القريبي: مرويات غزوة بني المصطلق طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى عام١٤٠٢هـ.
- عدنان النحوي: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، الطبعة الثانية.
- محمد مسعد ياقوت:
١ - الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية
٢ - نبي الرحمة
- صالح أحمد الشامي:
١ - من معين السيرة، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٢ - السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، المكتب الإسلامي، الطبعة الاولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- سليم حجازي: منهج الأعلام الإسلامي في صلح الحديبية، دار المنارة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- عبدالرحمن البر: الهجرة النبوية المباركة، دار الكلمة، المنصورة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- أحزمي سامعون جزولي: الهجرة في القرآن الكريم، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الاولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- أبو بكر الجزائري: هذا الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ياحب، مكتبة لينة.
- سيد قطب:
١ - هذا الدين، دار الشروق، القاهرة - مصر، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٢ - في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- أبو الحسن بن عبدالله السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، دار

المصطفى، طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.

- حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة، سنة ١٩٤٦م.

- الحسن بن أحمد الهمداني ت عام ٣٣٤هـ: صفة جزيرة العرب - دار اليمامة ١٣٩٤هـ. الرياض.

- صفة جزيرة العرب: تصحيح محمد عبد الله النجدي، مطبعة السعادة، سنة ١٩٥٣م.

- د. عبد المهدى عبد القادر: السنة النبوية. مكانتها. عوامل بقائها. تدوينها.

- محمد أسد (ليوبولدفايس): الإسلام على مفترق الطرق ترجمة الدكتور عمر فروخ.

- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دار الفكر العربي.

- البكري: "أبو عبد الله بن عبد العزيز بن أبي مصعب"، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٥٤م.

- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، طبعة المجمع العلمي العراقي، د. ت.

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٦م، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد.

- ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (٦٢٦هـ):

- معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩هـ.

- معجم البلدان، نشر: دار الفكر - بيروت.

- جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، مطبعة الأنجلو بمصر.

- حتى: "فيليب خوري"، تاريخ العرب، ترجمة محمد مبروك نافع، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٥٠م.

- محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، الطبعة الثانية، القاهرة، سنة ١٣٢٩هـ.

- الإصطخري: المسالك والممالك،، ط ليدن، ١٣٠٩ هـ

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ):

١ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاد، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ، تحقيق: إبراهيم الإبياري، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٣٨٣ هـ.

٣ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. الثانية سنة ١٤٠٠هـ.

- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.

- الحِميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، المحقق: إحسان عباس، نشر مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت -، الطبعة الثانية - ١٩٨٠ م.

- محمد الخضري، تاريخ الدولة العربية، ط دار المعرفة.

- محمد الطيب النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، نشر: دار الندوة الجديدة بيروت - لبنان

- مكاريوس، تاريخ إيران.

- كرايستنسن: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، ط القاهرة، ١٩٧٥م

- ابن البلخي: فارس نامه، ترجمة يوسف الهادي، ط القاهرة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

- دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد المنعم محمد حسين، ط القاهرة وبيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥.

- عبد الله سلوم السامرائي: الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية، (د. ب. ن)

- إدوارد بروي، تاريخ الحضارات العام، تعريب يوسف أسعد داغر - فريد داغر، ط بيروت وباريس، ١٩٩٤.

- محمد العربي، موسوعة الأديان، جـ٢، ط بيروت، ١٩٩٥ م.

- علي أصغر حكمت، تاريخ أديان، ط تهران، ١٣٤٥ هـ. ش.

- محمد جواد مشكور، دينكرد، ط تهران، ١٣٢٥.

- الشيخ بكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ.

- ابن النديم (ت ٣٨٣هـ / ٩٩٣م): - الفهرست، ط بيروت، (د. ت)

- كارنامه برزكان إيران، نشريه كل انتشارات، تقديم مهدي بياني ونصرت

الله معينيات ، تهران ، ١٣٤٠هـ .
– عبد الله رازي: – تاريخ كامل إيران آزتا تأسيس سلسلة ماد تا عصر حاضر ، جاب جهارم ، ١٣٤٧ هـ . ش
– د . أحمد الحفناوي: – حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام ، ط المنصورة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م
– إحسان يار شاطر: كيش مزدكي ، مجلة إيران نامه ، سال دوم شماره ١ ، بائيز ، ٣٦٢ ، ١٩٨٣م . الثعالبي ، تاريخ غرر السير .
– حامد غنيم أبو سعيد: انتشار الإسلام حول بحر قزوين ، ط القاهرة ، ١٩٧٤ .
– فايز نجيب: الفتح الإسلامي لبلاد الكرج ، ط الإسكندرية ، ١٩٨٨م
زكية محمد رشدي ، السريانية وعلاقاتها بالعربية ، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد الثالث ، ديسمبر ١٩٨٥ م .
– فلهوزن: الدولة العربية من ظهور الإسلام إلي نهاية الدولة الأموية ، نقلها عن الألمانية / محمد عبد الهادي أبو ريده ، ط القاهرة ، ١٩٥٨ م
– الميدانى: مجمع الأمثال ، طبعة بيروت ، ١٩٢٧م .
– الزبير بن بكار ، أيام العرب ، القاهرة ، ١٩٣٢م .
– شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٦٠م
– أبو تمام: "حبيب بن أوس الطائي" ، ديوان الحماسة ، المكتبة الأزهرية ، ١٩٢٧م
– الفيومي: المصباح المنير ، ط بيروت ، (د . ت)
كارل بروكلمان:
١ – تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي ، ط بيروت ، ١٩٤٨م .
٢ – تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف .
– ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية .
– اليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم .
– أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق: د . محمد كمال الدين عز الدين علي ، عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ

- علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٠
- يحيى بن إبراهيم اليحيى: نفحة عبير من سيرة البشير النذير
- توفيق محمد سبع: أضواء على الهجرة ، مطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٣م .
- محمد بن إدريس الشافعي: الأم ، تحقيق: محمد زهدي النجار ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٩٣ هـ .
- أبو علي القالي: الأمالي ، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨١ م .
- محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ، تحقيق محمد غسان نصوح عزقول ، دار الحاوي ، ١٩٩٨م
- محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي: الأنوار في شمائل النبي المختار ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي ، دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
- سعيد حوي: الأساس في السنّة وفقهها ، - العقائد الإسلامية - دار السلام - مصر - ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
- أمين دويدار: صور من حياة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة .
- فايد حمّاد عاشور/ سليمان أبو عزب: تاريخ دولة الإسلام الأولى ، دار قطري بن الفجاءة ، الدوحة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- محمد فريد وجدى: من معالم الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٠
- د . محمد خير هيكل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، دار البيارق ، عمان - بيروت .
- د . عون الشريف قاسم: نشأة الدولة الإسلامية ، دار الكتب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- ظافر القاسمي: نظام الحكم ، في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، دار النفائس ، الطبعة السادسة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
- محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي ، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان ، الناشر: دار

الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
- مصطفى الطحان: أمهات المؤمنين في مدرسة النبوة
- عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة:
- ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م
- الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ): مع المصطفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. ثالثة، ١٩٨٣ م.
- أبو زيد، شلبي: سيف الله خالد بن الوليد، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعةالثالثة١٣٧١هـ.
- با وزير، أحمد محمَّد العليمي: مرويات غزوة بدر، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الطبعةالأولى١٤٠٠هـ.
- البلادي، عاتق بن غيث:
١ - رحلات في بلاد العرب، في شمال الحجاز والأردن، دار مكَّة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٢ - معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكَّة للنشر والتوزيع مكَّة المكرَّمة، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
٣ - معالم مكة التاريخية والأثرية - دار مكة للنشر والتوزيع، ط. الأولى سنة ١٤٠٠هـ.
- الجنرال. أ. أكرم: خالد بن الوليد، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ.
- أبو زيد، شلبي: سيف الله خالد بن الوليد، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعةالثالثة١٣٧١هـ.
- عوض بن أحمد بن سلطان: مرويات غزوة خيبر، رسالة ماجستير من قسم السنَّة، كلية الحديث، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، مطبوعة على الآلة الكاتبة.
- عبد القادر حبيب الله السندي: مرويات غزوة تبوك، رسالة ما جستير من

قسم السنة في كلية الحديث، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، مطبوعة على الآلة الكاتبة.
- محمَّد سيد عطية طنطاوي: السرايا الحربية في العهد النبوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- الحربي: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم (١٩٨ - ٢٨٥هـ): المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ.
- محمَّد حسين هيكل: حياة محمَّد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة.
- ياسين سويد: معارك خالد بن الوليد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ.
- أسعد الحسيني: عمدة الأخبار في مدينة المختار.
- الهيثمي، كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.
- د. أنس أحمد كرزون: منهج الإسلام في تزكية النفس، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- أحمد راتب عرموش: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م.
- أبو يوسف محمد زايد: مناورات الأشقياء لقتل خاتم الأنبياء.
- عمر رضا كحاله: معجم قبائل العرب، مؤسسة الرسالة ط. الثانية ١٣٩٨هـ بيروت.
- عروة بن الزبير: مغازي رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تحقيق: د. محمد الأعظمي، نشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- محمد فرج: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة الطبعة الثالثة، سنة ١٩٧٧م.
- الديار بكري، حسين بن محمَّد بن الحسن: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت.
- د. مصطفى مسلم محمد: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، دار المسلم،

الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ط. المكتبة الإسلامية.

- د. عبدالله محمد الرشيد: القيادة العسكرية في عهد الرسول، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- د. عبدالله الشنقيطي: علاج القرآن الكريم للجريمة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- الإمام الزهري: المغازي النبوية، مرويات الزهري من طريق معمر، مقتطفة من المصنف. أخرجها سهيل زكار، دار الفكر ١٤٠١ هـ.

- د. سعيد عبدالله حارب المهيري: العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

- سعيد بن علي بن وهف القحطاني، وداع الرسول لأمته دروس، وصايا، وعبر، وعظات.

- الكندي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧هـ): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمَّد صبيح، مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.

- ابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله المروزي (١٨١هـ): - كتاب الجهاد، دار النور، بيروت ١٩٧٩م.

- الماوردي، أعلام النبوة، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م،

- عبد الله بن محمد ابن خميس: - المجاز بين اليمامة والحجاز - منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض.

* * * * *

الفهرس

* * * * *